

التفسير الكبير

مجلد دوم

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم



التفسير الكاشف

مَجْلَدُ الْجَوَابِ مَغْنَمَاتُهَا

النَّفْسِ الْكَاشِفُ

المجلد السابع

مِنْ سُورَةِ الدُّخَانِ
إِلَى آخِرِ سُورَةِ النَّاسِ

شبكة كتب الشيعة

مَوْجُودٌ فِيهَا

أَكْثَرُ الْكُتُبِ الْإِسْلَامِيَّةِ



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net



جميع حقوق الطبع محفوظة و مسجلة للناسر

الكتاب : التفسیر الکاشف (ج ٧)

المؤلف : العلامة محمد جواد مغنیه (ره)

الناشر : مؤسسة دار الكتاب الاسلامي

الطبعة : الرابعة ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

المطبعة : مطبعة سنا

عدد النسخ : (٢٠٠٠) دوره

الترقيم الدولي للمجموعة : ٩- ٠٨٥ - ٤٦٥ - ٩٦٤ - ٩٧٨

الترقيم الدولي (ج٧) : X - ٠٩٣ - ٤٦٥ - ٩٦٤ - ٩٧٨

قم- ميدان معلم- شارع سمیه ٢٢ - رقم ٢٦

تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ - ٧٧٣٠٩٩٤

فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

سُورَةُ الدُّخَانِ

٥٩ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أنزلناه في ليلة مباركة الآية ١ - ٩ :

حَمَّ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ *
فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً
مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ
الْأَوَّلِينَ * بَلْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ *

اللغة :

الليلة المباركة هي ليلة القدر . ويُفْرَقُ يبين . وحكيم محكم .

الإعراب :

والكتاب المبين الواو للقسم ، وجملة إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ جواب القسم ، وقال صاحب

جميع البيان : لا يجوز ذلك لأنك لا تقسم بالشيء على نفسه .. ويرده ان القسم وقع على وقت نزوله لا عليه بالذات . وأمرأ نصب على الاختصاص أي أعني بهذا الأمر أمرأ حاصلأ من عندنا . ورحمة مفعول من أجله لمرسلين أو لأنزلناه . وربكم أي هو ربكم .
المعنى :

(حم) تقدم الكلام في مثله بأول سورة البقرة (والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة) هي مباركة لنزول القرآن فيها ، وإذا عطفنا على هذه الآية قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » وقوله : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن - ١٨٥ البقرة » ج ١ ص ٢٨٤ إذا فعلنا ذلك تبين معنا ان هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر وانها احدى ليالي شهر رمضان المبارك ، وذكرنا في المجلد الأول ص ٢٨٥ ان بدء نزول القرآن كان في ليلة القدر ، لا ، انه أنزل كاملاً فيها ، فراجع . (انا كنا منترين) بالعذاب الأليم من عصي وأفسد في الأرض ، وقد جاء هذا الانذار في القرآن الكريم الذي أنزل على قلب محمد (ص) . (فيها يفرق كل أمر حكيم أمرأ من عندنا) . يفرق بين ، وضيم فيها يعود الى الليلة المباركة ، وحكيم محكم . واختلف المفسرون في المعنى المراد من الأمر الحكيم ، فذهب أكثرهم الى أن الله سبحانه يقسم الأرزاق والآجال في هذه الليلة بين عباده ، وأيضاً يفرق الكثير من الخطايا عن يشاء .

وقال آخرون : ان المراد بالأمر الحكيم هو ما جاء في القرآن من نبيان كل شيء من أمور الدين .. وقال سبحانه فيها ، ولم يقل فيه أي في القرآن لأنه أنزل في ليلة القدر ، أما قوله تعالى في سورة القدر : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » فعناه ان أول عهد النبي (ص) بشهود الملائكة كان في تلك الليلة ، وبآتي البيان ان شاء الله .

(إنا كنا مرسلين رحمة من ربك) أي ان الله سبحانه أرسل محمداً رحمة للعالمين كما في الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » . (انه هو السميع العليم) يسمع الأقوال ، ويعلم النوايا (رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين) . ان العاقل إذا نظر الى الكون بتجرد وإمعان يشهد شهادة إخلاص وإيقان بأن الله هو مالك الكون بما

فيه ، وانه (لا إله إلا هو يحيي ويميت) . ولا أحد يهب الحياة إلا هو ، وإذا جاء الأجل فلا يبعده شيء . وأيضاً لا يقربه شيء (ربكم ورب آبائكم الأولين) فكيف تعبدون الأوثان وتطيعون الشيطان من دون الله ؟ (بل هم في شك يلعبون) . شكوا في البعث ونبوة محمد (ص) مع قيام البينات والدلائل ، وتلهوا عن عاقبتهم وعما يراد بهم .

يوم تأتي السماء بدخان مبين الآية ١٠ - ٢١ :

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ *
رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ
قَلِيلًا * إِنكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ يُنْفِثُ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ *
وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنِ ادْعُوا إِلَى
عِبَادَةِ اللَّهِ إِنَّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَغْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَلَئِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُونِ * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا
لِي فَاعْتَرِلُونِ *

اللغة :

فارتقب فانتظر . وليس المراد بالدخان هنا الدخان المعروف ، وإنما المراد ان الانسان كان يلا به يرى بينه وبين السماء كالدخان ، ويأتي البيان . ويغشى يحيط . والذكرى التذكر والاعتاظ . وفتننا بلونا وامتحنا . وعذت لذت .

الإعراب :

يوم مفعول به لارتقب . وجملة يغشى الناس صفة ثانية لدخان . وهذا عذاب أليم مبتدأ وخبر ، والجملة مفعول لقول محذوف . ربنا أي يا ربنا . ومعلم مجنون أي هو معلم مجنون . وقليلًا أي كشافًا قليلًا أو زمانًا قليلًا . ويوم نبطش «يوم» متعلق بفعل محذوف دل عليه متعمون ، والتقدير ننتقم يوم نبطش الخ . والمصدر من ان ادوا مجرور بياء محذوفة . وعباد الله مفعول أدوا . والمصدر من ان ترجمون مجرور بمن محذوفة ، وأصل ترجمون ترجموني .

المعنى :

(فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس) . الخطاب من الله سبحانه لنبيه الكريم محمد (ص) يعده فيه باستجابة دعائه على قريش .. وذلك ان قريشاً بعد أن بالغوا في أذى الرسول (ص) دعا عليهم ، وقال : اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، فقطع الله عنهم المطر ، واجدبت الأرض وأصاب قريشاً الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة .. وكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان ، فقالوا : (هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) . أتوا النبي (ص) وقالوا له : سل الله سبحانه أن يكشف عنا هذا العذاب ، ونحن نؤمن برسالتك .

(أتى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول أمين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) . معلم بفتح اللام مع التشديد .. وعدوا بالتذكر والاعتاظ ان كشف الله عنهم العذاب .. ولكنهم لا يتوبون ولا يوفون بالوعد ، ألم يشاهدوا دلائل التوحيد ومع ذلك أشركوا بالله ؟ . ألم يأتيهم الرسول بالبينات الواضحة فكذبوه ، وقالوا : هو مجنون يتلقى بعض الكلمات من جني أو إنسي ويلقيها علينا ؟ . (انا كاشفوا العذاب قليلًا انكم عائدون) . المراد بالعذاب هنا عذاب القحط والجوع ، وعائدون ناكثون ، والمعنى سترفع عنهم ما هم فيه بعض الوقت ونحن نعلم أنهم ناكثون بالوعد .. ولكن من باب إلقاء الحجة وقطع المعللة (يوم نبطش البطشة الكبرى

إنا منتقمون) . هذا تهديد بأن الله سيأخذهم يوم القيامة بعذاب مهين على عتوهم وتمردهم .

والخلاصة ان قريشاً آذوا النبي (ص) فدعا عليهم ، ولما مسهم سوء استجاروا به ووعدهو بالتوبة ، ولكنهم نكثوا بعد أن فرج الله عنهم، فهددهم سبحانه بمجهن وبئس المهاد .

(ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم) . ضمير قبلهم يعود الى قريش ، والمعنى ان الله اختبر آل فرعون بالنعيم والتمكين في الأرض كما اختبر قريشاً يكشف العذاب عنهم ، وأرسل سبحانه موسى الى قوم فرعون كما أرسل محمداً الى قريش ، فمضوا جميعهم وعتوا عن أسر الله ، وقال موسى لفرعون وقومه : (ان ادوا اليّ عباد الله اني لكم رسول أمين) . كان فرعون يضطهد بني اسرائيل ، يذبح المواليد الذكور منهم ، ويبقي الاناث للخدمة، فطلب منه موسى أن يرسلهم معه ليذهب بهم حيث يشاء ، ومثله قوله تعالى : « فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعلمهم - ٤٧ طه ، ج ٥ ص ٢٢٠ .

(وان لا تعلموا على الله اني آتيكم بسلطان مبین) . هذا من كلام موسى لقوم فرعون ، ومعناه لا تتعالوا على طاعة الله ، فإن لديّ الحجة الكافية الوافية بإثبات الحق (واني عذت بربي وربكم أن ترجمون) ألوذ بالله والتجأ اليه ان أردتم بي سوءاً (وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون) أي اعتزلوني ، ودعوني وشأني لا علي ولا معي ان لم تصدقوني وتسنجبوا لدعوتي .

هؤلاء قوم مجرمون الآية ٢٢ - ٣٣ :

فَدَعَا رَبُّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ *
وَأَتْرِكُ الْبَاحِرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ مُّجْنَدُ مُّعْرِقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَغُيُوبٍ *
وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا

قَوْمًا آخَرِينَ * فَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ *
وَلَقَدْ فَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ
عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَأَتَيْنَاهُمْ
مِنْ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ *

اللغة :

رهُوآ سآكنآ . وفاكهين منعمين . فا بكت عليهم السماء والأرض كناية عن
عدم الاهتمام بشأنهم .

الإعراب :

رهُوآ حال من البحر . وكم مفعول تركوا . وكذلك خبر مبتدأ محذوف أي
الأمر كذلك . من فرعون بدل من العذاب بإعادة حرف الجر، مع حذف المضاف
أي من عذاب فرعون . على علم حال أي عالين . وعلى العالمين متعلق باختبرناهم .

المعنى :

(فدعا ربه ان هؤلاء قوم مجرمون). يشس موسى من فرعون وقومه فدعا عليهم،
وقال : اللهم عجل لهم الهلاك في الدنيا بسبب كفرهم واجرامهم ، فاستجاب الله
دعاه وقال له : (فأسر بعبادي ليلاً انكم متبعون) . أمر سبحانه أن يخرج هو
وبنو اسرائيل ليلاً من مصر ، وأعلمه ان فرعون وقومه سيُتبعونهم (واترك البحر
رهُوآ أنهم جنسد مفرقون) . اسلك الطريق في البحر ، فإذا قطعتة الى الجانب
الآخر ، فدعه كما هو ، لأن جيش العدو سيدخله ويفرق بكامله .

(كم تركوا من جنات وعبون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين) . كان آل فرعون في ألد مطعم ومشرب ، لهم السلطان والقصور والأنهار والثمار ، فأرسل الله اليهم موسى يدعوهم الى العدل وعدم الفساد في الأرض ، فلم يستجيبوا لداعي الله ، فأهلكهم وأورث ما كانوا فيه لقوم لا يمتنون اليهم بسبب ولا نسب .. قال الشيخ المراغي عند تفسير هذه الآية : « تغلب على مصر الآشوريون والبابليون حيناً ، والحيش حيناً آخر ، ثم القرس مدة واليونان أخرى ، ثم الرومان من بعدهم ، ثم العرب ثم الطولونيون والأخشيديون والفاطميون والأيوبيون والمماليك والترك والفرنسيون والانكليز ، وها نحن اولاء نجاهد لنحظى بخروجهم من ديارنا ، ونتمكن من استقلال بلادنا » .

وكان هذا الشيخ في عهد الملك فاروق بن فؤاد ، ونعطف على قوله والآن يحتل الصهاينة سيناء والضفة الشرقية من قناة السويس بمعونة الولايات المتحدة قائدة الاستعمار الجديد ، والمصريون يجاهدون ويقاتلون ليخرجوا المعتدين من أرضهم .. وهكذا الحياة جهاد ونضال ، ولأن يستشهد الانسان والبندقية في يده ، يدافع بها عن وطنه وكرامته ، خير من أن يعيش عيش الذل والهوان .

(فا بكت عليهم السماء والأرض) . هذا كناية عن عدم الاهتمام بآل فرعون حين أغرقهم الله في اليم (وما كانوا منظرين) بل عجل سبحانه لهم الهلاك في الدنيا (ولقد نجينا بني اسرائيل من العذاب المهيئ) وهو قتل أبنائهم واستخدام نسائهم وبنائهم وتسخير رجالهم في أشق الأعمال (من فرعون انه كان عالياً من المسرفين) الذين تجاوزوا كل حد في الفساد والطغيان والتعالي والتعاضم .

(ولقد اخترناهم على علم على العالمين) . وصف سبحانه بني اسرائيل في كتابه بأقبح الأوصاف ، وسجل عليهم أعظم الجرائم كالغدر والاحتيال والتمرد على الحق وأكل المال بالباطل ، ووصفهم بالكفر والظلم ، ولعنهم في العديد من الآيات ، وهددهم بأشد العقوبات .. ومن هنا أجمع المفسرون على ان المراد بالعالمين في هذه الآية واخوانها ان الله فضل الاسرائيليين على العالمين في زمانهم ، لا في كل زمان .. وقلنا في ج ١ ص ٩٥ : ان الله فضلهم على أهل ذلك الزمان من جهة واحدة فقط ، وهي ان الله أرسل منهم العديد من الأنبياء .

والآن استوحينا من الآية التي نحن بصددھا ان المراد بالعالمین فیھا فرعون ومن أقر له بالربوبیة فقط ، وليس كل أهل ذاك الزمان ، أما السر فی تفضیل بنی اسرائیل علی فرعون ومن استجاب له فواضح ، وهو ان الاسرائیلیین لم یعبلوا فرعون كقدماء المصریین . (وآتیانهم من الآیات ما فیہ بلاء مبین). المراد بالآیات هنا المعجزات كفلق البحر وتظلیل الغمام وانزال المن والسلوی وتفجیر الماء من الحجر ، والمراد بالبلاء المبین النعمة الظاهرة قال تعالى : « ونبلوكم بالشر والخسیر فتنۃ » ۳۵ الأنبیاء .

لهم خبر أم قوم تبع الآية ۳۴ - ۴۲ :

إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ * إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ *
فَأَنذَرْنَا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا لَآعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *
إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْعِلْ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

الغزة :

بمنشرين بمبعوثين . وتبع اسم لأحد ملوك اليمن ، والتبابعة لقب ملوك اليمن
كالفراعنة والقباصرة . ويوم الفصل يوم القيامة .

الإعراب :

إن هي « ان » نافية . وبمنشرين الباء زائدة ومنشرين خبر نحن . والذين من قبلهم منصوب بفعل محذوف أي وأهلكنا الذين من قبلهم . ولاعبين حال . وأجمعين تأكيد لضمير ميقاتهم . ويوم لا يغني بدل من يوم الفصل .

المعنى :

(إن هؤلاء يقولون إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين) . هؤلاء إشارة الى مشركي مكة . قالوا : لا حياة ولا نشور بعد الموت ، واحتجوا بقولهم : (فأتوا بآياتنا ان كنتم صادقين) أنهم لا يؤمنون بأن الله قادر على إحياء الموتى إلا اذا رأوا ذلك عياناً .. وذهلوا عن النشأة الأولى ، وان الذي أوجد الانسان ، ولم يكن شيئاً مذكوراً - قادر على أن يحيي العظام وهي رميم .

(أهم خبر أم قوم نيع والذين من قبلهم أهلكناهم لانهم كانوا مجرمين) . كان للتبابعة دولة وصوله في اليمن وغيرها ، وكانوا أحسن حالا وأكثر مالا من قريش ، ولما عتوا عن أمر ربهم أخذهم بالهلاك والدمار ، وكذا أهلك قوم نوح وعاداً ونمود لكفرهم وإجرامهم . فكيف أمن قومك يا محمد عواقب الكفر والفساد ؟ ولو اعتبروا لأبصروا وآمنوا ، ولكنهم قوم لا يفقهون (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق) . إن الله حكيم ، والحكيم متزه عن العبث ، فلا يخلق شيئاً إلا لمصلحة تعود الى الخلق .. والغاية من خلق الانسان أن يحيا حياة طيبة خالدة الى ما لا نهاية ، وعليه فلا بد من البعث والنشور ، وإلا كان خلق الانسان عبثاً . أنظر تفسير الآية ٣٣ من سورة لقمان فقرة « لماذا خلق الله الانسان ؟ » . (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ان الله خلق الكون بما فيه الحكمة وغرض صحيح .

(ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) . يوم الفصل هو يوم القيامة الذي يجمع الله الناس فيه لنقاش الحساب وجزاء الأعمال ، وميقاتهم هو موعد ذلك الجمع والحساب والجزاء (يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون) . لاجاه

ولا مال ولا أنساب ولا حم .. لا شيء على الإطلاق ينفع في ذلك اليوم إلا صالح الأعمال فهو وحده الشفيع عند الله (الا من رحم الله) ولكن الله يرحم من هو أهل لرحمته كالذي له سوابق تقربه من خالقه جل وعز (انه هو العزيز الرحيم) .
لا ناصر ولا راحم غداً إلا الله فهو ذو العزة والرحمة تدعن الخلائق لقدرته ،
ونفتقر الى رحمته .

طعام الأليم وطعام المتقين الآية ٤٣ - ٥٩ :

إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ * طَعَامُ الْأَلِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِيِّ
الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ
عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ
تَمْتَرُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ
مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ *
يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ
الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسْرُنَا يِلْسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ *

اللغة :

شجرة الزقوم لا بد أن تكون رديئة الطعم لأنها طعام أهل النار، وتقدم الكلام عنها في الآية ٦٢ من سورة الصافات . والمهل خثارة الزيت . والحميم الشديد الحرارة . اعتلوه سوقوه بعنف . وسواء الجحيم وسطها . والسندس ضرب من الحرير الرقيق . والاستبرق الغليظ منه . ارتقب انتظر .

الإعراب :

في جنات بدل من مقام أمين بإعادة حرف الجر . متقابلين حال من واو يلبسون . كذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك . آمنين حال من واو يدعون . وفضلاً منصوب على المصدرية أي تفضل تفضلاً .

المعنى :

بعد ان ذكر سبحانه المجرمين في الآيات السابقة ، وان موعدهم يوم القيامة - ذكر أحوالهم في هذا اليوم ، وهي :

١ - (ان شجرة الزقوم طعام الأثيم) . والأثيم من كثرت في الدنيا ذنوبه وآثامه .. وقد بين سبحانه ان طعامه يوم القيامة من شجرة اسمها الزقوم ، ووصف ثمرها بأنه (كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم) . والمهل خثارة الزيت ، والحميم الشديد الحرارة ، وغير بعيد أن يكون هذا كناية عن ألم العذاب وشدته ، وقال الملا صدرا في الأسفار : ان شجرة الزقوم هي الاعتقادات الباطلة والأخلاق السيئة التي تقود صاحبها الى النار ، وفي بعض الروايات ان البخل شجرة من أشجار النار ، والسقاء شجرة من أشجار الجنة .

٢ - (خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم) . أي يقال للملائكة العذاب: سوقوا الأثيم بعنف الى وسط النار (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) . يومئذ هذا الى أن في جهنم ثمراً وحاماً وملابس ، وكلها من نار السموم .

٣ - (ذق انك أنت العزيز الكريم ان هذا ما كنتم به تمترون) . تقسول ملائكة العذاب للطاغية الأثيم : لقد أنكرت يوم البعث ، وزعمت انك صاحب الجلالة والمهمنة .. فذق الآن جزاء تعاضلك وتعاليك .. ومهما شككت فما أنا بشاك ان الذين يسلبون أقوات العباد، ويصنعون منها أسلحة جهنمية لقتل الأبرياء الأمنين ونسائهم وأطفالهم ، ولا يرون حقاً ولا عدلاً إلا فيما جهون ويشاؤون ، لا أشك أبداً ان هؤلاء يستحقون هذا النوع من العذاب ، بل أشد وأقوى لو كان هناك عذاب فوق هذا العذاب . انظر ج ٤ ص ٤٥٦ فقرة « جهنم والأسلحة الجهنمية » .

ويعد ان يبين سبحانه أحوال المجرمين أشار الى أحوال المتقين يوم القيامة بالآيات التالية :

(ان المتقين في مقام أمين) لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (في جنات وعيون) يتمتعون فيها كما يشاؤون (يلبسون من سندس واستبرق متقابلين) . ثيابهم من الحرير الرقيق والسميك ، ويجلسون على أسرة في اتجاه بعضهم البعض يسرون شاكرين ذاكرين أنعم الله ورضوانه (كذلك وزوجناهم بحور عين) لم يطمشهن قبلهم انس ولا جنان (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) . يطلبون فاكهة قائمة دائمة لا يخافون لها نفاداً وانقطاعاً . (لا يدورون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم) . كل انسان يموت الموتة الأولى ، ويتنقل بعدها إلى الجنة أو النار ، ولا فناء في هذه ولا تلك ، ولكن الفناء أيسر بكثير من حياة وسط الجحيم (فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم) وأي فضل وفوز أعظم من النجاة من عذاب النار وغضب الجبار .

(فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) . ضمير يسرناه للقرآن ، وضمير لعلهم للعرب، والخطاب في لسانك للرسول الأعظم (ص) ، والمعنى أنزلناه قرآناً عربياً لينتفع العرب بتعاليمه ويتعظوا بعباطئه (فارتقب أنهم مرتقبون) . انتظر قليلاً يا محمد ، وسترى ان العاقبة لك عليهم ، وهم أيضاً يدعون بأن الدائرة مستدور عليك ، ولكن : هلك من ادعى وخاب من افترى ، ومن أبدى صفحته للحق هلك ، كما قال الإمام علي (ع) .

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

وتسمى سورة الشريعة أيضاً ، وهي مكية ، وآياتها ٣٧ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ان في السموات والأرض لآيات للمؤمنين الآية ١ - ٦ :

حَمْدُ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ
يُوقِنُونَ * وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *
تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ *

اللغة :

المراد بالآيات هنا الدلائل والحجج . وبيث يفرق . واختلاف الليل والنهار
تعاقبها . وتصريف الرياح تغييرها جنوباً وشمالاً وشدة وضمفاً .

الإعراب :

تنزيل مبتدأ ومن الله الخبر ، ويجوز أن يكون تنزيل خبراً لمبتدأ محذوف أي

هذا تنزيل الكتاب ، ومن الله متعلق بتنزيل . آيات اسم ان وفي السموات والأرض خبرها وآيات مبتدأ مؤخر . وفي خلقكم خبر مقدم وما يبيث عطف على خلقكم . واختلاف الليل والنهار أي في اختلاف الليل والنهار خبر مقدم وآيات لقوم مبتدأ مؤخر . تلك آيات الله مبتدأ وخبر .

المعنى :

(حم) تقدم مثله في أول سورة البقرة (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) . المراد بالكتاب القرآن ، وكله من أوله الى آخره وحى من الله ، لا من سواه ، وقال صاحب روح البيان : ان وصف الله بالعزيز هنا يشعر بأن القرآن معجزة تقهر كل من يتحداها ، وان وصفه بالحكيم يومئ الى ان القرآن يشتمل على حِكَم بالغة نافعة .. وليس من شك ان القرآن أعجز وبمعجز كل من يعارضه ، وانه ينبوع الحكمة ومصدرها .

ثم أشار سبحانه الى الدلائل الحسية الناطقة بوجوده وعظمته ، منها : (ان في السموات والأرض آيات للمؤمنين) أي لمن يريد ان يؤمن بالحق لأنه حق ، والمراد بالآيات هنا ما يستنتجه العقل من نظام الكون وسيره على سنن لا تحويل فيها ولا تبديل ، ولولا ثباتها واستمرارها لما أمكن رصدها وقياسها والاستفادة منها ، وبالتالي لم يكن لم الفلك وما يتصل به عين ولا أثر (وفي خلقكم وما يبيث من دابة آيات لقوم يوقنون) . من أراد علم اليقين بوجود الله فليفكر ويتأمل في نفسه وفي أي حي من الأحياء ، فهل يجد في واحد منها عضواً من أعضائه لا وظيفة له ، أو غريزة من غرائزه لا حكمة لها ؟ ويدل هذا دلالة قاطعة على الارادة والتصميم ، وإذا لم تَرَ المصمم بالحس فقد رأينا آثاره رأي العين ، وعليه يكون ايماننا بالغيب مستنداً الى الحس والمشاهدة .

(واختلاف الليل والنهار) . أشار سبحانه في كتابه مرات الى اختلاف الليل والنهار لينبه العقول الى السر العجيب في دورة الأرض لأنها السبب الموجب لمجيء الليل بعد النهار ، ومجيء النهار بعد الليل ، ومهما قيل ويقال عن أسباب دورة الأرض حول نفسها أو حول الشمس فإن هذه الأسباب وغيرها من الأسباب

الكونية تنتهي الى ارادة الخالق الأول وقدرته وحكمته ، ويستحيل في نظر العقل أن يكون مبدأ هذا الكون العجيب مادة عمياء تتحكم بها الصدفة والقوضى التي لا قصد لها ولا غاية .

(وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها) . المراد بالرزق هنا كل شيء علوي له أثر في الحياة كالماء وحرارة الشمس، وفيها من الدلالة على وجود الخالق ما في خلق السموات والأرض لأن الكل 'وجد للحكمة وغرض صحيح (وتصريف الرياح) جنوباً وشمالاً وغرباً وشرقاً وباردة وحارة (آيات لقوم يعقلون) كل ذلك وما إليه دليل قاطع على ارادة عليم حكيم .

(تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) . وهكذا يضع سبحانه أمام العقل مشاهد ودلائل حسية على معرفة الخالق وقدرته (فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون) . من لا ينتفع ببيان الله ، ويقتنع بأدلته فلا تجدي معه أية حجة . وتكرر معنى هذه الآيات كثيراً في كتاب الله ، من ذلك الآية ١٦٤ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٥١ .

ومن نهج البلاغة : ما الجليل واللطيف والضميل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه الا سواء ، وكذلك السماء والهواء والرياح والماء ، أنظر الى الشمس والقمر والنبات والشجر والماء والحجر واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجر هذه البحار، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال - أي رؤوس الجبال - وتفرق هذه اللغات والألسن المختلفة .. فالويل لمن جحد المقدر ، وأنكر المدبر .. زعموا انهم كائنات ما لهم زارع ، ولا لاختلاف صورهم صانع ، ولم يلجأوا الى حجة فيما ادعوا ، ولا تحقيق لما ادعوا ، وهل يكون بناء من غير بانٍ ، أو جناية من غير جانٍ ؟ .

ويل لكل أفاك أثيم الآية ٧ - ١٥ :

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا

كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا
هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا
كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *
هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزِ أَلِيمٍ *
اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ * قُلِ لِلَّذِينَ آمَنُوا
يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *
مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ *

اللغة :

أفأك كثير الكذب . وأليم كثير الإثم . ويطلق الرجز على معانٍ ، منها القلر
والانحراف عن الحق الى الباطل ومنها شدة العذاب وهذا المعنى هو المراد من
الرجز في الآية ، أي عذاب من النوع الشديد الأليم . وتطلق ايام الله على ايام نعمته
ونقمته .

الإعراب :

مستكبراً حال من ضمير بصر . كان مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي كأنه .
وأليم بالرفع صفة لعذاب . وجميعاً حال مما في السموات وما في الأرض . وضمير

منه يعود على الله سبحانه والمجرور متعلق بمحذوف صفة للجميع . ويفغروا مجزوم بجواب أمر محذوف أي قل لهم : اغفروا بغفروا . فلنفسه متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي فتنع صلاحه عائد لنفسه . فعليها ايضاً خبر لمبتدأ محذوف أي فضرر إسماته عائد عليها .

المعنى :

(ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فيشره بعذاب أثيم وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً) . بعد ان وضع سبحانه أمام العقل الدلائل الحسية المفيدة للجزم واليقين بوجوده تعالى ، وقال : من لم يؤمن بها فظن يؤمن بأي دليل غيرها - بعد هذا هدد وتوعد من لا يتدبر هذه الدلائل ، ويستفح بها ، وأسماء بالأفاك الأثيم ، وتوعده بالعذاب الأليم ، ووصفه بمعاندة الحق وتجاهله تعالى وتعاظماً ، وانه لم يكتف بذلك حتى سخر منه واستهزأ به .. ولا فرق في يوم الحساب بين هذا الكافر الساخر من الحق وأهله ، وبين من آمن به قولاً لا فعلاً ، وبالنظر لا بالعمل ، قال تعالى : « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون - ٢١ الأنفال » أي لا يقبلون ولا يعملون . وقال الإمام علي (ع) : البصير من سمع ففكر ، ونظر فأبصر ، وانتفع بالعبر . (أولئك لهم عذاب مهين من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولم عذاب عظيم) . أولئك اشارة الى كل أفاك أثيم ، والمراد بما كسبوا ، أموالهم وأولادهم وجاههم . وبما اتخذوا ، أصنامهم وأوثانهم ، والمعنى ان الذين استكبروا على الحق وسخروا منه مصيرهم الى جهنم يصلونها وبش المهاد ، ولا ينجيهم من عذابها صنم ولا ولد ولا جاه ولا مال (هذا هدى) . هذا إشارة الى القرآن ، وما من شك انه هدى لمن اثم به ، وقوة لمن اعتمد عليه (والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) . المراد بالآيات هنا الدلائل الكونية على وجود الله وعظمته ، والعذاب والرجز والأليم كلمات مترادفة أو متقاربة المعنى ، والغرض من التكرار تأكيد العذاب اللاتق بالأفاك الأثيم الذي يستعلي على الحق ويسخر منه .

سورة الجاثية

(الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) . ان فضل الله تعالى في البر والبحر والجو ، ومن نعمه تعالى في البحر اللحم والملح والأحجار الكريمة والمواصلات والترهه والرياضة وغير ذلك ، وتقديم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٦٦ من سورة الاسراء ج ٥ ص ٦٥ والآية ٤٦ من سورة الروم وغيرهما .

(وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ان في ذلك لآيات لقوم يتذكرون) . في هذا العالم الواسع منافع وطاقات لا يبلغها الاحصاء، وبالرغم من تقدم العلم في عصرنا فإن ما خفي عنه أكثر مما استبان له من تلك الطاقات ، ولكن الله سبحانه زود الانسان بالاستعداد التام لاكتشاف كل ما في الكون مسن قوى وامكانات والاستفادة بها لئلا ينجم اتجاهها علمياً انسانياً ، لا تجارياً ، وبسذل جهداً أكثر وأطول .. وتجدر الاشارة الى ان كلمة « جميعاً » تسمى الى ان في الانسان من المؤهلات ما يستطيع معها الوصول الى القمر وغيره من الكواكب . انظر ج ٦ ص ١٠١ فقرة « القرآن والفكر » . وتقدم مثله في الآية ٢٠ من سورة لقمان .

(قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون) . المراد بأيام الله هنا أيام نقمته وعذابه، والذين لا يرجونها هم مشركو العرب. وقد أمر سبحانه نبيه الكريم أن يدعو المؤمنين الى الصفح عن أساء اليهم، ويدفعوه بالتى هي أحسن ، والله سبحانه يتولى حساب المسيء جزاءه (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون) . المعنى واضح . وتقدم نظيره في الآية ١٠٤ من سورة الانعام ، وبالحرف الواحد في الآية ٤٦ من سورة فصلت .

أيضاً بنو اسرائيل الآية ١٦ - ٢٠ :

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ

الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ* وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا
إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ* ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ
فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ* إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ*
هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ*

اللغة :

المراد بالكتاب هنا التوراة والانجيل لأن عيسى (ع) من بني اسرائيل . والمراد
بالحكم فهم ما في التوراة والانجيل . وبالطيبات المن والسلوى . وبينات من الأمر
أي واضحات مما أنزلنا من أحكام الدين . وبغياً عناداً للحق . على شريعة من
الأمر أي على طريقة من أمرنا وديننا . والبصائر الدلائل التي يبصر بها العاقل
الحق . ولقوم يوقنون يطلبون علم اليقين .

الإعراب :

بغياً مفعول من أجله لاختلفوا . وشيئاً مفعول مطلق ليغنوا أي شيئاً من الاغناء .

المعنى :

(ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم
على العالمين) . في الآيات السابقة ذكر سبحانه الأفاكين الأثمين الذين كفروا

بدلائل الله وآلائه ، وهزأوا بالحق وأهله ، ولما كان بنو اسرائيل أصدق مثل هذه الأوصاف عقب سبحانه بذكرهم وبما هم عليه من الجحود والآثام ، مع ان الله قد أمد لهم وأنعم عليهم بالتوراة والانجيل اللذين أشار اليهما بكلمة الكتاب ، وأفهمهم ما فيها من المواعظ والأحكام ، وهذا هو المراد من الحكم ، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفضلهم على آل فرعون حيث أغرقهم وأراح الاسرائيليين من عذابهم .

(وآتيناهم بيئات من الأمر) . أوضح سبحانه لبني اسرائيل كل ما يحتاجون اليه من أمور الدين ، ولم يُبق عذراً ولا سبباً لاختلافهم وتفرقهم (فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) . لقد علموا علم اليقين ما أنزل الله على موسى ، ولكنهم تجاهلوه وحرفوه تبعاً لأهوائهم ومصالحهم : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا » - ٤٦ النساء . وقوله تعالى : « اختلفوا » يشير الى القليل النادر الذي ثبت على الحق (ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) . قد يتغلب المبطل على الحق في الحياة الدنيا ، أما في الآخرة فإن الكلمة العليا للحق وحده ، وإلا كان الحق أسوأ حالاً من المبطل . وتقدم مثله في الآية ٩٣ من سورة يونس ج ٤ ص ١٩٠ .

ضربت الذلة على اسرائيل بحكم التوراة :

جاء في القرآن الكريم عن بني اسرائيل قوله تعالى : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا » - ١١٢ آل عمران . وتكلمنا مطولاً حول هذه الآية في ج ٢ ص ١٣٣ ، وقلنا : ان اسرائيل قاعدة من قواعد الاستعمار ، وانها زائلة لا محالة عاجلاً أو آجلاً .

والآن نقل من نصوص الأسفار - أي الكتاب المقدس عند اليهود - ما يدل بصراحة ووضوح على ان الله كتب على اسرائيل الذلة والمسكنة حتى يومها الأخير . فقد جاء في سفر الملوك الثاني اصحاح ١٧ الآية ١٩ و ٢٠ : « فغضب الرب جداً على اسرائيل .. فرذل الرب كل نسل اسرائيل وأذلهم » . وفي سفر ارميا اصحاح ٩ الآية ١٥ و ١٦ : « ها أنا ذا أطعم هذا الشعب أفسنتينا واسقيهم

العلقم وأبددهم في أم لم يعرفوها هم ولا آباؤهم ، وأطلق وراءهم السيف حتى افنيهم . وأيضاً في سفر التثنية اصحاح ٢٨ الآية ٦٢ و ٦٣ : « فتبتقون نفراً قليلاً .. فتستأصلون من الأرض » . الخطاب لبني اسرائيل ، الى غير ذلك من النصوص الدالة على بني اليهود فسادهم وذلمهم وهوانهم .

ونسأل الصهيانية : اذا كنتم شعب الله المختار كما تزعمون فلماذا حكم الرب عليكم وعلى نسلكم بالذلة والردالة والتشريد الى ان تستأصلوا من الأرض ؟ وكيف قطع الرب عهداً على نفسه أن يجعل اورشليم رجماً ومأوى لبنات آوى كما جاء في سفر ارميا اصحاح ٩ الآية ١١ : « واجعل اورشليم رجماً ومأوى بنات آوى ، ومدن يهوذا اجعلها خراباً بلا ساكن » ٩ . وما هو الكتاب المقدس لدولتكم الدينية العنصرية كما قال بومبيدو رئيس جمهورية فرنسا . هل هو التوراة التي وصفتكم ووصفت عاصمتكم بقولها : « هكذا قال الرب : أيتها المدينة - أي اورشليم - السفاكة الدم .. يا نجسة الاسم يا كثيرة الشغب ، هوذا رؤساء اسرائيل كل واحد حسب استطاعته كانوا فيك لأجل سفك الدماء - سفر حزقيال اصحاح ٢٢ الآية ٣ و ٦ » .

لقد وصف القرآن الكريم بني اسرائيل بأبشع النعوت وأقبحها ، ولكنه لم يزد شيئاً عما جاء في التوراة والكتاب المقدس عند اليهود .. وقد جاء ذم اورشليم في الانجيل لوقا اصحاح ١٣ : « يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين » ويقول الانجيل : ان اليهود في كل زمان ومكان يشاركون في الجريمة أجدادهم الذين صلبوا السيد المسيح لأنهم راضون بأفعالهم مؤمنون بأقوالهم : انه ابن زنا ودجال .. وما جاء في الانجيل يتفق تماماً مع المبدأ الاسلامي القائل : « العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء » .

ومن أجل هذا عارضت الكنيسة القبطية بابا روما حين أصدر هو وأعداؤه وثيقة تبرئة يهود الجليل من دم المسيح .. وتجدر الاشارة إلى أن هذه الوثيقة أصدرها بابا روما قبيل عدوان اسرائيل على البلاد العربية بقليل .

(ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) . الشريعة في اللغة مورد الماء ، وقد استعيرت للأحكام الدينية لأنها تحيي الأرواح كما يحيي الماء الأجسام ، والمراد

بالأمر هنا الدين ، والمعنى لقد جعلناك يا محمد على عقيدة التوحيد وخلع الشرك والانناد ، واعطيناك الشريعة السهلة السمحة ، فتمسك بها وادعُ إليها ، أما قوله تعالى : (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) فعناه ان المجرمين لا يتبعون إلا الهوى والغرض ، وما عليك إلا أن تمضي في دعوتك ولا تأخذك فيها لومة لائم ، وهو سبحانه يكفيك كيد الكائدين وشر المتآمرين .

(انهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً) لأن من عجز أن يدفع عن نفسه فهو عن مؤازرة غيره أعجز (وان الظالمين بعضهم أولياء بعض) . لا يحمي المجرم في الحياة الدنيا من بنصره ويؤازره إلا من كان على شاكلته في الإجرام والآثام.. والطيبون أعداء له وحرب عليه ، أما في الآخرة فيلعن المجرمون بعضهم بعضاً (والله ولي المتقين) دنيا وآخرة (هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون) . هذا إشارة الى القرآن ، والبصائر الدلائل التي تبصر بها الحق وطريق الهداية ، وما من شك أن من يأتى بالقرآن فهو على علم اليقين بأنه على هدى من ربه ، وداخل في رحمته . وتقدم مثله في الآية ٢٠٣ من سورة الاعراف ج ٣ ص ٤٤١.

اتخذ إلهه هواه الآية ٢١ - ٢٦ :

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ حَيَاتِهِمْ وَوَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّمَرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ

عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَنَبَّأُ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّوْا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُمُ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ *

اللغة :

اجترح واقترف واكتسب بمعنى واحد .

الإعراب :

أَمْ حَسِبَ هـ أَمْ ، للإضراب أي بل أحسب . والمصدر من أن نجعلهم ساد مسد مفعولي حسب . وسواء مفعول ثانٍ لنجعلهم . ومحياهم ومماتهم فاعل سواء لأنه بمعنى مستور . وما يحكمون هـ ما ، مصدرية والمصدر المنسبك فاعل ساء . وعلى علم حال . وإن هم هـ ان هـ نافية . والمصدر من ان قالوا خبر كان .

المعنى :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) . هل يصح في الأفهام أن يكون المحسن والمسيء بمنزلة سواء عند الله وفي نظر العقل ؟ إذن ، فما معنى تعدد الأسماء وتباينها ؟ وما هو الفارق بين الخير والشر والهدى والضلال ؟ وأخذ علماء الكلام مضمون هذه الآية وقالوا : ان الله سبحانه وعد الطائع بالثواب ، وتوعد العاصي بالعقاب ، وما وقع في الدنيا شيء من ذلك ، فوجب أن يعيد سبحانه الانسان الى الحياة بعد موته ليحصل الوفاء بوعده تعالى ووعيده . وأيضاً الله عادل ما في

سورة الجاثية

ذلك ريب ، وقد رأينا الظالم يقضي حياته دون أن يقتصر أحد منه للمظلوم ، ولولا الاعادة للحساب والجزاء لكان المظلوم أسوأ حالاً من الظالم وكان الله ظالماً . تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

أما نعيم الدنيا فما هو بعلامة على رضا الله ، ولا يؤسها دليل على غضبه ، قال الإمام علي (ع) : أبها الناس ان الدنيا دار مجاز ، والآخرة دار قرار ، فخلوا من ممركم للمركم .. واخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها اختبرتم ، ولغيرها خلقتكم .

(وخلق الله السموات والأرض بالحق) . هذا تعليل لنفي المساواة بين المحسن والمسيء ، وبيانه ان الله سبحانه خلق الكون حقاً وعدلاً ، لا عبثاً وباطلاً ، لأنه منزّه عنها ، وعليه فيستحيل أن يساوي بين المحسن والمسيء ، وإلا كان خلق الكون عبثاً وباطلاً ، لأن من يجوز العبث عليه في شيء يجوز عليه أيضاً في غيره (ولنجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) . هذا هو النهج القويم نهج الحق والعدل ، من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . أنظر تفسير الآية ٤ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٢ فقرة : الحساب والجزاء حتم .

والخلاصة ان الله حكيم منزّه عن الخطأ ، وحكمته تعالى تحم إحياء الانسان بعد موته ليميز بين المحسن والمسيء ، ويجزي كلاً بما يستحق وإلا كان الخلق عبثاً ، قال تعالى في الآية ١١٥ من سورة المؤمنون : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون فتعالى الملك الحق ، أي تنزهه عن العبث .

(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) ؟ . من الناس من لا يؤمن بشيء إلا بنفسه ومصلحته .. وقد يهمل ويكبر بل ويصوم ويصلي ما دام ذلك لا يزعج شياً مما يحب ويهوى ، فهو هو المعبود الحق عنده ، وما عداه وسيلة لا غاية أو عادة لا عبادة ، وهذا هو المقصود من قوله تعالى : « اتخذ إلهه هواه » . وقال قائل : انما سمي هواً لأنه يهوى بصاحبه إلى النار ، وقد أخذ هذا من قوله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - ٤٠ » . وفي بعض التفاسير ان المشرك الجاهلي كان يهوى الحجر فيعبده ،

ثم يرى غيره فيهواه فيلقي الأول ، وهكذا من يتخذ إلهه هواه .. وليس من شك ان المشرك الجاهلي أخوف جرماً عند الله من العملاء الذين يبيعون دينهم وضميرهم بالمزايدة ، وبعقدون الصفقة مع من يزيد .

(وأصله الله على علم) . الله سبحانه لا يفضل أحداً ، كيف ؟ . وقد نهى سبحانه عن الضلال وتوعد عليه ، ولكن من يسلك طريق الضلال مختاراً يدعه وشأنه ، ولا يشمله بلطفه وعنايته بعد أن علم جلّت حكمته من العبد الضال الاصرار والعناد . أما قوله تعالى : (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) فعناه ان الله تعالى قد أعمى المعاند عن ادراك الحق ورؤيته وسماعه بعد أن بينه له وحته عليه وأعرض عنه من غير مبرر ، قال تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين - هـ الصف هـ . (فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) ؟ من لا ينتفع بنصائح الله ، ويتعظ بمواعظه ، فلا تنفعه العظات والنصائح .

(وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) . قال الماديون أو الدهريون عبر بما شئت ، قالوا : ان الانسان خليط من أشياء مادية تجتمع من هنا وهناك وتفاعلت ، فإذا مات فإلى فناء ولا شيء بعد الموت تماماً كالنبات والحشرات ، وما نراه في الانسان من إدراك وإحساس فهو من افراز الجسم ووليد الظروف والملابسات أي ان عقل الانسان وعاطفته من الأعراض الثانوية التي لا اصاله لها ولا استقلال .

(وما لهم بذلك من علم ان هم الا بظنون) أي ان قولهم هذا دعوى بلا دليل . بل قام الدليل على فسادها وبطلانها لأن الذي يتحكم بالمادة ويخضعها لمصلحته ، ويعملها في مصانعه ويعرف الكثير عنها ولا تعرف هي شيئاً عنه ، ان هذا الانسان العجيب لا بد أن يكون أعظم من المادة وأرفع منها مستوى . وسبق الكلام عن ذلك مراراً ، منها عند تفسير الآية ٧٨ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٣٦ .

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآياتنا ان كنتم صادقين) . وهذا تماماً كقول من قال : أنا لا أصدق أن شجرة التفاح تثمر في الصيف إلا إذا رأيتها تحمل الثمر في الشتاء ، وان هذا الطفل إذا كبر

سورة الجاثية

نبئت لحية الا إذا رأيتها الآن في وجهه ذاهلاً ان لكل شيء أجلاً ، وان لكل أجل كتاباً لا يتقدم ولا يتأخر . وتقدم مثله في الآية ٣٦ من سورة الدخان : (قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه) . إذا كان الله هو الذي أحيا الانسان من قبل ولم يكن شيئاً مذكوراً ، وهو الذي يميتهم فا الذي يمنعه من إحيائه ثانية ؟ . (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ان النشأة الثانية أهون وأيسر من النشأة الأولى . وتقدم في العديد من الآيات ، منها الآية ٢٨ من سورة البقرة و ٦٦ من سورة الحج .

كل أمة تدعى الى كتابها الآية ٢٧ - ٣١ :

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْحَرُ الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ *

اللغة :

جاثية باركة على الراكب . نستسخ نستكتب أي نجعل الملائكة تكتب .

الإعراب :

يوم متعلق بيخسر المبطلون . ويومئذ بدل من يوم . اليوم تجزون أي يقال لهم : اليوم تجزون . أفلم تكن آياتي أي يقال لهم : أفلم تكن الخ .

المعنى :

(والله ملك السموات والأرض) . يشير سبحانه بهذا إلى قدرته على الإحياء بعد الموت ، لأن من خلق السموات والأرض ولم يعيِّ بخلقهن قادر ، ولا ريب ، على أن يحيي الموتى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) لأن مأواهم النار في هذا اليوم ، وما لهم من ناصرين (وترى كل أمة جاثية) . يحشر سبحانه الناس يوم القيامة باركين على الركب ينتظرون الحساب والجزاء ، وغير بعيد أن يكون هذا كناية عن هول المطلع وروعة القزع .

(كل أمة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون) . المراد بالكتاب هنا صحيفة الأعمال ، والمعنى ان كل أمة ، وكل امرئ مجزي بما أسلف ، وقادم على ما قدم ، وفي نهج البلاغة : « اذا هلك المرء قال الناس : ما ترك ، وقالت الملائكة ما قدم » . (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) . يقال غداً للمجرمين : هذا ما كتبناه عنكم ، انه صورة طبق الأصل عن أعمالكم لا زيادة فيه ولا نقصان ، لأن الله قد أمر ملائكة الحفظ والصدق أن تسجل أفعالكم ، وتحفظ عليكم عدد أنفاسكم التي قضيتوها في المعصية ولا تستركم من الكتبة ظلمة ، ولا يكننكم منهم حجاب : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً — ٤٩ الكهف ، ج ٥ ص ١٣٥ .

(فأما الذين آمنوا وعلما الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمة ذلك هو الفوز المبين) . سلكوا طريق الأمان . فقادهم الى رحمة الله ورضوانه . وفي نهج البلاغة لن يفوز بالخير إلا عامله ، ولا يخزي جزاء الشر إلا فاعله (وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين) ؟ . يقول سبحانه غداً للعتاة المتمردين تقرعهم وتوبيخاً : سمعتم صوت الحق فلم تستجيبوا له : ورأيتم الواضحات من دلائله فأعرضتم عنها عناداً واستكباراً ، واسترحمتم الى الفساد والضلال ، فأنتم اليوم من الخاسرين .

اليوم نساكم الآية ٣٢ - ٣٧ :

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا
السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ * وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا
عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا
نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ * ذَلِكُمْ
بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ
مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

اللفظ :

حاق بهم أحاط أو حل بهم . نساكم تركم ونهملكم . لا يُستعتبون لا يطلب
منهم العتي والاعتذار . والمراد بالكبرياء هنا السلطان القاهر .

المعنى :

(وإذا قيل ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة
إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين) . ما زال الحديث عن المجرمين ، وقوله
تعالى : « والساعة لا ريب فيها » بيان وتفسير لوعده الله ، والمعنى ان المجرمين
كانوا إذا قال لهم المؤمنون : ان البعث لحق ، والحساب والجزاء حق قالوا :
لسنا على يقين من البعث ، ولا نعرف عنه شيئاً سوى الظن، فأتونا بما يدل عليه .

وتسأل : ان الله سبحانه حكى عنهم في الآية ٢٤ من هذه السورة أنهم نفوا البعث بلسان الجزم كما يدل قولهم : « ما هي إلا حياتنا الدنيا » ثم حكى عنهم هنا أنهم يظنون ظناً وما هم بمستيقنين أي أنهم لا يجزمون في أمر البعث سلباً ولا إيجاباً ، فكيف تجمع بين الآيتين ؟ .

قال الرازي : يغلب على الظن أنهم كانوا فريقين : فريقاً كان جازماً بنفي البعث ، وآخر كان شاكاً فيه .. أما نحن فيغلب على ظننا أنهم فريق واحد ، وان معنى الآيتين واحد أيضاً ، وهو أنهم لا يؤمنون بالبعث لأنه لا دليل بزعمهم بوجود اليقين به ، وانما هو غيب في غيب .

(وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) . زرعوا في الدنيا الجرائم والآثام ، فحصدوها وجنوا ثمارها في الآخرة ، وسخروا من جهنم وعذابها فكانوا لها حطاً (وقيل اليوم ننسأكم كما نسبتم لقضاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) جحدوا يوم القيامة وسخروا منه ومن آمن به ، فأملهم الله في ذلك ولم يشملهم برحمته ، بل أذاقهم عذاب ذلك اليوم ، وأراهم سبحانه من قدرته وسطوته فيه ما كانوا به يمترون . وتقدم مثله في الآية ٥١ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٦ .

(ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتم الحياة الدنيا) . ذلكم إشارة الى العذاب ، والمعنى ان السبب الموجب لعذابهم هو كفرهم باليوم الآخر ، وإعراضهم عن القرآن ، واستخفافهم بآياته حين ينزل عليهم ، واطمئنانهم الى الدنيا وزينتها (فالיום لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) . ضمير منها يعود الى النار، والمعنى أنهم خالدون فيها ، ولا يطلب منهم أن يسترضوا الله بقول أو فعل، لأن الآخرة دار حساب وجزاء لا دار عمل واسترضاء .

(فقلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين) . احمدا الله وحده لأنه خالق كل شيء (وله الكبرياء في السموات والأرض) . والمراد بكبريائه تعالى انه لا كبير يخاف ويترجى إلا هو وحده ، وقد وصف الإمام علي (ع) العارفين بالله ، وصفهم بقوله : عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم (وهو العزيز) الذي لا يقهره شيء (الحكيم) في تدبير خلقه .

الجزء السادس والعشرون

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

٣٥ آية كلها أو جلها مكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أين الدليل ان كنتم صادقين الآية ١ - ٦ :

حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا
مُعْرِضُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا
مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ اتَّبِعِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا
أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ
اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ *
وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ *

الطبعة :

أم لهم شرك أي نصيب . وأثارة من علم بقية أو شيء منه .

الإعراب :

من قبل هذا متعلق بمحذوف صفة لكتاب أي بكتاب منزل من قبل هذا .
أو إثارة عطف على كتاب . ومن لا يستجيب مفعول يدعو . وضمير ه هم ،
يعود الى الأصنام . وعن دعائهم متعلق بغافلين ، وعبادتهم متعلق بكافرين .

المعنى :

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) . تقدم بالحرف الواحد في أول
سورة الجاثية وأول سورة الزمر (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق
وأجل مسمى) . الله حكيم لا يخلق شيئاً إلا بالحق ، والعبث في حقه مستحيل ،
وقد خلق الكون بما فيه الحكمة وغرض صحيح ، وقدّر لفنائه وزواله أمداً معيناً ،
وبعده يكون الحساب والجزاء في الدار الثانية . وتقدم مثله في الآية ٨ من سورة
الروم ج ٦ ص ١٣٢ .

(والذين كفروا عما أنذروا معرضون) . خوف سبحانه المجرمين من يوم
القيامة وأهواله ، وأقام عليه الدلائل الواضحة ، فأبوا إلا العتو والعتاد (قل أرأيتم
ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات) ؟
المراد بالشرك هنا النصيب ، والمعنى أخبروني يا عبادة الأصنام : ما الذي دعاكم
الى تأليهها وعبادتها ؟ هل خلقت شيئاً من الأرض أو في الأرض ، أو اشتركت
مع الله في خلق السموات أو بعضها أو ماذا ؟ (اتوني بكتاب من قبل هذا)
القرآن كالتوراة أو الانجيل أو غيرها يقول : ان الأصنام شركاء لله في خلقه أو
شفعاء لديه أو شيء يذكر (أو إثارة من علم ان كنتم صادقين) . وإذا لم يكن
لديكم دليل من النقل فهل عندكم دليل من العقل على صدق ما تقولون وصحة ما
تعبدون ؟ . وتقدم مثله في الآية ٤٠ من سورة فاطر .

الوثنية في عصر الفضاء :

وتسأل لماذا اهتم سبحانه هذا الاهتمام البالغ بالرد على عبدة الأوثان في هذه الآية وغيرها مع العلم بأن الأمر أهون وأيسر من ذلك ، فإن نفي الألوهية عن الأصنام بمكان من البهانة والوضوح تماماً كنفى البصر عن الأعشى ، والظلمة عن النور ؟.

الجواب : كان تقديس الأصنام وعبادتها جزءاً لا يتجزأ من حياة الناس منذ عهد نوح الى عهد الرسول الأعظم (ص) ، وبينهما آلاف السنين .. وحتى في عصرنا هذا، عصر الفضاء، تنتشر الوثنية في شرق الأرض وغربها .. وهل هذه التماثيل القائمة الآن في المعابد وعلى مفارق الطرق ورؤوس الجبال ، وهذه الرسوم على الجدران وفي المفكرات وهنا وهناك ، والتي تحكي الآلهة يزعم الزاعمين ، هل تقديس تلك التماثيل وهذه الرسوم إلا ضرب من الوثنية وعبادة الأصنام ؟.. وهنا يكمن السر لاهتمام الاسلام والقرآن في الرد على عبدة الأوثان ، وتجلى عظمة محمد (ص) في تكريم الانسان وتنزيهه عن عبادة ما صنعت يده ، قال الشاعر :

بكيت على الانسان ينحت صخرة ويعبدها للثفع يوماً أو الضرباً
وكفاه اولى بالعبادة لو درى هما نحتا هذه الصخور كما يلدي

(ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة) .
المراد بقوله : الى يوم القيامة ان الأصنام لا تجيب أبداً ، ولا يمكن أن تجيب ، والمعنى لا أحد أكثر جهلاً وضلالاً من الذي يعبد ما لا يسمع منادياً، ولا يجيب داعياً (وهم عن دعائهم غافلون) . ضمير « هم » وواو « غافلون » يعودان الى الأصنام ، وضمير دعائهم يعود الى المشركين ، والمعنى ان المشركين يعبدون الأصنام ، ولكن الأصنام في غفلة عنهم ولا يشعرون بوجودهم (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) . وأيضاً يوم القيامة عندما يحشر الله الناس للحساب والجزاء تتبرأ آلهة المشركين منهم ، ويكفرون بهم وبعبادتهم .
أنظر تفسير الآية ٢٨ من سورة يونس ج ٤ ص ١٥٢ .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ الْآيَةُ ٧ - ١٢ :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنُذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ *

الطبعة :

فلا تملكون لي فلا تغنون عني . تفيضون فيه تتكلمون فيه . والبدع من الأشياء ما لا مثيل له .

الإعراب :

بينات حال من آياتنا . وكفروا للحق اللام للتعديبة والمجرور متعلق بقال

لا بكفروا مثل قال له . أم يقولون « أم » للاستفهام . كفى به شهيداً الباء زائدة والضمير فاعل أي كفى الله شهيداً، وشهيداً تمييز . بيني وبينكم بمتزلة الكلمة الواحدة أي بيننا . وما أدري « ما » نافية . ما يفعل بي « ما » مبتدأ والخبر يفعل . ومن قبله متعلق بمحذوف خبراً لكتاب موسى أي وكتاب موسى كائن من قبله . وإماماً حال من الضمير في كائن . ولساناً حال من الضمير في مصدق . والمصدر من لينذر متعلق بمصدق . وبشرى عطف على المصدر المنسبك أي للأنذار والتبشير .

المعنى :

(وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين) . ضمير عليهم يعود الى مشركي العرب، والمراد بآياتنا وبالحق هنا القرآن، وللقم متعلق بقال ، ومعنى بينات ان آيات القرآن واضحة لا غموض فيها ولا تعقيد ، وبالرغم من وضوح القرآن وظهور الدلائل على أنه حق وصدق فقد وصفه المقترون الطغاة بالسحر المبين ، لا شيء إلا لأنه جعلهم وسائر الناس بمتزلة سواء . وتقدم هذا في العديد من الآيات .

(أم يقولون افتراء قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً) . أيزعم المشركون يا محمد ان هذا القرآن افتراء منك واختلاق ؟ قل لهم : كيف أكذب على الله وأنا أشد الناس خوفاً منه ؟ وهل تغفون عني شيئاً من غضب الله وعذابه إن كذبت عليه وافترت ؟ وإنما قال لهم هذا اعتماداً على ما يعرفونه في الرسول الأعظم (ص) من رجاحة العقل وكراهية الكذب وغيره من رذائل الأخلاق . (هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم) . ان الله سبحانه لا تخفى عليه خافية من أقوالكم وأفعالكم ، وأنتم محاسبون عليها ، وهو تعالى بما يعلمه منكم يشهد لي بالصدق والأمانة ، وعليكم بالكذب والخيانة (وهو الغفور الرحيم) يغفر لكم ويشملكم برحمته ان تبتم وأنتم .

(قل ما كنت بدعاً من الرسل) . لست بأول رسول يبلغ العباد رسالات

سورة الأحقاف

ربه ، فقد سبقي الكثير من الأنبياء والمرسلين (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم). النبي (ص) يعلم حاله وحال المشركين في الآخرة لأن الله أخبره بذلك كما في العديد من الآيات ، بالإضافة الى ان هذا العلم من لوازم النبوة ووظائفها ، وقد تواتر في الحديث ان النبي (ص) بشر أكثر من واحد بالجنة ، وعليه يكون المعنى ان النبي لا يعلم ما يحدث له في هذه الحياة ؟. وبأي شيء يمتحنه الله ويتبلي به ؟ وأيضاً هو لا يعلم ما يحدث للمشركين ؟ هل ينتقم منهم في هذه الدار ، أو يؤخر عذابهم الى يوم يعثون ؟.

(إن أنبئ إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين) . وليس من شأن النذير أن يعلم الغيب ، وإنما هو يبلغ عن الله ما يوحى اليه تعالى بما يحدث له وللمشركين في هذه الحياة . وتجدر الإشارة الى ان هذا كان قبل نزول الآيات الناطقة بأن العقاب لدين الله ورسوله ولو كره المشركون ، أو هو أسلوب من أساليب الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

(قل أرايتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدي القوم الظالمين) . السورة التي نفسرها مكية ما عدا هذه الآية ، فلنما نزلت في عبدالله بن سلام ، حيث أسلم في المدينة ، وكان عالماً كبيراً من علماء بني اسرائيل ، هذا ما جاء في أكثر التفسير ، والمعنى قل يا محمد للذين زعموا ان القرآن سحرٌ مفترى ، قل لهم : أخبروني عن حالكم عند الله ان ثبت ان القرآن حق وصدق ، وآمن به عالم من بني اسرائيل كعبدالله ابن سلام الذي يدرك أسرار الوحي ويشهد بأن تعاليم القرآن تماماً مثل تعاليم التوراة التي أنزلها الله على موسى ، ماذا يكون حالكم إذا بقيتم على ضلالكم وعنادكم ؟. أنظلمون أنفسكم تختارين وتعرضونها لنقمة الله وعذابه ؟.

(وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا اليه) . كان أكثر الذين استجابوا لدعوة الرسول (ص) في بداية الدعوة - من المستضعفين ، فانخذ الكبار الطغاة من ذلك سبباً للطعن برسالة الرسول لأن الحق بزعمهم يُعرف بالرجال المترفين ، ولا يُعرف الرجال بالحق ، فكل ما يفعله المترفون حق ، وكل ما يفعله غيرهم باطل .. ولكن من صارع الحق صرعه . ولذا لم تنص الأيام حتى

اعتلى العبد الحبشي بلال ظهر الكعبة بنادي لا إله إلا الله محمد رسول الله، وحطم الرسول الأعظم (ص) أوثان قريش ووضعها تحت قدميه ، وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً » . وفي تفسير الرازي ان أمة لعمر أسلمت ، وكان يضربها حتى يفتر ، فقال الكفار : لو كان الاسلام خيراً سا سبقتنا اليه أمة عمر .. ولكن عمر أسلم بعد ذلك ، وحارب الروم والفرس على الاسلام .

(وإذ لم يهتدوا به فيقولون هذا افك قديم) . ضمير لم يهتدوا ويقولون يعود الى كفار قريش ، وضمير به الى القرآن ، ووصفه الطغاة بالقديم لأن فيه يزعمهم خرافات وأساطير أكل الدهر عليها وشرب .. قالوا هذا لا شيء إلا لأنهم لا يؤمنون إلا بمصالحهم ومكاسبهم ، والقرآن ينكرها ويحاربها .

(ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) . القرآن كالتوراة التي نزلت على موسى ، كل منها إمام يهدي الى الحق ورحمة لمن آمن به وعمل بموجبه ، وقد بشرت التوراة بمحمد : « الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر - ١٥٧ الأعراف » . وأيضاً القرآن مصدق بهذه التوراة ، وينطق بلسانكم أيها العرب وينذر من أساء بالعذاب ، ويبشر من أحسن بالثواب فكيف تقولون تارة : انه سحر، وحيناً خرافات واساطير ، ولا تقولون ذلك عن التوراة؟

وحله وفصله ثلاثون شهراً الآية ١٣ - ١٦ :

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا خَلَقْتُهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعْتُهُ كُرْهًا وَخَلَعْتُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ

أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِيَّيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ *
أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنْ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ
فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ *

اللفظة :

فصّاله فطامه . وبلغ أشده صار بالغاً مدركاً . أوزعني أهمني . وأصلح لي
في ذريتي اجعل لي خلفاً صالحاً .

الإعراب :

خالدين حال من ضمير أصحاب . وجزاء نصب على المصدر أي يجزون جزاء .
وإحساناً نصب على المصدر أي ان يحسن إحساناً . وكرهاً صفة لمفعول مطلق
محذوف أي حملاً كرهاً أو حال أي كارهة . والمصدر من ان أشكر مفعول أوزعني .
وصالحاً صفة لمحذوف أي عملاً صالحاً . وعد الصدق منصوب على المصدر أي
وعده الله وعده الصدق .

المعنى :

(ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . في
الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء وصف سبحانه حال أهل الجنة بقوله : « لا يحزنهم
الفرع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » . وفي الآية التي
نحن بصدها قال سبحانه : ان هؤلاء هم الذين التزموا في الحياة الدنيا بدين الله

وشريعته عقيدة وقولاً وعملاً ، وهذا هو المراد من الاستقامة . وذُكرت هذه الجملة بالحرف في الآية ٣٠ من سورة فصلت ، وتكلمنا حولها مفصلاً .

(أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) . أولئك إشارة الى الذين آمنوا واستقاموا ، وقوله تعالى بما كانوا يعملون توضيح وتأكيد بأنه لا إيمان ولا استقامة بلا عمل .

(ووصينا الانسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً) . أي انها قاست الكثير في حمله ووضعته وحضانهه أيضاً . وفي بعض الروايات ان حتى الأم أحق وأوجب من حق الأب لأنها حملت ولدها حيث لا يحمله أحد ، وَوَقَّتْهُ بالسمع والبصر وجميع الجوارح مسرورة مستبشرة ، ورضيت بأن تجوع ويشبع ، وتظلماً ويروى ، وتعزى ويكتسى . فليكن الشكر لها والبر بها على قدر ذلك .. وكان الولد من قبل يرى ان من واجبه السمع والطاعة لوالديه ، أما الآن فيعتقد ان عليهما الخضوع لأمره دون قيد أو شرط . وتقدم الأمر بالبر بالوالدين في الآية ٨٣ من سورة البقرة والآية ٣٥ من سورة النساء والآية ١٥١ من سورة الانعام والآية ٢٣ من سورة الإسراء .

(وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) . وإذا عطفنا على هذه الآية قوله تعالى : « وفصاله في عامين - ١٤ لقمان » اذا فعلنا ذلك تبين معنا ان أقل الحمل ستة أشهر ، لأنه إذا أسقطنا عامي الرضاع من الثلاثين شهراً تبقى ستة أشهر لمدة أقل الحمل، ولقد أقر الطب الحديث هذه النظرية. وقال الشيخ المراغي المصري في تفسيره:

« أول من استنبط هذا الحكم علي كرم الله وجهه .. وروى محمد بن اسحاق صاحب السيرة ان رجلاً تزوج من امرأة ، فولدت له لئام ستة أشهر ، فشكا ذلك الى عثمان ، فبعث اليهسا ، ولما جاءت أمر برجمها ، فبلغ ذلك علياً فاتاه وقال له : أما تقرأ القرآن ؟ قال عثمان : بلى . قال علي : أما سمعت قوله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » وقوله « حولين كاملين » . فلم يبق بعد الحولين إلا ستة أشهر ، قال عثمان : والله ما فطنت لهذا ، علي بالمرأة . فوجدوها قد فرغ منها . قال معمر بن عبدالله : فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة أشبه من هذا الحمل بأبيه ، ولما رآه أبوه قال : ابني والله لا أشك فيه . »

سورة الأحقاف

(حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) . متى بلغ الغلام مبلغ الرجال بالاحتلام أو بالنس^١ وكان عاقلاً في تصرفاته كان له ما للبالغين الراشدين ، وعليه ما عليهم من التكاليف الشرعية . ولكن جماعة من المفسرين قالوا : ان هذه الآية تشير الى موضوع آخر ، وهو نضج الانسان وكمال عقله وجسمه بدليل قوله تعالى : « وبلغ أربعين سنة » لأن هذا النضج يبدأ في الغالب بسن الثلاثين ، ويستمر في النمو حتى الأربعين حيث يبلغ الغاية في طاقاته ومؤهلاته .

ومهما يكن فإن السن والمؤهلات لا توجب الوعي وأصالة الرأي إذا لم يمر الانسان بالكثير من التجارب .. وغير بعيد أن يكون ذكر الأربعين سنة في الآية للاشارة الى ان الانسان في الغالب يمر بعد بلوغ هذه السن بتجارب نافعة . وقال المفسرون وأهل السير : ان الله ما بعث نبياً إلا بعد الأربعين من عمره سوى عيسى ويحيى (قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه) . العاقل يطلب من الله سبحانه التوفيق والعون على تأدية الشكر له تعالى بالطاعة والانقياد ، وأعظم النعم كلها الهداية الى الحق والعمل بموجبه ، أما وجود الانسان من حيث هو فما هو بنعمة عليه ولا على غيره إذا لم يكن وسيلة للعمل الصالح . وجاءت هذه الآية بالحرف في سورة النمل الآية ١٩ ج ٦ ص ١٣ .

(وأصلح لي في ذريتي) . الأبناء عبء ثَقِيل على الآباء ، بل كارثة يبريئهم ومطالبهم وهمومهم .. ولكن الأب المسكين يرى رغبته وسعادته في هذه الكارثة إذا من الله عليه بفرية صالحة ، وإلا تراكمت المصائب والكوارث (اني تبت اليك واني من المسلمين) . وفيه إيمان الى ان الله لا يتقبل من مذنب ولا يستجيب لدعائه إلا إذا تاب من ذنوبه ، واستقام في أقواله وأفعاله (أولئك نتقبل عنهم أحسن ما عملوا) عن هنا بمعنى « من » مثلها في قوله تعالى : « ان الله هو يقبل التوبة عن عباده - ١٠٥ التوبة » . والمراد بأحسن ما عملوا غير السيئات ، أما

(١) قال الشافعية والحنابلة : يتحقق البلوغ بـ ١٥ سنة في الغلام والجارية . وقال المالكية : ١٧ فيها . وقال الحنفية : ١٨ في الغلام و ١٧ في الجارية . وقال الامامية : ١٥ فيه و ٩ فيها .

هي فيعفو الله عنها كما قال : (ونتجاوز عن سيئاتهم) لأنهم تابوا وأخلصوا (في أصحاب الجنة) أي معهم وفي عدادهم (وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) بقبول الأعمال والتجاوز عن السيئات ويدخول الجنة ، ووعدته تعالى الصدق ، وقوله الحق .

قال لوالديه أف لكما ١٧ - ٢٠ :

وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفْ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقَفِيهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ *

اللغة :

أف كلمة تدل على التضجر . ويلك الهلاك لك . وأساطير الأولين أباطيلهم . والمراد بالقول هنا كلمة العذاب . أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا استوفيتهم نصيبكم من الطيبات في الحياة الدنيا .

الإعراب :

والذي مبتدأ والمراد به الجنس لا شخص معين، وأولئك الذين حق خبره . اف
لكما أف اسم فعل ولكما متعلق به . والمصدر من ان أخرج مجرور بياء محذوفة .
ويلك مفعول لفعل محذوف أي ألزمتك الله الويل . وليوفيهم متعلق بمحذوف أي
بعثناهم ليوفيهم . وجملة أذهبهم مفعول لقول محذوف أي يقال لهم أذهبهم الخ .

المعنى :

(والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني ان أخرج وقد خلت القرون من قبلي)؟
من هو هذا الولد الذي يتحدث عنه القرآن ، ويقول : انه كافر عاق بوالديه؟
الجواب : ان الله لم يذكر شخصاً بالذات ، وظاهر الآية يدل على ان المراد به
كل ولد كفر باليوم الآخر ، وله أبوان مؤمنان قد اجتهدا في نصحه وهديته
وخوفاه من غضب الله وعذابه ، فقال لهما ساخطاً متبرماً : بعداً لكما كيف يخرج
الانسان من قبره ، وقد أصبح تراباً ويباباً ؟ فهل حدث ذلك لغيري في عصر
من العصور حتى يحدث لي ؟ .

وتصدق هذه الآية على الكثير من شباب هذا العصر حتى كأنها نزلت فيهم ..
ولو أنهم سألوا وناقشوا بقصد المعرفة والاهتداء الى الحقيقة لوجب علينا أن نرحب
بهم وبأسئلتهم ونقاشهم ، ونبذل جهد المستطیع لاقتناعهم عملاً بقوله تعالى :
« لتبينه للناس ولا تكتُمونه - ١٨٧ آل عمران » وإيماناً منهم بأنهم أخرج الناس
للبیان والهداية .

(وهما يستغيثان الله ويلك آمن ان وعد الله حق) . استغاثا بالله من كفر
وليدهما ، ودعوا عليه بالهلاك ، وأكدوا له ان البعث حق . وفي الغالب يكون دعاء
الوالدين على الولد أشبه باللغو في الايمان ، ولكن كلمة يستغيثان الله تومئ الى
عمق الحرقه واللوعة ، وشدة الألم والأسف لكفر الولد العاق وتمرده ، ومع هذا
أصر على الضلال (فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين) . أجاب على شفقة والديه
ونصحهما بقوله : ان كلامكما هذا لا يعبر عن شيء سوى السخف والأباطيل ..

وهكذا ينظر الكثير من أبناء هذا الجيل الى الآباء والأمهات .. والغريب ان أحدهم لو سمع من شاب مثله ما سمعه من أبويه لما وقف منه هذا الموقف الساخر .
 (أولئك الذين حق عليهم القول في أم قد دخلت من قبلهم من الجن والانس) .
 اولئك اشارة الى كل من عاند الحق وأعرض عن دعوة المخلصين . وحق عليهم القول أي كلمة العذاب .. وهذه هي سنة الله في الأمم الماضية والحاضرة أيضاً ، سواء في ذلك الانس والجن (انهم كانوا خاسرين) . لأنهم نكصوا عن دعوة الحق ، واستغشوا الناصح الأمين (ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) . تضاوت مراتب الناس يوم القيامة بحسب أعمالهم في الدنيا، وأوضح تفسير لهذه الآية قوله تعالى : « يوم نجد كل نفس ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سوء - ٣٠ آل عمران » .

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أي يعذبون بها وتقول لهم ملائكة العذاب : (أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) . جمعتم المال وكنتم منه المسلاين بالسلب والنهب ، وشيدتم المصانع وناطحات السحاب على حساب المستضعفين ، وتقلبتم في الملهذات والشهوات ، وقد استوفيتم بذلك حظوظكم بكاملها ، ولم تدخروا شيئاً ليوكم هذا (فالיום نجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) . أعرضتم عن الحق علواً واستكباراً ، وملأتم الأرض ظلماً وفساداً ، فذوقوا الآن مرارة البغي ، كما ذقتم حلاوته بالأمس .

وفي تفسير الشيخ المراغي ان رسول الله (ص) كان إذا سافر آخر عهده من أهله بفاطمة ، وأول من يدخل عليه من أهله فاطمة متى عاد من سفره . وقدم من بعض الغزوات وتوجه الى بيتها كما دته ولما أراد الدخول على ابنته فاطمة رأى على بابها ستاراً من شعر غليظ ، ورأى على الحسن والحسين سوارين من فضة ، فرجع ولم يدخل .. فلما رأت ذلك فاطمة ظنت أنه لم يدخل من أجل ما رأى ، فهتكت السر ، وأرسلت السوارين الى أبيها : فأعطاهما لبعض المعوزين ، وقال : ان هؤلاء أهل بيتي - يشير الى فاطمة ومن في بيتها - ولا أحب أن يأكلوا طياتهم في حياتهم الدنيا .

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْظَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ *

اللغة :

في القاموس المحيط : الأحقاف جمع حقف بكسر الحاء ، وهو الموج من

الرمل، وفي مجمع البحرين للطبري ان عاداً كانت بين جبال من بلاد اليمن . ومن بين يديه ومن خلفه أي من قبله ومن بعده . لتأفكنا لتصرفنا . والعارض هو السحاب الذي يعرض في أفق السماء . وحق بهم حل أو نزل بهم . وصرفنا الآيات جعلناها أنواعاً .

الإعراب :

ان لا تعبدوا «ان» بمعنى أي مفسرة لأنذر قومه . والمصدر من لتأفكنا متعلق بجئتنا . والهاء في رأوه تعود الى ما تعدنا . وعارضاً حال من مفعول رأوه لأن رأى هنا بصرية تعمل في مفعول واحد . وريح خبر مبتدأ محذوف أي هو ريح . كذلك نجزي الكاف بمعنى مثل قائمة مقام المفعول المطلق أي مثل ذلك الجزء نجزي . مكناهم فيها ان « ما » بمعنى الذي و « ان » نافية أي مكنا عاداً من المال والقوة ما لم نكنكم فيه يا قريش . وآله مفعول ثان لاتخذوا ، والمفعول الأول محذوف أي اتخذوهم . وقرباناً مفعول من أجله أي اتخذوهم آله ليقربوهم الى الله مثل قوله تعالى حكاية عنهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى - ٣ الزمر » .

المعنى :

ذكر سبحانه قصة هود مع قومه عاد في سورة الأعراف الآية ٦٥ - ٧٢ ج ٣ ص ٣٤٧ وأيضاً في سورة هود الآية ٥٠ - ٦٠ ج ٤ ص ٢٣٨ وأيضاً في سورة الشعراء الآية ١٢٣ - ١٤٠ ج ٥ ص ٥٠٨ الى غير ذلك من الآيات السابقة واللاحقة . ولذا نوجز هنا ما أمكن اعتماداً على ما سبق .

(واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالأحقاف) . اذكر يا محمد لقومك قصة هود مع قومه لعلهم يتعظون ويعتبرون ، وقد كانوا عرباً مثل قومك ، وأكثر منهم قوة ومالاً ، وكانت ديارهم قريبة من بلد قومك لأنهم سكنوا الأحقاف ، وهي من أرض اليمن المتصلة بالحجاز - كما قيل - (وقد خلت النذر من بين

سورة الأحقاف

بديه ومن خلفه) . المراد بالنذر الرسل ، وضبير يديه وخلفه يعود الى هود ، والمعنى اذكر يا محمد لقومك أيضاً ان هوداً لم يكن أول المرسلين ، ولا هو آخرهم ، بل أرسل الله كثيرين من قبل هود ومن بعده ، وكان ينذر قومه بهذا النداء الذي جاء على لسان كل نبي : (الا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ان بقيتم على ما أنتم عليه من الشرك والضلال .

(قالوا أجبنا لتأفكنا عن آلهتنا فالتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين) . أتريدنا يا هود أن نترك عبادة الأصنام ، ونعبد إلهاً واحداً .. ان هذا لشيء عجاب !. وتهددنا بعذاب عظيم ؟ عجل به ان كان تهديك حقاً وصدقاً (قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به إليكم ولكني أراكم قوماً تجهلون) . أمرني ربي أن أنفركم بالعذاب ، فأطعت وأنفرت ، أما متى يقع العذاب ؟ وما هو نوعه ولونه فعلمه عند الله ، ولا أعلم من ذلك شيئاً ، ولكني أعلم علم اليقين انكم في غمرة الجهل والضلال (فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم فقالوا هذا عارض ممطرنا) . الهاء في رأوه للعذاب ، وعارضاً أي عرض في الأفق، ومستقبلاً أوديتهم متوجهاً إليها ، والمعنى ظنوا العذاب سحاباً من الغيث ، ففرحوا به ، وبشر بعضهم بعضاً بالخصب والرخاء .

فقال لهم هود أو لسان الحال والواقع : (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها) . رأوا سحاباً في الأفق ، ظاهره الرحمة وباطنه العذاب ، فانخدعوا بالظاهر ، وذهلوا عما وراءه من المخبات والمفاجآت ، فأنذهم العذاب ، وهم في سكرة من كواذب الأمانى والآمال .. وهذه نهاية من تمادى في غوايته ، وانقصاد الى رغبته (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) التي أصبحت قبوراً لأجسامهم . والعاقل من انعط بهم وبأمثالهم ، وخاف بطش الله عند النعمة والرخاء ، ورجا رحمته عند الشدة والضراء (كذلك نجزي المجرمين) في الدنيا والآخرة ، أو في الآخرة فقط على ما توجه الحكمة البالغة .

(ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) . أهلكنا عاداً لما طغوا وبغوا ، وقد كنا أعطيناهم من القوة والمال ما لم نمطكم مثله يا عتاة قريش .. ألا تخشون أن يصيبكم مثل ما أصاب عاداً وغيرهم من الأمم الماضية ؟. (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً

وأفئدة) تماماً كما جعلنا لكم) فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) لأنهم لم ينتفعوا بشيء منها ، بل كانوا كالمجنون والأبكم والأصم والأعمى فيما يعود الى التذكير والتحذير .. فلا يفرحكم يا أهل مكة ما يعجبكم من أصابعكم وأبصاركم وعقولكم فإنها لا تغني عنكم من شيء اذا نزل بكم العذاب (إذ كانوا يحمدون بآيات الله وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) . جحدوا الحق ودلائله ، وسخروا منه ومن أهله ، وأمعنوا في البني والفضال ، فكان جزاؤهم الهلاك والدمار .

(ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون). الخطاب في حولكم لمشركي مكة ، والمراد بالقرى أهلها وهم عاد وثمود ومن جاورهم ، وصرفنا الآيات بيئنا لهم أنواعاً من الدلائل والعظات، وأنذرناهم بالأقوال والأفعال كي يتعظوا ويرتدعوا، فأبوا إلا كفوراً، فحق عليهم العذاب ودمرناهم تديباً (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آله) . عبدوا الأصنام ليقربوهم من الله ، وينقذوهم من بأسه ، ولما نزل بهم العذاب لم تغن الأصنام عنهم شيئاً (بل ضلوا عنهم) أضاعوهم ولم يهتدوا الى مكانهم .. وفي هذا ما فيه من الزرابة والاستخفاف بهم وبأصنامهم (وذلك لإفكهم وما كانوا يفترون) . ذلك إشارة الى عدم نجدة الأصنام ، وأنها لا تسعف من كان يعبدها ويرجوها وقت الضيق ، والمعنى ان قول المشركين بأن الأصنام شفعائنا عند الله ، وتنجيننا من عذابه هو إفك وافتراء .

الجن يستمعون القرآن الآية ٢٩ - ٣٢ :

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَصَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى

سورة الأحقاف

طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ
مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنَ عَذَابِ الْإِيمِ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ
بمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ *

اللفظة :

المراد بصرفنا هنا وجهنا . وقضى فرغ .

الإعراب :

إذ متعلقة بمحذوف أي واذكر إذ صرفنا . والهاء في حضروه للقرآن . ومصدقاً
صفة لكتاب . ويغفر مجزوم بجواب الأمر ، وهو آمنوا . ويخرجكم عطف على
يغفر . ومن لا يجب « من » اسم شرط ولا يجب فعل الشرط ، وجوابه فليس
بمعجز والباء زائدة لإعراباً ومعجز خبر ليس ، واسمها ضمير مستتر يعود الى من.

المعنى :

(وإذ صرفنا اليك تقرأ من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا
فلما قُضي ولّوا الى قومهم منذرين) . من وظيفة العقل ان يحكم بإمكان وجود
الشيء أو امتناعه ، فإذا حكم بإمكانه وعدم امتناعه لجأنا للتثبت من وجوده في
الخارج الى وسائل الاثبات التي تتفق وطبيعة الشيء الذي نريد اثباته . فإن كان
من الأمور الحسية فعلينا أن نثبته بالحس والتجربة ، وان كان من الأمور العقلية
فالطريق الى التعرف على وجوده هو العقل ، وان كان من الأمور الغيبية
— غير وجود الإله — فلا طريق إلى معرفته إلا الوحي ، فإذا أنزل وجب التعبد
به .. وليس من شك ان العقل لا يأبى وجود كائنات غيبية — أي غائبة عنا

تباين ما عرفناه والفتناه من المخلوقات ، بل نحن على يقين ان ما نجهل من الكائنات أكثر مما نعلم ، من ذلك وجود الجن ، فقد ذكرهم سبحانه في العديد من آياته ، منها قوله تعالى حكاية عنهم : « وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك - ١١ الجن » . وقد دفع الله بنفر من هؤلاء الصالحين الى الرسول الأعظم (ص) ، واستمعوا اليه وهو يتلو القرآن ، فقال بعضهم لبعض : اسكتوا وتدبروا معانيه ، فسكتوا وأصغوا بإمعان ، ورأوا فيه الهدى والنور فآمنوا به وبمحمد (ص) ، ولما فرغ الرسول من التلاوة سارعوا الى قومهم منلرين ومبشرين بالاسلام .

(قالوا يا قومنا انا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي الى الحق والى صراط مستقيم) . قالوا لقومهم : سمعنا كتاباً من محمد (ص) يشبه الكتاب الذي أنزله الله على موسى ، وهو مصدق لما جاء به الأنبياء من الدعوة الى الايمان بالتوحيد والبعث ، وأيضاً هو يرشد الى الصواب وعمل الخير : فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشد فآمنوا به ولن نشرك بربنا أحداً ، ١-٣ الجن . ونحن اذا لم نر الجن الذين تأثروا بالقرآن وآمنوا به فقد سمعنا ورأينا الكثير من العلماء والعقلاء تأثروا بكلمات القرآن بمجرد الاستماع اليها ، وآمنوا ايماناً لا يشوبه ريب انه من لدن حكيم عليم .

(يا قومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويمحرم من عذاب أليم) . استجبوا الى دعوة الحق ، واتبعوا الداعي اليها يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم في رحمته ، وينجكم من غضبه وعذابه (ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء) . أبداً لا مهرب من الله إلا اليه ، ولا نجاة من عذابه إلا بالاخلاص والعمل الصالح (أولئك في ضلال مبين) . أولئك اشارة الى الذين لم يستجيبوا لداعي الله .. ومن لم يستجب له فقد نكب عن طريق الحق والرشاد .

اليس هذا بالحق الآية ٣٣ - ٣٥ :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِخَلْقَيْنَ
بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّمَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَيَوْمَ يُغْرَضُ
الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا
تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ
نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ *

اللغة :

لم يعي من الإعياء وهو المعجز أي لم يعجز . والعزم الجسد والثبات . وبلاغ
كفاية .

الإعراب :

بقادر الباء زائدة إعراباً وقادر خبر ان الله الخ . وربنا الواو للقسم . وبلاغ
خبر لمبتدأ محذوف أي هو بلاغ أو الذي وعُظم به بلاغ .

المعنى :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِخَلْقَيْنَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّمَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) . هذا الكون المعجيب الذي دل على

قدرة الخالق وعظمته يدل أيضاً وبطريق أولى على انه تعالى قادر على إحياء الموتى ، لأن السبب الموجب للأمرين واحد ، وهو قدرة من اذا قال للشيء كن فيكون ، قال الإمام علي (ع) : عجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى . وتقدم هذا المعنى في عشرات الآيات وبآتي الكثير ، من ذلك قوله تعالى : « أفعيينا بالخلق الأول - ١٥ في » . فكيف نعيانا بالخلق الثاني ؟ .

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أي يعذبون بها ، ويقال لهم : (أليس هذا بالحق) الذي كفرتم به من قبل ؟ (قالوا بلى وربنا) . أنكروا في الدنيا حيث يضرهم الانكار ، وأقروا في الآخرة حيث لا ينفعهم الإقرار شيئاً (قال فلقوا العذاب بما كنتم تكفرون) بل وتسخرون من الذين آمنوا بحساب الله وعذابه ، ومثله : « ولو ترى اذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون - ٣٠ الانعام » ج ٣ ص ١٧٩ .

(فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل). جاء في كثير من التفسير ان اولي العزم خمسة : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد، ولقد كان لكل واحد منهم شريعة خاصة أوجب الله العمل بها على جميع خلقه الى عهد الذي يليه من الخمسة ، فتسخ اللاحقة الشريعة السابقة الى شريعة محمد (ص) سيد المرسلين، وخاتم النبيين، فإنها ناسخة غير منسوخة الى يوم القيامة ، أما الأنبياء الآخرون فقد كان كل واحد منهم يعمل بشريعة من تقدمه من اولي العزم .. وفي هذا روايات عن أهل بيت النبي (ص) وتومى اليه الآية ١٣ من سورة الشورى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى » حيث خص سبحانه الخمسة بالذكر دون غيرهم ، وكلمة شرع ظاهرة بالشريعة ، والخطاب في « إليك » لمحمد (ص) .

(ولا تستعجل - العذاب - لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) . الخطاب في لا تستعجل لمحمد (ص) وضمير « لهم » وكأنهم يعود الى الذين كفروا برسالته ، والمراد بما يوعدون عذاب جهنم، والمعنى لا تستعجل العذاب يا محمد للذين كفروا فإنه نازل بهم في الآخرة لا محالة ، أما مكوثهم في

سورة الأحقاف

الدنيا وان طال فإنهم سوف يرونها لحظات حين ينزل بهم العذاب .. ومثله متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد - ١٩٧ آل عمران . وفي نهج البلاغة :
انما الدنيا متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب ، أو كما يتقشم السحاب .

(بلاغ) أي القرآن بلاغ لرسالات الله تعالى ، وهو حجة كافية ، وموعظة شافية لمن طلب الرشd والمهداية (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) ؟ كلا .. إن المتقين في مقام أمين ، في جنات وعيون - ٥٢ الدخان .

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

٣٨ آية كلها أو جلها مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وآمنوا بما نزل على محمد الآية ١ - ٦ :

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَاهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ * فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَاهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ *

اللغة :

يطلق البال على القلب تقول : خطر بيالي أي بقلبي أو بذهني ، ويطلق على الشأن والحال ، وهذا هو المراد هنا . ائتموهم أكثرهم فيهم القتل . الوثاق يفتح الواو وكسرهما ، وهو ما يُشد به من قيد أو حبل ، وقيل : فشدوا الوثاق كناية عن الأسر .

الإعراب :

ذلك مبتدأ وبأن الذين الخ متعلق بمحذوف خبراً أي ذلك كائن بسبب اتباعهم الباطل . فضرب الرقاب مصدر منصوب نائب مناب فعل أمر محذوف ، والأصل فاضربوا الرقاب ضرباً . وكل من « مناً » و « فداءً » نائب مناب فعل محذوف ، والأصل إما تمنون مناً وإما تفادون فداءً .

المعنى :

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) . صدوا تأتي بمعنى أعرضوا ، وبمعنى منعوا ، وعلى الأول يكون معنى كفروا وصدوا واحداً ، والعطف من باب التفسير ، وعلى الثاني يكون المعنى أنهم لم يؤمنوا وأيضاً منعوا الناس عن الإيمان ، وهذا هو الظاهر من دلالة اللفظ . وأضل أعمالهم أي أبطلها حتى كأنها لم تكن ، والمعنى أن من أعرض عن الاسلام ومنع الناس عنه فلا يقبل الله من عمله شيئاً ، لأن الاسلام شرط أساسي في ثواب الآخرة ، قال تعالى : « وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله - ٥٤ التوبة . »

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) . بعد أن قال سبحانه : انه لا يقبل من الكافرين قال : أما من يعمل من الصالحات وهو مؤمن بالله وبالقُرآن الذي لا ريب فيه - أما هذا فإن الله يقبل منه ، ويصفح عن ذنوبه إذا تاب منها ، ويصلح

شأنه في الدنيا بالتوفيق والهداية الى الخير ، وفي الآخرة بإدخاله الجنة (ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) . ذلك اشارة الى ثواب الصالحين ، وعقاب المجرمين ، والمعنى ان للحق أهلاً ، وللباطل أهلاً ، والله سبحانه يوفي كلاً منها أعمالهم انه بما يعملون خبير (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) . فيبين للصالح ثواب أمثاله من الصالحين ليكون على يقين من صلاحه وهدايته ، ويبين للمجرم عقاب المجرمين من أمثاله لعله يهتدي ويرتدع .

(فإذا لقبتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) . هذه الآية من أمهات الآيات ومحكماتها ، وموضوعها هام ، وهو القتال ، لذا نبداً بتفسير مفرداتها ، ثم نبين المعنى المحصل منها .. والمراد باللقاء هنا مواجهة أعداء الاسلام والمسلمين في جبهة الحرب والقتال . وضرب الرقاب كناية عن القتل سواء أكان بضرب الرقبة أم بغيره ، وانما خص سبحانه الرقاب بالذكر لأنها من الأعضاء الرئيسية. واثخنتموهم أكثرتم فيهم القتلى حتى ظفرت بهم وتمكنتم منهم . فشدوا الوثاق أحكموا وثاق الأسير منهم بقيد أو حبل أو سجن كيلا يفر ويعيد الكرة عليكم . فإما مناً اي أن تمنوا بالصفح على الأسير من غير عوض . وأما فداء أن تطلقوا سراحه بعوض . وحتى تضع الحرب أوزارها أي حتى يستسلم العدو ويلقي السلاح لأن أوزار الحرب سلاحها .

ومعنى الآية بمجموعها ان أعداء دين الله اذا أصروا على الكفر ، والتقيمت بهم أي المسلمون في ساحة القتال فاقتلوهم ، ولا تأخذكم بهم رافة في دين الله ، واحمدوا لهم ، وامضوا في قتلهم وقتلهم حتى تتمكنوا منهم ، وعندئذ أحكموا أسر من بقي منهم كيلا يفلت ، ويعيد الكرة عليكم ، ومتى تم ذلك كان الخيار للنبي أو نائبه في اطلاق الأسير بفداء أو من غير فداء حسبما تقتضيه المصلحة.. ونجدد الاشارة الى ان معنى هذه الآية والآية ٦٧ من سورة الأنفال : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » ج ٣ ص ٥٠٧ ان معنى الآية: واحد ، وهو لا أسر إلا بعد الإثخان .

(ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض) . ذلك اشارة

الى ما بينه سبحانه من قتل أعداء الله وأسره في ساحة الحرب ، وألقى انه جل وعز لو أراد أن ينتقم من أعدائه في الدنيا من غير قتال لأهلكهم بما لديه من جنود السموات والأرض ، ولكنه تعالى أمر المؤمنين بالجهاد وابتلاهم بالكافرين لتظهر الأفعال التي يستحق بها الثواب والعقاب .

(والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) . ان الله يقاقل من عصاه بمن أطاعه ، وإذا قُتل المطيع فلن يذهب دمه سدى .. كيف ؟ وقد استشهد في سبيل الله ومن أجل الله .. ومن أوفى من الله لمن أخلص له وعمل من أجله ؟ وقد بين سبحانه أجر العاملين من أجله ، بينه بقوله : (فلن يضل أعمالهم) بل تعود عليهم بالخير ، وذلك بأنه تعالى (سيهديهم) الى منازلهم في الجنة تماماً كما كانوا يهتدون الى منازلهم في الدنيا (وبصلح بهم) أي شأهم في يوم يفر المرء من أخيه وأمه وبنيه (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) أي بينها لهم بأنهارها وأثمارها ، وقصورها وحورها ، وما إلى ذلك مما تشهبه الأنفس وتلد الأعين .

ان تصروا الله ينصركم الآية ٧ - ١٤ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ
اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِم وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ذَلِكَ بِأَن
اللَّهُ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَكَانَ

مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ*
أَفَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ*

اللغة :

نصاً لهم هلاكاً لهم . والمثوى المقر .

الإعراب :

والذين كفروا مبتدأ والخبر فعل مضمر أي فأنصناهم نصاً . وكأين بمعنى كم ،
وعملها الرفع بالابتداء وجملة أهلكتناهم خبر . وضمير الغائب في أهلكتناهم يعود
الى أهل القرية . أفن مبتدأ وكمن خبر .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) . وتثبيت الأقدام
كناية عن الصلابة والثبات . والآية واضحة الدلالة على ان الله سبحانه مع أهل
الحق والعدل ينصرهم ويأخذ بأيديهم ، وفي معناها كثير من الآيات ، كالأية
١٢٨ من سورة النحل « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » والآية ٣٨
من سورة الحج « ان الله يدافع عن الذين آمنوا » والآية ٤٠ منها « ولينصرن الله
من ينصره ان الله لقوي عزيز » والآية ٥٧ من سورة المائدة « فإِنْ حَزَبَ اللَّهُ
هَمَّ الْغَالِبِينَ » .

والنصر من الله سبحانه على أنواع ، منها النصر على الأعداء بالقتال وقوة
السلاح ، كانتصار الرسول الأعظم (ص) على عتاة الكفر والظلم من قريش وغيرهم ،
ومنها النصر بعذاب من السماء كالخسف والظوفان والريح العاتية ، ومنها النصر

بقوة الحججة والبرهان عند نقاش الخصم وجداله ، ومنها النصر بعلو الشأن وخلود الذكر في الدنيا ، ومنها النصر في الآخرة يوم تسود وجوه وتبيض وجوه وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد - ٤٩ ابراهيم .

وإذا تبين معنا ان النصر من الله على أنواع ، وان قوله تعالى : « ان تنصروا الله ينصركم » مطلق غير مقيد بنوع من أنواع النصر ، ولا مقرون بصفة من صفاته ، إذا تبين هذا علمنا ان المراد من النصر في الآية أي نصر كان .. وليس من شك انه كائن لا محالة ، ولو في اليوم الآخر الذي لا ريب فيه ، وعليه فلا وجه للاعتراض أو السؤال : كيف وعد الله سبحانه المحققين بنصره مع ان تاريخ البشرية متختم بأخطر المظالم والاعتداءات على الطيبين والمخلصين ؟ . وسبق الكلام عن هذا الموضوع مفصلاً عند تفسير الآية ٣٨ من سورة الحجج ج ٥ ص ٣٣١ فقرة « لا يخلو المؤمن من ناصر » .

الدولة الاسلامية :

ونشير بهذه المناسبة الى ان بعض الفئات تدعو الآن الى قيام دولة اسلامية ، وأي مسلم يخلص لله فيها يدين بأبى أن يكون للإسلام سلطان ينفذ أحكام القرآن ، وللمسلمين ما يوحد كلمتهم ويجمع قوتهم ، وينقذها من التفتيت والتشتيت ؟ .

ولكن نسأل : هل توجد هذه الدولة بمجرد رفع الشعارات واذاعة البيانات ، أو بتكثير العائم على رؤوس الجهلاء والدخلاء ؟ وهل من الممكن أن تنبثق عن ٧٠٠ مليون مسلم منتشرين في شرق الأرض وغربها ، ولهم قوميات متعددة ، ومذاهب سياسية مختلفة ، وفرق متباينة ، وبعضهم يخضع لدول اشتراكية ، وبعضهم لدول رأسمالية ، وآخرون لهم كيان مستقل أو شبه مستقل . وإذا تكونت هذه الدولة من المسلمين العرب أو غير العرب فهل تستطيع أن تواجه مسؤولياتها ، وتنجح في حل مشاكل المسلمين في الأقطار الأخرى ؟ ثم هل تكون هذه الدولة سنية أو شيعية أو منها ؟ وترك الجواب عن هذه التساؤلات للمخلصين من ذوي الاختصاص .

لقد عانى المسلمون الكثير من الهزائم والاذلال ، وكفى بهزيمة هـ حزيران وهنا واذلالاً ، والسبب الأول والأخير هو التمزق والتفرق ، والعلاج معروف عند الجميع وهو الوقوف صفاً واحداً ضد العدو المشترك الذي حددته حرب حزيران ، وأبرزته واضحاً للعيان ، فمن أخلص لله وأراد النصح للإسلام والمسلمين حقاً وصدقاً فعليه أن يحصر جهوده كلها في العمل من أجل تعاون المسلمين على الخلاص والتحرر من القوى الفاسدة الداخلية والخارجية ، ومنى تمت التصفية وتحققت الحرية الكاملة فكّر المخلصون في دولة إسلامية أو غيرها مما فيه لله رضا ، وللمسلمين صلاح . وخير ما نؤيد به إشارتنا هذه قول الإمام أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة : « ان المبتدعات المشتبهات من المهلكات .. وان في سلطان الله عصمة لأمركم ، فأعطوه طاعتكم .. أو لينقلن الله عنكم سلطان الاسلام » . وإذا انتقل سلطان الاسلام عن السلف لتفرق أهوائهم وشتات كلمتهم فهل يعود البنا ونحن أكثر تفرقاً وشتاتاً ؟

وتسأل : أصحيح ما يقال : ان المصدر لفكرة الدولة الاسلامية هو الصهيونية لتبرر بها دولتها الدينية العنصرية ، وتقول لمن عاب عليها ذلك : ان المسلمين يطالبون أيضاً بدولة دينية ؟

الجواب : ان دين اليهود عدو الحياة والانسانية ، لأن الله في عقيدتهم إله قَبَلِي لا يعنيه من العالم أحد سوى اسرائيل وحدها ، وان جميع الناس خلقهم الله عبيداً لهم كما جاء في كتاب « الكثر المرصود » للدكتور يوسف حنا نصرالله ، وكتاب « البقاء اليهودي » للصهيونية روز مارين .

أما الاسلام فهو دين الحياة والرحمة والانسانية جمعاء ، ولا شيء أدل على ذلك من الآيات والأحاديث التي أعلنت بأن الاسلام يهدي للتي هي أقوم ، وانه يرتكز على العقل والقطرة ، وان دعوة الله والرسول انما تجب تليبيتها لأنها تدعو الى حياة أفضل ، ومعنى هذا ان الاسلام علماني عقلاني أي يهتم بالانسان بما هو انسان أياً كان ولو يهودياً ، شريطة أن لا يعتدي على أخيه الانسان .. وأين هذا من دين اليهود الذين أسحموا أنفسهم شعب الله الخاص ؟

(والذين كفروا فتعسأ لهم) لا يرون غير الخزي والهلاك (وأضل أعمالهم)

فلا تعود عليهم بخير (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) . كرهوا الرسول (ص) والقرآن الذي نزل عليه لا شيء إلا لأنه أرادهم للحق وهم له كارهون ، فكانوا من الأحمرين أعمالاً . والإضلال والإحباط بمعنى واحد ، وهو الضياع وعدم الجدوى من العمل ، وكرر سبحانه ليشير إلى أن ضياع العمل لا ينفك عن الكفر بالقرآن وكراهيته .

(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) . كيف كذب المشركون برسالة محمد (ص) وهم ينظرون في الأرض آثار الماضين ، ويسمعون بأن الله انتقم منهم لما كذبوا الرسل ؟ . وتقدم مثله بالحرف الواحد في العديد من الآيات (دمر الله عليهم) أهلكهم بأولادهم وأزواجهم وأموالهم (وللكافرين أمثالها) . ان حكم الله في الطغاة واحد ، فإذا دمر على الأوائل لطغيانهم فهو يدمر أيضاً على الأواخر لنفس السبب .

(ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم) . ذلك إشارة إلى التدمير والتحطيم ، والمعنى ان الله أهلك الكافرين حيث لا ناصر لهم من دون الله ولا شفيع ، أما المؤمنون فالله يتولى أمورهم ويدافع عنهم وينعم عليهم (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) . المعنى واضح ، وتقدم في كثير من الآيات (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) . انهم تماماً كالبهائم يأكلون ولا يفكرون في شيء ، فكان مصيرهم جهنم يصلونها وبش القرار ، قال الإمام علي (ع) : « فما خلقت ليشغلي أكل الطيبات كالبيضة المربوطة مهما علفها ، أو الرسالة شغلها تقممها - أي النقاط القمامة - تكثر من أعلافها وتلهو عما يراد بها » .

(وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) . هذا تهديد للذين تأمروا على اغتيال الرسول الأعظم (ص) واضطروه الى الهجرة من بلده مكة الى المدينة . انظر تفسير الآية ٣٠ من سورة الانفال ج ٣ ص ٤٧٢ . وفي تفسير الطبري عن ابن عباس ان النبي (ص) لما خرج من مكة قال : أنت أحب بلاد الله الى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلي ، فلو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك ، فأعنى أعداء الله من عتا على الله في حرمه أو قتل

غير قاتله . فانزل الله سبحانه الآية . (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبوا أهواءهم) . ليس سواء عند الله من أخذ الحق من معدنه ، وكان على بصيرة من أمره ، ومن قاس الحق والعدل بأهوائه وأغراضه ، ومع هذا يرى انه من أحسن الناس عملاً .

صلة الحنة الآية ١٥ - ١٩ :

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَامًا تَقَرَّأْتُمْ * قَبْلَ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ * فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ *

المادة :

آسن متغير . هيم شديد الحرارة . آنفاً أي من أول وقت يقرب منا . وآناهم

تقواهم وفقهم اليها، واشراطها علاماتها ودلائلها . وذكرهم تذكركم . متقلبكم ذهابكم ومجيئكم في أعمال الدنيا . مثواكم المراد بمثواكم مضاجعكم للنوم أو سكونكم ، وقيل : مصيركم في الآخرة .

الإعراب :

مثل الجنة مبتدأ أول وأنهار مبتدأ ثان وفيها خبره والجملة خبر الأول، وقيل: خبر مثل الجنة محذوف تقديره ما أتلوه عليكم من أوصافها . ولهم فيها من كل الثمرات متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي أنواع من كل الثمرات . ومغفرة مبتدأ والخبر محذوف أي ولهم مغفرة ومن ربهم متعلق بمغفرة . كمن هو خالد في النار خبر لمبتدأ محذوف أي: آمن هو خالد في الجنة كمن هو خالد في النار . آتفاً ظرف زمان عند الزعشمري وحال عند أبي حيان الأندلسي . أي قريباً . والمصدر من أن تأتيهم بدل اشتمال من الساعة . وبغثة في موضع الحال أي مباغثة أو صفة لمفعول مطلق محذوف . فأتى لهم خبر مقدم وذكرهم مبتدأ مؤخر . وإذا جاءتهم جملة معترضة ، وفي جاء ضمير مستتر يعود الى الساعة ، والتقدير فأتى لهم ذكرهم إذا جاءتهم الساعة .

المعنى :

(مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن) . المراد بمثل الجنة صفتها ، والمعنى ان الله أخبر عباده أن من أوصاف الجنة ، فيها أنهار من ماء باق على أصله وحقيقته لم يغيره شيء . (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) ولا لونه ولا رائحته (وأنهار من خمر لذة للشاربين) تلذ في القم ولا تذهب بالعقل (وأنهار من عسل مصفى) من الشمع وغيره (ولهم فيها من كل الثمرات) ومنها ما لا يعرفون لها نظيراً في الدنيا . وفي بعض كتب الصوفية ان المراد بالماء هنا العلم ، وباللبن العمل ، وبالحمر لذة المحبة ، وبالعسل حلوة المعرفة والتقرب من الله .

وسبق منا أكثر من مرة ان كل ما جاء في كتاب الله وجب العمل بظااهره حتى يثبت العكس من النقل أو العقل ، والعقل لا يأبى شيئاً من أوصاف الجنة التي دل عليها ظاهر الآيات فوجب الأخذ به وابقاؤه على حقيقته ودلالته .

وتسأل : ان الله سبحانه ذكر في غير مكان من كتابه ان أهل الجنة يتمتعون فيها بلذة معنوية لا حسية، كحب الله لهم ، ومرضاته عنهم، وارتفاع شأنهم عنده، من ذلك قوله تعالى : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » آخر القمر . وقوله : « سيجعل لهم الرحمن وداً » ٩٦ مريم . فها هو وجه الجمع بين ما دل من الآيات على ان نعيم الجنة يكون باللذة الحسية وما دل منها على انه يكون باللذة المعنوية ؟ .

الجواب : لا مانع من الجمع بين اللذتين والعمل بالدالتين .. فأهل الجنة يتمتعون بحب الله وبعلو الشأن عنده ، وأيضاً يتمتعون بالطيبات من المأكول والمشرب . قال الملا صدرا في الأسفار : « أما الجنة فهي كما دل عليه الكتاب والسنة مطابقاً للبرهان .. فلا موت فيها ولا هرم ولا غم ولا سقم ولا دثور ولا زوال ، وهي دار المقامة والكرامة لا يمس أهلها نصب ولا لغوب ، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون ، وأهلها جيران الله وأولياؤه وأحباؤه ، وأهل كرامته ، وأنهم على مراتب متفاضلة ، منهم المتنعمون بالتسبيح والتكبير ، ومنهم المتنعمون باللذات المحسوسة كأنواع المأكول والمشرب والفواكه والأرائك والخور العين واستخدام الولدان والجلوس على المارق والزرابي ولبس السندس والحريير والاستبرق ، وكل منهم إنما يتلذذ بما يشتهي ويريد على حسب ما تعلقت به همة » .

(ومغفرة من ربهم) . الذين يتمتعون بملذات الدنيا وشهواتها يحاسبون عليها حساباً عسيراً : « يحسبون أنما نغدhem به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون - ٥٦ المؤمنون » . أما أهل الجنة فإنهم يتقبلون في نعيمها وهم في أمن وأمان من حساب الله وعقابه (كمن هو خالد في النار) . في الكلام حذف دل عليه السياق ، والتقدير أفن هو خالد في الجنة كمن هو خالد في النار لا يستون (وسقوا ماءً حمياً فقطع امعاءهم) . كيف يستون . وأصحاب الجنة

يشربون الماء العذب واللبن والخمر والعسل المصفى ، وأصحاب النار يشربون حميماً وصديداً يظلي في البطون ؟ .

(ومنهم من يستمع اليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً) ؟ . ضمير منهم يعود إلى الناس ، ومن للتبعض ، والبعض المقصودون هم الكافرون أو المنافقون ، والخطاب في اليك للرسول (ص) ، وللذين اوتوا العلم هم علماء أهل الكتاب، والمعنى ان الذين يحضرون مجلسك يا محمد من الكافرين أو المنافقين يقولون ساخرين حين يخرجون من عندك وبعد أن استمعوا إلى كلام الله ، يقولون لمن حضر معهم من علماء أهل الكتاب : لم نفهم ماذا قال محمد ونحن في مجلسه الذي فارقناه قريباً ، فهل فهمتم أنتم شيئاً ؟ .. وهذا ديدن من لا يعجبه شيء إلا ما يعبر عن نزواته وشهواته .

(اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) . وقوله سبحانه : اتبعوا أهواءهم: يشير إلى جواب عن سؤال مقدر، وهو لماذا طبع الله على قلوبهم ؟ فأجاب لأن الأهواء رانت على قلوبهم حتى كأن الله قد ختم عليها أو خلقهم من غير قلوب ، وبتعبير الآية ه من سورة الصف : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » . (والذين اهتموا بازدهم هدى) . طلب المؤمنون الهداية بصدق وإخلاص ، فكان الله دليلهم وكفيلهم ، وزادهم علماً بالخيرات ، وشملهم بعنايته وتوفيقه إلى ما يعود عليهم بالخير دنيأً وآخره، وهذا هو المراد بقوله تعالى : (وآتاهم تقواهم) .

(فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) . ضمير ينظرون يعود الى الذين قالوا ساخرين بالرسول الأعظم (ص): ماذا قال آنفاً . قالوا هذا ذاهلين عن يوم القيامة الذي يأخذهم على الغرة ، ويقفون فيه أمام الله لتقاس الحساب وفصل الخطاب (فقد جاء اشراطها) الضمير للساعة ، والمراد بالاشراط هنا الدلائل والحجج القاطعة على البعث ، وقد جاءت في كتاب الله وعلى لسان محمد (ص) بشئ الأساليب ، ولم تدع عنراً لمنكر .

(فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) . في الكلام تقديم وتأخير ، والأصل فأنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة ، والمعنى لقد ذكرهم في الدنيا الرسول الأعظم فلم يتذكروا ، وحين بعثوا ورأوا العذاب تذكروا وندموا، ولكن حيث لا ينتفعون

بشيء (فاعلم انه لا إله إلا الله) هو يحيي ويميت ويعاقب ويثيب .. وغير بعيد أن يكون معنى فاعلم انه لا إله إلا الله هنا ادعُ الى الله ووحدانيته (واستغفر للذنوب وللمؤمنين والمؤمنات) . والاستغفار من الذنب محبوب لله تعالى ، ومطلوب بالذات ، سواء أكان هناك ذنب أم لم يكن (والله يعلم متقلبكم) في الأعمال (ومثواكم) مفركم حين تتركون العمل أو مصيركم في الآخرة كما قيل : وأياً ما كان فإن الله سبحانه يعلم حال عباده في الدنيا والآخرة ، وحين يتحركون ويسكنون .

طاعة وقول معروف الآية ٢٠ - ٢٣ :

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * قَهْلَ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ *

اللفظ :

محكمة واضحة بنصها . والمراد بالمرض هنا الشك والنفاق . وأولى تستعمل بمعنى أحق وأجدر وبمعنى الويل ، وهو المقصود من قوله تعالى : فأولى لهم . وعزم الأمر جد ولزم . والمراد بأن توليتم ولاية الحكم .

الإعراب :

لولا بمعنى هلا . وسورة بالرفع مفعول لفعل لم يُسَمَّ فاعله . ومن الموت على حذف مضاف أي من أجل نزول الموت . فأولى لهم مبتدأ وخبر . وطاعة مبتدأ وقول معروف عطف عليه والخبر محذوف أي خير لهم ، وهذا الإعراب نقله أبو حيان الأندلسي عن الخليل وسيبويه ، وقيل : طاعة خبر لمبتدأ محذوف أي أمرنا طاعة . واسم كان ضمير مستتر يعود الى الصديق المفهوم من قوله تعالى : صدقوا الله . والمصدر من أن تفسدوا خبر عيسى . وإن توليت جملة معترضة .

المعنى :

(ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا نزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت) . ومن أجل استقامة الكلام لا بد من تقدير جار ومجرور متعلق بنزلت ، والتقدير لولا نزلت سورة بالقتال ، أما الدليل على هذا المحذوف فقوله تعالى : « وذكر فيها القتال » والنحاة يعبرون عن مثله بأنه حذف من الأول دلالة الثاني عليه . ومحكمة واضحة بنصها على القتال ، والمعنى ان المؤمنين اخلص كانوا يتمنون أن يأمرهم القرآن بجهاد أهل الكفر والبغي ، ويتهافتون - إذا دعوا اليه - على بذل الأنفس في سبيل الله فرحين مستبشرين بلقاء الله وثوابه ، أما الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون فقد كانوا أشد الناس كراهية للجهاد والقتال ، وإذا نزلت فيه آية انهارت أعصابهم من الخوف ، ونظروا الى النبي (ص) نظرة الحق واللعن تماماً كالذي ينظر الى الموت وهو نازل به (فأولى لهم) قال كثير من المفسرين : معناه الويل لهم أي الموت والهلاك ، ويتفق هذا مع سياق الآية .

(طاعة وقول معروف) . هذه جملة مستأنفة ، ومعناها طاعة الله وقول يقبله الرسول من « المنافقين » خير لهم من شحن الصدور بالغيظ والنفاق، والنظر إلى الرسول بحقد وخوف (فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) . لو ان المنافقين أخلصوا لله واستجابوا لدعوة الرسول حين واجهوا الأمر الواقع

بإعلان الجهاد ، وأصبح فرضاً لازماً، لو فعلوا ذلك لكان خيراً لهم دنياً وآخرة ، ولكنهم أبوا إلا الفساد والفساد .

(فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم) . أظهرتم الاسلام أنها المناقون كرهاً له وخوفاً من قوته وسلطانه .. ولعلكم لو ملككم القوة والسلطان للأتم الأرض فساداً بعبادة الأصنام وسفك الدماء ونهب الأموال وقطع الأرحام (أولئك الذين لعنهم الله) بالبعد عن رحمة (فأصمهم وأعمى أبصارهم) . لما تصاموا عن نداء الحق ، وتعاموا عن رؤيته أصم الله أسمعهم وأعمى أبصارهم ، وبكلمة سلكوا طريق الهلاك مختارين فأهلكهم الله . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم - ١٠١ هود .

أفلا يتدبرون القرآن الآية ٢٤ - ٣١ :

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا * إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَشْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمُ فَلَغَرَفْتَهُمْ بِسِيَائِهِمْ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ *

اللغة :

يتدبرون القرآن يتفكرون فيه ويتفهمون معانيه . وسوّل زين . وأمل طوّل
لهم الأمانى والآمال . والسياء العلامة . ولحن القول فحواه ومغزاه .

الإعراب :

أم على قلوب « أم » منقطعة ومثلها أم حسب . الشيطان مبتدأ وجملة سول
خبر : والجملة من المبتدأ والخبر خبر ان الذين ارتدوا . فكيف خبر لمبتدأ محذوف
أي فكيف حالهم . ان لن « ان » مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي انه لن .
فلعرفتهم عطف على لأربناكهم واللام في لعرفتهم واقعة في جواب لو وكررت في
المعطوف للتأكيد . واللام في لعرفتهم في جواب قسم محذوف .

المعنى :

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) . ضمير يتدبرون يعود الى
المنافقين ، لأن هذه الآيات والتي قبلها تتحدث عنهم .. وكل ما جاء في القرآن
من الدلائل في خلق السموات والأرض على وجود الخالق ، ومن الحجج البالغة
على البعث ونبوّة محمد (ص) ، وعلى قبح الشرك والظلم والفساد في الأرض ،
كل ذلك وما اليه من العبر والعظات ظاهر الدلالة واضح المعنى ، لا غموض فيه
ولا تعقيد ، بالإضافة الى ما يستثيره اسلوب القرآن في قلب القارئ . والسامع من
الخشوع والاحساس — اذن — فما بال الكافرين والمنافقين لم يتأثروا بهذا المعجز ؟
هل فقدوا السمع والأبصار ، أم استغلقت على أفئدتهم أقفال العمى والرين ؟ .

(ان الذين ارتدوا على أدبارهم بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم
وأملى لهم) . المرتد من آمن بالحق ثم كفر به ، وفي حكمه من عرف الحق
بالدليل القاطع ولكن جحدته هوى في نفسه ... هو في حكم المرتد لأن علمه بالحق
ممتازة الإيمان به ، وكراهيته له تماماً كالارتداد عنه ، أما من أضمر الكفر وأظهر

الايان فهو منافق ومرتد أيضاً ، منافق لأنه أظهر خلاف ما أضمر ، ومرتد لأنه يعامل في الدنيا معاملة المؤمنين ، وفي الآخرة معاملة الكافرين ، فكأنه مؤمن ومرتد في آن واحد .. ولفظ الآية يتناول الأصناف الثلاثة لأن الدلائل الظاهرة التي قامت على التوحيد والبعث ونبوة محمد (ص) هي الحجة عليهم التي أرادها الله بقوله : « من بعد ما تبين لهم الهدى » ولكن الشيطان أغراهم بالنفاق والارتداد عن الحق ومعاندته ، ووعدهم المواعيد الكاذبة ، وووسوس لهم بتحقيق الأماني والآمال .

(ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر) . ضمير قالوا للمنافقين ، والمراد بالذين كرهوا ما نزل الله اليهود الذين جاؤوا الرسول (ص) لأن اليهود أشد الناس كراهية لكل ما أنزل وبخاصة القرآن ، والمعنى ان المنافقين قالوا لليهود : نحن معكم على محمد ونشارككم في عداته ، ولكن ظروفنا الخاصة لا تسمح لنا بإعلان الكفر به ونصب العدا له ، فدعونا نظاهر بالاسلام ونطيعكم في الكيد له والتآمر عليه (والله يعلم إسرارهم) أي إسرار الطرفين اليهود والمنافقين لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء

(فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) . تهربوا من الجهاد خوف القتل فهل يتهربون من الموت وضرباته ، والبعث وأهواله ؟ . (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) يعذبهم الله سبحانه عند الموت وبعده أيضاً لأنهم آثروا سخطه على رضوانه (فأحبط أعمالهم) فلا تجديهم شيئاً (أم حسب الذين في قلوبهم مرض ان لن يخرج الله أضغانهم) أضمر المنافقون الحقد والعداء للنبي (ص) والصحابه ، وأظهروا لهم الحب والولاء ، وظنوا ان الله سبحانه لن يظهر ما تخفي صدورهم وتكن ضمايرهم من الكفر والأحقاد .

(ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم) . قوله تعالى : لأريناكمهم أي لعرفناكم بهم ، وقوله : فلعرفتهم بسيماهم معناه متى عرفناكم نحن بهم عرفتهم أنت بالعلامات الفارقة ، والغرض من هذا التفريع الذي يشبه التكرار هو التأكيد بأن النبي لا يغيب عنه شيء يخبره الله به ، أما غير النبي فيجوز أن يخطيء في فهمه .. ويدل ظاهر الآية على أنها نزلت قبل أن يعرف النبي (ص) المنافقين لأن « لو » للامتناع ، ولكن النبي (ص) قد عرف المنافقين بعد ذلك لقوله تعالى : (ولتعرفنهم في

لحن القول) . ولحن القول فحواه ومغزاه ، كالاتذارات الكاذبة التي كان يعتلئ بها المنافقون ، ونيلهم من الأخيار ، وثنائهم على الأشرار ، وغير ذلك من فلتات اللسان التي تعكس الرياء والنفاق . وعن أنس : لم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله (ص) . وأيضاً كان النبي (ص) يعرف المنافقين بأفعالهم ، فلقد كانوا يتهربون من الجهاد ، ويشاقلون عند البذل في سبيل الله .

(والله يعلم أعمالكم) . هذا تهديد لكل من يظهر الخير ، ويضمّر الشر (ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) . الله يعلم المجاهدين والصابرين قبل أن يختبرهم ، ولكنه يعامل الناس معاملة المخبر بالأمر والنهي ليظهر علمه للعيان ويتميز الخبيث من الطيب بالأفعال التي يستحق عليها الثواب والعقاب ، ويأخذ عباده بالحجة كما هو شأن العادل الحكيم . وفي نهج البلاغة : ان الله استصركم وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، واستقرضكم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد ... أراد أن يبلوكم أبكم أحسن عملاً ، فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جبران الله في داره .

ولا تبطلوا أعمالكم الآية ٣٢ - ٣٨ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارُ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالَكُمْ * إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَمَّنَا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ

وَلَا يَسْتَلْكُمُ أَمْوَالُكُمْ * إِنْ يَسْتَلْكُمُوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ *
هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ
يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا
يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ *

اللفظ :

شاقوا خالفوا وعاندوا . يترككم من وتره اذا نقصه : والمراد ان الله لا يظلمكم
أعمالكم . فيخفكم من الاحياء ، وهو الالحاح في السؤال .

الإعراب :

فلن يضر الله لهم خبر ان الدين كفروا . وتدعوا عطف على فلا تهوا .
والأعلون جمع الأعلى . هآ أنتم هآ ، للتنبية وأنتم مبتدأ وهؤلاء بدل منه وجملة
تدعون خبر . فنكم من يبخل ، من ، اسم موصول مبتدأ . ومن يبخل ، من ،
اسم شرط . ويبخل عن نفسه أي يمسك عن نفسه ، ولذا عُدِّي الفعل بمن
لا بعل .

المعنى :

(ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعدما تبين لهم الهدى لن
يضروا الله شيئاً وسيجزي أعمالهم) . دعا الرسول الأعظم (ص) الى الاسلام بالدلائل
والبينات ، فكفر به أرباب المصالح والأهداف ، ومنعوا الناس عنه بالقوة والمال
والدهابات الكاذبة ، ولكن الله قد أعز نبيه وأظهر دينه ، وأبطل عمل الخائنين ..

وحى اليوم يعاني الاسلام والمسلمون الكثير من قوى الشر ، وأخطرها بعض الدول والهيكل التي تحمل اسم الاسلام وتتعاون مع أعدى أعدائه الاستعمار والصهيونية ، وقد آن للمسلمين أن ينفضوا عنهم غبار الحقد والشقاق ، ويتحدوا ضد عدوهم المشترك .

(يا أيها الذين آمنوا) بالله والرسول واليوم الآخر (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أي اعملوا بوحى من إيمانكم ، فقله تعالى : أطيعوا الله بعد قوله : يا أيها الذين آمنوا مثل قوله : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ١١٠ الكهف » . (ولا تبطلوا أعمالكم) بالشرك والنفاق ولا بالذنوب والأذى ولا بالسيئات اللاتي يذهبن بالחסنات . قال تعالى : « إنما يتقبل الله من المتقين » وفي الحديث : « لا يقبل عمل إلا بالتقوى » .

وقال الإمام علي (ع) : كونوا على قبول العمل أشد عناية منكم على العمل .
(ان الذين كفروا وصلوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) في الآخرة لأن الله سبحانه يحشر الانسان على ما مات عليه ، وبحاسبه حسبا يحتم به حياته من الكفر أو الإيمان . وتقدم مثله في الآية ١٦١ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٤٨ والآية ٩١ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٠٦ .

القرآن وسياسة الحرب :

(فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم) . لقد أثبتت الحوادث ان من وهن أمام عدوه وتيبب سطوته ، وخاف مجابته فقد زوده بالسلاح الذي يقتله به ويخضعه لأمره ، قال الإمام علي (ع) : قرنت الهيبة بالخفية، والحياء بالحرمان . أنظر ج ٦ ص ٢٤٠ فقرة « الحرب النفسية » . والسياسة الحكيمة في الحرب عند قادتها وأهل الاختصاص ان لا ينهار الانسان أمام عدوه ، وأيضاً أن لا يستهين بقوته ، بل يعد له العدة ويجهز بهيات مستهينة بكل ما يصيبه من مشاق وآلام ، وقد رسم القرآن الكريم هذه السياسة بقوله : « فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم » أي لا تنهاروا أمام أعدائكم وتسلموا لقوتهم وطغيانهم ، ويقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة - ٦٠

الأفقال ، أي لا تستهينوا بقوتهم واحشدوا لخرابهم كل ما تملكون من طاقات بشرية واقتصادية .

(وأنتم الأعلون) إذا كنتم صفاً واحداً ، وبدأ واحداً على عدو الله وعدوكم وإلا فشلتكم وذهبت ربحكم كما نصت الآية ٤٦ من سورة الأفقال (والله معكم) إذا بليتيم دعوته إلى الجهاد بالنفس والنفس لتكون كلمة الحق هي العليا ، وكلمة الباطل هي السفلى ، أما من يؤثر الدعة والراحة ، ويسلم للهوان وقوى الضلال والفساد فإن الله يتخلى عنه ، ويكلم لمن استسلم له (ولن يترك أعمالكم) . من أصيب بنفسه أو أهله أو ماله من أجل الدين أو الوطن أو أي حق كان - فإن تضحيته هذه لن تذهب سدى ، بل هي عز للدين وللوطن في الحياة الدنيا ، وذخر له في الآخرة عند الله .

وتسأل : ان قوله تعالى : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون » يدل بصراحة على ان للقوي أن يبطش بعدوه الضعيف ، ولا يكثر بسلم ولا رحمة . وليس من شك ان هذا يناقض الانسانية والعدالة ، ولا يتفق مع قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة - ٢٠٨ البقرة » .

الجواب : ان قوله تعالى : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم » معناه إذا بليتيم بعدو متوحش شرس لا يقيم وزناً للحق والعدالة ، ولا يلتزم بقانون ولا بميثاق ، ولا يفهم إلا بلغة العنف والقسوة ، إذا بليتيم بهذا العدو فاصمدوا له ولا تهابوه وابطشوا به ، ولا تأخذكم في الحق رافة ولا هوادة ، فان القضاء عليه قضاء على الشر ، وخير للانسانية جمعاء .

ومن غريب الصدف أن أكتب هذه الكلمات في اليوم^١ الذي أغارت فيه اسرائيل بطائرات القاتنوم الأمريكية وقذائفها - على مدرسة بحر البقر الابتدائية بالجمهورية العربية المتحدة ، وقتلت ٤٧ طفلاً تراوح سنهم بين السادسة والثانية عشرة ، ما عدا الجرحى .

والولايات المتحدة الأمريكية هي المسؤولة عن قتل وجرح اولئك الصغار ،

وعن الغارة الماثلة على معمل أبي زعل الأهلّي التي راح ضحيتها ٣٣ عاملاً بين قتيل وجريح ، هي المسؤولة عن جرائم اسرائيل حيث أمدتها بالسلاح والمال ، وأمرتها أن تفعل في البلاد العربية ما تفعله هي في فينتام .. فقد نقلت الصحف والاذاعات ان جنود الولايات المتحدة قتلوا أهل قرية بأكملهم في فينتام ، ولم ينج منهم طفل ولا امرأة ، وما كان لهذه القرية ولا المدرسة الأطفال أي شأن في الحرب .. فهل يجدي السلم شيئاً مع هؤلاء السفاكين ؟ اللهم إلا إذا كان معنى السلم الاستسلام للجور والظفیان .

(انما الحياة الدنيا لعب وهو) لمن ركن اليها ، وخدع بأباطيلها بل هي شر على من أثار الحروب من أجلها، وهي دار خیر لمن اتعظ بها ، وتزود منها لآخرته (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) . وعطف التقوى على الايمان يدل على ان مجرد الاعتراف والتصديق لا أجر عليه عند الله، بل لا بد من العمل مع الايمان ، وأوضح من هذه الآية في الدلالة على ذلك قوله تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » - ٣٠ الكهف .

(ولا يسألکم أموالکم أن یسألکوها فیحکم تبخلوا وبخرج أضغانکم) لا یسألکم أموالکم أي لا یطلب منکم أن تخرجوا من جمیع أموالکم ، ولا أن تبذلوا الکثیر منها الذی یضر بکم .. ویحکم أي یلح علیکم ویجهدکم ، ومعنی الآية بمجموعها ان الله سبحانه جعل للفقراء نصیباً فی أموال الأغنیاء ، وراعى فی تقدیر هذا النصیب وتحديده مصلحة المحتاجین بما یسد خللتهم ، ومصلحة الباذلین بما لا یضر بهم ، ولا یمس بحاجة من حاجاتهم الضرورية : ولو ان الله جلت حکمته سأل الأغنیاء أكثر من هذا النصیب وألح علیهم فی بذله لأمسکوا وحقدوا علی الاسلام ونبي الاسلام .

(ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فی سبیل الله) . قال جماعة من المفسرین : المراد بسبیل الله الجهاد .. والصحیح انه يشمل کل ما فیہ لله رضا، وللناس صلاح بجهة من الجهات (فنسکم من یمخل ومن یمخل فإنما یمخل عن نفسه) . یخل الشحیح بحق الله ، وادخره لنفسه عند حاجتها ، فجاءت النتيجة علی العکس مما

أراد ، حيث عرض نفسه لفضب الله وعذابه ، وحرمتها من رضوانه وثوابه .
أنظر فقرة ٥ المال هو المحك ، ج ٢ ص ١٠٧ .

(والله الغني وأنتم الفقراء) إلى فضله ورحمته ، وما استغنى عبيد من عباده
إلا بسبب منه تعالى ، أما هو فغني بالذات لا باستفادة ، وفاعل لا بآلة ،
ومقدر لا بفكرة (وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) . ان
تعرضوا عن دعوة الله ، وتصبروا على التمرد والعصيان يذهبكم ويأت بخلق جديد
يستحقون بحمده ولا يعصون له أمراً . وتقدم مثله في الآية ١٩ من سورة ابراهيم
ج ٤ ص ٤٣٦ والآية ١٦ من سورة فاطر .

سُورَةُ الْفَتْحِ

٢٩ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنا فتحنا لك الآية ١ - ٥ :

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَبَنَصْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا * هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا *

المعنى :

(إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) . للفتح معانٍ ، والمراد به هنا النصر لأنه أول ما يتبادر إلى الافهام ، ولأن النبي (ص) قال : نزلت عليّ آية هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها ، ثم تلا : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . وعليه يكون المعنى إنا

نصرناك يا محمد نصرأ ظاهراً ، واختلف المفسرون في نوع هذا النصر وتعديده على أقوال أنهاها الطبرسي إلى أربعة والرازي إلى خمسة . وأكثر المفسرين أو الكثير منهم على ان المراد بالنصر هنا صلح الحديبية لأن هذه السورة نزلت بعد الهدنة التي عقدها النبي (ص) مع أهل مكة في الحديبية .. ومع هذا فأرجح الأقوال عندنا ان المراد بالنصر هنا إعلاء كلمة الاسلام وقوة المسلمين ، وخللان أعدائه المنافقين والمشركين ، لأن الفتح في الآية مطلق غير مقيد بصلح الحديبية أو بفتح مكة أو النصر على الروم والفرس أو غير ذلك ، وعليه تكون هذه الآية مرادفة للآية ٣٣ من سورة التوبة : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » . وبكلمة واحدة المراد بالنصر الجنس لا الفرد .

(ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) . وتسال : متى أذنب النبي حتى يصفح الله عن ذنبه ؟ وما هو ذنبه المتقدم والتأخر ؟ وأين عصمة الأنبياء الرادعة عن الذنب ؟ وكيف يكون الفتح سبباً للمغفرة ؟ وما هي العلاقة بينهما؟ .

الجواب : ليس المراد بالذنب هنا ذنب الرسول حقيقة وواقعاً ، كيف وهو معصوم عن الخطيئة والخطأ ؟ وإنما المراد ان المشركين كانوا يعتقدون بأن النبي مذنب في دعوته الى التوحيد ونبد الشرك وفي محاربته الأوضاع السائدة والتقاليد الموروثة ، أما المغفرة فالمراد بها ان هؤلاء المشركين اكتشفوا مؤخرأ ومع الأيام والأحداث ان محمداً (ص) بريء من كل ذنب ، وانه رسول الله حقاً وصدقاً ، وانهم كانوا هم المذنبين في اتهامه والظمن برسائته .. وتوضيح ذلك ان الرسول الأعظم (ص) دعا الى التوحيد وندد بالأصنام وأهلها ، وحارب الظلم والاستغلال ، وما الى ذلك من مفاصد الجاهلية وتقاليدها .. وأي شيء أعظم ذنباً وجراً - عند الجاهلي وغيره - من الظمن بمقدساته الدينية وعادات آبائه وأجداده التي هي جزء من طبيعته وكيانه ، ولكن بعد أن أظهر الله دينه ونصر نبيه بالدلائل والبيّنات ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ومنهم المشركون الذين كانوا ينظرون الى النبي (ص) نظرهم الى من تجرم عليهم وعلى آلتهم وآبائهم ، بعد هذا كله تبين لهم ان محمداً هو الحق ، وانهم هم المخطئون .

سورة الفتح

والخلاصة ان المراد بذنب الرسول ذنبه في زعم أعدائه المشركين لا ذنبه في الواقع ، والمراد بالمغفرة مغفرتهم له هذا الذنب المزعوم أي توبتهم مما كانوا يظنون بنبي الرحمة ، أما نسبة الذنب الى الرسول في ظاهر الكلام ، ونسبة المغفرة الى الله ، أما هذه فأمرها سهل لأن المجاز يتسع لها ولاكثر منها .. أما وجه الصلة بين الفتح وهذه المغفرة فواضح لأن الفتح هو السبب الموجب للكشف عن صدق الرسول وبراءته من الذنب المزعوم الذي رماه به المشركون من قبل الفتح .

(ويتم نعمته عليك) بانتصارك على أعداء الله وأعدائك وبعلو شأنك دنيا وآخرة (ويهديك صراطاً مستقيماً) وهو الشريعة الإلهية التي تضمن للناس خيرهم وصلاحهم في كل زمان ومكان (وينصرك الله نصراً عزيزاً) . والنصر العزيز هو الذي يكون بالحق وللحق ، وبالجهاد المشروع لا بالغدر والمؤامرات ، ولا بمساندة أهل البغي والانقلابات .

(هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) . المراد بالسكينة هنا الرضا والاطمئنان عن وعي ، لأن الحوادث علمتنا بأن اطمئنان الجاهل ينتهي به الى أسوأ العواقب ، والمعنى ان الله أعز دينه ونصر نبيه ليفرح المؤمنون وتطمئن قلوبهم ويزدادوا يقيناً بربهم ، وثقة بنبيهم ، وقوة في دينهم . (والله جنود السموات والأرض) . هذا كناية عن عظمة الله في قدرته وإلا فهو غفي عن المسلمين لأنه يقول للشيء : كن فيكون . وفيه إيماء الى أنه لو شاء سبحانه لأهلك المشركين من غير جهاد وقتال ، ولكن ليبلو عباده أيهم أحسن عملاً (وكان الله عليماً حكيماً) في خلقه وتدبيره .

(ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) . قال الطبري : حين نزل قوله تعالى : انا فتحنا لك فتحاً مبيناً الخ . قال المؤمنون لرسول الله (ص) : هنيئاً لك يا رسول الله ، فلقد بين الله لك ماذا يفعل بك ، فإذا يفعل بنا نحن ؟ فتزل قوله : ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات الخ . وليس من شك - وان لم تصح هذه الرواية - ان الله يكفر سيئات التائبين ويدخل المؤمنين في رحمته وجنته ، ومن دخل الجنة فقد فاز بالسهم الأوفر .

ويعذب المنافقين والآية ٩ - ٩ :

وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ
ظَنَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ
جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا *

اللفظ :

الدائرة ما تحيط بالشيء . والسوء الشر . والمراد بتعزروه هنا تصبروه ، وتوقروه
تعظموه . وبكرة وأصيلًا صباحاً ومساءً .

الإعراب :

الظالمين صفة لأهل الشرك والنفاق . وظن السوء مفعول مطلق لظالمين . ومصبراً
تميز . وشاهداً حال . وبكرة وأصيلًا مفعول فيه أي تسبحوه في الصباح والمساء .

المعنى :

(ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظالمين بالله ظن السوء
عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) .
السوء القبح والشر والفساد ، وظن السوء وسوء الظن بمعنى واحد ، والمراد هنا
بظن السوء بالله تعالى الظن بأنه ، جلت حكمته ، لن يبعث من في القبور ،

سورة الفتح

ولن ينصر الاسلام ونبي الاسلام ، وما إلى ذلك من ظنون المنافقين والمشركين ..
ومعنى الآية بمجملها ان الله كما أعد لأهل الإيمان جنات النعيم فقد أعد أيضاً للذين
أساءوا به الظن كأهل النفاق والشرك ، أعد لهم الشر يحيط بهم من كل جانب ،
والغضب واللعنة وسوء المصير ، نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم
من عذابها .

(والله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً) . ذكر سبحانه
هذه الآية حين أشار إلى أهل الإيمان وثوابهم في الآية السابقة ، وذكرها هنا هو
يشير إلى أهل النفاق والشرك ، والقصد من التكرار التنبيه إلى انه تعالى قادر على
الإنتقام والانتقام كما يعمل العبد بطاعة الله أملاً بثوابه ، ويتعد عن معصيته خوفاً
من عذابه (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) . يشهد غداً الرسول الأعظم (ص)
بين يدي الله تعالى انه قد بلغ العباد ما أوحى به اليه ، وبشر الطائع بالنجاة .
وحذر العاصي من الهلاك . وتقدمت هذه الآية بالحرف الواحد في سورة الأحزاب
الآية ٤٥ ج ٦ ص ٢٢٨ .

(لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً) . الهاء في
تعزروه وتوقروه راجعة إلى دين الله ، وقيل : إلى رسول الله .. والمعنى واحد ،
والهاء في تسبحوه إلى الله بالذات ، والمراد بالتسبيح في الغدو والعشي الصلوات
الخمس . والمعنى ان الله أرسل محمداً إلى الخلائق ليؤمنوا بالله ورسالة محمد (ص)
ويتصروا لدين الله بالذب عنه والجهاد في سبيله ، وليحترموا أحكام الله بطاعتها
والعمل بها ، ويحافظوا على الصلوات الخمس .

بيعة الرضوان تحت الشجرة الآية ١٠ - ١٤ :

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ
فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْوَتُهُ أَجْرًا
عَظِيمًا * سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا

فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ
 اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبِيراً * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزَيْنَ
 ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنّاً سَوْئاً وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً * وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعيراً * وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
 وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً *

اللغة :

المخلفون جمع مخلف ، وهو المتروك ، والخالفون القاعدون . والعربي عام
 والاعرابي خاص بمن يسكن البادية . وبوراً هلكى .

الإعراب :

جملة انما يبايعون الله خبر ان الذين . ويد الله فوق أيديهم مبتدأ وخبر والجملة
 خبر ثان لان الذين الخ . أجراً مفعول ثان لسيؤتيه لأن الفعل هنا بمعنى يعطيه .
 وشيئاً مفعول مطلق ليملك أي شيئاً من الملك . وان لن « ان » مخففة واسمها
 محذوف أي انه . وأبدأ ظرف زمان للتأكيد في المستقبل نفياً مثل لا أفعله أبداً أو
 اثباتاً مثل افعله أبداً .

خلاصة القصة :

(ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث

سورة الفتح

على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتبه أجراً عظيماً) . تشير هذه الآية الكريمة الى بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وهذه حكايتها :

في سنة ست للهجرة كان المشركون هم المسيطرين على مكة والبيت الحرام ، وفي أواخر هذه السنة خرج رسول الله (ص) من المدينة المنورة مع ألف وأربعمئة من المسلمين قاصدين مكة المكرمة يريدون العمرة ، ولا يفكرون في حرب . ولما بلغوا مكاناً يسمى الحديبية علم أبو سفيان بمقدمهم ، فجمع قريشاً وقرروا مجمعين أن يمنعوا الرسول ومن معه ويبعدوهم عن بيت الله الحرام بقوة السلاح ، وجمعوا الفرسان لذلك ، وجعلوا عليهم خالد بن الوليد ، ثم سعى السفراء بين النبي (ص) وبينهم ، وكان سفراء قريش يطلبون من النبي أن يعود الى المدينة ولا يدخل مكة ، ويجيبهم النبي بأننا لم نأت لقتال أحد ، وقد جئنا زائرين البيت الحرام ، ومن صدنا عنه قاتلناه .

وكان عروة بن مسعود أحد سفراء قريش الى رسول الله (ص) ، وقد رأى الصحابة يتفانون في حب الرسول ، فلا يتوضأ إلا ابتدروا وضوؤه ، ولا يصبق إلا أدخلوا بصاقه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا تهلكوا عليه ، فعاد وهو في دهشة مما رأى ، وقال : « يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقبصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، واني ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه ، لقد رأيتهم لا يسلمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم » .

وأرسل رسول الله (ص) لقريش عثمان بن عفان لأنه قريب أبي سفيان ، وقال له : أخبرهم أننا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمته ، ومعنا الهدي نذره وننصرف .. ولما بلغهم عثمان قالوا : لا كان هذا أبداً . وانقطعت أخبار عثمان ، وشاع انه قد قُتل ، وحين بلغت هذه الشائعة مسمع النبي (ص) قال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الى مبايعته ، وكان جالساً تحت شجرة هناك ، فأسرع أصحابه يبايعونه على الطاعة والموت في سبيل الله .

وقد وصف سبحانه هذه البيعة بأنها بيعته بالذات ، وانه قد أخذها بيده ، وان من نقضها ونكث بها فقد خان الله وتعرض لغضبه وسخطه ، وان من وفى بها ولم ينقض الميثاق فإن له عند ربه لزلفى وحسن مأب ، وذلك حيث يقول

عز من قائل : « ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فن نكت فلما بنكت على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » . وقد اشتهرت هذه البيعة ببيعة الرضوان ، وأيضاً يطلق عليها بيعة الشجرة ، وبيعة الرضوان تحت الشجرة لقوله تعالى : « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة - ١٨ الفتح » .

ولما رأت قريش ما رأت من صلابة الرسول (ص) رضخت للصلح، وتم الاتفاق على أن لا يدخل المسلمون مكة هذا العام حتى إذا كان العام القادم دخلوها معتمرين ، وأقاموا فيها ثلاثة أيام لا يحملون من السلاح إلا السيوف في أغمادها . ودعا الرسول (ص) علي بن أبي طالب ، وقال له : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فاعترض مندوب قريش وقال : اكتب باسمك اللهم ، فقبل النبي وكتب علي ، ثم قال النبي : اكتب هذا ما صالح محمد رسول الله ، فاعترض مندوب قريش وقال : اكتب اسمك واسم أبيك ، فقبل النبي وتلكأ علي ، فقال له النبي (ص) : ولك مثلها وأنت مضطهد . يشير بذلك إلى مسألة الحكمين في صفين ، وهذا من علم الغيب الذي أوحى الله به إلى نبيه الكريم وهو من أقوى الدلائل على نبوته وصدقه في رسالته .

ولما وقع الطرفان وثيقة الصلح تحلل النبي (ص) والصحابة من إحرامهم ، ونحروا الهدي وحلقوا رؤوسهم ، ومكنوا أياماً بالحديبية ، ثم انصرفوا إلى المدينة ، وفي السنة التالية توجه النبي والصحابة إلى مكة معتمرين ، ودخلوها وهم يهللون ويكبرون وينادون : لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وخذل الأحزاب وحده . وأقاموا بمكة ثلاثة أيام يطوفون وينحرون ، وتسمى هذه العمرة عمرة القضاء لأنها مكان العمرة التي منعهم منها المشركون ، وفيها فزل قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله. الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين حلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون - ٢٧ الفتح » .

المخلفون من الأعراب :

(سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا) . حين

أراد النبي (ص) الخروج إلى مكة عام الحديبية استنفر المسلمين وحثهم على السفر معه ، فامتنع قوم من الأعراب المنتشرين حول المدينة وآخرون من المنافقين ، امتنعوا وأبوا الخروج مع رسول الله (ص) ظناً منهم أن قريشاً لن تدع محمداً يدخل مكة أو تهلك ، وقال بعضهم لبعض : ما لنا وللتعرض لهذه الأخطار ؟ وبعد أن تم الصلح على ما ذكرنا قال سبحانه لنبيه الكريم : إذا رجعت يا محمد إلى المدينة اعتذر الذين تخلفوا عنك بأن تدبير أهلهم وأموالهم هو الذي منعهم من صحبتك ، ويطلبون منك كذباً ونفاقاً أن تصفح عنهم ، وتطلب من الله أن يرضى عنهم ويعفو عما سلف ، وقد كذبهم سبحانه بقوله : (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) كما هو شأن المنافقين في كل زمان ومكان .

(قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً) . أتكذبون على الله وهو يعلم سركم وجهركم ، ويخبركم بشركم ، ومن الذي يرد أمره عنكم خيراً كان أم شراً ؟ (بل كان الله بما تعملون خبيراً) وأيضاً يخبر به نبيه الكريم ويقول له : انكم تظهرون غير ما تضمرون (بسل ظننم ان لن يتقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم) . تخلفتم عن النبي ظناً منكم بأن الله لن ينصر النبي والذين آمنوا معه وإن الغلبة ستكون لأعداء الله على أوليائه (وظننتم ظن السوء) . ظننتم ان المسلمين ذاهبون إلى الموت لا محالة ، ولا سند لهذا الظن إلا وسوسة الشيطان بأن الله لن يعز دينه وينصر نبيه ، ولا يلفظ بمن آمن به وأخلص له (وكنتم قوماً بوراً) أي هلكى ، وكل من أسلم زمامه للشيطان قاده إلى الهلاك .

(ومن لم يؤمن بالله ورسوله فلإننا اعتدنا للكافرين سعيراً) خالدين فيها لا يجدون ولياً ولا نصيراً (والله ملك السموات والأرض) ولا مالك غيره ، ولا حول ولا قوة إلا به ، فمن أخلص له واتكل عليه فهو كافيه ، ومن التجأ إلى غيره أوكله إليه (يغفر لمن يشاء) ممن يستحق المغفرة لأن الله حكيم ويستحيل أن يغفر لمن يسفك الدماء ظلماً ، ويهدم المدارس على الأطفال الصغار ، ويسلب الجائعين أقواتهم (ويعذب من يشاء) ممن يستحق العذاب ، وما ربك بظلام للعبيد (وكان الله غفوراً رحيماً) بمن يرحم نفسه وغيره ، وإلا فمن لا يرحم لا يرحم . وما للظالمين من أنصار .

ذرونا ننبعكم الآية ١٥ - ١٧ :

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُدُونَنَّ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ طِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا *

اللفظة :

مغائِم اسم مكان أو زمان الغنيمية ، والمراد بها هنا كسب المال بالغزو . والبأس القوة والشجاعة . والحرج الضيق والمراد به هنا الاثم .

الإعراب :

مغائِم ممنوع من الصرف لأنه على وزن مفاعل . والمصدر من نأخذوها متعلق بانطلقتم . وقليلاً صفة لمفعول مطلق محذوف أي فقهاً قليلاً . أو يسلمون عطف على تقاتلونهم .

(سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغامر لتأخذوها فرونا نتبعكم) . هؤلاء المخلفون هم الذين أبوا الخروج مع النبي (ص) حين توجه الى مكة في أواخر سنة ست للهجرة ، وهم الذين عتاهم الله بقوله في الآية السابقة . سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلنا أموالنا الخ... لقد رغب النبي اليهم في المسير معه ، فخافوا من قريش وقالوا : أموالنا وأهلنا ، وبعد أن رجع النبي من الحديبية مكث في المدينة الى أوائل سنة سبع ، ثم خرج غازياً الى خيبر ، وكان فيها مغامر كثيرة ، تحركت لها شهوة المخلفين ، فقالوا للنبي والمؤمنين : خذونا معكم الى تلك المكاسب والمغامر ..! عرضوا أنفسهم هنا للخروج ، وبالألمس دُعوا اليه فتذرعوا بمشاغل الأهل والأموال خوفاً من الجهاد والقتال .. وهذا منطق من أسرته المطامع ولا يتحرك إلا بوحى منها .

(يريدون أن يبدلوا كلام الله) . ضمير يريدون ويبدلوا يعود الى المخلفين ، والمراد بكلام الله هنا وعده تعالى بجرمان المخلفين من المغامر السيئ أشار إليها سبحانه بقوله : « إذا انطلقتم الى مغامر لتأخذوها » . ولكن الله ، جلت حكمته ، لم يبين لنا ما هي هذه المغامر ؟ هل هي مغامر خيبر أو غيرها ؟ . ومع هذا قال المفسرون : ان الله سبحانه وعد أهل بيعة الرضوان بالحديبية ، وعدهم أن تكون مغامر خيبر مختصة بهم دون غيرهم . وقال الرازي : هذا هو الأشهر عند المفسرين ، وقال المراغي : « وفيه أخبار صحيحة » .. وليس هذا ببعيد لأن غزوة خيبر كانت الأولى بعد صلح الحديبية .

ومها يكن فإن الله سبحانه أمر نبيه الكريم أن يقول للمخلفين : (لن تتبعونا) الى أخذ المغامر لأنكم رفضتم اتباعنا الى مكة خوفاً من القتل (كذلك قال الله من قبل) فهو الذي أخبرنا بأنه لا نصيب لكم في المغامر (فيقولون بل نحسدوننا) كلا .. ان الله لم يجرمنا من الغنائم ، ولكن أنتم الذين حرمتونا حسداً لنا وبغياً علينا (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً) . هذا رد منه تعالى على قولهم : « نحسدوننا » ومعناه كلا ، ليس الأمر كما زعمتم ، وإنما هو جهلكم ومعضيتكم لأكثر أحكام الله .

(قل للمخلفين من الأعراب) وهم الذين أبوا الخروج مع رسول الله (ص) إلى مكة (ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد) . والداعي هو رسول الله (ص) فإنه دعاهم بعد غزوة خيبر إلى غزوة حنين والطائف ونبوك (تقاتلونهم أو يسلمون) أي ان الأشداء الذين استدعون إلى قتالهم يُخبرهم الرسول بين أمرين : إما السيف وإما الاسلام ، فهل تلبون دعوة الرسول أو تنكصون على أعقابكم كما فعلتم من قبل ؟ . وبكلام آخر ان صمودكم في قتال أولي البأس الشديد هو المحك لصدقكم ، وليس أخذ الغنائم (فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً) وهو الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة ، أو الجنة وعلو المرتلة عند الله لمن يقتل منكم في سبيله .

(وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً) وأي عذاب أشد لما من عذاب جهنم؟ (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج). لا إثم على هؤلاء الأصناف الثلاثة إذا تخلفوا عن الجهاد من أجل الدعوة إلى الاسلام ، أما الجهاد لدفاع العدو وردعه عن الاعتداء فهو حتم على الجميع رجالاً ونساءً وصغاراً ومميزين وكباراً أصحاء وغير أصحاء .. من كل حسب طاقته (ومن بطع الله ورسوله يدخله جنان تجري من تحتها الأنهار ومن يتول بعذبه عذاباً أليماً) . المعنى واضح ، وهو الجنة لمن أطاع ، والنار لمن عصى ، وقد تكرر هذا المعنى في عشرات الآيات لمناسبة ذكر عمل الخير والشر ، وللتنبية بأن الله عادل وحكيم ، وان الانسان لن يترك سدى ، وانه سيلقى الله بأعماله ، وانها هي وحدها موضوع الحساب ومقياس الجزاء .

اذ يبايعونك تحت الشجرة الآية ١٨ - ٢٤ :

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً

تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً
 لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ
 أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي
 قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا * وَهُوَ الَّذِي كَفَّ
 أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ
 عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *

الإعراب :

اذ في محل نصب برضي . ومغاثم كثيرة مفعول لفعول محذوف أي وأثابهم
 مغاثم . ولتكون عطف على محذوف أي لتشكروا الله ولتكون، واسم لتكون ضمير
 مستتر يعود الى هذه . وأخرى صفة لمفعول محذوف وهو مغاثم ، والتقدير وعدكم
 الله مغاثم أخرى . وسنة الله نصب على المصدر أي سن الله ذلك سنة .

المعنى :

(لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) . يشير سبحانه
 بهذا إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وأنه راضٍ عنها وعن أهلها . وسبق الكلام
 عن هذه البيعة عند تفسير الآية ١٠ من هذه السورة بعنوان « خلاصة القصة » .
 فراجع . (فلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغاثم كثيرة
 يأخذونها) . الضمير في قلوبهم يعود إلى أهل بيعة الرضوان، وقد امتلأت قلوبهم

بالصدق والاخلاص لله ورسوله ، والمراد بالسكينة الراحة والاطمئنان ، وبالفتح القريب صلح الحديبية حيث كان من آثاره دخول المسلمين مكة معتمرين على كره من قريش ، وفي رواية ان عمر بن الخطاب سأل النبي (ص): "أفتح" هو يا رسول الله ؟ قال : نعم . أما المغنم الكثيرة فقال المفسرون أو أكثرهم : ان المراد بها مغنم خيبر لأنها اشتهرت بكثرة الأموال والعقار .. والأرجح انها كل غنيمة حصل عليها أهل بيعة الرضوان لأن الله سبحانه أطلق كلمة الغنائم ولم يقرنها بشيء خاص ، وخلاصة المعنى ان الله سبحانه منّ على أهل بيعة الرضوان بالطمأنينة وصلاح الحديبية وبنعم كثيرة لأنه قد علم منهم الاخلاص في دينهم والصدق في عزمهم على الجهاد في سبيله تعالى (وكان الله عزيزاً حكيماً) . وكل نجاح ناله المسلمون ودفع بهم إلى الأمام فهو أثر من آثار عزة الله وقدرته ، وتدبره وحكمته .

(وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها) . المغنم الكثيرة هنا كل ما غنمه المسلمون في عهد الرسول (ص) وبعده ، وعليه يكون الفرق بين المغنم المذكورة في الآية السابقة والمغنم المذكورة في هذه الآية — ان الأولى تختص بأهل بيعة الرضوان تحت الشجرة ، والثانية لجميع المسلمين في كل زمان ومكان (فعجل لكم هذه) الاشارة بهذه الى حادثة صلح الحديبية لأن هذا الصلح هو الذي عجله الله للمسلمين ، أما مغنم خيبر فقد كانت بعد هذا الصلح ، ولولا كلمة «هذه» لقلنا : المعجل الصلح ومغنم خيبر معاً .

(وكف أيدي الناس عنكم) . قال الطبري : اختلف أهل التأويل في المراد بهؤلاء الناس . قليل : انهم اليهود . وقال آخرون : انهم قريش .. وفي رأينا ان المراد بهم أعداء الاسلام والمسلمين الذين حاولوا القضاء عليه وعليهم ، وما منهم إلا الضعف والعجز (ولتكون آية للمؤمنين) . في تكون ضمير يعود إلى حادثة صلح الحديبية ، وقد جعلها الله علامة للمؤمنين على انه معهم وناصرهم على أعدائهم .. ولم تمض الأيام حتى تبين للمؤمنين ان صلح الحديبية كان خيراً لهم وشرّاً على المشركين (وبهديكم صراطاً مستقيماً) الى كل ما يعود عليكم بالنفع دنيّاً وآخره .

(وأخرى لم تغفروا عليها قد أحاط الله بها) . أخرى صفة لمغنم محذوفة ،

سورة الفتح

والمعنى ان الله وعدكم مغنم تغدرون الآن على أخذها ، وأيضاً وعدكم مغنم أخرى تعجزون الآن عن أخذها ، ولكن الله تعالى قد حفظها لكم ، ولا بد أن تأخذوها في المستقبل القريب أو البعيد (وكان الله على كل شيء قديراً) فلا يعجز أن يهيئكم من الغنائم فوق ما تتصورون وأكثر مما تأملون (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً) . كأن سائلاً يسأل : من أين وكيف يغنم المسلمون أموال الكافرين ، هم أقوىاء في عدتهم وعددهم ، ويستمتعون في الدفاع عن أنفسهم؟ فأجاب سبحانه بأن الله مع المؤمنين ينصرهم ويدافع عنهم ، والله غالب على أمره . أما الكافرون فلا ملجأ لهم إلا السيف أو الفرار .

(سنة الله التي خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) . من سنن الله تعالى فيمن مضى من أنبيائه إلى خاتمهم محمد (ص) أن تكون لهم الغلبة على أعدائهم . وإذا سأل سائل ان هذا لا يتفق مع الآيات التي نصت بوضوح على أن اليهود كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق - أحلناه إلى الجواب المفصل في ج ٥ ص ٣٣١ وما بعدها .

(وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً) . ضمير هو يعود إليه تعالى ، وضمير أيديهم إلى مشركي قريش . وقيل : ان المراد ببطن مكة الحديبية لأنها قرية من مكة ، وقال آخرون: ان المراد داخل مكة .. وهذا هو المعنى المتبادر إلى الافهام من كلمة «بطن» وعليه يكون المعنى انكم أيها المسلمون دخلتم مكة من كل أقطارها ظافرين منتصرين ، وخضعت لكم من غير حرب ، وهي عاصمة الشرك ومقل المشركين .. وهذا من فضل الله ونعمه الكبرى عليكم ، لأنه هو الذي منعه من قتالكم بإلقاء الرعب في قلوبهم ، ومنعكم من قتالهم بالهني عنه . وتجدر الإشارة إلى أن صلح الحديبية كان في سنة ست ، وعمره القضاء في سنة سبع ، وفتح مكة في سنة ثمان .

وصلوكم عن المسجد الحرام الآية ٢٥ - ٢٦ :

هُم الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا
أَنْ يَبْلُغَ حِجْلَهُ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ
تَطُورُوهُمْ فَتَنْصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ
لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ
كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى
رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا *

اللفظة :

الهدى ما يهتدى الى بيت الله من الانعام . والمعكوف المحبوس . والمراد بتطوؤهم
هنا تقتلوهم . والمراد بالمعرة هنا المساءة والمشقة . وتزيلوا تميزوا . والحمية الانفة .

الإعراب :

الهدى عطف على مفعول صدوكم أي وصدوا الهدي . ومعكوفاً حال من
الهدى . والمصدر من أن يبلغ مجرور بمن محذوفة أو منصوب بترع الحافض .
والمصدر من أن تطوؤهم بدل اشتغال من مفعول لم تعلموهم أي لم تعلموا وطأهم
مثل : أعجبنى زيد علمه، أي أعجبنى علم زيد . وحمة الجاهلية بدل من الحمية وأهلها
عطف تفسير على أحق بها .

(هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله) .
قلنا عند تفسير الآية ١٠ من هذه السورة : ان المشركين منعوا الرسول (ص) والصحابه
من زيارة المسجد الحرام سنة ست للهجرة ، وكان معهم سبعون ناقة - على ما
قيل - ساقوها للنحر بمكة وهي التي عناها سبحانه بقوله : « والهدى معكوفاً أن
يبلغ محله » ومعكوفاً أي محبوساً للنحر ، ومحله أي محل نحره وهو مكة . وأيضاً
قلنا عند تفسير الآية ٢٤ : ان المسلمين فتحوا مكة من غير قتال سنة ثمان . لأن
الله ألقى الرعب من المسلمين في قلوب المشركين .. والآية التي نحن بصدها تشير
الى هذا المعنى وتؤكد ان أهل مكة لم يسكنوا ويكفوا عن قتال النبي والصحابه
حين دخلوا مكة .. إلا خوفاً من المسلمين ، والدليل على ذلك - كما صرحنا
الآية - ان هؤلاء المكين هم الكافرون الذين منعوا المسلمين من زيارة المسجد
الحرام ومن وصول الهدى الى مكة لينحر فيها . ويأكل منه البائس الفقير .

ثم أشار سبحانه الى بعض فوائد السلم والكف عن القتال في فتح مكة . بقوله :

١ - (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوهم فتصيبكم
منهم معرة بغير علم) . حين دخل النبي (ص) مكة فاتحاً كان فيها جماعة من
المسلمين نساء ورجالاً ولكنهم كانوا غير معروفين ولا متميزين عن المشركين لأنهم
كتموا إيمانهم خوفاً من أعداء الاسلام ، ولو دارت رحى الحرب لأصاب ضررها
المسلم والكافر .. فربما قتل المسلم أخاه المسلم الذي يكتم إيمانه ، وهو يظن انه يقتل
كافراً ، وفي ذلك ما فيه من المشقة على المسلمين بما يلزمهم من الكفارة ودية
قتل الخطأ ، بالإضافة الى ان أعداء الدين يتخفون منه وسيلة للطمع والشهيق بأن
المسلمين يقتل بعضهم بعضاً .

٢ - (ليدخل الله في رحمته من يشاء) . المراد بالرحمة هنا الاسلام، والمعنى
ان الله سبحانه كف الأيدي عن القتال في فتح مكة لأنه يعلم ان بعض أهلها
المشركين سيهتدون ويسلمون ، وهذا ما حدث بالفعل (او تزيلوا لعذبتنا الذين
كفروا منهم عذاباً أليماً) . أي لو تميز كل فريق عن الآخر ، وعرف المسلم
من الكافر لأذن الله للمسلمين بقتال الكافرين ، وأنزل بهم أشد العقاب .

(إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) . يشير سبحانه بالذين كفروا الى عتاة الشرك الذين منعوا النبي سنة ست للهجرة من زيارة المسجد الحرام ، لا لشيء إلا لأن قلوبهم مفعمة بالتعصب وأنفة الكبرياء .. وهذا وحده يستوجب الإذن بقتالهم وقتلهم ، ولكن الله سبحانه كف أيدي المسلمين عنهم حرصاً على حياة من كتم إيمانه ومن سيدخل في الاسلام منهم بعد فتح مكة .

(فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) . المراد بالسكينة هنا الرضا والصبر الجميل ، وبألزمهم أوجب على المؤمنين ، أما كلمة التقوى فقيل : ان المراد بها قول لا إله إلا الله .. والأرجح ان المراد بها العمل بالتقوى ، والمعنى ان النبي (ص) قبيل صلح الحديبية على الرغم من كبرياء المشركين وعتوهم ، وكره هذا الصلح بعض الصحابة وأصرروا على القتال ، ولكن الله سبحانه ألهمهم الصبر الجميل على غطسة المشركين ، وأمرهم أن يقبلوا الصلح وبرضوا به فسمعوا وعملوا بما يوجهه الايمان والتقوى ، ولا بدع فلأنهم أهلها وأولى الناس بالعمل بها ، فلقد جاهدوا وضحتوا بالكثير في سبيل الله ، وصبروا صبر الأحرار والأبرار (وكان الله بكل شيء عليم) . يعلم المتقين والمجرمين ، ويجزي كلاً بما كسبوا وهم لا يظلمون .

رؤيا الرسول الآية ٢٧ - ٢٩ :

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا

سورة الفتح

يَقْتُنُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سَيِّئًا فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ
ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ
فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ
وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *

اللغة :

الرؤيا ما يرى في المنام والجمع الرؤى . وسباهم علامتهم . ومثلهم وصفهم .
وشطأ الزرع ما ينزع عليه من أعصان وورق وثمر ، والجمع أشطاء . فاستغلظ
صار غليظاً . واستوى استقام . وعلى سوقه على أصوله .

الإعراب :

قال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط : صدق يتعدى الى مفعولين، نقول
صدقت زيدا الحديث ، وقد يتعدى الى الثاني بحرف جر فنقول : صدقته في
الحديث . لتدخلن اللام واقعة في جواب قسم محذوف . وآمنين حال مقارنة .
ومعلقين ومقصرين حال مقدرة أي الخلق والتقصير يقعان بعد الدخول . ومحمد
مبتدأ ورسول الله صفة والذين معه عطف على محمد وأشداء خبر ورحماء خبر ثان .
وركعاً سجداً حال أي راكعين ساجدين لأن ترى هنا بصرية تنعدي الى مفعول
واحد . وسباهم في وجوههم مبتدأ وخبر ، ومن أثر السجود حال . وذلك مثلهم
مبتدأ وخبر ، وفي التوراة حال . وكزرع متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف
أي هم كائنون كزرع . وضمير آزره يعود الى الزرع . وجملة يعجب حال .

المعنى :

(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلفين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون) . يدل ظاهر الآية والحديث المتواتر ان رسول الله (ص) رأى في منامه انه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين ، وطافوا بالبيت العتيق كما يشاءون ، وقد حلق البعض رؤوسهم ، وقصر آخرون ، فأخبر النبي أصحابه بما رأى ، ففرحوا واستبشروا وظنوا انهم داخلوا مكة في العام الذي كانت فيه الرؤيا ، وسار النبي (ص) بهم متجهاً الى مكة ، ولما بلغوا الحديبية صدهم المشركون ، وعاد المسلمون الى المدينة كما أسلفنا .. وهنا وجد المنافقون منفذاً للطعن وقالوا : ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام ، فأين تأويل الرؤيا ؟. وذهلوا أو تجاهلوا ان النبي (ص) لم يعين وقت الدخول ، وقال قائل لرسول الله : ألم تقل : لتدخلن المسجد الحرام آمنين ٢ . قال : نعم ، ولكن لم أقل في هذا العام ، ولما كان العام القادم وهو السابع للهجرة دخل المسلمون مكة معتمرين ، وطافوا بالبيت كما يشاءون ، وحلق من حلق، وقصر من قصر ، ومكثوا ثلاثة أيام رجعوا بعدها الى المدينة ، وتسمى هذه العمرة عمرة القضاء ، وفيها نزل قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا » حيث تحقق ما رآه الرسول وأخبر به .

(فعمل ما لم تعلموا) . لقد علم الله ان في تأجيل العمرة الى ما بعد صلح الحديبية مصلحة يجهلها المسلمون ، وهي تجنب القتال، وإسلام العديد من المشركين الذين صدوا الرسول والصحابه عن المسجد الحرام عام الحديبية (فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) . ذلك اشارة الى تأويل الرؤيا بدخول المسلمين المسجد الحرام آمنين، والمراد بالفتح صلح الحديبية ، أو هو وفتح خيبر ، والمعنى ان هذا الصلح والذي بعده أيضاً بأيام وهو فتح خيبر - قد تحققا قبل تأويل الرؤيا، وهما نصر كبير تماماً كدخول المسجد الحرام (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) . المراد بالرسول محمد (ص) وبالهدى ودين الحق الاسلام ، وقد ظهر وانتشر في شرق الأرض وغربها ، لأنه يدعو الى العمل من أجل حياة أفضل ، وينهى عن كل ما من شأنه أن يقف حجر عثرة في طريقها . وتقدم

سورة الفتح

مثله في الآية ٣٣ من سورة التوبة ج ٤ ص ٣٤ (وكفى بالله شهيداً) على أنه يظهر الاسلام على الدين كله .

الصحابه والقرآن :

حكى سبحانه في كتابه العزيز ان موسى بن عمران دعا بني اسرائيل الى القتال بأمر من الله ، فقالوا له : « فاذهب أنت وربك فقاتلنا انا ههنا قاعدون - ٢٤ المائدة » . وأيضاً حكى ، عظمت كلمته ، ان قوم السيد المسيح حاولوا قتله وصلبه ، وان حواريه قالوا له : « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ ٩ . ولما قال لهم نبيهم : « اتقوا الله » . « قالوا نريد أن نأكل منها - ١١٣ المائدة » . وأنزل جل وعز سورة خاصة في ذم المنافقين من أصحاب الرسول (ص) وغيرها عشرات الآيات ، وأيضاً أنزل الكثير في المدح والثناء على المتقين الأبرار منهم : من ذلك قوله : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة - ١٨ الفتح » . وقوله : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه - ١٠١ التوبة » . وقوله :

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) مجتمع المجرمون يبدأ واحدة على صيد القرية ، ثم يتناحرون على أكلها .. أما المخلصون فلنهم على نهج واحد لا تلون فيه ولا اختلاف على شيء : اخوان في دين الله يتعاطفون ويتعاونون فيما بينهم تماماً كالأسرة الواحدة ، وأعوان للحق وأهله ، وحرب على الباطل وحزبه .. وهذه هي بالذات صفة الخالص من أصحاب محمد (ص) بشهادة الله تعالى حيث عطفهم على نبيه الكريم، ووصفهم واياء بالفضب لله والرضا لله .. وأدرك هذا الدكتور طه حسين ، وهو الأديب الذي يفهم بالإشارة ولحن الدلالة، قال في كتاب « مرآة الاسلام » : « لم يكن اسلام الأنبياء طاعة ظاهرة ، وإنما كان إسلامهم أوسع وأعمق وأصدق ما يمكن أن يكون الاسلام ، وإسلام الصالحين من أصحاب النبي (ص) كذلك لم يكن ضيقاً يقف عند الطاعة الظاهرة ، وإنما كان أوسع وأعمق من هذا » .

ثم ضرب الدكتور طه عمار بن ياسر مثلاً على هذا الاسلام الواسع العميق وقال : « كان عمار بن ياسر يقاتل مع علي بصفين في حماس أي حماس ، وهو شيخ قد بلغ التسعين أو تجاوزها ، وكان يقاتل عن ايمان أي ايمان بأنه يدافع عن الحق . وكان يوم قتل يخرض الناس ويقول : من رائع الى الجنة ؟ اليوم ألقى الأتجة محمداً وحزبه .. وكان قتل عمار تثبيتاً لمعلي والصالحين من أصحابه ، وتشكيكاً لمعاوية ومن معه ، ذلك ان كثيراً من المهاجرين والأنصار رأوا النبي (ص) يمسح رأس عمار ويقول له : ويحك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية » .

(تراهم ركعاً سجداً) أي ان منظرهم يوحي الى الراشي بأنهم من أهل الركوع والسجود ، وان لم يرهم راكعين ساجدين (يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيّاهم في وجوههم من أثر السجود) . ليس المراد بأثر السجود هنا سواد الجبهة ، كلا فإن أكثر هذا السواد أو الكثير منه رياء ونفاق ، وانما المراد به الصفاء والاشراق الذي يحدث بالوجه من أثر العبادة ، والمعنى ان الصحابة ركعوا وسجدوا رغبة في مرضاة الله وثوابه ، وخوفاً من غضبه وعقابه . وقد تجلى اثر ذلك في وجوههم لكل متوسم ، لأن العبادة الخالصة لوجهه تعالى تحدث في نفس العابد المخلص طهراً وصفاء تظهر دلالة على صفحات الوجه تماماً كما تظهر عليه دلائل الحزن والفرح .

(ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) . هذا كتابية عن ان أصحاب الرسول (ص) يكونون في البداية قليلاً ، ثم يزدادون ويكثرّون .. وتوضيح هذه الكتابة أو هذا المثل ان التوراة والانجيل قد بشرّا بمحمد (ص) ، ووصفا أصحابه بزرع نجا وأبغ وكثرت ثماره وفروعه ، واشتبك بعضها ببعض ، واستقامت على أصولها ، وبلغت غايتها من القوة والكثافة (يعجب الزراع) بحسنه ونموه .. وغير بعيد أن يكون المراد بالزراع هنا رسول الله (ص) ما دام المراد بالزرع أصحابه (ص) لأنه هو الذي رفعهم الى ما بلغوه من العظمة وعلو الدرجات ، وبفضله انتصروا في المعارك التي خاضوها في عهده ومن بعده . وقال سبحانه « الزراع » ولم يقل الزارع تعظيماً لشأن الرسول (ص) . نقول هذا على سبيل الاحتمال ، وقد سبقنا اليه من قرأ

«الزارع» . (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا) .
المعنى واضح . وتقدم مثله في الآية ٩ من سورة المائدة ج ٣ ص ٢٦ .

هل الالنا عشرية باطنيون ؟

نشر الأديب المصري الدكتور مصطفى محمود على التوالي ١٣ مقالاً في مجلة « صباح الخير » ، تكلم فيها عن إعجاز القرآن ، وقصة الخلق ، وبعض الموضوعات الغيبية ، ثم جمع المقالات في كتاب أسماه « محاولة لفهم عصري للقرآن » وطبع ووزع في الشهر الثالث أو الرابع من سنة ١٩٧٠ ، وفي مقال « رب واحد ودين واحد » عد المؤلف الشيعة الاثني عشرية مع الفرق الباطنية ، وانهم تماماً كالبابية والخواارج يفسرون القرآن تفسيراً باطنياً ، فكتبت اليه بأن الاثني عشرية أبعد الناس عن هذه البدع والضلالات ، وان كتبهم تشهد بذلك ، وهي في متناول كل يد ، وأرشدته الى بعضها ، والى ما قاله شيوخ الأزهر المنصفين عن الشيعة الإمامية كالمرحوم الشيخ شلتوت ، وغيرهم ممن نشروا في مجلة « الاسلام » التي تصدر في القاهرة عن « دار التريب » .

وفي مساء ١٥ - ٤ - ١٩٧٠ ارتفع صوت الهاتف ، واذا بالدكتور مصطفى محمود يكلمني من « تريونف اوتيل » ببيروت .. واجتمعنا لأول مرة ، وتحدثنا عن كتابه « الله والانسان » ، وردي عليه بكتاب « الله والعقل » .. ثم موعد لقاء بيبي في اليوم التالي ، وكان حديثنا عن الاسلام والباطنية ، فقال الأديب المصري فيما قال : « ان بعض الشيعة يفسرون مرج البحرين يلتقيان بعلي وفاطمة » .

قلت له : هل من العدل والمنطق أن تُدان طائفة تبلغ عشرات الملايين بقول واحد منها لا يمثل إلا نفسه ؟ وهل من الضروري اذا فسر شيخ آية قرآنية تفسيراً باطنياً أن تكون طائفته باطنية تدبّر بالتفسير الباطني للقرآن ، واذا فسر أديب مصري بيتاً من الشعر تفسيراً رمزياً أن يكون جميع الشعراء وكل من يفسر الشعر

(١) واجاد في تصوير الموسيقى الباطنية في القرآن . انظر ما كتبناه بهذا العنوان في ج ٦ ص ٣٠٠ .

في مصر رمزيين . وأن للشيعة الاثني عشرية كتباً في العقائد تسالموا عليها وأجمعوا على الأخذ بها ، كأوائل المقالات للشيخ المفيد ، وقواعد العقائد لنصير الدين الطوسي ، وشرحه للعلامة الحلي ، وما جاء في شرح التجريد من التوحيد وصفات الله والقضاء والقدر والنبوة والإمامة والمعاد .

وكانت تظهر أمامي - وأنا أبحث وأنقب في المصادر - تفاسير باطنية لشيوخ من السنة ، فأهمها لأنها لا تلتقي مع تفسيري وغايتي في شيء ... وحين احتج الدكتور بمرج البحرين فكرت طويلاً لعلني أتذكر تفسيراً واحداً من تلك التفاسير لأنقص به قول الدكتور ، فخذلتني الذاكرة وأنا في أشد الحاجة الى مؤازرتها .. ثم انتقلنا الى موضوع آخر .. ومن الصدف اني كنت أفسر سورة الفتح حين جرى النقاش بيننا ، وفي اليوم التالي وصلت بالتفسير الى قوله تعالى : « كزرج أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه » وإذا بي أقرأ في تفسير روح البيان لاسماعيل حقي والتسهيل للحافظ بن أحمد الكلبي ، وهما من أهل السنة ، قرأت فيها ما نصه بالحرف : « كزرج أخرج شطأه بأبي بكر ، فآزره بعمرو ، فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي » . فانتقل بي هذا التفسير الباطني الى ما قرأته منذ زمان في كتاب حياة الإمام أبي حنيفة للسيد عفيفي ان السيوطي قال : « ذكر العلماء ان النبي (ص) بشر بالإمام مالك في حديث : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أعلم من عالم بالمدينة » وبشر بالإمام الشافعي في حديث : « لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً » وبشر بالإمام أبي حنيفة في حديث : « لو كان العلم معلقاً عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس » .

وفي الحال اتصلت هاتفياً بالدكتور مصطفى محمود ، وقرأت له تفسير الكلبي وحقي ، وقلت له : هل تميزني أن أنسب هذا التفسير الى جميع السنة واجعلهم والبايين سواء كما فعلت أنت ونسبت الاثني عشرية الى ما نسبت لا لشيء إلا لأن واحداً منهم قال ما قال ؟ فا زاد في الجواب شيئاً على قوله : « تمام .. تمام » .

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

١٨ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي الآية ١ - ٥ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ
صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ
أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ
اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ *
إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ الْهُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ
صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *

الطبعة :

امتنح قلوبهم للتقوى أي أخلصها للتقوى من امتحن الذهب بالنار وأذابه ليميز
جيده من رديته . والحجرات جمع حجرة ومن ورائها أي من خارجها .

الإعراب :

لا تقدموا الأصل لا تتقدموا . أصواتكم منصوبة بالفتحة لأن التاء من أصل الكلمة. والمصدر من أن تحيط مفعول من أجله لا تلهوا . وأولئك الذين امتحن الله الخ مبتدأ وخبر والجملة خبر ان الذين يفضون . ولهم مغفرة جملة ثانية . والمصدر من أنهم صبروا فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت صبرهم .

المعنى :

ذكر سبحانه المؤمنين في هذه الآية بأمور :

١ - (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) . لا تسرعوا الى قول أو فعل يتصل بالدين والصالح العام حتى يقضي به الله على لسان رسوله الكريم (واتقوا الله ان الله سميع عليم) . في نهج البلاغة : « اتق الله بعض التقى وإن قل ، واجعل بينك وبين الله سراً ، وإن رق » . وأدنى شيء يتقي به الانسان خالفه أن يكف عن قول : لو أحل الله هذا الشيء الذي حرم ، أو حرم ذلك الذي أحل ، ويا ليت النبي فعل كذا ، أو لم يفعل الذي فعل ، وما الى ذلك من الجرأة والجهل .

٢ - (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) . رفع الصوت بلا ضرورة غير مستحسن ، قال سبحانه : « واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير - ١٩ لقمان ، ج ٦ ص ١٦٣ فكيف إذا ارتفع في محضر العظماء ومجلسهم ؟ والرسول الأعظم (ص) سيد النبيين وأشرف الخلق أجمعين .

٣ - (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) . لا تخاطبوا النبي (ص) كما يخاطب بعضكم بعضاً ، ومن يفعل ذلك فقد أبطل إيمانه من حيث لا يريد ولا يشعر ، ومن بطل إيمانه بطل عمله ، وكان من الخاسرين (ان الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن

الله قلوبهم للتقوى - أي أخلصها للعمل الصالح - لهم مغفرة وأجر عظيم) .
 يتلى الله عباده بأنواع المحن ليتذكر متذكر ، ويزجر مزجر ، فمن تذكر وصبر
 استخلصه الله وهده سواه السبيل ، وأنعم عليه بالغفران وأجر الصابرين ، وتسمى
 الآية الى أن الخطاب المهذب والأسلوب اللائق - من الإيمان ، قال الإمام علي (ع) :
 « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » .
 (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) . الخطاب في
 ينادونك لرسول الله (ص) ، والحجرات جمع حجرة . وهي الغرفة . وكان
 للنبي (ص) تسع زوجات لكل واحدة منهن حجرة من جريد النخل . وعلى بابها
 ستار من الشعر . وقال المفسرون : انطلق ناس من العرب الى المدينة ، ووقفوا
 وراء حجرات النبي ونادوا يا محمد اخرج الينا ، فربص النبي قليلاً ثم خرج
 اليهم ، ووصفهم سبحانه بأن أكثرهم لا يعقلون لما في فعلهم ذلك من البداهة
 والجفاء (ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم) لأن في الأناة
 وترك العجلة أجراً لهم وثواباً ، وتعظيماً لرسول الله ، ورعاية للأدب (والله
 غفور رحيم) تسع رحمته ومغفرته للجمع الرعاع وغيرهم .

ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا الآية ٦ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا
 بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ *

اللغة :

بجهالة أي بغير علم .

الإعراب :

المصدر من أن تصيبوا مفعول من أجله لتبينوا أي لثلاث تصيبوا . فتصيحوا منصوب بأن مضمرة . ونادين خبر تصيحوا .

المعنى :

اشتهر بين المفسرين ان رسول الله (ص) بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط الى بني المصطلق ليأخذ منهم الزكاة ، فاستقبلوه بجمعهم تكرماً له ، ولكنه ظن بهم الشر وانهم يريدون الإيقاع به ، فانصرف الى النبي (ص) وقال له : منعوني وطردوني . فغضب النبي (ص) وقال له بعض الصحابة : نفزوههم يا رسول الله . فترلت الآية في تبرئة بني المصطلق ، وقيل غير ذلك في سبب نزولها .. ونحن لا نثق بشيء من أسباب النزول إلا اذا ثبت بنص القرآن أو بخبر متواتر ، بالإضافة الى ان ظن الوليد بالشر لا يستوجب الضيق ، وانما هو خطأ واشتباه ، والمخطيء لا يسمى فاسقاً وإلا استحق اللوم والعقوبة حتى ولو تحفظ واجتهد .

وأياً كان سبب النزول فإن الآية لا تقتصر عليه ، بسبب تعداه الى غيره لأن المورد لا يخصص الوارد ، ولا فرق بينه وبين غيره من أفراد العام ، وانما ذكر بالذات لأمر لا يمت الى تخصيص اللفظ بصفة ، وعليه يجب الأخذ بظاهر الآية ، وهو يدل على حرمة الأخذ بقول الفاسق دون التمهيص والتثبت من خبره خوفاً من الوقوع فيما لا تحمد عقباه كالإضرار بالآخرين والتدانة حيث لا ينفع النعم ، وبكلمة الإمام علي (ع) « من سلك الطريق الواضح ورد الماء ، ومن خالف وقع في التيه » وهذا نجد تفسير قوله تعالى : « أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

واستدل بهذه الآية جماعة من شيوخ العنة والشيعة على وجوب الأخذ بقول الثقة مطلقاً بلا شرط البحث عن صدقه فيما أخبر، وشرح بعضهم وجه الاستدلال بكلام غامض ومعقد ، ويتضح بأن الآية تضمنت مبدأ عاماً يقاس به الخبر الذي لا يصح الاعتماد عليه والعمل به إلا بعد التثبت وهو خبر الفاسق ، وأيضاً يقاس به الخبر

سورة الحجرات

الذي يعتمد عليه مطلقاً ومن غير تثبت وهو خبر الثقة ، لأن الله سبحانه أناط الاعتماد على خبر الفاسق بالتيين والتثبت ، ولم يتعرض لخبر الثقة ، ومعنى هذا ان العمل بخبر الثقة لا يجب فيه التثبت ، ولو وجب لبيّن واشترط التثبت فيه تماماً كما اشترطه في خبر الفاسق ، وحيث لا بيان فلا شرط .

وفي رأينا ان قوله تعالى : « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » لا يدل إلا على وجوب التثبت من خبر الفاسق ، وان هذا الشرط لا بد منه قبل العمل بخبر الفاسق ، ولا دلالة للآية على هذا الشرط بالنسبة الى خبر الثقة ، لا نفيّاً ولا اثباتاً .. ونحن مع القائلين بأن السند الأول للأخذ بخبر الثقة هو طريقة العقلاء قديماً وحديثاً ، وسكوت الشارع عنها ، وهي برأى منه ومسمع .. أجل ، ان قوله تعالى : « ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » يرمي الى ان أي خبر نأمن معه من الوقوع في الشبهات والمحرمات يجوز العمل به أياً كان المخبر .. وبالبداية لا نكون آمنين من ذلك إلا بالاعتماد على قول الثقة ، أو بعد التثبت من خبر الفاسق .

الله حبيب اليكم الايمان الآية ٧ - ٨ :

وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ
وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

اللفظ :

عَنَّمْ أَصَابَكُمْ تَعَبٌ وَمُتَشَقَّةٌ . والمراد بالفسوق هنا القول المحرم كالكذب والغيبة
أما العصيان فيشمل معصية الله بالقول والفعل .

الإعراب :

فيكم خبر ان ورسول الله اسمها ، والفرض من هذا الاخبار أن يعظموا الرسول ولا تجبروه إلا بالصدق والواقع . فضلاً منصوب على المصدر أو مفعول من أجله لفعل محذوف أي فعل الله ذلك تفضلاً وانعاماً .

المعنى :

(واعلموا ان فيكم رسول الله) وأشرف الأولين والآخرين ، فعليكم أن تعظموه ولا تجبروه إلا بالحق والصدق (لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) . هذا أمر من الله تعالى موجه الى المؤمنين بأن يسموا للرسول ويطيعوا ولا يشيروا عليه بما يعلم من الله ما لا يعلمون ، ولو استجاب الى الكثير مما يدعونه اليه لتعبوا ووقعوا في الجهد والإثم .

(ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) . أمر الله عباده أن يؤمنوا به ويطيعوه ، وبين لهم محاسن الايمان والطاعة ، ورغبهم في ذلك بكل أسلوب ، ووعد من آمن وعمل صالحاً بالثواب الجزيل والأجر العظيم ، ونهاهم عن الكفر والمعصية وبين مساوئها ، وهدد من كفر وعصى بأشد العذاب ، ووصف هذا العذاب بما لا يمكن أن يحده عقل أو يتصوره انسان إلا بعد البيان ، وأي انسان يتصور عذاباً ما هو بالموت ولا بالحياة !

وأرسل سبحانه رسله الى الناس ليبلغوا أمره ونهيه ووعدته ووعيده ، فمنهم من استجاب حقاً وصدقاً ، ومنهم من أعرض وعاند ، ومنهم من استجاب خوفاً على مصالحه وطمعاً بالنعمة ، والذين استجابوا لله والرسول حقاً وصدقاً في كل ما دعا اليه هم الراشدون المعنيون بقوله تعالى : « حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم » الخ . أي حبه سبحانه اليهم وزينه في قلوبهم بما بينه من محاسن الايمان والترغيب فيه بالثواب الجزيل ، وكرههم في الكفر بما بينه من مساوئه ، والتهديد عليه بالعذاب الأليم .

سورة الحجرات

وتسأل : ان الله سبحانه يبين ذلك للمؤمنين والكافرين ، فلماذا خص المؤمنين بالذكر دون غيرهم ؟ .

الجواب : أجل ، ولكن ما كل من سمع ببيان الله آمن وانتفع به ، ولا كل من نصحه الله قبل نصيحته ، بل قبل الطيبون وأعرض المجرمون ، فذكر سبحانه وأثنى على من استمع القول فاتبع أحسنه ، وأهمل من أعرض وتولى (فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم) . ليس من شك ان الذي يختار الهدى على الضلال له الفضل والأجر ، ولكن الفضل الأكبر لمن مهّد طريق الهدى وأرشد اليه وزود السالك بالقدره على سلوكه ، وقدماً قيل : وما المسبّب لو لم ينجح السبب .

وان طائفتان من المؤمنين اقتتلا الآية ٩ - ١٠ :

وَأِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *

اللفظ :

تفيء ترجع . واقسطوا اعدلوا .

الإعراب :

طائفتان فاعل لفعل مقدر أي وان اقتتل طائفتان . وجمع سبحانه و اقتتلا ،

بالنظر الى المعنى لأن الطائفة جماعة من الناس ، وثني « بينها » بالنظر الى لفظ طائفتين .

المعنى :

(وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما) . للاسلام تعاليم وإرشادات لبناء المجتمع وإصلاحه ، منها وجوب حماية الانسان في دمه وماله وعرضه، وحرية في القول والفعل ، لا سلطان عليه لأحد ولا لشيء إلا الحق ، فإذا خرج عنه وانتهك حرمة بالاعتداء على الآخرين فقد رفع هو الحصانة عن نفسه ، قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم - ٧٠ الإسراء » أنظر ج ٥ ص ٦٦ فقرة « بماذا كرم الله بني آدم » . وقال مخاطباً نبيه الكريم : « لست عليهم بمسيطر - ٢٢ الغاشية » . وقال : « انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيعون في الأرض بغير الحق - ٤٢ الشورى » .

ومنها التعاطف والتكافل بما يعود على الجميع بالخير والصلاح، فإذا ما حدث خصام وقتال بين فتنتين من المؤمنين فعلى المؤمنين الآخرين أن يتلافوا ذلك ، ويصلحوا على أساس الحق والعدل حرصاً على وحدة الجماعة وجمع الشمل ، وفي الحديث الشريف : « الا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : اصلاح ذات البين .

(فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله) . إذا أبغت إحدى الفتنتين الرضوخ للحق بالحسنى، وأصرت على العدوان فعلى المؤمنين الآخرين ان يحموا الفتنة الأخرى من الظلم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإن لم ترتدع الفتنة الباغية إلا بالقتال قاتلوا في حدود التأديب والدفاع المشروع الذي يحقق الأمن للجميع (فإن فاءت فاصلحوا بينها بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين) . فإن تابت الفتنة الباغية ، وانتهت عن بغيتها فإن الله غفور رحيم ، وما لأحد عليها من سبيل ، وعلى المؤمنين أن يبذلوا الجهد لازالة ما حدث في نفوس الطرفين . وقال الجصاص الحنفي في كتاب أحكام القرآن ، وهو يتكلم حول هذه الآية :

« قاتل علي بن أبي طالب الفتنة الباغية بالسيف ، ومعه كبراء الصحابة وأهل بدر من قد علم مكانهم . وكان محققاً في قتاله لهم لم يخالف فيه أحداً إلا الفتنة الباغية التي قاتلته واتباعها .. وقال أبو بكر المالكى المعروف بابن العربي المعافري في أحكام القرآن : « تقرر عند علماء الاسلام ، وثبت بدليل الدين ان علي بن أبي طالب كان إماماً ، وان كل من خرج عليه باغ ، وان قتاله واجب حتى يفيء الى الحق » .

الاخوة الدينية والاخوة الانسانية :

(انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) . هذا تأكيد للأمر بإصلاح ذات البين مع الاشارة الى أن هذا الاصلاح يفرضه رابطة الاخوة . وفي الحديث : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يبيع به .

وتسأل : لماذا قال سبحانه : انما المؤمنون اخوة ، ولم يقل : انما الناس اخوة ، وقال الرسول الأعظم (ص) : المسلم أخو المسلم ، ولم يقل : الانسان أخو الانسان ؟ مع العلم بأن الرب واحد والأصل واحد والخلق واحد والمساواة بين بني الانسان واجبة ، فالحب ينبغي أن يكون عاماً لا خاصاً تماماً كرحمة الله التي وسعت كل شيء ؟ . وأي فرق بين أن نقسم بني آدم على أساس ديني أو اقتصادي كما فعلت الماركسية أو على أساس الجنس والعرق كما دانت النازية أو على أساس النار والدولار كما هي السياسة الأمريكية ؟ . ثم ما هو السبب لما عانته وتعاينه الانسانية من الويلات والمشكلات التي تقودها الآن الى المصير المدمر المهلك بعد أن ملك الانسان أشنع قوى التدمير والاهلاك ؟ . هل يكمن هذا السبب في طبيعة الانسان بما هو انسان أو ان السبب الأول والأخير يكمن في الانقسامات بشقي أنواعها ؟ . وبالتالي هل على بني الانسان أن يتعاطفوا ويتراحوا على أساس ديني أو أساس انساني ؟ .

الجواب : هذه التساؤلات بكاملها حق ، وجوابها واحد وواضح تحمله هذه التساؤلات معها وتدل عليه كلماتها ، وهو ان التعاون والتكافل يجب أن يكون بين

بني الانسان قاطبة دون استثناء، وهذه هي دعوة الاسلام بالذات، ويدل عليها عشرات الآيات والروايات ، نكتفي منها بذكر آية ورواية ، قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم - ١٣ الحجرات » . فنداؤه تعالى بيا أيها الناس مع قوله : من ذكر وأنثى .. وأتقاكم دليل قاطع وواضح على ان دعوة القرآن انسانية عالمية تعتبر الانسان أخاً للانسان مهما كانت عقيدته وقوميته وجنسيته ، ومثل هذه الآية معنى ووضوحاً قول الرسول الأعظم (ص) : « الناس سواسية كأسنان المشط ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى .. كلكم من آدم وآدم من تراب » . بالاضافة الى الآية ٣٠ من سورة الروم التي تنص على ان دين الاسلام هو دين الفطرة ، والآية ٢٣ من سورة الأنفال التي تدل على ان دين الله هو دين الحياة .

وبهذا يتبين معنا ان كتاب الله وسنة رسوله يعتبران الايمان بالانسان جزءاً متمماً للايمان بالله ورسله وكتبه ، وعليه يكون المراد بالؤمن في الآية والمسلم في الحديث هو الذي يؤمن بالله وبالانسان بما هو انسان .. وبكلام آخر لا صراع ولا تناقض بين الاخوة الانسانية والاخوة الاسلامية ، بل هذه تدعم تلك، وتزيدها قوة ورسوخاً .

لا يسخر قوم من قوم الآية ١١ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *

اللغة :

قيل : ان كلمة قوم لا تفعل إلا على الذكور بدليل عطف النساء عليهم .
واللمز الطعن والعيب بقول أو فعل يقال : لمزه أي عابه . والنبز اللقب ، ولكن
المراد هنا بتنازوا بالألقاب تعابروا بها ولقب بعضهم بعضاً بالعيب المكروه .
والمراد بالاسم الفسوق ذكر العيب .

الإعراب :

عسى هنا تامة والمصدر من ان يكونوا فاعل . وهم ضمير فصل .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا
نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن) . عند تفسير الآية ٥٥ من سورة
الفرقان ج ٥ ص ٤٧٨ قلنا : ان الظالم يعامله الله غداً معاملة الكافر ، وان عومل
في الدنيا معاملة المسلم اذا نطق بالشهادتين .. ومن سخر من الأبرياء فهو ظالم
وسفيه ، وقد هدده الله بأشد العقوبات ، من ذلك قوله عز من قائل : « فيسخرون
منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم - ٨٠ التوبة » . وقوله : « إن الذين أجرموا
كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم
انقلبوا فكهين - الى - فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون » آخر المطففين
وقوله : « ويل لكل همزة لمزة » .

كيف تكسب الأصدقاء ؟

تذكرت ، وأنا أفسر هذه الآية ، اني منذ ١٦ سنة أو أكثر قرأت ترجمة
كتاب « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر بالناس » لـ « دابل كارنيجي » . وأيضاً

تذكرت حكمة بالغة للإمام زين العابدين (ع) تتصل بهذا الموضوع ، وهي أجمع وأبلغ أثراً من الكتاب المذكور على الرغم من رواجه وترجمته الى أكثر من لغة.. وكان الإمام يقصد بحكمته تفسير قوله تعالى : « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » . وهذه هي :

« إياك أن تتكلم بما سبق الى القلب انكاره وان كان عندك اعتذاره ، فليس كل من تُسمعه شراً يمكنك أن تُوسعه علماً .. واجعل من هو أكبر منك بمنزلة الوالد ، والصغير بمنزلة الولد ، والترب بمنزلة الأخ ، فأبي هؤلاء نجب أن تهتك ستره ؟ وان عرض لك الشيطان ان لك فضلاً على غيرك فانظر : ان كان أكبر منك فقل : قد سبقني بالايمان والعمل الصالح فهو خير مني ، وان كان أصغر منك فقل : قد سبقته بالمعاصي والذنوب فهو خير مني ، وان كان تربك فقل : أنا على يقين من ذنبي وفي شك من أمره فما لي أدع يقيني لشكي ، وان رأيت الناس يعظمونك فقل : هذا فضل أخذوا به ، وان رأيت منهم جفاء فقل : هذا لذنبي أحدثته ، فإنك ان فعلت ذلك سهل الله عليك عيشك وكثر أصدقاؤك وقل أعداؤك ، وفرحت برهم ، ولم تأسف على جفاء من جفاك » .

ومها قال العلماء والحكماء في هذا الموضوع قلن يزيدوا شيئاً عما انطوت عليه هذه الحكمة البالغة ... ولا بدع فإن قائلها ابن الوحي ، وخازن علمه ، والمتأدب بأدبه .

(ولا تلمزوا أنفسكم) . لا يطعن بعضكم على بعض ، ولا تقولوا لأحد ما لا نحبون أن يقال لكم (ولا تنازروا بالألقاب) . لا يخاطب أحداًكم غيره بلقب بكرهه ، وقال الفقهاء : إذا لم يُقصد من اللقب النقص والاستخفاف فلا بأس ، كالأعرج والأحجب والأعمش لمن اشتهر بذلك (بنس الاسم الفسوق بعد الايمان) . فيه تفسيران : الأول لا تقولوا للمؤمن : يا كافر وما أشبه . الثاني من عاب غيره بما يكره يصير فاسقاً بعد ان كان مؤمناً ، وهذا أرجح من الأول عند كثير من المفسرين (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) . من تاب من الذنب كمن لا ذنب له ، ومن أصر عليه فقد ظلم نفسه لأن الله يتنقم من المذنبين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ
وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَEُضُكُمُ بَEُضًا أَيُّبُ أَحَدُكُم أَن يَأْكُلَ لَحْمَ
أَخِيهِ مَيْتًا فَكْرِهْتُمْ أَوْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ *

الإعراب :

المصدر من أن يأكل مفعول يحب . وميتاً حال من اللحم .

المعنى :

في الآية السابقة نهى سبحانه عن السخرية واللمز والتنايز بالألقاب ، وندد بمن
يفعل شيئاً من ذلك ، وفي هذه الآية نهى عن سوء الظن والتجسس والغيبة ،
والفصل فيما يلي :

الظن :

١ - (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن إثم). هذه
الفقرة من الآية يمكن تلخيصها بجملة واحدة هي كل انسان بريء حتى تثبت
إدانته ، ويمكن أن نشرحها بصفحات طوال ، فنحدد ما يقتضيه الأصل في الظن
هل هو صحة الأخذ به ، أو وجوب الاجتناب عنه في سائر الأحوال ، أو عند
تعذر العلم ؟ وهل العلم بالأحكام الشرعية الفرعية متعذر أو غير متعذر ؟ وعلى
الأول هل نأخذ بكل ظن أياً كان سببه وكانت مرتبته ؟ وعلى الثاني ما هي
الوسائل العلمية الى الأحكام الشرعية ؟ الى آخر التفريعات المدونة في أصول الفقه

التي أمضينا في دراستها أمداً غير قصير . ومن الخير أن نلتزم التفسير الوسط بين الإيجاز والاطناب . وقبل كل شيء نعهد ببيان الفرق بين الشك والظن والعلم ، فالشك هو استواء كفتي الاحتمالين اثباتاً ونفيّاً ، والظن ترجح كفة أحدهما على الآخر . مع بقاء الطريق مفتوحاً للذي خف ميزانه ، والعلم تعيين أحدهما مع سد الطريق على الآخر من الأساس .

وقد تظن بإنسان خيراً أو شراً ، وقد تكون مصيباً في ظنك أو مخطئاً .. ولا بأس عليك إطلاقاً في حسن الظن بأخيك أصبت أو أخطأت ، ظهر اثر ذلك في أقوالك وأفعالك أو لم يظهر . قال الرسول الأعظم (ص) : « ظنوا بالمؤمنين خيراً » . وقال الإمام علي (ع) : « ضح أمر أخيك على أحسنه » . أنظر ج ١ ص ١٤١ فقرة « أصل الصحة » . وبهذا يتبين معنا لماذا قال سبحانه : « اجتنبوا كثيراً من الظن » ولم يقل : كل الظن ، فإن كلمة كل من صيغ العموم تشمل حسن الظن وسوء الظن ، أما كلمة كثير فقد تستعمل بمعنى بعض وبمعنى معظم ، وهذا هو المراد بكلمة كثير في الآية ، والفصد هو حصر موضوع الآية ودلالاتها بسوء الظن .

وسوء الظن من حيث هو ودون أن يظهر أثره في قول أو فعل - ما هو محرم وصاحبه غير مسؤول عنه ، لأن الانسان لا حرية له في ظنونه وتصوراته ، وإنما توحى بها الظروف والأسباب الخارجة عن إرادته واختياره .. أجل ، عليه أن لا يعمل على ظن السوء ، ويعتبره كأنه لم يكن ، وإذا عول عليه وظهر اثر ذلك في قول أو فعل كان مسؤولاً ومستحقاً للذم والعقاب ، وهذا هو الظن الذي أراده سبحانه بقوله : « ان بعض الظن إثم » . قال الرسول الأعظم (ص) : « ثلاثة لا يسلم منها أحد : الطيرة ، والحسد ، والظن .. فإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تحقق » . وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : « اجتنبوا كثيراً من الظن » لا تعولوا عليه ، ولا تعملوا به تماماً مثل قوله : « لا يفتننكم الشيطان » .

التجسس :

٢ - (ولا تجسسوا) . التجسس تتبع العورات والعثرات ، والبحث عنها في الخفاء ، وهو محرم كتاباً وسنة وإجماعاً وعقلاً ، فن الكتاب قوله تعالى : « ولا تجسسوا » . وقوله : « لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم » - الى - حتى يؤذن لكم - ٢٨ النور ، ج ٥ ص ٤١٢ . ومن السنة قول الرسول الأعظم (ص) : « من اطلع عليك فحذفته بحصاة ففقت عينيه فلا جناح عليك » . وقد أجمع الفقهاء قولاً واحداً على العمل بهذا الحديث . أما العقل فإنه يعتبر التجسس غزواً لحياة الناس ، واعتداء على حرياتهم وأشيائهم الخاصة بهم من معلومات وعادات .

تذكرت ، وأنا أكتب هذه الكلمات مقالاً مطولاً في هذا الموضوع ، نشرته جريدة الأهرام عدد ٢٧ - ٦ - ١٩٦٩ ، قرأته آنذاك ، واحتفظت به في ملف قصاصات الصحف التي احتفظ بها وادخرها الى وقت الحاجة ، فرجعت الى المقال ، وقرأته من جديد ، فإذا بي أقرأ ما لا يبلغه الخيال ، وفيما يلي بعض ما جاء فيه :

« لقد تساقطت الجدران في الولايات المتحدة حتى أصبح الأمريكيون بفضل الغزو الالكتروني المنظم يشعرون بأن الجدران ليست لها آذان وحسب ، بل عيون وعدسات أيضاً ، كما تقول مجلة التايم .. لقد اخترعوا في الولايات المتحدة جهازاً بحجم المليم الصغير ، يسرق ويسجل السمع ، ويمكن وضعه في « الجاكت » كالزور ، وهو في متناول كل فرد ، وبتراوح ثمنه بين ١٠ و ١٥ دولاراً .. وفي نيويورك تجار يعلنون في الصحف عن أجهزة تسرق السمع من بيوت الناس ومنازلهم ، وتعرض في الأسواق كلبب الأطفال ، ولا يزيد ثمنها على ١٨ دولاراً ، وإذا وُضع واحد من هذه الأجهزة في سيارة تقبع في اتجاه العمارة - سجل كل كلمة تقال في داخل العمارة .. بل هناك جهاز لاستراق السمع لا يزيد حجمه على حبة العدس الصغيرة يمكن أن يوضع في القلم وما أشبه ، وتعمل بطاريته بين ١٨ و ٥٠ ساعة .. وأيضاً اخترعوا في الولايات المتحدة جهازاً صغيراً للارسال ، يسدع ما يدور في البيوت على بعد ٥٠ قدماً منها ، وثمنه ٤٠٠ دولار .. وأعجب من ذلك

كله كاميرا تصور من وراء الجدران كل ما يفعله الانسان بالحمام والمخدع في أحلك الظلمات .. وأيضاً يمكن رسم وشم على الطفل ساعة ولادته ، وبسبه تُرصد جميع حركاته طول حياته .. ويوجد في أنحاء الولايات المتحدة شركات تجمع المعلومات والتحركات الخاصة للشخصيات السياسية والعلمية والأدبية والمالية وغيرهم وتسجل أفعالهم وتصور أفعالهم حتى الجنسية مع الزوجات وغيرهم ، وتزود من شاء بهذه المعلومات مقابل دولار واحد ، وتسمى هذه الشركات بنوك المعلومات.. كل ذلك وما اليه يحدث على علم من السلطة دون أن تحرك ساكناً ، لأنه معتاد ومألوف تماماً كبيع الجرائد .

هذا قليل من كثير .. فقد ألف الباحثون كتباً خاصة في هذا الموضوع، ولو اقتصر نجس الأمريكيين على بعضهم البعض لقلنا مع الموالين لهم : ان لكل بلد تمام الحرية في أن يختار لنفسه ما يشاء .. ولكن الأمريكيين تجاوزوا ذلك الى التجسس على دول الأرض وشعوبها بالطائرات والأقمار الصناعية .. ولا تعجب أيها القارئ فإن الولايات المتحدة بلد الحضارة والديمقراطية ، وسيدة العالم الحر ، وقائدة الاستعمار الجديد ، وفوق ذلك تؤمن بالله والمثل العليا .. ولا شيء أدل على إيمانها بالله واليوم الآخر من مذبحه « سنونج ماي »^١ بفييتنام الجنوبية : ومن تزويدها اسرائيل بأحدث الأسلحة لتقضي بها على شعب فلسطين ، وتقتل أبناءه بالجملة ، وتلقي الصواريخ من طائرات الفانتوم على أطفال المدارس في الجمهورية العربية المتحدة .. حقاً ان الولايات المتحدة أعظم دولة في هذا الميدان .. والعاقبة للمتقين .

الفية :

٣- (ولا يغتب بعضكم بعضاً أحب أحداكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه

١ هي قرية مسالمة تضم ٥٠٠ نسمة معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال ، ذبح الجنود الاسريون جميع من فيها بأبشع صورة ، ولم يبقوا منها باقية ٠٠ حدثت هذه الجريمة المذهلة في الشهر الثالث من سنة ١٩٦٨ .

واتقوا الله ان الله تواب رحيم . الغيبة أن تذكر شخصاً معيناً بما يكره ، قال الرسول الأعظم (ص) : « الغيبة ذكرك أخاك بما يكره ، فإن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » والبهتان أعظم من الغيبة، وهي محرمة كتاباً وسنة واجماعاً .

وقد شبه سبحانه من استغيب بالميت لأنه غائب ، وشبه عرضه بلحمه، وقول السوء فيه بالأكل والنهش . ومعنى فكرهتموه : أنقم من أكل لحم الميت فينبغي أن تأنفوا من غيبة الغائب أيضاً لأنهما من باب واحد، ولا شيء أدل من الغيبة على الخسة والضعفة ، قال الإمام علي (ع) : « الغيبة جهد العاجز » والله سبحانه لا يغفر الغيبة حتى يغفرها من استغيب .. واستثنى الفقهاء من تحريم الغيبة الملمحد ، والحاكم الجائر ، والفاسق المعلن بالفسق لأن من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ، ونصح من استشارك في مشاركة شخص معين أو توكيله في أمر هام ، وتجريح الشاهد عند القاضي ، وراوي حديث الرسول (ص) ، والمتظلم من ظلمه ، قال تعالى : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم - ١٤٨ النساء » . وفي مكاسب الشيخ الأنصاري : « ان موارد استثناء الغيبة لا تنحصر في عدد لأن الغيبة انما تحرم اذا لم يكن في التشهير مصلحة أقوى وإلا وجب الاعلان والتشهير تغلياً لأقوى المصلحتين ، كما هي الحال في كل معصية من حقوق الله وحقوق الانسان » . أنظر ج ٢ ص ٤٧٧ .

أكرمكم عند الله أتقاكم الآية ١٣ - ١٨ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ * قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ

شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَتَّبِعُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا
تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ *

اللفظة :

شعوب جمع شعب وهو أعظم من القبيلة . والأعراب سكان البادية . والمراد
بالإسلام هنا التعلق بالشهادتين . لا يلتزم لا يتقصم .

الإعراب :

لتعارفوا الأصل لتتعارفوا ، والمصدر المنسبك متعلق بجعلناكم . ولما يدخل أي
لم يدخل بعد . وشيئاً مفعول مطلق ليلتكم . وأولئك مبتدأ والصادقون خبر وهم ضمير
فصل ، والجملة خبر « المؤمنون » . والمصدر من أن أسلموا مجرور بباء مقدرة ،
ومثله ان هداكم .

المعنى :

(يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا

ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير . كل الناس يعلمون ان الأب آدم والأم حواء .. ولكن الغرض من قوله تعالى : « خلقناكم من ذكر وأنثى » ان يعلم الناس ، كل الناس ، انهم اخوة والاخوة سواسية في الحقوق والواجبات ، قوله : « لتعارفوا » فعنايه ليس القصد من اختلافكم في البلدان والأنساب والألوان أن تفرقوا شعباً ، وتناحروا وتتفاخروا بشعوبكم وآبائكم وأجناسكم .. كلا ، وإنما القصد أن تتعاطفوا وتتعاونوا على ما فيه خيركم وصلاحكم .. وأفضل الناس عنده تعالى أخوفهم منه ، وأنفعهم لعباده .

وهذه الآية دعوة من القرآن الكريم إلى امة انسانية وعالم واحد يجمعه العدل والمحبة ، وهذا العالم أمل الصفوة من المفكرين وحلم المصلحين ، وفي يقيتنا ان الاعتراف بحقوق الانسان سيظل حبراً على ورق وبمجرد نظرية إذا لم تتحقق الوحدة الانسانية الشاملة التي دعا اليها القرآن منذ أكثر من ألف وثلاثمئة سنة .. فلقد وقّعت الولايات المتحدة ومعها اسرائيل وثيقة حقوق الانسان ، ومع ذلك تقترف الأولى جريمة إبادة الجنس البشري في شعب فيتنام والثانية في شعب فلسطين .

أكتب هذه الكلمات يوم ٢٣ نيسان سنة ١٩٧٠ واللجنة الدولية التابعة للأمم المتحدة تحقق في انتهاكات اسرائيل لحقوق الانسان ، وقد سجلت اللجنة في محاضرها ان اسرائيل هدمت في الأراضي المحتلة على المدنيين بيوتهم رجالاً ونساء وأطفالاً وتركت الجثث تحت الأنقاض ورفضت السلطات الاسرائيلية دفنها ، وانها تعتدي على الأماكن المقدسة والمستشفيات ، وتعذب المواطنين العرب بالنار والكهرباء ، وتستأصل الأعضاء الحساسة من أجساد الكبار ، وتقطع أيدي الصغار وتبقر بطونهم بمرأى من الآباء والأمهات .. الى غير ذلك من الجرائم الوحشية والابادة الجماعية .

(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم - أي لا ينقصكم - من أعمالكم شيئاً ان الله غفور رحيم) . عند تفسير الآية ٨٢ من سورة البقرة ج ١ ص ١٣٨ تكلمنا عن الفرق بين المؤمن والمسلم ، ونقل هنا ما ذكره الدكتور طه حسين حول هذه الآية في كتاب « مرآة الاسلام » لأنه أديب يُستشهد بفهمه على أسرار البلاغة قال :

« كان في عهد النبي (ص) مؤمنون ومسلمون ، فما عسى أن يكون الفرق بين الإيمان والاسلام ؟ . أما الإيمان فالظاهر من هذه الآية انه شيء في القلب قوامه الاخلاص لله والتصديق بكل ما أوحى الى الرسول في أعماق الضمير ، ونتيجة هذا الإيمان الاستجابة لله ولرسوله في كل ما يدعوان اليه من غير جمجمة ولا لجلجة ولا تردد مهما تكن الظروف والخطوب والكوارث والأحداث .. ولازمة أخسرى من لوازم هذا الإيمان هي الخوف العميق من الله اذا ذكر اسمه والثقة العميقة به اذا جد الجدد وازدياد التصديق اذا تلبت آياته .. والإيمان يزيد وينقص .. أما الاسلام فهو الطاعة الظاهرة بأداء الواجبات واجتناب المحظورات وان لم يبلغ الإيمان الصادق .. فن الناس من يسلمون خوفاً من البأس كما أسلم الطلقاء من قريش يوم فتح مكة ، ومنهم من يسلم خوفاً وطمعاً كالأعراب الذين ذكرهم الله في هذه الآية » .

(انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) المؤمنون حق الإيمان هم الذين لا تشوبهم الريية في عقائدهم ، ويذلون النفس والنفيس لاحقاق الحق وإبطال الباطل . وتقدم مثله في أكثر من آية ، من ذلك الآية ٨٨ من سورة التوبة ج ٤ ص ٨٢ .

(قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم) . قالت الأعراب : آمنا . فأجابهم سبحانه : أنخبرون الله بإيمانكم ، وهو يعلم السر وأخفى ، وله الاحاطة بكل شيء ، والغلبة على كل شيء . ثم هل يكون الإيمان بمجرد الادعاء ؟ . وكفى بالمرء جهلاً ان لا يعرف قدره .

(يٰمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَعْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامُكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) . المراد بمنته تعالى لطفه وتفضله ، لأنه نهي عن المن ، وما كان الله لينهي عن شيء ثم يفعل به ، والمراد بهدأته الى الإيمان الارشاد الى الحق والرغيب فيه ، والمعنى ان الاعراب ومن على شاكلتهم من أهل الجهل يمتنون بدينهم على ربهم وبنبيهم ، ويطلبون عليه الثمن .. والله سبحانه هو صاحب الفضل عليهم حيث أرشدهم الى الإيمان ورغبهم فيه على لسان نبيه الكريم ، فعليهم أن يحمدوه شكراً على تفضله وانعامه ، لا ان يمتنوا ويطلبوا الثمن .. هذا ،

سورة الحجرات

ان صدقوا في دينهم وأخلصوا في إيمانهم ، وإلا استحقوا من الله ما أعد للكاذبين والخائنين (ان الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون) . يعلم سبحانه الإيمان الصادق والكاذب ، ويميز بين الأعمال التي يطلبون بها الدنيا ، والأعمال التي يقصدون بها وجه الله ، والأعمال بشى أنواعها مع الإيمان أو الكفر هي ميزان العدل للحساب والجزاء .

سُورَةُ ق

٤٥ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والقرآن المجيد الآية ١ - ١١ :

قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ
هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا
مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا
جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ
بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِكُلِّ عَبْدٍ
مُنِيبٍ * وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ *
وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا
كَذَلِكَ الْخُرُوجُ *

اللغة :

المجيد : الكريم العظيم . والرجع هنا الرد الى الحياة بعد الموت . وتنقص منهم

سورة ق

تأكل من لحومهم . ومريج مختلط ومضطرب . وفروج شقوق . ورواسي جبال .
وكل زوج كل صنف . ومنيب راجع . وحب الحصيد حب الزرع المحصود .
وباسقات طويلات . والطلع أول ما يخرج من النخلة في أكامها . ونصيد منصود
بعضه ملتصق ببعض وعلى بعض .

الإعراب :

والقرآن الواو للقسم والجواب محذوف انكم لميموثون ، والدليل على هذا الجواب
« أنذا متنا الخ » .. والمصدر من ان جاءهم مجرور بمن مقدرة . وكيف مفعول
مطلق لأن المعنى أيّ بناءً بيننا . وتبصرة وذكرى مفعول من أجله لأنبتنا .
والحصيد صفة لمحذوف أي حب النبات الحصيد . والنخل عطف على حب .
وباسقات حال من النخل . ورزقاً مفعول من أجله .

المعنى :

(ق) تقدم الكلام عن مثله في أول سورة البقرة (والقرآن المجيد) . أقسم سبحانه
بالقرآن لآظهار عظمته، ووصفه بالمجيد لكثرة منافعه وفوائده (بل عجبوا ان جاءهم
منذر . منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب) . أجل، عجيب في منطق الذين ينظرون
الى كل شيء من خلال المال ، ولا يرون الفضل والفضيلة إلا في البئس والعقار.
وتقدم مثله في الآية ٢ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٠ والآية ٩٠ من سورة
الإسراء و ٨ من سورة الفرقان و ٤ من سورة ص (أنذا متنا وكنا تراباً ذلك
رجع بعيد) . أنكروا البعث لأنهم عاجزون عن إدراكه .. ونحن نؤمن بعجزهم
هذا ، ولكن هل العجز عن إدراك الشيء دليل على عدم ثبوته ؟ . وأي عاقل
يتخذ من جهله بالأشياء دليلاً على نفيها ، أما الشبهة التي أوقعتهم بهذا الجهل
فقد بينوها بقولهم : « من يحيي العظام وهي رميم » ٢ . وقال تعالى في جوابهم :
« يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » - ٨١ يس . وتكرر هذا
المعنى في العديد من الآيات

(قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ) . والكتاب الحفيظ كناية عن انه تعالى أحاط بكل شيء علماً .. وهذه الآية جواب عن شبهة أوردها منكرو البعث ، وتوضيحها ان جسم الانسان بعد الموت تأكله الأرض ، ويصبح بعض ذراتها المنتشرة في شرقها وغربها ، فكيف 'تجتمع وتعاد الى ما كانت عليه؟ فأجاب سبحانه عن ذلك بأنه يعلم ان الأرض تأكل جسم الميت وان أجزائه تنتشر في شرقها وغربها ، ومع هذا فهو قادر على جمعها واعادتها الى الحياة .

شبهة الآكل والمأكول :

وتُعرف هذه الشبهة عند الفلاسفة وعلماء الكلام بشبهة الآكل والمأكول .. وقد ذكرها الملا صدرا في المجلد الرابع من أسفاره ، وقال : « احتج من أنكر البعث بأنه وإن أكل الانسان انساناً فالأجزاء المأكولة ان أعيدت في بدن الآكل لم يكن الانسان المأكول معاداً ، وإن أعيدت في بدن المأكول لم يكن الآكل معاداً ، ولزم أن نكون الأجزاء المأكولة بعينها منعمة ومعذبة اذا أكل مؤمن كافراً .. وأجيب عن ذلك في الكتب الكلامية بأن المعاد هو الأجزاء التي منها ابتداء الخلق وهي الأعضاء الأصلية عندهم ، والله يحفظها ، ولا يجعلها جزءاً لبدن آخر » .

ثم قال صاحب الأسفار ما معناه : ان هذا الجواب لا يفي بالفرض ، والحق ان كل ما هو ممكن في نظر العقل ، ودل عليه الوحي يجب الايمان به ، والبعث ممكن عقلاً ، وثابت وحياً ، فوجب التصديق والايمان ، أما أقيسة الفلاسفة وأهل المنطق فما هي بمحصومة عن الخطأ . هذا ما قاله صاحب الأسفار ، وهو الذي اعتمدنا عليه، وذكرناه مراراً فيما تقدم.. وحاول بعض الشيوخ أن يثبت البعث الجسماني بحكم العقل مع صرف النظر عن الوحي ، ولكنه لم يأت إلا بالتكلف والتحمل .

(بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج) . المراد بالحق هنا القرآن، وبالمريج المختلط المضطرب ، وقد وصف به سبحانه حال الذين قالوا عن رسول الله (ص) : انه مجنون ، وتارة انه ساحر، وأخرى انه كاهن ، وحينئذ انه شاعر .. وهكذا يخط في التيه كل من حاد عن جادة الحق .

(أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) . المراد بالبناء هنا ان كواكب السماء محكمة في صنعها ، مستقرة في نظامها تسير عليه بكل دقة ، والمراد بالزينة الجمال ، أما قوله تعالى : « وما لها من فروج » فهو على حذف مضاف أي ما لكل كوكب من كواكبها فتوق وفطور ، كما في الآية ٣ من سورة الملك : « هل ترى من فطور » . والمعنى ألم ينظر المكذبون بالبعث الى ان بناء الكواكب لا يشبه بناء البشر في شيء لأن كل كوكب على ضخامته هو قطعة واحدة لا فواصل فيه ولا انفصام ، أما البناؤون من البشر فلهم بينون لبنة فوق لبنة ، بينها فتوق وفطور ، وهم أعجز من أن يبنوا بيتاً صغيراً كبناء الكوكب الطبيعي .

والآية رد صريح وحجة دامغة على من استبعد فكرة البعث ، وقال : « أنذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد » . ووجه الرد : ان الذي خلق الكواكب بلا فتوق وفطور لا يعجز عن بعث الانسان بعد موته لأن هذا أبسر من ذلك : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس - ٥٧ غافر » . والبعث خلق .

(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) . أي مهدناها وجعلناها مستقرة للانسان ، وألقينا فيها رواسي أقننا فيها الجبال كيلا تميد وتضطرب ، ومن كل زوج بهيج أخرجنا من الأرض أشكالا وألوانا من النبات يسر الناظرين ، ويعطيب للأكليين . وتقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٣ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٤ (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) . خلق سبحانه الكون بما فيه من نظام وإحكام ليكون آية على عظمته تعالى لمن تدبر وأبصر ، وفيه اشارة الى ان علاقة الانسان بالكون الذي يعيش فيه لا تنحصر بالمادة فقط ، بل هي قلبية أيضاً .

(ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد،والنخل باسقات لها طلع نضيد) . الطلع أول ما يظهر من الثمر ، والنضيد المنضود المتراكم بعضه فوق بعض كحب السنبال .. وصف سبحانه المساء بالبركة لأنه لا حياة للأرواح والأجسام بلا ماء ، والمراد بحب الحصيد حب النبات المحصود ، ووصف النخل بالطول للاشارة الى ان النخلة وقت الانبات تكون قصيرة ، ثم ترتفع بالأسباب

التي أودعها الله بالطبيعة . قال الإمام علي (ع) : « ما دلت الدلائل إلا على ان فاطر النملة هو فاطر النحلة لدقيق تفصيل كل شيء » أي ان دقة الصنع والتفصيل في النملة الصغيرة والنحلة الكبيرة الطويلة تدل على ان الصانع واحد (رزقاً للعباد) وهم أعجز من أن يبرزقوا أنفسهم بأنفسهم (وأحياناً به بلدة ميتاً) هذا تمهيد لقوله تعالى : (كذلك الخروج) . فلحياء الانسان بعد الموت تماماً كالحياء البلد الميت بالماء . وتقدم مثله في العديد من الآيات منها الآية ٥٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٢ .

أفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ الْآيَةُ ١٢ - ٢٢ :

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَنَمُودُ* وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ
وَأِخْوَانُ لُوطٍ* وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ
فَاقْبَحُوا وَبَدَّ* أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ*
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ* إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ*
مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ* وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ
بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ* وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ*
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقُ وَشَهِيدٌ* لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا
فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ*

(كذبت قبلهم) أي قبل الذين كذبوا محمداً (ص) . (قوم نوح) تقدمت قصة نوح في ج ٤ ص ٢٢٢ وما بعدها (وأصحاب الرس) وهي بثر ، وتقدمت الإشارة الى أصحاب الرس في ج ٥ ص ٤٦٨ (وثمود) وهم قوم صالح ، وقصتهم في ج ٤ ص ٢٤٣ (وعاد) قوم هود ، وتقدم الكلام عنهم في ج ٤ ص ٢٣٧ (وفرعون) تكررت قصته مع موسى وبني اسرائيل مرات ومرات . انظر ج ٣ ص ٢٧٠ الى ٣٨٦ (واخوان لوط) . انظر ج ٣ ص ٣٥٢ (وأصحاب الايكة) أي الفيضة الملتفة الشجر ، وتقدمت الإشارة الى أصحاب الايكة في ج ٥ ص ٥١٥ (وقوم تبع) وهو تبع الحميري ، وسبق الكلام عنه عند تفسير الآية ٣٧ من سورة الدخان (كل كذب الرسل فحق وعيد) وهو العذاب الذي وعدهم الله به على لسان رسله (أفعيينا بالخلق الأول) ؟ هل عجزنا عن النشأة الأولى كي نعجز عن الثانية : « كما بدأنا أول خلق نعيده - ١٥٤ الأنبياء » .

(بل هم في لبس من خلق جديد) . اللبس الشك ، والخلق الجديد البعث ، والشك حسن بل هو ضروري على أن يكون باعثاً على البحث والنظر ، أما النفي بلا دليل ولمجرد الشك فهو جهل وضلال .

(ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) . الله قريب من كل شيء بعلمه لأن ما من شيء إلا وهو منه ، إذن ، فلا شيء يبعد عنه ، وإنما خص سبحانه حبل الوريد بالذكر لأنه أقرب الى الانسان من أي عضو آخر ، ويضاف الى ذلك ان فيه قوام الحياة (اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) . يدل ظاهر الآية على ان الله يقيم على الانسان رقيبين : يقعد أحدهما عن يمينه ، والآخر عن شماله يسجلان عليه كل ما يلفظ من قول . وقال كثير من المفسرين : ان هذين الرقيبين من الملائكة ، وان أحدهما يكتب الحسنات ، وهو الذي يجلس على يمين الانسان ، والآخر يكتب السيئات ، وهو الذي يجلس على شماله .. ويصح تفسير الرقيبين بأنهما كناية عن ان الانسان مسؤول عما يقول ويفعل ، وانه لا يستطيع عند نقاش الحساب أن يسر أو ينكر سيئة من سيئاته لقيام الحمجة عليه .

وقلنا بصح هذا التفسير لأنه يلتقي مع التفسير الأول الذي دل عليه ظاهر الآية ، ونتيجتها واحدة .

وتسأل : ان الله غني بعلمه وحفظه عن الرقابة والرقباء والكتابة والكاتبين ، فما هو القصد من اقامة الرقباء ؟ .

الجواب : القصد أن يجابه سبحانه المجرمين بما لا يجدون لانكاره حيلة ولا وسيلة .. وتومىء الآية من بعيد الى ان القاضي لا يجوز أن يقضي بعلمه . انظر تفسير الآية ٢٠ من سورة فصلت ج ٦ ص ٤٨٥ .

(وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) . سكرة الموت غمرته وشدته ، وقوله تعالى بالحق يومئذ الى انه عند نزول الموت تنكشف الحقيقة للمحتضر ، ويعلم علم اليقين ان البعث حق لا ريب فيه، وذلك اشارة الى البعث ، والخطاب في كنت لمن أنكّر البعث ، وضمير منه يعود الى البعث ، والمراد بنحيد تنكر ، والمعنى يقال لمن أنكّر البعث حين يُنزل به الموت : هذا هو البعث الذي كنت تنكره ، ومثله : « هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون - ٢١ الصافات » . (ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد) . يشير سبحانه بهذه النفخة الى يوم القيامة : « ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث الى ربهم ينسلون - ٥١ يس » . (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) . سائق يسوقها الى محشرها ، وشاهد يشهد عليها بملها (لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) . هذا اشارة الى يوم الحساب والجزاء ، أما البصر الحديد فالمراد به ان الحقيقة تتجلى عند الموت وبعده لمنكر البعث فيعرف ما أنكّر وينكر ما عرف ، والمعنى يقال غداً للجاحد : أيها الشقي كفرت بهذا اليوم ، واتبعت أهواءك ، وذهلتما عما يراد بك ، وقد انزاحت الأباطيل عنك الآن ، وعرفت الحقيقة ، ولكن حيث لا مهرب من عذاب الحريق .

مناع للخبر الآية ٢٣ - ٣٥ :

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَتِيدٍ *

مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقَيْنَاهُ فِي
 الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِيبُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ
 بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ
 الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ
 وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا
 تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ
 مُنِيبٍ * أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا
 وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ *

اللغة :

أزلفت اقتربت . أواب تواب . حفيظ حافظ لأحكام الله .

الإعراب :

هذا ما لدي معناه هذا شيء ثابت لدي ، وعليه فهذا مبتدأ ، وما نكرة
 موصوفة خبر ، ولدي متعلق بمحذوف صفة وعتيد صفة ثانية . والذي جعل بدل
 من كفار . ألقيا كلام متأنف . وألف القبا للثنية ، وهما السائق والشهيد
 اللذان ذكرهما سبحانه في الآية السابقة . وجههم ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث .
 وغير بعيد صفة لموصوف مقدر أي مكاناً غير بعيد . لكل أواب بدل من المتقين
 بإعادة حرف الجر . وهذا ما توعدون مبتدأ وخبر والجملة معترضة . ومن خشي

الرحمن بدل ثانٍ من المتقين . ويسلام متعلق بمحذوف حالاً من فاعل ادخلوها أي سالمين .

المعنى :

(وقال قرينه هذا ما لدي عتيد) . الضمير في قرينه يعود الى من تقدم ذكره في الآية ١٧ وهو الملك القعيد الشهيد الذي يكتب أقوال الموكل به ، والمعنى ان هذا الكاتب يقول لله سبحانه : هذا كتاب ما وكلتني به ، وفيه كل ما كان منه على حقيقته ، ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً - ٤٩ الكهف .

(ألقيا في جهنم كل كفار عنيد منع للخير معتد مريب الذي جعل مع الله إلهاً آخر) . في الآية ٢١ قال سبحانه : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » وفي الآية التي نفسرها حكى جل جلاله أنه يقول غداً للسائق والشهيد : خذا الى جهنم من أشرك بي ، وكفر بالحق وعانده ، وأعرض عن الخير وصدد الناس عنه ، ثم يعاود سبحانه القول عليها مكرراً ومؤكداً : « فالتقياء في العذاب الشديد » .

ونجسدر الإشارة الى أنه تعالى وصف هنا منع الخير بالمعتدي المريب ، وفي الآية ١٢ من سورة القلم وصفه بالمعتدي الاثم حيث قال : « منع للخير معتد اثم » وإذا عطفنا على هذه الآية قوله تعالى : « ان شجرة الزقوم طعام الاثم كاللؤلؤ يثلي في البطون كظي الحميم - ٤٦ الدخان » . إذا فعلنا ذلك تبين معنا ان جريمة منع الخير لا تعادلها جريمة ، وان عذابه لا يقاس به عذاب .

(قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد) . هذا القرين غير الأول ، فقد كان الأول من الكرام الكاتبين بدليل قوله تعالى : « هذا ما لدي عتيد » أي هذا الذين سجلته هو حق لا ريب فيه ، أما القرين الثاني فهو من الأبالسة الغاوين الذي أشار اليهم سبحانه بقوله : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين - ٣٦ الزخرف » والدليل ان هذا هو المراد قول

القرين الثاني: « ربنا ما اطغيتُهُ » فإن القرين الأول لا يحتمل فيه الاطغاء والإغواء كي ينفيه عن نفسه لأن الله قد اختاره لمهمة الكتابة على علم بصلاحه وأمانته .. يضاف الى ذلك قوله تعالى : « لا تختصموا لدي » فإن الاختصاص غداً يكون بين المجرمين بعضهم مع بعض لا بينهم وبين غيرهم ، قال تعالى : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين - ٦٧ الزخرف » .

(قال لا تختصموا لدي وقد قدمت اليكم بالوعيد) . الخطاب من الله سبحانه الى المجرم وقرينه الشيطان ، والمعنى لا يقل بعضكم لبعض : أنت أغويتني ويقول الآخر : ما أغويتك ، فإن اليوم يوم حساب وجزاء ، ولا ينتفع المرء فيه بكلام ولا بغيره إلا بعمله الصالح ، وقد دعوتكم اليه ، وأنذرت من خالف منكم لقاء يومكم هذا فأبئتم إلا كفوراً (ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد) . المراد بالقول هنا أمره سبحانه في الآية السابقة للسائق والشهيد : « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد » وهذا اللقاء حتم وعدل، هو حتم لأن الله أمر به ولا تبديل لأمره، وهو عدل لأن المجرم أهل له .

وتسأل : لقد ذهب كثير من العلماء الى ان الخلف بالوعيد جائز على الله دون الوعد ، وبهذا جاءت السنة النبوية حيث قال الرسول الأعظم (ص) : « من وعد لأحد على عمله ثواباً فهو منجز له، ومن أوعده على عمله عقاباً فهو بالخيار » . يضاف الى ذلك ان العقل يستحسن الوفاء بالوعد ، ولا يستقبح الخلف بالوعيد ، فإما هو الوجه - اذن - لقوله تعالى : « ما يبدل القول لدي » ؟ .

وأجاب بعض العلماء بأن الله سبحانه لا يعفو جزافاً ، بل لسبب موجب : والعفو كذلك ليس من تبديل القول في شيء .. ونضيف نحن الى هذا الجواب ان المراد بالوعيد هنا الوعيد بعذاب « متاع الخير » وليس كل وعيد وتهديد ، لأن هذا المعتدي الأثيم لا كفارة له ولا شفيع عند الله - كما نظن - .

(يوم نقول لجهنم هل امتلأت ونقول هل من مزيد) . هذا كناية عن شدة لعبها ، وألم عذابها ، وانها لا تضيق بالمجرمين بالفاً ما بلغ عددهم ، وقد وصف سبحانه جهنم في العديد من آياته بأوصاف رهيبة مخيفة تقشعر منها جلود الذين يخشون ربهم ، أما الذين في قلوبهم مرض فيسخرون منها ومن آمن بها

(وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) . هذا على طريقة القرآن ، يقرن جزاء من أساء بثواب من أحسن .. هناك الشدائد والآلام ، وهنا النعيم والجنان ، وقوله تعالى : « غير بعيد » تأكيد لكلمة أزلفت لأنها بمعنى اقتربت ، والمراد بقسرب الجنة من المتقين أنهم لها ، وهي لهم (هذا ما توعدون) . لقد علمت أنها المتقون على موعود من الله ، والله منجز وعده ، فإليكم هذا النعيم الذي لا يحده وصف ، ولا يبلغه عقل .

(لكل أبواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) . هذه الصفات الأربع علامات تدل على المتقين ، فمن علامة أحدهم أنه ثواب يتعد عن المعصية خوفاً من الله ، ويحافظ على الطاعة أملاً بثواب الله ، وهو في إيمانه وإخلاصه على سبيل واحد ، سواء أكان غائباً عن الناس أم حاضراً بينهم ، على عكس المرائي الذي يكسل إذا كان وحده ، وينشط أمام الناس ، وهذا المتقي هو الذي يلقي الله سبحانه بقلب منيب سليم . وبكلام آخر للإمام علي (ع) يصف به من اتقى وأتى الله بقلب سليم : « أطاع من يهديه وتجنب من يرديه ، وأصاب سبيل السلامة ببصر من بصره وطاعة هادٍ أمره ، وبادر إلى الهدى قبل أن تغلق أبوابه وتقطع أسبابه » .

(ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) . أنتم أيها المتقون في جنة « لا ينقطع نعيمها ، ولا يظعن مقبمها ، ولا يهرم خالدها ، ولا يئأس ساكنها » .. ولكم على الدوام فوق ما تشتهون وتقترحون . وبعد ، فإن هذا التفاوت المائل بين الجنة والنار يكشف كشفاً قاطعاً عن مدى البعد والتفاوت بين درجات المتقين والمجرمين ، وإن الفرق بين منازلهم عند الله تعالى تماماً كالفرق بين الجنة والنار .

يوم ينادي المنادي الآية ٣٦ - ٤٥ :

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ
هَلْ مِنْ مَحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى

السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي
سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ
يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ
وَالِنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
يَسِيرُ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ
مَنْ يَخَافُ وَيَعِيدُ *

اللغة :

القرن أهل العصر الواحد ، فإذا هلك أكثرهم قيل : انقضى قرنهم . فقبوا
في البلاد طافوا فيها . والمحيص المهرب . واللغوب الثعب . وجبار أي بقهار
تقهرهم على الامعان .

الإعراب :

كم في محل نصب بأهلكنا ، ومن قرن بيان لها وبطشاً تميز . ومن محيص
« من » زائدة ومحيص مبتدأ والخبر محنوف أي هل محيص ثابت لهم . ولغوب
فاعل مستأ ومن زائدة . واستمع يوم ينادي على حذف مضاف أي استمع حديث
يوم ينادي الخ . ويسوم يسمعون بدل من يوم ينادي . يوم تشقق يوم متعلق
بالمصير . وسيراً جاع سريع ، وهو حال من ضمير عنهم والعامل تشقق .

المعنى :

(وكم أهلكننا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص) . نقبوا في البلاد طافوا فيها ، والمحيص المهرب ، والمعنى كان في الزمان الغابر أم أكثر حضارة وأقوى عدة وعدداً من الذين كذبوك يا محمد ، وكانت لهم صلوات مع كثير من البلاد ، كل ذلك وما إليه لم يغن عنهم حين نزل بهم العذاب ، ولم يجدوا من أمر الله مهرباً ألا يخشى قومك أن يصيبهم مثل ما أصاب الماضين ؟ وتكرر هذا التذكير في آيات كثيرة ، منها الآية ٩ من سورة الروم ج ٦ ص ١٣٢ (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) . ذلك إشارة الى التذكير بهلاك الماضين ، وذكرى تذكرة وعبرة ، وله قلب أي سليم ، وألقى السمع أي استمع وأصغى الى ما يتلى عليه من العظات ، وشهيد حاضر القلب والعقل ، والمعنى ان الذي ذكرناه عن هلاك المكذبين عظة كافية شافية لمن أبصر واعتبر . (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب) أي تعب ، والأيام الستة كناية عن الدفوعات أو عن تطور الكون من حال الى حال . انظر تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٨ .

(فاصبر على ما يقولون) من الأباطيل والسفه ، فإن العاقبة لمن صبر صبر الأحرار (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) إشارة الى صلاة الفجر (وقبل الغروب) صلاة العصر (ومن الليل فسبحه) صلاة المغرب والعشاء . وتقدم مثله في الآية ١٢٩ من سورة طه ج ٥ ص ٢٥٤ (وأدبار السجود) إشارة الى التعتيب والصلاة النافلة بعد الانتهاء من الفريضة (واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج) . الخطاب في استمع لرسول الله (ص) ، ويوم ينادي على حذف مضاف أي استمع لما نوحى اليك من حديث يوم النداء ، لا نفس النداء ، والمراد بالمكان القريب ان النداء يسمعه الجميع حتى كان المنادي قريب منهم على الرغم من ان الصيحة تأتي من السماء ، وهذا يتبين وجه الجمع والتوفيق بين هله الآية وبين قوله تعالى : « أولئك ينادون من مكان بعيد » - ٤٤ فصلت . والمعنى استمع لما نحدثك به يا محمد عن صيحة البعث

سورة ق

لحساب والجزاء ، وهذه الصبيحة بعيدة بالنظر الى أنها تأتي من السماء وقريبة بالنظر الى أنها تصل الى كل سمع حتى اسماع الموتى ، فيخرجون من الاجساد كأنهم جراد منتشر : « هنالك تلبو كل نفس ما أسلفت وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون - ٣٠ يونس » .

(انا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير) . الحياة والموت بيد الله ، واليه مصير الخلائق . وتقدم مثله مراراً ، من ذلك الآية ٥٦ من سورة يونس (يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسر) . تشقق الأرض عن الأولين والآخرين فيخرجون من قبورهم مسرعين ، وهم أكثر عدداً من النمل والرمل ، وأحسنهم حالاً من وجد لقديه موضعاً ، ولنفسه متسعاً كما قال الامام علي (ع) .

(من أعلم بما يقولون) من تكذيب الرسول ونفي البعث (وما أنت عليهم بحبار) . فتجبرهم وترغمهم على الإيمان بالله واليوم الآخر ، انما أنت مذكر (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) . ومن لا يخاف أيضاً لإلقاء الحجّة عليه ، وإنما خص سبحانه الخائف بالذكر للإشارة إلى أنه هو الذي ينتفع بالتذكير دون غيره ، ومثله : « فذكر ان نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى - ٩ الأعلى » . فقسوله تعالى : « ويتجنبها الأشقى » دليل قاطع على ان الأمر بالتذكير عام ، نفعت الذكرى أم لم تنفع .

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

٦٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والنذاريات ذروا الآية ١ - ١٤ :

وَالذَّارِيَّاتِ ذُرُوءًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَّاتِ يُسْرًا * فَالْمُقْسِمَاتِ
أَمْرًا * إِنَّمَا نُوْعِدُونَ صَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ * وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُكِ *
إِنَّا لَنَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ * قِيلَ الْخَرَّاصُونَ *
الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى
النَّارِ يُقْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ *

اللمحة :

المراد بالذاريات الرياح . والوقر السحاب تحمله الرياح . فالجاريات يسراً الرياح تجري بيسر وسهولة . فالقسمات أمر الرياح توزع السحاب على البلاد . والمراد بما توعدون البعث . وبالدين الحساب والجزاء . وبالحُبُك الإحكام والنظام . ويؤفك يُصرف . والحرص الكذب والظن من غير أساس . والمراد بالفتنه في قوله تعالى : « يفتنون وفتنكم » العذاب .

الإعراب :

والذاريات الواو للقسام . وذروا مفعول مطلق . وقرأ مفعول به . يسراً صفة لمفعول مطلق مقدر أي جرياً يسيراً . أمراً مفعول به . وانما توعدون وانما كلمتان « ان » التي تنصب الاسم وترفع الخبر و « ما » الموصولة ، والعائد محذوف أي ان الذي توعدونه من الحساب والجزاء ، والجملة جواب القسم في والذاريات . والسماء الواو للقسام . وانكم جوابه . وضمير عنه يعود الى الدين . والذين بدل من « الخراصون » . وهم مبتدأ وفي غمرة خبر وساهون خبر ثان . أيتان بمعنى متى خبر مقدم ويوم مبتدأ مؤخر أي متى وقت يوم الدين . ويوم هم « يوم » منصوب بفعل مقدر أي يقع يوم هم و « هم » مبتدأ ويفتنون خبر وعلى النار متعلق به . وجملة ذوقوا مفعول لقول مقدر . وهذا الذي مبتدأ وخبر .

المعنى :

(والذاريات ذروا فالحاملات وقرأ فالجاريات يسراً فالقسمات أمراً) . في تفسير هذه الأوصاف الأربعة آراء ، يقول بعضها : المراد بالذاريات الرياح ، وبالحاملات السحاب ، وبالجاريات السفن ، وبالقسمات الملائكة ، وأرجح الأقوال ان الأربعة بكاملها من أوصاف الرياح . فهي ذاريات لأنها تذرو التراب وغيره ، قال تعالى : « هشيماً تذروه الرياح » ٤٥ الكهف . وأقسم سبحانه بالرياح للإشارة الى منافعتها ، ولأن الله أن يقسم بما شاء من خلقه . أنظر ج ٦ ص ٣٣٠ فقرة « الله والقسم بخلق » . الوصف الثاني « فالحاملات وقرأ » بكسر الواو ، وهو الحمل الثقيل ، والمراد هنا ان الرياح تحمل السحاب الثقيل ، قال تعالى : « وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى اذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت » ٥٧ الأعراف . الوصف الثالث « فالجاريات يسراً » تجري الرياح بيسر وسهولة ، وهي تحمل السحاب . الوصف الرابع « فالقسمات أمراً » الرياح تفرق الأمطار على البلاد ، كما قال سبحانه في آية ٥٧ من (الأعراف) : « سقناه لبلد ميت » .

(انما توعدون لصاقد وان الدين لواقع) . هذا جواب قسم « والذاريات » والمراد بما توعدون الإحياء بعد الموت ، وبالدين الحساب والجزاء ، والمعنى ان الله يبعث من في القبور لا محالة ، وانه تعالى يجزي الانسان بأعماله ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر (والسماء ذات الحبك) بضم الحاء والباء ، وفي تفسيره أقوال أرجحها انه الخلق الحسن - بفتح الحاء - أي ان في خلق السماء إحكاماً ونظاماً وزينة وجمالاً (انكم لفي قول مختلف) . الخطاب لمن كذب الرسول الأعظم (ص). وأقوالهم كلها خلط واضطراب .. وكذب ووهم .. فنها عن الرسول (ص) : انه مجنون الى شاعر وساحر. وعن القرآن: انه أساطير الى رجز من نظم محمد(ص) (يُؤفك عنه من أفك) أي يُصرف عن الدين والحق من صرفه عنه الهوى والجهل ، ومثله تماماً « لا يعنى عن ذلك إلا أعمى » .

(قتل الخراصون) وهم الذين بينهم سبحانه بقوله : (الذين هم في غمرة ساهون) . غمرهم الجهل والضلال من فرع الى قدم ... فوزعوا ظنونهم جزافاً ومن غير أساس على الأرض والسماء ، وعلى البعث والجزاء ، وقالوا : لله شركاء من الأحجار ، وبنات من الجن والملائكة ، أما البعث فحديث خرافة (يسألون ايان يوم الدين) ؟ يقولون ساخرين : متى يكون البعث والحساب ؟ فيجيبهم سبحانه : (يوم هم على النار يفتنون) . يكون البعث يوم يعرضون على جهنم ويحرقون فيها . ويقال : فتن الشيء أي أحرقته بالنار ليخرج ما فيه من الغش ، وتقول ملائكة العذاب للمجرمين : (ذوقوا فتنكم هذا الذي كنتم به تستعجلون) . هذا هو العذاب الذي تعجلتم به ، وسخرتم بالأمس منه .. فكيف رأيتم طعمه ومذاقه ؟.

حق السائل والمحروم الآية ١٥ - ٣٠ :

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ

يَسْتَغْفِرُونَ* وَفِي أُمُورِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ* وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ
لِّلْمُوقِنِينَ* وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ* وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ*
فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ* هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ* إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ
قَوْمٌ مُنْكَرُونَ* فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ* فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ
قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ* فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوهُ
بِغُلَامٍ عَلِيمٍ* فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ
عَقِيمٌ* قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ*

اللغة :

المجعوع النوم ليلًا . ومنكرون مجهولون لا نعرفهم . فراغ ذهب ومال سرًا
عن ضيوفه . فأوجس أحس . وصرة بفتح الصاد صيحة وضجة .

الإعراب :

آخذين حال من الضمير الذي تعلق به « في جنات وعيون » . وما آتاهم
مفعول آخذين . وجملة يهجعون خبر كانوا و « ما » زائدة إعراباً . وقليلًا
صفة لمفعول مطلق مقدر أي كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً من الليل . وفي أنفسكم
متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف أي وفي أنفسكم آيات . ومثل حال، وما زائدة
إعراباً، والمصدر من أنكم تنطقون مجرور بالإضافة أي مثل نطقكم . وسلاماً مفعول

مطلق لفعل مقدر أي نسل عليك سلاماً . وسلام مبتدأ والخبر محذوف أي عليكم سلام . وقوم خبر لمبتدأ محذوف أي أنتم قوم . وخيفة مفعول أوجس . وعجوز خبر لمبتدأ محذوف أي أنا عجوز .

المعنى :

(ان المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين) . يأخذ سبحانه من الصالحين أعمالهم . ويشبههم عليها ، كما قال : « يأخذ الصدقات - ١٠٤ التوبة » أي يتقبلها ويشيب عليها ، وأيضاً يأخذ الصالحون ما آتاهم الله من ثواب ويتقبلونه بغبطة وسرور . وبتعبير الآية ١٨٨ من سورة المائدة : « رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم » . (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون) . كانوا ينامون في الليل ، ولكن قليلاً ، وكثيراً ما اتصل تهجدهم بالأسحار ، فيأخذون فيها بالتسبيح والاستغفار .

قال الإمام علي (ع) في وصفهم : « أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرنلونها ترتيلاً .. فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً ، ونظلمت إليها أنفسهم شوقاً .. وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنوا ان زفير جهنم وشهيقها في أصول أذانهم ، فهم حانون على أوساطهم مقرشون لجباههم وأكفهم وأطراف أقدامهم . يطلبون إلى الله في فكاك رقابهم » .

(وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) . السائل هو الذي يطلب من الناس الحسنة والصدقات ، والمحروم الفقير الذي يستنكف عن السؤال ، ويصدق عليه قوله تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً - ٢٧٣ البقرة » وكلمة فقير تعني وتؤكد شرعاً ان الفقير شريك للغني في ماله ، وان هذا غاصب ظلوم إذا منع الفقير من حقه . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً بعنوان « الزكاة » في ج ١ ص ٤٢٨ وبمعنوان « الغني وكييل لا أصيل » في ج ٢ ص ٢١٧ .

الله والمعرفة الحسية :

(وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) . من تأمل في أي كائن من الكائنات ونظر اليه نظرة الفاحص المدقق لا بد أن ينتهي إلى التساؤل : من الذي دبّر وأحكم هذا الصنع ؟ . ولا يجد جواباً مقنعاً وتفسيراً صحيحاً إلا وجود قوة عالمة هادية . وإذا لم يقتنع بهذا الجواب فلا يجد أمامه إلا الصدفة والطبيعة العمياء ، وليس من شك أنها تزيد جهلاً وعمى .

وقال المادبيون : لا طريق إلى المعرفة إلا الحس والتجربة ، والله لا يقع تحت الحس ولا هو موضوع للتجربة ، فالإيمان به - إذن - لا يستند إلى دليل ، بل هو جهل وضلال .

الجواب أولاً : لا نسلم أن أسباب المعرفة تنحصر بالحس والتجربة ، بل هناك أيضاً معرفة عقلية نصل إليها عن طريق القوى الذهنية ، ومن أسقط العقل عن الاعتبار ونفى الحجة عنه فقد نفى الإنسانية من الأساس ، إذ لا إنسانية بلا عقل حاسم قاطع .. يضاف إلى ذلك إلى أن من نفى المعرفة عن العقل فقد ناقض نفسه بنفسه حيث نفى معرفة العقل بالعقل ، واستدل على عسدم الشيء بوجوده .

ثانياً : لو سلمنا - جدلاً - بأنه لا طريق إلى المعرفة إلا الحس والملاحظة فإننا نثبت وجود الله ونؤمن به عن هذا الطريق بالذات .. وهو موجود في كل مشهد من مشاهد الطبيعة ، وقد بلغت هذه المشاهد النهاية من البدهة والوضوح ، وأوصلتنا إلى العلم بالمبدع المصور بمجرد النظر إليها والتأمل فيها بدون الرجوع إلى المختبرات والمصانع .. ولو توقف العلم بالله على التحليل في المختبرات لانهصر وجوب الإيمان بالمتخصصين بهذا الفن وحدهم ، ولما صح منه تعالى علواً كبيراً أن يخاطب الموم بقوله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم » مع العلم بأنه ، جلّت عظمتة ، أوجب الإيمان به على جميع عباده .. ولكن بعد أن قدم لهم الدليل القاطع لكل معذرة على وجوده ، أقام سبحانه هذا الدليل من الفطرة والعقل ومن الحس أيضاً عملاً بالمبدأ العادل القائل : « البينة على من ادعى » .

وليس في قولنا هذا جرأة وسوء أدب لأنه جل جلاله هو القائل : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق - ٥٣ فصلت » . ونفس الانسان وما في الآفاق من الكائنات هي من المشاهد المحسوسة الدالة على وجوده تعالى ، وبها يظهر الحق الذي لا ريب فيه ، ومن تتبع آي الذكر الحكيم بحمد نفسه أمام العديد من هذه الآيات الكونية التي تدعو إلى الإيمان بالله عن طريق المعرفة التي هي ثمرة الحس والعقل ، من ذلك قوله تعالى : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء - ١٨٤ الأعراف » أي شيء محسوس وملسوس .

ان الإيمان بالله إيمان بما لا نراه العين ولا نلمسه اليد ، ولكن هذا الإيمان تفرضه وتحتمه المراتب والملموسات ، تماماً كما يؤمن الطبيب العارف بوجود نوع من المرض في الجسم السقيم ، ويحدد ماهيته بمجرد أن يلمس الجسم أو ينظر إليه دون أن يرى الميكروب الذي تولد منه المرض .. وما من أحد مؤمناً كان أو ملحداً إلا وهو يؤمن إيماناً قاطعاً بأشياء كثيرة لا تقع تحت الحس لأن هذا الإيمان يحتمه الحس بالذات ، والذين يعتمدون على التجربة يعنون بها الاستدلال من شيء تدركه الحواس .

(وفي السماء رزقكم وما توعدون) . قوله : « رزقكم » على حذف مضاف أي أسباب رزقكم كالمطر وما إليه ، وقدماً قيل : لولا السماء لما كان للناس بقاء . واختلفوا في تفسير « وما توعدون » فن القائل : ان المراد به الجنة والنار ، وقائل : انه الخير والشر ، وقال ثالث : بل المراد ان الرزق مقسوم ومكتوب .. وفي رأينا ان المراد بما توعدون أسباب الرزق بالذات بدليل ان الله سبحانه أشار في الآية إلى ان في الأرض وفي أنفسنا آيات محسوسة ملموسة تدل على وجود الله وعظمته ، ثم عقب بعد ذلك بأن في السماء أيضاً آيات محسوسة تدل عليه تعالى وعلى عظمته ، وبالبدية ان الآيات السماوية المحسوسة هي المطر والكواكب وليست الجنة والنار وما إليها .

(فرب السماء والأرض انه الحق مثل ما انكم تنطقون) . قال الرازي : « الضمير في (انه) عائد الى القرآن . فكأنه قال : ان القرآن الحق نطق به

الملك نطقاً مثل ما انكم تنطقون » . وليس من شك ان القرآن حق لا ريب فيه وان جبريل قد نطق به أيضاً ، ولكن لم يسبق للقرآن ولا للملك ذكر من أول السورة الى هنا ، والذي ذكر في الآية ١٢ هو يوم الدين ، ثم أشار سبحانه الى ما في الأرض والسماء وأنفسنا من الدلائل على وجود المبدع ، فالأولى لإرجاع الضمير الى ذلك كله ، وعلى هذا يكون المعنى انه سبحانه قد أقسم بجلاله ان الله حق والبعث حق ولا ينبغي الشك في ذلك بعد أن قامت عليه الدلائل تماماً كما لا ينبغي للانسان أن يشك فيما نطق به .. وروي ان أعرابياً قال حين سمع هذه الآية : « من الذي أغضب الجليل حتى أبلّاه الى اليمن » . وليس هذا ببعيد على من نشأ على الفطرة التي ولد عليها .

وبالمناسبة قال أهل اللغة : النطق نوعان : خارجي ، وهو اللفظ ، وداخلي ، وهو الفكر والادراك ، وقال أهل المنطق في تعريف الانسان : انه حيوان ناطق أي مفكر ، وقال « ديكارت » : « أنا أفكر وإذن فأنا موجود » وهذه حقيقة بدسية تنفي الشك في وجود المفكر لأنها خرجت منه بالذات ، وعلى هذا فلنا أن نفسر قوله تعالى : « مثل ما انكم تنطقون » بمثل ما انكم تلفظون ، وأيضاً لنا أن نفسره بمثل ما انكم تفكرون لأن كلاً من وجود التكبير والتلفظ ينفي الشك عن وجود المفكر والتلفظ .

(هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين) . كلمة ضيف تُستعمل في المذكر والمؤنث والواحد والجماعة ، والمراد بضيف ابراهيم الملائكة الذين جاءوا ليبشروه بإسحق وإهلاك قوم لوط ، ووصفهم سبحانه بالمكرمين لأنهم كرام عنده وعند عباده المؤمنين (إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون) . حييوه فردّ التحية ، وقال : هؤلاء أناس لا نعرفهم (فراغ إلى أهله فجاء بمجلى سمين) . أسرع ابراهيم الى عياله وأمرهم أن يهيئوا لضيوفه عجلاً سمياً ، وكان ما أراد ونضج العجل (فقربه اليهم) ليأكلوا ، فأبوا (قال ألا تأكلون) ؟ ولكنهم أصروا على الامتناع لأنهم ليسوا بشراً يأكلون الطعام (فأوجس منهم خيفة) لأنه فوجيء بأمر لا يعرف عواقبه ، ولما رأوا ما به (قالوا لا نخف وبشروه بغلام عليم) . أعلموه بحقيقة ما جاءوا به من البشارة بإسحق (فأقبلت

امرأته (سارة لما سمعت البشرى (في صرة) ارتفع صوتها من الدهشة (فصكت وجهها) ضربته بيدها فرحاً وتعجباً (وقالت عجوز عقيم) فكيف ألد ؟ . (قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم) . الله يعلم انك عجوز عقيم ، ولكن شاءت حكمته أن يهبك على الكبر غلاماً كاملاً ، واذا أراد الله شيئاً فهو يقول له : كن فيكون .. وأوجزنا تفسير هذه الآيات لوضوحها، ولأنها تقدمت في سورة هود الآية ٦٩ - ٧٣ ج ٤ ص ٢٤٧ وفي سورة الحجر الآية ٥١ - ٥٦ ص ٤٨١ من المجلد المذكور .

الجزء السابع والعشرون

فما خطبكم أيها المرسلون الآية ٣١ - ٤٦ :

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ *
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ *
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * وَفِي مُوسَى
إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ * وَفِي عَادٍ
إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ
كَالرِّيمِ * وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَفَعَتُوا عَنْ أَمْرِ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا
كَانُوا مُنْتَصِرِينَ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ *

اللفظ :

فما خطبكم فإ شأنكم ؟ ومُسَوَّمَةً عليها علامة . وبسُلْطَانٍ مُّبِينٍ بحجة واضحة .
والمراد بالركن هنا القوة والسلطان أي أعرض لأنه يملك السلطان والقوة ، ومثله :
« أو آوى الى ركن شديد - ٨٠ هود » . والمُلِيم هو الذي يفعل ما يلام عليه .
والريح العقيم هي التي لا خير فيها من المطر أو تلقيح الشجر ونحوه . والريم
البالي . والصاعقة العذاب .

الإعراب :

فما خطبكم مبتدأ وخبر . ومسومة صفة لحجارة . وفي موسى متعلق بمحذوف
خبر لمبتدأ محذوف أي وفي موسى آية . وساحر خبر لمبتدأ مقدر أي هذا ساحر .
وفي عاد وفي ثمود مثل وفي موسى . وقوم نوح بالنصب على تقدير وأهلكنا
قوم نوح .

المعنى :

(قال فما خطبكم أيها المرسلون) . ابراهيم (ع) يسأل ضيوفه بعد أن عرف
هويتهم : إلى أين ؟ وماذا تبغون ؟ (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) أي
قوم لوط ، وهم مجرمون ومسفرون لأنهم كانوا يأتون الرجال شهوة من دون
النساء (لئرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين) . لنهلكهم
بحجارة معلمة من طين صلب أدها الله لمن تجاوز الحد في الكفر ، وأسرف في
البغي والفساد (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) لئلا يصيبهم مسا أصاب
المجرمين المسرفين (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) وهم بيت لوط إلا
امراته كانت من المالكين (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) . ضمير
فيها يعود الى قرى قوم لوط أو مدينتهم ، والمراد بالآية الآثار السيئة تنبيه عن
اهلاكهم وعذابهم ، لتكون تبصرة لمن تدبر وعبرة لمن اعتظ . وتقدمت هذه
الآيات في سورة الأعراف الآية ٨٠ - ٨٤ ج ٣ ص ٣٥٣ وفي سورة هود الآية
٧٧ - ٨٣ ج ٤ ص ٢٥٥ .

(وفي موسى إذ أرسلناه الى فرعون بسلطان مبين) . أرسل سبحانه موسى
بمعجزات كافية وافية الى فرعون ليردعه عن غيه وضلاله (فتولى بركته) أعرض
مغترأ بجنده وسلطانه (وقال ساحر أو مجنون) .. ولماذا موسى ساحر أو مجنون
في منطق فرعون ؟ لأنه قال له : لست إلهاً يُعبد ، وحزبه مغبة البغي والظفان
(فآخذناه وجنوده فنبلذناهم في اليم وهو مليم) . طغى وبغى وقال : أنا ربكم
الأعلى فكان عاقبة أمره إغراقاً ولوماً .. ومن نافلة القول ان نشير الى ما سبق من

التكرار ، وفي ج ٥ ص ٢٠٦ ذكرنا السبب الموجب لتكرار قصة موسى ، أما هنا فنقول : الله أعلم .

(وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) . عاد هم قوم هود، وقد أهلكهم الله بريح عاصفة قاصفة (ما نذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم) لا تمر بشيء إلا تهدم وتحطم .. وسبقت قصة هود مع قومه في سورة الأعراف الآية ٦٥ - ٧٢ ج ٣ ص ٣٤٧ وفي سورة هود الآية ٥٠ - ٦٠ ج ٤ ص ٢٣٩ . (وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) ثمود قوم صالح . وهذه الآية تشير الى ما جاء في الآية ٦٥ من سورة هود : ه فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ه . (فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) . عصوا الله والرسول ، فأنزل سبحانه عليهم العذاب من السماء ، ولما رأوه خارت قواهم (فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين) وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال . وتقدمت قصة صالح مع قومه ثمود في سورة الأعراف الآية ٧٣ - ٧٩ ج ٣ ص ٣٥٠ وفي سورة هود الآية ٦١ - ٦٨ ج ٤ ص ٢٤٤ (وقوم نوح من قبل) أغرقهم الله بذنوبهم (انهم كانوا قوماً فاسقين) يفعلون الموبقات ، وينتهكون المحرمات . وتقدمت قصة نوح في سورة الأعراف الآية ٥٩ - ٦٤ ج ٣ ص ٣٤٤ وفي سورة هود الآية ٢٥ - ٤٩ ج ٤ ص ٢٢٢ .

ومن كل شيء خلقنا زوجين الآية ٤٧ - ٦٠ :

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْبَآهِدُونَ *
وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ
مُبِينٌ * كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ

أَوْ يَحْتُونُ* أَتَوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ* فَتَسْأَلُهُمْ فَمَا أَنتَ
بِمَلُومٍ* وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ* وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ* مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ*
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ* فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ
ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ* قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ
الَّذِي يُوعَدُونَ*

اللفظ :

بأيد أي بقوة . وموسعون اشارة إلى أن القضاء يتسع باستمرار على مدى
الأيام ، وبأني التفصيل . والفرار إلى الله معناه الالتجاء اليه والاعتصام بحبله .
وتواصوا أوصى بعضهم بعضاً . وبملوم أي بمسؤول .

الإعراب :

والسما مفعول لفعل مقدر أي بنينا السماء بنيناها . والأرض أيضاً مفعول لفعل
مقدر أي فرشنا الأرض فرشناها . فنعم الماهدون المخصوص بالمدح محذوف أي
نحن . وكذلك خبر مبتدأ مقدر أي الأمر كذلك . أتواصوا الهمة للانكار .

المعنى :

(والسما بنيناها بأيد وإنا لموسعون) . قال بعض المفسرين : المراد بموسعين
ان الله يوسع الرزق على خلقه بالمطر .. والمعنى الذي يتفق مع الواقع ومدلول الآية

معاً أن يكون المراد بالسما هنا المعنى الظاهر من كلمة السماء وهو الفضاء الواسع الرحب بما فيه من النجوم وغيرها . والمراد بموسعين ان الله سبحانه يزيد الفضاء اتساعاً باستمرار وعلى مدى الأيام ، قال أهل الاختصاص : ان الفضاء يتمدد بين المجرات باستمرار ، وان حجم الفضاء العالمي الآن يبلغ نحو عشرة أضعاف حجمه منذ بداية نموده .. ويقول « سير جيتز » : يبلغ متوسط البعد بين المجرات بعضها مع بعض نحو مليون ونصف من السنين الضوئية مع العلم ان الضوء يقطع ٦ ملايين مليون من الأميال في سنة واحدة .. ويقول « كامو » : انه قد علم بواسطة المراصد الكبرى ان بين النجوم مسافات ضخمة تُقدر بنحو خمسمائة مليون سنة ضوئية ، وانه قد أحصى من المجرات نحو مئة مليون مجرة ، وانه يحتمل وجود مجرات أخرى على مسافات أبعد . (التكامل في الاسلام لأحمد أمين العراقي ج ٣ ص ٦٧ طبعة أولى) .

ونحن لا نتحمس لتطبيق القرآن على العلم الحديث للمحاذير التي ذكرناها في ج ١ ص ٣٨ .. ولكن لا نجد مفرأ من القول : ان هذه الآية الكريمة أصدق شاهد على ان معجزة محمد بن عبدالله (ص) هي المعجزة الأبدية الوحيدة من بين معجز الأنبياء أجمعين ، وانها تزداد رسوخاً ووضوحاً كلما تقدم العلم خطوة الى الأمام .

(والأرض فرشناها فنعم الماهدون) . مهد وهياً سبحانه الأرض للإنسان ، وبسط فيها يده ليبيي ويعمل للحياة والخير ، لا للشر والدمار ، أطلق يده ليعمل واشترط عليه أن يكف الأذى عن أخيه الانسان ، لا ليلقي بالصواريخ وقنابل التباالم على مدارس الأطفال ودور الحضانه ، ومستشفيات المرضى ومصانع العمال ، وعلى كل من ينشد الحرية ، ويرفض العبودية إلا لله وحده .

(ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) . يدل ظاهر الآية على أن الله سبحانه خلق في كل جنس من الكائنات زوجين ذكراً وأنثى ، سواء أكان إنساناً أم حيواناً أو نباتاً أم جهاذاً لأن كلمة كل شيء تعم الجميع ... ولا ندرى هل اكتشف العلماء هذه الحقيقة او أنهم ما زالوا في طريق الوصول إليها ؟ والذي قرأناه من أقوال العلماء في هذا الباب ان ما من ذرة في الكون إلا وهي مؤلفة

من كهرب موجب وسالب أي انها تحتوي على عنصر يجذب وآخر يدفع ، فهل تنطبق الآية على ذلك ؟ .

(ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين) . وكل من كف الأذى عن غيره ، وصدق في أقواله وأخلص للحق والعدل في أفعاله فقد فر من الباطل الى الحق ، ومن الضلال الى الهدى ، وعمل بما أمر الله ، أراد ذلك أو لم يرد . اما الكاذب الخائن فهو أعدى أعداء الله ، وان هلك وكبر ، وتعد وتصدق . (ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين) . والشرك أشكال ، منه عبادة الأصنام ، ونسبة الولد الى الله .. ومنه أيضاً التلون في الدين والعمل لحساب أعداء الله والانسانية باسم الاسلام وصالح المسلمين .

(كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) . قال لك المكذبون يا محمد تماماً مثل ما قال الأولون لأنبيائهم ، وما حظك في ذلك بأدنى من حظهم (أتواصوا به بل هم قوم طاغون) . غريب أن يتشابه الأولون والآخرون في تكذيب المحققين والمصلحين .. هل اجتمعوا وتواصوا بذلك كلا ، ما اجتمعوا ، ولا رأى او قلد بعضهم بعضاً . وإنما جمعهم عداة الباطل للحق . والجهل للعلم (فتول عنهم فا انت بملوم) لا تسذهب نفسك حشرات على كفرهم وطفائسهم يا محمد فإ أنت بمسؤول عن دينهم ولا عن أقوالهم وأفعالهم (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) . لا مهمة لك يا محمد إلا ان تبلغ القرآن وتعظ به جميع الناس ، وإذا لم ينتفع بالموعظة من أصر على الكفر والفساد فينتفع بها من يبحث عن الحق ليؤمن به ويعمل بموجبه .

(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . وعبادة الله وحده تعني التحرر من عبادة الإنسان للإنسان ، ومن عبادة المال والجاه ، وجميع الأهواء والشهوات ، وان لا يخضع إلا للحق والعدل ، وأيضاً تعني الجهاد لنصرة الحق وأهله ، والعمل لخير الدنيا والآخرة ، ومسا من ريب ان من سلك هذه السبل أدت به الى دار السلام ، وعلى هذا تكون الغاية من خلق الجن والانس ان يحيا حياة طيبة دائمة في دار الله وجواره شريطة ان يتحرروا من العبودية بشئ انواعها ، ويعملوا صالحاً ، ومن اهمل وقصر فلا يلومن إلا نفسه ، وما ربك بظلام للعبيد . وتكلمنا مفصلاً عن ذلك في ج ٦ ص ١٧١ فقرة « لماذا خلق الله الانسان ؟ » .

وتسأل : وماذا تصنع بالحديث القدسي : « كنت أكثراً مخفياً فأردت ان أعرف فخلقت الخلق في عرفوني » فإنه يدل بوضوح على ان الغاية من الخلق هي معرفة الله ؟.

الجواب : ان هذا الحديث يتفق تماماً مع التفسير الذي ذكرناه لأن من عرف الله حق المعرفة استغنى بعبادته عن عبادة الذنوب والجاه والمال، وعمل لمرضاته وجنته.

(ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون) . وكأنه تعالى علواً كبيراً يقول : ما خلقت الخلق لأستغلمهم في مصائعي وحفولي ، ولا لأتخذ منهم سوقاً لتصريف سلمي وبضائعي، ولا لأحارب بهم من يراحمي على الاستغلال والاحتكار ، كلا ان الله غني عن العالمين . وانما خلقتهم ليعملوا بدأ واحدة لخبرهم أجمعين، ويجاهدوا من يحاول الاعتداء على حريتهم وكرامتهم ، ويتهب أموالهم وأرضهم وديارهم (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) . ومعنى الله هو الرزاق انه تعالى خلق الأرض للانسان معاشاً ، وزوده بجميع الأدوات التي تمكنه من استثمارها من أجل حياته كالعقل والقوة والسمع والبصر ، وقال له : اعمل لدينك وآخرتك ، ولا تعتد ان الله لا يحب المعتدين ، تماماً كما لو اعطيت ولدك مالا، وقلت له : تاجر به لمعاشك ، وكن أميناً في معاملتك .

(فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم) . المراد بالظالمين هنا الطغاة المترفون الذين كذبوا رسول الله (ص) والمعنى ان نصيب هؤلاء من العذاب تماماً كنصيب الأمم السابقة الذين كذبوا الرسل (فلا يستعجلون) العذاب الذي هو نازل بهم لا محالة .. وما أقرب اليوم من الغد (فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون) به ويستعجلون مجيئه .. فكم من مستعجل أمرأ ود - حين مجيئه - انه لم يكن .

سُورَةُ الطُّورِ

٤٩ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والطور الآية ١ - ١٦ :

وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ *
وَالسَّافِرِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ *
مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرَأً * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا *
فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدْعَوْنَ
إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرُ هَذَا
أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ
إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *

اللغة :

قال الفيروز ابادي في قاموسه المحيط : يطلق الطور على فناء الدار وعلى كل جبل ، وعلى جبل قرب أيلة يضاف الى سيناء وسينين ، وعلى جبلين بالقدس ،

وآخر برأس العين ، وعلى جبل مظل على طبرية . والرق جلد رقيق يكتب فيه . والبحر المسجور أي امتلاً وقاض . وتمور تضطرب . والمراد بالخوض هنا حديث الباطل . ويدعون يدفعون . أصلوها قاسوا حرها .

الإعراب :

والطور الواو للقسم . وما بعد الطور عطف عليه . في رق متعلق بمسطور . ان عذاب ربك الخ جواب القسم . يوم تمور « يوم » متعلق بواقع . ويوم يدعون « يوم » بسدل من يوم المتقدمة . وسحر خبر مقدم وهذا مبتدأ مؤخر . وسواء خبر لمبتدأ محذوف أي الصبر وعلمه سواء .

المعنى :

(والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور) . الطور هنا هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ، وقد أقسم به سبحانه في هذه الآية وفي الآية ٢ من سورة التين ، والمراد بكتاب مسطور كل كتاب سماوي لأن « كتاب » نكرة ، وهي شائعة في جنسها ، والتعيين يحتاج الى قرينة، ومجرد ذكر الطور لا يصلح قرينة لارادة التوراة من كلمة كتاب، وقوله تعالى : « مسطور في رق منشور » معناه ما أنزل الله كتاباً إلا وقد جعله في متناول كل يد ، وان كل انسان يستطيع الوصول اليه والى معرفة ما فيه تماماً كما تقول : هذا كتاب الله بين أظهركم ينطق بحلاله وحرامه . وفي نهج البلاغة : أشهد ان محمداً عبده ورسوله أرسله بالدين المشهور والكتاب المسطور . (والبيت المعمور) الكعبة : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت - ١٢٧ البقرة » . (والسقف المرفوع) السماء : « وجعلنا السماء سقفاً - ٣٢ الأنبياء » أي كالسقف في عين الراي (والبحر المسجور) المملوء الذي يفيض بالماء : « وإذا البحار سجرت - ٦ التكويرة أي امتلأت وقاضت . اقسم سبحانه بهذه الكائنات الخمسة للإشارة

الى قدرته عز من قادر . انظر تفسير الآية ١ من سورة الصافات ، فقرة ١ الله والقسم بخلفه ١ ج ٦ ص ٣٣٠ .

(ان عذاب ربك لواقع) على المجرمين لا محالة . والجملة جواب القسم (ما له من دافع) تماماً كالموت لا يملك رده إلا الذي يحيي ويميت (يوم تمور السماء موراً) أي تذهب الجاذبية ، ويختل التوازن بين كواكب السماء وتحدث الفوضى ويعم الخراب (وتسير الجبال سيراً) ومتى مارت السماء ارتجت الأرض وزالت الجبال عن أماكنها ، وتشير الآيتان الى قيام الساعة وخراب الكون حيث تحشر الخلائق للحساب والجزاء (فويل يومئذ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون) . لعبوا بالدنيا ولعبت بهم .. ولكن شتان فما هم بأكفاء لها ، ولذا صرعتهم وعجلت بهم الى جهنم وبئس القرار (يوم يدعون الى نار جهنم دعاً) . يدفعون اليها بعنف ونقول لهم ملائكة العذاب : (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) فذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد .

(أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون) ؟ خوفهم الرسول الأعظم (ص) من نار جهنم ، فقالوا له : انك لساحر .. وفي يوم الجزاء يجعلهم سبحانه لجهنم خطباً ، ويقول لهم : ماذا ترون الآن ؟ هل محمد ساحر ؟ وهل عذاب الحريق سحر ؟ (أصلوها) ولا كالنار يشقى من فيها (فاصبروا او لا تصبروا سواء عليكم) . فالعذاب هو هو لا يخفف ولا ينقطع (انما تجزون ما كنتم تعملون) من بغي وفساد .

أهل الجنة الآية ١٧ - ٢٨ :

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ
عَذَابَ الْجَحِيمِ * كَلُّوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَكِثِينَ عَلَى
سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ
بِإِيمَانٍ آَلَفْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ

بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * يُتَنَازَعُونَ
فِيهَا كَأَسَا لَا لَفْوَ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ
لُؤْلُؤُ مَكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا
قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا
مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ *

اللفظة :

فاكهين يجوز أن يكون من الفكاكة أي طهي النفس ، وإن يكون من الفاكهة
أي يتلذذون بها ، وكل من المعنيين يتناسب مع جنات ونعيم ، والمعنى الثاني
انصب لقوله تعالى : « كلوا واشربوا هنيئاً » أي طعاماً سائغاً وشراباً سائغاً . ما
ألتناهم ما انقصنا من ثواب عملهم . يتنازعون يتعاطون . لا لفو فيها ولا تأنيم
أي إن خسر الجنة لا تذهب بعقل الشارب فيلغو ويأثم في كلامه . ومشفقين خائفين
من عذاب الله . والسموم النار .

الإعراب :

فاكهين حال من الضمير في خبر إن المحذوف أي استقروا في جنات ونعيم
فاكهين . وهنيئاً صفة لمفعول مطلق مقدر أي أكلاً هنيئاً وشراباً هنيئاً . متكئين
حال من فاعل كلوا واشربوا . والذين آمنوا مبتدأ والحقنا بهم خبر . وبما كسب
متعلق برهين . وفي أهلنا متعلق بمشفقين .

المعنى :

(إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) .

اتقوا الله في الدنيا فوقاهم في الآخرة عذاب النار ، وجعل الجنة لهم ثواباً ينعمون فيها ، لا يشغلهم عن ملذاتها شاغل (كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون) . أنتم أيها المتقون أحق بهذا النعيم لأنكم عملتم له بإخلاص .. وتدل الآية على أنه لا كرامة عند الله لمخلوق كائناً من كان إلا بالعمل ، أما المناصب والأنساب والأموال فما هي بشيء إلا إذا كانت وسيلة للخير والمصالح العام (متكئين على سرر مصفوفة) . والالتكأ على السرر مع التفرغ للملذات يدل على التحرر من مشاكل الحياة وأتاعها (وزوجناهم بحور عين) بحار العقل والطرف من حسنهن وكهلهن .. ويا لها من نعيم ! .

(والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) . ليس من شك ان الأطفال الصغار لا يعذبون بحال ، سواء أكان آباؤهم من الأخيار أم الأشرار ، إذ لا عقاب بلا عصيان ، ولا عصيان بلا تكليف ، وقد رفع سبحانه القلم عن الصبي حتى يحتمل ، وكرر سبحانه في العديد من الآيات : « ولا تزر وازرة وزر أخرى - ١٦٤ الأنعام » . أما قول من قال : ان ولد الكافر يدخل النار لأنه لو عاش لاعتنق دين أبيه ، أما هذا القول ففروك لأن الله يحاسب الانسان على ما فعل ، ولا يحاسبه على ما لو استطاع لفعل .

وتسأل : هل الأطفال الصغار يحشرون ويدخلون الجنة ؟ .

الجواب : لا سبيل الى معرفة ذلك إلا كتاب الله وسنة نبيه ، لأن العقل لا يحكم هنا بشيء سلباً ولا إيجاباً . ولا شيء في الكتاب والسنة المتواترة يدل على أن أطفال الكافرين يحشرون .. وفي حديث عن الرسول الأعظم (ص) : ان أطفال المؤمنين يُهدون الى آباءهم المتقين يوم القيامة . وقال كثير من المفسرين : ان الكبار المؤمنين من ذرية المتقين يلحقون بدرجة آباءهم العليا في الجنة ، وان كانوا دونهم في العمل الصالح لكي تقر بهم أعينهم ، واستدلوا بقوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) أي نزيد للأبناء كرامة للآباء ، ولا ننقص الآباء شيئاً من ثوابهم ودرجاتهم .

وقال الامامية والخنزية والشافعية والحنابلة : 'يحكم بإسلام الطفل تبعاً لأحد أبويه ، فإن كانا مسلمين فذاك، وان كان أحدهما مسلماً والآخر كافراً فالطفل يحكم بالمسلمين

سواء أكان المسلم هو الأب أم كان كافراً لكن الأم كانت مسلمة ، أما المالكية فقالوا : العبرة بإسلام الأب فقط ولا أثر لإسلام الأم بالنسبة الى الطفل .

(كل امرئ بما كسب رهين) فعليه وحده تبعه أعماله ، وبها يُقبل غداً على الله ، ولا يُسأل عما فعل سواء (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) . خص سبحانه الفاكهة واللحم بالذكر لأنها سببا الطعام (يتنازعون كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم) . يشربون منعشاً بلا سكر ولا عريضة ، ولا ما يستوجب الإنم والمؤاخذه على قول أو فعل (ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) صفاء وبهاء .. وقوله تعالى : « لهم » اشارة الى ان الغلمان يأثمون بأمرهم وينتهون بنهيهم .

(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) يسأل بعضهم بعضاً : كيف كان في دار الدنيا ؟ وبماذا استحق من الله هذه الكرامة . وتقدم مثله في الآية ٥٠ من سورة الصافات (قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين) . اتقينا الله في دار الدنيا خوفاً من غضبه وطمعاً في ثوابه (فنّ الله علينا) برحمته وخصتنا بنعمته (ووقانا عذاب السموم) الذي يذيب الجلود ، ويشوي الوجوه (انا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم) . كنا في الدنيا رحما أبراراً ، فكان الله بنا في الآخرة برأ رحباً .

لا عذر لمن أنكر نبوة محمد الآية ٢٩ - ٤٤ :

فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا

يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ
يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * أَمْ لَهُ الْآبَاتُ وَلَكُمُ
الْأَبْنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ
فَهُمْ يَكْتُمُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ *
أَمْ لَهُمْ آلٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ
السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ *

اللغة :

الكاهن هو الذي يوهم الناس بأنه يعلم بعض الغيب عن طريق اتصاله بالجن .
والتربص الانتظار . وكلمة المنون تأتي بمعنى المنية وبمعنى الدهر ، والمراد هنا
بريب المنون حوادث الدهر وضرباته القاسية بالموت ونحوه . وتطلق الأحلام على
الأماني والعقول ، ويستقيم المعنى على المعنيين . والتقول الافتعال والاختلاق .
ومغرم بفتح الميم التزام بالغرامة . ومثقلون محملون أثقالاً . وكسفاً بكسر الكاف
جمع كسفة وهي القطعة من الشيء . ومركوم متراكم .

الإعراب :

انت اسم « ما » النافية . وبكاهن الباء زائدة لإعراباً . وكاهن خبر . وبنعمة
ربك اعتراض بين الاسم والخبر . والباء بنعمة لبيان السبب وليست للقسم كما في
جمع البيان ، ويتعلق المجرور بها بما دل عليه معنى الكلام أي ان الله نزله
يا محمد عن الجنون والكهانة بفضله وكرمه . و « ام » المكررة في الآيات معناها
الاستفهام مع التوبيخ والانكار . وشاعر خبر مبتدأ مقدر أي هو شاعر . وتقوله

فعل ماضٍ مثل تكلفه وتعصفه . ومن مغرم متعلق بـ « مثقلون » . فالذين كفروا مبتدأ و « هم » ضمير فصل والمكيدون خبر . وغير الله صفة لإلّاه . ومن السماء متعلق بمحذوف صفة للكشف . وساقطاً حال أو صفة لأن رأى هنا بصرية .

المضى :

تشير هذه الآيات الى حال الرسول الأعظم (ص) مع المشركين حين دعاهم الى التوحيد ونبذ الشرك .. وقد ابتدأ سبحانه بمخاطبة نبيه الكريم :

١ - (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) . امض في سبيلك ، وثابر يا محمد على مهمتك ، وهي الدعوة الى الله والتخويف من عذابه ، ولا تكترث بما يقوله عنك بعض المعاندين : انك كاهن تدعي علم الغيب .. ويقوله آخرون : انك مجنون .. فأنت بمحمد الله وفضله أبعد من كان ويكون عن أكاذيبهم ومزاعمهم .. وكيف تكون كاهناً أو مجنوناً وقد جعلك الله أميناً على وحيه ، واختارك لرسالته ؟ .

٢ - (أم يقولون شاعر نربص به ريب المتون) . قال بعضهم لبعض : محمد شاعر يتكلم من نسج الخيال .. فاثبتوا على تكذيبه ، وانتظروا أياماً ، فإن هلك فذاك ما تبتغون ، وإن عاش افتضح بمزاعمه .. ثم افترقوا على هذا (قل تربصوا فلإني معكم من المتربصين) . أمر سبحانه نبيه الكريم أن يقول لهم : انتظروا .. وأنا أيضاً أنتظر وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويصبح من النادمين .

٣ - (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) الافتراء والضلال . والمراد بأحلامهم عقولهم البالية وأمانيتهم الخادعة .

٤ - (أم هم قوم طاغون) . أنهم على علم اليقين انك رسول الله حقاً وصدقاً ، ولكنهم ينكرون الحق بغياً وعناداً حرصاً على مناصبهم ومكاسبهم .

٥ - (أم يقولون نقوله) اختلق القرآن من تلقائه (بل لا يؤمنون) بحق ولا يكفون عن باطل (فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) في ان القرآن

شعر وكهانة . فما أكثر ما عندهم من الكهنة والشعراء . وتقدم مثله في الآية ٢٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٦٤ .

٦ - (أم خلقوا من غير شيء) صدقة .. لا خالق ولا مدبر .. ولا هدف ولا مسؤولية .. لا شيء تماماً كما تخلق الحشرات في العفونة والقذارات .

٧ - (أم هم الخالقون) أنفسهم بإرادتهم وقدرتهم ؟

٨ - (أم خلقوا السموات والأرض) . وتساءل : ان المشركين لا يدعون انهم الخالقون لأنفسهم ولا لغيرهم ، بل نص القرآن على اعترافهم بأن الله هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض ، قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله - ٨٧ الزخرف » . وقال : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ٦١ العنكبوت » - إذن - فما هو المبرر لقوله تعالى : « أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض » ؟

الجواب : انهم من الوجهة النظرية يعترفون بأن الله هو خالق كل شيء .. ولكنهم من الوجهة العملية يتصرفون تصرف من لا يؤمن بالله ولا يعترف بوجوده .. بل يدل تصرفهم على انهم يدعون الخلق والربوبية .. والى هذا يومئ قوله تعالى : (بل لا يوقنون) . وينطبق هذا الوصف على الكثير من الذين يدعون الإيمان بالله واليوم الآخر في زماننا .

٩ - (أم عندهم خزان ربك) ؟ وإذا اعترفوا بأن الله خالق كل شيء فهل يدعون بأن الله فوض اليهم إدارة ملكه واختيار انبيائه ، وتقسيم الأرزاق والأعمار على عباده ؟ وتقدم مثله في الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

١٠ - (أم هم المصيطرون) على الخلائق وجميع الكائنات .. شاء الله أم أبى .

١١ - (أم لهم سلم يسمعون فيه) وإذا لم يدعوا شيئاً من ذلك فهل يدعون انهم ارتقوا بمصعد الى الله وسمعه يقول : ان محمداً يفترى الكذب على الله ؟ (فليات مستمعهم بسلطان مبين) . هذا هو منطق الحق والعدل ، والنهاية في انصاف الخصم .. فلكل انسان أن يدعي ما شاء حتى علم الغيب ، شريطة أن يقيم البينة الواضحة على دعواه ، وإلا فهو مفترٍ كذاب .

١٢ - (أم له البنات ولكم البنون) . لا فرق إطلاقاً بين قولهم : محمد شاعر وكاهن ومجنون وبين قولهم : لله البنات ولهم البنون .. ولا ينحصر الافتراء على الرسول بالقول : انه مجنون ، ولا بنسبة الشريك والولد الى الله .. فكل من حرم حلالاً أو حلال حراماً فقد افترى الكذب على الله والرسول .

١٣ - (أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون) . لماذا كذبوا رسول الله؟ هل ألزمهم بغرامة يعجزون عنها ولا يستطيعون اداؤها ؟

١٤ - (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) . هل هم كتبة الوحي عند الله يسجلون الأرزاق والأعمار ومن يختار من الأنبياء ، وما طلب منهم سبحانه في يوم من الأيام أن يكتبوا اسم محمد مع أسماء الأنبياء .

١٥ - (أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون) . هذه هي الحقيقة . انهم لا يدعون شيئاً ، ولا يريدون شيئاً إلا المكر والاساءة الى محمد (ص) .. ولكن ستدور عليهم دائرة السوء لأن المكر السيئ لا يحق إلا بأهله .

١٦ - (أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون) . ومن هو ؟ وأين هو هذا الإله الذي يرد عنهم عذاب الله عند نزوله ؟ تعالى الله علواً كبيراً عن الأمثال والأضداد .

(وان يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحب مركوم) . لو رأوا العذاب وجهاً لوجه لكابروا وقالوا: هذا سحب وسراب . ومثله قوله تعالى حكاية عنهم: ه ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون - ١٤ الحجر ، ج ٤ ص ٤٦٩ .

والخلاصة ان الله سبحانه لم يدع عنراً لمن كذب أو يكذب بنبوة محمد (ص) إلا أن ينكر وجود الخالق من الأساس .

فذرهم حتى يلاؤوا يومهم الآية ٤٥ - ٤٩ :

فَذَرْنَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ

كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ* وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ
وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ* وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ* وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ*

اللمعة :

يُصْعَقُونَ يهلكون . بأعيننا بحراستنا . وإدبار النجوم بكسر الهمزة وقت مضيها
عن الأعين نهراً .

الإعراب :

يومهم مفعول به ليلاقوا لأن المعنى أنهم يلاقون اليوم بالذات، ولو قال: يلاقون
عملهم يوم القيامة لكان يوم مفعولاً فيه . ويوم لا يغني بدل من يومهم . وإدبار
مفعول فيه لفعل محذوف أي وسبّحه في إدبار النجوم .

المعنى :

(فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون) . ما زال الكلام عن الذين
كذبوا رسول الله (ص) . والمعنى لا تكثرت يا محمد بتكذيبهم وعنادهم ، فإن
لهم يوماً لا يجدون فيه مفرّاً من الهلاك والعذاب الأليم (يوم لا يغني عنهم كيدهم
شيئاً ولا هم ينصرون) . لا حيلة تدفع في هذا اليوم، ولا ناصر ينفع (وإن للذين
ظلموا عذاباً دون ذلك) أي يعذبون عذاباً آخر قبل يوم القيامة ، وقال بعض
المفسرين : انه عذاب القبر . وقال آخرون : بل هو ما حل بهم يوم بدر .. أما
نحن فلا نحدد ، بل نسكت عما سكّته الله عنه (ولكن أكثرهم لا يعلمون)

الجزء السابع والعشرون

بأن للذين ظلموا عذاباً قبل يوم القيامة وفيه (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) .
المراد بحكم الله هنا إمهال الظالمين الى يومهم الموعود، وبأعيننا ان الرسول الأعظم (ص)
في حصن الله الحصين من أذى الأعداء ومكرهم (وسبح بحمد ربك حين تقوم
ومن الليل فسيحه وإدبار النجوم) . اذكر الله في جميع الحالات والأوقات ، فإن
ذكره أحسن الذكر ، ووعدته الذاكرين المتقين أصدق الوعد .

سُورَةُ النَّجْمِ

٦٢ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

راه .. عند سدره المنتهى الآية ١ - ١٨ :

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ
الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ
فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ
أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ *
أَفَتَأْتُرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ *
عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا
طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ *

اللفظ :

هوى سقط . وضل هنا بمعنى ضاع . وغوى من الغواية . وعلمه هنا بمعنى
بلغه عن الله، وشديد القوى جبريل . والمراد بالمرّة بكسر الميم الهيئة الحسنة . فاستوى

استقام مثل فاستوى على سؤقه . والأفق الأعلى الجوى . وتدل امتد الى أسفل .
والقاب المقدار . وتمارونه تجادلونه . والتزلة بفتح النون المرة من النزول . والمراد
بسدرة المنتهى مكان الانتهاء . وجنة المأوى هي جنة الخلد . وبغشى يسر ويغطي
أو يأتي . وزاغ مال . وطفى تجاوز .

الإعراب :

والنجم الواو للقسم . وإذا متعلق بفعل القسم المحلوف . وهو بالأفق الأعلى
مبتدأ وخبر والجملة حال من ضمير فاستوى . ونزلة منصوبة على الظرفية لأنها
بمعنى مرة . وإذ يغشى « اذ » منصوبة برآه .

المعنى :

(والنجم اذا هوى) . ذكر صاحب البحر المحيط عشرة أقوال في تفسير
« والنجم اذا هوى » وأقربها ان المراد بالنجم كل نجم لأن الألف واللام للجنس ،
وان معنى هوت النجوم أنها تسقط وتتناثر في الفضاء يوم القيامة بدليل قوله تعالى :
« واذا الكواكب انتثرت - ٢ الانقطار » فإن القرآن ينطق ببعضه ببعض .. وفي
هذا القسم إشارة الى أن من أنكر نبوة محمد (ص) يلقي جزاءه يوم القيامة
(ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى) . هذا
هو المقسم عليه ، وهو ان محمداً (ص) ينطق ويفعل بالوحي من الله ، لا بالشك
والجهل ، ولا بغواية غاوى ، ولا بدافع من ميوله وأهوائه .. وكيف ينطق النبي
أو يفعل عن الهوى ، وقد جاء ليصلح ويقضي على الفساد والأهواء ؟ .

فكان قاب قوسين :

هذه الآيات من قوله تعالى : « علمه شديد القوى » الى قوله : « آيات رب
الكبرى » - تشير الى حادثة معينة لا سبيل الى معرفتها إلا الوحي ، لأن موضوع

سورة النجم

الحادثة هو ظهور جبريل مرتين لرسول الله (ص) على الصورة التي خلقه الله عليها لا على الصورة السني اعتاد النبي أن يراه فيها حين يبلغه الوحي . وقد كثر المفسرون الكلام حول هذه الآيات ، وأطنب بعضهم في أوصاف جبريل وأجنحته بلا حجة ودليل .. أما نحن فنتصر على ما يدل عليه ظاهر اللفظ ولا يأباه العقل غير ملتزمين بقول راوٍ أو مفسر إلا على هذا الأساس ، والله المستعان :

١ - (علمه شديد القوى) . علمه أي بلغه ، والضمير يعود الى صاحبكم ، وهو محمد (ص) : والمفعول الثاني لعلمه محذوف أي الوحي ، وشديد القوى فاعل علمه ، وهو جبريل (ع) ، والمراد بالقوى هنا الصفات التي تؤهل جبريل لتبليغ الوحي كالحفظ والأمانة والدقة في الأداء حتى كأن النبي (ص) يسمع الوحي من الله مباشرة ، والدليل على ان المراد بالقوى الحفظ والأمانة قوله تعالى في وصف جبريل : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين - ١٩٣ الشعراء » . وأيضاً كلمة علمه توميء الى ذلك . وعليه يكون المعنى ان جبريل القوي الأمين بلغ محمداً الوحي على حقيقته تماماً كما هو في علم الله .

٢ - (ذو مرة فاستوى) . ذو مرة صفة لجبريل ، والمراد بالمرة بكسر الميم الهيئة والصورة ، واستوى استقام ، والمعنى ان جبريل ظهر للنبي (ص) مستوياً كما خلقه الله .

٣ - (وهو بالأفق الأعلى) . ضمير هو لجبريل أي ان جبريل حين ظهر على صورته للنبي امتد مرتفعاً في الجو ، وقال المفسرون : الأفق الأعلى مطلع الشمس أي المشرق ، والأفق الأدنى مغربها ، وعلى أيسة حال فإن القصد هو الإنخبار عن جبريل بأن صورته امتدت في الجو ، ولا يهم أن يكون هذا الجو لجهة المشرق أو المغرب .

٤ - (ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) . في كل من دنا وتدلى ضمير يعود الى جبريل ، ودنا أي قرب من النبي (ص) ، وتدلى نزل ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، والأصل ثم تدلى فدنا ، والقاب المقدار ، والمعنى ان جبريل بعد أن ظهر للنبي كما خلقه الله ، وارتفع جسمه بالأفق ، بعد هذا عاد الى الصورة التي كان يلقي النبي بها حين يبلغه الوحي ، وقرب منه حتى لم يكن

بينها سوى مقدار قوسين بل أقل من ذلك. والمعروف ان جبريل كان يأتي النبي (ص) في صورة دحية الكلبي .

٥ - (فأوحى الى عبده ما أوحى) . الضمير المستتر في أوحى يعود الى الله لا الى جبريل ، لأن الضمير البارز في عبده يفسر الضمير المستتر ، والمراد بعبده أي عبد الله هو محمد (ص)، والمعنى ان جبريل بعد أن عاد إلى الصورة التي كان يلقي بها النبي (ص) ودنا منه ، بعد هذا أوحى الله على لسان جبريل إلى عبده محمد أموراً هامة .

٦ - (ما كذب الفؤاد ما رأى) . معناه ان رسول الله (ص) رأى جبريل ببصره وقلبه تماماً كما خلقه الله ، فلا العين أخطأت فيها رأت ، ولا القلب شك فيها رأت العين بل أيقن وجزم بصدقها (أفتمارونه على ما يرى) ؟ . الخطأ للمشركين ، والمعنى أنكذبون محمداً وتجادلونه فيما رأت عيناه وآمن به قلبه وعقله ، وهو من عرفتم صدقه وأمانته ، وعقله واتزانة ؟ .

٧ - (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى) . الضمير المستتر في رآه يعود إلى رسول الله (ص) ، والماء إلى جبريل ، والنزلة المرة من النزول ، والمراد بسدرة المنتهى مكان الانتهاء والحد الأقصى الذي يبلغ اليه مخلوق حتى ولو كان من الملائكة .

وقال جماعة من المفسرين : ان في السماء السابعة شجرة تقع عن يمين العرش ، وتسمى هذه الشجرة بسدرة المنتهى !.. وهذا القول يفتقر إلى دليل ، ومهما يكن فنحن غير مسؤولين عن معرفتها بالضبط مادام الله سبحانه قد سكت عن التحديد. والذي نفهمه من الآية مع ملاحظة ما جاء في سورة الإسراء - ان جبريل (ع) حل النبي (ص) ليلة المعراج ، وطاف به في السموات حتى انتهى به المطاف إلى الحد الأقصى الذي عبّر عنه سبحانه بسدرة المنتهى ، فوقف عنده ولم يتجاوزه إلى غيره لجهة العلو ، أما جنة المأوى فقد تضاربت الأقوال في تفسيرها .. والظاهر أنها جنة الخلد التي جعلها الله ثواباً للمتقين بدليل قوله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - ٣٩ التازعات » فإن القرآن ينطق ببعضه ببعض .

سورة النجم

والمعنى المحصل ان رسول الله (ص) رأى جبريل مرتين كما خلقه الله : المرة الأولى هي المشار إليها بقوله سبحانه : « فاستوى وهو بالأفق الأعلى » الخ وتقدم الكلام عنها . والمرة الثانية كانت في ليلة المعراج حيث طاف جبريل في السماء بالنبي (ص) حتى بلغ به مكان الانتهاء والحد الأقصى الذي لا يتجاوزه مخلوق كائناً من كان .. هذا كل ما دل عليه ظاهر اللفظ أو ما فهمنا نحن من الظاهر ، وما عداه فهو - في رأينا - من الغيب المحجوب .

(إذ يغشى السدرة ما يغشى) . يغشى فعل يكون بمعنى يغطي ، وبمعنى يأتي ، تقول : يغشى فلان فلاناً أي يأتيه ، وتفسير الآية بصح بالمعنيين لأن المراد انه يوجد عند سدرة المنتهى عجائب من آثار قدرة الله وعظمته ما لا يبلغه وصف ولا يحده عقل ، ولذا أبهم سبحانه ، وترك التفصيل (ما زاغ البصر وما طغى) .. كلا ، ما حاد بصر النبي (ص) عن الواقع ولا تجاوز عنه ، وكل ما رآه في جبريل وفي السماء ليلة المعراج هو حق وصدق (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) . ورؤية الآيات التي شاهدها الرسول في معراجه هي فوق الحساب وفوق الزمان والمكان .. ومستحيل أن يراها انسان إلا بقدرة الله ومشيئته . وتكلمنا عن الإسراء والمعراج عند تفسير الآية ١ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٨ فقرة : « الإسراء بالروح والجسد » .

اللات والعزى ومناة الآية ١٩ - ٢٦ :

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ
الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى
الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ * أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْنَىٰ * فَلِلَّهِ

الْآخِرَةُ وَالْأُولَى * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً
إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى *

اللغة :

اللات والعزى ومناة أصنام لأهل الجاهلية . وضيوى جائرة .

الإعراب :

الثالثة صفة لمناة والأخرى صفة ثانية مؤكدة لأن الثالثة لا تكون إلا أخرى .
وأنتم تأكيد لفاعل سميتوها . وآباؤكم عطف على هذا الفاعل . ومن سلطان «من»
؛ائدة إعراباً وسلطان مفعول أنزل الله . وما تهوى الأنفس عطف على الظن .
وأم منقطعة بمعنى بل . وكم خبرية ومعناها التكثير وعملها الرفع بالابتداء والخبر
جملة لا تغني .

المعنى :

(أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) . الخطاب لمشركي قريش ،
وكانوا يعبدون هذه الأصنام ويقولون : هي بنات الله أو ترمز إليها ، ولذا أنشوا
اللات ومناة بالثناء والعزى بالألف ، وقد سغه سبحانه عقولهم بقوله : (ألكم
الذكر وله الأثنى تلك إذا قسمة ضيزى) ظالمة جائرة ، ومثله : « ويجعلون لله
ما يكرهون - ٦٢ النحل » ج ٤ ص ٢٥ (إن هي - الأصنام - إلا
أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) لأنها أحجار لا تضر ولا
تنفع .. وتقدم الكلام عن الأصنام وعبدتها في عشرات الآيات .. وكفى رداً على
من يعبدها ويقدمها قوله تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا
ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب

سورة النجم

والمطلوب - ٧٣ الحج . وقال أديب معاصر : إذا سلبتك الذبابة حياتك بمرض تنقله إليك فمن يستطيع ان يرد لك تلك الحياة . وإذا سلبتك ذرةً من طعامك تتحول فوراً الى سكر في أمعائها، فهل يستطيع عباقرة الكيمياء لو اجتمعوا ان يسردوا ذرتك ؟.

(ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) . المراد بالظن هنا الجهل ، والانسان يكبح هواه بعقله وعلمه ، فإن كان جاهلاً أو ضعيف العقل تحكمته به الأهواء وقادته الى المهالك (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) فقالوا : قلوبنا غلف وفي آذاننا وقر ، فحققت عليهم كلمة العذاب (أم للانسان ما تمنى) . تمنى المشركون شفاعة الأصنام ، فرد عليهم سبحانه : هل يتحقق للانسان كل ما يتمناه ؟ . وبكلمة ان عبدة الأصنام جمعوا بين الجهل والهوى والأمانى التي نعني ونصم .. ففراكم الجهل على الجهل (فله الآخرة والأولى) الملك والأمر له وحده دنيا وآخرة ، ولا شيء لأبي كائن . (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) . قالوا : نحن لا نعبد الأصنام إلا لتشفع لنا عند الله ! . فقال لهم سبحانه : ان ملائكة السماء على عظمتهم وكرامتهم لا يشفعون عنده إلا بإذنه فكيف تشفع لكم أحجار صماء ؟ . وتكلمنا عن الشفاعة عند تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٩٧ فقرة «الشفاعة» .

الظن لا يغني عن الحق الآية ٢٧ - ٣٢ :

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُوعْنَ الْمَلَائِكَةَ نَسِيَةً الْأُنثَى
وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
شَيْئاً * فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ قَوَّلَى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *
ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ

أَسَاؤُهُمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ
كِبَائِرَ الْإِنِّمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ
بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا
تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى *

اللفظة :

مبلغهم من العلم منتهى علمهم . والمراد باللمم هنا صغار الذنوب . وأنشأكم
خلقكم . وأجنة جمع جنين .

الإعراب :

المصدر من ليجزي متعلق بمحذوف دل عليه سياق الكلام أي خلق الله الناس
ليجزى ، وقيل : متعلق بمعنى أعلم بمن ضل واهتدى . والذين يجتنبون بدل من
الذين أحسنوا . واللمم مستثنى منقطع .

المعنى :

(ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى) . كذبوا بالحق
جهلاً أو عناداً ، وكل من الجهل والعناد يصلح تفسيراً وسبباً لافرائهم على الله
بأن له شركاء وصاحبة وبنات .. ولم يكفوا بنسبة البنات اليه تعالى حتى ابتدعوا
لهن أمماء معينة (وما لهم به من علم ان ينجون إلا الظن) فبشيتون أشياء لا وجود
لها ولا دليل عليها إلا صورة وهمية مرت بأذهانهم .. وفي الآية ١٨ من سورة
يونس رد عليهم سبحانه بأنه لا يعلم ان له بنات وشركاء ، وذلك حيث قال

سورة النجم

عز من قائل : « قل أنتبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون » .. (وان الظن لا يبغي من الحق شيئاً) . ولو اتبع الناس رجم الظنون لما استقام شيء في هذه الحياة . وتقدم مثله بالحرف الواحد في الآية ٣٦ من سورة يونس ج ٤ ص ١٥٩ .

(فاعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) . الخطاب لرسول الله (ص) والمقصود كل من آمن بالله واليوم الآخر تماماً مثل اتبع الحق وأقم الصلاة . والمعنى لا تجادل الذين يترأفون في الغي والضلال ، ولا يؤمنون بشيء ولا يرون أية قيمة لشيء إلا لأنفسهم ومكاسبهم : « وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها - ٢٥ الأنعام . فعلام - إذن - الجدل والنقاش ؟ . أنظر ج ٢ ص ٦٦ فقرة : الحق وأرباب المنافع » ، و ج ٥ ص ٣٠٨ فقرة : جدال أهل الجهل والضلال .

(ذلك مبلغهم من العلم) . انتهى العلم والحق عندهم انه لا علم ولا دين ولا ضمير ولا حق وقيم .. لا شيء إلا الملهذات وتكديس الثروات . أنظر ج ٥ ص ٤٥٣ فقرة : منطق أرباب المال : بنك وعقار » (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) . ان ربك يا محمد يعلم ان الذين كذبوا بنبوتك لا يرتدعون عن الضلال ، وأيضاً يعلم انك على الهدى أنت ومن اتبعك من المؤمنين ، لأنه محيط بكل شيء ، وقادر على ثواب من آمن واهتدى ، وعذاب من ضل وغوى .

(والله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) . هذه الآية تهديد ووعد لمن أشار إليه سبحانه بقوله : « تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » . ووجه التهديد ان الدنيا والآخرة بيد الله لأنه هو وحده مالك الكون بما فيه ، فمن أعرض عن الآخرة ، وطلب الدنيا ، وسعى لها سعيها يؤته منها ، وما له في الآخرة إلا العذاب ، حيث يلقي كل انسان جزاء عمله ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .

(الذين يمتنبون كبائر الأثم والفواحش إلا اللثم ان ربك واسع المغفرة) . كبائر الأثم عظام الذنوب كالكفر والشرك والظلم ، وكل ما تجاوز الحد في القبح

فهو فحش كالزنا واللواط ، وذنوب كبير أيضاً ، أما اللطم فهي صفار الذنوب التي لا يكاد يخلو منها إنسان إلا من عصم الله كالنظرة ومجرد الجلوس الى مائدة الخمر . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٣١ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٠٦ . ومعنى الآية ان من أطلع عن الكبائر فإن الله سبحانه يشمل به عفوهِ وإحسانه ، وان اقرء بعض الصفائر .. وليس معنى هذا ان للانسان أن يقرء الصفائر .. كلا ، وإلا كانت من المباحات ، وانما المراد ان من اجتنب الكبائر فله أن يأمل العفو والصفح من ربه وان ارتكب بعض الهنات ، وإلا كانت الجنة وفقاً على أهل العصمة دون غيرهم . وفي نهج البلاغة : أشد الذنوب ما استهان به صاحبه .. وان يستعظم الانسان من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه ، ويستكثر من طاعته ما يحقر من طاعة غيره .

(هو أعلم بكم اذ انشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تركوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) . أجل ، ان الله أعلم بالانسان من نفسه بالغا ما بلغ من العلم .. ومستحيل أن يعلم من نفسه ما يعلمه الله منه ، لأنه تعالى هو الذي أوجده وأحياه ، وبميتة وينشئه ، وهو معه يعلمه منذ تكوينه في بطن أمه الى النفس الأخير .. يضاف الى ذلك ان جميع جوارح الانسان حتى قلبه هي شهود عليه عند خالفه . وأصدق شاهد ينطق بتركية الانسان واخلاصه هو عمله الصالح . وتقدم مثله في الآية ٤٩ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٦ والآية ٢١ من سورة النور ج ٥ ص ٤٠٩ .

ليس للانسان إلا ما سعى الآية ٣٣ - ٤١ :

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهوَ
يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا
تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعْيُهُ
سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى *

اللغة :

أكدى قطع وأمسك . وصحف موسى التوراة . ووفى نعم وأكمل . والوزر الأثم .

الإعراب :

قليلًا صفة لمحنوف أي عطاء قليلًا . وإبراهيم على حذف مضاف أي وبما في صحف إبراهيم . أن لا تزر : وإن ، مخففة واسمها محنوف أي انه ، والمصدر المنسبك عطف على ، بما في صحف موسى . . وإن ليس وإن ، مخففة أيضاً والمصدر عطف أن لا تزر . وكذا وإن سعيه .

المعنى :

(أفرأيت الذي تول وأعطى قليلًا وأكدى) أي منع ، والمعنى أخبرني يا محمد عن الرجل الذي أعرض عن ذكر الله ، وكان قد بذل شيئاً يسيراً من ماله أو نفسه في سبيل الخير ، ثم منع وأمسك عن البذل !.. هذا ما دل عليه ظاهر كلامه تعالى .. ويأتي السؤال : هل أراد سبحانه رجلاً خاصاً يعرفه النبي (ص) أو أراد مثلاً عاماً لكل من يصدق عليه هذا الوصف ؟ قال بعض المفسرين : نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة . وقال آخر : أنها نزلت في عثمان بن عفان .. وكل من القولين يفتقر الى الدليل .. اذن ، فالآية على دلالتها من الشمول والاطلاق .

(أعنده علم الغيب فهو يرى) ؟ هل علم هذا المعرض المسك انه في أمان من عذاب يوم القيامة حتى أعرض وأمسك ؟ وانتي له هذا العلم مع ان الله سبحانه قد أنزل في كتبه ما يكذب زعمه ان ادعى ذلك (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى) . ألم يسمع هذا المعرض المسك بما أنزل الله في التوراة وفي صحف إبراهيم الذي وفى بعهد الله وميثاقه على أكمل وجه ، ألم يسمع أو يخبره خبر بأن الله قد أنزل في هذين الكتابين (الا تزر وازرة وزر أخرى) أي ان

كل انسان يؤخذ بذنيه، ولا أحد يحمل عنه أوزاره وأثقاله . وتكررت هذه الآية في سورة الأنعام ١٦٤ ، وفي سورة الاسراء الآية ٩٥ ، وفي سورة فاطر الآية ١٨ ، وفي سورة الزمر الآية ٧ .

(وان ليس للانسان إلا ما سعى) . المراد بالسعي هنا العمل والحركة في هذه الحياة . وتدل الآية على ان الاسلام هو دين الحياة لأنها تنص بصراحة على أن الله ينظر الى عباده من خلال أعمالهم في الحياة الدنيا ، ويعاملهم بموجبها، ومعنى هذا ان الانسان كلما عاش الحياة بأبعادها وفي أعماقها ، وعمل لخيرها وحل مشاكلها - فقد اقترب من الله ودين الله ، واستحق منه الرحمة والكرامة ، وانه كلما تهرب من الحياة وابتعد عن همومها ومشاكلها مكتضياً بالتكبر والتهايل والصوم والصلاة - فقد ابتعد عن الله ودينه ورحمته .

(وان سعيه سوف يرى) أي سوف يحاسبه الله على عمله يوم القيامة ، فالمراد بالرؤيا هنا الحساب وإلا فإن الله سبحانه يعلم كل شيء حتى خفوات السواوس (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) . واضح لا يحتاج الى تفسير تماماً كقوله تعالى : « اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى - ١٩٥ آل عمران » .

الى ربك المنتهى الآية ٤٢ - ٦٢ :

وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْآخِرَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَىٰ * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَنَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَىٰ * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّاهَا مَا

غَشِيَ* فَيَأْتِي آلَاءُ رَبِّكَ تَتَّارِي* هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى* أَرْفَتِ
الْأَرْفَةَ* لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ* أَفَإِنْ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ*
وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ* وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ* فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا*

اللغة :

نُتِمَى تُرَاقِي فِي فَرْجِ الْأُنْثَى . وَالنَّشْأَةُ الْآخَرَى الْبَعْثُ . وَالْمَرَادُ بِأَغَشَى
هَذَا أَنَّهُ تَعَالَى كَفَى عَبْدَهُ وَأَغْنَاهُ عَنْ سُؤَالِ النَّاسِ . وَالْمَرَادُ بِأَقْنَى أَنَّهُ أَعْطَاهُ
أَيْضاً مَا يَقْنِي مِنَ الْمَالِ وَيُدْخِرُ بَعْدَ الْكِفَايَةِ ، وَفِي تَفْسِيرِ الرَّازِي أَنَّ الْإِقْنَاءَ فَوْقَ
الْإِغْنَاءِ . وَالشَّعْرَى نَجْمٌ مُضِيءٌ ، وَفِي تَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ : كَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ
يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ . وَالْمَرَادُ بِالْمُؤْتَفَكَةِ قَرَى قَوْمَ لُوطَ . وَأَهْوَى أَسْقَطَهَا فِي
الْأَرْضِ أَيْ خَسَفَ بِهَا الْأَرْضُ . وَغَشَاهَا غَطَاهَا الْعَذَابُ . وَآلَاءُ اللَّهِ نِعَمُهُ . تَتَّارِي
تَشَكَّى . وَأَرْفَتِ دَنَتْ . وَالْمَرَادُ بِالْأَرْفَةِ السَّاعَةِ . وَكَاشِفَةٌ مِنَ الْكُشْفِ ، وَيَأْتِي بِمَعْنَى
الْإِظْهَارِ مِثْلَ كَشَفِ أَمْرِهِ أَيْ أَظْهَرَهُ ، وَأَيْضاً يَأْتِي بِمَعْنَى الْإِزَالَةِ مِثْلَ كَشَفِ اللَّهِ
غَمَكِ أَيْ أَزَالَهُ . وَسَامِدُونَ لَاهُونَ .

الإعراب :

وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى وَمَا بَعْدَهُ عَطْفٌ عَلَى مَا تَقْدِمُ وَهُوَ أَنَّ لِبَشَرٍ إِلَّا مَا سَعَى .
وَتُؤْمَدُ وَقَوْمٌ نُوحٍ عَطْفٌ عَلَى عَادَ . وَالْمُؤْتَفَكَةُ مَفْعُولٌ أَهْوَى . فَغَشَاهَا مَا غَشَى
فَاعِلٌ غَشَاهَا ضَمِيرٌ مُسْتَرٌ يَعُودُ إِلَى الْعَذَابِ وَهِيَ مَا مَفْعُولٌ .

المعنى :

(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى) . هَذِهِ الْآيَةُ وَمَا بَعْدَهَا هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي

ذكر سبحانه انه أنزلها في صحف موسى وإبراهيم ، والمراد بالمتنهي موقف الانسان بين يدي الله لنقاش الحساب الذي لا منجى منه (وانه هو أضحك وأبكى) . الضحك اشارة الى فرح أهل الجنة ، والبكاء الى ترح أهل النار ، ومن الجائز أن يكونا إشارة الى ما أودعه الله في الانسان من غريزة اللذة والألم والحزن والفرح ، وقد ذهب جماعة من الفلاسفة الى أن الانسان لا يتحرك إلا بتأثير من جذب اللذة كالجنس أو من خوف الألم كالجموح .

المادة والحياة :

(وانه هو أمات وأحيا) . هو سبحانه يهب الحياة ويأخذها ، أما قول من قال : ان المادة أصل الحياة وسببها فهو مجرد ادعاء تكذبه بديهة العقل لأن المادة لا تتحرك بطبيعتها بل بعلة مغايرة لها ، وأي عاقل يقبل القول بأن المادة الصماء أنشأت بنفسها لنفسها أبصاراً وأسماعاً وأفئدة ، وإذا كانت الحياة صفة تلازم المادة فلماذا ظهر النمو والحركة والحس والتفكير في بعضها دون بعض ؟ . وان قال قائل : ان لبعض أفراد المادة استعداداً للحياة دون بعض قلنا في جوابه : من أين جاءت هذه التفرقة ؟ هل جاءت من داخل المادة أو خارجها . فإن كانت من الداخل وجب أن تكون كل مادة صالحة لاستقبال الحياة ، وإلا لزم أن يكون الشيء الواحد سبباً لوجود الشيء وعدمه في آن واحد ، وان جاءت بسبب خارج عن المادة فهو الذي نقول .

(وانه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) . يريى الذكر منيه في رحم الانثى فيتم التلقيح ، ويتكون الجنين ذكراً أو أنثى ، فمن الذي أوجد الاستعداد في الجسم لهذه النطفة ؟ ومن الذي أوجد فيها ملايين الخلايا الحية؟ وهل يستطيع العلماء أن يصنعوا خلية واحدة يتكون منها ذكر أو أنثى؟ بل هل يستطيعون أن يميزوا بين الخلية التي يتكون منها الذكر والتي تتكون منها الأنثى؟ وإذا استندت النطفة الى أسباب طبيعية فإن هذه الأسباب تنتهي الى السبب الأول الذي أوجد الطبيعة (وان عليه النشأة الأخرى) . ضمير عليه يعود الى الله تعالى ، والمعنى ان البعث حتم لا بد منه (وانه هو أغنى وأفقى) . انه سبحانه كفى بعض عباده

سورة النجم

وأغناه عن الحاجة الى غيره ، وأعطى البعض الآخر ما يقضي ويدخر زيادة على ما يكفيه أي هياً له أسباب النفي والفتنة . وقال أحد العارفين : من ذاق طعم النفي، عن الناس فقد حصل على نصيب وافر من النفي، وان في ذلك لشرفاً عظيماً . (وانه هو رب الشعري) بكسر الشين وتشديدها، وهي نجم مضيء ، وخصها سبحانه بالذكر لأن بعض أهل الجاهلية كانوا يعبدونها ، وقيل : انها أضخم من الشمس بعشرين مرة ، وانها تبعد عن الشمس مقدار مليون ضعف بعد الشمس عنا (وانه أهلك عاداً الأولى) وهم قوم هود ، وتقدم الكلام عنهم مرات ، ووصفهم سبحانه بالأولى بالنسبة الى من تأخر عنهم من الأمم، وقال صاحب مجمع البيان : بل لأن ثم عاداً أخرى (ونمود فما أبقى) منهم أحداً، وهم قوم صالح، وأيضاً سبق الكلام عنهم وعن قوم نوح الذين أشار اليهم سبحانه بقوله : (وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أقظم وأطغى) من عاد ونمود (والمؤتفكة) قرى قوم لوط (أهوى) بها الى بطن الأرض (فغشاها ما غشى) من العذاب (فبأي آلاء ربك تتماهى) . الخطاب لكل انسان ، والآلاء النعم ، وتماهى تشك وتجادل . (هذا نذير من النذر الأولى) . قال أكثر المفسرين : ان « هذا » اشارة الى القرآن أو محمد (ص) . وليس من شك ان كلاماً من القرآن والرسول الأعظم هما من النذر الأولى من نوعها وصفاتها . ومع هذا فإن الذي نفهمه ان الله سبحانه أشار به «هذه» الى ما ذكره من الدلائل والعظات التي تضمنت أموراً هامة جديرة بالتأمل والدراسة كمسألة ان كل انسان هو وحده المسؤول عن جرمه وجبريته ، وان الله ينظر اليه من خلال عمله ، وانه لا مصدر للحياة إلا الله ، وان مصير الطغاة الى الهلاك ، وهذه وما اليها من أهم موضوعات العلوم الكونية والانسانية ، واذا ذكرها سبحانه ليستدل الانسان على وجود الله وعظمته فإن ذكرها بالذات يومية الى ان معانيها وأهدافها انما تتجلى للعلماء وانهم أحق الناس بمعرفة الله والايمان به والخوف منه : « إنما يخشى الله من عباده العلماء - ٢٨ فاطر » .

(أزهت الآزفة) . أزهت دنت ، والآزفة الدانية ، والمراد بها الساعة، وانما وصفها سبحانه بالدانية لأنها آتية ، وكل آت قريب .. وكل ما أدبر كأنه ما كان (ليس لها من دون الله كاشفة) ضمير «لها» يعود الى الآزفة أي الساعة، ولك أن تفسر الكشف بالعلم كقوله تعالى: «يسألونك عن الساعة إيان مرساها قل انما علمها

عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو - ١٨٦ الأعراف . وأيضاً لك ان تفسرها
 بقوله : « من قبل ان يأتي يوم لا مرد له من الله - ٤٣ الروم . (أفن
 هذا الحديث تعجبون وتضحكون) ؟ هذا الحديث إشارة الى قيام الساعة . وقيل
 الى القرآن . وكل منها صحيح لأن الكافرين قد عجبوا من البعث : « نثال
 الكافرون هذا شيء عجيب أثنا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد - ٣ ق . وأيضاً
 عجبوا من القرآن : « أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم - ٦٣ الأعراف .
 (ولا تبكون وأنتم سامدون) أي لاهون ، وكان الأولى أن تبكوا على أنفسكم
 التي ظلمتموها بالكفر والبغي : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا
 يكسبون - ٨٢ التوبة .

(فاسجدوا لله واعبدوا) . قال الحنفية والشافعية والامامية والحنابلة : يجب
 السجود عند تلاوة هذه الآية لأن الرسول الأعظم (ص) سجد عند تلاوتها، وسجد
 من كان معه . وقال المالكية : لا يجب .

سُورَةُ الْقَمَرِ

٥٥ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وانشق القمر الآية ١ - ٨ :

اِقْرَبَتْ السَّاعَةُ ۖ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ حِكْمَةٌ بِالْغَيْةِ ۚ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۚ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ۚ خَشَعُوا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ۚ كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرَةٌ ۚ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۚ

الغزة :

مستمر بكسر القاف أي له غاية ينتهي إليها . والزجر المنع ، ومزدجر بفتح الجيم من الفعل المطاوع ازدجر ازدجاراً ، تقول ازدجرته فازدجر . وبالغزة بلغت الغاية من الموعظة . ونكر بضم النون والكاف وهي الشيء المنكر الذي نعاظه النفوس . وخشعاً جمع خاشع وهو الذليل . والاجداث القبور . ومهطعين مسرعين .

الإعراب :

كل أمر مستقر مبتدأ وخبر . ما فيه مزدجر « ما » اسم موصول فاعل جاءهم وفيه خبر مقدم ومزدجر مبتدأ مؤخر والجملة صلة الموصول . وحكمة بسندل من « ما فيه » وباللغة صفة . فما تنفي « ما » نافية . يوم يدع الداع « يوم » منصوب بفعل مقدر أي اذكر يسوم يدع ، والداع أصله بالياء وحذفت تخفيفاً . وخشعاً حال من فاعل يخرجون والأصل يخرجون من الاجداث خشعاً ، وأبصارهم فاعل لحشع . ومهطعين حال ثانية .

المعنى :

(اقتربت الساعة) وأزفت الآزفة بمعنى واحد ، وهو ان يوم القيامة آت لا ريب فيه (وانشق القمر) . قال أكثر المفسرين : ان المشركين طلبوا من رسول الله (ص) أن يشق القمر فرفقن ان كان صادقاً .. فسأل ربه ، فانشق القمر ، ثم عاد الى ما كان .. وليس من شك ان هذا ممكن في ذاته ، ولكن الامكان شيء ، والوقوع شيء آخر ، لأن الوقوع يفترق الى دليل الاثبات ، ولا دليل على ان الانشقاق حدث في عهد الرسول الأعظم (ص) ، بل الأدلة قائمة على العكس ، وهي :

أولاً : ان هذا لا يتفق مع العديد من الآيات التي نصت بصراحة على ان النبي (ص) لم يستجب لاقتراح المشركين في طلب الخوارق والمعجزات ، وانه أجابهم بما أمره الله : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » - ٩٤ الإسراء . وفي الآية ٥٩ من هذه السورة أي سورة الإمراء بين سبحانه ان المقترحين يظنون على الكفر حتى ولو أجيبوا الى ما يقترحون : « وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الأولون » . وقال أيضاً : « وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشدا لا يتخلوه سبيلاً » وان يروا سبيل الفتي يتخذوا سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين - ١٤٦ الأعراف . .. هذا ، الى ان الله سبحانه لم يبق عنراً لمتعل بعد ان تحدى العالم كله بقوله : « وان

سورة القمر

كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين - ٢٣ البقرة .

ثانياً : ان انشقاق القمر حدث كوني هام ، فلو وقع لرآه أهل الشرق والغرب ، ودوته العلماء والمؤرخون الأجانب وغيرهم ، كما دوتوا ما هو دونه من الأحداث .

ثالثاً : ان الانشقاق من الموضوعات التي لا تثبت إلا بالخبر المتواتر ، وخبر الانشقاق من أخبار الآحاد ، فلا يصح الاعتماد عليه في هذا الباب ، والفرق بين الخبر الواحد والمتواتر ان رواة الثاني كثيرون ويختلفون في ظروفهم وأهدافهم بحيث لا يجمعهم على الكذب جامع - بحسب العادة - والخبر الواحد بعكس ذلك ، ولك ان تفرق بينها بأن الخبر المتواتر يفيد الاطمئنان دون الخبر الواحد .

رابعاً : ان قوله تعالى : « وانشق القمر » بعد قوله : « اقتربت الساعة » - يدل على ان القمر ينشق حين تقوم الساعة ، وان المراد من الانشقاق هنا هو نفس المراد منه في قوله : « اذا السماء انشقت - ١ الانشقاق » أي يتصدع ما فيها من الكواكب يوم القيامة .

(وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) لا نهاية له على مدى الأيام . وفي الآية ٢٤ من سورة المدثر حكى سبحانه عن الوليد بن المغيرة انه قال : « وان هذا إلا سحر يؤثر » أي يروى (وكذبوا واتبعوا أهواءهم) . لقد أعماههم الهوى والجهل عن كل حجة ودليل ، فكذبوا بكتاب الله ولقائه على الرغم من الدلائل الواضحة (وكل أمر مستقر) . هذا تهديد لمن أعرض عن القرآن، والمعنى ان كل شيء ثابت في علم الله تعالى لا تخفى عليه خافية ، ومنه إعراض من أعرض عن القرآن ، ومثله قوله تعالى في الآية ٦٦ من سورة الأنعام : « وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » . (ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر) . المراد بالأنبياء هنا كل آية في القرآن فيها عظة وعبرة ، وترغيب وترهيب ، أو تدل على طريق الإيمان بالله واليوم الآخر والوحي الذي نزل على رسول الله (ص) ، والمعنى ان الله سبحانه يبين للمشركين على لسان نبيه محمد الدلائل الكافية على الحق ، والمواظب الواجبة

في التزجر عن الباطل (حكمة بالغة) . كل ما جاء في القرآن فهو حكمة بلغت الغاية في العظمة والدلالة على الحق ، ولكن (فما تغني التنذر) مع العناد والاصرار على الكفر والفساد .

(فنول عنهم) يا محمد لأنك قد بلغتهم رسالات ربك ، فلم يستجيبوا ، وبالغت في النصيحة فلم يقبلوا (يوم يدعو الداع الى شيء نكر خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث) . والنكر بضم النون والكاف ، وهو ما تنكره النفوس ولا تطيق له حلاً ، والمراد به هنا العذاب .. وهذا تهديد ووعد للذين أعرضوا عن الحق ، وان لهم يوماً اسود لا مفر من عذابه ، وهو اليوم الذي يخرجون من القبور الى لقاءه وحسابه أذلاء خاضعين بموج بعضهم ببعض من الخيرة والدمية (كأنهم جراد منتشر) لكثرتهم حيث يجمع الله الأموات بعد إحيائهم ، ويلحق آخرهم بأولهم ، وفيه إيماء الى ان الحشر يكون بالروح والجسم معاً (مهطعين الى الداع) مسرعين الى دعوة الله للحساب والجزاء (يقول الكافرون هذا يوم عسر شديد الأهوال والمخاطر ، عظيم الآلام والمخاوف ، ومثله : « يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون - ٤٤ المعارج » .

نوح الآية ٩ - ١٧ :

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ*
 قَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ* فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ*
 وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْآلَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ* وَحَمَلْنَاهُ عَلَى
 ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدَسِرَ* تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ* وَلَقَدْ
 تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ* فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ* وَلَقَدْ
 يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ*

اللغة :

ازدجر أي ردعوه وزجروه عن التبليغ . ومنهم منكب ومتدفق . وقد قُدر أي قدره الله . ودر بضم الدال والسين جمع دسار مثل كتب وكتاب ، وهو المسار . وبأعيننا بحراستا . ومدكر معتبر .

الإعراب :

مجنون خبر مبتدأ محذوف أي هو مجنون . واني مغلوب أي بأني مغلوب . وعبوناً تمييز محول عن مفعول والأصل وفجرنا عبون الأرض . وجزاء مفعول من أجله . وآية حال من مفعول تركناها . وكيف خبر كان مقدم، وعذابي اسمها .

المعنى :

أشار سبحانه في الآيات السابقة ان محمداً (ص) أنذر قومه فما أغنت النذر .. وفي الآيات التي نحن بصدها أشار الى ان شأن محمد (ص) في ذلك مع قومه تماماً كشأن نوح مع قومه (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا) لئن كذب بك قومك يا محمد فقد كذب قوم نوح عبدنا نوحاً : وقوله تعالى : فكذبوا تفسير لقوله : كذبت ، فكأن سائلاً يسأل : من كذبت هذه الجماعة ؟ فأجاب سبحانه بأنهم كذبوا عبدنا نوحاً (وقالوا مجنون) تماماً كما قالت قريش عن الرسول الأعظم (ص).. وهذا الشتم عادي وطبيعي بالنسبة الى العاجزين عن الجواب (وازدجر) يشير بهذا سبحانه الى ما جاء في الآية ١١٦ من سورة الشعراء : ه قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ، ردعوه وزجروه عن التبليغ، وهددوه إذا هو أصر بالرجم والقتل .

(فدعا ربه اني مغلوب فانتصر) . لما ضاق نوح بقومه وضاقوا به التجأ الى خالقه وقال : لقد غلبت على أمري ، وقلت حيلتي ، وانتهى دوري في التبليغ والانذار ، وبقي أمرك وقضاؤك في هؤلاء الكفرة الفجرة ، فانتقم منهم بعذابك،

وانتصر لدينك ورسولك .. وتجدر الإشارة الى أن نوحاً ما دعا على قومه إلا بعد اليأس من هدايتهم ، فلقد لبث يدعوهم بلا جدوى ألف سنة إلا خمسين عاماً كما جاء في الآية ١٤ من سورة العنكبوت (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا) . دعا نوح على قومه ، فاستجاب الله لدعوه ، وأغرقهم بماء تدفق من السماء ، وتفجر من الأرض (فالتقى الماء على أمر قد قدر) . التقي الماء المتدفق من السماء مع الماء المتفجر من الأرض ، فكان محرراً عظيماً أتى على كل شيء ، وما سلم إلا من كان في السفينة . وكان هذا الطوفان والهلاك بأمر الله وقدره ، فقوله تعالى : « على أمر قد قدر » في معنى قوله تعالى : « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » ٣٨ - الأحزاب .

(وحملناه على ذات ألواح ودسر) . ضمير حملناه يعود الى نوح. والألواح الأخشاب ، ودسر مسامير ، والمعنى ان سفينة نوح كانت عادة كغيرها مصنوعة من الخشب والمسامير ولكنها (تجري بأعيننا) بحفظ الله وحراسته ، ولهذا نجت من المخاطر وإلا ما استطاعت الصمود لأهوال الطوفان (جزاء لمن كان كفر) . وكلمة الجزاء تشير الى السبب الموجب للطوفان وإهلاك من هلك به من الكافرين . (ولقد تركناها آية فهل من مدكر) . أي ترك سبحانه أخبار سفينة نوح لتكون عظة لمن يتعظ بالعبر ، ويتنفع بالنذر (فكيف كان عذابي ونذر) . حقاً كان الطوفان مدمراً ، أما نوح البشير النذير فقد كان صادقاً فيما بلغ وأنذر . (ولقد يسرنا القرآن للذكر) . أنزل سبحانه القرآن للتذكير والانعاط ، ويسر معانيه على الافهام لينتفعوا به ، لا ليتغنوا بكلماته أو يتداووا بآياته او يحرفوها ويشتروها ثمناً قليلاً (فهل من مدكر) ؟ هل يعتبر ويتعظ بما جاء في القرآن الجاحدون والذين يتاجرون بالدين ويحرفون الكلم عن مواضعه تبعاً لأهوائهم وأغراضهم . وتقدمت قصة نوح في سورة هود وغيرها .

هود وصالح الآية ١٨ - ٣٢ :

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ
 مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ
 فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذْرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّنَّا وَاحِدًا
 نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَلَلْقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ
 هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ * إِنَّا مُرْسِلُو
 النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ إِلَهُاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ
 شَرْبٍ مُخْتَصِرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
 وَنُذْرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَيْمَةِ الْمُحْتَظِرِ *
 وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ *

اللغة :

صَرْصَر من الصر وهو البرد أي شديدة البرد ، وقيل : من الصرير وهو
 الصباح أي شديدة الصباح . وتزع تلعق . واعجاز أسافل . ومنقعر منقلع . والسعر
 الجنون يقال : سعر فلان فهو مسعور أي جنٌ فهو مجنون . وأشر بطر ومتعظم .
 وشرب بكسر الشين وتخفيفها نصيب . ومختصر بفتح الضاد يحضره صاحبه في نوبته
 دون غيره . وهشم يابس متكسر . ومحتظر بكسر الظاء . والمراد بالمحتظر هنا ما
 يجمعه صاحب الحظيرة من الحشيش اليابس لتأكله الماشية .

الإعجاب :

جملة كأنهم اعجاز حال من الناس . وبشراً مفعول لفعل مقدر أي أنتبع بشراً . ومناً : صفة . وواحداً صفة ثانية لبشر . وفتنة مفعول من أجله له «مرسلوه» .

المعنى :

(كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر) ؟ . عاد قوم هود كذبوا نبيهم ، فأخذهم الله بالعذاب الأليم ، وبين نوع هذا العذاب بقوله : (إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر) . أرسل سبحانه عليهم ريحاً باردة عنيفة في يوم عسير وخطير ، فلقد استمرت ريح العذاب في هذا اليوم حتى أفتتهم عن آخرهم (تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر) . اقتلعنهم الريح الصرصر من أماكنهم ، وألقت بهم صرعى تماماً كأسافل نخل اقتلعت من الأرض (فكيف كان عذابى ونذر) ؟ . كرر سبحانه هذا السؤال مبالغة في التحذير والانذار (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ؟ . أنظر الآية ١٧ من هذه السورة فالنص والتفسير واحد .

(كذبت ثمود بالنذر) . ثمود قوم صالح . وجمع سبحانه النذر مع ان الذي كذبوه كان نذيراً واحداً ، وهو صالح لأن تكذيب أي نبي هو تكذيب لجميع الأنبياء لوحدة الرسالة والمرسل (فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لقي ضلال وسعر) ؟ صالح منا وفيما .. وعرفناه صغيراً وكبيراً .. فكيف نتبعه ؟ ولا يتبعه ويصدقه إلا ضال أو مجنون .. أجل ، لو كان له مال وعبيد وإماء لهان الخطب وكان لتصدق به وجه (أألقي عليه الذكر من بيننا) ؟ مستحيل .. كيف وهو واحد منا ؟ « ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون - ٣٤ المؤمنون » . (بل هو كذاب أشر) . وبكفي في الدلالة على كذبه انه واحد منهم .. هذا هو منطقهم .. إذن ، فالسألة مسألة أشخاص وأفراد ، لا مسألة حق ومبادئ .. فلا بدع، فهذا هو منطق أرباب المناصب والمكاسب في كل زمان ومكان .. وأيضاً منطق أهل الجهل والتقليد .

(سيعلمون خدأ من الكذاب الأشر) . هل هو صالح أو الذين كذبوه ؟ .
 أجل ، سيعلمون عما قريب أنهم هم المفترون البطرون عندما يمتحنهم الله بالناقة ،
 فيعقرونها ، ويحل عليهم غضب من ربهم وعذاب مهين (إنا مرسلو الناقة فتنة
 لهم) ابتلاء وامتحاناً يتميز به الخبيث من الطيب (فارتقبهم واصطبر) انتظر
 قليلاً يا صالح ، واصبر على أذاهم ، وسترى ما يحل بهم من العذاب والهوان .
 (ونبتهم ان الماء قسمة بينهم كل شرب محضر) . أخبرهم ان الماء مناصفة
 بينهم وبين الناقة .. هم يحضرون يوماً يستوفون فيه نصيبهم من الماء ، وتحضر هي
 يوماً لنفس الغرض (فتادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) . لم ترضهم قسمة الماء هذه
 فدعوا أشقى رجل فيهم ليعقر الناقة ، فلبى الشقي الدعوة ، قال تعالى : و كذبت
 ثمود بطغواها اذ انبعث أشقاها - ١٢ الشمس . فعقر الناقة ، ووقع العذاب ..
 واختلف المفسرون في قوله تعالى : « فتعاطى » ماذا أراد به ؟ . فمن قائل : المراد
 ان الشقي شرب الخمر ثم عقر الناقة . وقائل : انه حمل آلة العقر وأقبل على
 الناقة وعقرها .. وغير بعيد أن يكون المراد بالتعاطي هنا الاقدام بدون اكتراث .
 (فكيف كان عذابي ونذر) ؟ . كان مدمراً ، والتكرار مبالغة في التحذير
 والانتذار (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) . أخذتهم
 صيحة العذاب فأصبحوا كفتنسات النبات اليابس تنفروه الرياح . وقال الرازي :
 « استعمل الهشيم كثيراً في الخطب المكسر اليابس » . وهذا الهشيم يحظره صاحب
 الحظيرة لماشيتيه ، وعليه يكون وصف الهشيم بالمحظر مجازاً لا حقيقة (ولقدسرنا
 القرآن للذكر فهل من مدكر) . وعسى أن يتفجع بهذا التكرار من ضل سواء
 السبيل . وتقدمت قصة هود وصالح في سورة هود وغيرها .

لوط الآية ٣٣ - ٤٤ :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالْأَنْذَرِ* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ
 نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ* نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ* وَلَقَدْ

أَنْذَرُهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالْأَنْذَرِ * وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا
أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَأَنْذَرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ *
فَذُوقُوا عَذَابِي وَأَنْذَرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ *
وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ
عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ *

اللفظة :

حاصباً هواء يحمل الحصباء . تماروا شكوا وجادلوا . وراودوه طلبوا منه
ونازعوه في ارادته . والضيف اسم جنس يقع على الواحد والجماعة . وبكرة صباحاً .
ومستقر ثابت ومستمر أي ان العذاب بقي حتى أفناهم أو ان عذاب الدنيا يتصل
بعذاب الآخرة .

الإعراب :

حاصباً صفة لمقدر أي هواء أو عذاباً حاصباً . ونعمة مفعول من أجله لنجيتناهم .
وكذلك الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق مخوف أي جزاء مثل ذلك الجزاء
ينجزى . بكرة ظرف زمان والعامل فيه صبيحهم .

المعنى :

(كذبت قوم لوط بالنذر) تماماً كما كذبت قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم
وغيرهم ، والسر واحد وهو صراع الحق مع الباطل ، والعدل مع الجور .. ثم
يبين سبحانه نوع العذاب الذي أنزله بقوم لوط : (إنا أرسلنا عليهم حاصباً)

أي رماهم بالحصباء التي تحملها الريح بالإضافة الى الحسف ، وهذه الحصباء هي التي ذكرها سبحانه في الآية ٣٣ من سورة الذاريات : « لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ طِينٍ » . (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) . أنجى لوطاً ومن آمن معه من العذاب حيث أخرجهم آخر الليل من القرية الظالم أهلها (نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر) . انتقم سبحانه من عصي ، وأنعم على من أطاع عملاً بمبدأ العدالة ، ولكن الرازي قال : « ولو أهلكوا - أي آل لوط - لكان ذلك عدلاً » .. والله أصدق حديثاً ، وهو القائل : « تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته - ١١٥ الأنعام » . أي ان العدل فيما تم منه تعالى ، وما عداه فهو ظلم .

(ولقد أنذرهم بطشتنا فمأروا بالنذر) . خوفهم لوط من عذاب الله ، فشكوا وسخروا ، بل هددوا وتوعدوا و « قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين - ١٦٧ الشعراء » . (ولقد راودوه عن ضيفه) . سمعوا ان اضيفاً دخلوا على لوط ، فأسرعوا اليه ، وقالوا له بوقاحة وصلف : أعطنا اضيفك لنفجر بهم ونفحش (فطمنا أعينهم) أعمى الله أبصارهم عن اضيف لوط ، ثم أرسل عليهم العذاب ، وقال لهم : (فذوقوا عذابي ونذر) وهو الذي شككتم فيه وسخرتم منه (ولقد صبتهم بكرة عذاب مستقر) . أتاهم العذاب صباحاً ، واستمر حتى أفناهم عن آخرهم (فذوقوا عذابي ونذر) . ذكر سبحانه هذا بعد عذاب الضمير ، ثم كرره بعد العذاب الخاص (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ؟ . كرر ، جلت حكمته ، هذه الآية أربع مرات : الأولى بعد الإشارة الى قصة نوح ، والثانية بعد قصة هود ، والثالثة بعد قصة صالح ، والرابعة بعد قصة لوط ، والغرض ان نعتبر ونتعظ بكل قصة من هذه الأربع لأنها كافية وافية في التذكير والوعظ . وتقدمت قصة لوط في سورة هود وغيرها . (ولقد جاء آل فرعون النذر) . ومثله « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون ومثله - ١٠٣ الأعراف » . (كذبوا بآياتنا كلها) وكانت تسعاً « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات - ١٠١ الإسراء » ذكر سبحانه خمساً منها في الآية ١٣٢ من سورة الأعراف : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات » والأربع الباقية أشار اليها سبحانه في آيات متفرقة

وهي اليد والمصا وحل العقدة من لسان موسى وانفلاق البحر (فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) . أغرق سبحانه فرعون وملأه في المم، وكان من قبل يقول لقومه : « أنا ربكم الأعلى » .. فأذاقه الله عذاب الخزي في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر .

كل شيء خلقناه بقدر الآية ٤٣ - ٥٥ :

أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ * سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ *

اللفظ :

الزبر جمع زبور، وهو الكتاب . والمراد بالضللال هنا الهلاك وبالسُّعْر النيران . وأشْيَاعَكُمْ أي أشباهكم . ومستطر مسطور . ونهر بفتح النون والهاء اسم جنس مثل حجر ويستعمل في الأنهار .

الإعراب :

أَمْ لَكُمْ أم ، منقطعة أي بل ألكم . وفي الزبر متعلق بمحذوف صفة لبراءة

أي براءة مكتوبة في الزبر . ذوقوا أي يقال لهم : ذوقوا . وسقر علم لجهنم وهو ممنوع من الصرف للتعريف والتأنيث . وواحدة صفة لمقدر أي كلمة واحدة . وفي مقعد متعلق بمحذوف خبراً ثانياً لأن المتقين .

المعنى :

(أكفاركم خير من أولئك) ؟ الخطاب للذين كذبوا محمد (ص) ، وأولئك إشارة الى الأمم البائدة المهالكة بسبب كفرها وعنادها ، وقد ذكر سبحانه في الآيات السابقة ما حل بهم من أنواع العذاب . والمعنى : لستم خيراً ممن أهلكنا ، بل أنتم شر مكاناً ، وأشد على الرحمن عتياً ، فهل أنتم أن تحذف بكم أو يرسل عليكم حاصباً كما فعل بالذيين قبلكم ؟ (أم لكم براءة في الزبر) ؟ هل أنزل الله في كتاب من كتبه انكم في أمان من عذابه ؟ (أم يقولون نحن جميع منتصر) ؟ أم تدعون انكم جمع لا يقهر ؟ (سيهزم الجمع ويولون الدبر) يوم نزلت هذه الآية كانت القوة للمشركون لأنهم الأكثرية الغالبة ، أما المسلمون فكانوا أفراداً ضعافاً ، وكان في استطاعة أي مشرك أن يؤذي المسلمين ، وهو آمن .. وما مضت الأيام حتى انعكست الآية ، وولى المشركون الأدبار ، وأصبحت كلمة الاسلام والمسلمين هي العليا ، واستبان للقریب والبعيد ان قوله تعالى : « سيهزم الجمع » هو حق وصدق . وهذه واحدة من البينات القاطعة على ان الله سبحانه ينطق على لسان رسوله الأعظم (ص)

(بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) . التفسير في موعدهم يعود الى الجميع من قوم نوح الى كفار العرب الذين كذبوا محمداً (ص) والمعنى كل ما أصاب المكذبين من عذاب الدنيا فإ هو بشيء إذا قيس بعذاب الآخرة .. فكل بلاء دون النار عاقبة (ان المجرمين في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسي سقر) . هذا تفسير وبيان لقوله تعالى : « والساعة أدهى وأمر » . فأهل النار لا يقاسون أهوالها وكفى ، بل تُنكل بهم ملائكة العذاب بشئ أنواع التنكيل ، كالسحب على الوجوه ، والضرب بمقامع من حديد ، الى ما لا يبلغه الوصف .

كل شيء بمقدار :

(إنا كل شيء خلقناه بقدر) . وفي آية ثانية : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » - ٢ الفرقان . وفي ثالثة : « وكل شيء عنده بمقدار » - ٨ الرعد . وفي رابعة : « الذي خلق فسوّى والذي قدر فهدى » - ٣ الأعلى . إلى كثير من الآيات التي تدل على أن ما من كائن إلا وهو على مقدار معين من العناصر والصفات لا تزيد ولا تنقص عما ينبغي أن تكون ، وإن كل ما فيه قد رتب ترتيباً دقيقاً ومحكماً ، ووضع في المكان المناسب لوظيفته ومهمته .. وإذا بحثنا عن السبب الموجب لذلك فلا نجد أي سبب يقبله العقل إلا إرادة الله التي هي وراء كل شيء . قال «كنت» : « أن الطبيعة كالعمل الفني ، واستدلنا على مصدرها تماماً كالاستدلال بالأثر الفني على مصدره » .

وتسأل : ألا يجوز أن يكون هذا النظام من عمل الصدفة ؟

الجواب : أن الصدفة كاسمها .. مستحيل أن تتكرر ، وتفسير الحوادث بها تهرب من حكم العقل والواقع، ولذا قال العلماء : لا يلجأ إلى الصدفة إلا عاجز .. هذا ، ولو صحت نظرية الصدفة لانهارت العلوم من الأساس لأن العلم قواعد عامة ومطرودة وإلا لم يكن علماً ، على العكس من الصدفة التي لا تتعدى موضوعها الخاص ، وإلا لم تكن صدفة .. وإذا بطلت الصدفة بطل معها المذهب المادي القائل : أن المادة هي الأصل لكل شيء .. وأي عاقل يستسيغ القول بأن الكون وجد صدفة ، وكل ما فيه من قانون ونظام هو نتيجة الصدفة، وإن المادة خضعت للنظام بالصدفة .. وبهذا نجد تفسير قول الشاعر :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقول من قال : « ليس بالامكان أبدع مما كان » أي أن كل شيء قد وضع في المكان المناسب ولو حاد عنه قيد شعرة لاستبان فيه الخلل والنقص .

(وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) . هذا كناية عن أن الله سبحانه إذا أراد شيئاً يوجد بالفعل وبمجرد أن يريد ، ولا يفترق إلى زمان على الإطلاق ، لا كلمح بالبصر أو أقرب ، وإنما ذكر سبحانه لمح البصر لمجرد التقريب ..

وبتعبير الفلاسفة: ان نسبة ارادته تعالى الى مراده هي كنسبة الایجاد الى الموجود.
(ولقد أهلكنا أشياءكم فهل من مدكر) ؟ لقد كان فيما مضى أقوام أعجبتهم
أنفسهم كما أعجبتكم أيها المشركون العرب ، وكذبوا رسلهم كما كذبتم رسولكم
عمداً (ص) فدمرهم الله تدميراً ، فاتعظوا بهم قبل أن يتعظ بكم .

(وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر) . ما من قول أو
فعل حقيراً كان أم خطيراً إلا وهو مثبت على صاحبه في علم الله، ومحاسب عليه،
ومجزى به ، والرابع من حاسب نفسه قبل أن يحاسب (ان المتقين في جنات
ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر) . المتقون هم الذين نظروا لأنفسهم ،
ولم يعرضوها للتهلكة بمعصية الله ، وحاسبوها على كل صغيرة وكبيرة ، فكانوا
عند الله من المقربين .

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

٧٨ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خلق الانسان علمه البيان الآية ١ - ١٣ :

الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ *
أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ *
وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ * وَالْحَبُّ
ذُو الْعَصْفِ * وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *

اللفظة .

البيان كل ما دل على القصد . وبحسبان بتقدير وتدبير . والنجم من نجم الشيء اذا طلع ، والمراد به هنا النبات الذي لا ساق له كالهندباء في قبال الشجر الذي له ساق . والأَنَامُ الخلق . والأكام جمع كم بكسره الكاف ، وهو غلاف الثمرة ووعاؤها . والعصف ورق الشجر . والريحان النبات المعروف : وقيل : المراد به كل نبت طيب الرائحة . والآلاء النعم .

الاعراب :

قال صاحب مجمع البيان : الرحمن خبر لمبتدأ مخوف ، والأرجح انه مبتدأ وما بعده خبر . ورفعها مفعول لفعل مخوف يفسره الفعل الموجود . والمصدر من أن لا تطفؤا مفعول من أجله لوضع أي وضعه لثلاث تطفؤوا فيه .

المعنى :

(الرحمن) . ذكر سبحانه في هذه السورة العديد من نعمه على عباده، وابتدأها جل وعز بكلمة الرحمن لأنها تسمى الى الإنعام والأفضال .
(علم القرآن) أي نزله . والقرآن يشبه الكون في جهات ، منها ان القرآن من كلامه تعالى ، والكون وجد بكلمة «كن» . ومنها ان كلاً منها يدل بالحنس على قدرة الله وعظمته، فالكون تراه العيون، والقرآن تسمعه الآذان، ومن ثم قال أحد المؤمنين : ان الله كتابين : أحدهما يتلى ويُسمع ، وهو القرآن . وثانيها يُنظر ويُلمس ، وهو الكون . ومنها ان كلاً من الكون والقرآن فيض من قدرة الله وحدها ، ويستحيل أن يأتي أحد بشيء من مثله . ومنها ان كلاً منها نعمة كبرى أسبغها سبحانه على الانسان ، فهو يتمتع بخير الأرض والسماء ، ويهتدي بنور القرآن الى طريق الهناء وسعادة الدارين .. ولذا آمنَ سبحانه على الانسان بالشمس والقمر والأرض والمطر ، وبالرياح والزرع والأشجار والأنعام .. الى ما لا يلبغه الإحصاء .

(خلق الانسان علمه البيان) . المراد بالبيان كل ما يدل على المقصود من لفظ أو خط أو رسم أو اشارة .. أجل ، ان الكلام أظهر افراد البيان ، وأداته وهو اللسان أطوع أعضاء الانسان للانسان ، وأكثرها حركة ، وأعظمها سرعة ، ولا يعرف التعب والملل ، ولا توجد هذه الصفة في سائر الأعضاء .

والبيان وبخاصة الكلام من أعظم النعم وأتمها، فيه يعبر الانسان عن مقاصده ، ويفهم مقاصد الآخرين ، ويتجاوب معهم ويتعاطف ، ويقضي حاجته وحاجة غيره ، وبالبیان يستبين الكفر والإيمان ، وعليه تركز العلوم والآداب والفنون ،

الجزء السابع والعشرون

وتعرف الأديان ، قال بعض العلماء : « كل ما يتناوله العلم يعبر عنه بالبيان ، ولا شيء إلا والعلم متناول له » .

(والشمس والقمر بحسبان) . أي يجريان بانتظام كامل ، وقوانين ثابتة ، وبهذا الانتظام "تُحفظ الحياة على الأرض ، وتختلف الفصول ، وتُعرف الأوقات (والنجم والشجر يسجدان) . قال أكثر المفسرين : المراد بالنجم هنا النبات الذي لا ساق له كالبلبل لأن الله سبحانه ذكره مع الشجر في مقابلة الشمس والقمر ، أما السجود هنا فعناه ان كلاً من البلبل والشجر يدل على وجود الله وعظمته بما فيه من دقة الصنع . انظر تفسير الآية ٤٤ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٤٧ فقرة « كل شيء يسبح بحمده » .

(والسماء رفعها ووضع الميزان) . المراد بالسماء ما فيها من الكواكب ، وبالميزان كل ما تُعرف به حقائق الأشياء ومقاديرها مادياً كان كالصاع والمتر والميزان ذي الكفتين ، أو معنوياً كالوحي وبديهة العقل والفطرة ، ومراد أيضاً ان هذا الكون العجيب قد انتظم واستقام لأن الله سبحانه قد رفع الكواكب الى مواقعها الطبيعية بحيث لو انحرف كوكب منها عن المكان الذي قدره الله له لاختل نظام الكون وتبدل كل شيء .. وأيضاً لا يستقيم أي مجتمع بشري إلا اذا خضع لموازين أخلاقية (ألا تظفوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) . المراد بالطفين هنا الاعتداء بالسلب والنهب ، والمراد بالخسران الاعتداء بعدم تسليم الحق لذويه : والقسط هو ترك الاعتداء بشئ أنواعه ، فتؤدي ما عليك ، ولا تأخذ أكثر من حَقِّك .. ومنحيل أن يعيش المجتمع حياة هادئة لا مشاكل فيها ولا تعقيد اذا أهل الحق والعدل ، وساد فيه الطفيان والخسران .

والخلاصة ان هذه الآية - على إيجازها - قد أشارت الى ما يتم به ويستقيم نظام الكون والمجتمع ، والأول نظام تكويني ، وقد أتمه الله سبحانه على أكمل وجه ، والثاني نظام تشريعي أوجب سبحانه على عباده مراعاته والعمل بموجبه .

(والأرض وضعها للأنام) فراشاً ومعاشاً ، والمراد بالأنام كل ما فيه روح من انسان وحيوان (فيها فاكهة) كثيرة وغيرها من الأطعمة والأشربة (والنخل ذات الأكمام) وهي أوعية الطلع تنشق وتخرج منها الثمار عند بلوغها النضج ،

سورة الرحمن

وانما خص سبحانه شجرة النخل بالذكر لمكانتها عند العرب آنذاك (والحب ذو العصف) . الحب لقوت الانسان ، والعصف ، وهو ورق الشجر والنبات ، لقوت الحيوان (والريحان) للشم والزينة .. طعام وفاكهة وأزهار .. كل ذلك من خيرات الأرض وبركانها التي أنعم الله بها على عباده .. وهم يعيشون فيها فساداً وطفياناً .

(فبأي آلاء ربكما تكذبان) . الآلاء النعم ، والخطاب في تكذبان للجن والانس بدليل قوله تعالى : « للانام » الشامل للتوعين بالاضافة الى ما يأتي من قوله في هذه السورة : « سافرغ لكم ايها الثقلان » وقوله : « يا معشر الجن والانس » . والمعنى هل ينكر أحد من الجن والانس شيئاً من النعم التي ذكرها الله سبحانه ؟ وكيف يجحدها ، وهو يتقلب فيها ويتمتع بها ؟ .. وربما استظهر بها على عباد الله .

كل يوم هو في شأن الآية ١٤ - ٣٠ :

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ
نَارٍ * فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ *
فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ
لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ * يُخْرِجُ مِنْهَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ *
فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ *
فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ
ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ * يَسْأَلُهُ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ *

المغنى :

(خلق الانسان من صلصال كالفخار) . المراد بالانسان آدم أبو البشر ، والصلصال الطين اليابس غير المطبوخ ، فإذا طُبِّخ فهو فخار . وفي ج ٤ ص ٤٧٤ جمعنا بين أربع آيات ، وهي : « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون - الحجر » . والآية ٥٤ من سورة الفرقان « وهو الذي خلق من الماء بشراً » . والآية ٥٩ من سورة آل عمران « كمثل آدم خلقه من تراب » . والآية ٢ من سورة الأنعام « هو الذي خلقكم من طين » . وأثبتنا انه لا طريق الى معرفة أصل الانسان إلا الوحي من خالق الانسان ، وعند تفسير الآية ١١ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٠٥ فقرة « حول أصل الانسان » أشرنا الى الرد على نظرية « داروين » .

(وخلق الجن من نار) . قلنا مرات : نحن نؤمن بوجود الجن لأن الوحي أثبتته ، والعقل لا ينفيه . وعند تفسير قوله تعالى : « والجن خلقناه من قبل من نار السموم - الحجر » ج ٤ ص ٤٧٥ - قلنا : ان علماء الاختصاص اكتشفوا نوعاً من الحشرات لا تحيا إلا بالهواء السام ، ونوعاً آخر لا يحيا إلا في آبار البترول والمواد الملتهبة ، ومعنى هذا ان عناصر الكائنات الحية على أنواع، منها من ماء ومنها من نار، وأيضاً منها في علم الشهادة ومنها في عالم الغيب (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أنخلق الانسان من صلصال كالفخار أم يخلق الجن من نار أم غيره ؟ . ومارج لخب بلا دخان . وأخشى ان يقول الذين يطبقون الوحي على العلم الحديث : ان هذا المارج يشير الى اكتشاف الغاز والسيرتو .

أما تعدد قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان » فهو لتعدد الأسباب الموجبة ، وهي النعم المسؤول عنها واختلاف أنواعها، تماماً كما تقول لمن تراكمت عليه أباديك : لقد أنقذتك من يد عدوك بعد ان تمكن منك، واعطيتك الأموال ، فبأيها تكذب ؟ وعلمت أولادك، وبنيت لك داراً ، فبأيها تكذب ؟ . - اذن - فلا تكرار ولا تأكيد لشيء واحد .

(رب المشرقين ورب المغربين) . المراد بالمشرقين والمغربين هنا مشرق الشمس

والقمر ومغربهما ، وهذا المعنى هو المتبادر إلى الأذهان دون غيره .. وليس من شك ان أكثر الأحياء تحتاج إلى شروق الشمس والقمر وغروبهما ، بل قالوا : ان الحياة لا تستقيم على الأرض إلا بذلك (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أبنعمة الشروق أم نعمة الغروب أم غيرها ؟ .

(مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) . تطلق كلمة بحر على الماء الكثير عذباً كان أم غير عذب ، والمراد بالبحرين هنا مياه البحار والأنهار ، ومرج أي التقى طرفاهما واختلطتا ، والبرزخ الحاجز ، والمراد به هنا قدرة الله تعالى ، ولا يبغيان أي لا يبغي احدهما على الآخر ، فيغيره عما كان عليه . انظر تفسير قوله تعالى : « وهو الذي مرج البحرين هذا عذاب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً - ٥٣ الفرقان » ج ٥ ص ٤٧٢ .. ولكل من البحار والأنهار منافع ومغانم نخلق الله وعباده (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أبنعمة البحار أم نعمة الأنهار أم غيرها ؟ .

(يخرج منها اللؤلؤ والمرجان) . لقد حار أكثر المفسرين أو الكثير منهم في تفسير هذه الآية . ذلك بأنهم جزموا ان اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من البحر المالح ، مع ان الله سبحانه قال : « يخرج منها .. أي من العذب وغيره .. وقد تمحلوا في التساؤل والتخريج .. أما الرازي فقال : كيف يمكن الجزم بأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان إلا من الماء المالح ، والذين قطعوا المقاوز وداروا البلاد قد خفيت عليهم الأمور الأرضية فكيف بما في قعر البحار ؟ وهب ان الفواصين ما أخرجوا اللؤلؤ إلا من المالح وما وجدوه إلا فيه ، لكن لا يلزم من هذا ان لا يوجد في غيره .. فظاهر كلام الله أولى بالاعتبار من كلام الناس .

ونحن على هذا المنطق القويم ، ويؤيده قول الشيخ المراغي في تفسيره : « قد ثبت في الكشف الحديث ان اللؤلؤ كما يستخرج من البحر المالح يستخرج من البحر العذب ، وكذلك المرجان وان كان الغالب انه لا يستخرج إلا من الماء المالح (فبأي آلاء ربكما تكذبان) أي فبأي هذه النعم تكذبان .

ونُسب إلى الشيعة الامامية انهم يعتقدون بأن المراد بالبحرين علي وفاطمة ، وبالبرزخ محمد (ص) ، وباللؤلؤ والمرجان الحسن والحسين ، وأنا بوصفي الشيعي

الامامي أنفي هذه العقيدة عن الشيعة الامامية على وجه الجزم والاطلاق وانهم يحرمون تفسير كتاب الله تفسيراً باطنياً ، واذا وجد منهم من يقول : المراد بالبحرين علي وفاطمة الخ فانه لا يعبر إلا عن رأيه الخاص ، وقد جاء مثله في بعض تفاسير السنة ، من ذلك تفسير الدر المنثور للسيوطي الشافعي : « أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ان البحرين علي وفاطمة ، والبرزخ النبي والؤلؤ والمرجان الحسن والحسين ، وأيضاً أخرج هذا عن انس بن مالك » . وأغرب من هذا ان اسماعيل حفي نقل في تفسيره روح البيان عن بعض العلماء : ان نصف الثمانية الذين أشار اليهم سبحانه بقوله : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » هم أبو حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل .

(وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام) . الجوار السفن ، والمنشآت المصنوعات أو المرتفعات ، والأعلام الجبال ، والمعنى ان السفن تجري في الماء بما ينفع الناس . وتقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٣١ من سورة لقمان ج ٦ ص ١٦٨ (فسأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أنخلقكم وخلق مواد السفينة أم يجرأها في الماء أم غيره ؟ (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) . المراد بوجه الله ذاته تعالى ، وهو ، جلّت عظمته ، حي بالذات كما هو موجود بالذات .. وكل ما هو موجود بالذات لا يفنى ولا يتغير ، وهو سبحانه مصدر الحياة وواهبها (فسأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أنجلاله وعظمته أم بجوده وكرمه أم بغير ذلك من النعم .

الله والانسان وابن عربي :

لمحي الدين ابن عربي في الجزء الرابع من الفتوحات كلام حول قوله تعالى : « ذو الجلال والإكرام » هذا توصيفه : انما عطف سبحانه الاكرام على الجلال لأن الانسان إذا سمع وصف الله بالجلال دون الاكرام تملكه اليأس والقنوط من الوصول إلى الله تعالى لأنه لا يرى نفسه شيئاً في جنب العظمة الإلهية .. فأزال سبحانه هذا الوهم عن الانسان ، أزاله بعطف الاكرام على الجلال لأن الجمع بين هذين الوصفين معناه ان الله وإن كان عظيماً فإنه يكرم الانسان وينظر اليه بعين

العناية تفضلاً منه وكرماً ، ولما علم الانسان بمكانته هذه عند الله أحس بكرامته ، وشعر بأنه لو لم يكن كريماً لما اعتنى الله به هذه العناية .. وزاد تعظيماً لله لأنه علم بأنه عظيم عند الله .

ونعطف على قول ابن عربي ان من أنكر وجود الله فقد أسقط نفسه عن كل اعتبار ، وتكبر لذاته وكرامته من حيث لا يريد لأنه أساء لمن أوجده وكرمه واستحق منه العذاب « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون - ٨٢ القصص » .

(يسأله من في السموات والأرض) . المراد بالسؤال هنا الحاجة والافتقار ، والمعنى ان جميع الكائنات تفقر اليه سبحانه في بقائها وفي جميع حالاتها كما تفقر اليه في أصل وجودها ، وانه يمدّها بالبقاء في كل لحظة بحيث لو تخلّى عنها طرفه عين فما دونها لم تكن شيئاً مذكوراً (كل يوم هو في شأن) . المراد باليوم هنا الوقت من غير تحديد ، والمعنى ما من كائن إلا ويتنقل من حال إلى حال على مدى الأيام ، ولذا قيل : دوام الحال من المحال ، والكائن في جميع حالاته مفقر إلى الله تعالى ، فالقوي يفقر اليه في بقاء قوته ، والضعيف مفقر اليه لازالة ضعفه .. وليس معنى هذا ان يقعد الانسان عن السعي والعمل تاركاً الأمر إلى الله .. كلا ، فإن الله سبحانه قد أمر بالسعي وحث عليه وهو القائل : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى - ٣٩ النجم » وإنما معناه ان يعمل الانسان معتقداً ان وراءه قوة خفية تعينه على العمل وتمهد له سبيل النجاح (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟. أما يمدكم به من العناية في كل آن أم بغيره من النعم ؟.

لا تفنون إلا بسلطان الآية ٣١ - ٤٥ :

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

شَوَاطُ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
 فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
 تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ
 رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ *
 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ *
 يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *

اللغة :

المراد هنا بسفرغ لكم مجرد التهديد لأن الله سبحانه لا يشغله شأن ولا يصفه
 لسان ومعناه سنحاسبكم . والثقلان الانس والجان . ومن معاني الشواطى لب بلا
 دخان . ومن معاني النحاس دخان بلا لب . ووردة أي لونها كحمررة الورد .
 والدهان ما يدهن به . والسبا العلامة . والنواصي جمع ناصية وهي مقدم الرأس .
 والحميم الماء الحار . والآن الحاضر .

المعنى :

(سفرغ لكم ايها الثقلان) أي سنحاسبكم ، وهو تهديد ووعد لمن أذنب
 وتمرد من الانس والجان . وفي البحر المحيط لأبسي حيان الأندلسي « سمي الانس
 والجان بالثقلين لتقلها على وجه الأرض » ، وفي الحديث : اني تارك فيكم
 الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي « سمي بذلك لعظمها وشرفها » . (فبأي
 آلاء ربكما تكذبان) ؟ . أبقدرته تعالى على البعث والحساب والجزاء أم بماذا ؟ .
 والحساب والجزاء من أعظم النعم على الخلق وإلا كان المظلوم أسوأ حالا ومآلا من الظالم .

(يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفلوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) . أبداً لا نجاة لكم من لقاء الله ، ولا مهرب من أرضه وصمائه إلا ان تفروا من الله إلى الله بتوفيق منه إلى التوبة والاقلاع عن الذنب ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : « إلا بسلطان » لأن التوبة والانتقاط اليه تعالى قوة وحصن يقي الثائب المخلص من غضب الله وعذابه (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أبقدرته عليكم ام بتحذيره وانذاره ام بغير ذلك ؟ .

(يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) . قالوا : الشواظ لب بلا دخان ، والنحاس هنا دخان بلا لب ، ومهما يكن فإن المعنى المحصل من الآية هو الإشارة إلى أهوال الساعة وآلامها ، وان المجرم لا خلاص له من هذه الآلام والأهوال بشفيح ولا ناصر (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أبعذاب من طغى وبغى أم بماذا ؟ (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) . تذوب السماء بما فيها من كواكب كما يذوب الدهن على النار ، ويصبح لون هذا السائل كحمررة الورد .. والغرض من هذا التشبيه وما اليه مما جاء في سائر الآيات هو الإشارة الى خراب الكون ودماره يوم تقوم الساعة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ ومن أظلم وأشقى ممن كذب بالصدق وتعالى على الحق ؟ .

(فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان) . وإذا عطفنا على هذه الآية قوله تعالى : « وقضوهم انهم مسؤولون - ٢٤ الصافات » إذا فعلنا ذلك تبين لنا ان في يوم القيامة مواقف يسأل الناس في بعضها عما كانوا يعملون ، وفي بعضها لا سؤال ولا جواب بل انتظاراً للسؤال والحساب أو بعد الفراغ منه . انظر تفسير الآية ٦٥ من سورة يس ج ٦ ص ٣٢١ (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ أبموقف العرض للحساب أم بموقف الانتظار له ؟ وكلاهما ضنك وأليم ، ما في ذلك ريب .. ولكن الجزاء نعمة من الله حيث (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) . يؤخذ مبني للمجهول ، وبالنواصي مفعول نائب عن الفاعل وهم ملائكة العذاب ، والمعنى ان للمجرمين علامات تدل عليهم وتميزهم عن الصالحين ، وفوق ذلك تجمع ملائكة العذاب نواصيهم الى أقدامهم بالقيود والأغلال ، ويسحبونهم في النار على وجوههم (فبأي آلاء ربكما تكذبان) من المواعظ والزواجر .

(هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون) . هذا أبلغ جواب لمن كذب بعذاب الله ، وهو أن يلقي فيه : « ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون - ٤٢ سبأ » .

(يطوفون بينها وبين حميم آن) . ضمير بينها يعود الى جهنم ، والحميم شراب حار ، أما وصفه بالآن فإنه يوحي بأن هذا الشراب بلغ الغاية والنهاية من الحرارة حتى كأن المجرمين يشربون منه وهو على النار ، والمعنى لا عمل للمجرمين إلا التردد بين الجحيم وشراب الحميم (فبأي آلاء ربكما تكذبان) ؟ . بعذاب الجحيم أم بشارب الحميم ؟ وكل منهما نعمة من الله لأنه حكم العسل ، وسيف الحق .

هل جزاء الاحسان إلا الاحسان الآية ٤٦ - ٧٨ :

وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهَا عَيْنَانِ * تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَكَيِّفِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ أَسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ مِنْ قَبْلُهُمْ وَلَا جَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَمَمَاتٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهَا

عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ
وَرَمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا
تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا
تُكَذِّبَانِ * مُتَكَيِّتِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ *

المعنى :

بعد أن هلد سبحانه وتوعده من طفى وبهى آمن ووعد من اتقى وصدق
بالحسنى ، وعده بجنة تفوق الوصف بطعامها وشرابها وحورها وولدائها وأشجارها
وأناهارها وأثاثها وحليها .. إلى ما نعرف له مثيلاً وما لا نعرف .. وأكثر هذه
الآيات واضحة المعنى لا تحتاج إلى تفسير ، بالإضافة إلى أنها تكرر لما سبق ، لذا
نختصر في التفسير إلا إذا مست الحاجة .

(ولما خاف مقام ربه جنتان) . المراد بمقام الله انه قائم على كل نفس
يعلم سرها وجهرها . وعن الإمام جعفر الصادق (ع) : ان من علم ان الله يراه
ويسمع ما يقول فيحجزه ذلك عن القبيح فقد خاف مقام ربه .. وللمفسرين أقوال
في معنى الجنتين ، أقربها إلى الافهام انها حديثتان في الجنة لأن الجنة في اللغة
الحديقة ، ويؤيد ذلك قوله تعالى في وصف الجنتين : (ذواتا أفنان) أي أغصان
تمتد وتورق وتثمر (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ) ؟ . هل تكذبان يا معشر الجن
والانس بهذه النعمة التي ذكرتها ؟ . وكل سؤال يأتي بهذه الصيغة فالمسؤول عنه
هو نفس النعمة التي ذكرها سبحانه قبل السؤال - اذن - لا داعي لذكره وبيان
المسؤول عنه .

(فيها عينان تجريان) المعنى واضح ومع هذا قال أحد المفسرين : أي تسرحان.. وقال آخر : أي تجريان بين الشجر .. وقال ثالث : اسم احدهما التسميم ، واسم الأخرى السلسيل .. وقال رابع : تجريان لمن كانت عيناه تجريان بالدموع خوفاً من الله .. ولا مصدر لهذه التفسير إلا حرص أصحابها على الكلام.. .. ولماذا يحرصون على الكلام؟ لأنهم مفسرون .. (فيها من كل فاكهة زوجان) . للفاكهة الواحدة نوعان كالعنب والزبيب ، والتمر والرطب ، والتفاح السكري وغيره - مثلاً - (متكئين على فرش بطائنها من استبرق) وهو الحرير الغليظ (وجنى الجنتين دان) . الجنى الثمر، ودان قريب ، ومثله « قطوفها دانية - ٢٣ الحاقة » . (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثن أنس قبلهم ولا جان) . قال صاحب البحر المحيط : « ضمير فيهن عائد الى الجنان الدال عليهن جنتان في الآية السابقة ، اذ كل فرد له جنتان ، فصح أنها جتان كثيرة » أما ضمير قبلهم فيعود الى أزواج الحور ، وقاصرات الطرف صفة لموصوف مقدر ، وهو الحور، والمعنى ان الحور لا ينظرون الى غير أزواجهن ، وأيضاً هن أبكار كما خلقتن (كأنهن الباقوت والمرجان) بهاء وجمالاً .

الأجر حق والزيادة تفضل :

(هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) . كل ما يراه الناس حسناً أو احساناً فهو عند الله كذلك ، شريطة ان لا يأباه العقل السليم ولا ينهى عنه الشرع القويم ، وإلا فإن أهل الجاهلية كانوا يستحسنون عبادة الأصنام وظلم الضعيف بخاصة المرأة. حتى في عصرنا يستحسن الملايين عبادة الأصنام والانسان ، ويجعلون لله أولاداً وأنداداً .. وما من شك ان هذه من أقبح العادات .. فإذا عمل الانسان عملاً ، ورآه الناس حسناً ، ولم يرد فيه شيء من العقل والشرع - فإن صاحبه يستحق من الله الأجر والكرامة . ويزيده من فضله أضعافاً على ما يستحق : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - ٢٦ يونس » .

وقال جماعة من علماء الكلام : ان الثواب من الله على فعل الواجب تفضل لا مكافأة فيه ولا استحقاق . وقال آخرون : بل هو مكافأة واستحقاق . وقال الإمام

علي (ع) : « لو كان لأحد ان يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه ، ولكنه جعل حقه على العباد ان يطيعوه ، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهله . »

ومعنى هذا ان الله له وعليه ، ولا شيء أصرح في الدلالة على ذلك من قوله : « لو كان لأحد ان يجري ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه . »
فله سبحانه الطاعة على عباده ، وعليه ، جلت حكمته ، الأجر والمكافأة على مقدار العمل ، وما زاد فهو تفضل منه تعالى وتوسع . ويتفق هذا مع حكم العقل والقطرة ، فإن الناس كل الناس يرونك مفضلاً ومحسناً اذا اعطيت من عمل لك فوق أجرته واستحقاقه ، أما اذا أدبته أجرة عمله بلا زيادة ونقصان فأنت عندهم من الأوفياء ، لا من المحسنين الكرماء . هذا ، الى ان الاسلام بأصوله وفروعه يبتني على فكرة العدل ، والأجر على العمل حق واجب الأداء في منطق العدل وحكمه .
(ومن دونهما جنتان) . الضمير في دونهما يعود الى الجنتين في قوله تعالى :

« ولمن خاف مقام ربه جنتان » أي ان هناك جنتين أخريين : أوصافها أدنى من أوصاف السابقتين ، ومعنى هذا ان في الجنة درجات متفاوتات ، ومنازل متفاوتات تبعاً لدرجات المؤمنين في إيمانهم ، وتفاوت العاملين في أعمالهم ، وهذا ما يستدعيه منطق الحق ومبدأ العدل ، وبه يتبين ان الجنتين في قوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » هما للذين أقوى إيماناً ، وأنفع أعمالاً ، وأكثر جهاداً من غيرهم ، وان الجنتين في قوله : « من دونهما جنتان » هما للذين أقل عملاً وجهاداً من أصحاب الجنتين الأولين (مدهانتان) أي يميل لونهما الى السواد من شدة الخضرة (فيها عيانان نضاختان) ينبع منها الماء ، أما العيانان المتقدمتان فلنهما تجريان ، والنضج دون الجري وكما ان الجنتين هنا دون الجنتين هناك كذلك العيانان .

(فيها فاكهة ونخل ورمان) . قال بعض المفسرين : ان النخل والرمان ليسا من الفاكهة ، ولذا عطفوا عليها . وقال الرازي : الفاكهة منها أرضية كالبطيخ ونحوه ، ومنها شجرية كالنخل وغيره ، وعليه يكون عطف النخل والرمان على الفاكهة من باب عطف الخاص على العام (فهن خيرات حسان) . نساء خيرات

في أخلاقهن حسان في خلقهن (حور مقصورات في الخيام) . قال صاحب مجمع البيان : أي محبوسات في الحجال ، وهي قباب تُضرب على النساء الملازمات للبيوت . وقال غيره : بل المراد الخيام بالذات ، فإن لبعضها من الجبال والروعة ما ليس لكثير من البيوت .. وهذا أقرب لظاهر اللفظ من الحجال (لم يطمئنهن انس قبلهم ولا جان) أي انهن ابتكار . وتقدم بالحرف في الآية ٥٦ من هذه السورة (متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان) . الرفرف الوسادة أي المخدة أو المسند ، والعبقري ضرب من البسط (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) . لله العظمة والكبرياء ، ومنه الإكرام والإفضال على خلقه . انظر فقرة « الله والانسان وابن عربي » عند تفسير الآية ٢٧ من هذه السورة .

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

٩٦ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إذا وقعت الواقعة الآية ١ - ٢٧ :

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِمَنْ يُوَفِّعُهَا كَافَّةً * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ
الْأَرْضُ رَجًا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا * وَكُنُتُمْ
أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْيَمِينَةِ * مَا أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ * وَأَصْحَابُ
الْمَشْأَمَةِ * مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ *
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَى سُرُرٍ
مَوْضُونَةٍ * مُتَكِيِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ *
بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ *
وَقَافِكَةٍ * ثَمَّا يَتَخَوَّرُونَ * وَلَحْمٍ طَيْرٍ * ثَمَّا يَشْتَبُونَ * وَخُورٍ عَيْنٍ * كَأَمْثَالِ
اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
وَلَا تَأْنِيًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا *

اللمعة :

الواقعة القيامة . وبُسِّتْ فُتت . وهبأ مبتأ غباراً متفرقاً . وأزواجاً أصنافاً . وأصحاب المينة هم الذين يُعطون كتبهم بإيمانهم . وأصحاب المشأمة هم الذين يعطونها بشأهم . والثلة الجماعة . وموضوطة منسوجة . وأكواب جمع كوب وهو نسيج ذو عروة له ولا خرطوم . وأباريق جمع ابريق له عروة وخرطوم . وكأس إزاء يشرب فيه . ومعين ظاهر للعيان أو مأخوذ من عين لا تنضب . لا يصدعون لا يصيبهم من شربها أي شيء من الصداغ وغيره . ولا يتزعمون لا يقنئ شربها . والمختون المصون . واللغو سقط القول . والتأثم ما يستوجب الأثم .

الإعراب :

خافضة رافعة خبر مبتدأ محذوف أي هي خافضة ، والجملة جواب إذا وقعت خلافاً للكثير من المفسرين لأن المعنى يستقيم على هذا الإعراب ، وليس لوقعتها كاذبة اعتراض بين الشرط وجوابه . وإذا رجعت بدل من إذا وقعت . فأصحاب المينة مبتدأ أول و « ما » استفهام مبتدأ ثان وأصحاب المينة خبر « ما » والجملة خبر المبتدأ الأول ، ومثله وأصحاب المشأمة ، والرباط إعادة المبتدأ بلفظه . والسابقون مبتدأ والثانية تأكيد ، وأولئك مبتدأ ثان والمقربون خبر « السابقون » . وفي جنات متعلق بمقدر صفة . وعلى سرر متعلق بمحذوف حالاً . متكئين حال من الأولين متعلق بمقدر صفة . وفي جنات متعلق بمقدر صفة . وعلى سرر متعلق بمحذوف أي هم ثلة . ومن الضمير الذي تعلق به على سرر متقابلين حال من ضمير متكئين . وكأس وفاكهة ولحم عطف على أكواب . وحوور عين مبتدأ والخبر محذوف أي ولهم حور عين . وجزاء مفعول من أجله لفعل مقدر أي يفعل الله ذلك جزاء . وقيلاً استثناء منقطع . وسلاماً بدل من قيل .

المعنى :

(إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة) المراد بالواقعة هنا القيامة ، والمعنى

ان الناس في الحياة الدنيا بين مصلق ومكذب بأمر الآخرة ، أما إذا جاءت ووفيت كل نفس ما كسبت فعندئذ تعرف ولا تكذب..كيف والآخرة (خافضة رافعة) .
تخفف المجرمين ، وترفع المتقين (اذا رجعت الأرض رجاً وبست الجبال بساً فكانت هباءً منثباً) . يشير سبحانه بهذا الى خراب الكون ، فالأرض تدمرها الزلازل ، والجبال تتحول الى غبار .

(وكنتم أزواجاً ثلاثة) . يجمع الله الناس يوم القيامة ، ويجعلهم ثلاثة أصناف :

١ - (فأصحاب المينة ما أصحاب المينة) . وهم الذين يُعطون غداً كتبهم بإيمانهم ، قال تعالى : « فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه اني ظننت اني ملائق حسابيه فهو في عيشة راضية في جنة عالية - ٢٠ الحاقة » . وهذا الصنف وان كان من الناجين ، ولكنه دون الصنف الثالث .

٢ - (وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) . وهم الذين يُعطون كتبهم بشألمهم ، قال سبحانه : « وأما من أوتي كتابه بشأله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه يا ليتها كانت الفاضية - ٢٧ الحاقة » .

٣ - (والسابقون السابقون) . أطلق سبحانه هنا سبق ولم يبين ان شيء يسبقون ويسرعون ، ولكن بينه في مكان آخر : « ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم برهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة انهم الى ربهم راجعون اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون - ٦١ المؤمنون » فالسابقون - اذن - هم الذين يؤمنون بالله وحده لا شريك له ، وباليوم الآخر ، ولا يتوانون عن طاعته خوفاً من غضبه وعذابه ، ويضحون بالغالي في سبيله طلباً لمرضاه وثنائه (أولئك المقربون في جنات النعيم) . لهم الحظ الأوفر من التقريب الى جلاله تعالى ، والنصيب الأكبر من نعيمه .

(ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) . السابقون الذين لهم عند الله المترلة العليا هم جماعة كثيرة من الأولين ، وقليلة من الآخرين .. واختلف المفسرون في من هم الأولون والآخرون في هذه الآية ؟ . فقال فريق منهم : ان المراد بالأوليين من آمن وسبق الى الخيرات قبل محمد (ص) . وقال الفريق الآخر : ان كلاً من الأولين والآخرين من أمة محمد (ص) .. وفي رأينا ان الأولين اشارة الى عصر

الاسلام الذهبي يوم كان له قوة وسلطان، وكان المسلمون يؤمنون به قولاً وعملاً، ويدافعون عنه بالأرواح والأموال، وان الآخرين اشارة الى القلة القليلة من المؤمنين في العصور المتأخرة التي يصدق عليها قول الإمام علي (ع) : « يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه من القرآن إلا رسمه ، ومن الاسلام إلا اسمه ، مساجدهم يومئذ عامرة من البنى خراب من الهدى ، سكانها وعمارها شر أهل الأرض، منهم تخرج الفتنة واليهم تأوي الخطيئة .. يقول الله تعالى : فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة اترك الخليم فيها حيران . . وأية فتنة وبلاء أشد وأعظم من الصهيونية والاستعمار .

(على سرر موضونة) منسوجة بما يتناسب مع أجساد أهل الجنة النواغم ، ووجوههم النواضر (متكئين عليها متقابلين) لا أشغال ولا هموم عيال (يطوف عابهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين) . أقذاح من عمل مصفى ، وكأس من خر لذة للشاربين ، وأباريق من رحيق مختوم .. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . (لا يصدعون عنها ولا يترفون) . لا صداع رأس، ولا ذهاب عقل من شربها ، ولا نهاية لما (وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحمور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون) . شراب نقي ، ولحم طري ، والفاكهة ألوان ، والحمور عين وحسان ، وخدم وحشم وفراش وأسرّة ، وراحة واطمئنان، لا تبعات ولا كربات .. كل ذلك (جزاء بما كانوا يعملون) للخير والمصلحة العامة بلا رياء ولا تطيل وتزمر (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً) . ومن أين يسمعون المهرج والإثم ، ولا ناطق في الجنة إلا بخير ؟ كل هذه النعم هي للسابقين ، أما أصحاب اليمين فقد بين سبحانه نصيبهم فيما يلي :

أصحاب اليمين الآية ٢٨ - ٤١ :

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ* فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ* وَظَلِّحٍ مَخْضُودٍ* وَظِلٍّ مَمْدُودٍ* وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ* وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ* لَا مَقْطُوعَةٍ

وَلَا تَمْنُوْا عِيَةً * وَفُرْشٍ مَّرْفُوْعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ
أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِيْنِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِيْنَ * وَثَلَاثَةٌ
مِّنَ الْآخِرِيْنَ *

اللغة :

السدر شجر معروف . ومغضود لا شوك له . ومن معاني الطلح الموز . ومنضود
ونضيد . ونضد بمعنى واحد أي متسقى والمراد هنا ان قطوف الموز متسقة بالثمار
من أعلاها الى أسفلها . وعُرُبًا جمع عروب وهي المرأة المتودة الى زوجها .
وأترابًا جمع ترب أي مساويات في السن .

الإعراب :

أصحاب اليمين مبتدأ أول وما أصحاب اليمين هـ ما هـ استفهام مبتدأ ثان
وأصحاب اليمين خبر والجملة خبر المبتدأ الأول . وفي سدر مغضود خبر لمبتدأ
مقدر أي هم كائنون في سدر مغضود وما بعده عطف عليه . وعرباً صفة
للأبكار . ولأصحاب اليمين متعلق بأنشأناهن . وثلة خبر لمبتدأ محذوف أي هم ثلة .

المعنى :

(وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) . بعد ان ذكر سبحانه ما أعده للسابقين
من الكرامة والنعيم ذكر ما أعده لمن هم أدنى إيماناً من السابقين . وأسماءهم أصحاب
اليمين لأنهم يؤتون كتبهم بإيمانهم كما قدمنا ، وهذا هو نصيبهم من الجنة
(في سدر مغضود) لا شوك له . (وطلح منضود) وهو الموز الذي نضد
ثمره بترابك بعضه على بعض (وظل ممدود) الى غير أجل ، فإن العرب تقول

لطويل الأمد : ممدود (وماء مسكوب) يجري بلا انقطاع (وفاكهة كثيرة)
كفاً وكيفاً (لا مقطوعة ولا ممنوعة) . ان شجر الدنيا يثمر في آن دون آن ،
وثمره لصاحبه يمنع عنه من شاء ، أما شجر الآخرة فثمره دائم ، وفي متناول
كل يد (وفرش مرفوعة) عالية ووثيرة ، وطريف قول بعض المفسرين : ان
علو السرير يبلغ مسافة خمسمائة سنة .

(إنا أنشأناهم إنشاء فجعلناهم أبقاراً عرباً أنرباً) . أعد الله سبحانه لأصحاب
اليمن نساءً أبقاراً يتحبن لأزواجهن ، وكلهن في سن واحدة ، وقدرها أحد
المفسرين بثلاث وثلاثين سنة ، أما قامة الواحدة منهن فقدرها بستين ذراعاً في
سبعة أذرع تماماً كقامة آدم على حد قوله .. وغرضنا من هذه الإشارة التنبيه الى
ان بعض التفسير لا يجوز الاعتماد عليها لأنها قول بلا علم (لأصحاب اليمن)
متعلق بأنشأناهم ، وكرر سبحانه أصحاب اليمن لمجرد التأكيد بأن ما ذكره هو
لأصحاب اليمن (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين) الكلام مستأنف ، ومعناه
ان أصحاب اليمن بعضهم من عصر سابق ، وآخرون من عصر لاحق ، وهم
بطبيعة الحال أقل عدداً من أصحاب الشمال الذين يشير اليهم في الآيات التالية ، هم
أقل لأن الصالحين قليل : ١ وقليل من عبادي الشكور - ١٣ سبأ .

أصحاب الشمال الآية ٤٢ ٥٧ :

وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ * فِي سَعْمٍ وَحِمٍ * وَظَلٌ مِنْ
يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا
يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً
وَعِظَافاً أَتِنَا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ آتَاؤُنَا الْأُولُونَ * قُلْ إِنْ الْأَوَّلِينَ
وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَهْلُ الصَّالُونَ

الْمُكَذِّبُونَ * لَا يَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ ذُقُونُمْ * قَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ *
فَتَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَتَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهَمِيمِ * هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ
الدِّينِ *

اللفظ :

السموم ربيع حارة تنفذ في مسام البدن . والحميم الماء الحار . واليحموم الأسود
البيهم . مترفين منعمين . والحنت العظيم نقض العهد المؤكد باليمين أو الذنب
العظيم . والهمم الإبل يصيبها داء العطش تشرب ولا تروى .

المعنى :

(وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال) . ذكر سبحانه أولاً ما أعدّه للسابقين
من الأجر العظيم ، ثم ما أعدّه لأصحاب اليمين من رحمة وثواب ، ويذكر في
الآيات التي نحن بصددّها ما يقاسيه أصحاب الشمال من ألوان العذاب، منها أنهم (في
سموم وحميم) . تلفحهم ربيع ساخنة محرقة تنفذ الى داخل الجسم فتسمم اللحم
والدم . ويشربون ماء يغلي في البطون (وظل من يحموم) . ويطلق اليحموم على
الأسود البيهم من كل شيء : وعلى الدخان الكثيف ، ويصح المعنى على أحدهما
وعليهما معاً (لا بارد ولا كريم) . اليحموم ظل ، ولكنه لا يجلب برداً ولا
يدفع حرّاً تماماً كالمستجير من الرمضاء بالنار .

(أنهم كانوا قبل ذلك مترفين) . طغوا وبغوا على عباد الله وبلادهم ، وسلبوا
وسلبوا أوقات الخلائق وأرزاقهم ، وتنعموا بها كما يشتهون من لباس أنيق ، وطعام
هنيئ ، وشراب سائغ ، ومسكن فارح ، فكان جزاؤهم عند الله عذاب الحريق ،
وشراب الحميم ، وطعام الزقوم ، وريح السموم ، وظل من يحموم (وكانوا

يصرون على الحنث العظيم) . قيل : المراد بالحنث العظيم الذنب العظيم ، وهو الشرك ، وغير بعيد ان يكون الحنث اشارة الى اصرارهم على الإيمان الكاذبة بأنه لا بعث ولا جزاء كما حكى سبحانه عنهم ذلك في الآية ٣٨ من سورة النحل : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » . وقسمهم هذا نتيجة لشركهم ، وعليه يصح تفسير الحنث العظيم بالشرك .

(وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون) . قالوا ساحرين : أينقلب التراب انساناً ؟ . ونسوا ان الله خلقهم من تراب ثم من نطفة (قل ان الأولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم) . قل لهم يا محمد : أجل ، ان الله يجمع غداً الخلائق لنقاش الحساب ، وجزاء الأعمال ، ولو تركهم سدى بلا رادع ولا سائل لكان ظالماً وعابثاً .. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وتقدم مثله مراراً ، منها في الآية ٥ من سورة الرعد ج ٤ ص ٣٧٨ والآية ٤٩ من سورة الإسراء و الآية ٨١ من سورة المؤمنون .

(ثم انكم أبها الضالون المكذبون) . ضلوا عن طريق الهدى ، فكذبوا بالحق ، ونازعوا بالجهل ، فكان جزاؤهم ومصيرهم (لآكلون من شجر من زقوم فالثون منها البطون) . ونعترف بأننا نجهل حقيقة هذه الشجرة ، وما أكثر ما نجهل .. ولكننا على علم اليقين بأنها تشير الى سوء العذاب ، وقد شبه سبحانه طلوعها برؤوس الشياطين في الآية ٦٢ من سورة الصافات . انظر ج ٦ ص ٣٠٤ (فشاربون عليه من الحميم) . طعامهم أمر من العلقم وأنثن من الجيف ، وشرابهم آجن ساخن (فشاربون شرب الهميم) وهي الابل المصابة بالاستسقاء أو داء العطش لا يرونها شيء (هذا نزلهم يوم الدين) . هذا اشارة الى حال أصحاب الشمال ، ويوم الدين يوم القيامة ، والنزل ما يُبعد للنازل من مأكل ومشرب ، وهو شر نزل طعاماً وشراباً ولباساً وفراشاً .. وفوق ذلك تُغل الأيدي الى الأعناق . وتفترق النواصي بالأقدام .. نعوذ بالله من سوء العاقبة والمصير .

أفرايتم ما تحوّلون الآية ٥٨ - ٧٥ :

تَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ

أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ *
 عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ
 الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ
 الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ *
 بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ
 مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا
 تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ
 الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَفِتْنَةً لِلْمُقِيمِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ
 رَبِّكَ الْعَظِيمِ *

اللغة :

نموتون تغدقون المني في الأرحام . بمسبوقين مغلولين . نبديل أمثالك نأني
 بخلق مثلك . النشأة الأولى الحلقة الأولى . وحطاماً هشياً . وتفكّهون تتعجبون .
 ومغرمون ملزمون بالغرامة . وأجاجاً ملحاً مرأ . تورون تقدحون . وتذكرة موعظة .
 ومتاعاً منفعة . والمقوون هم الذين يتزولون القواء أي القفر . والأولى ان يراد
 بالمقوين المستمتعون كما يأتي .

الاهراب :

فلولا تصدقون . فلولا تذكرون « لولا » طلب بمعنى هلا . والمصدر من ان

نبدل متعلق بمسبوقين . وجملة إنا لمفردون مفعول لقول مقدر .

المعنى :

(نحن خلقناكم فلولاً تصدقون) ؟ . آمنوا وصدقوا بأن الله خلقهم ، ولكنهم أنكروا وكذبوا أنه يعيدهم بعد الموت للحساب والجزاء . لأن الأول في عقيدتهم ممكن ، أما الثاني فستحيل .. فرد عليهم سبحانه بأن ابتداء الخلق واعادته بعد الموت هما من باب واحد بالنسبة الى قدرة الله تعالى: بل الاعادة أهون لأن الخلق إيجاد من لا شيء ، والاعادة جمع لأجزاء متفرقة . فبإلزامكم . وهذه هي الحال ، أحد أمرين : إما الاعتراف بهما معاً ، وإما انكارهما معاً ، ومن اعترف بأحدهما دون الآخر فقد ناقض نفسه بنفسه ، وبسبب هذا بدليل التلازم بين شيئين لا ينفك أحدهما عن الآخر بحال ، ولذا يستدل بأحدهما على الثاني سلباً وإيجاباً . ثم ضرب سبحانه أمثلة من خلقه يدل وجودها على امكان المعاد وهي :

١ - (أفرايتُم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) ؟ . من الذي خلق من منيكم بشراً سوياً بجميع أعضائه وغرائزه ؟ أنتم أم الله ؟ . لقد قدّم المني في رحم المرأة وانتهى دوركم ولم تتعهدوه بشيء اطلاقاً .. فمن الذي صير المني علقه ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاماً ، وكسا العظام لحماً الخ ؟ . فإن قلتم: كل ذلك من عمل الطبيعة وحدها . قلنا : ومن أوجد الطبيعة ؟ . فإن قلتم: أوجدت نفسها بنفسها . قلنا : من الذي وهبها الحياة والاحساس والادراك ؟ . وإن قلتم : هي . قلنا : أنها صماء عمياء وفاقد الشيء لا يعطيه . وإن قلتم : نشأت الحياة في المادة من غير قصد . قلنا : وعليه فإن كلامكم هذا صدر عنكم من غير قصد !... ان العقل لا يستسيغ أي تفسير للحياة ونظام الكون إلا بعلة فاعلة عاقلة وجدت من غير فاعل ، ولا يمكن الارتقاء في سلسلة العال الى ما لانهاية وإلا لم يكن للوجود عين ولا أثر .

(نحن قدرنا بينكم الموت) ان مالك الموت هو مالك الحياة . والمضي هو الموجد (وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيها لا تعلمون) . ان الله سبحانه لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب ، وهو على كل شيء قدير ، وبقدرته تعالى

نقل الخلق من العدم الى الوجود ، وبها ينقلهم الى عالم لا يعرفون عنه شيئاً ، ولو أراد سبحانه أن يستبدل بالعصاة من خلقه قوماً مطيعين لفعل ولا راد لما أراد ، وفيه تهديد ووعيد لمن أعرض وتولى عن دعوة الحق : « وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم - ٣٨ محمد » . (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) . علمتم بأننا خلقناكم من لا شيء فهل نعجز عن جمع أجزاءكم بعد تفريقها واعادتها الى ما كانت عليه ؟ . وأبلغ تفسير لهذه الآية قول الإمام علي (ع) : عجبت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى .

٢ - (أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) ؟ . الانسان يبلر ويفرس ويحراث ويسقي ما في ذلك ريب .. أما البذر والفرس والماء والأرض والنمو ، أما هذه وغيرها كالشمس والهواء فنأين ؟ . فلان قالوا : انها من فاعل غير عاقل . قلنا لهم : وعليه فقولكم هذا من قائل غير عاقل (لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تفكهن) . الماء في جعلناه يعود للزرع المفهوم من قوله تعالى : « ما تحرثون » والحطام الهشيم قال تعالى : « فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح - ٤٥ الكهف » وتفكهن تتعجبون مما حل بزرعكم من الآفات وتقولون : (إنا لمفرمون) قد تعبنا كثيراً وأنفقنا كثيراً على هذا الزرع ، ولزمنا من أجله ديون وغرامات ، ولم تنتفع بشيء .. وتقولون أيضاً (بل نحن محرومون) من الخير والرزق ، ولا شيء آلم للنفس من احساسها بالحرمان .

٣ - (أفرايتم الماء الذي تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) ؟ المزن السحاب ، ويشير به سبحانه الى أنه هو الذي أوجد في الطبيعة أسباب المطر ، والمعنى : وهذا الماء الذي هو أصل الحياة ، ولا غنى عنه بحال ، هذا الماء من الذي أوجد أسبابه في الطبيعة وأحكمها ؟ أنتم أم الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً ؟ وقد نبه سبحانه في كثير من الآيات الى أنه يحيي الموتى تماماً كما يحيي الأرض بالمطر : « ومن آياته انك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي أحياها لمحيي الموتى انه على كل شيء قدير - ٣٩ فصلت » . (لو نشاء لجعلناه اجاجاً فلولا تشكرون) ؟ الاجاج هو الماء الذي بلغت

ملوحته حداً جعله مرأ كالعلقم ، والمعنى : لو أراد الله أن يجعل الماء ملحاً أجاجاً لا ينفع به في شرب ولا زرع لفعل ، ولكن جعله عذباً فراناً رفقاً بكم ورحمة لكم ، ومع ان هذه النعمة تستوجب الشكر بطبعها فإن الله يجزي الشاكرين .

٤ - (أفرايتم النار التي تورون) ؟ والنار نعمة تماماً كالماء ، ولولاها لما تقدم الانسان خطوة واحدة في حياته ، وبقي الى يومه الأخير يعيش مع الوحوش في الغابات والمغاور .

(أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) ؟ للنار أسباب شتى ، منها القدح بزناد الخشب أو الصلب أو بالحجر ، ومنها غير ذلك مما يكتشفه العلماء في المستقبل أو لا يكتشفونه .. الله أعلم ، وكذلك الوقود ، منه الشجر والفحم الحجري والبترول والكهرباء والذرة والشمس .. الى ما الله به أعلم .. وجاء ذكر الشجر في الآية على سبيل المثال دون الحصر، قال المفسرون : ان العرب كانوا يستخرجون النار من الزناد ، وهو عبارة عن عودين يحك أحدهما بالآخر ، ويسمى الأعلى زنداً والأسفل زنده .. وقد ضرب الله مثلاً لاستخراج النار بما يتفق وحياة العرب آنذاك .

(نحن جعلناها تذكرة) موعظة تُذكر بالبعث لأن من أخرج النار من الشجر الأخضر يحيي الخلق بعد موته (ومتاعاً للمقوين) والمراد بالمتاع المنفعة . قال الطبري : هـ اختلف أهل التأويل في معنى المقوين ، فن قائل : انهم المسافرون . وقائل : انهم المستمنعون هـ . وهذا القول أرجح من الأول لأن النار ينتفع بها المسافر والمقيم (فسبح باسم ربك العظيم) . الخطاب للنبي (ص) والمقصود العموم ، والمعنى نزه الخالق الأعظم عن كل ما لا يليق بعظمته . والمسلمون يقرأون هذا التيسيح في ركوعهم ، أما سبّح اسم ربك الأعلى فيقرأونه في سجودهم .

لا يحس الا المطهرون الآية ٧٦ - ٩٦ :

فَلَا أُقِيمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ

كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ * أَقْبَهُدَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ
 تُكَذِّبُونَ * فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ
 أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ * وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ *
 تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ
 وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ
 مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ
 مِنْ حَرِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَعِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ
 رَبِّكَ الْعَظِيمِ *

اللفظة :

مواقع النجوم مواضعها وأماكنها . ومكنون مصون . ومدھنون من المداهنة ،
 نقول : داهنه أي خدعه وأظهر له خلاف ما أضمر . والحلقوم موضع النفس
 ومجرى الطعام . غير مدینین أي غير محاسبين ولا مجزيين . وروح وريحان كناية
 عن راحة الروح والجسم . وتصلية الجحيم أي صالي النار ومعذب بها . وحق اليقين
 واليقين الحق بمعنى واحد ، وهو اليقين المطابق للواقع الذي لا شك فيه .

الإعراب :

قال أكثر المفسرين : ان «لا» في «فلا أقسم» زائدة إعراباً مثل «لئلا يعلم أهل

الكتاب : « أي ليعلم ، ومثل « ما منعك الا تسجد » أي ان تسجد . لا يمه
 نهي بصيغة النفي ، وانشاء بصيغة الإخبار . فهذا الحديث متعلق بـ « مدهنون » .
 ورزقكم على حذف مضاف أي شكر رزقكم . والمصدر من أنكم تكذبون مفعول
 ثانٍ لتجعلون أي تجعلون الشكر تكذيباً . فلولا بمعنى هلا ودخلت على فعل مقدر
 أي فلولا ترجعونها . والضمير المستتر في بلغت يعود الى النفس التي دل عليها
 سياق الكلام . واذا هنا لا تتضمن معنى الشرط ، بل هي بمعنى حين أي فلولا
 ترجعونها حين بلغت الخلقوم . واما ان كان من المقربين اسم كان مقدر أي ان
 كان المتوفى من المقربين . فروح مبتدا والخبر مقدر أي فله روح . فسلام مبتداً
 ولك خبر والخطاب لصاحب اليمين . فنزل مبتداً والخبر محذوف أي فله نزل .
 وحق اليقين من باب اضافة الشيء الى نفسه او الصفة الى الموصوف مثل مسجد
 الجامع .

المعنى :

(فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم) . أشرنا في فقرة
 الاعراب الى أن أكثر المفسرين قالوا : ان « لا » هنا زائدة ، وقال آخرون :
 انها أصل ، وان المعنى لا أقسم لأن الأمر أوضح من أن يحتاج الى قسم . والصحيح
 الأول بدليل قوله تعالى : « وانه لقسم لو تعلمون عظيم » اي انه تعالى قد أقسم
 بالفعل ، وان قسمه عظيم ، وعند تفسير الآية ١ من سورة الصافات ج ٦ ص ٣٣٠
 قلنا : ان الله أن يقسم بما شاء من خلقه لأن كل مخلوق يدل على وجود خالقه
 وعلمه وحكمته ، فكيف إذا كان للمقسم به أثره البالغ في اتقان الكون ونظامه ،
 وصيانتها من الخراب والدمار كوضع النجوم في مواضعها وترتيبها في أماكنها بحيث
 لو حاد نجم منها عن مكانه قيد شعرة لانهار الكون وذهب كل شيء ، وقوله
 تعالى : « لو تعلمون » يومئذ الى ان أكثر الناس يجهلون هذه الحقيقة خاصة
 أهل المصور الأولى .

الاسلام وقادة الفكر الأوروبي :

(انه لقرآن كريم) . أجل، ان القرآن كريم يغني عن كل مرشد ودليل، ويشفي من داء الجهل والضلال ، ويهدي الى منازل الكرامة والسلامة ، ويحرر من قيود الظلم والعبودية .. أما السر لأوصافه هذه وكثير غيرها فلأن القرآن الكريم يستجيب لكل حاجة من حاجات الحياة، ويربط الدين بالعمل في الدنيا حياة طيبة عادلة لا مشاكل فيها ولا عدوان .. حتى سعادة الآخرة لا يناها إلا من أخلص وعمل صالحاً .. أبداً لا طريق الى الله ، ولا الى النجاة من غضبه وعذابه إلا العمل النافع : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض - ١٨ الرعد » .

ومن هنا أجمع المسلمون قولاً واحداً على ان الله سبحانه ما شرع ولن يشرع حكماً إلا لخير الانسان ومصلحته ، وانه من المستحيل أن يشرع حكماً فيه ضرر على أحد أبداً كان ، وانه اذا نُسب الى شريعة القرآن حكمٌ لا يتفق مع هذا المبدأ فهو من جهل الجاهلين أو دسائس الوضاعين ، أما الآيات الدالة على ذلك فتعد بالعشرات ، منها قوله تعالى على لسان نبيه شعيب : « ان اريد إلا الاصلاح - ٨٨ هود » وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم - ٧ المائدة » وقوله : « ان الله بالناس لرؤوف رحيم - ١٤٣ البقرة » وقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٣٠ الروم » .

هذا هو الاسلام في حقيقته وواقعه ، وفي كتاب الله وعلمه ، لا شيء فيه إلا ما يحتاج اليه الانسان ويطلبه بغريزته وفطرته النقية الصافية التي ولد عليها ، وتميز بها عن جميع الكائنات ، لا ما يتطلبه الطمع والجشع ، والبغى والعدوان .. وقد أدرك هذه الحقيقة الكثير من فلاسفة الغرب وشعرائه وأدبائه ، فأكبروا الاسلام وأشادوا بالرسول الأعظم (ص) لا لشيء إلا بدافع من حب الخير والحق والعدل ، ولو اتسع لنا المقام لذكرنا الكثير من أقوالهم، ولكن ما لا يدرك كله أو جله فلا يترك كله ، ونختار من بين اولئك الأعلام : « جوته » الألماني و « لامرتين »

الجزء السابع والعشرون

الفرنسي و «تولستوي» الروسي و «برنارد شو» الانكليزي، وهم كما ترى مختلفون في ثقافتهم وقوميتهم وانجاساتهم .

قرأ «جوته» الشاعر الالماني الكبير - القرآن ، وأدرك ما فيه فأكره واحتفل بلبلة القدر التي نزل فيها القرآن ، وقرأ تاريخ الرسول الكريم (ص) فألف التشيد المحمدي ، وكتب مسرحية محمد (ص) ، ومن أقواله : اذا كان الاسلام هو التسليم لله لا للأهواء والأغراض ففي الاسلام نحياء ، وعليه نموت .

وقال «لامرتين» شاعر فرنسا العظيم : « ان كل ما في حياة محمد (ص) يدل على انه لم يكن يضمّر خداعاً أو يعيش على باطل .. انه هادي الانسان الى العقل ، ومؤسس دين لا فرية فيه » .

وقال «تولستوي» الفيلسوف الروسي الانساني : « مما لا ريب فيه ان محمداً خدّم الهيئة الاجتماعية خدمات جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى مئات الملايين الى نور الحق والسكينة والسلام ، ومنح للانسانية طريقاً للحياة ، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا انسان أوتي قوة وإلهاماً وعوناً من السماء » .

وقال برنارد شو الأديب الانكليزي العالمي : « يجب أن يُدعى محمد منقذ الانسانية .. انني أعتقد انه لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجح في حل مشاكله بطريقة تجلب الى العالم السلام والسعادة .. ان محمداً هو أكمل البشر من الغابرين والحاضرين ، ولا يتصور وجود مثله في الآتين » .

وقول برنارد شو: « محمد أكمل البشر من الغابرين والحاضرين » معناه ان رسالة محمد (ص) لا تغني عنها أية رسالة من رسائل الأنبياء السابقين .. حتى عيسى و ابراهيم . أما قول برنارد شو : « ولا يتصور وجود مثل محمد في الآتين » فعناه لا أحد يستطيع بعد محمد أن يأتي الانسانية بجديد يفيدها وينفعها أكثر مما أتى به محمد ، ومعناه أيضاً ان دعوة محمد ودين محمد يغني عن كل دين وكل دعوة وشريعة ونظام ، ولا يغني عنه شيء .

وكلنا يعلم ان برنارد شو في طليعة قادة الفكر الأوروبي في القرن العشرين ، عصر النيرة والفضاء، وان شهادته هذه هي نتاج البحث الطويل ، والفكير العميق ، والتحليل الدقيق.. وهذه الشهادة من برنارد شو هي تعبير ثانٍ أو تفسير لقوله تعالى:

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين - ١٠٧ الأنبياء » أي كل العالمين في كل زمان وكل مكان . وأيضاً هي تفسير لقوله سبحانه : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين - ٤٠ الأحزاب » وأيضاً هي أي شهادة برناردشو دليل قاطع على صدق المسلمين في عقيدتهم « بأن محمداً هو أكمل البشر من الغابرين والحاضرين ، ولا يتصور وجود مثله في الآئين » على حد قول برناردشو .

وبعد ، فما هو رأي الشباب المتكبرين لدين آباؤهم وأجدادهم ؟ ما رأيهم في قول برناردشو ؟ وهل هم أعلم وأحرص منه على الانسانية ، ام انهم يتكلمون بوحى من أعداء الاسلام والانسانية من حيث لا يشعرون ؟

(في كتاب مكنون) أي مصون . واختلفوا : من أي شيء مصون ؟ فقال بعضهم : مصون من التراب والغبار !.. كما في تفسير الطبري . وقال آخرون : انه مصون في اللوح المحفوظ .. وفي رأينا انه لا موجب لهذا النزاع والخلاف لأن الله سبحانه يبين معنى الصيانة بقوله : (لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين) أي ان القرآن وحي من الله لا من الشياطين ، وما هو بالسر ولا أساطير الأولين كما يزعم الجاحلون .

واتفق فقهاء المذاهب على تحريم مس كتابة القرآن إلا للمتطهر المتوضئ ، واختلفوا في كتابته وتلاوته لغير الطاهر . فقال الحنفية : لا تجوز كتابته وتجويز تلاوته له عن ظهر قلب . وقال الشافعية : لا تجوز كتابته ولا تلاوته إلا بقصد الذكر كالنسيئة على الأكل . وقال المالكية : لا تجوز الكتابة وتجويز التلاوة عن حاضر وظهر قلب . وقال الحنابلة : لا تجوز كتابته ويجوز حله حرزاً بخائل . وقال الإمامية : لا نحرم التلاوة على الجنب إلا سور العزائم الأربع : وهي اقرأ ، والنجم ، وحم السجدة ، وألم تنزيل . وتجويز الكتابة .

(أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) . المراد بالحديث القرآن ، وأنتم خطاب للمنافقين الذين داهنوا ، فأظهروا الاعتراف بالقرآن ، وأصمروا الجحود والانكار (وتجعلون رزقكم انكم تكذبون) . المراد بالرزق النعمة ، وبالتكذيب كفرانها ، والمعنى ان القرآن نعمة من الله عليكم أيها المدهنون ، فكيف قابلتموها بالجحود والكفران ؟ . وقال جماعة من المفسرين : انهم كانوا اذا أمطروا قالوا : ماذا من

الجزء السابع والعشرون

صنع الطبيعة ، فكان ذلك كقراً منهم بأنعم الله ، وفيهم نزلت هذه الآية .. وهذا بعيد لأن الحديث عن القرآن لا عن الأمطار .

(فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون) . في بلغت ضمير مستتر يعود الى النفس التي دل عليها سياق الكلام ، وأنتم خطاب لمن شاهد الميت وهو محتضر ، سواء أكان من أهله أم من غيرهم ، والمعنى كيف بكم أيها المداهنون إذا نزلت غرات الموت بواحد منكم ، وبلغت روحه التراقي ، وأنتم تنظرون الى ما به ، وتمنون له الحياة والبقاء ، فهل تملكون شيئاً من أمره وتردون عليه حياته وعافيته ؟ (ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون) . ضمير اليه يعود الى المحتضر ، والمعنى ان الله سبحانه يعلم بما حل بالمحتضر ، وبعجزكم عن نجدة وألمكم لفقده ، ولكنكم تجهلون ان الله موجود في كل مكان يعلمه وقدرته (فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين) اذا كنتم أحراراً - كما تزعمون - وغير مسؤولين عن شيء ، ولا أحد يستطيع ان يقهركم على شيء ، اذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تدفون الموت عن أنفسكم وترجعون أرواحكم الى أجسادكم لأن المفروض في منطقكم ان الله لا يملك لكم موتاً ولا حياة ولا بعثاً ولا حساباً .

(فأما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) . في أول هذه السورة قسم سبحانه أهل القيامة الى ثلاثة أصناف : السابقين المقربين ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، وذكر في هذه الآية ان المحتضر إذا كان من السابقين فهو في أمان قائم ونعيم دائم ، وتقدم في الآية ١٢ وما بعدها من هذه السورة - ما أعده الله للسابقين (وأما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين) . واذا كان المحتضر من الصنف الثاني وهم أصحاب اليمين فتبشره الملائكة بالسلام والراحة .. ومن هنا بيانية ، وليست للتبويض أي أنت أيها المؤمن الذي هو من أصحاب اليمين لك سلام وأمان . وتقدم في الآية ٢٧ وما بعدها من هذه السورة ما أعده سبحانه لأصحاب اليمين .

(وأما ان كان من المكذبين الضالين فنزل من هم ونصلية جحيم) . واذا كان المحتضر من الصنف الثالث وهم أصحاب الشمال فأواه جهنم وساءت مصيراً ،

سورة الواقعة

وذكر سبحانه ما أعدّه لأصحاب الشمال في الآية ٤١ وما بعدها من هذه السورة (ان هذا لموحدّ اليقين) الذي لا شك فيه. وفي بعض كتب الصوفية. ان الشيء المدرك على ثلاثة أقسام : مدرك يعلم اليقين كمن يدرك وجود النار من وجود الدخان ، ومدرك بعين اليقين كمن يرى النار بالذات ، ومدرك بحق اليقين كمن يكتبها (فسيح باسم ربك العظيم) . تقدم بالحرف مع التفسير في الآية ٧٥ من هذه السورة .

سُورَةُ الْحَدِيدِ

٢٩ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هو الأول والآخرة الآية ١ - ٦ :

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ
وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ
فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ
مَعَكُمْ أَيْنَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ
وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *

اللفظ :

استوى هنا بمعنى استولى ولذا تعدى الفعل بعلى . والعرش كناية عن الملك
والسلطان .

الإعراب :

سَبَّحَ لله « الله » اللام زائدة إعراباً مثل شكوت له ونصحت له أي شكرته ونصحتة . ونجوز أن تكون اللام أصلاً على معنى سَبَّحَ تسييحاً خالصاً لوجه الله . وقد استعملت « ما » هنا في جميع الكائنات العاقلة وغير العاقلة .

المعنى :

(سَبَّحَ لله ما في السموات والأرض) . وفي الآية ٤٩ من سورة النحل : « والله يسجد ما في السموات وما في الأرض » . وكل من التسييح والسجود لله اعتراف بقدرته تعالى وحكمته ، ولهذا الاعتراف مظهران : أحدهما بلسان المقال ، وثانيها بلسان الحال ، والانسان يسبح الله باللسانين معاً ، أما الكائنات التي لا تنطق بلسان المقال فإنها تسجد وتسبح بلسان الحال لأن ما من كائن إلا وهو يدل على وجود المكون والمصور . أنظر تفسير الآية ٤٤ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٤٧ فقرة « كل شيء يسبح بحمده » .

وجاء في كتب السير والحديث والتفسير : ان فاطمة بنت رسول الله (ص) كانت تقوم بجميع شؤون بيتها وخدمة زوجها وأولادها . وفي ذات يوم شكت الى أبيها ما هي فيه ، ورأى هو (ص) عليها وعلى يديها آثار الجهد ، فطلبت منه أن يمنحها جارية من سبايا الحرب لتساعدنها فيما تقوم به ، فقال : لا أعطيك جارية ، وغيرك يطوي بطنه من الجوع ، ثم قال لها : ألا أدلك على خير من الجارية أن تسبحي الله ٣٣ وتحمديه ٣٣ وتكبريه ٣٤ . قالت فاطمة (ع) : رضيت يا رسول الله . وتُعرف هذه التسيحات بتسيح الزهراء .

(وهو العزيز الحكيم له ملك السموات والأرض يحيي ويميت) . كأن سائلاً يسأل : لماذا سَبَّحَ لله ما في السموات والأرض؟ فجاء الجواب لأن ما في السموات والأرض ملك لله وحده لا شريك له . ولأنه العزيز بقدرته ، والحكيم بتدبيره . ولأن الموت والحياة بيده (وهو على كل شيء قدير) ما شاء كان وان لم يشأ لم يكن .

(هو الأول) بلا ابتداء كان قبله ، ومنه ابتداء كل شيء (والآخر) بلا انتهاء يكون بعده ، واليه ينتهي كل شيء (والظاهر) بالآثار والأفعال لا برؤية الحواس (والباطن) لا تحيط العقول والأوهام بكنهه وحقيقته ، وإنما يتجلى لها بآثاره . وفي نهج البلاغة : « الحمد لله الذي أظهر من آثار سلطانه وجلال كبريائه ما حير مقل العيون من عجائب قدرته ، وردع همام النفوس عن عرفان كُنْه صفته .. قرب فنأى ، وعلا فذنا .. سبق الأوقات كونه ، والعدم وجوده ، والابتداء أزاله (وهو بكل شيء عليم) هو عالم بكل شيء لأنه خالق كل شيء .

(هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش) . المراد بالأيام الدقائق أو الأطوار ، وبالأستواء الاستيلاء ، وبالعرش الملك . وتقدم مثله في الآية ٥٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٨ والآية ٣ من سورة يونس والآية ٧ من سورة هود والآية ٥٩ من سورة الفرقان والآية ٤ من سورة السجدة .

(يعلم ما يلج في الأرض) من كنوز وبدور ومياه .. حتى التفجيرات الذرية في جوف الأرض التي يقوم بها أعداء الله والانسانية فان الله يعلم حقيقتها وآثارها المهلكة ، ويعلم ان الهدف منها السيطرة على عباد الله وإخضاعهم لسياسة الاستعمار ، ونمو صناعته الخربية .. وأيضاً يعلم الله (ما يخرج منها) من نبات وحشرات ومياه .. حتى البيروك فان الله يعلم الأرض التي ينبع منها ، والأيدي التي تستخرجه وتعمل فيه والشركات التي تسلبه وتنهبه والحروب التي تثيرها من أجله (وما ينزل من السماء) من ماء وثلوج وأنوار ، وما الى ذلك من خيرات .. وقد علم بالذين صعدوا الى القمر لعلهم يهتدون الى وسيلة يحتكرون بها بركات السماء . وبجسوسها عن عباد الله وعياله تماماً كما فعلوا في الأرض وخيرات الأرض ، ولكن الله جلّت حكمته ، ردهم - في المحاولة الثالثة - على أعقابهم خاسئين (وما يعرج فيها) وأيضاً يعلم سبحانه كل ما يدور ويجول في الفضاء .. حتى طائرات التجسس وحاملات القنابل الذرية والأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض لأغراض شيطانية كاللجسس وارهاب المستضعفين واغتصاب أرزاقهم ومقدراتهم .

(وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) . هذا تهديد ووعيد لكل طاغ وباغ بان أعماله محفوظة عند الله ، وانه مرتهن بها ومحاسب عليها حساباً دقيقاً

وعسراً ، ومعاقب بعذاب وبيل وأليم (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور) . تتحرك الأفلاك ، وتتعدد الفصول ، ويأخذ الليل من النهار في فصل ، والنهار من الليل في فصل ، ويتساويان في بعض الأيام ، أما ذات الصدور فهي السرائر والضمائر . وتقدم في الآية ٢٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٣٧ والآية ٦١ من سورة الحج و ٢٩ من سورة لقمان و ١٣ من سورة فاطر.

وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه الآية ٧ - ١١ :

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَارْوُوفٌ رَحِيمٌ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ *

اللغة :

مستخلفين خلفاء ووكلاء بالتصرف في الأموال ضمن حدود وقيد . والمراد بالفتح هنا فتح مكة ، وبالقرض الاتفاق .

الإعراب :

ما لكم مبتدأ وخبر لأن معناه أي شيء حدث لكم ؟ والمصدر من أن لا تنفقوا
مجرور بحرف جر مقدر أي في عدم الاتفاق ، ويتعلق بما تعلق به لكم . ومن
انفق « من » فاعل لا يستوي . وفي الكلام حذف ، أي ومن انفق بعد الفتح .
وكلاً مفعول أول لوعده ، والحسن مفعول ثان . ومن مبتدأ وإذا خبر والذي
بسدل من ذا . وفرضاً مفعول مطلق ان أريد به الاقتراض ، ومفعول به إن أريد
به المال .

المعنى :

(آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا
لهم أجر كبير) . حث سبحانه على الاتفاق ورغب فيه بشئ الأساليب ، وهدد
من يخل وأمسك بأشد العذاب .. ومن أساليب القرآن في الحث على الاتفاق في
سبيل الله هذه الآية التي ساوت بين الأمر بالإيمان بالله ورسوله وبين الأمر بالاتفاق ،
وتوهم هذه المساواة إلى أن من ييخل ويمسك فهو كافر - عملياً - بالله ورسوله
وان آمن بهما نظرياً .. وأيضاً تشير الآية إلى أن الأغنياء لا ينفقون مسن ملكهم
وأموالهم ، وإنما ينفقون مما هم وكلاء فيه .

وروى الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري أنه خرج مرة مع رسول الله (ص) نحو أحد
فقال له الرسول (ص) : يا أبا ذر أتبصر هذا الجبل ؟ . فقال : نعم يا رسول
الله . قال : ما أحب أن يكون لي مثله ذهباً أنفق في سبيل الله ، أموت وأترك
منه قيراطين . فقال أبو ذر : أو قنطارين يا رسول الله . قال : بل قيراطين .
أنظر تفسير الآية ١٨٠ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢١٧ فقرة « الغني وكيل
لا أصيل » .

(وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم
ان كنتم صادقين) . المراد بالميثاق هنا وجوب العمل بما دل عليه الدليل القاطع ،
وما أكثر الأدلة على وجوب الإيمان بالله .. وتقدم بيان الكثير منها عند تفسير

الآيات الكونية ، من ذلك ما ذكرناه عند تفسير الآية ٨٣ من سورة الإسراء ص ٧٩ فقرة « علم الخلايا » ، كما تقدم ذكر الأدلة على نبوة محمد (ص) عند تفسير الآيات التي تشير إلى ذلك ، ومنها ما ذكرناه قريباً عند تفسير الآية ٧٧ من سورة الواقعة فقرة « الاسلام وقادة الفكر الأوروبي » .

ومحصل الآية التي نحن بصدددها : كيف تعرضون عن دعوة الرسول الى الايمان بالله وانى ما يحبيكم ، وقد قامت الأدلة الكافية الوافية على وجود الله ووحدانيته ، وصدق الرسول في نبوته ودعوته ؟ قال الرازي : ان تلك الدلائل لما اقتضت وجوب العمل بها كانت أؤكد من الحلف واليمين ، ولذلك سمّاه سبحانه ميثاقاً .

(هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور) . أرسل سبحانه محمداً (ص) بالحجة الكافية والموعظة الشافية ليخرج الناس من طاعة الشيطان الى طاعة الرحمن ، من الضلال والفساد الى الهدى والصلاح ، وخوفهم الرسول من سطوة الله وعذابه إذا أعرضوا ، ووعدهم بالحسنى وجزيل الثواب إذا استجابوا وأطاعوا وقال لهم : (وان الله بكم لرؤوف رحيم) . ان الله بعباده رؤوف رحيم ، وبرّ كريم ، يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويمهد لهم سبل الخير من حيث لا يحسبون ، وينعم عليهم وهم يمتردون .

(وما لكم ان لا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السموات والأرض) ؟ . كل ما في يد الانسان من مال وحطام فهو عارية يتركه لمن بعده .. وهكذا حتى الانسان الأخير ، فإذا ذهب الى ربه فلا وارث حينئذ إلا الله وحده : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها والينا يرجعون - ٤٠ مريم ، وما دام الأمر كذلك ، فلماذا الشغ بالمال والامساك عن البذل في سبيل الله ؟ . وفي نهج البلاغة : عجبت للبخل يستعجل الفقر الذي منه هرب . ويفوته الغنى الذي اياه طلب ، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء .

(لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) . المقابل الثاني لقوله : لا يستوي محذوف أي ومن أنفق وقاتل بعد فتح مكة ، وتوضيح المعنى ان الشيء قد يقاس بالسكم والكيف معاً كالأطعمة والأشربة والألبسة والمجوهرات ، فإن نمن

هذه وما إليها يُقدر بالحجم والمنفعة معاً ، وقد يقاس بالكم فقط كأصوات الذين ينتخبون المخاتير والنواب ومن اليهم من الرؤساء ، فإن صوت العالم والجاهل والعاقل والفاجر سواء بالنسبة لفوز المرشح أو فشله ، وقد يقاس بالكيف فقط كاللواء حيث يُقدر بأثره شفاء ووقاية .. والبذل من هذا الباب فقد ينقذ الإنسان على معبد - مثلاً - عشرات الألوف ولا يكون له من الأجر عند الله ما لرغيف ينقذ به جائعاً من الهلاك .. ومن هنا نفى سبحانه المساواة بين من أنفق وقاتل قبل فتح مكة وبين من أنفق وقاتل بعده حيث كان المسلمون قبل الفتح في ضيق وحرَج ، وكان الكافرون في سعة وقوة ، أما بعد الفتح فعلى العكس ، ضعف الكفر ، وقوي الإسلام .

(أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) . أولئك إشارة إلى السابقين الأولين ، والمعنى أن لكل من السابق واللاحق في الخيرات أجره وثوابه عند الله : ولكن مع التفاوت في الدرجات والمراتب : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون - ١٩ الأحقاف » . وبكلمة أن السابقين المقربين هم من الصنف الأول الذين ذكرهم سبحانه وما أعد لهم في الآية ١٠ وما بعدها من سورة الواقعة ، وأصحاب اليمين من الصنف الثاني ، وقد ذكر سبحانه ما أعد لهم في الآية ٦٧ وما بعدها من سورة الواقعة أيضاً (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم) . المراد بالإقراض هنا النفقة لأن الله غني عن العالمين . وفي نهج البلاغة : « لم يستنصركم الله من ذل ، ولم يستقرضكم من قل ، استنصركم وله جنود السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، واستقرضكم وله خزائن السموات والأرض وهو الغني الحميد . أراد أن يبلوكم إيمانكم أحسن عملاً » . وتقديم مثله مع التفسير مفصلاً في الآية ٢٤٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٧٤ .

باطنه الرحمة وظاهره العذاب الآية ١٢ - ١٥ :

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ

بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ
 الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا
 نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ
 بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ *
 يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ
 وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّبْتُمْ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَظْتُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ *
 فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ
 هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *

اللمعة :

النظر يأتي للرؤية بالبصر ، وللتأمل بالفكر ، ويأتي أيضاً بمعنى الرحمة تقول :
 انظرنني بضم الظاء أي ارحمني ، ومنه قوله تعالى : « ولا يكلمهم الله ولا ينظر
 إليهم يوم القيامة - ٧٧ آل عمران » وغير بعيد أن يكون معنى « انظروننا » في
 الآية من هذا الباب ، وإذا قلت : انظرنني بكسر الظاء فالمعنى امهلني ومنه :
 « قال انظرنني الى يوم يبعثون - ١٤ الأعراف » . والمراد بنقبتس هنا نستضيء
 وأصله من القبس أي الشعلة من النار . والمراد بالسور الحاجز ، وبالرحمة هنا
 الجنة . ومن قبله من جهته . وفتنتم أنفسكم أهلكتموها . وتربصتم انتظرتهم . وارتبتم
 شككتهم . والغرور الشيطان . ومولاكم ناصركم .

الإعجاب :

يوم ترى متعلق بكريم في آخر الآية السابقة ويجوز أن يتعلق اليوم بفعل مقدر أي اذكر يوم ترى . وبشراكم اليوم جنات مبتدأ وخبر لأنه بمعنى الذي تبشرون به اليوم جنات مثل طعامك اليوم كذا . ويوم يقول بدل من يوم ترى لأن المراد باليومين واحد وهو يوم القيامة . ونقتبس مجزوم بجواب الأمر وهو انظرونا .

المعنى :

في الآية السابقة قال سبحانه : ان من آمن وأفلق في سبيل الله لوجهه تعالى يضاعف له الجزاء ، وله أجر كريم، وهنا بين سبحانه هذا الأجر الكريم بقوله : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم) . كان المتقون الباذلون يسبرون في الدنيا على هدى من ربهم .. وفي يوم الحساب والجزاء شع من هذا الهدى الإلهي نور مادي محسوس كما تسمى كلمة ترى وكلمة بأيمانهم أي ترى نورهم بعينيك تماماً كما ترى نور المصباح المحمول باليد، ويتحكم به حامله كيف يشاء .. وبكلام آخر عملوا في الدنيا لهذا النور بمجد وإخلاص فوجدوه في الآخرة أمامهم يمتد الى مسافات (بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) . يخرج المهتدون غداً من قبورهم ، ويسبرون على نور يكشف لهم طريق الأمان ، وقبل أن يصلوا الى النهاية يأتيهم النداء : ابشروا بالجنة .. وأية بشرى تعادل البشرية بجنة الخلد ونعيمها ؟ . وأي فوز أعظم من هذا الفوز ؟ .

(يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم) . كان المهتدون في الدنيا على نور من ربهم فهم في الآخرة كذلك : « والذين اعتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم - ١٧ محمد » . وكان المنافقون في ظلمات الأهواء والشهوات فهم يوم القيامة في ظلمات بعضها فوق بعض : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً - ٧٢ الإسراء » .. وشاءت حكمته

تعالى أن يرى المنافقون غداً نور المهتدين وهو يسمى بين أيديهم كي يزدادوا المأ على ألم ، ثم بتضاعف الألم حين يستفيث المنافقون بالمؤمنين ، ويسألونهم أن يسروا على نورهم (قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً) . هذا هو جواب استغاثتهم: ارجعوا الى صاحبكم الشيطان ، واقتبسوا منه نوراً ، فهو وراءكم اليوم كما كان وراءكم بالأمس .. ان هذا النور لمن عمل في دينه لآخرته ، أما من اشترى الحياة الدنيا بالآخرة فما هو بخارج من الظلمات إلا إلى ما هو أشد .

(فضرِب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) . ضمير بينهم يعود الى المؤمنين والمنافقين ، والمراد بالسور الحاجز ، والمعنى ان الله أنعم على المؤمنين بالجنة ، وانتقم من المنافقين بعذاب النار ، وبين الجنة والنار حاجز ، له جانبان : باطن غير منظور ، وهو يلي المؤمنين ، وظاهر منظور وهو يلي المنافقين وغيرهم من المجرمين ، والأول فيه الجنة ، والثاني من جهته جهنم

(بنادونهم ألم نكن معكم) ؟ يقول المنافقون للمؤمنين بلسان الحال أو لسان المقال ، يقولون لهم : كنّا في الدنيا نصوم ونصلي ونفعل ما تفعلون فلماذا دخلتم الجنة ، ودخلنا النار ؟ (قالوا بلى ولكن فتنتم أنفسكم) . أجابهم المؤمنون : أجل ، كنتم معنا وصتمم وصليتم مثاناً ، ولكن أهلكتم أنفسكم بالكذب والنفاق (وتربصتم) الدوائر بالمؤمنين (وارتبتم) برسول الله وأقواله (وغرتكم الأمانى) حين ظننتم أن خداعكم ونفاقكم يمر بسلام ومن غير حساب وعقاب (حتى جاء أمر الله) وهو لقاءه تعالى وحسابه وجزاؤه (وغرتكم بالله الغرور) وصدقتم الشيطان في وعده بسلامتكم من غضب الله وعذابه .

(فالיום لا يُلْخِذْ منكم فدية) ولا تقبل منكم توبة ولا مهرب لكم من العذاب : « فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين — ٩١ آل عمران » . (ولا من الذين كفروا) . وأيضاً لا تُقْبَلُ الفدية والتوبة من الذين أظهروا الكفر وجأهروا به ، ولم يخادعوا وينافقوا كما خادعتم ونافقتم (مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير) . أبداً لا تمر ولا ناصر لكم إلا جهنم (وبئس المصير) مصيركم ومآلكم .

ألم يأن للذين آمنوا الآية ١٦ - ١٩ :

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * إَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُخَيِّمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ يَتَّبِعُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ *

اللفظ :

ألم يأن أي ألم يحسن، تقول حان حينه أي جاء أو قرب وقته. المصدقين والمصدقات قرىء بتخفيف الصاد على معنى المؤمنين والمؤمنات ، وقرىء بتشديدها على معنى المتصدقين والمتصدقات بأموالهم . والصادقون جمع صديق ، ويطلق على من داوم على الصدق حتى كأنه سجية له .

الإعراب :

المصدر من أن تخشع فاعل يأن على حذف مضاف أي ألم يأن وقت الخشوع . وما نزل عطف على ذكر الله . وكالذين الكاف بمعنى مثل خبراً ليكونوا . وجملة

يضاعف خبر ان المصدقين . والذين آمنوا مبتدأ وأولئك مبتدأ ثان و «هم» ضمير فصل والصديقون خبر المبتدأ الثاني والجملة خبر الأول . والشهداء مبتدأ وجملة لهم أجرهم خبر .

المعنى :

(ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) . عطف ما نزل من الحق على ذكر الله من باب عطف التفسير إذ لا تغاير بين المعطوف والمعطوف عليه إلا باللفظ والعنوان : والمراد بالذين آمنوا في الآية فئة منهم ، وقبل بيانها تقدم بأن الايمان يختلف قوة وضعفاً ، فمن ايمان من وجبت له العصمة ولا تجوز عليه المعصية كالأنبياء الى ايمان صفوة الصفوة كبعض الصحابة الى من هو دونهم بدرجة .. الى أدنى درجات الايمان .

والمراد بالذين آمنوا هنا من اكتفى من الدين والايمان بالقشور دون اللباب ، وبالظاهر دون الواقع ، ولا يعنيه شيء من أمور الناس والصالح العام . وقد نبه سبحانه هذه الفئة من المؤمنين الى ما أنزله في كتابه من آيات الجهاد ، والحث على اقامة العدل ، ونصرة الحق وأهله ، والاصلاح بين الناس، نبههم الى حقيقة الدين والايمان بهذا الأسلوب الودود الرحيم : « ألم بأن » لعلمهم بسمعون ويعقلون .

(ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) . أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وقست قلوبهم كناية عن إعراضهم عما أنزل الله في التوراة والانجيل ، والمعنى : ان اليهود انقلبوا على أعقابهم بعد موسى ، وكذلك النصارى بعد عيسى فلا تنقلبوا أنتم أيها المسلمون بعد محمد (ص) كما انقلب أهل الكتاب من قبل ، ومثله قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم - ١٤٤ آل عمران » . (وكثير منهم فاسقون) . المراد بهؤلاء الكثير رؤساء اليهود والنصارى الذين حرفوا التوراة والانجيل حرصاً على مناصبهم ومكاسبهم .

(اعلموا ان الله يحيي الأرض بعد موتها) . قال كثير من المفسرين : ان

هذا تشبيه للقلوب القاسية بالأرض الميتة ، وانه تعالى كما يحبي هذه بالمطر كذلك يهدي القلوب القاسية بالموعظة .. وفي رأينا انه تهديد للذين ينقلبون على أعقابهم بعد محمد (ص) وانه تعالى سيجيهم تماماً كما يحبي الأرض، ويجزيهم على ارتدادهم بعد نبينهم ، ويؤيد ارادة هذا المعنى قوله تعالى بلا فاصل : (قد يراكم لكم الآيات لعلكم تعقلون) . انكم مسؤولون يوم القيامة عما أهدتم بعد رسول الله (ص) .

(ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم) . المراد بالمصدقين والمصدقات المتصدقون والمتصدقات ، وبالقرض الحسن الصدقة لوجه الله تعالى ، وعليه فلا تكرار ، والمراد بالأجر الكريم أن يسمى نورهم بين أيديهم يوم القيامة بالاضافة الى الخور والقصور وما أشبه . وتقدم مثله في الآية ١١ من هذه السورة و ٢٤٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٧٤ (والذين آمنوا بالله ورسوله) وعملوا بموجب إيمانهم (اولئك هم الصديقون) أي الذين داوموا على الصدق في إيمانهم قولاً وعملاً ، والصدق سبيل النجاة من كل هلكة .

(والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) . الشهداء هم الذين يُقتلون في سبيل الله ، أما أجرهم عند ربهم فقد بينه سبحانه بقولهم : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن - ١١١ التوبة » . أما نورهم فقد أشار اليه سبحانه بقوله : « يسعى نورهم بين أيديهم - ١٢ الحديد » . وقال الرسول الأعظم (ص) : « ما من أحد يدخل الجنة ، ثم يحب أن يخرج منها الى الدنيا ولو كانت له الأرض بما فيها إلا الشهيد ، فإنه يتمنى أن يرجع الى الدنيا ، فيقتل عشر مرات لما رآه من الكرامة عند الله » . (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) . هذا على عادة القرآن الحكيم ، بقابل المتقين بالمجرمين ، وثوابهم بعقابهم بقصد الترغيب والترهيب .

إِسْتَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي
الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ
وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ * سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ
رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا
أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ
أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا
تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ *

اللغة :

الكفار جمع كافر ، ويطلق على من كفر بالله ، وعلى الحارث لأنه يكفر
الحب بالتراب أي يسره به ويفطيه . و بهيج يحف . والحطام المهشم . ولا تأسوا
لا تحزنوا . ومختال من الخيلاء وهو العجب والتكبر . وفخور أي امتدح نفسه
بجميع الصفات وباهى بها .

الإعراب :

كمثل الكاف زائدة إعراباً ومثل صفة للدنيا أو خبر بعد خبر . وفي كتاب متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي الا هي كائنة أو مكتوبة في كتاب لكيلا تأسوا كي فاصبة للفعل واللام جارة والمجرور بها متعلق بما تعلق به في كتاب . الذين يبخلون بدل من كل مختال فخور .

المعنى :

(اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد). تقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٣٢ من سورة الانعام .. والدنيا المذمومة في كتاب الله وعلى لسان أنبيائه هي التي تُطلب للشهوات والملذات ، وللزهو والهوى ، وللكبرياء والخيلاء ، أما الدنيا التي تُقضى بها حوائج المحتاجين ، وتدفع بها ظلامة المظلومين ، ويتفجع بها عباد الله وعباله فهي من الآخرة لا من الدنيا المذمومة ، ومن تتبع أي الذكر الحكيم يحسد أن ثواب الله وقف على من آمن وعمل صالحاً في هذه الحياة ، وأدى الحقوق والواجبات ، وانه لا وسيلة الى السعادة الأخرى إلا العمل النافع في الحياة الدنيا .

(كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً) . هذا الوصف يصلح للدنيا لأنها لا تدوم على حال .. انها تخضر وتصفّر ، وتقو وتلين ، وتعطي وتمنع .. ولو أعطت الانسان كل ما أحب وأراد فلأنها عما قليل تسلبه كل شيء حتى نفسه وأهله .. وأيضاً يصلح هذا الوصف للانسان في الحياة الدنيا .. انه يشب ويقوى وعظمه ويشد لحمه ، ويضفر لونه .. ثم يبدب فيه الوهن فيذوب منه اللحم ، ويبدق العظم ، ويصفّر اللون ، وينتقل في كل يوم من سيء الى أسوأ حتى ينحطم ويضمحل .. وإذا كان هذا شأن الدنيا . وشأن الانسان فيها فأولى له ثم أولى ان يعمل لحياة دائمة لا يفنى نعيمها ولا يهرم مقيمها . (وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان) . بعد أن ذكر سبحانه ان الدنيا لا يدوم لها رخاء ولا عناء ذكر ان الآخرة ثابتة على وتيرة واحدة . نعيمها

دائم ، وجحيمها دائم ، لأن سبب النعيم رضوان الله ، وسبب الجحيم غضبه تعالى ، وكل منهما قائم بقيام سببه (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) . نقل الرازي عن الصحابي الجليل سعيد بن جبير انه قال عند تفسير هذه الآية : « الدنيا متاع الغرور إذا أفنتك عن طلب الآخرة ، أما اذا دعيتك الى طلب رضوان الله وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة » . وهذا الصحابي من تلامذة الرسول (ص) المقربين .

(سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) . المراد بالمغفرة هنا سببها كالتوبة والعمل الصالح . وقال بعض المفسرين : اذا كان عرضها كذلك فما ظنك بطولها ؟ . وقال آخر : ان المراسد الحديثة كشفت ان أبعاد الكون لا حدود لها ، وعليه فالمراد العرض حقيقة لا مجازاً ..! وبالرغم من هذا الكشف فنحن لا نفهم من العرض هنا إلا التعبير عن عظمة الجنة وسعتها لا تقدير مساحتها حقيقة . وتقدم مثله في الآية ٣٣ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٥٦ (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، وليس من شك ان الطاعة سبب للمزيد من فضله ، بل هي السبب لفضله ورضوانه في يوم الفصل .

(ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير) . ضمير نبرأها يعود إلى أنفسكم ، والمعنى الظاهر من هذه الآية ان المصائب بكاملها هي من الله سواء أكانت من نوع الكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات ، أم كانت اجتماعية كالحروب والفقر والعدوان .. وهذا غير مراد قطعاً بحكم الوحي والعقل ، وفيما يلي التوضيح :

المصائب وصاحب الظلال :

قال صاحب الظلال عند تفسير هذه الآية : « اللفظ على إطلاقه اللغوي لا يختص بخير أو بشر فكل مصيبة تقع في الأرض كلها وفي النفس البشرية أو المخاطبين هي في ذلك الكتاب الأزلي من قبل ظهور الأرض وظهور الأنفس » .

وتسأل : صاحب الظلال : اذا كنت تعتمد حقاً على ظاهر اللفظ واطلاقه اللغوي فلماذا لم تعتمد على ظاهر اللفظ واطلاقه ، وأنت تفسر هذه الآية : «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم - ٣٠ الشورى » ؟ وهل نسيت انك قلت في تفسيرها ما نصه بالحرف الواحد : « فكل مصيبة تصيب الانسان لها سبب مما كسبت يدها - المجلد السابع الجزء الخامس والعشرون من القرآن الكريم ص ٣٨ » وهل تعتمد على الظاهر من كل آية واطلاقها اللغوي الحقيقي حتى ولو كان بين الآيتين تناقض بحسب الظاهر والاطلاق اللغوي ؟ وأيضاً هل تعتمد على هذا الظاهر اذا اصطدم مع حكم العقل والواقع ودل على ان الله يداً ووجهاً وسمماً وبصراً ؟ . وهل الصهيونية والاستعمار اللذين هما مصدر المصائب والادواء في هذا العصر ، هل هما من الله لا من الصهاينة والمستعمرين ؟ .

ان التناقض بين الآيات حقيقة وواقعاً وتصادم احداها مع حكم العقل - مستحيل على القرآن وفي القرآن .. كيف وهو من لدن حكيم عليم ؟ فإذا تصادم ظاهر آية مع آية أخرى أو مع حكم العقل علمنا ان هذا الظاهر على اطلاقه غير مراد لله تعالى ، وانه انما أطلق اللفظ اتكالاً على ما عُرِف من عاداته في التعبير كتعبيره عن اليهود والنصارى بأهل الكتاب ، أو على ما هو معروف بحكم العقل كالتعبير عن قدرته تعالى باليد أو على آية أخرى من كلامه كآية الشورى التي تقول : «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » والآية ١١٧ من سورة آل عمران : « وما ظلمهم الله ولكن انفسهم يظلمون » والآية ٤١ من سورة الروم : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس » . فإن هذه الآية وما في معناها قرينة قاطعة على ان الاطلاق اللغوي في آية سورة الحديد غير مراد، وان الله سبحانه قد أطلق في سورة الحديد اتكالاً على ما قاله في سورة الشورى وسورة آل عمران وسورة الروم . وعليه فالمراد بمصيبة الأرض في سورة الحديد الكوارث الطبيعية كالزلازل وبمصيبة النفس بعض الأمراض التي لا تُجدي معها وقاية ولا حذر ، ونحو ذلك ، أما آيات الشورى وآل عمران والروم فالمراد بها المصائب التي هي من صنع الانسان لا من صنع الرحمن كالظلم والحرب والجوع .

(لكيلا نأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) . قال الإمام علي (ع) :

الزهد كله بين كلمتين من القرآن ، ثم تلا هذه الآية وقال : « ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه » . وما من أحد إلا ويحزن ويفرح حتى الأنبياء ، والقصد من النهي أن لا يدخله الفرح في باطل ، ولا يخرج به الحزن عن الحق ، فقد ثبت عن الرسول الأعظم (ص) انه قال عند موت ولده ابراهيم : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بك يا ابراهيم لمحزونون » .

(والله لا يحب كل مختال فخور) . ولا شيء أدل على الجهل من الكبرياء والمباهاة . وفي نهج البلاغة : ما لابن آدم والفخر ؟ أوله نطفة ، وآخره جيفة ، لا يبرزق نفسه ، ولا يدفع حتفه ! (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) . البخل جبان ولئيم ، أما من يخل وأمر الناس بالبخل فهو من المعنيسين بقوله تعالى : « مناع للخبر معتدٍ أثيم عتلٍ بعد ذلك زنيم - ١٣ القلم » : العتل الجاف والزنيم الدعي . قال الرازي هذه صفة اليهود . (ملاحظة توفي الرازي سنة ٦٠٦ هـ) . وتقدم مثله في الآية ٣٧ (النساء) ج ٢ ص ٣٢٣ (ومن يتولّ فإن الله هو الغني الحميد) . لا يضر البخل إلا نفسه ، والله سبحانه لا تضره معصية من عصى ، ولا تنفعه طاعة من أطاع . وتقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة محمد .

الحديد فيه بأس شديد الآية ٢٥ - ٢٩ :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُنْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *
لِنَلَّا يَلْعَلْ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَفْقِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

اللغة :

قفينا أي ان الله أرسل الأنبياء الواحد تلو الآخر . الرهبانية من الرهبة ، وهي الخوف ، والمراد بها هنا طريقة خاصة بالنصارى . وابتدعوها استحدثوها من تلقائهم . والكفل النصيب .

الإعراب :

فيه بأس شديد مبتدأ وخبر ، والجملة حال من الحديد . ورسله مفعول لفعل محذوف دل عليه الفعل الموجود أي وينصر رسله ، وقد حذف من الثاني لدلالة الأول عليه على حد قول النحاة . ورهبانية مفعول لفعل محذوف أي ابتدعوا رهبانية ابتدعوها وهنا حذف الأول لدلالة الثاني عليه . وجملة ما كتبناها صفة لرهبانية . وحق مفعول مطلق لأنه مضاف الى مصدر الفعل . يؤتكم مجزوم باتقوا .

لئلا: «لا» زائدة أي ليعلم . ان لا يقدرّون « ان » غنفة من الثقبلة واسمها محلوف أي انهم لا يقدرّون . وأن الفضل عطف على ان لا يقدرّون .

المعنى :

(لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط). كل ما تُعرف به الحقيقة فهو ميزان سواء أكان وحياً أم عقلاً أم حساً كالتجربة والمشاهدة ، وعليه يكون عطف الميزان على الكتاب من باب عطف العام على الخاص مثل قوله تعالى : « وما أوتي موسى وعيسى والنبون من ربهم - ٨٤ آل عمران » . والمعنى ان الله أرسل الأنبياء بالحجج الدالة على نبوتهم ورسالتهم ، وبما يهدي الناس الى الحق والعدل ليستقيموا على صراطه القويم .

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) . قال المفسرون التقديم عند تفسير هذه الآية : ان الحديد قوة في الحرب يتخذ الناس منه سيفاً للضرب ، ودرعاً للدفاع ، وأيضاً يتخذون منه السكين والفأس والابرة ، وما هذه الأمثلة إلا انعكاس لعصرهم وحياتهم ، ولو كنا في زمانهم لمثلنا بأمثلتهم ، ولو كانوا في زماننا لقالوا : ان الحديد هو عصب الحياة في شتى النواحي ، فنه وسائل المواصلات براً وبحراً وجواً ، والأدوات التي لا غنى عنها لغني أو فقير ، وبه تقوم الجسور والعمارات والسدود والخزانات ، ولولاه لما عرف الناس الكهرباء والبرول . وهو الأساس لكثير من العلوم الحديثة ، بل هو كل شيء في المعامل والمصانع التي تقوم عليها حضارة القرن العشرين .

(وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) أي وينصر تعاليم رسل الله ، وان لم يشاهدكم بالذات .. وكل شيء في هذه الحياة فيه جهتان : ايجابية وسلبية ، منفعة ومضرة ، وإذا كان للحديد هذه المنافع في خدمة الانسان فإن فيه أيضاً الاستعداد التام للقضاء على الانسان وهلاكه ، فلقد كانت القتل قبل اكتشاف الحديد تُعد بالعمشرات في الحروب فأصبحت اليوم تعد بالملايين .. وما القلق والاضطراب والخوف الذي يعيش فيه الشرق والغرب ، ولا الدماء التي تجري أنهرأ في

كمبوديا ولاوس وفيتنام وغواتيمالا والشرق الأوسط ، ما هذه الولايات وغيرها إلا نتيجة تسليح قوى الشر بالحديد ، واستخدامه ضد الشعوب والحركات التحررية .

وهذا ندرك السر لقوله تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » . انه سبحانه خلق الحديد ليمحص به عباده ، ويمتحن ما في قلوبهم من خير وشر ، ويظهره علناً إلى عالم الوجود والبان كي يميز الخبيث الذي يتخذ من القوة أداة لأهوائه وأغراضه ، يميزه من الطيب الذي يرى القوة نعمة من الله فيستغلها لمنفعة الناس شكراً لله على نعمته (ان الله قوي عزيز) ينتقم من الطغاة الظلمة بأيدي المحققين الذين لا يبتغون من هذه الحياة إلا الحرية والعدل والعيش مع الجميع في هدوء وأمان .. ونحمد الله سبحانه على ان الثورة على الظلم تقوم اليوم في كل طرف من أطراف الأرض ، وليس من شك ان هذه الثورات قوة إلهية ، لا مرد لها ما دامت تبني الحق والعدل .. أما جزاء الطغاة في الآخرة فجهنم وبئس المصير .

(ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب) . أرسل سبحانه كلاً من نوح وإبراهيم داعياً إلى الحق ، فبلغ رسالات ربه ، وجاهد في الله أعداءه ، وكان من أمر نوح ما تقدم في سورة هود الآية ٢٥ - ٤٩ ومن أمر إبراهيم ما جاء في سورة الأنبياء الآية ٥١ - ٧٤ (فنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) . ضمير منهم يعود إلى ذريتهما ، وكان البعض من هذه الذرية من الطيبين ، أما أكثرهم أو الكثير منهم فكان بلا دين ولا ضمير تماماً شأن أبناء علماء الدين (ثم قفينا على آثارهم برسلنا) . أرسل سبحانه بعد نوح وإبراهيم كثيراً من الرسل ، منهم هود وصالح وموسى (وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل) . نوات الرسل حتى انتهوا إلى عيسى (ع) ، ومعهم الانجيل ، وكان فيه آتذاك الهدى والنور (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة) وهم الذين أطاعوا السيد المسيح وعملوا بتعاليمه نصاً وروحاً، وما حرقوها على ما تهوى أنفسهم . ونومى إلى ذلك كلمة « اتبعوه » . أنظر تفسير الآية ٨٢ من سورة المائدة ج ٣ ص ١١٤ .

(ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها) . إلا هنا بمعنى لكن ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، ومعناه ان هذه الرهبانية ما أنزل الله بها من سلطان ، ولكن رؤساء النصارى ابتدعوها من عند أنفسهم زاعمين انها تقربهم من الله زلفى لأنها عزوف عن الدنيا وملذاتها .. وعلى الرغم انه تعالى ما أمرهم بها ، وانه أحل لهم الزينة والطيبات من الرزق فإنهم لم يلتزموا بما ألزموا به أنفسهم من الزهد ، بل اتخذوا منها وسيلة للشهرة وتولي المناصب .. وتدل هذه الآية على انه لا رهبانية في الاسلام ، ولا في الديانة التي جاء بها السيد المسيح .

(قَاتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ) وهم المسيويون حقاً وصدقاً الذين يعتضدون قولاً وعملاً ان المسيحية محبة ورحمة ، ونزاهة وانسانية ، لا تعصب وأحقاد ، ولا ظلماً واستغلالاً ، ولا حروباً وانقلابات ، ولا اثارة الفتن والنعرات ، ولا قتابل ذرية وأسلحة كيمائية ، ولا شعارات كاذبة للدفاع عن الحرية ، ولا نشر الملح والقلق والخوف في قلوب عباد الله وعباله (وكثير منهم فاسقون) . وفي طليعتهم قادة الاستعمار الجديدين وأعداء الانسانية رقم ١٥ الذين تنطبق عليهم جميع الصفات التي سلبناها عن المسيويين حقاً وصدقاً .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) . أي يا أيها الذين اعترفوا بالله ورسوله اعملوا بموجب اعترافكم ، ولا يكن عملكم مكذباً لأقوالكم (وآمنوا برسوله) . أطيعوا محمداً (ص) وسيروا على نهجه وهديه (يؤتكم كفلين من رحمته) . الكفل النصيب ، والمراد بالرحمة هنا الثواب ، والمعنى من آمن بالله ورسوله وعمل بموجب إيمانه فله عند الله ثوابان : ثواب على إيمانه ، وثواب على العمل بموجبه . (ويجعل لكم نوراً تمشون به) يوم القيامة، ومن لم يجعل الله له في هذا اليوم نوراً خبط سادراً في ظلمات لا يخرج منها إلا الى ما هو أعظم وآلم .

(ويغفر لكم والله غفور رحيم) يغفر ما أسلفتم من المعاصي لأنه هو الغفور الرحيم . قال ابن عربي في الفتوحات : « ما قرن سبحانه المغفرة بتوبة ولا بعمل صالح فلا بد من شمول الرحمة والمغفرة لمن أسرف على نفسه » . ولا يكثر شيء على رحمته التي وسعت كل شيء (لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا بمقدرون على شيء

من فضل الله (. لا اله الا في ثلاثه ، والمعاد بقوله تعالى : « أن لا يقدر
على شيء » انهم لا يتألمون يوم القيامة شيئاً من فضل الله ، ومحصل المعنى ان
الله سبحانه يغفر غداً للذين آمنوا بمحمد ، ومن أحسن عملاً يؤتيه أجره مرتين
لأنه تعالى جواد كريم ، وأيضاً ليعلم اليهود والنصارى الذين رفضوا الإيمان بمحمد (ص)
أنه لا نصيب لهم من مغفرة الله ورحمته لأنهم استنكفوا عن تصديق نبيه الكريم
محمد (ص) (وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) يتفضل
به على الذين آمنوا بمحمد (ص) ولا مرد لما أراد لأن بيده ملكوت كل شيء ،
وهو على كل شيء قدير .

الجزء الثامن والعشرون

سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ

٢٢ آية مدنية ، وقبل غير ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الظهار الآية ١ - ٤ :

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ
يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ
نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ
مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ
مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّيَسَّا
ذَلِكَ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَّيَسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِإِطْعَامِ سِتِّينَ
مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ أَلِيمٌ *

اللغة :

المراد بسمع هنا استجاب . وتجادلك تحاورك وتراجعك الكلام . والظهار أن

سورة المجادلة

يقول الرجل لزوجته : انت عليّ كظهر أمي ، يريد انها حرام عليه كامه ويأتي التضييل . ومنكرأ أي ان الدين ينكره ويأباه . وزوراً لأن الزوجة غير الأم . يعودون لما قالوا أي ينقضون ما قالوه ويرجعون . وتحرير رقبة ان تعتق عبداً . وحدود الله شريعته وأحكامه .

الإعراب :

الذين يظاهرون منكم مبتدأ ، و « ما » تعمل عمل ليس وهن اسمها واسمهاهم خبرها ، والجملة خبر الذين . ومنكرأ صفة لمفعول مطلق محذوف أي قولاً منكراً والذين يظاهرون من نسائهم مبتدأ . وتحرير رقبة مبتدأ والخبر محذوف أي فعلهم تحرير رقبة ، والجملة خبر الذين يظاهرون . والمصدر من تؤمنوا متعلق بمحذوف خبراً لذلك .

ملخص القصة :

اتفق المفسرون على ان هذه الآيات نزلت في حادثة معينة ، وملخصها ان رجلاً من الصحابة غضب على زوجته ، فقال لها : انت عليّ كظهر أمي ، وكان هذا طلاقاً عند أهل الجاهلية ، فحزنت المرأة وندم الرجل على تسرعته ، فقال لزوجته : اذهبي الى النبي (ص) واخبريه بما حدث فانا أستحي ان أسأله .

فذهبت وقصت على رسول الله ما حصل ، فقال لها : ما أمرنا الله في شأنك بشيء . ولكنها راجعت الرسول (ص) وألحت ، فإذا دافعها هفت قائلة : اشكو الى الله فاقني وحاجتي ، فاستجاب دعاءها ، وانزل هذه الآيات . وتتفق هذه القصة مع ظاهر الآيات ، ومهما يكن فانها الأصل في جعل الظهار باباً من أبواب الفقه عند المسلمين .

المعنى :

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير) . يقول سبحانه لنبيه الكريم : قد علم الله حال المرأة وما راجعتك به من الكلام في أمر زوجها ، وأيضاً علم شكواها الى الله واستغاثتها به ، وقد استجاب دعائها ورحم تضرعها (ان الله سميع بصير) لا تخفى عليه خافية ، ثم بين سبحانه حكم هذه الحادثة وأمثالها بقوله :

١ - (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن امهاتهم ان امهاتهم الا اللاتي ولدنهم وانهم ليقولون منكراً من القول وزوراً) . الظهار محرم في دين الله لأنه كذب مخالف للواقع ، وكيف تكون الزوجة امّاً « ان امهاتهم الا اللاتي ولدنهم » . (وان الله لعفو غفور) لمن تاب وأناب ، وقال بعض الفقهاء : ان الظهار محرم ما في ذلك ريب لأن الله وصفه بالمنكر والزور ، ولكن لا عقاب على فاعله لأنه اقترن بالعفو . وردّ الشهيد الثاني هذا القول بأن العفو في الآية عام ولا يختص بالظهار .

٢ - (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا) . يعودون لما قالوا أي يظاهرون ثم يندمون . ويرجعون عن قولهم . قال ابن هشام في المعنى : تأتي اللام بمعنى عن كقوله تعالى : « ولا أقول للذين تردري أعينكم لن يؤتبهن الله خيراً - ٣١ هود » أي لا أقول عن الذين الخ . وأيضاً تأتي بمعنى في كقوله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة - ٤٧ الأنبياء » أي في يوم القيامة ، وعليه يكون المعنى يعودون فيما قالوا أو عما قالوا . واختلف الفقهاء في المراد بالميسس ، فقال جماعة : المراد به كل ميسس أخذاً بالاطلاق اللغوي . وقال آخرون : المراد به خصوص المضاجعة . وليس هذا بعيد عن طريقة القرآن فقد جاء في الآية ٢٣٧ من سورة البقرة : « من قبل أن تمسوهن » أي تضاجعهن باتفاق الفقهاء .

(ذلكم نوعظون به والله بما تعملون خبير) . ذلكم اشارة الى وجوب الكفارة على الظهار ، والمراد بالوعظ هنا الزجر ، والمعنى ان الله سبحانه فرض الكفارة

في الظهار لتكون زاجراً ورادعاً عن الإقدام عليه لأنه منكر وزور ، والله يعلم المطيع والعاصي من عباده ويعامل كلاهما بما يستحق .

٣ - (فمن لم يجسد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً) . اتفقوا على أن من قال لزوجه : أنت علي كظهر أمي فلا يحل له وطؤها حتى يكفر بعق رقبة ، فإن عجز عن العتق صام شهرين متتابعين ، فإن عجز عن الصيام أطعم ستين مسكيناً ، وأيضاً اتفقوا على أنه إذا وطأها قبل أن يكفر يعتبر عاصياً ، ولكن الامامية أوجبوا عليه ، والحال هذه ، كفارتين .

واشترط الامامية لصحة الظهار أن يقع بحضور عدلين يسمعان قول الزوج ، وأن تكون الزوجة في طهر لم يواقعها فيه تماماً كما هو الشأن في المطلقه ، كما اشترط المحققون منهم ان تكون مدخولاً بها ، وإلا فلا ظهار . والتفصيل في كتب الفقه .
(ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله) . سهّل سبحانه شريعته على عباده ليؤمنوا بها ، ولتكون حجة بالغة على من خاصها وأعرض عن أحكامها (وتلك حدود الله) فقفوا عندها ولا تعتدوها (وللكافرين عذاب أليم) بتخليهم شريعة الله وأحكامه ، وفيه إيماء الى ان من خالف الشريعة الإلهية فهو بحكم الكافر .

النجوى الآية ٥ - ١٠ :

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * يَوْمَ يَنْعَبُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَنْبَثُّهُمْ بِمَا عَمِلُوا لَاحِصَهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ

وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ
 يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ
 وَإِذَا جَاؤُكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا
 يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُشْسِ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَفْهَمُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ
 الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *
 إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً
 إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *

اللغة :

مجادون مخالفون ويعادون . والكبت القهر والذل . والنجوى والمناجاة سرّاً بين
 اثنين أو أكثر ، وأيضاً تطلق على المتناجين مثل هم نجوى . وحسبهم كافيههم .

الإعراب :

جميعاً حال من ضمير يبعثهم أي مجتمعين . و « ما » نافية ، ويكون تامة
 و « من » زائدة ونجوى فاعل وثلاثة مجرورة بالاضافة . ولولا بمعنى هلا .
 وجهن مبتدأ مؤخر وحسبهم خبر مقدم . واسم ليس ضمير مستتر يعود الى الشيطان .
 وبضارهم الباء زائدة وضارهم خبر ، وشيئاً مفعول مطلق لضارهم .

المعنى :

(ان الذين يحادون الله ورسوله كتبوا كما كتب الذين من قبلهم) . بعد ان ذكر سبحانه حدود الله حدد من يتجاوزها، ووصفهم بالمخالفة والعداء لله ورسوله ، وان عقابهم القهر والخزي تماماً كعقاب الذين فعلوا ذلك من الأمم الماضية (وقد أنزلنا آيات بينات للكافرين عذاب مهين) . أقام سبحانه الدلائل الواضحة على وجوده ونبوة رسوله (ص) وبيّن حلاله وحرامه ، وهذه الدلائل هي بالذات تدل أيضاً على ان طاعة الله والرسول فرض ، وان من خالفها يستحق العذاب الذي يهينه ويخزيه على رؤوس الأشهاد (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد) . يجمع الله الخلائق غداً للحساب والجزاء على ما كانوا يعملون ، واذا نسي المجرمون ما اقترفوا من الذنوب والسيئات كلها أو بعضها فإن الله قد أحاط بها علماً فيخزيهم بما صنعوا ويذيقهم وبال أمرهم بالحق والعدل ، وهم لا يظلمون .

(ألم تر ان الله يعلم ما في السموات وما في الأرض) . ألم تعلم يا محمد ان الله لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وتعلم أيضاً (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة) . قوله تعالى : « ولا أدنى من ذلك » اشارة الى ما دون الثلاثة ، وقوله : « ولا أكثر » اشارة الى ما فوق الخمسة . وقال جماعة من المفسرين : ان قوماً من اليهود والمنافقين كانوا يجتمعون وينالون في الخفاء من مقام الرسول الأعظم (ص) والصحابة ، فنزلت فيهم هذه الآية .. وليس هذا ببعيد فان ظاهر الآية يومئذ اليه، والاعتبار بؤيده، فإن الغيبة والنجوى بالاثم دأب المنافقين في كل زمان ومكان ، ومهما يكن فسان المعنى هو لا ترعجك يا محمد أقوالهم ومناجاتهم بالنيل منك ومن آمن بك، وكيف تهتم وتكثر وأنت على علم اليقين بأن الله يعلم السر من ضمائر المضميرين ونجوى المتخافتين قلوا أم كثروا ؟ وأيضاً تعلم ان الله يجمعهم غداً ويأخذهم بما كانوا يقولون ويفعلون .. والقصد من ذكر الثلاثة والخمسة مجرد التمثيل بـ (ان الله بكل شيء عليم) حتى تحريك الشفة ورجع الكلمة .

(ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) . يرمي هذا الى أن النبي (ص) كان قد نصح للمخافتين بنجوى السوء أن ينتهوا ولا يعودوا فلم يقبلوا منه وعادوا تمرداً وعناداً ، فوبخهم سبحانه على معصية الرسول (ص) بصيغة التعجب التي خاطب بها نبيه الكريم تماماً كما تقول لصاحبك : ألم تر الى هذا اللثم العاق ؟ (واذا جاؤوك حبوك بما لم يحيك به الله) . روي « ان ناساً من اليهود دخلوا على رسول الله (ص) وقالوا : السام عليك يا أبا القاسم . والسام هو الموت . فقال الرسول ، وعليكم ، فترلت الآية » ونحن لا نشك في صحة هذه الرواية لأنها أصلق تعبير عن لؤم اليهود وحقدهم على الحق وأهله (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) فعلوا هذا وقالوا : لو كان محمد نبياً لأنزل الله بنا سوء العذاب لجرأتنا على نبيه (حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) . لا تستعجلوا ما هو كائن ، فإن الله سبحانه قد أعد لكم جهنم وساءت مصيراً ، وان غداً من اليوم قريب .

(يا أيها الذين آمنوا اذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي اليه تحشرون) . ان كثيراً من الناس يؤمنون بالله ، ويصومون له ويصلون حقاً وصدقاً لا كذباً ورياء ، ولكنهم يذهلون عن هذا الإيمان في كثير من الأحيان ، ويتناجون بالإثم تماماً كما يفعل المنافقون والكافرون . والخطاب في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا تناجيتم » لمؤلاء المذاهلين عن إيمانهم ، وقد أمرهم الله سبحانه ان يتناجوا بالخير ، فإنه أليق بالمؤمنين ، ولا يتناجوا بالشر كما هو شأن المنافقين والكافرين .

وكانت هذه الآية قد نزلت الآن في بعض الدول ومن اليها من الذين يتظاهرون بالاسلام ، وهم يناصرون اسرائيل في الخفاء ويوالون من يخفي وراءها ، ويفقد عليها أنواع الأسلحة لتقتل بها النساء والأطفال ، وتدمر بيوت الآمنين وتشردهم من ديارهم وأوطانهم .. وأي نفاق أعظم من ان يدعي مدع انه مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وهو يوالي أعداء الله والانسانية ، ويبارك الظلم والاستغلال ؟ . وقد نسي سبحانه المؤمنين عن مناصرة الطغاة ولو بكلمة تقال بالسر ، وأمر بمجاهداهم بالقول والفعل سراً وجهراً .

(انما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا ياذن

سورة المجادلة

(الله) . المراد بالنجوى هنا نجوى المجرمين بالشر والإثم ، والمعنى ان الشيطان يغري أتباعه بمناجاة سوء بقصد أن يؤذي المؤمنين ويحزنهم ، ولكن المؤمنين في حصن حصين لا تنالهم أية مضرة إلا بإرادة الله ومشئته (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) في جميع أمورهم ، ولا يخشوا الضرر من أحد ، أو يترقبوا النفع إلا منه تعالى . ومن توكل على الشيطان قاده الى المهالك .

فافسحوا بفسح الله لكم الآية ١١ - ١٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا
يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَاجِئْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ
ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَظْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَشْفَقْتُمْ
أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ *

اللفظ :

تفسحوا توسعوا . انشزوا انهضوا لتوسعوا للقادمين . والمراد بناجيهم الرسول

هنا أردتم الحديث معه . فقدموا بين يدي نجواكم صدقة أي تصدقوا بشيء من أموالكم قبل المناجاة . وأشفقتم خفتم .

الإعراب :

يرفع مجزوم لأنه جواب الأمر وهو انشزوا أي إن نشزتم برفع الخ. ودرجات منصوبة بترفع الخافض أي الى درجات . ومفعول أشفقتم محذوف . والمصدر من ان أشفقتم مجرور بمن مقدرة أي أشفقتم الفقر من تقديم الصدقة .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم) . كان الصحابة يتسابقون الى مجلس رسول الله (ص) ويحرصون على القرب منه ، وكان المجلس في كثير من الأحيان يزدحم بالناس ، ولا يفسح المجلس للقادم ، فيضطر الى الرجوع أو الوقوف على قدميه ، فأدبهم سبحانه بخلق الاسلام ، وأمر أن يفسح ويوسع بعضهم لبعض ، ووعد الذين يفسحون في مجالسهم ان يفسح لهم في الجنة .

(وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا) . أمر سبحانه أولاً الجالسين ان يوسعوا للقادم اذا اتسع المجلس له ولهم ، ثم أمرهم بالسمع والطاعة لرسول الله (ص) اذا طلب منهم ان يتركوا مجالسهم للقادمين حيث لا يتسع المكان للجميع حتى مع التفسح والتوسع ، وفي بعض الروايات ان النبي (ص) كان يقيم نقرأ من مقاعدهم ليجلس فيها من هو أفضل وأسبق الى الخيرات ، وكانت تبلو الكراهية في وجوه البعض لذلك ، ولكن بعد ان نزلت هذه الآية تأدبوا بأدائها ، وأفسحوا لآخواتهم عن طيب خاطر وقبل أن يأمرهم النبي (ص) بذلك . وفي بعض التفسير ان المعنى اذا قيل لكم : انهضوا الى الخير فأجيبوا .. وليس هذا بعيد لأن الأمر عام لجميع معاني النهوض الى الخيرات سواء أكانت افساحاً أم جهاداً أم غيرهما . واذا كان من آداب القرآن ان يفسح الانسان لأخيه أو يُخلى له مكانه فليس

سورة المجادلة

من الآداب والأخلاق في شيء أن يقيم القادم أحداً من مجلسه ، فلقد كان الرسول الأعظم (ص) يجلس حيث ينتهي به المجلس .. أجل ، اذا طلب صاحب المجلس القيام من أحد الجالسين فينبغي ان يجيبه .. ولكن لا ينبغي لصاحب المجلس ان يطلب ذلك إلا لمبرر كما لو خرج المجلس عن الآداب ، أو كان للقادم شأن أجل وأرفع عند الله ، قال تعالى :

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) . ان الله خير بأهل الفضل وغيرهم ، وعلم بمراتب الفضل ودرجاته ، وهو يعطي لكل ذي فضل حقه ، وأفضل الناس عنده أشدهم ورعاً عن محارمه ، واذا كان مع هذا الورع وعي وعلم فصاحبها في أعلى عليين .. وليس من شك ان تعظيم من عظم الله فرضاً لازم ، فقد جاء في الحديث : ان رسول الله كان يكرم أهل بدر ويقدمهم على غيرهم ، وفي ذات يوم دخل جماعة منهم الى مجلسه ، فوجدوه مزدحماً بالناس ، ولم يفسح أحد لهم ، فقال النبي (ص) لمن حوله من غير أهل بدر : قم يا فلان ، وأنت يا فلان ، وأجلس أهل بدر .. وتتفق هذه الرواية مع قوله تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا » الخ .

صدر المجلس :

وبهذه المناسبة أشير الى اني اذا قرأت في الصحف مقالاً يتصل بموضوع آية من آي الذكر الحكيم احتفظت به في ملف خاص حتى اذا بلغت بالتفسير الى الآية رجعت الى المقال ، واستشهدت بشيء من كلماته ، وأشارت الى اسم الصحيفة وتاريخها لأن بعض الجليل الجديد يقتنع بالصحف ولغتها أكثر من أي مصدر .

ويلاحظ القارئ هذا الاستشهاد فيما سبق من المجلدات ، منها - على سبيل المثال - ما جاء في المجلد الرابع ص ٣٧٩ بعنوان « الماديون والحياة بعد الموت » والمجلد الخامس ص ٧٩ بعنوان « الله وعلم الاخلايا » والمجلد السادس ص ٤٩ بعنوان « الرحلة الى القمر » و ص ٣٨٨ بعنوان « الاسلام وفتاة انكليزية » . وفي ذات يوم قرأت في إحدى الجرائد عن مجادلات السياسيين الكبار حول مائدة

المفاوضات: من الذي يتصلر ومن الذي يتأخر ؟ وأي وفد يدخل حجرة المفاوضات قبل الآخر .. ومن الأمثلة التاريخية التي ذكرها الكاتب : انه في سنة ١٩٤٥ عقب الحرب العالمية الثانية اتفق تشرشل وستالين وروزفلت على أن يتفاوضوا في بودابست، ولكنهم اختلفوا أيهم يدخل الحجرة قبل غيره ، وطال هذا الخلاف أمداً غير قصير .. ثم انحلت المشكلة في أن يتفاوضوا في حجرة لها ثلاثة أبواب ، يدخل كل واحد منهم من باب في آن واحد .

وحين بلغت بالتضيق الى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا فافسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » حين بلغت الى هنا تذكرت المقال ، وأشرت - كما ترى - الى بعض ما جاء فيه ليعلم القارئ ان الاسلام لا يقيم وزناً إلا للعلم والاخلاص : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . هذه هي حضارة الحق والعدل بمعناها الصحيح ، أما تكريم صانعي الموت الذين يملكون صواريخ «مينوتام» وصواريخ «س س» وغيرها من اسلحة التخريب والتدمير ، أما هؤلاء فلا وزن لهم إلا في شريعة الشيطان ، وحضارة البغي والعدوان .

(يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فان الله غفور رحيم) . لا أجد تفسيراً لهذه الآية أحسن من تفسير مقاتل بن حيان لها ، قال : ان الأغنياء غلبوا الفقراء على مجلس النبي (ص) - وهذا شأنهم في كل زمان - وأكثروا من مناجاته حتى كسره النبي (ص) طول جلوسهم ، فأمر الله بالصدقة عند المناجاة، فأما الأغنياء فامتنعوا ، وأما الفقراء فلم يجدوا شيئاً ، واشتاقوا الى مجلس الرسول (ص) فتمنوا لو كانوا يملكون شيئاً ينفقونه ويصلون الى مجلس رسول الله (ص) وعند هذا ازدادت درجة الفقراء عند الله ، وانحطت درجة الأغنياء .

وفي العديد من التفسيرات ، منها تفسير الطبري والرازي : ان هذه الآية ما عمل بها أحد إلا علي بن أبي طالب (ع) . كان معه دينار فصرفه بعشرة دراهم ، فكان كلما أراد مناجاة الرسول تصلى بدينار ، ثم نسخت الآية قبل أن يعمل بها

أحد غير علي . وقال صاحب تفسير روح البيان : روي عن عبد الله بن عمر انه قال : كان لعلي ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إليّ من حر النعم : تزويجه فاطمة ، واعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى .

(أشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) . لما شق الأمر بالصدقة على الأغنياء حرصاً على أموالهم ، وعلم الله منهم ذلك ، وعرفوا ان وقت النبي هو لا بلاغ الرسالة وتدبير شؤون المسلمين ، وليس لهم وحدهم ، لما كان الأمر كذلك رخص الله لهم في المناجاة دون أن يقدموا الصدقة ، وعفا عن الذين لم يتصدقوا على أن لا يفرطوا في الصلاة والزكاة وسائر الطاعات (والله خير بما تعملون) لا يخفى عليه إحسان من أحسن ، وإساءة من أساء ، وهو يجازي الأول بالحسن ، والثاني بما هو أهله .

اتخذوا إيمانهم جنة الآية ١٤ - ١٩ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ * لَنْ تَغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَنْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَخْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اسْتَعْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ *

اللفظة :

ألم ترَ أي أخبرني ، وفيه معنى التعجب . وتولوا من الموالاة وهي المودة ، والمراد بالقوم المفضوب عليهم اليهود . وجنة ستر ووقاية .

الإعراب :

ألم تر الى الذين تعدت « تر » هنا يلى لأنها متضمنة معنى تنظر . وشيثاً مفعول مطلق . وألا أداة تنبيه .

المعنى :

(ألم ترَ الى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويخلفون على الكذب وهم يعلمون) . الخطاب في « تر » الى النبي (ص) ، والذين تولوا هم المنافقون ، والقوم المفضوب عليهم هم اليهود ، والخطاب في منكم للمسلمين ، والضمير في منهم لليهود ، والمعنى : أخبرني يا محمد عن المنافقين ، فقد والوا اليهود وتآمروا معهم على الاسلام والمسلمين ، وهم في حقيقتهم وواقعهم ليسوا من المسلمين ولا من اليهود مذبحيين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء..وقد حلفوا متعمدين الكذب انهم مسلمون وانهم ما تكلموا على الرسول (ص) ولا تآمروا عليه مع اليهود ، ومن أجل نفاقهم وأيمانهم الكاذبة (أعد الله لهم عذاباً شديداً لأنهم ساء ما كانوا يعملون) . وكل من أظهر خلاف ما أضمر فهو مسيء في أقواله وأفعاله لأنها بمنزل عن ذاته وحقيقته .

(اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين) . قال صاحب البحر المحيط : قرأ الجمهور أيمانهم بفتح الهمزة جمع يمين ، والجنة ما يسترون به ويتقون . . والمعنى ان المنافقين يحاولون الستر على دسائسهم ومؤمراتهم بالايان الكاذبة ، ويتقون بها من المسلمين ، ويخدعون من يبتغي الهداية وقصد السبيل ويصدونه عن غايته وبغيته .. ولكن الله سبحانه لا تحجبه السواتر ، ولا تخفى عليه

سورة المجادلة

الضمان ، فهتك في الدنيا سترهم ، ولهم في الآخرة عذاب الحريق (لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . سنحت لهم الفرصة في الحياة الدنيا فأضاعوها ، ولا شيء لمن سوف وأهل إلا العذاب ، أما الأموال والأولاد فلا ترجع ما قد فات. وتقدم مثله بالحرف الواحد في الآية ١١٦ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٤٢ .

(يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا أنهم هم الكاذبون) . ان للعباد في يوم القيامة مواقف لا موقفاً واحداً ، يؤذن لهم بالكلام في بعضها دون بعض ، فإذا ما أذن الله للمجرمين بالكلام حلفوا له كذباً وزوراً تماماً كما كانوا يحلفون في الدنيا للنبي والمسلمين ، وهم يعتقدون ان إيمانهم الفاجرة تدفع عنهم العذاب .. كيف والله سبحانه يعلم أنهم لكاذبون في إيمانهم وعقيدتهم ؟ . وتقدم مثله في الآية ٢٢ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٧٤ .

(استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله) . دعنهم شياطين الأهواء والأغراض الى الضلال والفساد فاستجابوا لها ، فأعنتهم عن الهدى وقادتهم الى الضلال (أولئك حزب الشيطان ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون) لأن من أسلس زمامه لشيطان الهوى قاده الى كل سوء وألقى به في المهالك لا محالة ، إما غداً أو لا فبعد غد .. حتى ولو تسلمح باللذة والصواريخ .

لأغلب انا ورسلي الآية ٢٠ - ٢٢ :

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ

مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *

اللغة :

يحادون الله يخالفونه في حدوده وبعادونه في أحكامه . والأذلين جمع الأذل .
ويوادون مفاعلة وتبادل المودة بينهم وبين أعداء الله .

الإعراب :

لأغلبين اللام في جواب كتب لأن فيه معنى القسم . وجملة يوادون مفعول ثانٍ لتجد . وخالدين حال . وألا أداة تنبيه .

المعنى :

(ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين) . هذه الآية أشبه بالجواب عن سؤال مقدر ، ويتلخص السؤال : بأن أعداء الله يعيشون في عز من عدتهم وعددهم ، وينكثون بأهل الله تفتيلاً وتشريداً ، فكيف امهلهم سبحانه وأمد لهم ؟

وتجيب الآية بأن الأشرار هم أذل خلق الله من الأولين والآخرين لأن نهايتهم الخزي والخذلان دنيا وآخره ، أما في الدنيا فلأن الله يعذبهم بأيدي الطيبين الأحرار : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ صُدُورُ الْمُؤْمِنِينَ - ١٤ التوبة » . وأما عذاب الآخرة فهو أشد وأعظم .

(كتب الله لأغلبين أنا ورسلي ان الله قوي عزيز) . الغلبة تكون في الآخرة ،

سورة المجادلة

وتكون في الدنيا بالسيف أو بعدذاب من السماء أو بالحجة والبرهان أو بخلود الذكر. أنظر تفسير الآية ٣٨ من سورة الحج ج ٥ ص ٣٣١ فقرة « لا يخلو المؤمن من ناصر » ، وتفسير الآية ٧ من سورة محمد (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) . مستحيل ان يجتمع الإيمان مع محبة الكافر وموالاته .. كيف وهو سبحانه القائل : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه - ٤ الأحزاب » . وقد اشتهر عن الإمام علي (ع) : ان صديق العدو عدو . وقال : « فلقد كنا مع رسول الله (ص) وان القتل ليدور على الآباء والأبناء والإخوان والقربات ، فما نزداد على كل مصيبة وشدة إلا إيماناً ومضياً على الحق وتسليماً للامرء . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٢٨ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٣٨ .

(أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) . أولئك اشارة الى الذين لا يؤثرون شيئاً على إيمانهم حتى الآباء والأبناء ، والمعنى ان الله ثبت الإيمان في قلوب المخلصين ، وأيدهم بالحجج والبراهين : « ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة - ٢٧ إبراهيم » . (ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه) . ومعنى رضي الله عن العبد هو أن يعطيه من فضله ، ومعنى رضا العبد عنه تعالى هو ان يرضى بما أعطاه . وقال ابن عربي في الفتوحات : « يرضى الله باليسير من عمل عباده ، وهم أيضاً يرضون باليسير من ثوابه لأن الله مما أعطى فعطاؤه أقل القليل بالنسبة الى ما عنده » . ولكن هذا الذي أسماه ابن عربي أقل القليل بالنسبة اليه تعالى هو أكثر الكثير بالنسبة الى العباد . قال عز من قائل : « فيضاعفه له أضعافاً كثيرة - ٢٤٥ البقرة » .

(أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون) . هذه الآية في مقابلة الآية ١٩ من هذه السورة : « أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » .

والخلاصة ان الانسان بالغاً ما بلغ من المقدرة فإنه أعجز من أن يجمع بين مرضاة الله ومرضاة أعدائه تعالى ، فإن أرضاهم أغضب الله ، وان أرضى الله

أغضبهم .. ومستحيل أن يرضوا إلا عن هو على شاكلتهم بشهادة الله عز وجل:
« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم - ١٢٠ البقرة » . وفي
الحديث الشريف ان رسول الله (ص) قال : « اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق
عندي نعمة فلاني وجدت فيها أوحيتَ : لا تعبد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر
يوادون من حاد الله ورسوله » .

سُورَةُ الْحَشْرِ

٢٤ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سبح لله الآية ١ - ٥ :

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ
الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ
مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ
اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ
بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ * وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ
اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ *
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ
وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ *

اللغة :

الحشر الجمع . والجللاء الخروج عن الوطن . واللينة النخلة . وبشاق يخالف .

الإعراب :

لأول الحشر متعلق بأخرج . والمصدر من أن يخرجوا مفعول ظنتم . ومانعهم خبر إن . وحصونهم فاعل مانعهم . ولولا حرف امتناع . والمصدر من ان كتب مبتدأ والخبر محذوف أي لولا كتاب الله واقع . وما قطعتم وما شرطي . وقائمة حال من هاء تركموها . فيؤذن الله متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف أي فذاك كائن يؤذن الله .

ملخص قصة بني النضير :

هذه الآيات خاصة بانتصار النبي (ص) على يهود بني النضير ، وتتلخص قصتهم مع رسول الله (ص) بأنهم كانوا يسكنون في ضواحي المدينة المنورة ، ولما هاجر إليها النبي (ص) عقد معهم صلحاً على أن يكونوا على الحياد ، لا له ولا عليه .. وعندما انتصر المسلمون على قريش يوم بدر فرح بنو النضير فرحاً شديداً ، ولكن لما هُزم المسلمون يوم أحد نقضوا عهد الرسول (ص) ودبروا لاغتياله ، وحالف رئيسهم كعب بن الأشرف أبا سفيان ضد محمد (ص) ، وقيل : ان كعباً هجا النبي (ص) بأبيات ، فأمر النبي أحد أصحابه بقتله ، ثم سار (ص) بجيشه الى بني النضير ، وأمرهم بالجللاء عن المدينة ، فأرسل اليهم المنافقون ، وعلى رأسهم عبدالله بن أبي ، ان اثبتوا ونحن معكم على محمد ، فطمعوا وأصرروا على الحرب ، وعندئذ حاصرهم النبي (ص) واستمر الحصار ٢١ ليلة كما في بعض الروايات .

وأمر النبي (ص) أن تقطع بعض نخيلهم ، وما حاول أحد من المنافقين وغيرهم أن يقف بجانبهم ، فاضطروا الى الاستسلام ، وصالحهم الرسول على الجللاء عن المدينة ، وان يكون لكل ثلاثة منهم بغير واحد يحملون عليه ما شاءوا ، فقبلوا وجلوا عن المدينة الى غير رجعة ، وفيهم نزلت هذه السورة ، وكان ابن عباس يسميها سورة بني النضير .

المعنى :

(سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم) . جميع الكائنات تسبح بقدره الله وحكمته بلسان المقال أو الحال ، وتقدم مثله بالحرف مع التفسير في أول سورة الحديد (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) . المراد بالذين كفروا هنا بنو النضير باتفاق المفسرين ، واختلفوا في معنى أول الحشر قال الرازي : ذهب ابن عباس والاكثرون الى ان معنى أول الحشر ان أهل الكتاب أخرجوا من جزيرة العرب للمرة الأولى ، وكانوا من قبل في عزة ومنعة .. وليس هذا ببعيد لأن الحشر الثاني كان على يد الخليفة الثاني ، والمعنى ان الله سبحانه أجلى بني النضير من ديارهم بأيدي المسلمين ، وكان هذا أول جلاء لليهود عن الجزيرة العربية ، أما السبب الموجب فهو غدرهم وخيانتهم ونقضهم عهد الأمان الذي قطعوه للرسول (ص) على أنفسهم .

وتسأل : لماذا عاقبهم الرسول (ص) على خيانتهم بالجلاء ومصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة مع ان العقوبة على أنواع ؟.

الجواب : لقد أخذهم بشريعتهم التي بها يدينون ، فقد نصت توراتهم على « ان المدينة التي تفتح لك فكل الشعب الموجود فيها لك للتسخير ويعبد لك ، فإن لم تسالك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهاائم وكل ما في المدينة فهي لك غنيمة تغنمها لنفسك - اصحاح ٢٠ من التثنية » ... وليس من شك ان من دان بسدين من الأديان أو مبدأ من المبادئ فعليه ان يلتزم بجميع أحكامه ، ويجريها على نفسه قبل أن يجريها على غيره ، وعلى هذا فإن النبي (ص) كان رؤوفاً رحيماً ببني النضير لأنه لم يقتل الذكور ويسبي النساء والأطفال كما نصت شريعتهم وتوراتهم .. وتكلمنا عن ذلك مفصلاً في ج ٦ ص ٢٠٨ فقرة « هل ظلم محمد (ص) بني قريظة ؟ »

(ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) . الخطاب في ما ظننتم للمسلمين . وظنوا أي بنو النضير . والمعنى ان المسلمين لم يتوقعوا على

الاطلاق أن يخرج بنو النضير من ديارهم ويتركوها لأعدائهم المسلمين لما عرفوا عنهم من العناد وشدة البأس ، وكثرة العدة والعدد ، وأيضاً كان بنو النضير يعتقدون أنهم في قوة ومنعة من حصونهم وعدتهم وعددهم، وإن أية يد لا تستطيع أن تمتد إليهم .. ولكن حصن القدر والحياة وإله لا يمنع أهله ، ولا يُبرز من لجأ إليه .

الدعابات المضللة والوقت المناسب :

(فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب) . ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم .. ولكن الذي بيده ملكوت كل شيء قد ختم على قلوبهم بعد أن ملأها بهيبة الرسول (ص) وجنده، فانهارت وانهار معها كل شيء لأن القلوب هي الأساس الذي ترتكز عليه جميع القوى .. ومن هنا يحرص سفاحو الشعوب وتجار الحروب على الحرب النفسية ، ويحشدون لها الطاقات والثروات ، ونسوا أو تناسوا أنه لا طريق إلى القلوب إلا الحق والصدق والخير والاحسان ، وإذا وجدت الدعابات المضللة من يستجيب لها فإلى حين ، ثم تتكشف عن عورات صاحبها وأسوائه .

سئل « تشالز » الممثل الخبير بشؤون الحياة : إلى ما يحتاج المرء ليشق طريقه في الحياة ؟ للعقل أم الطاقة أم العلم ؟ فقال : ثمة شيء أهم ، وهو معرفة الوقت المناسب . ونقول لتشالز : أجل ، لا بد من الوقت ولكن على شريطة أن يكون مناسباً لمصلحة الخير لا للشر ، وللحق لا للباطل، لأن الشر وأنصاره إلى زوال : وإن طال بهم الأمد .

(يخرجون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) . قال بعض المفسرين : المراد بخراب البيوت هنا الجلاء عنها ، وبأيديهم إشارة إلى أنهم هم السبب الموجب لهذا الجلاء حيث نقضوا عهد الرسول وميثاقه ، وأيدي المؤمنين تشير إلى أن المسلمين هم الذين أجلوا بني النضير عن ديارهم . وقال آخرون : إن بني النضير أفسدوا بيوتهم بأيديهم قبل الجلاء كبدلاً تقع سليمة في أيدي المسلمين ، وإن المسلمين دكوا بأيديهم حصون بني النضير لينفذوا إليهم .. وهذا قريب ، والاعتبار يؤيده، وظاهر

الآية يدل عليه ، ولا يتنافى مع المعنى الأول ، بل هو نتيجة للجلاء وأثر من آثاره (فاعتبروا يا أولي الأبصار) . الاعتبار هو رد الشيء الى نظائره ، والحكم عليه بأمثاله ، وقد أجلى الله بيني النصير من ديارهم جزاء على خيانتهم ، فعلى العاقل أن يتعظ ويعتبر ويحجبت الغدر والخيانة لئلا يحل به ما حل بهم .

(ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار) . عذبهم الله في الدنيا بالجلاء ولولا ذلك لعذبهم بالقتل والاستئصال كما فعل بيني قريظة .. وفي سائر الأحوال فلا نجاة لهم من عذاب السعير (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) . استحقوا عذاب الدنيا والآخرة لأنهم خالفوا الله وتجاوزوا حدوده ، ونصبوا العداء لرسوله (ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) . هذا هديد ووعيد لكل متكبر جبار .

(ما قطعتم من لينة - أي نخلة - أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين) . كان النبي (ص) قد أمر أن تُقطع بعض نخيل بني النصير ليعيظهم بذلك .. فظن البعض ان هذا نوع من التخريب ، فين سبحانه ان كل ما وقع من قطع النخيل ، وما ترك منه بغير قطع فهو بأمر الله ، وليس من عند الرسول (ص) ، والقصد منه غيظ الكفار من أجل ما قطع ، وأيضاً غيظهم من أجل ما بقي قائماً من غير قطع حيث يتفجع به أعداؤهم .

وتجدر الإشارة الى ان قطع الأشجار وما اليه أيام الحرب لا يجوز الأخذ به كمبدأ عام ، بل قد يجب القطع ، وقد يحرم تبعاً لما تستدعيه مصلحة حرب العدو تماماً كهدم الدور وقلع الأشجار أيام السلم يجوز ان لشق الطرق - مثلاً - ويحرم ان من غير مبرر .

كيلا يكون دولة بين الأغنياء الآية ٦ - ٨ :

وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أُوتِجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ
مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *

اللفظ :

القيء في اللغة الرجوع قال تعالى : حتى نفى الى أمر الله أي ترجع ، وفي
الشرع ما أخذ من الكفار بلا قتال ، والايحاف العمل وقيل : السرعة . وقال
الرازي : الركاب ما يركب من الابل ، والعرب لا يطلقون لفظ الركاب إلا
على راكب البعير ، أما راكب الفرس فيسمونه فارساً . والمراد بأهل القرى هنا
البلدان التي تفتح بلا قتال . ودولة بضم الدال أي يتداولونه بينهم فقط دون
الفقراء .

الإعراب :

وما أفاء الله ما اسم موصول مبتدأ . وفا أوجفتم ما نافية وجملة
أوجفتم خبر . ومن خيل من زائدة وخيل مفعول أوجفتم : ودولة خبر يكون
واسمها ضمير مستتر يعود على المال الذي يؤخذ من أهل القرى .

المعنى :

(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب). الفرق بين الغنيمة

والفهي عند كثير من الفقهاء ان الغنيمة مال كسبه المسلمون من أهل الكفر بإيجاف خيل وركاب أي بحرب وقتال ، أما الفهي فهو مال حصل بلا قتال وجهاد ، ومها يكن فإن الآية التي نحن بصدها خاصة بأموال بني النضير لأن النصير في «منهم» يعود اليهم ، وبناء عليه يكون المعنى ان أموال بني النضير قد جعلها الله فينا لرسوله يضعها حيث يشاء ، ولا شيء منها للمسلمين لأنهم ما تحملوا في سبيلها أبة مشقة (ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) . ومن هذا التسلط انه تعالى ألقى الرعب والخوف من رسول الله (ص) في قلوب بني النضير كي يخضعوا لأمره صاغرين من غير حرب وقتال (والله على كل شيء قدير) . ومن هذا الشيء ان يخضع أرباب الحصون والعدة والعدد لعبد من عباده تعالى .

(ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) . المراد بأهل القرى هنا غير بني النضير من الكفرة ، والمعنى ان مال الفهي - غير مال بني النضير - هو لله وللرسول الخ . وبديهة ان ما كان لله فهو لرسوله ، واتفقوا قولاً واحداً إلا من شذ على ان المراد بني القربى قربى رسول الله (ص) من بني هاشم ، أما اليتامى والمساكين وابن السبيل فقال الامامية : المراد بهم أيتام بني هاشم ومساكينهم وابن السبيل منهم خاصة . وقال غيرهم : بل كل يتيم ومساكين وابن السبيل من المسلمين هاشمياً كان أم غير هاشمي . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير قوله تعالى : « واعلموا انما غنمنا من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » - ٤١ الأنفال » ج ٣ ص ٤٨٢ .

(كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) . الاسلام نظام إلهي انساني يراعي مصلحة الجميع دون استثناء لفرد أو فئة ، فلا يحل مشكلة انسان على حساب

١ قيل : المراد بقوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى » هو عين المراد بقوله : « وما أفاء الله على رسوله منهم » . وقيل : المراد به الجزية والخراج . وقيل : كل غنيمة ايا كان مصدرها . وقيل : انه منسوخ بآية ٤١ من الانفال . وقيل غير ذلك . والذي ذكرناه من تخصيص الآية الاولى بأموال بني النضير ، والآية الثانية بالفهي غير أموال بني النضير هو ارجع التفسير في رأينا . والله اعلم بما اراد .

غيره ، ولا يضيّق على انسان ليوسّع على غيره أياً كان ، فالجميع عنده سواء ، ويتجلى هذا في جميع أحكامه ومبادئه ، ومنها هذا المبدأ ، وهو أن لا يكون المال دولة بسبب الأغنياء وحدهم أي يتداولونه فيما بينهم دون الفقراء .. وتجدر الإشارة الى ان هذا وما اليه من تحريم الربا والغش والاستغلال والضرر والضرار لا يدل من قريب أو بعيد على إقرار الاشتراكية أو رفضها بمعناها المعروف ، وكل ما يدل عليه ان الاسلام يتبنّى في جميع أحكامه فكرة العدالة والمساواة، وأنه يقر كل ما فيه خير للناس وصلاح، وهذا شيء وإلغاء الملكية الفردية دون الملكية الجماعية شيء آخر . انظر تفسير الآية ١٨٠ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢١٧ فقرة « الغني وكيل لا أصيل » .

(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب) . ربطت هذه الآية بين قول الله وقول الرسول . وأوجبت السمع والطاعة لكل منها . أمراً ونهيّاً لأن قول الرسول وحي من الله تعالى : « وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى - ٤ النجم » . وقال سبحانه في العديد من الآيات : « أطيعوا الله والرسول » وقال : « ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً - ٣٦ الأحزاب » . وتواتر أن النبي (ص) ما رأى رؤياً إلا خرجت مثل فلق الصبح ، واتفق المسلمون قولاً واحداً على أنه لا وحي ولا تشريع ولا اجتهد بعد رسول الله (ص) إلا إذا كان قول المجتهد من شريعة الله ورسوله . انظر تفسير الآية ٤٠ من سورة الأحزاب ج ٦ ص ٢٢٥ فقرة « لماذا ختمت النبوة بمحمد » ؟ وتفسير الآية ٧٧ من سورة الواقعة فقرة « الاسلام وقادة الفكر الأوروبي » .

(للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله) . المراد بالمهاجرين هنا من هاجر مع رسول الله (ص) من مكة الى المدينة رغبة في مرضاة الله وثوابه وفي نصرة الاسلام والجهاد في سبيله ، وهؤلاء هم أولى الناس بالزكاة لسبقهم وجهادهم ولفقرهم وحاجتهم ، قال الطبري نقلاً عن قتادة : « هؤلاء المهاجرون تركوا الديار والأموال والأهلين والعشائر حباً لله ورسوله ، واختاروا الاسلام على ما فيه من

الشدة حتى لقد كان الواحد منهم يعصب الحجر على بطنه ليقم به صلبه من الجوع، ويتخذ الحفرة في الشتاء ما له دثار غيرها .. وما رأيت وصفاً للصحابه أبلغ مما قاله الإمام زين العابدين (ع) فيهم، وهو يدعو الله سبحانه أن يشكر لهم صنيعهم، قال :

« اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحبة وأبلوا البلاء الحسن في نصره وكانفوه وأسرعوا الى وفادته ، وسابقوا الى دعوته واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالته وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته ، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته ، وانتصروا به ومن كانوا منظوين على محبته يرجون نجارة لن تبور في مودته، والذين هجرتهم العشائر اذ تعلقوا بعروته وانتفت منهم القربابات اذ سكنوا في ظل قرابته ، فلا تنس اللهم لهم ما تركوا لك وفيلك ، وأرضهم من رضوانك .. (أولئك هم الصادقون) في إيمانهم وجهادهم قولاً وفعلًا .

ويؤثرون على أنفسهم الآية ٩ - ١٥ :

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَافَوْا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا

لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَنَ
الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُوًى عُصْنَةٍ أَوْ
مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ
أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *

اللفظة :

تبوءوا الدار سكنوها ، والمراد بالدار هنا المدينة المنورة ، وبالحاجة هنا الحسد
والفيظ ، وبالحصاصة الفاقة . ومن يوق أي من يدفع ويمنع . والشح الإفراط في
الحرص . وقلوبهم شتى أي أهواؤهم متفرقة بالبغضاء والشحناء على بعضهم البعض .

الإعراب :

والذين تبوأوا مبتدأ وجملة يحبون خبر . والاعان مفعول لفعل مقدر أي وآثروا
أو أخلصوا الاعان ، ومثله علفتها تبنأ وماء بارداً أي وسقيتها ماء بارداً . ومفعول
يؤثرون محذوف أي يؤثرون غيرهم . أبداً ظرف زمان لاستغراق المستقبل منصوب
بنطيع . ومن الله أي من رهبتهم من الله . وجميعاً حال أي مجتمعين . وكمثل
خبر لمبتدأ مقدر أي مثلهم كمثل الذين الخ . وقريباً صفة لمقدر أي زمناً قريباً
والزمن منصوب بذاقوا أي ذاقوا وبال أمرهم في زمن قريب .

المعنى :

بعد أن بين سبحانه منزلة المهاجرين بين منزلة الأنصار بقوله :

١ - (والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم). المراد بالدار هنا المدينة المنورة ، وتبأوها أي سكنوها واستوطنوها ، والمعنى ان الأنصار ، وهم أهل المدينة آووا النبي ومن هاجر معه ، وقاموا بواجب الضيافة على أكمل وجه، وأخلصوا للمهاجرين وواسوهم بأنفسهم بل وآثروهم عليها كما تأتي الإشارة، ومن الآيات التي نزلت في فضل الأنصار قوله تعالى : « والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم - ٧٤ الأنفال » .

٢ - (ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) . كان المهاجرون في بدء الأمر أفقر الناس في المدينة يلاقون فيها المشقة والجهد : ولولا الأنصار لهلكوا جوعاً، وكان النبي (ص) يعطي الصدقات للفقراء ولا يعطي منها الأغنياء والقادرين على الكسب ، ولذا كان يفضل المهاجرين على الأنصار في العطاء ، وربما خصهم بالفضيلة من دونهم ، وكان الأنصار يرضون عن ذلك ويرون انه الحق ، فسجل سبحانه لهم هذه المنفعة في كتابه العزيز .

٣ - (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . والايثار على النفس مع الحاجة لا يعادله شيء إلا التضحية بالنفس . وفي التفسير وكتب الحديث : ان رسول الله (ص) قال للأنصار عند تقسيم بعض الغنائم : ان شئتم أن تكون هذه الفضيلة بينكم وبين المهاجرين على أن تشاركوهم في أموالكم، وان شئتم كانت لكم أموالكم ، ولهم هذه الفضيلة وحدهم . فقال الأنصار : بل نترك لهم الفضيلة ونقسم لهم من أموالنا يا رسول الله . فدعا النبي (ص) لهم وقال : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . الشح من أمهات الرذائل ، فمن استجاب له عاقبه عن كل خير ، ومن تغلب عليه ونزه نفسه عنه فقد وقاها من الأسواء والمخاطر .

(والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) . الضمير في بعدهم يعود الى المهاجرين والأنصار معاً ، والمراد بالذين جاءوا من بعدهم كل من سار بسيرتهم الى يوم القيامة ، ولا وجه للتخصيص

بالتابعين لأن العبرة بالأعمال لا بالأمكنة والأزمنة ، وما بلغ الصحابة الى منزلة الكرامة عند الله إلا لأنهم استمعوا القول فاتبعوا أحسنه (ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا) . مستحيل أن يجتمع الإيمان والغل على المؤمن في قلب واحد . كيف ؟ وهل يغل الانسان ويحقد على نفسه (ربنا انك رؤوف رحيم) بعبادك الذين نزهوا دينهم وقلوبهم عن الغل والنفاق .

(ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لتنصرونكم) . المراد بأهل الكتاب هنا بنو النضير ، وهم اخوة المنافقين في الكفر وعداوة الرسول ، وتشير الآية الى حادثة معينة ، وهي ان النبي (ص) حين أعلن الحرب على بني النضير قال لهم المنافقون ، وعلى رأسهم عبدالله بن أبي : قاتلوا محمداً واصعدوا له ونحن عليه معكم ، ان قاتلكم قاتلناه ، وان أجلاكم عن المدينة نرحنا عنها معكم ، ولا نصفي لقول محمد وغيره (والله يشهد أنهم لكاذبون) في أقوالهم ومواعيدهم (لئن أخرجوا - أي بنو النضير - لا يخرجون - أي المنافقون - معهم ولئن قاتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار) . هذا هو شأن المنافق يخالف لسانه قلبه ، وقلبه فعله ، وعلايته سره (ثم لا ينصرون) ولا ينتصون بمكر ولا نفاق .

(لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) . يخاف المنافقون من بأس المؤمنين لأنهم يتوقعون عاجل الشر في الدنيا ، ولا يتوقعون أجل العذاب في الآخرة (لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر) . اليهود لا يجابهون المؤمنين وجهاً لوجه في ميدان القتال ، بل يقبعون في أحيائهم وقراهم ويتسرون وراء الحصون والجدران ، ويرشقون المؤمنين بالنبال والأحجار ، كما هو شأن الجبان الخائز .

(بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) . انهم أقوياء في عدتهم وعددهم ، ولكن المصالح والأهواء فرقت بينهم ، فهم منحلون متخاذلون ، وان تظاهروا بالألفة والمحبة .. ولو أنهم توادوا وتأزروا لبرزوا إليكم وقابلوكم في ميدان القتال أيها المسلمون ، ولم يقاتلوكم في قرى محصنة أو من وراء جدار .

وهذا عام في اليهود وغيرهم ، فإن الاتفاق قوة وإن قل العدد وضعت العدة ، والتخاذل وهن وذلل لا يجدي معه عدد ولا عدة .. وقد شاهدنا انتصار أهل الباطل وهم أقلاء على المحقين وهم كثيرون ، والسر نفرت هؤلاء عن حقهم ، واجتماع أولئك على باطلهم (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) بأن الوحدة سبب الفوز والنجاح ، والتفرقة سبب الفشل والخذلان (كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) . إن حال اليهود للذين نصبوا العداء لرسول الله (ص) تماماً كحال كفار قريش وغيرهم من الذين حاربوا الرسول حيث انتهوا إلى الخزي في الدنيا ، وفي الآخرة إلى عذاب الحريق .

فلما كفر قال اني بريء منك الآية ١٦ - ٢٠ :

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ
فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ
نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *
لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ *

الإعراب :

كمثل الشيطان خير لمبتدأ مقدر أي مثلهم كمثل الشيطان . وعاقبتها خير كان
والمصدر من انهما في النار اسمها . وخالدين حال من اسم ان . ولتنظر مجزوم

بلام الأمر . وما قدمت « ما » بمعنى أي في محل نصب بقدمت والمعنى أي شيء قدمت .

المعنى :

(كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني أخاف الله رب العالمين) . قال المنافقون لبي النصير : قاتلوا محمداً ، ونحن معكم في القتال وفي الجلاء ، ولما نزل بهم البلاء اختفى المنافقون في أوكارهم ، وما ظهر لهم عين ولا أثر ، وقد شبه سبحانه حال المنافقين هذه مع بني النصير بحال الشيطان مع الانسان الاثيم ، يغريه بالفساد والضلال ، ويمنيه السلام ، فلذا جد الجد تركه للعذاب والهلاك ، وتبرأ منه ومن عمله ، وتظاهر بالخوف من الله . وتقدم مثله في الآية ٤٨ من سورة الأنفال ج ٣ ص ٤٩١ والآية ٢٢ من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٣٨ (فكان عاقبتها انها في النار خالدن فيها وذلك جزاء الظالمين) . النصير في عاقبتها يعود الى الشيطان والانسان الذي وقع في شباكه ، والمعنى واضح ويتلخص بأن كلا من الخادع والمخدوع في جهنم وساءت مصيراً .

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) الذي أنتم في قبضته ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً (ولتنتظر نفس ما قدمت لغد) . كل ما يعمل به الانسان في هذه الحياة يقدم عليه في اليوم الآخر ، والناقد البصير ينظر الى دنياه نظرة من يترك فيها من الصالحات لا من يأخذ من ملذاتها وكفى (واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) . انه تعالى يعلم من آمن به قولاً وعملاً ، ومن آمن به كتمرة يذكرها في أقواله ، وينساها في أفعاله ، وكرر سبحانه الأمر بالتقوى مبالغة في الحث والترغيب .

(ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) . نسوا العمل بأمر الله ، فأنساهم العمل لمصلحة أنفسهم ، وما ينفعها يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، وأغش الناس من نسي نفسه ولم يعمل لسلامتها من الهلاك (أولئك هم الفاسقون) لأنهم لم ينتفعوا ببيان الله ، ويتعطلوا بمواعظه (لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) . وكيف يستوي الصالح والطالح ، والشقي

والسعيد ؟ . وتقدم هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها الآية ١٨ من سورة السجدة ج ٦ ص ١٨٣ .

لو أنزلنا هذا القرآن على جبل الآية ٢١ - ٢٤ :

لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ
اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ
الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ
لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ *

المعنى :

(لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله) . هذا مجرد فرض دلت عليه كلمة «لوه» والغرض منه بيان عظمة القرآن وان له من قوة التأثير ما لو أنزل على جبل لخضع ولان على قساوته، وتصدع وتهاوى خوفاً من الله على صلابته - إذن - فما بال الانسان الذي تؤلمه البقرة، وتقتله الشربة، وتنتنه العرقة كما قال الإمام علي (ع) ، ما بال هذا الضعيف «يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصبر مستكبراً كان لم يسمعها - ٤ الجائفة » . فهل قلبه أقسى من الجبل وأشد تماسكاً،

أو هو الجهل والعناد والاصرار على الضلال ؟ (تلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) في حِسْم القرآن وعظاته ودلائله وبياناته ، ويبتدون بنورها الى سواء السبيل ... ولكن ... ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - ٣٧ ق ٤ .

وبعد ، فإن عظمة القرآن من عظمة الله سبحانه ، وقديماً قيل : الكلام صفة التكلم بخاصة فيما يعود الى علمه . ولذا وصف عز وجل كتابه بالعديد من صفاته كالعزيز والحكيم ، والمجيد والكريم والعلي والعظيم ، والنور والحق والرحمة والصدق.. فلا بدع - اذن - أن يكون له هذا الأثر والسلطان . ثم وصف سبحانه نفسه بصفات العظمة والجلال :

(هو الله الذي لا إله إلا هو) المعبود الحق الذي يوصف بجميع صفات الجلال والكمال ، منها :

- ١ - (عالم الغيب والشهادة) يعلم ما غاب عن الخلق وما شاهده .
- ٢ - (هو الرحمن الرحيم) هذان الوصفان مشتقان من الرحمة بمعنى الاحسان ، وقد يكون الجمع بين الكلمتين للإشارة الى ان رحمته وسعت كل شيء حتى في حال غضبه ، وان القنوط منها كفر وضلال .
- ٣ - (هو الله الذي لا إله إلا هو) هذا توكيد للتوحيد (الملك) له ملك السموات والأرض ، وهو يحيي ويميت ويجبر ولا يجار عليه .
- ٤ - (القدوس) مشتق من التقديس أي التنزيه عما لا يليق بعظمته تعالى .
- ٥ - (السلام) لأن منه تعالى الطمأنينة والأمان .
- ٦ - (المؤمن) يُثَبِّب المؤمنين على إيمانهم ويؤمنهم من عذاب النار .
- ٧ - (المهيمن) الرقيب والمحافظ .
- ٨ - (العزيز) القوي الذي لا يُغلب ولا يُقهر .
- ٩ - (الجبار) العالي الذي لا يُنَال .
- ١٠ - (المتكبر) له الكبرياء والعظمة (سبحانه الله عما يشركون) تنزه عن الشريك والصاحبة والولد .

سورة الحشر

١١ - (هو الله الخالق الباري) هذان الوصفان مترادفان ، وقيل : الباري يشعر بالبراعة من النقص (له الأسماء الحسنى) . كل أسمائه تعالى حسنى وعظمى . انظر تفسير الآية ١٨٠ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤٢٥ فقرة ١ هل أسماء الله توقيفية ؟ . (يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) . والتسبيح يكون بلسان المقال ولسان الحال . انظر تفسير الآية ٤٤ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٤٧ فقرة ١ كل شيء يسبح بحمده .

سُورَةُ الْمُتَحِجَّةِ

١٣ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا تغلوا عدوي وعدوكم أولياء الآية ١ - ٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ
بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ
أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي
تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ
مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءُ
وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ
تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْضِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *

اللغة :

تلقون اليهم بالمودة أي تودونهم وتخلصون لهم . وسواء السبيل الطريق القويم .
وإن يتقوكم أي يظفروا بكم .

الإعراب :

أولياء مفعول ثانٍ لتدخلوا . وقال كثير من المفسرين : ان الباء زائدة بالمودة وان المودة مفعول تلقون مثل ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، وقال صاحب البحر المحيط : مفعول تلقون محذوف والياء للسبب أي تلقون اليهم أخبار رسول الله بسبب ما بينكم من المودة . وإياكم عطف على الرسول . والمصدر من أن تؤمنوا مفعول من أجله لتخرجون . وجهاداً مفعول من أجله لخروجهم . وابتغاء عطف عليه . ويوم القيامة منصوب بلم تنفعكم .

ملخص القصة :

اشتهر في كتب التفسير والحديث ان هذه الآيات نزلت في حاطب ابن ابي بلتعة ، وهو صحابي من المهاجرين ، وقد أحسن البلاء يوم بدر ، ويتلخص ما قالوه في سبب النزول ان رسول الله (ص) تجهز لغزو مكة ، ولما علم حاطب بذلك كتب الى قريش يحلهم ، ودفع بكتابه الى امرأة ، فأوحى الله الى رسوله بخبر حاطب ، فبعث في طلب المرأة جماعة من أصحابه ، منهم الإمام علي (ع) فأدركوها في الطريق ، ولما سألوها عن الكتاب أنكرته ، فصدّقها بعضهم ، وكذبها الإمام ، وهددها بالقتل ، فأخرجت الكتاب من ضفائرها ، فجاءوا به الى الرسول (ص) فقال لحاطب : من كتب هذا ؟ قال : أنا يا رسول الله ، فوالله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششت منذ آمنت ، ولكني صانعت قريشاً حامية لأهلي من شرهم ، وقد علمت ان الله خاذلهم . فصدقه الرسول (ص) وقبيل معمرته .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا عدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة) . أمر سبحانه المؤمنين ان لا يتواصلوا بالولاية والمحبة مع أعداء الحق وأهله ، ولا

يلتقوا معهم بأية صلة مها كانت الدواعي والأسباب، لأنهم أعداء الله وأعداء من آمن به (وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) . تشير هذه الآية الى السبب الموجب للنهي عن اتخاذ أعداء الحق أولياء وأصدقاء ، وهو أولاً أنهم كفروا بالقرآن ونبوة محمد (ص) تمرداً وعناداً للحق. ثانياً أنهم أخرجوا النبي ومن آمن به من ديارهم لا لشيء إلا لأنهم عبدوا الله وحده ونبذوا الشرك وعبادة الأصنام (ان كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي) . ما دمتم قد تركتم الأهل والأوطان لإعلاء كلمة الله فكيف توالون أعداء الله ؟. وهل يجتمع في قلب واحد مودة الله ومودة أعدائه ؟. فأنى تصرفون ؟.

(تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) . أتوادون سراً أعداء الله، وتحسبون ان الله لا يعلم سريرتكم وأسراركم ؟. كيف وكل سر عنده علانية، وكل غيب عنده شهادة ؟ (ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) . هذا تهديد ووعيد لكل من حاد عن طريق الهدى والحق بخاصة الخائنين والمتآمرين (ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) . لو سنحت الفرصة لأعداء الحق وظفروا بالمؤمنين لسقوهم باللسنة حداد، وبسطوا اليهم الأيدي بالضرب والقتل (وودوا لو تكفروا) . هذه هي أمانة الشيطان بالذات الذي لا يريد للانسان إلا الضلال والهلاك ، وأي عدااء اعظم من هذا العدااء ؟ (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير) . لا الأموال والأولاد، ولا العلوم والأنساب تجدي نفعاً يوم الحساب والجزاء إلا العمل الصالح . وتكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها الآية ١١٦ من سورة آل عمران .

اسوة حسنة في ابراهيم الآية ٤ - ٧ :

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا

وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ
إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا
عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ
كَفَرُوا وَافْغِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ
فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ
فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ
عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

المعنى :

الاسوة بفهم الهمة وكسرها القدوة . وبرآء جمع بريء . والمراد بالفتنة هنا
البلاء أي لا تنزل علينا بلاء بأيدي الكافرين . ويتول يعرض .

الإعراب :

في ابراهيم متعلق بحسنة ، وقيل بمقدر صفة ثانية لأسوة . والذين معه عطف
على ابراهيم . اذ قالوا « اذ » ظرف والعامل فيه خبر كان المقدر . وبرآء خبر
ان و « نا » اسمها . وأبدأ ظرف زمان لاستغراق المستقبل . وحده حال من الله .
وربنا منادى بمحذف حرف النداء . ولمن كان يرجو بدل بعض من « لكم » بإعادة
حرف الجر .

المعنى :

(قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه) . الخطاب في « لكم »

للمصحابة بخاصة حاطب بن أبي بلتعة الذي ألقى بالمودة للمشركين ، والمراد بالذين مع ابراهيم كل من سار على سيرته وعمل بشريعته، سواء أكان في أيامه أم بعدها، فالعروف انه ما آمن من قوم ابراهيم إلا لوط ، والمعنى ان خليل الرحمن (ع) ومن آمن به قد لاقوا الكثير من المشركين حتى الهجرة من الأوطان ومفارقة الأهل والأولاد تماماً كما لاقى رسول الله والمصحابة ، وقد صبر ابراهيم والذين معه ، ولم يكثرثوا بما خلفوه من الأهل والأموال ، فعليكم أنتم يا أصحاب الرسول أن تقتصدوا بالذين آمنوا بابراهيم ، ولا تكثرثوا بالأهل والمال وتصانعوا المشركين لأجل ذلك .

(اذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) . قال الذين مع ابراهيم للكافرين من قومهم : لا جامع بيننا ولا صلة تربطنا بكم ، أنتم أعداؤنا الى آخر يوم ما دمتم أعداء لله تعبدون من دونه الأصنام والكواكب .

(الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء) . كأن سائلاً يسأل : كيف أخبر سبحانه ان ابراهيم والذين معه قد تبرأوا من قومهم المشركين مع ان ابراهيم نفسه ؟ قال - لأبيه - سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيواً - ٤٧ مريم . فأجاب سبحانه بأن ابراهيم انما استغفر لأبيه لأن أباه كان قد وعده بأن يؤمن برسالته ، فلما تبين له أن أباه مصر على الشرك تبرأ منه كما جاء في الآية ١١٤ من سورة التوبة : « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة - من أبي ابراهيم - وعدها لإياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه » . هذا ، الى ان ابراهيم قال لأبيه : اني لا أملك لك من الله شيئاً ، فإن الأمر كله بيد الله وحده .

ثم بين سبحانه كيف انصرف ابراهيم والذين معه عن قومهم وأوطانهم ، والتجأوا الى الله وقالوا : (ربنا عليك توكلنا) . ومن توكل عليه كفاه (واليك أنبنا) . رجعنا اليك فيما أهمنا من أمر الدنيا (واليك المصير) في الآخرة للحساب . والجزاء (ربنا لا نجعلنا فتنه للذين كفروا) . لا تسلط علينا شرار خلقك ، فيبتلوننا بمحن لا نقوى على حلها (واغفر لنا) ما سلف من ذنوبنا (ربنا انك

أنت العزيز) فلا تُضام ولا يُضام من لجأ اليك (الحكيم) في تصريف الكون وتديره .

(لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) . ولزبد من الحث على التأسى بابراهيم ومن معه عاود سبحانه وكرر التذكير بهذه القدوة الحسنة عسى أن يتذكر أو يخشى من رغب في ثواب الآخرة ، وخاف من عذابها (ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد) . من أعرض عن الاقتداء بالصلحين فإنه تعالى غني عن خلقه ، مستحق للحمد في ذاته وصفاته وجميع أفعاله .. وهكذا سبحانه يأمر الأشرار ان يتعطلوا بعاقبة الماضين من أمثالهم ، ويأمر المؤمنين ان يقتدوا بهدي من مضى من الصالحين .

(عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) . يشير سبحانه بهذا إلى فتح مكة، وان الكثير من المشركين الذين نأهم الله عن مودتهم سيدخلون في دين الله أفواجا .. وعندئذ يلتئم الشمل ، ويتبادل الصحابة المودة مع المسلمين الجدد (والله قدير) على ان يذهب بالعداوة وأسبابها ، ويأتي مكانها بالمودة وبواعثها (والله غفور رحيم) يغفر ذنوب عباده التائبين ويشملهم برحمته . وقد أنجز الله وعده ، ونصر عبده محمداً ، فخضعت له الجزيرة العربية واستسلمت مكة ودخل أهلها في دين الاسلام أفواجا ، وحصلت المودة بين من كانوا بالأمس أعداء الداء .

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم الآية ٨ - ٩ :

لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *

اللغة :

البر كلمة تجمع معاني الخير والاحسان . والقسط العدل ، وقيل : المراد به هنا القسمة ، وان معنى أن تقسطوا اليهم أن تعطوهم قسطاً من أموالكم . وظاهروا عاونوا وعاضدوا . وأن تولوهم أن توادوهم وتحبهم .

الإعراب :

المصدر من ان تبروهم بدل اشتغال من الدين لم يقاتلوكم ، ومثله المصدر من ان تولوهم .

الدول الصديقة والمعادية :

دعا القرآن الكريم الى السلم ، ونهى عن القتال إلا للدفاع عن النفس ، أو لنصفه المظلوم من ظالمه ، والى السبب الأول تشير الآية ١٩٠ من سورة البقرة : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . أما السبب الثاني فقد أشارت اليه الآية ١٠ من سورة الحجرات : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » . وأنكر القرآن حروب التخريب والاستيلاء على الأقوات ومصادر الثروات : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين - ٨٥ هود » . وقال أيضاً : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين - ٨٣ القصص » . وهذه الآية من الآيات التي تربط الآخرة بالدنيا ، والنشأة الثانية بالنشأة الأولى . انظر تفسير الآية ١٤٢ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٦٥ فقرة « فمن الجنة » .

أما السلم فقد حث عليه القرآن في العديد من الآيات ، منها : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة - ٢٠٨ البقرة » . ومنها : « ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة - ١٢٥ النحل » . وتقرر هذه الآية مبدأ المفاوضات

لحل المشاكل الدولية وغيرها بالطرق السلمية ، بل دعنا القرآن الكريم الى أخوة عالمية تقوم على أساس التعارف والحب والبر والعدل ، قال تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا - ١٣ الحجرات » . فالتعارف والتآلف هو المهدف من تعدد الشعوب والقبائل ، أما البر والعدل فهما موضوع الآيتين اللتين نحن بصددهما ، وترك الكلام عنها للاستاذ خالد محمد خالد ، قال :

« ان المبدأ الذي يرسم علاقتنا السيدة الرشيدة بمعركة البسوم يتمثل في قول الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله لا يحب المفسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

« والآن فلنسأل أنفسنا وسكان الأرض جميعاً : من من الدول يقاتلنا في ديننا ، ونخرجنا من ديارنا ، ويظاهر على إخراجنا ؟.. من الذين شردوا عرب فلسطين ، وانتهبوا منهم أموالهم وأرضهم وعرضهم وديارهم ؟.. من الذين مكثوا اسرائيل وزودوها بالمال والعتاد ، وقالوا لها كوني شوكة الجنب للعرب ؟.. من الذين قتلوا ولا يزالون يقتلون الكهول والولدان والنساء ؟.. من الذين حبسوا عنا السلاح وسرقوا أفواتنا ؟.. من الذين يقفون في المحافل الدولية ضد حقوقنا ، ويناصرون علينا أعداءنا ؟.. »

« هؤلاء ايها السادة هم الذين ينهانا الله في كتابه ان نبرّهم ، ونتخذ منهم أولياء وحلفاء .. وهناك آية أخرى تكشف عن وجه آخر لعلاقتنا مع هؤلاء ، وهي : « قاتلوا الذين يقاتلونكم » . ان الله لا يرضى ان نكون سلبين مع هؤلاء الذين تحالفوا على مصبرنا بل يحرضنا على قتالهم لأنهم البادئون والظالمون .. أي سند من دين ؟. أي سند من خلق يعتمد عليه أولئك المجرمون الذين يدعوننا لصداقة الغرب والتحالف معه ؟. ولا أعرف صورة من صور الإلحاد في الدين والنكوص عن الشرف والحق والواجب أبشع من هذه الصورة والدعوة التي تحيي قاتلها وتموت في سبيل جلادها .. أنقاتل الذين يمالئوننا ، ونسلم الذين يقاتلوننا ، ويذبحوننا ذبح النعاج ؟.. كيف وقد زفوا النسا في ليلة سوداء عروس الشرق

الأوسط اسراييل ، وازدادوا بها جثوماً على بلادنا وتفتيلاً لأنفسنا وأحرارنا ، وتشتيئاً لكياننا ووحدتنا ..؟ فمن كان صاحب وعي فليتنفع بالتجربة ، ومن كان صاحب دين فليقرأ قول ذي الجلال : « قاتلوا الذين يقاتلونكم » .

وبعد ، فقد اقتطفنا هذه الكلمات من كتاب الدين في خدمة الشعب، المطبوع سنة ١٩٦٣ ، ولو ان الاستاذ خالداً كتب اليوم في هذا الموضوع لما زاد حرفاً واحداً عما كتبه منذ سبع سنوات لأنه على علم اليقين من ان ما حدث في حزيران ١٩٦٧ وما يحدث الآن هو جزء من مخطط وضعه سلفاً المستعمرون والصهاينة ، وأعانهم على تنفيذه الذين يستمتنون « في سبيل جلاّد أمتهم » . وأيضاً يستमित هذا الجلاّد في سبيل « حكامه » من العرب والمسلمين حرصاً على مصالحه وأغراضه.

واتفق فقهاء المذاهب على ان الصدقة غير الواجبة تجوز من المسلم على الذمي من أهل الكتاب ، بل قال أبو حنيفة : تجوز عليه زكاة الفطر والكفارات . وأيضاً اتفقوا على جواز الوصية له بالمال ، والوقف عليه ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين الخ .

إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات الآية ١٠ - ١١ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لهنَّ وَلَا لَهُمْ أَنْ يَحِلُّوا لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ

فَعَاقَبْتُمْ فَاَتَوْا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ*

اللفظ :

فامتنحون أي اختبروهن . فإن علمتموهن مؤمنات أي أظهرن الإيمان . لا جناح لا إثم . والعصم ما يعتصم به من عقد الزواج وغيره . والكوافر جمع كافرة . وإن فاتكم شيء من أزواجكم أي ذهبت إحدى أزواجكم . فعاقبتم أي ظفرتكم بالكفار وكانت لكم العقبي عليهم .

الإعراب :

مهاجرات حال من المؤمنات . ومؤمنات مفعول ثانٍ لعلمتموهن . وترجعوهن هنا بمعنى تردوهن ولذا عدي الفعل إلى المفعول . والمصدر من أن تنكحوهن مجرور بفي مقدرة .

المعنى :

في سنة ست من الهجرة عقد النبي (ص) صلح الحديبية مع قريش . أنظر تفسير الآية ١٠ من سورة الفتح فقرة « خلاصة القصة » ، وجاء في عهد الصلح : أن من أتى محمداً (ص) من قريش رده عليهم ، ومن أتى قريشاً من عند محمد (ص) لم يردوه عليه . وقال المفسرون : بعد أن تم الصلح بين الطرفين جاءت امرأة من قريش مهاجرة إلى رسول الله (ص) وجاء زوجها على أثرها ، وكان مشركاً ، فقال : يا محمد ، اردد عليّ امرأتي ، فإنك شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا .. فنزلت هاتان الآيتان لبيان حكم الزوجات اللاتي آمن من دون أزواجهن ، واللاتي ارتددن عن الاسلام . وفيما يلي التفصيل :

١ - (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنعنهن) . يقول سبحانه للمسلمين : إذا جاءتكم امرأة من دار الشرك ، وقالت : أتيت مؤمنة بالله ورسوله فاختروها . واختلف المفسرون في أي شيء يختبرها المسلمون ؟ . وأرجح الأقوال أن تشهد المرأة ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، لأن الرسول الأعظم (ص) كان يكتفي بذلك لاثبات الاسلام ، وعليه إجماع المسلمين ، ولقوله تعالى بلا فاصل : (الله أعلم بما تكنهن) أي خلوا بالظاهر ، أما الباطن فهو لله وحده ، ولآية ٩٤ من سورة النساء : « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً » . فبالأولى ان لا تقول ذلك لمن نطق بالشهادتين .

(فان علمتموهن مؤمنات) أي نطقن بالشهادتين (فلا ترجعهن الى الكفار لا من حل لهم ولا هم يحلون لهن) . لا تعبدوا الى الزوج المشرک - أي المسلمون - زوجته التي هاجرت اليكم مؤمنة لأنها لا تحمل له بعد ان انقطعت العصمة بينها . وان سأل سائل : ان قوله تعالى : « لا من حل لهم » يفني عن قوله : « ولا هم يحلون لهن » فما هي فائدة التكرار ؟ قلنا في جوابه : من الجائز أن يكون التكرار للإشارة الى أنه لا أثر لاعتقاد المشرک انها ما زالت في عصمتها وأيضاً يجوز أن يكون لمجرد التأكيد (وآتوهم ما انفقوا) . ولكن ردوا أيها المسلمون الى الأزواج مثل ما أعطوا الزوجات من المهر . ويختص هذا الحكم بحال الهدنة بين الرسول والمشرکين ، ولا ينسحب الى ما بعدها ، لأن المهر يستقر على الزوج بمجرد الدخول ، ولا يسقط بانفساخ العقد ، سواء أسلمت هي من دونه أم أسلم هو من دونه .

٢ - (ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتينوهن أجورهن) . للمسلم أن يتزوج المهاجرة المؤمنة بعد أن حرمت على زوجها ، شريطة أن يفرض لها المسلم مهرأ ، وأن يتم الزواج بعد انقضاء العدة من المشرک اذا كان قد دخل بها .

٣ - (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) . اذا كان الزوجان مشرکين ، وأسلم هو من دونه حرمت عليه لانقطاع العصمة بينهما تماماً كما لو أسلمت هي من دونه.. وكذلك لو كانا مسلمين ، وارتد أحدهما عن الاسلام (واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا) إذا أسلم هو من دونه يحق له أن يطالب بما أعطاه من المهر ، تماماً

كما يحق للمشارك أن يطالب بمهر زوجته المؤمنة (ذلكم حكم الله بحكم بينكم والله عليم حكيم) . هذا الحكم فرض لا تجوز معصيته ، فلقد شرعه سبحانه لحكمة هو بها أعلم .

(وان فاتكم شيء من أزواجكم الى الكفار فعاقبتم فأتوا الذين ذهب أزواجهم - منكم - مثل ما انفقوا) . اذا هربت زوجة المسلم الى الكفار مرتدة عن دينها ، ولم يردوا الى زوجها المهر فردوا أنتم اليه أيها المسلمون المهر الى الزوج من الغنالم التي تكسبونها من الكفار (واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) . اتقوا محارم الله ، وامثلوا أحكامه ان كنتم صادقين في إيمانكم .

اذا جاءك المؤمنات يبايعنك الآية ١٢ - ١٣ :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِنِهَاجٍ يُفْتَرِيَنَّهُ بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَفْضِيَنَّ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَفْسُقُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَفْسُقُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ *

الآلة :

يبايعنك أي يلتزمن بطاعتك . ومن بين أيديهن وأرجلهن كتابسة عن بطونهن ويأتي البيان .

الإعراب :

فبايعهم جواب اذا جاءك . ومن أصحاب القبور على حذف مضاف أي من بعث أصحاب القبور والمجرور متعلق ببش .

المعنى :

(يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبائعنك) . لما فتح رسول الله (ص) مكة بايع الرجال على الطاعة والجهاد ، ثم بايع النساء :

١ - (على ان لا يشركن بالله شيئاً) . انظر دليل التوحيد في ج ٢ ص ٣٤٤ .
٢ - (ولا يسرقن) من أزواجهن ولا من غيرهم . وفي كتب التفسير والحديث ان هند ام معاوية قالت لرسول الله عند هذا الشرط : ان أبا سفيان رجل شحيح ، وقد أصيبت من ماله ، فأقرها النبي (ص) على ان لا تزيد عن حاجتها وحاجة أولادها .

٣ - (ولا يزنين) . انظر ج ٥ ص ٤٢ و ٣٩٧ .

٤ - (ولا يقتلن أولادهن) . كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفقر كما أشارت الآية ٣١ من سورة الإسراء : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » .

٥ - (ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن) . هذا كناية عن البطون ، لأن مكان البطن بين اليدين والرجلين ، والمعنى ان لا تكذب المرأة فيما تخبر به من الحمل والطمهر والحيض ، فلا تقول : انها في طهر وهي حائض أو العكس ، ولا تدعي الحمل وما هي بحامل .. وبعض النسوة تدلس على الزوج ، فتوهمه انها حامل ثم تدعي انها أسقطت أو تأتي بلفظ تنسبه الى الزوج زوراً وبهتاناً .

٦ - (ولا يعصينك في معروف) ولا يأمر النبي (ص) إلا بمعروف ، ولا ينهى إلا عن منكر (فبايعهن) على الوفاء بما ذُكر (واستغفر لمن الله) ما تقدم من ذنوبهن (ان الله غفور رحيم) يخفف للتائبين والتائبات ، ويشملهم برحمته .
(يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة)

سورة الممتحنة

كما يشس الكفسار من أصحاب القبور) . خاطب سبحانه المؤمنين في أول هذه السورة بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » . وختمها سبحانه بمثل هذا الخطاب ، والغرض تحذير المؤمنين من أعداء الله والحق ، وان لا يأمنوهم على شيء من أخبار الرسول (ص) والمسلمين ، ولا يركنوا الى أكاذيبهم ودسائسهم ، لأنهم لا يرجون لقاء الله ، والبعث عندهم تماماً كرجوع المونى الى الحياة الدنيا ، ومن أجل هذا غضب الله عليهم وأعد لهم عذاباً أليماً .

سُورَةُ الصَّفِّ

١٤ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كانهم بنيان مرصوص الآية ١ - ٦ :

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ
تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا
كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ
تُؤْذُونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا
بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا
سِحْرٌ مُبِينٌ *

اللغة :

المقت أشد البغض . والمرصوص كناية عن البناء المحكم حتى كأنه بُني بالرصاص .
والزيف الانحراف عن الحق .

الإعراب :

مقتاً تميز . والمصدر من أن تقولوا فاعل كبر أي كبر هذا القول مقتاً .
وصفياً مصدر في موضع الحال من فاعل يقاتلون أي مصطفين . ومصدقاً حال من
رسول الله . وجملة اسمه أحمد محلها الجر صفة لرسول المجرور بالباء .

المعنى :

(سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم) . شهد كل
كائن بلسان المقال أو الحال لله سبحانه بالقدرة والحكمة . وتقدم بالحرف الواحد
في أول سورة الحديد وأول سورة الحشر ، وتكلمنا مفصلاً عن تسبيح الكائنات
عند تفسير الآية ٤٤ من سورة الاسراء .

(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) !! . كثير من الناس يعتمدون
الكذب والخداع ، فيصرفون في الخفاء ما لا يبدونه علانية .. وليس من شك
ان هؤلاء منافقون بكل ما في كلمة النفاق من معنى ، ومن ثم فلا يصح ان
يخاطبوا بيا أيها المؤمنون ، وان تظاهروا بالإيمان ، ومن الناس من يقول ويعد
ببنية الصديق والوفاء ، ولكن تعترضه ظروف لا قبل له بها ، فيعجز عن الوفاء
على الرغم مما بذله من جهد ، وهذا معذور ، ما في ذلك ريب ، ومنهم من
يقول ويعد ببنية الوفاء ، ولكن اذا جاء أوان العمل وتبأت له الأسباب تراجع
والغنى ارادته كسلاً أو جبناً أو بخلاً ، وهذا مؤمن ولكنه مؤمن متهاون ضعيف
في ارادته وأمام نفسه الأمارة بالسوء .

وهذا النوع من الناس هم المخاطبيون بقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لم

تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون) . ومن باه بغضب الله فقد هوى الى عذاب السعير . وقال كثير من المفسرين : ان جاعة من الصحابة كانوا قبل ان تنهى أسباب الأمر بالقتال يتمنون ان يفرض عليهم ، فلما تنهت أسبابه وفرض عليهم تناقل فريق منهم ، فترلت فيهم هذه الآية . ولس هذا بعيد لأن السياق يورى اليه حيث قال سبحانه بلا فاصل : (ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) أي عكم ثابت كأنه بني بالرصاص ، ونقل عن علماء الآثار انهم عثروا على أبنية قديمة بنيت بالرصاص ، وقال تعالى حكاية عن ذي القرنين : « آتوني أفرغ عليه قطراً » ٩٦ الكهف ، والقطر الرصاص أو النحاس اللداب .. ومن نافلة القول : ان الله سبحانه يحب تماسك الجماعة وتعاضدها في كل ما يعود عليها بالخير والصلاح .

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون اني رسول الله اليكم) . هذا السؤال يحمل جوابه معه لأن بني اسرائيل هم قتل الأنبياء بنص كتابهم المقدس عندهم ، فقد جاء في سفر نحميا اصحاح ٩ آية ٢٦ ما نصه بالحرف : « وعصوا وتمردوا عليك - أي على الله - وطرحوا شريعتك وراء ظهورهم وقتلوا أنبياءك الذين أشهدوا عليهم لردوهم اليك ، وعملوا اهانة عظيمة » . أما القرآن الكريم ففسد سجل عليهم قتل الأنبياء في أكثر من آية . ولو ان قاتلاً يقول : لا شيء أدل على نبوة موسى من إساءة بني اسرائيل اليه ، وهو متقدم والمحسن اليهم ، وعلى نبوة عيسى من اقدمهم على صلبه ، لو قال هذا قاتل لكان لقوله وجه وجيه .

أما إساءة بني اسرائيل الى موسى فهي على ألوان ، قالوا له : أرنا الله جهرة . وقالوا له : فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون . وقالوا له : اجعل لنا إلهاً كما لهم آله . وقالوا له : لن نصبر على طعام واحد .. الى غير ذلك . (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) . وهذه الآية تنص بصراحة على ان الله سبحانه لا يزيغ أحداً إلا اذا زاغ هو بسوء اختياره ، ولا يبين مخلوقاً وهلكه إلا اذا هو عرض نفسه للهلكة والهوان .. فلا فرق أبداً بين معنى هذه الآية ومعنى قول القاتل : من طمع بالحرام أذله الله وأخزاه ، ومن اقتنع بالحلل أعزّه وأغناه .. وهذه الآية تفسر الآيات التي نسبت بظاهرها الإضلال الى الله مثل « يضل من

يشاء ، أي انه تعالى قد شاء وأراد أن يضل من يسلك سبيل الضلال ، وبهلك من أراد الهلاك لنفسه (والله لا يهدي القوم الفاسقين) ماداموا مصرين على الفسق.

(واذا قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) يعني محمداً (ص) وفي آية ثانية : « النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل - ١٥٧ الأعراف » . وفي ثالثة : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون - ١٤٦ البقرة » أعلن القرآن وأصر على ان التوراة التي أنزلت على موسى والانجيل الذي أنزل على عيسى قد بشرا بنبوة محمد ، وجابه هذا الحقيقة علماء اليهود والنصارى ونحدهم أن يكذبوا، وما ذكر التاريخ ان أحداً منهم كذب وأنكر ، بل أثبت ان المنصفين منهم اعترفوا وأسلموا كعبده الله بن سلام وغيره مع العلم انهم كانوا ينصبون العداء لرسول الله ، ويبحثون جاهدين عن زلة يدبونها بها .

تحريف التوراة والانجيل :

وتسأل : بماذا يجب المسلم اذا قال له يهودي أو نصراني : لقد نص قرآنكم على ان التوراة والانجيل بشرا بنبوة محمد (ص) مع انه لا أثر لهذه البشارة فيما لدينا من نسخ التوراة والانجيل ؟.

الجواب : إذا سأل هذا السؤال يهودي أو نصراني فللمسلم ان يقول له : لقد أجاب عن سؤالك هذا علماء اليهود والنصارى أنفسهم ، حيث اعترفوا صراحة بأن التوراة الأصلية التي نزلت على موسى قد فُقدت ، وبعد سنين طوال ادعى من ادعى بأنه يحفظها عن ظهر قلب ، وكتب دعواه هذه ، ثم قال لها كوني توراة موسى فكانت .. ونفس الشيء حدث للانجيل الاصيل الذي أنزل على عيسى .. ومن الطريف ان انجيل السيد المسيح (ع) قد أولد بعد أن فُقد عشرات الأناجيل حتى تجاوز عددها الخمسين .. وفي سنة ٣٢٥ م اجتمع رؤساء النصارى ، وأقرروا : أناجيل مع ان عيسى نزل عليه انجيل واحد فقط لا غير باتفاق النصارى ،

فما الذي جعل الواحد أربعة ؟ ولو أقروا ثلاثة أناجيل لقلنا : لكل اقنوم انجيل .. ولا شيء أدل على ان هذه الأناجيل من رجال الكنيسة لا من المسيح انها تحدثت عن صلبه ودفنه وخروجه من القبر وصعوده الى السماء واختتام حياته على الأرض ، فهل نزل عليه الوحي بعد أن صُلب ودُفن ؟ واذا أمكن ذلك فهل من الممكن في حكم العقل والواقع أن ينزل عليه الوحي الذي دُون في الانجيل بعد أن صعد الى السماء واختتم حياته على الأرض ؟.

سؤال ثانٍ : وأين نجد هذا الاعتراف من علماء اليهود والنصارى ؟.

الجواب : في العديد من كتبهم العربية والأجنبية ، فن الكتب العربية قاموس الكتاب المقدس الذي اشترك في وضعه ٢٧ عالماً ، فلقد جاء في مادة يوشيا من هذا الكتاب ما نصه بالحرف : « مما لا شك فيه ان معظم الأسفار المقدسة ألفت أو فقدت في عصر الارتداد عن الله والاضطهاد » . وفي مادة اسفار : « هناك رأي يقول : ان الذي أضفى صفة القانون على اسفار العهد القديم هم كتّاب الأسفار أنفسهم .. ورأي آخر يقول : هم الكتّاب المقودون - أي المؤيدون - بالروح القدس ، ومعهم قادة الدين من اليهود والمسيحيين الذين قبلوا هذه الأسفار بإرشاد الروح القدس أيضاً » . وهذا اعتراف لا يقبل الشك بأن الأسفار الأصلية فقدت ، وان جماعة قد كتبوا ما كتبوا أسفاراً وأضفوا عليها صفة القداسة من عند أنفسهم على قول ، وبتأييد الروح القدس على قول آخر .. وسواء أخذنا بالقول الأول أم الثاني فالنتيجة واحدة ، وهي الاعتراف القاطع بأن الأسفار الموجودة الآن ما هي بأسفار موسى وعيسى الأصلية لأن هذه قد فقدت ، وحل محلها أسفار جديدة كتبها الذين زعموا القداسة لأنفسهم أو زعمها لهم قوم آخرون ، وكلهم مؤيدون بالروح القدس .. والروح القدس عندهم هو روح الله الاقنوم الثالث ، وسمي الله روحاً لأنه مبدع الحياة : وقدماً لأن من عمله تقديس قلب المؤمن على حد تعبيرهم .

وقد وضع علماء الاسلام عشرات الكتب للدلالة على تحريف التوراة والانجيل ، منها كتاب « اظهار الحق » للشيخ رحمة الله الهندي ، وفيه مئة شاهد على تحريف التوراة والانجيل لفظاً ومعنى : أشار الى هذا الكتاب صاحب تفسير المنار عند

تفسير الآية ٤٦ من سورة النساء . ومن هذه الكتب الرحلة المدرسية للشيخ جواد البلاغي ، وكتاب محمد رسول الله في بشارات الأنبياء ، لمحمد عبد الغفار ، وكتاب محمد رسول ، هكذا بشرت الأنجيل ، لبشري زخاري ميخائيل ، وآخر كتاب قرأته في هذا الموضوع «البشارات والمقارنات» للشيخ محمد الصادق الطهراني . صدر حديثاً ، وهو متخم بالشواهد القاطعة من كتب اليهود والنصارى على تحريف التوراة والأنجيل المتداولة الآن .

(فلما جاءهم - أي جاء عيسى بنى اسرائيل - بالبينات قالوا هذا سحر مبين) . لم يكتف اليهود بقولهم عن السيد المسيح (ع) : انه ساحر ، حتى قالوا : هو ابن النجار ، كما جاء في انجيل متى اصحاح ١٣ آية ٥٥ وانجيل مرقس اصحاح ٦ آية ٣ .. ينص الانجيل على ان اليهود قذفوا السيدة العذراء بالزنا .. ومع هذا نرى الكثير من النصارى يتحالفون مع الصهيونية عدوة الأديان والانسانية بخاصة المسيحية - يتحالف الكثير منهم مع الصهاينة ضد الاسلام وأهل القرآن الذي يقول : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدقة - ٧٨ المائدة » .. وان دل هذا التحالف على شيء فلما يدل على ان المسيحية عند انصار اسرائيل هي مجرد شعار لمآرب أخرى ، وان دينهم وضميرهم هو الاستيلاء والاعتداء تماماً كالصهاينة .

والله مَن نوره الآية ٧ - ١٤ :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ
وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذِلَّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ

بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *
وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ
مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ
مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ
فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ *

اللفظ :

المراد بالاسلام هنا الاستسلام لأمر الله والالتقياد لأوامره ونواهيه . والمراد بنور
الله دينه وبراهينه . وأفواههم كناية عن أكاذيبهم وأباطيلهم . ومنهم مظهر .
وحواريو الرجل خاصته . وظاهرين غالبيين .

الاعراب :

وهو يدعى الى الاسلام الجملة حال . ومفعول يريدون محذوف ، والمصدر
من ليطفنوا مفعول لأجله مع ذكر اللام أي يريدون الافتراء لأجل اطفاء
نور الله . والله متم نوره الجملة حال . ويغفر بالجزم جواباً لتؤمنون لأن أمر
بصيغة الخبر أي آمنوا يغفر لكم . ويدخلكم عطف على يغفر . ومسكن عطف

على جنات . وأخرى مبتدأ والخبر محذوف أي ولكم أخرى ، وجملة تحبونها صفة
لأخرى . ونصر بدل من أخرى .

المعنى :

(ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام) ١ . دعا رسول
الله (ص) قومه الى نبذ الشرك والايمان بالله وحده ، فضايقوا به وتألبوا عليه ،
وأثاروا حوله الشكوك والافتراءات .. وهكذا يلجأ المبطل المعاند الى اختلاق
الأكاذيب ، وتلفيق الأباطيل كلما دعي الى الحق ، سواء أكان الداعي نبياً أم غير
نبي (والله لا يهدي القوم الظالمين) الذين يفترون على الله الكذب ، ومثله :
« لا تغفروا على الله كذباً . فيسحقكم بعذاب وقد خاب من افترى - ٦١ طه »
ج ٥ ص ٢٢٦ . (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره
الكافرون) . حاولوا القضاء على الاسلام بالدسائس والأكاذيب ، فكان مثلهم في
ذلك تماماً كالذي ينازع الله في سلطانه ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس
لا يعلمون .

(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره
المشركون) . المراد بالرسول هنا محمد ، وبالهدى القرآن ، وبدين الحق الاسلام.
وقد وردت هذه الآية والتي قبلها بالحرف الواحد في سورة التوبة الآية ٣٢ و ٣٣
ج ٤ ص ٣٣ وما بعدها (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من
عذاب أليم) . الدنيا في حقيقتها متجر لكل الناس بلا استثناء .. أبداً لا أحد في
هذه الحياة إلا وتطبع أعماله وتصرفاته بقصد المصلحة والربح ، ولكن المصلحة
منها بشعة وقبيحة كالذي يعمل لمجرد الشهرة وتكديس الثروة بكل سبيل ، ومنها
مصلحة حسنة وخيرة كالذي يعمل لسد حاجاته وحاجات الآخرين .. ولأن الربح
هو الدافع الأول على العمل فقد عرض سبحانه على عباده تجارة يرجون بها النجاة
من غضبه وعذابه ، والفوز بمريضاته وثوابه ، ولا ربح كالأمان والجنان ، وقد
حدد سبحانه ثمن هذا الربح بقوله :

(تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) . هذا هو الثمن : ايمان لا يشوبه ريب ، وتضحية بالنفس ، واشار بالمال ، ومتى تحقق ذلك تم الصفقة مع الله ، ومن أوفى بعهده منه تعالى ؟ . وفي نهج البلاغة : ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها (ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) ان النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه خير من الأنفس والأموال والأولاد .

(يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن) . هذا بيان وتفصيل للريح الذي يتألونه من هذه التجارة ، وأول هذا الريح غفران الذنوب ، ولا حر عند الله إلا من تحرر من ذنوبه وآثامه ، والريح الثاني ملك قائم ، ونعيم دائم (ذلك الفوز العظيم) الذي لا فوز أعظم منه (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) . المراد بالنصر والفتح القريب فتح مكة كما يتبادر الى الأذهان .. وكان الصحابة يتلهفون على هذا النصر لكثرة ما لاقوه من مشركي أهل مكة ، فأمر سبحانه نبيه الكريم ان يبشرهم بهذا النصر وقربه بعد البشارة بالغفران والجنان .

(يا ايها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله) . الخطاب في يا ايها الذين آمنوا للصحابة بأمرهم الله فيه أن يكونوا مع رسوله العظيم كما كان الحواريون مع عيسى قولاً وفعلاً . وتقدم مثله في الآية ٥٢ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٦٧ .

وفي قاموس الكتاب المقدس : « يسمى يسوع الناصري - أي عيسى - .. والنسبة تعود الى مدينة الناصرة .. ومعنى يسوع « يهوه مخلص » وهو اسمه الشخصي ، أما المسيح فهو لقبه .. ويقال المسيح لأنه مكرس للخدمة والقضاء .. ودُعي المؤمنون مسيحيين سنة ٤٢ أو ٤٣ م .. ويرجح ان هذا اللقب كان في أول الأمر شتيمة .. وبين عيسى وموسى أكثر من ١٢٠٠ سنة وأقل من ١٤٩١ لأن المؤرخين على أقوال في ذلك أكثرها ١٤٩٠ وأقلها ١٢١١ .

(فأمنت طائفة - بعيسى - من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) . المراد بظاهرين الغالبون بالحجة والبرهان ،

سورة الصف

والمعنى ان بني اسرائيل اختلفوا في عيسى ، وهو منهم ، فمنهم من قال : هو عبد الله ورسوله ، وقال آخرون : هو إله . وقال اليهود : ساحر وابن زنا ، فأيد الله سبحانه بالحجة والبرهان القائلين هو رسول الله على الجاحدين والمؤلفين . وفي رسائل يوحنا ان ضد المسيح هو من أنكر التجسد واتحاد لاهوت المسيح بناسوته . أما القرآن فيقول : ان أعداء المسيح هم الغالون فيه والقالون له .

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

١١ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بعث في الأميين رسولا ١ - ٤ :

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ
الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ
فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

اللغة :

المراد بالأميين هنا العرب ، لأن الغالبية العظمى منهم كانت لا تقرأ ولا تكتب ،
وقيل المراد بهم أهل مكة نسبة الى أم القرى . ويزكّيهم يطهرهم من أرجاس
الشرك والآثام .

الإعراب :

منهم متعلق بمحذوف صفة للرسول . وجملة يتلو صفة ثانية . وآخرين عطف على الأمين . ولما أي لم .

المعنى :

(يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم) . كل ما في الكون يدل على وحدانية الله وقدرته ، وهذا تسيح وتمجيد بالطبع ، والملك المسيطر ، والقدوس المنزه عما لا يليق ، والعزيز الذي لا يقهر ، والحكيم في جميع تصرفاته . وتقدم مثله في أول سورة الحديد والحشر والصف .

(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) . المراد بالرسول محمد (ص) وبالأميين العرب ، ووصفهم سبحانه بالأميين لأن أكثرهم آنذاك كانوا لا يقرأون ولا يكتبون . وذهب البعض الى ان المراد بالأميين هنا أهل مكة لأن «ام القرى» من أممائها ، ويرد هذا القول أولاً : ان المتبادر الى الافهام من هذه الكلمة عدم القراءة والكتابة . ثانياً : قوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب » ٧٨ البقرة ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً . ثالثاً : قول الرسول الأعظم (ص) : « نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » . وقال بعض أهل الكتاب : ان قوله تعالى : « بعث في الأميين رسولا منهم » يدل ان محمداً نبي العرب خاصة . وقد أجابنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٩٢ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٢٥ وعند تفسير الآية ٤٠ من سورة الأحزاب ج ٦ ص ٢٢٥ فقرة ولماذا ختمت النبوة بمحمد . ثم حدد سبحانه مفهوم رسالة نبيه الكريم بما يلي :

١ - (يتلو عليهم آياته) . يبلغهم رسالات ربه التي تسيّر بهم على طريق الحياة والنجاة .

٢ - (ويزكيهم) يظهر نفوسهم من الشرك ، وعقولهم من الجهل ، وأعمالهم من القبائح والآثام .

٣ - (ويعلمهم الكتاب) . يتعلمون من ظلمات العمى والجهل الى نور العلم والهداية بتعاليمه التي تمجد العلم ، وتنبيذ الخرافات ، وترتكز على العقل والقطرة البشرية .

٤ - (والحكمة) . وكل ما يهدي الى الخير في العقيدة والسلوك فهو حكمة . قال ابن عربي : « الحكمة صفة يحكم بها ولا يحكم عليها ، أي تعلو ولا يُعلَى عليها .

والخلاصة ان رسالة محمد(ص) رسالة انسانية عامة تخاطب الناس بخطاب العقل ، وتحاسبهم بحسابه ، والصفة الهامة التي امتاز بها الاسلام عن سائر الأديان انه يرحب بكل دراسة موضوعية منصفة عن أي مبدأ من مبادئه وحكم من أحكامه دون استثناء (وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) من الشرك والجهل والظلم والحقد ، وما الى ذلك من القبائح والرذائل .

(وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) . المراد بالآخرين كل من دخل في الاسلام بعد محمد (ص) الى يوم القيامة عربياً كان أم غير عربي ، والمعنى ان محمداً هو نبي الرحمة لجميع الأجيال : ودعوته عامة للناس أجمعين . وقد آمن بها العرب في عهده ، ويؤمن بها الأجيال المتتابعة من سائر الأمم الى يوم يُبعثون (وهو العزيز الحكيم) . وبغزته وقدرته أعز الاسلام ونشره في شرق الأرض وغربها : وبحكمته تعالى اختار محمداً لرسائله العامة الشاملة (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) . ذلك اشارة الى ان محمداً فضل من الله ورحمة للانسانية جمعاء ، ومثله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين - ١٠٧ الأنبياء » .

كمثل الخمار يحمل أسفاراً الآية ٥ - ٨ :

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْخِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا
بَنَسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ * قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ

النَّاسِ فَتَمْنُوا الِّمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنَّ الِّمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ
مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *

اللفظ :

حلوا التوراة أمروا أن يعملوا بها . لم يحملوها لم يعملوا بها . والاسفار جمع
سفر وهو الكتاب . والغيب ما غاب علمه عن الخلق ، وعالم الشهادة ما
علموه وشاهدوه .

الإعراب :

مثل فاعل بشس . والذين كذبوا صفة للقوم ، والمخصوص بالنم محذوف أي
بشس مثل القوم الذين كذبوا مثلهم . وجملة فإنه ملائكم خبر ان الموت .

المعنى :

(مثل الذين حلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا) . قال
اليهود : نحن أهل التوراة وهي كتابنا المقدس ، ومع هذا ينكرون محمداً الذي
نصت عليه التوراة ، فكان حالهم في ذلك تماماً كحال الحمار يحمل كتب العلم على
ظهره ، ولا يعقل ما فيها ويتنفع بشيء منها .. لقد حرّف اليهود توراة موسى
وغيرها من الأسفار المقدسة عندهم ، ما في ذلك ريب ، انظر تفسير الآية ٦
من سورة الصف فقرة « تحريف التوراة والانجيل » ، ثم عملوا بما حرفوا وزيفوا ،
ونذكركم من باب المثال لا الحصر السفر الذي نسبوه الى النبي حزقيال ، فقد جاء
في اصحاح ٩ من هذا السفر ما نصه بالحرف الواحد : « لا تشفق أعينكم ولا

تغفروا الشيخ والشباب والعذراء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك . وهذه هي اسرائيل تطبق - بعد أن سنحت لها الفرصة - هذا المبدأ نصاً وروحاً .. وتقتل الشيخ والشباب والعذراء والطفل والنساء لا لشيء إلا للهلاك والقضاء .

وتسأل : ان أكثر المسلمين لا يعملون بالقرآن ، فينبغي ان يكون مثلهم كمثّل الحمار يحمل أسفاراً ؟ .

الجواب : ان المسلمين لم يحرقوا القرآن ويحذفوا منه الآيات التي تعرّف بموسى وعيسى والتوراة والانجيل الأصليين الصحيحين كما حرق اليهود التوراة والنصارى الانجيل : « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون - ١٣٦ البقرة » . اذن، فلا وجه للنقض والقياس . (بشس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) . كل من كذب بالحق فقد أعطى مثلاً من نفسه على كفرها وفسادها ، وجاز لكل انسان ان يقول له : قبحاً لك وترحاً . (والله لا يهدي القوم الظالمين) وكيف يهتدون وقد ران الضلال على قلوبهم ؟ .

(قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم انكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) . زعم اليهود انهم شعب الله الخاص ، وأنهم أولياء الله وأحباؤه ، وان اللجنة خالصة لهم وحدهم ، فرد سبحانه عليهم بأنهم كاذبون في هذا الزعم .. ولو صدقوا فيما قالوا لتمنوا لقاء الله لأن الذي عنده خير وأبقى مما هم فيه من الخزي والهوان .. كلا ، انهم يكرهون الموت ، ويخافون منه لكثرة ذنوبهم .. والغريب انهم يداومون ويصرون على هذه الذنوب والآثام التي يكرهون الموت من أجلها . وتقدم مثله في الآية ٩٤ من سورة البقرة ج ١ ص ١٥٤ .

(قل ان الموت الذي تفرون منه فإنه ملائكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة) . لا مفر لكم من الموت والبعث والحساب والجزاء لدى عادل عليم بما تسرون وما تعلنون (فينبئكم بما كنتم تعملون) في الدنيا من تحريف الكتاب وغيره من الافساد والجرائم ، ويجازيكم بعذاب الجحيم الأليم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *

اللفظ :

المراد بالنداء للصلاة الاذان . وقُضيت أدبت .

الإعراب :

قال ابن هشام في كتاب المعنى : تأتي من مرادفة لفي ، واستشهد بقوله تعالى : من يوم الجمعة أي في يوم الجمعة .

المعنى

(يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله) . صلاة الجمعة فرض كتاباً وسنة واجباً ، وهي ركعتان مع خطبتين قبلها ، ويكفي بها عن صلاة الظهر ، وتختص بالرجال دون النساء ، ولا خلاف في شيء من ذلك بين المسلمين ، وانما الخلاف بينهم : هل تجب صلاة الجمعة مطلقاً من غير شرط ، أو تجب مع وجود السلطان أو من يستنيبه لها ؟ .

قال الحنفية والامامية : وجود السلطان أو نأبه شرط ، ولكن اشترط الامامية عدالة السلطان وإلا كان وجوده كعدمه ، واكتفى الحنفية بوجود السلطان وان لم يكن عادلاً .

وقال الشافعية والمالكية والحنابلة : تجب مطلقاً وجد السلطان أم لم يوجد . وقال كثير من فقهاء الامامية : إذا لم يوجد السلطان العادل أو نأبه ووجد فقيه عادل يُخَيَّرُ بينها وبين الظاهر . والتفصيل في كتابنا فقه الامام جعفر الصادق ج ١ . (وذروا البيع) . المراد بالبيع كل تصرف يصد عن صلاة الجمعة بيعاً كان أم غيره ، وانما ذكر سبحانه البيع بالخصوص لأنه يفوت - في الغالب - بفوات وقته ، أو لأن النفس تميل اليه أكثر من الصناعة والزراعة ، وما اليها . واختلف الفقهاء في البيع الذي يُعقد وقت النداء لصلاة الجمعة : هل يقع صحيحاً يجب الوفاء به ، أو فاسداً لا أثر له ، ولكن يأثم البائع والمشتري ؟ وهذا البيع - عندنا - صحيح يجب الوفاء به لأن النهي عن المعاملة لا يدل على الفساد خلافاً لصاحب مجمع البيان (ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) مواقع الخير والشر ، وما بضرركم وما ينفعكم .

(فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) . بعد أن أمر سبحانه بالصلاة أمر بالسعي في الأرض طلباً للرزق والعيش بالبيع وغيره مع التوكل على الله في سائر الأحوال ، وبهذا التوازن يتحقق الفلاح دنيا وآخرة . ومثله قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا - ٧٧ القصص » . وبكلمة لا فرق عند الله بين من ترك العمل لآخرته ، ومن ترك العمل لدنياء .

(واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً) . جاء في كتب التفسير والحديث : ان النبي (ص) كان في ذات يوم من الأيام يخطف قائماً لصلاة الجمعة ، فدخلت غير الى المدينة تحمل طعاماً ، فخرج اليها الصحابة ، ولم يبق حول النبي (ص) غير اثني عشر رجلاً ، فزلت هذه الآية .. وظاهرها يتفق تماماً مع هذه الرواية عند استثناء الاثني عشر رجلاً ، ولكنها قد رويت بطرق متعددة ، ودُوِّنَتْ في الكتب الصحاح لأن أحد رواةها عبدالله بن جابر الأنصاري ، وهو من أهل الصدق والعدالة ، وعليه تكون الرواية تفسيراً وبياناً للآية .

سورة الجمعة

وبهذه المناسبة نشير الى ان للمصلحة المادية أثراً بالغاً في حياة الناس لأن الاقتصاد قوام الحياة ، ما في ذلك ريب ، لذا قال سبحانه : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » فليس صحيحاً ان الاقتصاد هو الباعث الوحيد على كل موقف يقفه الانسان، وكل حركة يتحركها .. كلا ، فإن هناك جوانب أخرى تبعث على الحركة والعمل ، وليس بينها وبين الاقتصاد والمصلحة المادية أية صلة ، فقد انفض كثير من حول الرسول الى التجارة وتركوه قائماً كما نصت الآية ، ولكن بقي حوله آخرون ولم يتركوه وحيداً كما قالت الرواية .

(قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) . عند الله سبحانه رزق الدنيا ورزق الآخرة .. وليس بينها مانعة جمع ، فلا العمل للآخرة ينقص من رزق الدنيا ، ولا العمل للدنيا ينقص من ثواب الآخرة ، بل كل عمل يسد حاجة من حاجات الحياة فهو من عمل الآخرة أيضاً .. ولا أبتعد عن الحقيقة اذا قلت : ان كل عمل أحله الله في هذه الحياة فهو مطية للآخرة، وما أكثر ما أحل الله لعباده .. قال الإمام علي (ع) : ما أحل لكم الله أكثر مما حرم عليكم، فلدروا ما قل لما كثر ، وما ضاق لما اتسع .

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

١١ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هم العدو فاحذرهم الآية ١ - ٦ :

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهمُ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *

اللغة :

الجنة الوقاية . ويؤفكون بصرفون . لووا رؤوسهم أمالوها أو حركوها .
يصدون يعرضون .

الإعراب :

كُتِرَ همزة إن بعد يعلم ويشهد لأن اللام دخلت على خبرها ، ولولاها
لكانت مفتوحة . وما كانوا يعملون « ما » مصدرية والمصدر المنسبك فاعل ساء
أي ساء عملهم . ودخلت اللام على « قولهم » لأن تسمع تتضمن معنى تصغي .
وجملة كأنهم مستأنفة أو خبر لمبتدأ محذوف أي هم كأنهم . وعليهم متعلقة بمحذوف
مفعولاً ثانياً ليحسبون . وانتهى موضعها النصب على الحال إذا كانت بمعنى كيف
وعلى المفعول المطلق إذا كانت بمعنى أي وعلى الظرفية إذا كانت بمعنى أين .
وسواء مبتدأ وعليهم متعلق به لأن سواء بمعنى مستو ، واستغفرت أصلها أستغفرت
والهمزة للتسوية لا للاستفهام ولذا صح وقوعها خبراً للمبتدأ . وقيل : سواء خبر
مقدم والفعل مؤول بمصدر مبتدأ مؤخر . ونحن لا نرى وجهاً لهذا التأويل حيث
لا توجد أداة مصدرية ، والمعنى يصح بدون تأويل .

المعنى :

أنهى القرآن على الصحابة وجهادهم في سبيل الاسلام، ونوء بمنازلهم وأقدارهم ،
وأيضاً تحدث في العديد من سوره عن المنافقين وتلوتهم واصرارهم على الكيد
للاسلام ونبيه . ولا نهاية للحديث عن المنافقين لأن أكاذيبهم وأساليبهم الملتوية لا
حد لها ولا نهاية .. فلا بدع أن يتكرر الحديث عنهم ، وأن يخصهم الله سبحانه
بسورة في كتابه ، وقد وصفهم فيها بأقبح الصفات ، منها :

(إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله) .
أضمرُوا الكفر بالله ، والعداء لنبيه الكريم ، وأظهروا الحب والإيمان به وبرسالته

(والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) . المراد بشهادة الله علمه تعالى ، والمعنى ان المنافقين يقولون بالاستهتهم ما ليس في قلوبهم ، والله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، وهو لهم بالمرصاد ، وأيضاً النبي يعلم حقيقتهم ، ولكنه مأمور أن يعاملهم بالظاهر لا بالواقع ، قال : وأمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . وأبلغ ما قرأت في الفرق بين المؤمن والمنافق قول الإمام علي (ع) : « لسان المؤمن من وراء قلبه ، وقلب المنافق من وراء لسانه » . أي ان لسان المؤمن تابع لقلبه ، فلا يقول إلا ما يعتقد ، أما المنافق فقلبه تابع للسانه ، ولسانه يدور مع أهوائه وأغراضه .. ونتيجة ذلك ان المنافق لا قلب له إلا الهوى والغرض .

(اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله) . كثيراً ما كانت تتكشف نوايا المنافقين ودسائسهم ضد الرسول (ص) والمسلمين ، وكانوا كلما حدث شيء من ذلك اتخذوا من إيمانهم وقاية يتقون بها غضب النبي (ص) ، ويسترون بها ما يكيدون لرسول الله ، وما يصدون عن الإيمان به وبرسالته (أنهم ساء ما كانوا يعملون) من التلون والمكر والغدر .

(ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) . المراد بآمنوا أنهم عُرِفُوا بين الناس بالإيمان .. وإلا فإن المنافقين لم يؤمنوا بالله طرفة عين ، وقوله تعالى، ثم كفروا أي ثم عرفهم الناس بأنهم كانوا يظهرُونَ الإيمان ويضمرون الكفر ، أما قوله : فطبع على قلوبهم فعناه انها لا تهتدي الى الرشـد والخير بعد أن أعمأها الهوى والضلال . وتقدم مثله في الآية ١٣٧ من سورة النساء ، ج ٢ ص ٤٦٢ .

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسادهم) . جبال في المنظر ، وقبح في المخبر ، وبمعبر الإمام علي (ع) قلوبهم دويئة - أي مريضة - وصفاهم نقية (وإن يقولوا تسمع لقولهم) لأنهم يتحدثون بكلام المخلصين ، ويقولون في الدنيا وأشيائها بقول الزاهدين (كأنهم خشب مسندة) .. تمثال من خشب ، ولكنه يأكل ويشرب ، وكل من عمي عن الهدى فهو ميت الاحياء .

(يحسبون كل صبيحة عليهم هم العدو فاحذرهم) . هنا تدب فيهم الروح

ولكن روح الجبن والملع من هتك الأستار وكشف الأسرار ، فلا يسمعون صوتاً إلا ويظنونونه صبيحة العذاب تأخذهم من حيث لا يشعرون .. وقد زادهم هذا الجبن والملع لزماً وحقداً عليكم أيها المخلصون فاحذروا من غيبتهم وغدرهم ، وفوتوا عليهم الفرصة بكل ما تستطيعون (قاتلهم الله انى يؤفكون) . هذا ذم بصيغة الدعاء والتعجب ، والمعنى هم ملعونون لأنهم انصرفوا عن الحق وأعرضوا عنه تمرداً وعناداً . وكل ما جاء في وصف المنافقين في عهد الرسول (ص) فهو صورة طبق الأصل لعملاء اليوم الذين يتآمرون مع أعداء الله والوطن على الكيد لأمتهم والغدر بها .. ولا جريمة أعظم من خيانة الأمة ، ولا شيء أفظع من غش الانسان لأخيه الانسان . (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوآ رؤوسهم ورأيتمهم يصدون وهم متكبرون) . اذا نصحبهم ناصح وقال لهم : توبوا عما أنتم فيه يغفر الله لكم ورسوله أصروا على الباطل وأعرضوا عن الحق ، وهزأ رؤوسهم ساخرين متكبرين ، لأنهم أجل وأعظم ممن يحتاج إلى الرسول ورضوانه كما يزعمون (سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) . لاجدوى من استصلاحهم - إذن - فلا جدوى من طلب المغفرة لهم .. ان الله غفور رحيم ، ما في ذلك ريب ، ورحمة الله وسعت كل شيء إلا من يأبأها ويتكبر عليها .. وليس من الرحمة في شيء أن ترحم من لا يرى نفسه محتاجاً إلى رحمتك (ان الله لا يهدي القوم الفاسقين) ما داموا مصرين على الفسق . وتقدم مثله في الآية ٨٠ من سورة التوبة ج ٤ ص ٧٥ .

ليُخرجن الأعر منها الأذل الآية ٧ - ١١ :

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلَّهِ الْوَيْبَاتُ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ

أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ* وَأَنْفِقُوا بِمَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ
فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ*
وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ*

الإعراب :

الأعر فاعل ليُخرجن ، والأذل مفعول ، ونون يُخرجن للتوكيد . ورب أي
يا ربي . ولولا هلا . وأصل فأصدّق فأنتصدق ومحلهما النصب بأن مضرة بعد
الفاء في جواب لولا . وأكن أي ان أخرتني أكن .

المعنى :

(هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) . ضمير
« هم » يعود الى المنافقين ، والمراد بمن عند رسول الله فقراء المهاجرين ، وكان
أغنياء الأنصار يمينون هؤلاء الفقراء ، وينفقون عليهم ، فقال المنافقون للأغنياء :
لا تنفقوا أموالكم على أحد من المهاجرين ، لعلهم يستيشون من النبي فينفقوا عنه .
فردّ عليهم سبحانه بقوله : (والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا
يفقهون) . أنأمرون الناس باليخل وعلم الاتفاق على من آمن بالله وجاهد في
سبيله ، والله خالق الخلق ومالكه ورازقه ووارثه ، وهو القادر على ان يغني المؤمنين
من فضله ؟ . ولكنكم لا تعلمون هذه الحقيقة أنها المنافقون .

(يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليُخرجن الأعزّ منها الأذل) . قال المفسرون :
لهذه الآية قصة تتصل برأس النفاق عبدالله بن أبي ، وبغزوة بني المصطلق .
وكانوا فرعاً من خزاعة يسكنون على مقربة من مكة ، وقد عز عليهم أن يكون
للإسلام شأن في الجزيرة العربية . فنهأوا لحرب النبي (ص) بقيادة زعيمهم الحارث

سورة المنافقين

ابن أبي ضرار ، ولما علم النبي بادر اليهم بجيشه قبل أن يرحلوا الى المدينة ، وخرج ابن أبي مع جيش المسلمين رغبة في الغنيمة ، فنصر الله نبيه على أعدائه ، وغنم الكثير من أموالهم ، ورأى أن يفضل في العطاء الفقراء المهاجرين لينشلهم من الفقر ، ويقرب الفوارق بين الأغنياء والفقراء ، فامتلاً عبدالله بن أبي غيثاً ، وأخذ يحرض بعض الأنصار ، وقال فيها قال : « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل » . يريد بالأعرز نفسه ، وبالأذل النبي (ص) فتزلت هذه الآية ، وتحاذل ابن أبي ، ولم يجد ما يتعلل به .. وقال كثير من المفسرين : انه نطق بكلمة الكفر هذه لخلاف وقع بين أحد أتباعه وأجير لعمر بن الخطاب .

وكان لعبدالله بن أبي ولد صالح ، اسمه عبدالله أيضاً ، ولما علم بأمر أبيه ذهب الى رسول الله (ص) وقال له : لقد كان من أمر أبي ما قد علمت ، فإن كنت تريد قتله فبرني وأنا أقتله لأني أخشى أن تأمر غيرة بقتله فلا تدعني نفسي أنظر الى قاتل أبي ، فأقتل مؤمناً بكافر وادخل النار ، فأجابه الرسول : بل نرفق بأبيك ونحسن صحبته ما بقي معنا .

(والله العزة لرسوله وللمؤمنين) . هذا رد على ابن أبي الذي وصف نفسه بالأعرز .. وعزة الله سبحانه بأنه القاهر فوق عباده ، وعزة الرسول بإظهار دينه على جميع الأديان وخلدان أعدائه ومخاديه ، أما عزة المؤمنين فبنصرة الحق وأهله (ولكن المنافقين لا يعلمون) ان العز بالامان والتقوى .

(يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) . من تدبر هذه الآية والتي قبلها يرى أن المراد بذكر الله هنا الجهاد ، لأن الله سبحانه ذكر أولاً أن العزة له ولرسوله وللمؤمنين ، ثم نهى المؤمنين وحذرهم من الغفلة والتشاغل عن ذكر الله بالدنيا وحطامها ، وجعل نتيجة هذا التشاغل الخسران أي الخزي والمذلة دنياً وآخرة ، وليس من شك ان الخزي والمذلة نتيجة حتمية لحب الحياة والخوف من الجهاد والاستشهاد .. ولا شيء أصدق وأدل على هذه الحقيقة من حياة المسلمين والعرب في هذا العصر .

(وأنفقوا بما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) . المراد بإتيان الموت ظهور اماراته

الجزء الثامن والعشرون

ومقدماته ، والمعنى بادروا الفرصة بالانفاق مما أعطاكم الله من فضله ، ومن أهل حتى يأتي يومه الأخير فإنه يحض يد الندامة ، ويتضرع لله أن يجعله بعض الوقت.. ولكن هيئات أن يرجع ما فات . وتقدم مثله في الآية ٤٤ من سورة ابراهيم ج ٤ ص ٤٥٦ (ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء أجلها والله خير بما تعملون) . الأجل محتوم لا تقديم له ولا تأخير، ومن أضاع الفرصة فلا شيء له إلا الحسرة والكآبة . وتقدم مثله في الآية ١٤٥ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٧١ فقرة « الأجل محتوم » والآية ٣٤ من سورة الأعراف .

سُورَةُ التَّغَابُنِ

١٨ آية مدنية . وقيل مكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فمنكم كافر ومنكم مؤمن الآية ١ - ٦ :

يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا
تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَمْ يَأْنِكُمْ نَبَأَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ
كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا
وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيٌ حَمِيدٌ *

اللغة :

ذات الصدور السرائر والضمائر . وبال أمرهم عاقبة أمرهم، وأصل الوبال القفل .

الإعجاب :

الضمير في «بأنه» للشأن . وجملة تأتيهم خبر مقدم لكائنات ورسلهم اسمها . وبشر مبتدأ وجملة يهدوننا خبر ، وجاز الابتداء بالنكرة لمكان الاستفهام .

المعنى :

(يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) . بعض الكائنات تسبح بلسان المقال ، وبعضها بلسان الحال والدلالة . وتقدم مثله في أول سورة الجمعة (له الملك) يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء (وله الحمد) على عظيم احسانه ونير برهانه (وهو على كل شيء قدير) من غير آلة وروية بل بكلمة « كن » . (هو الذي خلقكم فنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير) . الانسان - في نظر الاسلام - بحريته وارادته ، ولا انسانية بلا حرية .. فله أن يختار الايمان حتى ولو كان أبواه كافرين ، وان يختار الكفر حتى ولو كان أبواه مؤمنين ، ولا يجبر على أحدهما دون الآخر .. أبداً لا إكراه في الدين وإلا بطل التكليف والحساب والثواب ، وبعد ان أعطى سبحانه لعبده الحرية التي يكون بها انساناً أمره بالايمان وفعل الخير ، ونهاه عن الكفر وفعل الشر ، وأقام له الأدلة على حسن ما أمر به وفتح ما نهى عنه - من عقله وفطرته ، فأمن بعض الناس وكفر آخرون ، والله عليم بإيمان من آمن وكفر من كفر ، ولكل حسب ايمانه وعمله من الثواب والعقاب .

(خلق السموات والأرض بالحق) أي لحكمة بالغة ، ولا شيء وُجد في هذا الكون عبثاً .. ولا فرق بين القول بالصدقة والقول بأن الشيء، حتى النظام ، يوجد نفسه بنفسه . وتقدم مثله في الآية ٤ من سورة النحل ج ٤ ص ٤٩٦ (وصوركم فأحسن صوركم) . قد يصور الفنان كائناً من الكائنات فيحسن ويتقن الصورة على أكمل وجه ، ولكن لا شيء له إلا التزيين والتشكيل تماماً كالباني يضع حجراً فوق حجر ، أما مادة البناء والتصوير فهي من الذي يقول للشيء : كن فيكون .. والله سبحانه خلق مادة الانسان بكلمة « كن » وصوره في أحسن

تقوم بيمزه عن سائر المخلوقات . وتقدم مثله في الآية ١٤ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٦١ (وإليه المصير) فيبتكم بما كنتم تعملون ، ومن زحزح عن النار.. فقد فاز (يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور) . المعنى واضح، وتقدم مرات، ويتلخص بأن الله بكل شيء عليم. (ألم يأتكم نبي الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) . الاستفهام للتوبيخ ، والخطاب لمن كفر بمحمد (ص) من المشركين ، وأعلن الحرب عليه وعلى دعوته ، وقد ذكرهم سبحانه بالآثم التي خلت من قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود .. كذبوا الرسل فأصابهم في الدنيا الهلاك والدمار ، ولعذاب الآخرة أشد وأخزى .

(ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا فكفروا وتولوا). ذلك إشارة الى ما حل بالآثم الماضية من العذاب لأنهم كذبوا الرسل، وقد جاؤهم بالدلائل القاطعة على نبوتهم، ومع ذلك أصروا على الكفر لا شيء إلا لأن الرسل بشر من جنسهم ، فكيف يهتدون بهم !.. وجهلوا ان الهداية تكون بالعلم أياً كان مصدره .. والغريب من أمرهم أنهم قالوا لمن دعاهم الى التوحيد : أبشر يهودنا ؟. وما قالوا هذا لمن دعاهم الى عبادة الأحجار ، بل سمعوا له وأطاعوا دون نقاش وجدال .. ولا غرابة فهذه هي طبيعة الجهل .. ومهما شككت فلني لا أشك ان أهل البصائر لو خيِّروا بين العمى مع العلم ، وبين الجهل مع البصر لا اختاروا العمى لأنه لا يقرب بعيداً ، ولا يبعد قريباً ، ولا يصور السواد بياضاً والبياض سواداً ، أما الجهل فيصور الهداية ضلالاً ، والضلال هداية، والحق باطلاً والباطل حقاً .

(واستغنى الله والله غني حميد) . وكل كائن يشهد بلسان المقال أو الحال ان الله غني عن الخلق وطاعتهم ، حميد في جميع صفاته وأفعاله .

ذلك يوم التغابن الآية ٧ - ١٣ :

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ

بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي
 أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يُجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ
 التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا
 وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ
 يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ
 تَوَلَّيْتُمْ فَأِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *

الطه :

أكثر ما يستعمل الزعم في الادعاء الباطل . والمراد بالنور هنا القرآن . ويوم
 الجمع هو يوم القيامة حيث يجمع الله فيه الأولين والآخرين . وقال كثير من المفسرين :
 ان التغابن هنا من الغبن حيث يغبن يوم القيامة أهل الحق أهل الباطل ، والذي
 نفهمه نحن ان المراد به الربح والخسران حيث يربح المحقون ، ويخسر فيه المبطولون
 ومهما يكن فالنتيجة واحدة ، ويكفر بغفر .

الإعراب :

ان مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي انهم لن يبعثوا ، والمصدر ساد مسد
 مفعولي زعم . واذا وقعت و بلى ، بعد النفي تبطله ، ويكون ما بعدها مثبتاً .

يوم يجمعكم « يوم » ظرف متعلق بينثون ، ويجوز أن يكون مفعولاً لفعل مقدر أي اذكروا يوم يجمعكم . وصالحاً صفة لمقدر أي عملاً صالحاً . وخالدين حال . وأيداً ظرف مؤكد لخالدين ومتعلق به . وبئس المصير المخصوص بالذم محذوف أي مصيرهم . ما أصاب من مصيبة « ما » نافية و « من » زائدة .

المعنى :

(زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعن ثم لنتبئن بما علمنا ذلك على الله يسير) . بينا طريقة القرآن في امكان البعث، ورد شبهات المنكرين وان من أبدع الخلق من لا شيء يهون عليه أن يجمع أجزاءه بعد تفرقها، وبسطنا الكلام في أساليب شتى عند تفسير آيات البعث ، منها الآية ٤ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٢ فقرة « الحساب والجزاء حتم » .

وتسأل : لقد دعا رسول الله (ص) إلى الإيمان بالبعث ، وخاصمه فيه عبدة الأوثان .. وبدية ان البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، وهذا المبدأ إلهي انساني حيث أقرته جميع الشرائع ، وعليه تكون البينة على الرسول (ص) ، فما هو الوجه ليمين الرسول مع ان المفروض ان يجابه المنكرين بالحجة الدامغة لا باليمين ؟. ثم هل يثبت البعث بمجرد اليمين ؟.

الجواب : أولاً ان الله سبحانه حكى عن المنكرين انهم سألوا النبي عن البعث كمتخبرين لا كمجادلين في هذا الموقف ، ولم يقولوا : من يحجي العظام وهي رميم، كما جاء في سورة يس، أو يقولوا : أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ائنا لمبعوثون كما في سورة الصافات ، وحيث اكتفى المنكرون بمجرد السؤال اكتفى الله ورسوله بمجرد الجواب مع التأكيد باليمين .. ولما قالوا في موقف آخر : من يحجي العظام وهي رميم، قال لهم : يحییها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ليأتي الجواب على وفق السؤال في كل من الموقفين .

ثانياً : ان الذين كفروا ومعهم المنافقون كانوا يعتقدون ان النبي (ص) لا يريد لهم الخير والاصلاح ، وانما يريد من دعوته الاستعلاء والتفضل عليهم تماماً كما

اعتقد الكافرون من قبل بنبي الله نوح : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم - ٢٤ المؤمنون ». فأقسم النبي ان دعوته دعوة الحق ، ومعنى هذا انه لا يريد إلا الحق . ومثله قول شعيب لقومه حين ظنوا به ظن السوء : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله - ٨٨ هود » .

(فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا) . ما دام البعث حقاً ، والحساب والجزاء حقاً فعلى كل انسان أن يؤمن بالله ورسوله والنور أي القرآن ، وانما وصفه سبحانه بالنور لأنه يخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر الى نور العلم والايمان ، ويهديهم الى سبيل السلام : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم - ١٦ المائدة » . (والله بما تعملون خبير يوم يحمىكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) . يحصى الله سبحانه على عباده أفعالهم وأفعالهم وأهدافهم ومقاصدهم في الحياة الدنيا ، ويعاملهم يوم القيامة بحسبها ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر . وسمي اليوم الآخر بيوم الجمع حيث يجمع الله فيه الخلائق للحساب والجزاء ، ويوم التغابن أيضاً حيث يربح المحق نفسه ، ويخسر الما بطل .

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) . بعد أن ذكر سبحانه أنه جامع الناس ليوم لا ريب فيه - قال : ان الناس في هذا اليوم نوعان : الأول آمن بالله ورسوله وكتبه ، وتزود الأعمال الصالحة من دنياه لآخريته ، وهذا النوع من الناس يفوز غداً بمغفرة الله ورضوانه ، وينعم لا ينتهي أمده . ولا ينقص مدده . والنوع الثاني ضالته الدنيا يطلبها انى كانت وتكون غير مكترث بدين أو ضمير ، ولا بحلال أو حرام ، وهذا النوع في الآخرة من الخاسرين ، مأواه جهنم وساءت مصيراً .

(ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) . يدل ظاهر الآية ان كل شر في الدنيا هو بقضاء الله وقدره .. وهذا يتنافى مع قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبا كسبت أيديكم - ٣٠ الشورى » . وأجبتنا عن هذا مفصلاً عند تفسير

الآية ٧٨ من سورة النساء ، ويتلخص الجواب بأن أية كارثة يكون مصدرها الطبيعة كالزلازل والقحط فإنها تنسب الى الطبيعة مباشرة ، واليه تعالى بواسطة ايجادها للطبيعة ، وهذه هي المعنى بقوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله » وأية مصيبة يكون مصدرها الاهمال وفساد الأوضاع فلإنها تنسب الى سوء اختيار المهمل والمفسد ، وهي التي عناها سبحانه بقوله : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » .

(ومن يؤمن بالله يهد قلبه) . ان الله سبحانه يعامل الانسان بما يختاره لنفسه ، فإن اختار لها الهدى والخير ، وسلك صراطه القويم — أخذ الله بيده وشمله بعبادته ، وله عنده ثواب المهتدين ، وان اختار الضلال ، وسلك اليه سبيله خذله الله وأوكله الى نفسه ، ثم يرده الى عذاب السعير (والله بكل شيء عليم) . يعلم من يرحم نفسه فيرحمه ، ومن يعرضها للهلاك عامداً فيهلكه (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان توليتم فإنا على رسولنا البلاغ المبين) . على الرسول البلاغ ، وعلينا السمع والطاعة . وتقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٩٢ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٢٣ (الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . وهو كافي المتوكلين عليه ، وولي المخلصين له .

عداوة الأزواج والأولاد الآية ١٤ - ١٨ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ
وَإِن تَغْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ
وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا
وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ * إِن تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

اللغة :

فنتة عنة تُوقع في المهالك . ما استطعتم غاية جهدكم . ومن يوق من يحفظ ويحترز .
وان ترضوا أي وإن تنفقوا . وشكور أي يشيب الطاعين والشاكرين .

الإعراب :

من أزواجكم وأولادكم « من » للتبويض . ما استطعتم « ما » مصدرية ظرفية
أي مدة استطاعتكم . وخيراً خبر يكن مقدرة أي انفقوا يكن الانفاق خيراً ، أو
نعت لمصدر محذوف أي انفاقاً خيراً .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم) . جاء
في كتب التفسير والحديث ان قوماً من مكة أسلموا ، وأرادوا الهجرة الى رسول
الله (ص) فنعهم أزواجهم وأولادهم ، فنزلت هذه الآية تحذر المؤمنين من طاعة
بعض الأزواج والأولاد . وقلنا أكثر من مرة : ان سبب النزول لا يخصص دلالة
العام ، وانما هو فرد من أفراد ، وعليه فكل زوجة لا تتعاون مع زوجها على
ما فيه صلاح الطرفين ديناً ودنياً فهي عدوة له ، وأيضاً هو عدوها إذا استنكف
عن هذا التعاون معها، ونفس الشيء يقال في حق الوالد والولد، بل والأم والأخ ،
وكل من يفعل ما يفعله العدو فهو عدو كائناً من كان .

وبهذه المناسبة نسجل ان انتقال الانسان من العزوبة إلى الحياة الزوجية أشبه
بانتقاله من الدنيا إلى الآخرة ، إما إلى جنة وإما إلى نار ، وفي الأغلب إلى
الجحيم لا إلى النعيم .. فإن الحياة في العصر الحاضر مع كثير من الزوجات والأولاد -
عذاب وجحيم .. فلا الولد يرضى من والده إلا بالخضوع والطاعة ، ولا الزوجة
ترضى من زوجها إلا أن تكون هي الرجل ، وهو المرأة .

(وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) . لا فرق بين العفو
والصفح والمغفرة إلا باللفظ ، والقصد من الجمع بينها مجرد التأكيد والترغيب ..

بعد أن حذر سبحانه من بعض الأزواج والأولاد لأنهم يفعلون ما يفعل العدو - قال : ان تغفوا عنهم رحمة بهم وطمعاً في اصلاحهم فإن الله تعالى يعاملكم بالمثل لأنه يرحم من يرحم ، ويغفر للذين يغفرون حيث تحسن الرحمة والمغفرة بلاربيب ، وإلا فان بعض الذنوب لا يجوز تجاهلها بحال . وتومئ الآية الى ان حياة الأسرة لا تستقيم إلا بالصبر والعفو عن كثير ، وانه لو حاسب كل واحد من أبنائها الآخر على كلمة يقولها أو حركة تبدر منه لساد بينهم التنازع والتخاصم وعاشوا في حجب .

(انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) . كل ما شغفت به وضلك عما انت مسؤول عنه دنيا وآخرة فهو فتنة ، مالا كان أو ولداً أو زوجة أو جاهاً أو فناً وما اليه ، وانما خص سبحانه بالذكر الأموال والأولاد لأنها أعظم فتنة من غيرها ، ومهما عظمت ملذات الدنيا فإن الذي عند الله خير وأبقى . وتقدم مثله بالحرف في الآية ٢٨ من سورة الأنفال ج ٣ ص ٤٦٩ .

وفي تفسير الطبري وغيره : ان رسول الله (ص) كان يخاطب فجاء الحسن والحسين . وعليهما قيضان أحمران يعثران ويقومان ، فترل الرسول وأخذهما ورفعهما في حجره ، ثم قال : صدق الله العظيم : انما أموالكم وأولادكم فتنة ، رأيت هذين فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما . ثم أخذ يخاطب .

(فأتقوا الله ما استطعتم) . ابذلوا جهد المستطاع في صيانة أنفسكم عن الفتنة والابتعاد عن محارم الله ، ولا ترتكبوا شيئاً منها حرصاً على الأموال أو إشاراً للأولاد .. وذهب البعض إلى ان قوله تعالى : « اتقوا الله حق تقاته » - ١٠٢ آل عمران « فيه تشديد ، وان قوله : « فأتقوا الله ما استطعتم » فيه تخفيف ، ثم رتب على ذلك ان قوله : « ما استطعتم » ناسخ لقوله : « حق تقاته » أما نحن فلا نرى أي فرق بين الآيتين لأن على الانسان أن يتقي غضب الله ما استطاع ، ولا شيء عليه فيما لا يستطيع . أنظر ج ٢ ص ١٢٢ .

(واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا) . اسمعوا دعوة الله ورسوله ، وراعوها بالطاعة والتقوى ، وأنفقوا الفضل من أموالكم في سبيل الله يكن ذلك (خيراً لأنفسكم) أي « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها » - الإسراء . (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . إن بذل المال والنفس طريق الى الفلاح والنجاح ،

الجزء الثامن والعشرون

والشع بها سبيل الخذلان والحصران، لأن الشع والحرص من أقوى البواعث على التحم في القبائح والجرائم . وتقدم مثله بالحرف في الآية ٩ من سورة الحشر .
(إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور جليم) .
يستفرض سبحانه عبادته وعنده خزائن السموات والأرض، ويضاعف الأجر للمطيعين تفضلاً منه، ويغفر للتائبين رحمة بهم، ويشكر المحسنين بإعطاء الكثير على القليل ، ويمهل العاصين حتى كأنه قد غفر عنهم . وتقدم مثله في الآية ٢٤٥ من سورة البقرة و ١٢ من سورة المائدة و ١١ من سورة الحديد (عالم الغيب والشهادة) لا يخفى عليه شيء (العزيز) الذي لا يقهر (الحكيم) فيما خلق ودبر .

سُورَةُ الطَّلَاقِ

١٢ آية مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فطلقوهن لعدتهن الآية ١ - ٥ :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُورًا * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُؤْخَذُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا * وَاللَّائِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأُنْحَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا * ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا *

اللغة :

إذا طلقتم أي إذا أردتم الطلاق . والعدة بكسر العين ، والمراد بها هنا الزمان الذي ترخص فيه المرأة عقيب الطلاق . وفاحشة ميئة معصية ظاهرة كالزنا الثابت بأربعة شهود . وبلغن أجلهن أشرفن على تمام العدة . فهو حسبه كافيه . وبالغ أمره لا يفوته ما أراد . وقدراً أي تقديرأ . وأولات الاحمال الحليلات . وأجلهن انقضاء عدتهن .

الإعراب :

لعدتهن على حذف مضاف أي لزمان عدتهن ، ومعناه ان الطلاق مقيد بزمان معين ويأتي التفصيل ، وعليه تكون اللام للتوقيت مثل كتبه لخمس ليال بقيت من شهر كذا والمجرور متعلق بطلقوهن . والمصدر من أن يأتي متعلق بباب السببية المقدرة أي بسبب اثبات الفاحشة . واللائي يشن مبتدأ أول ، فعدتهن مبتدأ ثانٍ وثلاثة أشهر خبره ، والجملة خبر الأول . وان ارتبتم اعتراض . واللائي لم يحضن مبتدأ والخبر محذوف أي فعدتهن كذلك . وأولات الاحمال مثل واللائي يشن . وأجرأ مفعول يعظم على معنى يعطيه أجراً عظيماً .

المعنى :

ذكر سبحانه في هذه الآيات جملة من أحكام الطلاق ، وهي :

١ - (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) . الخطاب للنبي (ص) والمراد به جميع المكلفين لأن التشريع يشمل الجميع ، والمعنى إذا أراد المسلم أن يطلق زوجته فعليه أن ينتظر الوقت المناسب للدخول في العدة ، بحيث يكون الوقت الذي تُطلق فيه جزءاً من العدة ، وقد أجمعت المذاهب الاسلامية على ذلك ، ولكن قال السنة : ان هذا التحريم لا يفسد الطلاق الفاقد لهذه الشروط ، بل يقع صحيحاً ولكن ياتم المطلق . وقال الشيعة الإمامية : بل يقع لغواً من الأساس ،

سورة الطلاق

لأن النهي عنه هو نهى عن ترتيب الآثار عليه تماماً كالنهى عن بيع الخمر فإن القصد منه عدم الأثر لهذا البيع لا تحريم التلفظ بصيغته .

واستدل الإمامية على ذلك بما جاء في صحيح البخاري ومسلم : ان ابن عمر طلق امرأته وهي حائض ، فسأل عمر الرسول (ص) عن ذلك ؟ فقال له : مره فليراجعها ، ثم يتركها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ، ثم ان شاء أمسك بعد ، وان شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التي أمر الله عز وجل ان يطلق لها .

فقوله (ص) : ان شاء أمسك وان شاء طلق قبل أن يمس هو تفسير وبيان لقوله : « فليراجعها » وان المراد به ان المرأة ما زالت في عصمته ، وعليه أن يمسكها على كل حال ، ولا خيار له بين الامساك والطلاق إلا إذا طلق مع الشرط .. هذا هو معنى فليراجعها ، وليس صحيحاً انه أمر بالرجوع عن الطلاق كما قال فقهاء المذاهب الأخرى، لأن الرجوع عن الطلاق امساك للزوجة الذي جعله الرسول نتيجة لقوله : « فليراجعها » وبدية ان الشيء لا يكون نتيجة لنفسه .. هذا ، الى ان الرجوع عن الطلاق لا يرفع الإثم السابق كي يأمر به النبي (ص) . واتفقت المذاهب قولاً واحداً على ان الزوجة غير المدخول بها تطلق على كل حال حتى ولو كانت في الحيض لأنه جل وعز قال : « ولعدتهن » وغير المدخول بها لا عدة لها لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فإلكن عليهن من عدة تعتدونها - ٤٩ الأحزاب » ج ٦ ص ٢٢٩ .

٢ - (وأحصوا العدة) . اعرفوا ابتداء العدة وانتهائها لأن لها أحكاماً تخصها كالنفقة للمعتدة ، وحق الرجوع عن الطلاق للمطلق إذا كان رجعي ، وحقها بالرجوع عن البذل إذا كان خلعياً ، وتحريمها على الأزواج حتى تخرج من العدة ، وما إلى ذلك مما ذكره الفقهاء في كتبهم (واتفقوا الله ربكم) فيما فرضه عليكم من أحكام العدة .

٣ - (لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن) . المراد ببيوتهن بيوت السكن لا بيوت الملك تماماً مثل قوله تعالى : وقرن في بيوتكن وقوله : واذكرن ما يتل في بيوتكن من آيات الله - ٣٤ الأحزاب ... واتفق الفقهاء على ان المطلقة

الرجعية تستحق النفقة بما فيها السكنى ما دامت في العدة ، واختلفوا في نفقة المعتدة من الطلاق البائن . فقال الحنفية : لها النفقة حائلاً كانت أم حاملاً . وقال المالكية : ان كانت حائلاً فلا شيء لها من النفقة إلا السكنى ، وان تكن حاملاً فلها كل النفقة . وقال الشافعية والامامية والحنابلة : لا نفقة لها ان كانت حائلاً ، ولها النفقة ان كانت حاملاً .

ومن أوجب النفقة للمعتدة بشئ أنواعها أوجب بقاءها في بيت الزوج الذي طُلقت فيه الى أن تنتهي عدتها، ويحرم عليها أن تخرج منه كما يحرم عليه اخراجها لقوله تعالى : لا تخرجوهن .. ولا يخرجن (الا أن يأتين بفاحشة مبينة) أي تثبت الفاحشة عليها شرعاً ، وانفقوا على ان الزنا فاحشة تستدعي اخراجها من البيت ، واختلفوا في غيره . والذي نراه ان المراد بالفاحشة هنا الزنا فقط لأنه هو وحده المتبادر الى الأفهام من كلمة الفاحشة حين تنسب الى النساء (وتلك حدود الله) . تلك إشارة الى شروط الطلاق وأحكام العدة ، وهي أحكام الله وحدوده التي بينها في كتابه وعلى لسان نبيه (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) لأنه عرضها لغضب الله وعذابه ، وفي آية ثانية : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين - ١٤ النساء » .

(لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) . ما يدريك أيها المطلق ان يؤلف الله بين القلبين بعد تنافرها ، وترجع المياه الى مجاريها ؟ . وفيه إيماء الى ان للقلوب تارات وساعات ، وان على الانسان أن لا يقول لشيء : اني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله . ومن هنا قال الإمام علي (ع) : « عرفت الله بفسخ الغرائم » أي ان هذا الفسخ دليل ظاهر على ان فوق تدبير الانسان تدبيراً أقوى وأعظم .

٤ - (فإذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف) . اذا أوشكت العدة على الانتهاء فالمطلقة بالخيار ان شاء عدل عن عزمه وأرجع المطلقة الى عصمتها ، وان شاء بقي على حكم الفراق ، فتقطع العصمة بينه وبينها ، وفي الحالين عليه أن لا يضارها في شيء ويؤدي حقها كاملاً ، وهذا هو المراد من الامساك بمعروف والفراق بمعروف . وتقدم مثله في الآية ٢٣١ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٥١ .. ثم ان المطلقة لا تخلو من أن تكون آيسة أو حاملاً أو

سورة الطلاق

حائلاً ، وبأتي الكلام عن الأوليين ، أما عدة الحائث فثلاثة اطهار بما فيها الطهر الذي طُفئت فيه ، هذا عند الإمامية والمالكية والشافعية ، أما عند الحنفية والحنبلة فعدها ثلاث حيضات . أنظر تفسير الآية ٢٢٨ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٤٠ .

٥ - (وأشهدوا ذوي عدل منكم) . اتفق فقهاء المذاهب على اعتبار شهادة العدلين بموجب هذه الآية ، واختلفوا في أي شيء تعتبر هذه الشهادة ، هل تعتبر في الرجوع عن الطلاق ، أو في إيقاع الطلاق ؟ قال فقهاء السنة : تعتبر في الرجوع عن الطلاق ، ولكن بعضهم أوجب هذا الاشهاد على الرجعة كالشافعية ، وبعضهم قال : انه مندوب كالحنفية .

وقال الشيعة الإمامية : لا يجب الاشهاد على الرجعة ، ويجب على الطلاق . وقال الدكتور محمد يوسف موسى استاذ ورئيس قسم الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق بجامعة عين شمس بالقاهرة في كتابه « الأحوال الشخصية » ص ٢٧١ طبعة ١٩٥٨ ، قال :

« يرى الشيعة الامامية ان من أهم شروط الطلاق حضور شاهدين عدلين لقوله تعالى : « وأشهدوا ذوي عدل منكم » .. وفي ذلك يقول أحد علمائهم : وهذا أنفع وسيلة الى الوثام بين الزوجين لأن لأهل الصلاح تأثيراً في النفوس وإعادة مياه الصفاء الى مجاريها، وإذا لم تنجح نصائحهم فلا أقل من تخفيف الطلاق وتقليله بسبب اشتراط العدلين » .

وقال الدكتور محمد يوسف موسى معلقاً على ذلك : « وهذه وجهة نظر يجب عدم التفاضي عنها ، فلن الأخذ بهذا الرأي يمهّد السبيل للصلح في كثير من الحالات حقاً » .

(وأقيموا الشهادة لله) . الخطاب للشهود ، ومعناه لا تغيروا شيئاً من الشهادة وأدوها على وجهها بقصد إحقاق الحق ، لا طلباً لمرضاة المشهود له ، ولا نكابة للمشهود عليه . ونقدم مثله في الآية ٢٨٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٥١ .

(ذلکم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) . انما ينتفع ببيان الله ويعمل بأحكامه المتقون حقاً ، أما الذين لا يؤمنون إلا بأنفسهم ومصالحهم فأولئك كالانعام همهم بطونهم ، والنار مثوى لهم (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) من

حرام الله الى حلالة ، ومن معصيته الى طاعته ، ويغنيه بفضله عن سواه (ويرزقه من حيث لا يحسب) . والذي نفهمه من هذه الآية ان الرزق لا ضابط دقيق له ولا قياس محكم ، فقد يأتي من غير احتساب ، وقد يذهب أيضاً من غير احتساب .. وكمن حادث سعيد بفاعاً به الانسان دون أن يترقبه .. وكمن حوادث سيئة ومؤلة يصاب بها لم تكن لتخطر له على بال .. وما من شك ان بعضها من احواله وتهاونه ، وبعضها من تدبير مدبر الكائنات .

(ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي كافيه ، والتوكل على الله هو الأخذ بستنته في العمل والسعي وراء الأسباب : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه - ١٥ الملك » . وفي الحديث : « اعقلها وتوكل » . (ان الله بالغ أمره) فإ شاء كان وما لم يشأ لم يكن (قد جعل لكل شيء قدراً) فلا عبث ولا فوضى ولا صدفة . وفي آية ثانية : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً - ٢ الفرقان » . وفي ثالثة : « وكل شيء عنده بمقدار - ٨ الرعد » ج ٤ ص ٣٨٤ .

٦ - (واللاتي يشن من المحيض من نساكن ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاتي لم يحضن) . اختلف فقهاء السنة في سن الآيسة اختلافاً بلغ حد التشویش والاضطراب ، فمن قائل : هي خسون . وقائل خمس وخسون . وقال ثالث : ستون . ورابع اثنتان وستون . وفرق خامس بين نساء العرب والعجم ، وقال : ان نساء العرب أقوى طبيعة . وقال سادس : تأخذ كل امرأة بعادة عشيرتها . وكثير منهم سكنتوا ولم يحددوا سن الآيسة بشيء .. وأيضاً اختلفوا في معنى قوله تعالى : « ان ارتبتم » فمنهم من قال : ان المراد به ان شككنم في حكم العدة لا في حال المرأة وبلوغها سن اليأس . وقال آخرون : بل المراد الشك في حال المرأة ويأسها .

أما الشيعة الإمامية فقالوا : سن القرشية ستون ، وغيرها خسون مستندين في ذلك الى روايات عن أهل البيت . وأيضاً قال الشيعة : أقل سن تحيض معها الأنثى تسع سنين . ويتفق هذا مع ما جاء في كتاب المغني لابن قدامة - من السنة - : « ان أقل سن تحيض معها المرأة تسع سنين لأن المرجع في ذلك الى الوجود ، وقد وجد من تحيض لتسع ، وروي عن الشافعي انه رأى امرأة لها أولاد أولاد ، وعمرها احدى وعشرون سنة » .

سورة الطلاق

وقرأت في بعض الصحف ان بنتاً في هذا العصر حلت قبل أن تبلغ التاسعة من عمرها . وبعد ، فقد اختلف السنة والشيعه في تفسير هذه الآية ، قال فقهاء السنة : المراد باللاتي يشن من الحيض من انقطع حيضها لكبر سنها ، والمراد باللاتي لم يحضن من لم تر دم الحيض بعد لصغر سنها ، وكل من هاتين عدتها ثلاثة أشهر إذا طلقت بعد الدخول .

ويتفق هذا مع قول بعض الكبار من فقهاء الإمامية كالسيد المرتضى وابن زهرة وابن سماعة وابن شهر آشوب . وذهب أكثر الإمامية الى ان المراد باللاتي يشن من الحيض المرأة التي يشك في بأسها بعد أن انقطع عنها الدم ، ولا يعلم هل انقطع لبلوغها سن اليأس أو لعارض آخر ؟ . وفسروا قوله تعالى : « ان ارتبتم » بالشك في حالها ، وانها هل بلغت سن اليأس ؟ أما المراد باللاتي لم يحضن عندهم فالشابات اللاتي علمن انهن تجاوزن سن الصغر ولم يبلغن سن اليأس ، ولكن انقطع عنهن الحيض لسبب آخر غير اليأس والصغر ، وكل من هاتين عدتها ثلاثة أشهر ، وقد استندوا في ذلك الى روايات عن أهل البيت ، وعلى هذا فالآية لم تتعرض لعدة الآيسة إيجاباً ولا سلباً .

٧ - (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) . اتفق فقهاء السنة والشيعه على ان عدة المطلقة الحامل هي وضع الحمل ، واختلفوا في عدة الحامل المتوفى عنها زوجها . قال السنة : هي تماماً كال المطلقة كل منها تعتد بوضع الحمل . وقال الشيعة : بل الحامل المتوفى عنها زوجها تعتد بأبعد الأجلين من وضع الحمل والأربعة أشهر وعشرة أيام جمعاً بين هذه الآية وبين قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً » - ٢٣٤ البقرة . وبسطنا الكلام عن هاتين الآيتين وجمعنا بينهما في ج ١ ص ٣٦٢ .

(ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً) . هذا مثل قوله تعالى في الآية ٢ والآية ٣ من هذه السورة : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » . ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ولا نعرف غرضاً لهذا التكرار إلا المزيد من الحث على التقوى والترغيب فيها .. على ان الترغيب هناك جاء بعد الأمر بإقامة الشهادة على وجهها ، وجاء هنا بعد بيان عدة الآيسة وأولات الأحمال (ذلك أمر الله أنزله ليحكم)

لنعملوا به مخلصين، وتفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .. ومرة أخرى يواصل سبحانه الحث على التقوى ويقول عز من قائل : (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً) . لا حصر لمنافع التقوى وفوائدها ، ومنها ، على سبيل المثال ، ما ذكره سبحانه في هذه الآيات : المخرج من الضيق دنيأً وآخرة ، والرزق بلا احتساب ، والنصرة والكفاءة من الله ، وتيسير الأمور ، وتكفير السيئات ، وفوق ذلك كله زيادة الأجر ومضاعفته ، ولكن : « أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين - ٤٠ الزخرف » .

لينفق ذو سعة الآية ٦ - ٧ :

أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُمْ لِنَصِيِّكُمْ
عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ خَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَبْضَعْنَ خَلْنَهُمْ فَإِنْ
أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآفُوهُمْ أَجُورُهُمْ وَأَتَّعِروا بِئِنَّكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ
فَسَتُرَضَّعُ لَهُ أُخْرَى * لِيُنْفِقُ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ
رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ
بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا *

اللغة :

الوجد بضم الواو وسكون الجيم القدرة في المال . ولا تضاروهم لا تعملوا على الإضرار بهم . وأتعمروا تشاوروا . تعاشرتكم اختلفتم ، يقال : تعاشر البيعان إذا لم يتفقا . ومن قدر بضم القاف وكسر الدال من ضيق عليه في الرزق .

الإعراب :

من وجدكم بدل من حيث . ولتضيّقوا منصوب بأن مضمرة بعد اللام . ولينق اللام للأمر .

المعنى :

(اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم) . قال تعالى في أول هذه السورة : « لا تخرجوهن من بيوتهن » . وقلنا في تفسير ذلك : ان الله سبحانه أوجب على المطلق سكناً المعتدة ، وأشرنا الى أقوال المذاهب التي فرقت بين المعتدة الرجعية والبائنة .. والآية التي نحن بصددنا تتصل بقوله تعالى : « ولا تخرجوهن من بيوتهن » لأنها تحدد البيت الذي يجب أن تسكنه المطلقة ما دامت في العدة ، تحده بقدرة الزوج وطاقته ، فيسكنها مثل ما يسكن ، فإن كان موسعاً واسع ، وان كان مضيقاً ضيق (ولا تضاروهن لتضيّقوا عليهن) . لا تتعمدوا اضرارهن بالتضييق عليهن في النفقة والمسكن لتلجئوهن الى تركه والخروج منه .. والإضرار بالآخرين من أكبر الكبائر بخاصة الإضرار بالزوجة والجار .

(وان كن اولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضمن حملهن) . اذا طلقها وهي حامل وجبت لها النفقة بما فيها السكنى حتى تنتهي العدة بوضع الحمل ، سواء أكان الطلاق رجعياً أم بائناً ، والفرق في وجوب نفقة العدة وعدمها انما هو بين الرجعية والبائنة غير الحامل حيث تجب للأولى دون الثانية .

وقال جماعة من الفقهاء : حين قال سبحانه : « اسكنوهن » أطلق ولم يقيد بالحمل ، وحين قال : « فأنفقوا عليهن » قيد بالحمل ، واستنتجوا من ذلك ان السكنى تجب لكل مطلقة حاملاً كانت أم حائلاً ، رجعية كانت أم بائنة ، أما النفقة فلإنما تجب للحامل حتى ولو كانت بائناً .

ونقول في الجواب : لو أخذنا بهذا الاستنتاج لوجب أن تخص نفقة العدة بالحامل فقط التي هي محل الإجماع ، أما غير الحامل فلا نفقة لها حتى ولو كانت رجعية .. ولا قائل بذلك على الإطلاق ، حيث انعقد إجماع المذاهب على وجوب

النفقة للمعتدة الرجعية ، والمصدر السنة النبوية التي هي بيان وتفسير لكتاب الله خاصة فيما يعود الى حلال الله وحرامه ، ولا شيء في السنة يدل على ان البائنة تجب لها السكنى وان كانت حائلاً .

(فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن) . قال الامامية : ان الأم لا تجبر على إرضاع وليلها إلا إذا انحصر الارضاع بها ، وان أرضعته في هذه الحال أو في غيرها فلها أن تطالب بأجرة الرضاع ، سواء أكانت في عصمة الزوج أم لم تكن ، فإن كان للطفل مال فأجرتها من ماله وإلا فمن مال الأب الموسر وان علا ، وان كان معسراً وجب عليها أن ترضعه مجاناً .. وهذا قريب جداً مما نقله ابن قدامة في كتاب المغني عن المذاهب الأربعة سوى ان مالكا قال : تجبر الزوجة على الارضاع ان كان أمثالها يرضعن أولادهن عادة ، وان كان مقامها أرفع من ذلك فلا تجبر .

(واثمروا بينكم بمعروف) . الخطاب للآباء والأمهات ، والمعنى تشاوروا فيما بينكم وتدارسوا بإخلاص وروية فيما تستدعيه مصلحة الولد وفي أجرة الرضاع ، وتساهلوا وتسامحوا إذا كان في نفس أحدكم شيء على الآخر رحمة بالطفل ورغبة في مصلحته فإنه أمانة الله عندكم (وان تعاسرتم فسترضع له أخرى) . ان يختلف الأب والأم في اجرة الرضاع وطلبت الأم أكثر من غيرها فللأب أن ينتزع الطفل منها ، ويعطيه الى أجنبية ترضعه ، وكذا إذا وجدت من ترضعه مجاناً ، وأبت الأم إلا الأجرة ، أما إذا رضيت الأم بما ترضى به غيرها فهي به أولى لأنها أبر وأرحم .

(لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) . هذه الآية صريحة الدلالة في أن الوضع المادي للزوج شرط أساسي في تقدير نفقة الزوجة ، فالموسر يفرض عليه نفقة الموسر ، والمعسر يفرض عليه نفقة المعسر ، من كل حسب طاقته ، وهذا الحكم لا يقبل التعديل لأن الله سبحانه علله ببديهة العقل والفطرة ، وهو قوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) وتعليل الحكم الشرعي بالعقل الفطري يجعله مبرماً وقطعياً لا يقبل التأويل ولا التخصيص ولا النسخ . وتقدم الكلام عن إرضاع الزوجة لولدها وعن تقدير نفقتها ، تقدم ذلك

عند تفسير الآية ٢٣٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٥٦ (سيجعل الله بعد عسر يسراً) . لا شيء يدوم على حال واحدة إلا وجهه الكريم : فكم من ضيق أعقبته فسحة ، وعند تنامي الشدة يكون الرخاء ، وصدق الله العظيم « فان مع العسر يسراً ان مع العسر يسراً » حتى ولو أخذ العسر بالخنق .

وكاين من قرية الآية ٨ - ١٢ :

وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ عَمَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا *

اللغة :

عنت أعرضت استكباراً . ونكراً منكراً شديداً . وبال أمرها عاقبة أمرها . والمراد بالذكر القرآن وبالرسول محمد (ص) .

الإعراب :

كأين بمعنى كم الخبرية وتنفيذ الكثرة . والذين آمنوا صفة لأولي الألباب . ورسولاً مفعول لفعل مقدر أي وأرسل رسولاً . خالدين حال من هاء يدخله لأنها تعود الى من التي هي بمعنى الجماعة . وأحسن هنا تتضمن معنى أعطى . رزقاً مفعول لأحسن أي أعطاه رزقاً حسناً . ومثلهم مفعول لفعل محذوف أي وخلق من الأرض مثلهم . وعلماً تمييز .

المعنى :

تقدم مضمون هذه الآيات مرات ومرات ، لذا نفسرها بإيجاز (وكأين من قرية عنت عن أمر ربها ورسله) . أرسل سبحانه رسله الى كثير من الأمم الماضية يأمرهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، فأعرضوا عناداً واستكباراً (فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً) . أخذهم الله بسوء العذاب بعد أن أعذر اليهم بحجج ظاهرة وبيّنات واضحة (فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً) . الوبال والعاقبة بمعنى واحد ، ومن أجل هذا قد يتوهم بأن الجملة الثانية بمعنى الأولى . ولدى التأمل يتبين ان هذا مثل قول القائل لمن لاقى جزاء الشر .. جوزيت بالشر لأن فاعل الشر لا يجزى إلا به (أعد لهم عذاباً شديداً) . يكون هذا العذاب في الآخرة ، ودلت عليه كلمة (أعد). وذلك الحساب والعذاب كان في الدنيا ، ودلت عليه كلمة «عذبناها» ويتلخص معنى الآيتين بقوله عز من قائل: ه لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم - ١١٤ البقرة .

(فانقوا الله يا اولي الألباب الذين آمنوا) . ان كنتم تعقلون معنى الايمان حقاً وتزعمون انكم من أهله فاقروا القول بالفعل والعلم بالعمل ، وإلا فما أنتم بمؤمنين (قد أنزل الله اليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبيّنات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور) . أرسل رسوله محمداً بالقرآن ليتلوه على الناس ويهتدي به أهل العقول ويخرجوا من ظلمات الكفر والآثام الى نور الحق والايمان (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار

خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً) . للمؤمنين الصالحين عند ربهم أجر عظيم ، ورزق كريم . وتكرر هذا المعنى مجملًا ومفصلاً في العديد من الآيات ، والقصد هو الترغيب في الصالحات وعمل الخيرات .

سبع سموات ومن الأرض مثلهن :

(الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) . تعددت الأقوال حول السموات السبع والأرضين السبع ، والمعقول منها ما يلي :

القول الأول : يجب أن تؤمن - على سبيل الاجمال - بوجود سبع سموات وسبع أرضين ؛ وندع التفصيل لعلم الله .

القول الثاني : ان الكون الأكبر يضم سبعة أكوان ، ولكل كون منها كواكب لا يحصى عددها ، ومن جعلتها كوكب أرضي ، وبين كل كون وآخر ملايين الملايين من السنين الضوئية .. وقد عبّر سبحانه عن هذه الأكوان السبعة بالسموات السبع ، أما قوله تعالى : « ومن الأرض مثلهن » فهو يشير الى ان في كل كون من السبعة كوكباً أرضياً .. وقد أشرنا الى هذا القول عند تفسير الآية ١٧ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٦٢ .

القول الثالث : ان ذكر السبع لا يفيد الحصر بها ، وإنما خصها الوحي بالذكر لأن الذين خوطبوا بالقرآن آنذاك كانوا يسمعون عن الأفلاك السبعة وكواكبها دون غيرها . قال المؤرخون : ان الكلدانيين اشتهروا بعلم الهيئة ، وتوصلوا الى معرفة الكواكب السبعة السيارة ، وتوارثت الأمم هذه المعرفة عن الكلدانيين جيلاً بعد جيل حتى زمن العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، فخطبهم عن السماء بما اعتادوا أن يتخاطبوا به فيما بينهم .. وقد أشرنا الى هذا القول عند تفسير الآية ٢٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٧٨ . ويظهر لنا الآن ان هذا أرجح الأقوال ، فقد أطلعنا - ونحن ننقب في المصادر لتفسير الآية التي نحن بصددنا - على حديث نبوي وقول لابن عباس يرجحان ان ذكر السبع لا يراد به الحصر ، أما الحديث فقد نقله الشيخ المراغي عن الصحابي ابن مسعود ، وهو « ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن ، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة » .

وقد أثبت العلم الحديث هذه الحقيقة، انظر تفسير الآية ٤٧ من سورة الذاريات..
 فن أين أخذ هذا العلم محمد الذي نشأ في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب ؟ كما
 قال : هل أخذه من بحيرة الراهب أم من رهبان الأديرة الآخرين ؟ وهل يفترى
 محمد على الله ، وهو يدعو الى كتاب يقول بلسان صريح فصيح : « ومن أظلم
 ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إليّ ولم يوح اليه شيء » - ٩٣ الأنعام ،
 ويقول : « وقد خاب من افترى - ٦١ طه » ؟.

وفي تفسير الطبري ان ابن عباس تلميذ الإمام علي سئل عن قوله تعالى :
 « سيع سموات ومن الأرض مثلهن » ؟. فقال : « لو حدثتكم عن تفسيرها
 لكفرتم بتكذيبكم بها » لأن عقولهم لا تحتمل ، فيشكّون في صدق القرآن .
 (ينتزل الأمر بينهن) يدبر السموات والأرضين وما فيهن وبينهن بحكمته ،
 ويمسكهن بقدرته ، ويتقنهن بعلمه (لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله
 قد أحاط بكل شيء علماً) . من الحكيم باللفة في خلق السموات والأرض أن
 تعلموا ان الله قادر على كل شيء حتى البعث بعد الموت ، وانه عالم بكل شيء
 حتى مقاصدكم وأفعالكم ، فتطيعوه وتخافوا من غضبه وعذابه .

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

١٢ آية مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لم تحرم ما أحل الله لك الآية ١ - ٥ :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَايَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَاتِلَاتٍ تَأْتِيَنَّ عَائِدَاتُ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا *

اللفظ :

تحريم تمتنع عن . فرض شرع . أظهره الله عليه أطلعه عليه . عرف بعضه أخبر

بعضه . وأعرض عن بعض لم يخبر بالبعض الآخر . وصفت مالت . والتظاهر التعاون ، والظهير المعين . وسائحات صائحات أو المتأملات اللائي يتعظن بمواعظ الله سبحانه وهي مأخوذة من السباحة بالعقل والقلب .

الإعراب :

نحلة مصدر مثل تكرمه . وقال صاحب البحر المحيط : انما جمع في قوله : «قلوبكما» مع انها قلبان فراراً من الجمع بين ضميري التثنية في كلمة واحدة ، ويصح أن يقال : قلبكما . هو مولاه مبتدأ وخبر والجملة خبر ان . وجبريل مبتدأ وما بعده عطف عليه ، وظهير خبر عن الكل ، ولفظ فعيل يقع على الواحد والجمع ، وبعد ذلك منصوب بظهير . وخبراً صفة لأزواج وكذا ما بعده .

ملخص القصة :

اختلف المفسرون والرواة في سبب نزول هذه الآيات ، وثبت هنا ما جاء في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة ، قالت : كان رسول الله (ص) يحب الحلواء والعسل ، وفي ذات يوم شرب عسلاً عند زوجته زينب بنت جحش ، فتواطأت أنا وحفصة على ان الرسول إذا دخل على احدانا أن تقول له : اني أجد منك ريح مغافير . وهكذا كان . فقال الرسول : لا بل شربت عسلاً عند زينب ولن أعود ، وقد حلفت ، ولا تخبري بذلك أحداً .

وفي تفسير الشيخ المراغي ان التي دخل عليها النبي (ص) وحرّم على نفسه العسل أمامها هي حفصة ، فأخبرت عائشة بذلك مع ان النبي (ص) استكنمها الخبر . وقال الشيخ المراغي : وقد كانت عائشة وحفصة متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي (ص) .

ومها قيل عن سبب النزول فإن ظاهر الآيات يدل بوضوح ان النبي (ص) كان

(١) صمغ حلو له رائحة كريهة . وكان الرسول يكره ان تكون له ريح غير طيبة .

سورة التحريم

قد امتنع عن شيء أحله الله له لسبب من الأسباب ، وانه قد أمر بذلك الى بعض أزواجه ، وأمرها بالكتان ، ولكنها خالفت وأفشت، فعاتب الله سبحانه نبيه الكريم على امتناعه عما أحل الله له ، وهدد أزواجه اللاتي لا يستمعن الى أمره .

المعنى :

(يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك) . الخطاب لرسول الله ، والمراد بالتحريم هنا مجرد الامتناع والالتزام بالترك لتطبيب خاطر من تحسن العشرة معه ، تماماً كما لو ألزمت نفسك بترك الدخان ارضاء لزوجتك التي يؤذيها ذلك .. فليس المراد بالتحريم هنا التحريم الشرعي .. مستحيل .. كيف وكتاب الله الذي نزل على قلب محمد (ص) يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم - ٩٠ المائدة » . ويقول أيضاً : « قل رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالاً وحراماً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون - ٥٨ يونس » .

وقيل : ان الشيء الذي حرمه النبي (ص) على نفسه هو العسل وانه قصد بذلك مرضاة زوجته حفصة حيث ساءها أن يشرب النبي (ص) العسل عند زوجته زينب بنت جحش ، فطيب قلب حفصة بالامتناع عن شرب العسل . (والله غفور رحيم) . العفو والغفران من الله سبحانه لا يستدعي وجود الذنب ، فكثيراً ما يكون تعبيراً عن ثوابه ورحمته، وقد كان الانبياء يطلبون من الله الصلح والمغفرة، ومثله : « عفا الله عنك لم أذنت لهم - ٤٣ التوبة » .

(قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم) . قيل : ان النبي (ص) كان قد حلف على ترك شيء أحله الله له ، فأمره سبحانه أن يدع يمينه ويكفر .. وفي رأينا - والله أعلم - ان النبي (ص) لم يحلف ، ولكنه وعد بالترك ، ووعد المعصوم يجب الوفاء به على كل حال ، سواء أكان الموعود به مندوباً أم مباحاً ، لأن وعده أقوى وأعظم من يمين غيره ومن ثم يصح ان يطلق اليمين على وعده . (والله مولاكم وهو العليم الحكيم) . الله يتولى امور النبي والمؤمنين ، وينصرهم على المتأمرين، وهو اعلم بالحكمة والمصلحة التي على اساسها يشرع احكام اليمين وغيرها.

(وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً) . يدل هذا على ان النبي (ص) بشرٌ يسرّ إلى أزواجه كما يسرّ الناس إلى أزواجهم، وأنه لا يمتاز عنهم إلا بتزول الوحي عليه ، والعصمة عن محارم الله وكسل ما يشين . أنظر ج ٥ ص ٢١٣ فقرة « حقيقة النبوة » (فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرس عن بعض) . ضمير « به » وأظهره وبعضه يعود إلى الحديث الذي أسره النبي (ص) إلى بعض أزواجه ، والضمير المستتر في نبأت يعود إلى حفصة، والضمير في عرف يعود إلى النبي (ص) ، والمعنى ان حفصة أفشت سر النبي على الرغم من وصيته لها بالكتمان ، ولما أذاعت وأفشت أخبر الله نبيه الكريم بخبرها، فأطلعها النبي (ص) على بعض ما أفشت ، وأعرض عن بعضه رفقاً بها .. وفيه إيماء الى انها تجاوزت الحد في الإفشاء (فلما نبأها به قالت من أنباك هذا) . سألته من الذي أخبره بخبرها (قال نبأني العلم الخبير) الذي يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور . (ان تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما - أي مالت إلى الحق - وان تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) . ضمير عليه يعود إلى رسول الله ، وضمير تتوبا وتظاهرا وقلوبكما إلى عائشة وحفصة ، كما في كتب التفسير والحديث ، ونختار منها أربعة : اثنين من التفسير واثنين من الحديث، فقد جاء في تفسير الطبري ما نصه : « قوله تعالى : « وان تظاهرا عليه » يقول تعالى ذكره للنبي أسر إليها النبي (ص) حديثه ، والتي أفشت إليها حديثه ، وهما حفصة وعائشة ، وبنحو ما قلنا قال أهل التأويل . وقال الرازي ما نصه أيضاً : « ان تتوبا الى الله خطاب لعائشة وحفصة » . وقال البخاري في الجزء السادس من صحيحه بعنوان « سورة التحريم » : « سأل ابن عباس عمر بن الخطاب : من اللتان تظاهرتا على النبي (ص) من أزواجه ؟ فقال : تلك حفصة وعائشة ، ومثله في القسم الثاني من الجزء الأول من صحيح مسلم بعنوان « باب في الإيلاء واعتزال النساء » . وفيه أيضاً سؤال آخر حول تتوبا ، قال مسلم في الباب المذكور : « سأل ابن عباس عمر : من المرأتان من أزواج النبي (ص) اللتان قال لهما ان تتوبا فقد صغت قلوبكما ؟ قال عمر : هي حفصة وعائشة » . وعلى هذا يكون معنى الآية ان عائشة وحفصة قد تعاونتا على النبي (ص) ، وأساءتا اليه بإفشاء سره على الرغم من وصيته بالكتمان ، وان الله سبحانه قد أمرهما

سورة التحريم

بالتوبة والانابة عن هذه الخطيئة ، فإن تابنا وأصلحتنا فقد مال قلباهما الى أمر الله والاخلاص لرسوله ، وان أصرنا على التعاون ضد الرسول فإن الله وليمه وناصره ، وأيضاً يعينه ويؤازره جبريل وجميع الملائكة والمؤمنين الصالحين .

وتسأل : لماذا كل هذا التهديد والوعيد ؟ وما هو شأن عائشة وحفصة حتى يُحشد عليهما قوة الله وقوة جبريل ومعه جميع الملائكة وصالح المؤمنين ؟ .

الجواب : ان عائشة وحفصة غير مقصودتين بالخصوص من هذا التهديد، وإنما المقصود أولاً التنويه بعظمة الرسول ومكانته ، ثم افهام الجميع بما فيهم حفصة وعائشة والمنافقين والكافرين وكل من أضمر أو يضمر السوء للرسول الأعظم (ص) افهام الجميع بأن النبي (ص) في حصن حصين من قوة الله وملائكته وأوليائه .

(عسى ربه ان يطلعكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات ثابتات عابدات سائحات نيبات وأبكاراً) . ما الذي أغراكمسن يا نساء النبي بالنظاهر عليه وعلى معصيته؟ هل اغتررتمن بما لكن أم بدنينكم وطاعتكن لله ورسوله ، أم بماذا؟ . ولتعلم كل واحدة منكن ان الرسول الأعظم (ص) لو طلقكن بكاملكن لأبدله الله خيراً منكن جبالاً وكهلاً ودينياً وإخلاصاً نيبات إن شاء ، وإن شاء أبكاراً أو هما معاً .

وقودها الناس والحجارة الآية ٦ - ٩ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا

يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَنْفُسِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *

اللفظة :

قوا أنفسكم احفظوها وصونها . والوقود بفتح الواو حطب النار ، والتوبة
النصوح الخالصة .

الإعراب :

وأهليكم عطف على أنفسكم . ونُصِبَتْ ناراً بنزع الخافض أي احفظوا أنفسكم
وأهليكم من النار . ما أمرهم « ما » مصدرية والمصدر المنسبك منصوب بنزع
الخافض أي لا يعصون الله في أمره . ونصوح مصدر وصف به التوبة على المبالغة .
ويوم لا يخزي « يوم » منصوب بيدخلكم .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة) . المراد
بالحجارة هنا الأصنام لقوله تعالى : « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم
أنتم لها واردون - ٩٨ الأنبياء » . والمعنى إذا كان المؤمن يشعر بالمسؤولية أمام الله
عما يقول ويفعل ، ويخاف من غضبه وعذابه - فإن عليه أن يعلم انه مسؤول أيضاً
أمام الله عن أهله وأولاده ، وان من واجبه أن يمد يده الى العمل على صلاحهم
وتقويمهم ، وإذا كان الأب يفعل الكثير من أجل ولده حرصاً عليه وعلى مستقبله

سورة التحريم

في هذه الحياة القانية فأولى له أن يعمل لسعادته في الحياة الباقية ، وأن يقيه ما هو أشد وأعظم من غدرات الزمان وضرباته .. ولكن .. ما يصنع الأب المؤمن مع هذا الجيل الجديد الذي يريد من الآباء أن يخضعوا لأمره ، ويتزلوا على رأيه ؟

(عليها ملائكة غلاظ شداد) على الجفافة الطعام الذين طفوا وبغوا في الحياة الدنيا على عباد الله وعباله (لا يعصون - أي الملائكة الغلاظ - الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) . يسرعون الى طاعة الله من غير توانٍ ، وهو يقول لهم مشيراً الى كل سفاح أثيم : « خذوه فقلوه ثم الجحيم صلوه - ٣١ الحاقة » . (يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم انما تجزون ما كنتم تعملون) . ان هذا اليوم يوم حساب وجزاء على الأعمال ، لا يوم توبة ومعذرة ، وبأي شيء يعتذر الذين تدور مصانعهم ليل نهار لانتاج الموت والدمار ؟

(يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار) . عسى من الله معناها الوجوب والتوبة النصوح هي الصادقة في الاقلاع الخالصة لوجه الله وحده ، وهي مبسطة لكل من أذنب وأساء ، وأيضاً هي حسنة عظيمة تجب ما قبلها من السيئات ، وتستوجب ثواب الله وحنانه (يوم لا يخزي الله النبي) . هذا تعريض بأعداء النبي . وانه مخزيون ديناً وآخرة ، والا فمن الذي يتصور ان الله يخزي محمداً يوم القيامة ، وقد كانت حياته في الدنيا رحمة للناس أجمعين .

(والذين آمنوا معه نورهم يسمى بين أيديهم وبأيمنهم يقولون ربنا أتمم علينا نورنا واذفر لنا انك على كل شيء قدير) . تقدم مثله في الآية ١٢ من سورة الحديد (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) . أبداً .. لا رافة ولا هوادة مع الطغاة اللثام .. ولا شيء لهم عند الحق والعدل إلا السيف ، وأي شرع وقانون يرحم ويتساهل مع الذين يستهينون بحياة الناس ، وينشرون الرعب والذعر في القلوب ، ويقولون : من لم يكن معنا وعبدنا لنا فهو علينا وعدو لنا .. وما له عندنا إلا السلاح الجهنمي ؟ . وبالتالي ، فإن الرحمة والرافقة هي القضاء على العدوان وأهله .. والله سبحانه رحيم في ناره تماماً كما هو رحيم في جنته .

امراة نوح وامراة لوط الآية ١٠ - ١٢ :

ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَاتِلِينَ *

اللفظ :

تحت عبدین أي زوجتین لبین عظیمین . فخانتهما أي بالكفر والنفاق لا بالزنا والفجور . والإحصان العفاف . والفرج شق جیب القميص ، وكل شق هو فرج . والمراد بالنفخ الخلق . وبالروح الحیاة ، وأضافها إليه سبحانه لأنه مصدرها وموجدھا .

الإعراب :

ضرب بمعنى جعل ، وامراة نوح مفعول أول مؤخر ، ومثلاً مفعول ثانٍ مقدم . وصالحین صفة لعبدین . وشيئاً مفعول مطلق لیغنیاً . ومريم عطف على امراة فرعون . والقاتلین جمع للذكور والاناث تغلياً للذكورية على التأنيث .

المعنى :

(ضرب الله مثلاً للذين كفروا امراة نوح وامراة لوط كانتا تحت عبدین من عبادنا

سورة التحريم

صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقبل ادخلا النار مع الداخلين) .
لا فرق بين الرجل والمرأة أصلاً وطبيعة ومسؤولية ، وكل منهما جزء متمم
للآخر ولا غنى لأحدهما عن صاحبه ، وفي الرجال الصالح والطالح ، وفي النساء
الصالحة وغير الصالحة .. والآية بعيدة عن المقارنة بين الرجل والمرأة ؛ وإنما ضرب
الله مثلاً بها من دون الرجل تعريضاً ببعض أمهات المؤمنين اللاتي تظاهرن على
الرسول الأعظم (ص) كما جاء في الآية ٤ من هذه السورة ، فإنه سبحانه بعد
أن ذكر أن بعض نساء النبي قد تظاهرن عليه ، وهددن - ذكر هنا أن القريب
من الله تعالى من قربته الأخلاق والأعمال حتى ولو كان أقرب الناس لأشقى
الأشقياء ، وأن البعيد عنه تعالى من أبعدته السيئات والآثام حتى ولو كان أقرب
الناس لأتقى الأنقياء .. أبداً لا محابة ولا قرابات .. لا شيء على الإطلاق يجدي
في يوم القيامة إلا التقى والاخلاص .

وقد ضرب سبحانه مثلاً لذلك بامرأة نوح وامرأة لوط ، فقد كانت الأولى
تؤذي زوجها وتقول : انه مجنون ، ونفسي أسرار به المشركين ، وكانت الثانية
تعين الطغاة على زوجها وتلطم على أضيافه..ومن أجل هذا وصفها سبحانه بالخيانة
التي هي ضد الأمانة لا بمعنى الزنا، فإن المسلمين يعتقدون انه ما زنت امرأة نبي قط .
والخلاصة ان الله سبحانه أدخل النار امرأة نوح وامرأة لوط لكفرهما ونفاقهما
مع انهما كانتا زوجتي نبيين عظيمين ، فكذلك سبحانه يدخل النار أزواج الرسول
الأعظم (ص) اللاتي تظاهرن عليه ان لم يتوبا الى الله وإليه .

(وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً
في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين) . بعد أن ضرب سبحانه
مثلاً بامرأة نوح وامرأة لوط على أن قرابة الخبيث من الطيب لا تنفعه شيئاً - ضرب
مثلاً بامرأة فرعون على أن صاة الطيب بالخبيث لا تضره شيئاً ، فقد آمنت آسية
بنت مزاحم بالله وكتبه ورسله وكفرت بزوجها فرعون ، فهددها بالقتل فآثرت
مرضاة الله ونعيمه على ملك فرعون وسلطانه ، وتبرأت منه ومن عمله ، وسألت
الله سبحانه أن يشملها برحمته ، وينعم عليها من فضله . وفي تفسير الطبري : ان
فرعون أرسل رجاله اليها ، وقال لهم : أنظروا أعظم صخرة تجدونها، فإن بقيت

على الايمان بالله فالتقوا الصخرة عليها ، وان رجعت فهي امرأتي ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء ، فأبصرت بيتها في الجنة ، فضت على قولها ، فانتزع الله روحها ، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح . وفي بعض التفاسير ان طلبها من الله أن يبني لها عنده بيتاً هو من باب الجار قبل الدار .

(ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) . أحصنت فرجها كناية عن طهارتها مما رماها به اليهود من البغاء والفجور ، والمراد بالنفخ من روحه تعالى انه منح الحياة لوليدها السيد المسيح تماماً كما منح الحياة لآدم : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي - ٢٩ الحجر » . والمعنى ان الله سبحانه ضرب مثلاً للمؤمنات بالسيدة العفيفة مريم التي آمنت بالله ورسله وكتبه ، فاصطفاه على نساء عصرها ، وصانها من الدنس بفضله ، وحملت وليدها بكلمته . وتقدم مثله في أكثر من آية . أنظر تفسير الآية ١٧١ من سورة النساء ج ٢ ص ٥٠٠ .

الجزء التاسع والعشرون

سُورَةُ الْمُلْكِ

٣٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تبارك الذي بيده الملك الآية ١ - ١١ :

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ
وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَتَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي خَلَقَ
سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ
هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ
خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا
رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ * وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَنْسَوْنَ الْمَصِيرَ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ
تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ
مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ
مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ *

تبارك تعالى عما لا يليق. بيده الملك له التصرف المطلق. ليلوكم : ليظهر أعمالكم بالامتحان . وطباقاً أي يشبه بعضها بعضاً في الاتقان كما تقول : هذا مطابق لذاك. والتفاوت الاختلاف أي لا ترى اختلافاً في اتقان الصنع. والمراد بالقطور هنا الحلل والنقص . وكرتين مرتين والمراد بهما هنا أكثر من مرة ومرة بعد مرة. وينقلب يرجع . وخاسئاً ذليلاً . وحسير كليل . والرجم الرمي . وتميز تفرق وتتقطع من حنقها . وسحقاً . بعداً وهلاكاً .

الإعراب :

تبارك فعل ماضٍ ، وقالوا لم يُنطق له بمضارع . والمصدر من ليلوكم متعلق بخلق . وأيكم مبتدأ وأحسن خبر وعلماً تمييز . وطباقاً صفة لسموات وهي مصدر بمعنى اسم الفاعل أي مطابقة . وكرتين قائم مقام المفعول المطلق أي رجعتين مثل ضربته مرتين . وخاسئاً حال من البصر . والذين كفروا خبر مقدم وعذاب جهنم مبتدأ مؤخر . وسحقاً مصدر مؤكد أي سحقهم الله سحقاً .

المعنى :

(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير) . علا سبحانه بحوله على كل شيء وهيمن على كل شيء ، ولا يعجزه شيء .. ومن آثار هذه العظمة انه (الذي خلق الموت والحياة ليلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور) . من اين جاءت الحياة ؟ وكيف ذهبت ؟ لا تفسير لذلك إلا بوجود الحسي الذي لا يموت . أنظر ج ٣ ص ٢٣١ فقرة « من اين جاءت الحياة » ؟ . أما الحكمة من الحياة في الدنيا ثم الموت ثم البعث فهي ان تظهر افعال الانسان في دنياه ، ويثاب عليها أو يعاقب في آخرته . وفي الحديث ان رسول الله (ص) حين تلا هذه الآية فسرّها بقوله : « أيكم أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع الى طاعته » .

الجزء التاسع والعشرون

وأيضاً من آثار عظمته تعالى انه (الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حبير) وذكر السموات السبع لا يفيد الحصر . انظر آخر سورة الطلاق فقرة « سبع سموات ومن الأرض مثلهن » . وطباقاً أي بطابق بعضها بعضاً في دقة الصنع ، والمصنعي حقيقاً وتفحص وتأمل جيداً ، وعاود النظر مرات ومرات في خلق الكائنات فلأنك لا ترى ولن ترى إلا الحكمة والدقة والا النظام والانسجام والتناسب والتناسق في كل شيء .. أبداً لا تفاوت في اتقان الصنع ، ولا خلل ولا نقص في شيء من أصغر صغير الى أكبر كبير.. سل العقول مجتمعة : من الذي أعطى كل شيء خلقه فقدرة تقديراً ؟ هل الصدفة أتت بكل هذه الأسرار والعجائب ؟ وهل هي قاعدة تطرد في كل شيء ومبدأ لا ينتقض شيء ؟ ومتى بهرت الصدفة الأبواب وحيرت ؟ ولا جواب عند العقول العلمية السليمة إلا بالرجوع الى قوة تكمن وراء الطبيعة والاعتراف بالمعجز عن ادراك حقيقتها وكنه عظمتها .

وهنا يكمن السر لتاريخ الايمان بالله الذي وجد بوجود الانسان بل بوجود كل كائن يحس ويشعر، ونحن على علم اليقين بأن الجاحد لو فكر وتدبر خلق السموات والأرض لآمن بالله من حيث يريد أو لا يريد . قال « لورد كيلفن » أحد علماء الطبيعة البارزين : « إذا فكرت تفكيراً عميقاً فإن العلوم سوف تضطرك الى الاعتقاد بوجود الله . وهذا ما أعلنه القرآن بقوله : « انما يخشى الله من عباده العلماء - ٢٨ فاطر » .

(ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير) . الدنيا هنا تأنيث الأدنى ، وهي صفة للسماء أي انه تعالى زين بالمصابيح السماء التي هي أقرب الينا من سائر السموات ، والمراد بالمصابيح النجوم ، أما الرجم فقد يكون بالشهب التي تحترق - غالباً - في الفضاء قبل أن تصل الى الأرض ، وقد يكون بالحجارة المتساقطة من النجوم - النيازك - وكسل عات متهم فهو شيطان قال تعالى : « واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم - ١٤ البقرة » واعتدنا أي أعدنا . وتقدم مثله مع التفسير في الآية ٦ من سورة الصافات ج ٦ ص ٣٣٠ والآية ١٢ من سورة فصلت ص ٤٨٠ من المجلد المذكور .

سورة الملك

وقال البعض في تفسير هذه الآية : ان الدجالين يوهمون انهم يعلمون الغيب من النظر الى النجوم ، وان الله سبحانه سوف يرجمهم يوم القيامة بشر من نار جهنم لأنهم كانوا يقولون رجماً بالغيب !.. وهذا التفسير أيضاً رجم بالغيب .

(وللذين كفروا برهيم عذاب جهنم وبئس المصير اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الفيط) . قال صاحب الظلال : قد يظن ان هذا تعبير مجازي .. ولكن جهنم مخلوقة حية تكظم غيظها ، وتنطوي على بغض وكره !.. وأكثر المفسرين على ان المراد ان لجهنم لجباً وكتلاً عظيمين ، يكاد من يراها يحسبها غضبي على الكافرين بحيث توشك أن تتقطع أوصالها من الحنق عليهم . وهذا التفسير أقرب الى الافهام والتصديق من تفسير صاحب الظلال الذي يشبه تفسير أهل الظاهر .

(كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير) . المراد بخزنة جهنم الموكلون بها ، والقصد من سؤال الخزنة هو توبيخ المجرمين وابلامهم تماماً كقولك لمن أخذ بجريمته : هذا ما جنته يدك .

(قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان أنتم الا في ضلال كبير) . الأنبياء في ضلال كبير !.. ولماذا لأنهم يدعون الى التوحيد والعدل .. أما العتاة الطغاة الذين يعبدون الحطام والأصنام فهم على بصيرة من أمرهم .. هذا هو منطق أهل الضلال والفساد في كل زمان ومكان (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) . جاءهم الرسل بالبينات من عند الله ، فكذبوا علواً واستكباراً ، وقالوا لهم : أنتم ضالون مضلون تفترون على الله الكذب .. ولما أحاط بهم العذاب ذلوا وندموا واعترفوا بأنهم هم الضالون عن الهدى المكذبون بالحق .. ولكن جاء هذا بعد فوات الأوان ، فكان جزاؤهم الشهيق والحريق . وتقدم مثله في الآية ١٣٠ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٦٥ والآية ٧١ من سورة الزمر ج ٦ ص ٤٣٣ .

فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا الْآيَةُ ١٢ - ١٩ :

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَنْجَرُ * كَبِيرُ * وَأَسْرُوا
قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي
مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ * أَلَمْ تَأْمِنُوا أَنْ يَخْشِفَ
بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا
يُنتَسِكُنَ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرُ *

اللغة :

ذات الصدور الضمائر . واللطيف هنا من اللطف بمعنى الرفق . وذلول من
الذل بكسر الهمزة وهو اللين ضد الصعوبة ، والذل بضم الهمزة الضمير والهمزة .
ومناكب الأرض طرقها ونواحيها . والنشور البعث . وتمور تهتز وتضطرب .
وحاصباً من حصبت الرجل إذا رميته بالحصى أي الحصى . ونكير الله عذابه .
صافات باسطات اجنحتهن . ويقبضن يضممنها .

الإعراب :

بالغيب متعلق بمحذوف حال من فاعل يخشون ، والتقدير كائنين بالغيب على

سورة الملك

معنى غائبين عن أعين الناس . الا يعلم من خلق الهمة للاستفهام ، ولا للنفي ، وفي يعلم ضمير مستتر يعود الى ربهم ، ومن مفعول ، والمعنى الله يعلم مخلوقاته . والمصدر من أن يخسف بدل اشتمال من « من في السماء » ومثله أن يرسل ، واذا للمفاجأة ، وجملة هي تمور حال من الأرض . ونذير مبتدأ مؤخر وكيف خبر مقدم . ونكبر اسم كان وكيف خبرها . وأصلُ نكبرُ نكبري .

المعنى :

(ان الذين يخشون ربهم لهم مغفرة وأجر كبير) . بعد أن ذكر سبحانه ما أعد للمجرمين من العذاب ذكر ما أعد للمتقين من الثواب على مبدأ الجمع بين الترغيب والترهيب، والمتقون هم الذين يتورعون عن محارم الله في جميع الحالات ، لا فرق عندهم علم الناس بحالهم أم لم يعلموا لأنهم لا يفعلون إلا لوجهه الكريم ، وهو يعلم السر وأخفى (وأسروا القول أو أجهروا به انه عليم بذات الصدور) . ومن علم الضمائر فبالأولى أن يعلم السر من القول . وتقدمت هذه الآية في سورة هود ج ٤ ص ٢٠٥ ، أما التي قبلها فتقدمت في سورة الأنبياء ج ٥ ص ٢٨٢ .

(الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) . الله عالم بكل شيء لأنه خالق كل شيء ، وصفة اللطف تشير الى انه تعالى لا يعاجل المسيء بالعقوبة رفقا به ورحمة له ، عسى أن يؤوب الى رشده ويقطع عن ذنبه .

(هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) . الله سبحانه رحيم بعباده ، عليم بما يحتاجون اليه في هذه الحياة ، ولذا خلق لهم الأرض، وقدر فيها الأقوات والأرزاق، وجعلها طوع ارادتهم تستجيب لحوائجهم ومصالحهم ، وبتعبير الشيخ عبد القادر المغربي : « الأرض لنا نعمت المطية المدبرة والذللول المجربة » . ولكنه تعالى أناط ذلك بالسعي والعمل ، فقد شاءت حكمته أن يربط المسيلات بأسبابها ، والنتائج بمقدماتها ، ومن خرج على هذه السنة فقد تمرد على سنة الله وارادته (واليه النشور) . هذا تهديد ووعيد لمن يطلب الرزق بغير الكد والسعي المشروع « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » . وقال عز :

من قائل : « لقد خلقنا الانسان في كبد - ٤ البلد » أي كادحاً يجاهد ويكابد كما قال كثير من المفسرين .

(أأمنتم من في السماء ان يخسف بكم الأرض فسلذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً) . المراد بمن في السماء خالق السماء ، وانما خصها سبحانه بالذكر مع انه خالق كل شيء - لأن الناس يعبرون عن تدبيره تعالى بتدبير السماء .. بعد أن ذكر سبحانه بنعمة الأرض وخيراتها حذر من عاقبة البغي والفساد فيها ، فإن هذه النعمة تتحول الى شر ووبال على المجرمين والفسدين لأن الذي جعلها « ذلولاً » للعباد قادر على ان يخسفها بهم بالزلازل والاهتزاز فتبتلعهم وما يملكون ، أو يرسل عليهم ريحاً غاثية ترميهم بالحصباء فتضيقهم عن آخرهم . وتقدم مثله في الآية ٦٨ من سورة الاسراء ج ٥ ص ٦٥ .

(فستعلمون كيف نذير) . لقد أنذركم الله وحذركم سوء العاقبة ، فكذبتم بالانذار وسخرتم من التحذير ، وعما قريب يحل بكم العذاب الذي كنتم به تكذبون ومنه تسخرون (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) أي نكيري ، ونكيره تعالى عذابه ، والمعنى لقد سمعتم أخبار الذين أخذهم الله بذنوبهم ، وعلمتم كيف نزل بهم العذاب .. ألا تحشون ان يصيبكم ما أصابهم ؟ . وتقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٦٩ من سورة التوبة والآية ٤٥ من سورة سبأ

(أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن انه بكل شيء بصير) . هذه الآية تدعو الجاحدين الى التفكير في خلق الله وقدرته تعالى ، ومن آثار هذه القدرة خلق الطير وتخليقه في السماء .. فمن الذي خلقه على هيئة أهله للطيران ، وهدهته الى أن يبسط جناحيه في أكثر الأحيان ، ويضمهما حيناً بعد حين تماماً كما يفعل السابح ؟ هل هي الصدفة والطبيعة العمياء أو قانون بقاء الأصلح : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » ٣٨ - الأنعام تشعر كما تشعرون ، وتسير على نواويس طبيعية كما تسيرون ، فالطائر يطير بجناحيه والانسان يمشي على رجلبيه ، ويسافر في السيارة أو الطائرة أو في سفينة ماء أو فضاء ، وكل هذه الأسباب وما إليها هي من صنع الله تعالى أوجدها كوسيلة الى المقاصد والغايات . وتقدم مثله في الآية ٧٩ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٣٦ .

أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ * أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ *

اللفظة :

المراد بالجند هنا المعين . ولجوا تبادوا وتجاوزوا الحد . والعتو التمرد . ومكباً على وجهه أي يسر ووجهه الى الأرض . وسوياً معتدلاً ومستقيماً . وأنشأكم خلقكم ومثله ذرأكم . والمراء بالأفئدة هنا المدارك والعقول . والزلفة والزلفى الاقتراب ،

الجزء التاسع والعشرون

يقال : تزلف فلان أي تقرب . وسيئت قبحت حين انعكس عليها أثر الحزن . وتدعون بتشديد- الدال من الدعاء والطلب لا من الدعوى والزعيم . وغوراً مصدر بمعنى اسم الفاعل أي غائراً في الأرض . والمعين الماء الغزير أو الجاري على وجه الأرض المنظور بالعين .

الإعراب :

أم بمعنى بل . ومن هذا مبتدأ وخبر، وتشعر هذه الجملة بالتحقير والاستخفاف . والذي عطف بيان . ومكباً حال من فاعل يمشي ومثله سوياً . وقليلًا صفة لمقدر و « ما » زائدة أي تشكرون شكراً قليلاً . وضمير رأوه يعود الى يوم القيامة . وزلفة حال أي قريباً لأن الرؤية هنا بصرية . أو رحنا « أو » للإبهام .

المعنى :

(أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن) . يتصل هذا بقوله تعالى في الآية السابقة : أم أمنتم من السماء الخ .. بعد أن خوفهم سبحانه من خسف الأرض بهم ، وارسال الحاصب عليهم - سألهم ، جلت حكمته ، بقصد التوبيخ والتفريع : ماذا تصنعون اذا نزل بكم العذاب ؟ هل تهربون منه ، ولا ينجو من الله هارب ، أو تلجأون الى أصنامكم ، وهي لا تملك لنفسها شيئاً ؟ والجواب قوله تعالى : (إن الكافرون الا في غرور) وظن كاذب أنهم في سلام وأمان من غضب الله وعذابه .

(أم من هذا الذي يرزقكم ان أمسك رزقه) . هذا سؤال ثان منه تعالى ، ومعناه إذا منع الله عنكم أسباب الرزق كالمنطق الذي يرسل السماء عليكم مدراراً ، أو أنانكم التي تعبدون أو جهلكم وغروركم ! والجواب : (بل لجوا في عتو ونفور) . كلا ، أنهم يعلمون ان الله هو الرازق ، ومع هذا يعاندون الحق ، ويصرون على الباطل لأن حياتهم تقوم عليه وعلى محاربة الحق وأهله . (أفن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم) .

هذا تمثيل في صيغة السؤال ، تمثيل للفرق بين الصالحين الذين لجوا في عتو ونفور وبين المهتدين الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه ، فالضالون مثلهم كمثل الذي يمشي ووجهه الى الأرض يُكثر العثار فيها لا يعثر فيه بصير : أما المهتدون فمثلهم مثل الذي يسير على الطريق الواضح بحسب معتدل : ونظر سليم . وتكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، منها قوله تعالى : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً ؟ أفلا تذكرون - ٢٤ هود ج ٤ ص ٢٢٢ . (قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) . لقد خلق الله لكم أسماعاً فانتظوا بما تسمعون . وجعل لكم أبصاراً فاعتبروا بما ترون من آيات ومعجزات ، ومنحكم عقولاً فلماذا لا تفقهون ؟ وقال مفسر من القدامى : « ان الله سبحانه قدم السمع لأن فوائده أقوى من فوائد البصر ، فان السمع للخطاب ، والبصر للرؤية ، ومرتبة الخطاب أقدم » . وقال اديب معاصر : « لا تتقدم كلمة على كلمة في القرآن الالسيب ، ولا تتأخر كلمة عن كلمة إلا لسبب . وكمثل بسيط نجد ان القرآن يقدم السمع على البصر في الذكر في عديد من الآيات ، وهي مسألة يعرف سرها علماء التشريح ، فهم يدركون ان جهاز السمع أرقى وأغصد وأدق وأرهف من جهاز الأبصار .. والأم لا يتوه سمعها عن صوت بكاء ابنها وتميزه من بين آلاف الأصوات ، وتوه عين أمه عنه في الزحام » . (قليلاً ما تشكرون) لأن الله خلق الاسماع والأبصار والأفئدة للخبر والصلاح ، وأنتم تستعملونها للشر والفساد (قل هو الذي ذرأكم في الأرض) . ليس معنى ذرأكم خلقكم . فقط ، بل فيه أيضاً معنى التكاثر بالنسل لينسابوا في مضمار الحياة وعمارها واستدراار خيراتها . هذا ما قاله المفسرون ، ولو كانوا في هذا العصر لعقبوا على هذا التفسير بقولهم : ولكن السدول الكبرى تتسابق اليوم في مضمار التسلح ، وحرمان الجائعين من خيرات الأرض وبركانها لتكون وقفاً على مصانع الموت التي يملكها الطغاة المحتكرون . وتقول الاحصاءات : ان ما تنفقه دول العالم مجتمعة على السلاح أكثر مما تنفقه على التعليم والصحة معاً . (واليه تحشرون) فيأخذ المفسدين في الأرض بجرمهم وجريرتهم .

(ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) . تكرر هذا السؤال من الجاحدين في العديد من الآيات ، وهو عجيب وغريب ، لأنه ما من عاقل إلا ويستدل بما

«وجد على امكان ما يوجد من أشباهه ونظائره (قل انما العلم عند الله وانما أنا نذير مبين) . هذا مثل قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو - ١٨٧ الأعراف » ج ٣ ص ٤٣١ (فلما رآوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون) . خوفاً منهم النبي من يوم القيامة ، فقالوا له ساعرين : فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين .. ولما بُعثوا يوم القيامة وقيل لهم : هذا ما كنتم به تستعجلون - قالوا : يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين .. هذا هو شأن كل جاهل أرعن يركب رأسه ، ولا يبالي ما يصنع وما يقال له .

(قل أرأيتم ان أهلكم الله ومن معي أو رحمتنا فمَن يجير الكافرين من عذاب اليم) . من تتبع أي الذكر الحكيم يران الخلاف بين الأنبياء والمشركين كان - في الأغلب - يدور حول الشرك والبعث ، وان أكثر الآيات أو الكثير منها يتصل بهذين المبدأين بأسلوب مباشر أو غير مباشر ، وكان المشركون يحتجون للشرك وعبادة الأصنام بعبادة الآباء والأجداد ، ولإنكار البعث بأن الذي يصير تراباً لن يعود الى الحياة مرة ثانية ، وقد لقن سبحانه نبيه الكريم حجة الرد عليهم ، وأنذرهم بالعذاب العاجل والآجل ، وسبق ذلك في عشرات الآيات ، فيعجز المشركون عن الجواب ويلجأون الى العناد والاستهزاء والشغب ، وأحياناً يدعون على الرسول الأعظم (ص) بالهلاك كما أشارت الآية ٣٠ من سورة الطور : « أم يقولون شاعر نترصد به ريب المنون » .

وقد تضمنت الآيات السابقة الخطاب مع المشركين حول البعث والتهديد بعذاب الخسف والحاصب في الدنيا ، وعذاب جهنم وبئس المصير في الآخرة ، ثم انتقل الخطاب الى دعائهم على الرسول والجواب عنه حيث أمر سبحانه النبي (ص) ان يقول لهم : أنترصدون بي وعن معي ريب المنون ، وتتمنون لي ولهم الهلاك ؟ أخبروني ما الذي تستفيدون إذا تحققت أمنيكم هذه ؟ هل ينجيكم هلاككم وهلاك من معي من العذاب ، وأنتم سادرون في القبي والضلال ؟ كلا ، لا ينفعكم شيء إلا التوبة والانابة سواء أمتم قبلي أم مت قبلكم .

(قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) . هذا هو طريق الخلاص : الايمان بالله وبأنه يرحم ويغفر لمن تاب من ذنوبه ، وتوكل عليه في جميع أموره

سورة الملك

(فتعلمون من هو في ضلال مبين) . بعد أن قال الرسول الأعظم (ص) للمشركين : أهلكنا الله أو رحمنا - قال لهم : كلا انتم المالكون لأنكم الضالون المضلون ، أما نحن ففي رحمة الله وعنايته ، ولنا النصر عليكم دنيا وآخرة، وستعلمون ذلك علم اليقين (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين) . الأولى بكم أيها المشركون أن تتوبوا الى الله ، وتشكروه على آلائه التي لا تُعد ولا تُحصى ، ومنها ماؤكم هذا الذي هو مصدر حياتكم ، ولو شاء سبحانه لغار في جوف الأرض ، ولا راد لمشيئته، فتموتون جوعاً وعطشاً .. وقال بعض المفسرين ان الله أراد بهذا أن يستميل قلوبهم ويستلين عرائكهم عسى أن يرجعوا الى الرشده.. وليس هذا ببعيد ، فإن أساليب الدعوة في القرآن أنواع وألوان .

سُورَةُ الْقَتْلِ

٥٢ آية مكية ، وقيل : بعضها مدني .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ما أنت بمجنون الآية ١ - ١٦ :

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ تَمْنُونَ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَصَبْرٌ وَبَصْرُونَ *
بِأَيْكُمُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُتَّعِدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وُدُّوا لَوْ تَدْرِيهِمْ فَيَذْنُوهُمْ * وَلَا
تُطِعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَاوٍ بِنَمِيمٍ * مَنَاعٍ لِلْغَيْرِ مُعْتَدٍ أَنَّهُمْ *
عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ
آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِفُهُ عَلَى الْحَرُثُومِ *

اللفظ :

وما يسطرون وما يكتبون. غير ممنون أي لا يُمن بالأجر عليك أو غير مقطوع
أو هما معاً . فصبر أي ستعلم . والمفتون هو الذي ابتلي بأراء فاسدة كالمجنون .
والمداهنة المداراة فيما لا ينبغي . والحلاف كثير الحلف بالحق وبالباطل . ومهين

سورة القلم

حقير . والهمَّاز الطعَّان في أعراض الناس . مشاء بنعيم كثير الوشابة والسعايسة بالنميمة والافساد بين الناس . ومناع للخير لا يفعل الخير ويمنع الناس من فعله . ومعتد ظالم . وأنيم كثير الذنوب والآثام . وعتل فظ غليظ القلب والفهم . وزنيم دعي . وسنسمه نجعل له علامة يدل عليه . والخرطوم الأنف .

الإعراب :

« ن » على حذف مضاف أي هذه سورة « ن » . والقلم الواو للقسم وجوابه جملة ما أنت بنعمة ربك بمجنون، و « ما » نافية وأنت مبتدأ وخبره مجنون والباء فيه زائدة إعراباً ، وبنعمة ربك متعلق بمجنون مثل أنت بفضل الله حسن السيرة . وبأيكم مبتدأ والباء زائدة والمفتون خبر . ولو تدهن « لو » للتمني . وجملة فتدهنون خبر لمبتدأ محذوف أي هم يدهنون . وإن كان « إن » مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف أي لأنه كان الخ والمصدر المنسبك متعلق بلا نطع .

المعنى :

(ن) هذه مثل غيرها من الحروف التي افتتح بها السور، وتكلمنا عنها في أول سورة البقرة . وقال قائل : هي الحوت . وثان : الدواة . وثالث : المداد . وقال رابع : هي نون الرحمن . وذهب جماعة من الصوفية الى أنها النفس . وكل هذه الأقوال تفتقر الى دليل .. واختلفوا في القلم ما هو المراد منه ؟ . قال البعض : هو القلم الذي كُتب به على اللوح المحفوظ . وقال آخرون : المراد به كل قلم دون استثناء لأن الألف واللام فيه للجنس ، وهي تفيد الشمول والعموم . وهذا هو الظاهر على أن لا يكون القلم مراداً لذاته ، بل وسيلة للكتابة كما يومئ قوله تعالى : (وما يسطرون) أي يكتبون، وعليه يكون القلم كناية عن أدوات الكتابة أباً كان نوعها مما وجد بالفعل ، أو سيوجد في المستقبل القريب أو البعيد وأشرنا الى طرف من فوائد البيان عند تفسير « علمه البيان » في أول سورة الرحمن .. على أن الحديث عن منافع البيان تماماً كالحديث عن منافع الماء والفضياء .

(ما أنت بنعمة ربك بمجنون) . الخطاب لمحمد (ص) .. ولا أحد يظن الجنون بمحمد إلا مجنون .. والذين وصفوه بذلك أرادوا أن له جنياً يوحى اليه ، كما كانوا يزعمون بأن لكل شاعر جنياً يعلمه الشعر ، ويومئذ الى هذا قوله تعالى حكاية عنهم : « ويقولون أننا لتاركوا آهتنا لشاعر مجنون - ٣٦ الصفات » . (وان لك لأجرأ غير ممنون) أي دائم غير مقطوع .. وبديهة ان الأجر يقاس بنتائج الأعمال وآثارها ، ولا تزال آثار محمد ودعوته وعظمته قائمة الى اليوم في شرق الأرض وغربها ، وستبقى الى آخر يوم ، فلا بدع اذا ظفر من ربه بالعقبى الدائمة ، والكرامة الخالدة .

(وانك لعلى خلق عظيم) . ما وصف سبحانه أحداً من رسله بهذا الوصف إلا محمداً ، ويتلخص معناه بقول الرسول الأعظم (ص) : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » أي ان الله قد اتجه بأخلاق محمد (ص) الى نفس الهدف الذي خلقها الله من أجله . وأيضاً ما أقسم الله بحياة انسان إلا بحياة محمد (ص) ، وذلك حيث يقول عز من قائل : « لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون - ٧٢ الحجر » . أما وصف محمد (ص) بخاتم النبيين فمعناه ان محمداً بلغ من صفات الكمال أقصى ما يصل اليه انسان .. ومستحيل أن يأتي من بعده من هو أفضل منه ، أو يأتي بشريعة أفضل من شريعته ، بل لا يضارعه مخلوق من الأولين والآخرين ، والى ذلك يومئذ قوله (ص) : « أنا سيد الناس ولا فخر » ومن أجل هذا ختمت به النبوات وبشريعته الشرائع ، قال ابن عربي في الفتوحات ما معناه : ان الله خلق الخلق أصنافاً ، وجعل من كل صنف أخباراً ، ومن الأخبار الصفوة ، وهم الأنبياء ، ومن الأنبياء الخلاصة ، وهم أولو العزم ، ومن الخلاصة خلاصتها وهو محمد الذي لا يكاثر ولا يقاوم .

(فستبصر ويبصرون بأبيكم المقنون) . هذا تهديد ووعد ، ومعناه عما قريب يتبين لك ولأعدائك يا محمد انهم أولى الناس بوصف الجهل والضلال والجنون ، وانك أعلى الناس عقلاً وأعظمهم خُلُقاً ، واكرمهم عند الله (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) . الله يعلم يا محمد مكانك من العظمة والمهابة ، ومكان خصومتك من الضلالة والغواية ، وأمامهم الحساب والجزاء . وتقدم مثله بالحرف الواحد في الآية ١٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٥٣ (فلا

تطع المكذبين) . حساؤل المشركون بكل سبيل أن يشنوا الرسول الأعظم (ص) عن دعوته ، وأغروه بالجاه والمال فأبى ، وتمنوا لو صانعهم في شيء مما يريدون ، فنهاه الله عن ذلك ، والقصد من النهي أن يأسوا ويعلموا انه لا هودة ولا مساومة على طاعة الله وأمره .. ويشبه هذا النهي قولك لمن يساومك على دينك : لقدس نهائي الله عن ذلك ، وأنت تريد ان يأس منك .

(ودوا لو تدهن فيدهنون) . تمنى المشركون ان يتنازل الرسول (ص) عن بعض ما يدعوههم اليه ، ويستنجبوا بدورهم لبعض ما نهاهم عنه ولو من باب للمداهنة والمداراة كي تنتهي المعركة بين الطرفين ، ويتم الصلح على انصاف الحلول ، ويدل السياق على ان الذي اقترح المداهنة يتصف بالأوصاف التي أشار إليها سبحانه بقوله : (ولا تطع كل حلاف) يكثر من الأيمان بلا سبب موجب (مهين) حقير (هماز) يكثر الطعن في اعراض الناس (مشاء بنميم) يمشي بالنميمة والوشاية ، والهام هو الذي يضرب الناس بعضهم ببعض بنقل الأحاديث (مناع للخير) لا يفعله ويمنع الناس من فعله (معتد) على حقوق الآخرين (أثيم) كثير الذنوب والآثام (عتل) فظ غليظ (بعد ذلك) وفوق هذه الأوصاف هو (زئيم) دعي لا يعرف له نسب . وهذه الرذائل هي أقصى ما يتصوره العقل .

وذكر كثير من المفسرين ان المقصود بهذه الخصال الملعونة هو الوليد بن المغيرة ، وكان من عتاة قريش ، وفي سعة من المال ، وكثرة من الأولاد ، كما قال تعالى : (أن كان ذا مال وبنين اذا تنلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) . وقال المفسرون : ان هذه الآية تعليل للنهي عن طاعة هذا اللعين .. والأقرب الى الصواب والسياق أن تكون تعليلاً لانصاف المكذب بتلك الصفات الملعونة ، وان الذي جرأ عليها وعلى القول بأن القرآن أساطير وأباطيل هو اعتزازه بأمواله وأولاده كما قال تعالى : « كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى - ٦ العلق » فكيف اذا كان مع الغنى قوة في المال والأهل .

(سنسمه على الخرطوم) السمة العلامة ، والخرطوم الأنف ، وتكني به العرب عن العزة والمذلة أيضاً ، فيقولون عن العزيز : له أنف أشم ، وعن الذليل : أنفه في التراب ، المعنى ان الله سبحانه سيخزي هذا الطاغية الذي أخذته العزة

بأمواله وأولاده ، وبذله مدى الدهر ، ويلعنه على كل لسان بما سجله عليه في كتابه ، ويفضحه في الآخرة أمام الشهداء بسواد الوجه وغيره من العلامات التي تعكس آثامه وعازيه .

فأصبحت كالصريم الآية ١٧ - ٣٣ :

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ*
وَلَا يَسْتَنْتُونَ* فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ* فَأَصْبَحَتْ
كَالصَّرِيمِ* فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ* أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَارِمِينَ* فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ* أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ
مُسْكِينٌ* وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ* فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ*
بَلْ تَحْنُ نَحْنُ نَحْرُومُونَ* قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لَا تُسَبِّحُونَ* قَالُوا
سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ*
قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ* عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا
إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ* كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَئِنَّ الْعَذَابَ الْآخِرَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ*

اللغة :

بلوناهم اختبرناهم . والجنة البستان . ليصرمنها ليقطفن ثمارها . ومصبحين دخلوا
في الصباح . ولا يستنتون لا يقولون : ان شاء الله . طائف من ربك أي عذاب

سورة القلم

من ربك . كالصريم أي كالبستان الذي قطعت أشجاره أو ثماره ، وقيل : كالذي احترقت أشجاره وصارت سواداً كالليل المظلم، ويسمى الليل صريماً وكذلك النهار . فتنادوا أي نادى بعضهم بعضاً . وأعدوا أخرجوا مبكرين . والحراث الزرع . وصارمين قاطعين الثمار . ويتخافتون يتسارون . والمراد بالحد هنا المنع والحرم . وأوسطهم أفضلهم رأياً . ويتلاومون يلوم بعضهم بعضاً . يا ويلنا دعاء على أنفسهم بالهلاك .

الإعراب :

كما بلونا الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف و « ما » مصدرية أي بلاء مثل بلاء أصحاب الجنة . وإذ ظرف بمعنى حين والعامل فيها بلونا . وليصرمتها جواب القسم ، والأصل ليصرمون وحذفت الواو لمكان نون التوكيد . ومصبحين حال من فاعل ليصرمتها ، وهو واو الجماعة المحذوفة . وان اغدوا «ان» مفسرة بمعنى أي ، واغدوا تتضمن معنى أقبلوا ولذا تعدت بعل . وان لا يدخلها «ان» مفسرة بمعنى أي ولا نافية والماء تعود الى الجنة . وغدوا على حرد «غدوا» هنا فعل تام بمعنى ذهبوا وقت الغداة ، وعلى حرد متعلق بقادرين ، وقادرين حال . لولا هلا . يا ويلنا أي احضر يا ويل . وكذلك خبر مقدم والعذاب مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة) . ضمير بلوناكم يعود الى مشركي قريش الذين كذبوا رسول الله (ص) .. وقد أشار سبحانه اليهم في الآية ٨ من هذه السورة بقوله : « فلا تطع المكذبين » . ومنهم المعتدي الأثيم السذي طغي وبغى اعتداداً بكثرة الأموال ، ونقلنا عن المفسرين في المقطع السابق انه الوليد بن المغيرة ، وهو من عتاة قريش وينطق بلسان المكذبين منهم ، ويعبر عن عتوهم وتمردهم على الحق .. والآيات التي نحن بصددتها تضرب مثلاً له ولهم بقوم كانوا يملكون بستاناً بدر الثمرات والخيرات، ولكنهم كانوا أشعث على الفقراء والمساكين ..

فإذا أُنِعت الثَّارُ وحان وقت قطافها تواطأوا فيها بينهم ، وأقسموا أن يجنوا ثمار البستان في الصباح الباكر على غفلة من الفقراء ، ودون أن يعلقوا جني الثَّار على مشيئة الله وأرادته .. وقد تواصوا بالشح وحرمان المحتاجين مما آتاهم الله ومن به عليهم ذاهلين عن تدبير الله وتقديره .. وفي نفس الليلة التي أرادوا قطف الثَّار في صباحها سلَّط الله على البستان آفة سماوية أفسدت الثَّار عن آخرها ، أو استأصلت البستان من جذوره .

ولما استيقظوا من نومهم وذهبوا الى البستان للقطاف في الوقت الموعود هالهم ما حاق به من الهلاك ، وأخذ يلوم بعضهم بعضاً ، ويقول كل لصاحبه : أنت السبب .. وكان منهم رجل رشيد قد حذرهم سوء العاقبة من قبل ، فلم يستمعوا له ، وبعد أن وقع المحذور قال لهم : نصحت لكم، ولكن لا تحبّون الناصحين ، فتوبوا الآن الى ربكم لعلكم تفلحون ، فتابوا اليه تعالى ، وسألوه العفو عما سلف ودعوه مخلصين أن يرحمهم ويمنّ عليهم بخير من بستانهم .

والقصد من هذا المثل أن يتعظ به كل من أنعم الله عليه بشيء من فضله وبخاصة أهل مكة ، ومنهم الأئمة الزنيم وإلا دارت عليهم دائرة السوء تماماً كما حدث لأصحاب البستان .. ويقول الرواة : أن الله سبحانه ابتلى أهل مكة بالجوع والقحط لأنهم كذبوا محمداً (ص) فدعا عليهم واستجاب الله لدعائه ، ودام فيهم القحط سبع سنين حتى أكلوا العظام والجيف ، وقال الرواة أيضاً انه تعالى أهلك أموال الزنيم الوليد بن المغيرة الذي كان ذا مال وبني .

هذا هو المعنى المراد من مجموع الآيات وما تهدف اليه ، وفيها يسلي الشرح والكشف عن المعنى المتبادر من كل آية :

(اذ أقسموا ليصرمُنها مصحين) . الهاء تعود الى الجنة ، وهي في اللغة البستان ، ثم كثر استعمالها في جنة الخلد حتى أصبحت علماً عليها بكثرة الاستعمال ، والمراد منها هنا البستان ، والمعنى أن أصحاب البستان حلفوا على أن يجنوا ثماره في الصباح الباكر على غفلة من الفقراء (ولا يستثنون) أي لم يقولوا : نجني الثَّار صباحاً إن شاء الله ، وقال البعض : المعنى دون أن يستثنوا من ثمر البستان شيئاً للمساكين .. وكل من المعنيين يجوز ، وأيضاً يصح أرادتهما معاً .

(فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم) . نام أصحاب البستان آمنين مطمئين على أن يجنوا ثماره في الصباح ، وفي تلك الليلة بالذات سلط الله آفة على البستان أو على ثماره فأصبح كالصريم ، وللصريم معانٍ ، منها المصروم أي المقطوع ثماره ، وعليه يكون المعنى ان البستان أصبح كالذي قطعت ثماره ولم يبق منها شيء ، ومن معاني الصريم أيضاً السواد ، وعليه يكون المعنى ان البستان احترق وأصبح في سواده كالليل المظلم (فتنادوا مصبحين ان اغسدوا على حرثكم ان كنتم صارمين) . حين دخل وقت الصباح نادى بعضهم بعضاً : هلموا نقطف الثمار على غفلة من الفقراء ما دمنم على عزمكم .

(فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) . أسرعوا وهم يتسارعون مقتبطين : لن يذوق اليوم من ثمار بستاننا محروم .. وليس من شك ان هذا جفاء وقسوة ، ولكنه في حدود الشح والحرص ، فالبستان بستانهم ، والثمار ثمارهم لم يسرقوا ولم ينهبوا .. ومع هذا غضب الله عليهم وأعد لهم العذاب فكيف إذا تجاوزوا الى الاعتداء على حياة الناس وأقواتهم بالقتل والتشريد والسلب والنهب كما يفعل الآن قادة الاستعمار الجديد في شرق الأرض وغربها ! .. (وغدوا على حرد قادرين) . مضوا الى بستانهم ، وهم مصممون على حرمان الفقراء من ثمره : وتحيلوا ان البستان وثمره بأيديهم ، وما دروا ان يد الله فوق أيديهم .

(فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون) . لما وصلوا الى البستان هالهم ما رأوا واعترفوا بضلالهم ، وقالوا : نحن المحرومون من فضل الله وثوابه ، والمستحقون لغضبه وعذابه ، وليس الفقراء والمساكين .. وكان منهم رجل رشيد يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ولكنهم لم يستمعوا لنصحه ، وحين رأى ما حل بهم (قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون) ؟ أي تشكرون الله قولاً وفعلاً بالذل والعطاء .. قال لهم هذا بخان وإشفاق عليهم ، ثم أمرهم بالتوبة والانابة (قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين) أنفسنا بمعصية الله (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) يتنصل كل من التبعة ويلقي بها على صاحبه كما هو شأن الشركاء في الجريمة حين يؤخذون بما كسبت أيديهم .

(قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين) . ثم رجعوا الى عقولهم وتركوا التلاوم ،

واعترفوا بأنهم في التبعة والطفيان سواء ، ودعوا على أنفسهم بالموت والهلاك ،
وسألوا الله العفو والمغفرة وقالوا : (عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها انا الى ربنا
راغبون) . هذا دعاء ورجاء منهم الى الله سبحانه أن يصفح عما سلف ، ويعوضهم
خيراً مما فات .. والله يقبل التوبة من عباده ويعفو عن كثير ، ويجب دعوة
الداعي إذا دعاه بصدق وإخلاص (كذلك العذاب) . هكذا يفعل الله في الدنيا
بالعصاة والطفيان ، فيسلط عليهم وعلى أموالهم الآفات والنكبات متى شاء ، فليحذر
الذين يعرضون عن أمر الله ان يصيبهم ما أصاب أصحاب البستان ، وهم ناثمون
(وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) . قال الرازي : هذا واضح لا
يحتاج الى تفسير ، وأبى الشيخ المراغي إلا أن يفسره بقوله : « أي ان عذاب
الآخرة أشد وأنكى من عذاب الدنيا » .

أفجعل المسلمين كالمجرمين الآية ٣٤ - ٤٣ :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ *
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ
لَمَّا تَخْيِرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَّا
تَحْكُمُونَ * سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ
إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى
السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ *

اللغة :

بالغة مغلفة ومؤكدة . وزعيم كفيل . والعرب يكتنون بكشف الساق عن الهول الشديد . وترهقهم تلحقهم .

الاعراب :

للمتقين متعلق بمقدر خبراً لأن ، وعند ربهم متعلق بما تعلق به للمتقين . مالكم مبتدأ وخبر . ومعناه أي شيء جرى لكم . وكيف في محل المفعول المطلق على معنى أي حكم تحكمون . وان لكم بكسر همزة ان لدخول اللام في خبرها ولولاها لكانت مفتوحة لأنها واقعة في مفعول تدرسون . وتنجيرون أي تنجيرون . وكسرت همزة ان لكم لما تحكمون لأن الجملة في جواب القسم وهو أم لكم إيمان علينا . ويوم منصوب بدفعاً لتأنيده . وخاشعة حال من فاعل يدعون ، وأبصارهم فاعل خاشعة .

المعنى :

(ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم) . في الآية السابقة توعد سبحانه المجرمين بالعذاب الأكبر ، وفي هذه الآية وعد المتقين بملك دائم ونعيم قائم .. وهكذا يقرن سبحانه عاقبة المجرم بعاقبة من اتقى ترغيباً وترهيباً (أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون) . ليس المراد بالمسلمين هنا كل من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله .. بل المراد بهم المتقون لأن الحديث عنهم وعما لهم عند ربهم من جنات النعيم .

وتسأل : لا نظن ان أحداً يحكم بالمساواة بين المتقين والمجرمين حتى من لا يؤمن بالله واليوم الآخر - إذن - ما هو البرر لقوله تعالى : مالكم كيف تحكمون؟ .

الجواب : أجل ، لا أحد يساوي المتقي بالمجرم في الحكم والمكانة ، ولكن كثيراً من المجرمين يرون أنفسهم من الأتقياء ، وان لهم ما للمتقين من الأجسر

والثواب ، فأذكر سبحانه عليهم هذا وقال لهم : كيف تجعلون أنفسكم في عداد المتقين وبينكم وبينهم بُعد المشرقين ؟. والذي يدل على ان هذا المعنى هو المراد الخطابات التالية :

(أم لكم كتاب فيه تدرسون ان لكم فيه لما تخبرون) . هل عندكم كتاب من السماء أو من الأرض تقرأون فيه ان لكم في الدنيا ما تحبون ، وفي الآخرة عند الله ما تشتهون ؟. وبصدق هذا الوصف على اليهود والنصارى : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه - ١٩ المائدة » إلا ان المقصود بالآية التي نفسرها عتاة قريش مع العلم أنهم لم يدعوا وجود هذا الكتاب ، ولكن القصد من الخطاب افحامهم وانه لا دليل وما يشبه الدليل على أنهم مع المتقين وان لهم ما يتخبرون . وتقدم مثله في الآية ٤٠ من سورة فاطر والآية ٢١ من سورة الزخرف .

(أم لكم أيمان علينا بالغة الى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون) . هل خاف الله لكم الأيمان المخلطة ، وأعطاكم العهد المؤكدة ان يدخلكم الجنة مع المتقين على ان لا تبدل ولا تعدل هذه الأيمان والعهد الى يوم القيامة ؟. (سلمهم أيهم بذلك زعيم) ؟. الخطاب للرسول (ص) والزعيم الكفيل ، والمعنى سل يا محمد المشركين : من الذي تعهد لهم بتنفيذ ذلك على فرض ادعائهم له (أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم ان كانوا صادقين) . المراد بالشركاء هنا الأصنام كما في الآية ٢٧ من سورة سبأ : « قل أرؤني الذين ألحقتم به شركاء » والمعنى فليأتوا المشركون بالكنهم التي يعبدون لتشهد لهم أنهم في الجنة مع المتقين ..

والقصد من هذه الخطابات التي وجهها سبحانه الى المشركين هو انه لا شيء يدل أو يوهم من قريب أو بعيد ان المشركين على شيء : وهذا النوع من الحجاج من أجدى الوسائل لافحام الخصم ، وفي الوقت نفسه يفيد العلم والجزم .

(يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون) . يكني العرب عن الشدة والهول بالكشف عن الساق ، ومن هنا يسمى يوم القيامة بيوم الكشف عن الساق ، ولا أحد يدعى في هذا اليوم الى السجود ولا الى غيره من العبادات

سورة القلم

لأنه يوم حساب وجزاء لا يوم تكليف وعمل ، وعليه يكون طلب السجود من المجرمين يوم القيامة هو طلب توبيخ وتقريع لا طلب تشريع وتكليف ، والمراد بلا يستطيعون ان السجود في ذلك اليوم لا يجذبهم نفعاً لأنه يوم جزاء لا يوم عمل كما قلنا . والمعنى ان الذين فرطوا أو قصروا في الدنيا حيث يستطيعون العمل ، ان هؤلاء سيوبخون ويعذبون يوم القيامة الذي لا يملكون فيه حيلة ولا وسيلة تقربهم الى الله .

(خاشعة أبصارهم) . الخشوع صفة للقلب لا للأبصار ، ولكنه تعالى كنى به عن ذلهم وهوانهم الذي ظهر في أبصارهم ، وقوله تعالى : (ترهقهم ذلة) تفسير وبيان لقوله : « خاشعة أبصارهم » . (وقد كانوا) في الدنيا (يدعون الى السجود) فيعرضون علواً واستكباراً (وهم سالمون) لا مانع يمنعهم عنه . وبعد أن رأوا العذاب أرادوا السجود ، ولكن بعد فوات الأوان .

فلذوني ومن يكذب الآية ٤٤ - ٥٢ :

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ *
وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ *
أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ
الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ
لَنَبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِنْ
يَكَاذِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ
إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ *

اللغة :

هذا الحديث أي هذا القرآن . سنستدرجهم سننتقل بهم تدريجاً من حال الى حال . وأملّي أمهل . والمفرم الملزّم بما يكره . ومثقلون مُثقلوا ثقيلًا . والمراد بصاحب الحوت النبي يونس . ومكظوم أي مملوء غيظاً ، وقيل : محبوس . والعراء الفضاء . والمراد بمذموم ملوم . ويستعمل الزلق لزلّة الرجل ، والمراد به هنا النظر بغيظ وحسني حتى تكاد قدم المنظور تزل وتزلق . لما سمعوا الذكر أي القرآن . والا ذكر أي تذكير .

الإعراب :

ومن يكذب عطف على الباء في ذرني أو مفعول معه . والمصدر من ان تداركه مبتدأ والخبر محذوف أي لولا مداركة النعمة حاصلة . ومن ربه متعلق بنعمة أو بمحذوف صفة لنعمة وقال سبحانه : تداركه نعمة ولم يقل : تداركه لأن التأنيث هنا غير حقيقي ، وقد فصل بين الفعل والفاعل ضميراً لمفعول وهو الهاء في تداركه . وان يكاد ان مخففة ، وهي مهملة غير عاملة ، وجاءت اللام بعدها للفرق بينها وبين ان النافية .

المعنى :

(فلنرني ومن يكذب بهذا الحديث) . « من » هنا اسم موصول للجماعة ، وهم مشركو العرب الذين كذبوا بالرسول وبالقرآن ، وكلمة « ذرني » تؤذن بإعلان الحرب عليهم من الله ، وانه تعالى سيتولى بنفسه الانتقام منهم ، ويربح النبي والذين آمنوا معه - منهم ومن شرهم .. ثم بين سبحانه : كيف وبأي طريق ينتقم منهم حيث قال عز من قائل (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملّي لهم ان كيدي متين) . انه تعالى يمهّلهم ولا يعالجهم بالعقوبة ، وأيضاً يمد لهم من الأموال والبنين ، وينقلهم من حسن إلى أحسن في ظاهري الحياة الدنيا ، ولكنهم في واقع الأمر يُثقلون من سيء الى أسوأ .. حتى إذا ركنوا الى الدنيا

سورة القلم

وظنوا انهم في حصن حصين من ضربات الدهر ودوراته أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ليكون ذلك أنكى وأوجع لقلوبهم .. وسمى سبحانه هذا الامهال والاستدراج كيداً لأنه يشبه الكيد في ظاهره .. وإلا فإن الله منزّه عن الكيد والمكر .. كيف ولا يلجأ اليه إلا عاجز ، والله يقول للشيء : كن فيكون .. هذا ، الى ان الغرض من ذكر الكيد أن لا يُخدع الانسان بالدنيا إذا أقبلت عليه وابتسمت له ، وان يكون على حذر من المخبات والمفاجآت . وتقدم مثله في الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون أم عندهم علم الغيب فهم يكتنون) . ما الذي جعلهم يكذبون برسالتك يا محمد ؟ هل تقاضيتهم على الهداية مالا يصعب عليهم تحمله واداءه ، أم اطلعوا على علم الغيب ، ونسخوا عنه ما يدل على مزاعمهم وادعاءاتهم . وتقدم مثله بالحرف في الآية ٤٠ من سورة الطور (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم) . صاحب الحوت هو النبي يونس الذي ضاق صدره من قومه فتركهم مغاضباً ، وتقدمت الاشارة اليه الى قصته مع قومه في الآية ٩٨ من سورة يونس والآية ٨٧ من سورة الأنبياء والآية ١٤٠ وما بعدها من سورة الصافات .. وقد أوصى سبحانه نبيه الكريم محمداً (ص) بالصبر على أذى قومه ، وان لا يعجل عليهم كما فعل يونس الذي التقمه الحوت ، فنادى وهو في بطنه : لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين -- ٨٧ الأنبياء .

(لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم) . دعا يونس ربه ، وهو في بطن الحوت ، فاستجاب دعاءه رحمة به ، ونبذه الحوت من بطنه في الفضاء ، وهو غير مذموم ولا ملوم عند الله ، ولولا دعاؤه ورحمة الله لكان مذموماً وملوماً ، بل وليقي في بطن الحوت الى يوم يبعثون . وتجدر الاشارة الى ان الدم هنا على ترك الأفضل لا على الذنب لمكان العصمة (فاجتبه ربه فجعله من الصالحين) . من نعم الله على يونس انه تعالى أخرجه من بطن الحوت ، وهو راض عنه ، ورده الى قومه نبياً كما كان من قبل ، فانتفضوا به وبمعاظله ، ولو بقي في بطن الحوت الى يوم يبعثون لم يكن لنبوته أي أثر ، وقوله تعالى : فجعله من الصالحين معناه ان الله سبحانه يحشره غداً مع النبيين وفي زمرة .

(وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر) . الخطاب

الجزء التاسع والعشرون

لرسول الله (ص) والمعنى ان المشركين حين يسمعون القرآن من محمد (ص) ينظرون اليه شزراً بعيون العداء والبغضاء ، وتكاد قدم الرسول الأعظم (ص) تزل وتزلق من نظراتهم لأنها حادة كالسهم .. قال الرازي : يقول العرب : نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني ، ويكاد يأكلني ، قال الشاعر :

يتقارضون اذا التقوا في موطن نظراً يُزِلُّ مواطئ الأقدام

(ويقولون انه لمجنون) . نظروا الى الرسول (ص) بنظرات كالسهم، وأيضاً سلقوه بالسنة حداد كقولهم : هو مجنون .. وقد رد عليهم سبحانه في أول هذه السورة بقوله : « وما أنت بنعمة ربك بمجنون » (وما هو إلا ذكر للعالمين) . ضمير هو للقرآن : والمراد بالذكر التذكير بالخبر، والارشاد الى طريقه، والمعنى ان القرآن وحي من الله أنزله على قلب محمد (ص) ليهدي به جميع الناس في كل زمان ومكان ..

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

٥٢ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحاقة ما الحاقة الآية ١ - ١٨ :

الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوٍ وَعَادُ
بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ
صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى
الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ * نَحْلٍ خَاطِيَةٍ * فَبِلِئَالٍ هُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ *
وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ
رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَا الْهَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ *
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعْيِبَهَا أُذُنُ * وَإِيسَى * فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ
نَفْخَةً وَاحِدَةً * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً *
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَسُيِّرَ يَوْمَئِذٍ وَإِهْبَةُ * وَالْمَلَكُ
عَلَى أُرْجَائِهَا وَيَخْمَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ
لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ *

اللفظة :

الحاققة مؤنث الحاق من حق بحق بكسر الحاء اذا وجب وثبت ، والحاققة بالأصل صفة لكل حادثة ثابتة ، ثم خرجت عن الوصف وصارت علماً على يوم القيامة ، ومثلها الواقعة والقارعة أي تفرع القلوب بالأحوال . وما أدراك أي شيء أعلمك . والمراد بالطاغية هنا صبيحة العذاب لقوله تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصبيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين - ٦٧ هود » . فلان المراد بهم ثمود قوم صالح . بريح صرصر أي باردة مهلكة . وعاتية بالغة العنف . حسوماً أي تتابعت الأيام الثمانية بلا فاصل واستمرت حتى استأصلتهم . وأعجاز النخل أصولها . وخاوية فارغة . من باقية من بقية . والمؤتفكات المنقلبات وهي قرى قوم لوط . بالخاطئة أي بالأعمال الخاطئة . وراية زائدة . والمراد بالجارية هنا السفينة . وتذكرة موعظة . وتبهيها تفهمها وتحفظها . وراعية فاهمة حافظة . حملت الأرض والجبال زاحت عن أماكنها . والدك الدق والهدم . واهية متداعية . والأرجاء النواحي .

الإعراب :

الحاققة مبتدأ أول و « ما » استفهام مبتدأ ثان ، الحاققة خبر المبتدأ الثاني والجملة خبر الأول والرابط إعادة المبتدأ بلفظه . وما أدراك « ما » مبتدأ وأدراك فعل ماضٍ وفاعله مستتر يعود الى « ما » والجملة من الفعل والفاعل خبر . ما الحاققة أيضاً مبتدأ وخبر . وحسوماً صفة لأيام لأن المعنى حاسمات أي متتابعات . وصرعى حال من القسوم لأن الرؤية هنا بصرية . ومن باقية « من » زائدة وباقية مفعول ترى . فيومئذ وقعت الواقعة جواب فإذا نفخ و « يوم » متعلق بوقعت . يومئذ واهية « يوم » متعلق بواهية . يومئذ ثمانية « يوم » متعلق بيحمل . يومئذ تعرضون « يوم » متعلق بتعرضون ، وقيل بدل من فيومئذ وقعت .

المعنى :

(الحاققة ما الحاققة) . المراد بالحاققة القيامة، وسميت بذلك لأنها واجبة الوقوع،

سورة الحاقة

أما الاستفهام عنها مع تكرار اللفظ فالقصد منه التخويف من شدائدها وأهوالها ،
 وأنها فوق ما تسمعه الآذان ، وتراه العيون ، وتتصوره العقول .. ومن أجل هذا
 أعاد سبحانه الاستفهام فقال : (وما أدراك ما الحاقة) . أي شيء أعلمك بها
 أيها الانسان ؟. وهل من أحد يحيط علماً بكنهها حتى يخبرك عنه ؟ .. وكسل ما
 نعرفه من أحوال القيامة ان للمتقين جنة فيها مسا تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ،
 وللمجرمين « نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها -
 ٣٦ فاطر » .

(كذبت ثمود وعاد بالقارعة) . ثمود قوم صالح وعاد قوم هود ، والقارعة
 من أسماء القيامة مثل الحاقة (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) وهي صيحة العذاب ،
 وطفبانها كناية عن شائتها مثل طغى الماء وهاج البحر (وأما عاد فأهلكوا بريح
 صرصر عاتية) . باردة مهلكة بالغة العنف (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام
 حسوماً) . دامت هذه المدة دون انقطاع ولا فتور (فرى القوم فيها صرعى
 مطروحين على الأرض) كأنهم أعجاز نخل خاوية) . وكل ميت هو جواد خاوي
 مفزع ولو كان على ورد وحرير (فهل ترى لهم من باقية) كلا ، ولا ناعية .
 وتقدم الكلام عن عساد وثمرود مفصلاً انظر تفسير الآية ٦٥ - ٧٩ من سورة
 الأعراف ج ٣ ص ٣٤٦ وما بعدها والآية ٥٠ - ٦٨ من سورة هود ج ٤
 ص ٢٣٧ والآية ١٢٣ - ١٥٩ ج ٥ ص ٥٠٧ .

(وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطشة فعصوا رسول ربهم فأخذهم
 أخذه رابية) . المراد بالمؤتفكات المنقلبات ، وهي قرى قوم لوط ، ويتلخص
 المعنى بأن فرعون وقومه وأمثالهم من الأولين ، ومنهم قوم لوط - كذبوا أنبياء
 الله ورسله ، وفعلوا أفعالا خاطشة ، فأخذهم الله لذنوبهم بعقوبة تجاوزت في
 هولها وشدتها حسد التصور . وما أكثر السور والآيات التي تحدثت عن فرعون
 وقومه ، منها الآية ١٠٣ - ١٣٧ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٧٠ . وأيضاً
 سبق الكلام عن لوط وقومه أكثر من مرة ، من ذلك الآية ٨٠ - ٨٤ من سورة
 الأعراف ج ٣ ص ٣٥٢ .

(إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية) . حملناكم على حذف مضاف أي حملنا

الجزء التاسع والعشرون

آباءكم المؤمنين في سفينة نوح . وأيضاً تقدم الكلام عن نوح وسفينته مرات ، منها في الآية ٥٩ - ٦٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٤ (لنجعلها لكم تذكرة) .
الماء تعود الى قصة نوح وسفينته ، وكررها سبحانه في كتابه لتكون عظة وعبرة .
وأيضاً ليعرف كل انسان انه لولا سفينة نوح لما كان لأبناء آدم وحواء بعد الطوفان عين ولا أثر .. وقد أبعد أبو العلاء حين دعا على أمنا حواء بالعقم لأن الوجود من حيث هو نعمة كما قال ارسطو وتلاميذه .

(ونعيمها أذن واعية) . جاء في أكثر التفسير القديمة والحديثة ، ومنها تفسير الرازي والشيخ المراغي : ان رسول الله (ص) قال لعلي بن أبي طالب : « اني دعوت الله أن يجعلها اذنك يا علي » . قال الامام : فما سمعت شيئاً فنسيت ، وما كان لي أن انسى .

(فلماذا نفخ في الصور نفخة واحدة) . النفخ في الصور كناية عن الصيحة للخروج من القبور . قال تعالى : « يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج - ٤٢ ق » . وعند تفسير الآية ٦٨ من سورة الزمر ج ٦ ص ٤٣٢ ذكرنا آراء المفسرين في الصور وان النفخات ثلاث : نفخة الفزع ونفخة الموت ونفخة البعث والخروج (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) . هذا كناية عن خراب الأرض وما عليها يوم القيامة ، قال تعالى : « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً » - ١٤ المزمل ، أي تلاً من الرمل يسذهب مع الرياح (فيؤمئذ وقعت الواقعة) . حين ينفخ في الصور وتُدك الأرض والجبال تقوم القيامة ، ويعلم المكذبون انها حق لا ريب فيه (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) . يصيب كواكب السماء من الخراب ما يصيب الأرض : « يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات - ٤٨ ابراهيم » أي وتبدل أيضاً السموات غير السموات (والملك على أرجائها) . المراد بالملك الملائكة لأن الألف واللام للجنس ، والماء تعود الى السماء ، والمعنى ان الملائكة بعد خراب الأرض والسماء ينتشرون هنا وهناك في أنحاء الفضاء .

حملة العرش :

(ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) . هل لله عرش يجلس عليه كالسلاطين والأمراء ؟ قال أهل الظاهر الحرفيون : نعم ؛ له سمع وبصر ويد ورجل وغير ذلك من الأعضاء .. ونُسب الى أبي عامر القرشي القول بأن الله مثلي ومثلك في هيئته وصورته !.. وهذا مستحيل لأنه لو كان جسماً لافتقر الى مكان ، والمخالق لا يفتقر الى شيء ، واليه يفتقر كل شيء ، وأيضاً يلزم على هذا أن يكون المكان قديماً ، ولا قديم إلا الله .. الى آخر ما ذكره الفلاسفة وعلماء الكلام .

وقال آخرون : نحن لا نعلم العرش ، ولا كيف يُحمل ، وما كلفنا الله بمعرفة ذلك .. وهذا القول هو الأحوط على حد تعبير الفقهاء الأتقياء .

وعندما تأملنا في معنى هذه الآية أوحى لنا السياق بأن المراد من العرش الملك والاستيلاء ، كما سبقت الإشارة الى ذلك عند تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف . وان المراد بحملة العرش الكائنات المخلوقة والمملوكة لله ، ويُشعر بذلك ما جاء في إحدى خطب نهج البلاغة : « ولولا إقرار السموات لله بالربوبية وأذاعنهن بالطواعية لما جعلهن موضعاً لعرشه » أي لولا نصرته تعالى بالسموات كيف يشاء لما كانت ملكاً له ، فالتصرف المطلق دليل الملك ، كما ان الملك يستدعي هذا التصرف .. وعليه يكون قوله تعالى : « ويحمل عرش ربك » الخ أشبه بالجواب عن سؤال من يسأل : اذا زالت السموات والأرض فإن معنى هذا ان ملك الله قد زال ، ولم يبق من شيء يسيطر عليه ؟.

فأجاب سبحانه : كلا .. ان هناك مخلوقاً آخر غير السموات والأرض ، وهو عبارة عن ثمانية أكران ، وهي في أمان وسلام من أي محلل ، يتصرف بها سبحانه كيف يشاء بعد تدمير الأرض والسماء .. نقول هذا كفكرة استوحيناها من كلمة « يحمل » ، وهذه الفكرة — كما نرى — ممكنة في ذاتها ، ولكن مثلها لا يثبت إلا بالنص الصريح الذي يفيد القطع والجزم ، ولو كانت من باب الحلال والحرام لكان لظن الفقيه وجه وجيه إذا استند الى ظاهر الكتاب أو السنة .

(يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) تعرض الخلائق على الله يوم القيامة للحساب وتوفية كل عامل جزاء عمله ، وهو سبحانه أعلم بمن اهتدى ومن ضل عن سبيله .

يا ليتها كانت القاضية الآية ١٩ - ٣٧ :

فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ * يَا لَيْتَنَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهُ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةُ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ *

اللفظ :

هاؤم خنوا أو تعالوا . راضية أي برضاها صاحبها . وعالية أي قدراً . ودانية قريبة سهلة التناول . الأيام الخالية الأيام الماضية في الدنيا . و « القاضية » على حياته فيرتاح . هلك عني سلطانيته ذهب عني كل ما أملك . صلوه ألغوه في

النار يصلها . ذرعها طولها . لا يحصى لا يحس . وحيم قريب أو صديق . وغسلين صديد يسيل من أجسام أهل النار .

الإعراب :

فأما من هـ أما حرف تفصيل . وهاؤم اسم فعل أمر بمعنى خنوا ، وقال صاحب البحر المحيط : تقول : هاؤم للرجال ، وهاؤن للنسوة ، وهاء للرجل ، وهاء للمرأة ، وهاؤما للرجلين أو المرأتين . وكتابه الأصل كتابي والهاء للسكت ، وهو مفعول أقرأوا ومفعول هاؤم محذوف أي هاؤم كتابه ، وهو من باب حذف من الأول للدلالة الثاني عليه . وحسابه الأصل حسابي مثل كتابه ، وهو مفعول ملاق . وفي عيشة متعلق بمحذوف خبراً لهو . وقطوفها دانية مبتدأ وخبر والجملة في محل جر صفة للجنة . وهنيئاً صفة لمفعول مطلق محذوف أي شراباً وأكللاً هنيئاً . وبأليتي هـ يا هـ لمجرد التنبيه ، ومثلها يا ليتها ، وهاء ليتها تعود الى المنة الأولى أو الى الحال التي هو فيها . والجحيم منصوب بصلوه أي أوردوه النار . وذرعها مبتدأ وسبعون صفة وذراعاً تمييز وجملة فاسلكوه خبر وفي سلسلة متعلق باسلكوه .

المعنى :

(فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم أقرأوا كتابه لأنني ظننت أني ملاق حسابيه) . قال سبحانه في الآية السابقة : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » . وبين سبحانه هنا الفرق في يوم العرض بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وليس المراد باليمين هنا الجمود و « الرجعية » ولا بالشمال « اليسار والتقدمية » وإنما المراد باليمين اليمن والخير ، وبالشمال الشؤم والشر جرباً على عادة العرب واصطلاحاتهم ، فإنهم يعبرون باليمين عن الخير ، وبالشمال عن الشر ، وقد كانوا يستخبرون بزجر الطير ، فإن طار عن اليمين تفاءلوا ، وإن طار عن الشمال تشاءموا . وعليه يكون المعنى أن السعداء في يوم القيامة يعلنون على رؤوس الأشهاد عن أنفسهم وأعمالهم بفخر واعتزاز ، ويقولون لمن يرون أو لمن يسأل عن حالهم :

خُذ ، واقرأ صحيفة أعمالنا ، فقد كنا نؤمن بالله واليوم الآخر ، وندخر له الفخائر .

(فهو في عيشة راضية) أي مرضية ، وهي التي لا ينقصها شيء (في جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) . هذا تفصيل بعد اجمال ، فكأن سائلاً يسأل : ما هي هذه العيشة المرضية ؟ فأجاب سبحانه بأنها جنة عالية الشأن والقدر ، ثمارها قريبة وسهلة التناول ، وتقول الملائكة لأهل الجنة : كلوا من ثمار جنة الخلد هنيئاً واشربوا من شرابها مريضاً جزاء ما علمتم من الخيرات والمبرات . وأفرد سبحانه ضمير هو في عيشة بالنظر الى لفظ «من» وجمع في كلوا واشربوا بالنظر الى معناها ، وهو الجمع .

(وأما من أوتي كتابه بشماله) وهو الذي كذب بالحساب والجزاء وطفى وبغى على العباد ، وعبر سبحانه عنه بمن أخذ كتابه بالشمال للإشارة الى ان أعماله عادت عليه بالشؤم والوبال كما أسلفنا (فيقول يا ليتني لم أوت كتابي ولم أدر ما حسابي يا ليتني كانت القاضية ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه) . تمنى لو انه لم يخلق أو لم يبعث من قبره ، تمنى ذلك بعد أن أيقن بعذاب لا دافع له من مال ولا جاه ولا حجة لو كان يملك شيئاً من ذلك .. وأنها امنية الخاسر اليائس ، ولا شيء وراها إلا قوله تعالى لملائكة العذاب : (خذوه فقلوه) . اجمعوا يديه الى عنقه بالقيد (ثم الجحيم صلوه) . ألقوا به في نار جهنم (ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه) . والسبعون ذراعاً كناية عن هول السلسلة وعذابها الأليم ، وان وقعها على المجرم بقاس بأعماله وما ترك من سوء الآثار في المجتمع . ومن الطريف قول بعض المفسرين : « اختلفوا في هذا الذراع . فقيل : انه الذراع المعروف . وقيل : هو ذراع الملك - أي ملك العذاب - وقيل : كل ذراع سبعون باعاً ، وكل باع ما بين مكة والكوفة » . ولا أدري : هل كان هذا القاتل من مكة أم من الكوفة ؟.

(انه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين) . هذا بيان للسبب الموجب لعذابه الأليم ، وانه الكفر والطغيان وعدم الحث على البذل ، وفيه إيماء الى ان على الأغنياء أن يبذلوا ويحشوا على البذل (فليس له اليوم هاهنا حميم)

لا قريب ينفع ولا أحد يشفع (ولا طعام إلا من غسلين) . صديد يسيل من
أجسام أهل النار (لا يأكله إلا الخاطئون) الذين كانوا في الدنيا يأكلون أفوات
المنضعفين وأعمال الكادحين .

ما تبصرون وما لا تبصرون الآية ٣٨ - ٥٢ :

فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ *
وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا * مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بَقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا * مَا
تَذْكُرُونَ * أَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ
الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ
مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْعَالَمِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ
مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ *
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ *

اللفظة :

كاهن أي يتكهن ويتنبأ بالغيب كذباً وزوراً . والتقوّل الافتراء . والأقوايل
الأكاذيب . والوتين نياط القلب إذا قطع مات صاحبه . وحاجزين مانعين .

الإعراب :

فلا أقسم قال أكثر المفسرين ان ولا ، زائدة . وضمير انه يعود الى القرآن

المفهوم من سياق الكلام . وقليلًا ما تؤمنون قليلًا صفة لمفعول مطلق محذوف
و « ما » زائدة أي تؤمنون إيمانًا قليلًا ، ومثله قليلًا ما تذكرون . وتنزيل خبر
ليبتدأ محذوف أي هو تنزيل . فإنا منكم « ما » نافية تعمل عمل ليس ، وأحد اسمها
و « من » زائدة اعراباً ، وحاجزين خبرها على معنى أحد لأنه في معنى الجماعة ،
ومنكم متعلق بمحذوف حالاً من حاجزين ، ولو تأخر « منكم » لتعلق بصفة
لحاجزين .

المعنى :

(فلا أقسم) . اللام زائدة عند أكثر المفسرين ، وقيل : بل هي نافية للقسم
لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى إيمان ، وتقدم الكلام عن مثله عند تفسير
الآية ٧٦ من سورة الواقعة (بما تبصرون وما لا تبصرون) . هذا عام لعالم الغيب
والشهادة مما كان ويكون في الدنيا والآخرة ، وهو في واقعه قسم بعلم الله سبحانه
الذي أحاط بكل شيء ، ومن ذلك (انه - أي القرآن - لقول رسول كريم
وما هو بقول شاعر قليلًا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلًا ما تذكرون تنزيل
من رب العالمين) . لقد نطق محمد (ص) بالقرآن ما في ذلك ريب ، ولكن لم
ينطق به لأنه شاعر أو كاهن ، ولا بصفة من صفاته الشخصية ، وإنما جاء به
من حيث انه مبلغ عن الله ولسانه وبيانه . وتكلمنا مفصلاً عن الشعر والرسول
عند تفسير الآية ٢٢٤ من سورة الشعراء ج ٥ ص ٥٢٤ .

وقوله تعالى : « قليلًا ما يؤمنون ، قليلًا ما يتذكرون » معناه لا يؤمن ولا
يتذكر أحد منهم إلا القليل ، وقيل : بل المراد ما آمن ولا تذكر منهم قليل
ولا كثير جرياً على عادة العرب ، فإنهم يقولون : قلنا يفعل ، بمعنى لا يفعل
البتة ، والتفسير الأول أقرب إلى الواقع لأن المفروض أن بعض المشركين قد آمنوا
بالرسول (ص) قبل أن يهاجر من مكة إلى المدينة . وتقدم مثله في الآية ٨٨ من
سورة البقرة ج ١ ص ١٤٨ .

وتسأل : هل مجرد القسم يثبت الرسالة من الله لمحمد ، وينفي عنه الشعر والكهانة ؟.

الجواب : لقد جاء هذا القسم بعد أن تحدى سبحانه المكذبين في العديد من الآيات بأن يأتوا بمثل القرآن ، وبعد أن عجزوا ولزمتهم الحجة : فالمراد بالقسم هو تأكيد الحق الثابت بالدليل ، لا اثبات الحق بالقسم .. هذا ، الى ان للجدل مع الخصم أساليب شتى تتعدد وتختلف بحسب أفكساره وأوضاعه ، ومن تلك الأساليب الإدلاء بالحجة ، والقاء الأسئلة عليه بما يتناسب مع عقيدته ، وفصاحة الأسلوب وبلاغته ، ومنها أيضاً القسم فإنه يبعث في بعض القلوب احساساً غامضاً ومثيراً .

(ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) . تقول أي افترى وفيه ضمير مستتر يعود الى محمد (ص) ، والأقاويل جمع أقوال ، وغلب على الأقوال الكاذبة ، والمراد بالأخذ باليمين هنا التمكن والقدرة ، والوتين نياط القلب وحبل الوريد اذا قطع مات صاحبه ، وحاجزين أي مانعين وحائلين ، والمعنى ان محمداً متره عما ينسبه اليه المشركون من الافتراء على الله ، ولو تعد ذلك لانتقم الله منه ، ونكل به أقطع تنكيل ، ولا أحد من المشركين ولا غيرهم ينجيه من هذا العذاب والتنكيل ، وبما ان الله لم يفعل ذلك بمحمد فهو - اذن - الصادق الأمين ، والمفترون هم الذين نسبوا محمداً الى الافتراء .

وتسأل : لماذا لم يجعل سبحانه العقوبة لمن كذب محمداً كما يجعلها لمحمد لو كان كاذباً ؟

الجواب : ان هذا التهديد منه تعالى انما هو لمن يدعي النبوة كذباً وزوراً ، لا لمن كذب بنبوة الأنبياء ، والفرق بعيد وظاهر بين الاثنين .. هذا ، الى ان الغرض من تهديده سبحانه هو تنزيه الرسول الأعظم عما نسب اليه من الافتراء على الله كما أشرنا .

(وانه لتذكرة للمتقين) . ضمير انه يعود الى القرآن ، وهو هدى لمن طلب الهداية ، وأراد بصدق وإخلاص ان يتقي غضب الله وعذابه (وانا لنعلم ان منكم

الجزء التاسع والعشرون

مكذبين) . هذا تهديد ووعيد لمن كذب بالرسول والقرآن (وانه - أي القرآن -
لحسرة على الكافرين) . لأنه يلعنهم ويفضحهم ، ولأن كلمته هي العليا ، وكلمة
الكافرين به هي السفلى ، ولأنه حجة الله عليهم في يوم الحساب والجزاء . (وانه
لحق اليقين) الذي لا ريب فيه ، وتقدم مثله في الآية ٩٥ من سورة الراتحة
(فسيح باسم ربك العظيم) . الخطاب لرسول الله (ص) والمقصود العموم ،
والمعنى نزلها الله عما لا يليق به . وتقدم في الآية ٧٥ من سورة الواقعة .

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

٤٤ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقداره ٥٠ الف ستة الآية ١ - ١٨ :

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنْ اللَّهِ
ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ
خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَأَصْبَحَ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ
قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا
يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبْصَرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُبْجَرَمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ
يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا * ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ
وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى *

اللغة :

يأتي فعل « سأل » بمعنى طلب واستدعى ، ويتعدى الى مفعولين نحو سألت

فلاناً درهماً ، وإذا دخلت الباء على المفعول الثاني فهي زائدة مثلها في هزئي اليك
بجذع النخلة ، ويأتي فعل سأل أيضاً بمعنى استخبر ، ويتعدى الى مفعول أول
بنفسه والى الثاني بمن نحو سألت عن كذا أو بالياء متضمنة معنى عن مثل سل
به خبراً ، أي عنه . ومعارج جمع معرج وهو الدرج ، وقيل : السموات .
والمهل تحشارة الزيت . والمهن الصوف المنفوش أو المصبوغ . وحيم قريب .
والقصيلة العشيرة . ولظى من أسماء جهنم . ونزاعة من نزع الشيء إذا اقتلعه من
مكانه . وقال صاحب مجمع البيان : الشوى جمع شواة وهي جلدة الرأس .
وجمع فأوعى أي جمع المال وأمسكه في وعاء .

الإعراب :

للكافرين متعلق بمحذوف خبراً مبتدأ محذوف أي هو مهياً للكافرين ، وجملة
ليس له دافع خبر بعد خبر . وذو المعارج صفة لله . ويوم تكون السماء «يوم»
منصوب بيصرونهم عند صاحب مجمع البيان . لو يفتدى «لو» للتمني . وجميعاً
حال . وكلا حرف ردع وزجر .

المعنى

(سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع) . قلنا فيما سبق : ان
المشركين أعرضوا عن دعوة الرسول (ص) لأسباب أولاً : أنها حرب على مكاسبهم
وأرباحهم . ثانياً : ان الله لا يبعث بزعمهم بشراً رسولاً ، وان كان ولا بد
فيختاره من الاغنياء لا من الفقراء أمثال محمد بن عبدالله . ثالثاً : ان محمداً (ص)
يدعو الى التوحيد ، وهم يؤمنون بتعدد الآلهة . رابعاً : انه يخوفهم من البعث
والعذاب بعد الموت ، وهذا ما ينكرونه أشد الانكار : « أئذا متنا وكنا تراباً
وعظاماً أئنا لمبعوثون » . واذا أكد النبي (ص) ذلك وأصر عليه قالوا : متى
هذا الوعد ؟ وفي بعض الأحيان يستعجلون العذاب ساخرين « واذا قالوا اللهم ان
كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم
- ٣٢ الأنفال » .

سورة المعارج

ومن أجل هذا قال كثير من المفسرين : ان قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » . هو اشارة الى ما طلبوا من تعجيل العذاب ، وان الله سبحانه قد أجابهم عن هذا الطلب بقوله : « للكافرين ليس له دافع » أي ان العذاب نازل بالجاهدين لا محالة سواء أطلبوا التعجيل أم التأجيل .

الشیطان والبحث عن الغیب :

(من الله ذي المعارج) صفة لله تعالى ، والمراد به الرفعة والعلو ، ومثله الآية ١٥ من سورة غافر : « رفیع الدرجات ذو العرش » . (تخرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) . المراد بالروح جبريل ، وخصه سبحانه بالذكر مع انه من جملة الملائكة لعلو شأنه ، وضمير اليه يعود الى ما هو معلوم عند الله والملائكة ، والخمسون ألف سنة كناية عن طول المدة . وذكر الاستاذ أحد أمين العراق هذه الآية في كتابه « التكامل في الاسلام » واستخرج منها ان الملائكة يسرون بسرعة تفوق سرعة الصوت ، ذلك بأن سعة الكون لا حد لها ولا نهاية ، ويكفي دليلاً على هذه الحقيقة ان بعض النجوم قد أرسلت ضوءها الى الأرض منذ ملايين السنين ، ولم يصل بعدد إليها مع العلم بأن الضوء يقطع ٣٠٠٠٠٠ كم في الثانية . وعليه يستحيل ان يقطع الملائكة المسافات الشاسعة الواسعة إلا إذا كان سيرهم أسرع من سير الضوء أضعافاً مضاعفة .

وقلنا عند تفسير قوله تعالى : « ويجعل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية - ١٧ الحاقة » : ان هذا الموضوع وما اليه لا يثبت إلا بالنص الصريح الذي يفيد القطع والجزم ، ولا يقبل التأويل بحال ، وانه لو كان من باب الحلال والحرام لكان لظن الفقيه وجه إذا استند الى ظاهر الكتاب أو السنة . وقال بعض الصوفية : ليس المراد بخمسين ألف سنة السنوات التي نعرفها ، بل المراد الأطوار والأدوار . وقال صوفي آخر : ان ابام الله هي كما يشاء ، فإن شاء جعلها ألفاً ، وان شاء جعلها آلافاً وملايين .

وهذا غيب في غيب ، ونحن غير مسؤولين عن علمه أمام الله ، وما كلفنا بالبحث عن كنهه إلا الشيطان .. قال الإمام علي (ع) : « وما كلفك الشيطان

علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه ولا في سنة النبي (ص) والأئمة أثره فكيف علمه الى الله سبحانه ، فإن ذلك منتهى حق الله عليك ، واعلم ان الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السُّدود المضروبة دون الغيوب - الاقرارُ بِجَمَلَةِ ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفوا البحث عن كنهه رسوخاً ، فاقصر على ذلك ، ولا تقدّر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين .

(فاصبر صبراً جميلاً انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) . حذر النبي (ص) المشركين من يوم العذاب ، فتمعّلوه ساخرين .. فقال سبحانه لنبيه الكريم : اذا استخفوا بيوم العذاب وسخروا منه فاصبر أنت يا محمد على هزئهم واستخفافهم صبراً لا جزع فيه ولا شكوى ، ولا تستبطيء النصر عليهم ، واذا تحيلوا يوم العذاب اباطيل واساطير فهو عند الله آت لا ريب فيه ، وكل آت قريب .. ثم وصف سبحانه اليوم الذي به يوعدون ومنه يسخرون ، وصفه بقوله : (يوم تكون السماء كالمهل) . تذوب الأجرام السماوية ، وتصبح تماماً كالزيت العكر ، ومثله قوله تعالى : « واذا النجوم انكدرت - ٢ التكوير » . (وتكون الجبال كالعهن) يخالها الرائي صَوْفاً قد فُرّق ونُقش ، ومثله : « وبست الجبال بساً - الواقعة » أي فُتّت .

(ولا يسأل حميم حميماً) لأن كل انسان في شغل شاغل بنفسه عن غيره ، والسعيد في ذلك اليوم من ادّخر له الصالحات (يَصْصِرُونَهُمْ) بتشديد الصاد وفتحها من بصرته الشيء اذا أوضحت له ، وواو الجماعة تعود الى «حميم» المرفوع بالنظر الى معناه وان كان اللفظ مفرداً ، و «هم» تعود الى «حميماً» المنصوب باعتبار ارادة الجمع منه أيضاً ، والمعنى لا أحد يسأل أحداً يوم القيامة حتى ولو كان من الأصدقاء والأقارب مع ان بعضهم يعرف بعضاً في ذلك ، ولكنه يفر منه لما به من الكرب والبلاء .

(يودّ المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بئنه وصاحبه وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه) . وتومىء «ثم» الى البعد أي هيهات

سورة الماعراج

هيئات أن ينجي ذلك ، والمراد بالصاحبة الزوجة ، وبالفصيصة العشرة ، والمعنى واضح ويتلخص بأن أسير جهنم يود لو يُفادى من الهول بجميع أهل الأرض حتى الزوجة والأبناء الذين كان بالأسر يفتديهم بنفسه ، ويرتكب من أجلهم المخاطر والأهوال .. وهذا أبلغ تصوير لأسف المجرم على ما فات ، ولطفته على الخلاص والنجاة .

(كلا) أيها المجرمون .. لا تمنيات في هذا اليوم ، ولا شيء لكم فيه إلا جهنم أنتم لها واردون (أنها لظي) وما أدراك ما لظي ؟ (نزاعة للشوى) . تنتزع الأعضاء من أماكنها وتنشويها ، ثم تُعاد كما كانت ، وتنتزع مرة أخرى وتعاد. وهكذا إلى ما لا نهاية : لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور - ٣٦ فاطر ه (تدعو من أدبر وتولى) في الدنيا عن دعوة الهدى والحق ، والمراد بدعوة النار له أن هاربها لا مقر له منها ولا ملجأ (وجمع فأوعى) من الوعاء لا من الوعي أي كثر المال في وعاء ونحوه ، والآية تهديد ووعد لمن جمع المال وحرص عليه ، ولم ينفقه في طاعة الله ، والجمع بين كائن المال ومن كذّب دعوة الحق يُشعر بأنها سواء عند الله في يوم الحساب والجزاء .

من هم المصلون الآية ١٩ - ٣٥ :

إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ
مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي
أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمِ
الَّذِينَ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ
مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا

مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ
هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ
قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ
مُكْرَمُونَ *

اللفظة :

الملوع في اللفظة الضجور الذي لا صبر له ، والمراد به هنا من فسر سبحانه
بقوله: « إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً » . والمراد بالشر كل مكروه
وبالخير كل محبوب . والسائل من يسأل الناس، والمحروم من يستنكف عن السؤال
على حاجته وحرمانه . ومشفقون خائفون .

الإعراب :

هلوعاً حال من الانسان . وجزوعاً خبر كان المحذوفة هي واسمها المستر أي
كان جزوعاً ، ومثله « منوعاً » وإذا الاولى متعلقة بجزوع والثانية بمنوع ، ويجوز
أن يكون كل من جزوع ومنوع حالاً ، وعليه يكون في الكلام تقديم وتأخير
أي: خلق الانسان هلوعاً جزوعاً حين يمس الشر منوعاً حين يمس الخير . الا المصلين
استثناء من الانسان باعتباره اسم جنس . والذين هم على صلاتهم صفة للمصلين .

المعنى :

(ان الانسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) .
يشير سبحانه بهذا الى ان الانسان ضعيف بطبعه كما قال في الآية ٢٨ من سورة
النساء : « وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا » والآية ٥٤ من سورة الروم : « اللَّهُ الَّذِي

سورة الماعراج

خلقكم من ضعف . ويظهر هذا الضعف عند وجود أسبابه كالغنى والفقر ، فان استغنى عن خوفه من الفقر ، وان افقر استولى عليه اليأس والقنوط .. ولكن من آمن بالله حقاً ، ووثق به وبرحمته يتغلب على هذا الضعف ، ويصبر عند الشدائد صبر الأحرار متطوعاً الى اليسر والفرج ، ويجود بالعطية مؤمناً بأن ما عند الله خير وأبقى . وفيما يلي ذكر سبحانه طرفاً من أوصاف المؤمنين .

١ - (الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) . ويدل هذا الاستثناء من الانسان الجزوع المملوع ، يدل دلالة واضحة وقاطعة على ان المصلين لله حقاً هم الذين يثقون به وحده ، ولا يخضعون لأحد سواه « إياك نعبد وإياك نستعين » أما الذين يكبرون ويهللون ثم يركعون ويسجدون لأهل الجاه والمال طمعاً بما في أيديهم ، أما هؤلاء فلبسوا من المصلين في شيء حتى ولو داوموا على الفرائض والنوافل ، ولم يشغلهم عنها أي شاغل .

٢ - (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . يبذلون في سبيل الطاعات والخيرات لوجه الله تعالى لا يتبعون جزاء ولا شكوراً . وتقدم مثله في الآية ١٩ من سورة الذاريات .

٣ - (والذين يصدقون بيوم الدين) . يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويعملون بموجب هذا الايمان ، وإلا فإن الايمان النظري لا يجدي شيئاً .

٤ - (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ان عذاب ربهم غير مأمون) . المؤمن يرجو ويخاف . ينظر الى الجنة بعين ، والى النار بعين ، يخاف من هذه ، ولا ييأس من تلك . قال سبحانه : « فلا يأس من مكر الله إلا القوم الخاسرون - ٩٩ الأعراف » . وقال : « انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون - ٨٧ يوسف » . وأحسن الناس ظناً بالله أشدهم خوفاً منه كما قال الإمام علي(ع) أي ان الخوف منه تعالى يأتي على قدر العلم بعظمته .

٥ - (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) . على المؤمن ان يصبر ويرضى بما قسم الله له من بنات حواء ، وعلى المؤمنة أن ترضى وتصبر على ما آتاها الله من أبناء آدم ، ومن صبر وشكر فأجره على الله ، وإلا فعقابه

الحرمان من الحور والجنان . وتقدم بالحرف الواحد في الآية ٨ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٥٨ .

٦ - (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) . المؤمن إذا عاهد وفى ، وإذا أوتى من لم يخن ، ومن لا وفاء له لا دين له ولا ضمير . وأيضاً تقدم بالحرف في الآية ٨ من سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٥٩ .

٧ - (والذين هم بشهادتهم قائمون) . الشهادة أمانة الله عند الشاهد ، فمن كتمها أو حرفها فقد خان الله : « ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون - ١٤٠ البقرة » .

٨ - (والذين هم على صلاتهم يحافظون) . وتسال : أليست هذه الآية تكراراً للآية السابقة ، وهي قوله تعالى : « الذين هم على صلاتهم دائمون » ؟ وأجاب بعض المفسرين بأن الدوام غير المحافظة ، فعنى دوام الصلاة تكرارها في أوقاتها ومعنى المحافظة عليها الاتيان بها بشرطها وشروطها ! اما نحن فلا نرى أي فرق بين الدوام والمحافظة لأن الصلاة لا تكون صلاة إلا مع المحافظة على جميع الأجزاء والشرائط ، فإذا فقدت واحداً منها بطلت ، ولا يكون تكرارها تكراراً للصلاة .. والأقرب الى الصواب ان الله سبحانه أعاد الآية لمجرد الاهتمام بالصلاة والتنبيه الى أنها عمود الاسلام .

(أولئك في جنات مكرمون) . أولئك اشارة الى من اجتمعت فيهم الصفات المذكورة ، وأنهم عند الله سبحانه في منازل العز والكرامة .

فذرهم يخوضوا ويلعبوا الآية ٣٦ - ٤٤ :

قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهُطِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ *
أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا
يَعْلَمُونَ * فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ
نُبَدِّلَ خَيْرَ مَنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرْنُهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى

يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً
كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصْبِ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ
الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ *

اللغة :

قَبْلَكَ بكسر القاف جهنك ونحوك وعندك وحولك . ومهطعين مسرعين . وعزین
جمع عزة بكسر العين كعدة ، وهي العصبة والجماعة ، وأعریت بالياء والنون
إلحاقاً بجمع السلامة مثل سنين . والنُصْبُ كل ما نصب للعبادة من دون الله .
ويوفضون يسرعون ويستبقون . والخشوع في البصر الغض ويكنى به عن الذل
والهوان ، وفي الصوت الإخفات ، وفي القلب الخشية والتواضع . وترهقهم تلحقهم
ونسولي عليهم .

الإعراب :

فما للاستفهام الإنكاري مبتدأ ، وللذين كفروا خبر . وقَبْلَكَ ظرف متعلق
بمحذوف حال من الذين كفروا أي ثابتين حولك . ومهطعين حال . وعن اليمين
وعن الشمال متعلق بعزین لأنه بمعنى متفرقين . وعزین حال أيضاً . ان يدخل جنة
أي في أن يدخل . وكلاً حرف ردع وزجر . فلا أقسم مثل فلا أقسم ٧٥ الواقعة
و ٣٨ الحاقة . وبمسبوقين الباء زائدة لإعراباً ومسبوكون خبر نحن . ويخوضوا مجزوم
بجواب الأمر . ويوم يخرجون بدل من يومهم . وسراعاً حال . وخاشعة أيضاً حال .

المعنى :

(فاما للذين كفروا قَبْلَكَ مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزین) ؟ ما شأن
هؤلاء الذين كذبوا برسالتك يا محمد ، وكفروا بالبعث ، ما شأنهم ؟ يسرعون

الجزء التاسع والعشرون

الى مجلسك جماعات جماعات ، ويأخذون عندك أماكنهم يمينا وشمالا ، يسمعون ما تلوهم من آيات الله ، ثم يرددونه فيما بينهم ساخرين من البعث والحساب ، ويقول بعضهم لبعض : ان صح هذا فنحن أولى الناس بالله وجنته ، لأننا أكثر أموالا وأحرز نفرا من محمد وصحابته .. فأجابهم سبحانه بقوله عز من قائل : (أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم) ؟. لا نصيب لكم ايها المكذبون من جنة الله وثوابه ، ولا شيء لكم عنده إلا سوء المصير .. وكيف تطمعون في الجنة وأنتم تكفرون بها ، وتسخرون من الرسول الذي دعاكم الى العمل لها ؟. أنحبون ان الأموال والأوثان تفربكم من الله زلفى ؟.

(كلا إنا خلقناهم مما يعلمون) . وهم يعلمون علم اليقين ان الله خلقهم من ماء مهين : « فلينظر الانسان مما خلق » خلق من ماء دافق - ٦ الطارق « وإذا كان أصل الانسان ، كن انسان ، واحدا فكيف يكون بعضهم أعظم من بعض عند الله ، وأولى به من غيره ؟. كلا ، لا فضل لأبيض على اسود ، ولا لغني على فقير إلا بالتقوى والعمل الصالح .. وقوله تعالى : « مما تعلمون » يتضمن التعريض بالمكذبين بالبعث والرد على قولهم بأن من يصير عظاما وترابا لا تعبده أبة قوة اى الحياة ، ووجه الرد ان الذي خلق الانسان من ماء مهين قادر على ان يحيي العظام وهي رميم .

(فلا أقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون على ان نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين) . المراد بالمشارق والمغارب مشارق الكواكب ومغاربها . أو مشارق الشمس ومغاربها ، وهي تظهر للأعين وتختفي عنها بسبب دوران الأرض أمامها ، وضمير منهم يعود الى الذين كفروا ، والمعنى ان الله سبحانه يقسم - على القول ان « لا » زائدة - يقسم ، جلّت عظمته ، انه قادر على ان يهلك المكذبين ، ويستخلف مكانهم قوما آخرين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، واذا أراد ذلك فلا راد لمشيئته . وتقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة محمد .

(فلنرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) . هذا تهديد ووعيد ، ومعناه دعهم يا محمد وشأنهم .. فليسخروا وهزأوا ما شاء لهم البعث والباطل فإن نهايتهم الى النار وبش القرار . وتقدم مثله بالحرف في الآية ٨٣

سورة المعارج

من سورة الزخرف ج ٥ ص ٥٦٢ د يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون) . يسرعون من قبورهم الى نقاش الحساب كما كانوا يسرعون بالأمس من بيوتهم الى الأصنام والأوثان ، ولكن شتان ما بين اليومين ، فقد كانوا في يوم الدنيا يسرعون الى آلهتهم مطمئنين ، أما في يوم القيامة فيسرعون الى الله ، والأرض تهتز تحت أقدامهم من هول المطلق (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) قد استولى عليهم الذل والهوان : « كأنما اغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً - ٢٧ يونس ، ج ٤ ص ١٥٢ (ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) ومنه يسخرون وبه يستعجلون .

سُورَةُ نُوحٍ

٢٨ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دعوت قومي ليلاً ونهاراً الآية ١ - ١٢ :

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى * إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَانْتَكَبُوا * سَتَكْبَارُوا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا *

اللغة :

استغشوا ثيابهم يقال : استغشى الثوب اذا تغطى به ، ويُجعل كناية عن أخفى الحالات . والمراد بالسما هنا المطر . والمدرار الغزير .

الإعراب :

ان انذر ، وان اعبدوا يجوز أن تكون « ان » مفسرة بمعنى أي ويجوز ان تكون مصدرية على تقدير الباء أي بأن انذر وبأن اعبدوا . لئلاً ونهاراً ظرفان لدعوت . وفراراً تمييز محول عن فاعل لأن معناه زاد نفورهم مثل طاب محمد نفساً أي طابت نفس محمد ، وقيل : مفعول ثانٍ ليزدهم . وجهاً مفعول مطلق لدعوتهم لأن الدعوة كانت بالقول ، والجهر من صفاته ، فيكون مثل قعدت القرفصاء ، وقيل : هو مصدر في موضع الحال أي مجاهراً . ومدراً حال وصاحبه السماء .

المعنى :

(إنا أرسلنا نوحاً الى قومه أن انذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم) . فسر الشيخ عبد القادر المغربي جزء تبارك ، ونقل فيه عن كتب الأوائل ، وهو يفسر هذه الآيات : ان تاريخ عبادة الأوثان يتبدى بزمان « انوش بن شيث بن آدم » وان الشرك في زمن نوح قد بلغ الغاية ، فاختره الله سبحانه لنصال هذا الشرك ، وانذار المشركين بالهلاك إن أصروا على الضلال .. واسم نوح الراحة ، وبينه وبين آدم جده الأكبر ١٠٥٦ سنة، ولما حدث الطوفان كان عمره ٦٠٠ سنة ، وعاش بعده ٣٥٠ عاماً، وأدركه حفيده ابراهيم الخليل، وعاش معه أكثر من نصف قرن ، وبعد أن نجا نوح من الطوفان انصرف الى الأرض يحرثها ويغرسها . هذا ملخص ما نقله المغربي عن كتب الأوائل ، والله أعلم بخلقهم من أنفسهم .

(قال يا قوم اني لكم نذير مبين ان اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) . أرسل

سبحانه نوحاً الى قومه بأمر ثلاثة : الأول أن يتركوا عبادة الأصنام ويعبدوا إلهاً واحداً . الثاني أن يفعلوا الخير ويتقوا الشر . الثالث أن يطيعوه فيما يأمر وينهى ، وضمن لهم - إن استجابوا - أمرين : الأول (يغفر لكم من ذنوبكم) التي اقترفتموها قبل الايمان لأن الايمان "يَجِبُ" ما قبله . أما الذنوب التي ارتكبوها بعد الايمان فلنهم مسؤولون عنها ، وهذا ما تومىء اليه كلمة « من ذنوبكم » .

الأمر الثاني (ويؤخركم الى أجل مسمى ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) . اذا آمنتم بالله وحده يدرك عنكم عذاب الاستئصال بالطوفان ونحوه ، ويمهلكم حتى تستوفوا العمر الطبيعي ، ويؤجل حساب من يذنب منكم الى يوم القيامة ، وإلا عجل لكم عذاب الاستئصال في الدنيا (لو كنتم تعلمون) ان الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون .

(قال رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً) . ليلاً ونهاراً أي دائماً . دعاهم نوح دعوة الحق ، وألح عليهم حتى (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا - ٣٢ هود) ولكنه مضى في دعوته ، ومضوا بدورهم في العناد والنفور (واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً) جعلوا أصابعهم في آذانهم أي سدوا سامعهم عن دعوة الحق ، واستغشوا ثيابهم تغطوا بها كيلا يروا وجه الداعي ، وقد يكون هذا حقيقة ، ويجوز أن يكون تعبيراً مجازياً عن عنادهم وإصرارهم على الضلال ، وأياً كان فإن المعنى واحد ، وهو النفور من دعوة الحق تعاضماً على نوح الذي يروونه دونهم منزلة ومقاماً فكيف يكونون في عداد أتباعه ، كما جاء في الآية ٢٧ من سورة هود : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل » .

(ثم اني دعوتهم جهاراً ثم اني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً) . قال جماعة من المفسرين : ان قول نوح أولاً : دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، وقوله ثانياً : دعوتهم جهاراً ، وقوله ثالثاً : أعلنت وأسررت - يدل على ان دعوته كانت على ثلاث مراتب : ابتدأها في السر ، ثم نثى بالجهر ، ثم ثلث بالاعلان والسر معاً . وليس هذا بعيداً عن ظاهر الآيات ، ولكن يجوز أن يكون مراد

سورة نوح

نوح من هذا العطف والتكرار انه دعاهم بكل اسلوب واستمر على ذلك بلا ملل وفتر ، ولكن على غير جدوى .

(فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) . اذا آمنوا بالله وحده وأخلصوا له بالقول والفعل فإن نوحاً يضمن لهم على الله سبحانه ان يكفر عنهم ما سلف من سيئاتهم ، وان يغنيهم من فضله بالأموال والأولاد ، فتفيض السماء عليهم بخيراتهم ، والأرض بشراتها ، ويجمع لهم بين الصحة والأمان والرخاء والهناء مع تكثير النسل .

الايمان والرخاء :

وتسأل : ان هذه الآيات ربطت بين الايمان والتقوى من جهة ، وبين الرخاء والهناء من جهة مع ان العيان يثبت العكس .. وأوضح مثال على ذلك الولايات المتحدة الامريكية، فإنها أطفى دولة في الكرة الأرضية، وأكثرها فساداً واعتداءً حتى اتخذت لنفسها مبدأ لا تحيد عنه ، وهو من لم يكن معها - أي عبداً لها - فهو عدوها الللود .. وكلنا يعلم ما كان لهذه السياسة من ويلات ، فما من دم بسفك أو فساد يظهر في شرق الأرض وغربها إلا وللولايات المتحدة يد فيه بشكل أو بآخر .. وما من خائن لأتمته ووطنه إلا ويجد في أحضانها مقاماً كريماً ، وعربناً أميناً .. ومع هذا فهي أقوى وأغنى دول العالم على الاطلاق ، وكفى شاهداً على ذلك ان دخلها يبلغ ٤٣٪ من مجموع الانتاج العالمي مع العلم بأن نسبة سكانها عدداً الى نسبة سكان العالم هي ٦٪ فما هو وجه الجمع بين هذا وبين ظاهر الآيات التي ربطت الرخاء بالايمان ؟

الجواب أولاً : ان هذه الآيات نزلت في قوم نوح خاصة ، ولا دلالة لها على العموم والشمول كي يتعدى بها الى غيرهم .. هذا ، الى ان لله شأناً خاصاً في معاملة الأمم التي ينذر بها بلسان أنبيائه مباشرة .

ثانياً : ان ثراء الولايات المتحدة من الشيطان لا من الرحمن لأن معظمه من السلب والنهب .

ثالثاً : ان هذه الآيات ربطت بين سعادة الدنيا والآخرة معاً وبين الايمان لا بينه وبين سعادة الدنيا وحدها : « ولا يحسن الذين كفروا انما نخلي لهم خبر لأنفسهم انما نخلي لهم ليزدادوا انماً ولهم عذاب مهين - ١٧٨ آل عمران » .

رابعاً : وما يدريك ان الولايات المتحدة وغيرها من الدول الباغية هي في أمن وأمان ؟ وأي عاقل يأمن القوائل ؟. وهل دامت الامبراطورية الرومانية بل والبريطانية وغيرها وغيرها حتى تدوم غطرسة الولايات المتحدة ومفاسدها ؟ وهذه بشائر الانهيار يتبع بعضها بعضاً ، فمن موجات التحرر في العالم كله الى ثورة الثلاثين مليون زنجي في قلب الولايات المتحدة ، الى التضخم المسالي الذي تداويه بالحروب المحدودة ، ومن سيطرة الصناعة العسكرية الى تلاعب الصهاينة بالحكام والشيوخ والنواب ، ومن امبراطورية المخابرات الى القتل والختطف واشعال الحريق الى الحشيش والمخدرات ، ومن الصراع والعداء مع أكثر أهل القسارات الخمس الى رئيس يحمي ويحامي عن اللصوص وسفاكي الدماء .. الى ما لا نهاية .. ومستحيل أن يدوم أمن ورخاء لهذا النسيج الغريب العجيب سواء أكان من صنع الولايات المتحدة أم صنع غيرها .

ومن غريب الصدف اني في اليوم الذي كنت أكتب فيه هذه الكلمات قرأت في جريدة الجمهورية المصرية تاريخ ١٠ - ٧ - ١٩٧٠ نقلاً عن صحف نيويورك: ان خمسة آلاف من الرجال والشبان المصابين بداء الأبتة قد تظاهروا عبر شوارع نيويورك يحملون اللافتات مطالبين الحكومة بإصدار قانون يبيح لهم ممارسة الشذوذ الجنسي أسوة بما يباح للنساء من الزواج وبيع أجسامهن بالسوق العمومية .. وفي مجلة النيوزويك تاريخ ١٢ - ١٠ - ١٩٧٠ ان القس «توري باري» الشهير بالواط يدعو الى انتشار اللواط والمساخنة لأنها لون من الحب الإلهي ، وقد انتشرت دعوته هذه ، وأصبح لها اتباع كثيرون في أنحاء الولايات المتحدة . وليس من شك ان هؤلاء المأبوين سيخرج منهم شواذ يتولون القيادة وسياسة السلم والحرب ، وأمور العلم والعمل في المجتمع الأمريكي .. وعندئذ يصبح كيان الولايات المتحدة أوهى من بيت العنكبوت .

خلقكم أطواراً الآية ١٣ - ٢٠:

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ
خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً * وَجَعَلَ الشَّمْسَ
سِرَاجاً * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
إِخْرَاجاً * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطاً * لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا
فِجَاجاً *

الله :

يستعمل الرجاء في الأمل وفي الخوف، وهذا المعنى هو المراد من « لا ترجون ». والوقار في الإنسان الرزاق، وفي جانب الله العظمة . وأطوار جمع طور، ومن معانيه الحال والصنف . وطباقاً أي يشبه بعضها بعضاً في الاتقان . وفجاج جمع فج وهو الانفراج والسعة .

الإعراب :

ما لكم مبتدأ وخبر . ووقاراً مفعول لا ترجون أي لا تخافون عظمة الله . وأطواراً مفعول خلقكم . وطباقاً صفة لسماوات أي مطابقة . ونباتاً مفعول مطلق بمعنى إنباتاً . وسبلاً مفعول تسلكوا ، وفجاجاً صفة .

المعنى :

(ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً) . يستنكر نوح على قومه ويعجب كيف لا يهابون الله وعظمته ، وهم يعلمون انه خلقهم من تراب ثم من

نطفة ثم من علقه .. وهكذا ينتقل بهم من حال الى حال حتى الهرم والشيخوخة ،
وأيضاً وجه أنظارهم الى قدرة الله في خلق السموات والكواكب السيارة ، وقال
لهم : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً) ؟ . تأملوا وتدبروا خلق
السموات واتقانها ونظامها الذي يدل على وجود الصانع الحكيم . وتقدم مثله في
الآية ٣ من سورة الملك ، أما السموات السبع فقد تكلمنا عنها بضرب من التوسع
عند تفسير الآية ١٢ من سورة الطلاق ، فقرة « سبع سموات ومن الأرض مثلهن » .
وتجدر الإشارة الى ان قول نوح لقومه : « سبع سموات » يدل على ان قومه
كانوا يؤمنون بذلك ، وان الاعتقاد بالسموات السبع كان في الزمن القديم .

(وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً) . فيهن أي في مجموعهن ..
وصف سبحانه الشمس بالسراج والقمر بالنور لأن السراج مصدر النور، والشمس
أيضاً مصدر لنور القمر ، وأيضاً نورها أعم وأنفع من نوره . وتقدم مثله في
الآية ٥ من سورة يونس ج ٤ ص ١٣٥ (والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم
يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً) . هذا هو ابن آدم من الأرض خلق ، وعليها يحيا
واليها يعود . وتقدم مثله في الآية ٥٥ من سورة طه ج ٥ ص ٢٢٣ (والله جعل
لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً) . جعل سبحانه في الأرض طرقاً
واسعة ليلسلكها الناس الى مقاصدهم . وتقدم مثله في الآية ٣٢ من سورة الأنبياء
ج ٥ ص ٢٧٤ .

ولا تذرن وداً ولا سواعاً الآية ٢١ - ٢٨ :

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا
خَسَاراً * وَمَكْرُوهًا مَكْرَأً كِبَارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ
وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا
تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * يٰمُؤْمِنُونَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا خَلَقْتُمْ فِيهَا قُلُوبُكُمْ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْهَرَبِ

يَعْبُدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ
مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا
فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْصِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا *

اللغة :

الكبار بضم الكاف وتشديد الباء أي الكبير جداً . وود وسواع ويغوث ويعوق
ونسر أسماء أصنام . والديار نازل الدار ، والمراد به هنا أحد أي لا تبقي أحداً
منهم . وتباراً هلاكاً .

الإعراب :

كثيراً أي خلقاً كثيراً . ومما خطيئاتهم « ما » زائدة أي من خطيئاتهم . ومؤمناً
حال من فاعل دخل .

المعنى :

(قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً) .
هذا تقرير من نوح أو شكوى يرفعها الى سيده ، ويقول فيها : إلهي وسيدني
أرسلني لهداية عبادك المشركين ، وقد أدبت الرسالة على وجهها ، ولكنهم أعرضوا
عني وعنهما ، واستجابوا للرؤساء الذين أطعاهم ما هم فيه من الأموال والأولاد ،
وكلما ازدادوا مالاً وأولاداً ازدادوا كفرًا وعناداً ونشطوا في محاربة الحق وأهله
حرصاً على جاههم ومكاسبهم (ومكروا مكراً كُبَّاراً) . واو الجماعة في مكروا
يعود الى « من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً » لأن معنى « مَنْ » الجماعة وهم

الرؤساء الطغاة ، والمراد بمكرهم الأساليب التي كانوا يتبعونها لصعد المستضعفين عن الإيمان ، ومنها قول أولئك الطغاة للناس : (لا تذرنا ألهتكم) لا تتركوا عبادة الأوثان الى عبادة إله واحد ، وكان لهم أصنام كثيرة ، وأهمها مكانة وشأناً خمسة ، ولذا خصوها بالذكر ، وقالوا : (ولا تذرنا ودأ ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) . وكان نوح يشدد النكير على عبادة هذه الخمسة لأنها أكبر الآلهة .

وقال جماعة من المفسرين : ان هذه الخمسة ظلت تُعبد في الجاهلية الى عهد الرسول الأعظم (ص) ، وان ودأ كان لقبيلة كلب ، وسواعاً لهذيل ، ويغوث لغطفيل ، ويعوق لهمدان ، ونسراً لحمير .. وهناك أصنام أخرى لأقسام آخرين كالللات والعزى وهبل ومناة (وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً) . واو الجماعة في ضلوا يعود الى القادة الطغاة ، والمراد بـ « ضلالاً » الهلاك مثل قوله تعالى : « ان المجرمين في ضلال وسعر » ٤٧ القمر . أما زيادة الهلاك فالمراد به القسوة والشدة ، والمعنى أنزل اللهم عذابك الأليم الشديد بقيادة الفساد لأنهم ضلوا وأضلوا الكثير من عبادك .

(مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) . هذه الآية معترضة في كلام نوح ودعائه ، ولكنها تمت اليه بسبب ، ومعناها ان قوم نوح أصروا على الكفر والضلal فأخذهم سبحانه بالطوفان ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، ولا ينجيهم منه أحد (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) . أي لا تبق منهم أحداً ، وما دعا نوح عليهم بالاستئصال إلا بعد ان نزلت عليه هذه الآية : « وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » ٣٦ هود . ونقل الرازي عن المبرد : ان دياراً لا تستعمل إلا في النفي ، يقال : ما في الدار ديار ، ولا يقال: فيها ديار .

(انك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) . يدل هذا على ان الكفر والفجور قد طغى على مجتمع قوم نوح بحيث لا ينشأ فيه إلا الكافر الفاجر .. ومعلوم ان نفس الطفل كالمرأة ينعكس عليها كل ما يحيط بها .. حتى الكبير يختلف سلوكه بين مجتمع وبين آخر فكيف الصغار ! * وروي ان الرجل من قوم نوح كان ينطلق بابنه اليه ، ويقول له : احذر هذا - مشيراً الى نوح -

سورة نوح

فإنه كذاب ، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير ، وينشأ على ذلك الصغير .

(رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيّتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات) . بعد ان دعا على الكافرين سأل الله المغفرة له ولوالديه ، ولمن آمن أهله وأولاده، وهم الذين عناهم بقوله : « من دخل بيّتي مؤمناً » . وأيضاً دعا لكل مؤمن ومؤمنة من لدن آدم الى يوم يبعثون (ولا تزد الظالمين إلا تباراً) . لمن آمن الرحمة والغفران ، ولمن كفر الهلاك والذبران .

وجاء في قاموس الكتاب المقدس : « أظهرت الحفريات الأثرية ان الفيضانات واقع ملموس .. وإن أقدم قصة للطوفان كتبت غالباً فيما بين ١٨٩٤ و ١٥٩٥ قبل الميلاد » . أنظر ج ٤ من «التفسير الكاشف» ص ٢٣٧ فقرة «الطوفان ثابت عند الأمم» . وهنا سؤال يفرض نفسه : هل الطوفان الذي دلت عليه الحفريات وجاء في الأسفار القديمة هو طوفان نوح أو غيره ؟.

الجواب: أياً كان فليكن، فإن غير طوفان نوح لا يمنع من وجوده كما ان طوفان نوح لا يستدعي ان لا يوجد سواه ، وفي كل عصر يحدث طوفان أو أكثر في طرف من أطراف الأرض .. وطوفان نوح قد يكون عاماً ، وقد يكون خاصاً بجزء من أجزاء الأرض ، ولا نص صريح في كتاب الله على أحدهما .

سُورَةُ الْجِنِّ

٢٨ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

استمع نفر من الجن الآية ١ - ٧ :

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا
عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ
تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا
عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا *
وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالُ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا *

اللغة :

جد الله سبحانه علوه وعظمته . والشطط الافراط وتجاوز الحد . ويعوذون
يستجرون . ورهقاً من أرقه اذا كلفه ما لا يطيق .

الإعراب :

المصدر من انه استمع نائب فاعل لأوحى ، وضيمر انه للشأن . وعجبا صفة للقرآن بمعنى عجيب . وشططاً صفة لمفعول مطلق مقدر أي قولاً شططاً ، ومثله كذباً . وإن لن « ان » مخففة ، واسمها ضمير الشأن مخدوف ، والمصدر المنسبك ساد مسد مفعولين . ورهقاً مفعول ثانٍ لزاودهم .

المعنى :

(قل أوحى إلي انه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً) . الجن حقيقة واقعة ، لا يشك فيها مؤمن لأن آي الذكر الحكيم أثبتت ذلك بما لا يقبل الشك والتأويل ، وبماذا نؤول قوله تعالى في الآية ١٣ من سورة سبأ : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب » والآية ٣٩ من سورة النمل : « قال عفريت من الجن أنا آتيك به » والآية ٣٠ من سورة الأحقاف : « إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى » . وقوله تعالى في سورتنا هذه : « سمعنا قرآناً عجياً .. لمنا السواء .. منا الصالحون ومنا دون ذلك » لماذا نؤول هذه الآيات ؟ ومثلها كثير ، أنؤولها بالمكروبات أو بالرادبوم أو بالالكرونات وما إليها من المصطلحات ؟ .

وتقول : العلم الحديث لم يثبت الجن . ونقول : وهل في العلم الحديث ما ينفيه ؟ وهل أحصى العلم الحديث عدد الكائنات ما ظهر منها وما بطن ؟ وأي عالم قديم أو جديد يعرف حقيقة نفسه وعقله ، بل وجسمه المحسوس الملموس ، يعرفه بما فيه من عروق وخطوط وشعر ؟ ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل بخاصة عالم الغيب . لقد اثبت الوحي الجن والملائكة فوجب التصديق ، ومن نفى بلسان القطع والجزم فعليه الاثبات من العقل أو الوحي تماماً كما لو أثبت .

وبعد ، فقد أوحى سبحانه الى نبيه الكريم ان جماعة من الجن استمعوا اليه ، وهو يتلو كتاب الله ففهموه وتدبروا معانيه ، فدهشوا من عظمته مبني ومعنى ، وقال بعضهم لبعض : ألا تعجبون لهذا القرآن ؟ وهل سمعتم بمثلٍ له من قبل ؟

حقاً انه لمعجز وانه (يهدي الى الرشد) لما من خبر إلا ويرشد اليه ويأمر به مرغباً ومبشراً ، وما من شر إلا ويدل عليه وينهى عنه منذراً ومخبراً .

١ - (قأمتا به ولن نشرك بربنا أحداً) لأنه قادر على كل شيء ، ومن قدر على كل شيء فهو في غنى عن الشركاء ، ولو استعان بغيره لكان عاجزاً ، والعاجز لا يكون إلهاً .

٢ - (وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً) . جل سبحانه عن اتخاذ الأبناء ، وطهر عن ملامسة النساء ، كيف وهو الغني الحميد ؟ .

٣ - (وانه كان يقول سفيهاً على الله شططاً) . المراد بالسفيه هنا الجاهل ، والشطط تجاوز الحد ، وفيه إيماء الى انه كان في الجن طائفة تدين بالتثليث : الرب وابنه وزوجته ، وما من شك ان هذا سفه وسرف .

٤ - (وانا ظننا ان لن نقول الناس والجن على الله كذباً) . كان قسادة الدين من الجن يلقنون أتباعهم الأضاليل والأباطيل ، من ذلك ان الله صاحبة ولداً فيصدق الأتباع السذج ثقة بالكبار ، وإيماناً بأن ما من أحد يجزئ على الله ويصفه بغير صفاته ، ولما سمعوا القرآن أيقنوا ان رؤساءهم يفترون على الله الكذب ويصفونه بما لا يليق بجلاله وعظمته .

ومكان العظمة في هذه الآيات ان الجن سمعوا حكمة القرآن للمرة الأولى فوعوها واتعظوا بها .. ونحن نسمع القرآن ونقرأه مرات ومرات ، ولا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين ، ثم لا نتفع بمواعظه ، ولا نهتدي برشده .. فهل الجن - ياترى - اصفى نفساً ، أو أتم عقلاً ، أو لا شيء في حياتهم من المغريات والشهوات ؟ .

٥ - (وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً) . اختلفوا في تفسير هذه الآية ، والأقرب الى الافهام - خلافاً لجمهور المفسرين - ان المراد برجال من الانس البسطاء السذج ، والمراد برجال من الجن المشعوذين الذين يموهون على البسطاء بأن لهم صلات بالجن يستحضرونهم متى شاءوا ، ويسخرونهم فيما أرادوا ، وعليه يكون المعنى ان السذج كانوا يستجرون بالمشعوذين ليلدفعوا عنهم غائلة الجن ، أو يتنبأوا بما يحدث لهم ، أو يقربوا بعيداً ، أو يبعدوا قريباً . أما قوله : « فزادهم رهقاً » فعناه ان المشعوذين كانوا يطلبون من البسطاء من الأجر ما يرهقونهم به .

٦ - (وانهم ظنوا كما ظننتم ان لن يبعث الله أحداً) . الضمير في ظننوا للكفرة من الانس ، والخطاب في ظننتم من مؤمني الجن للكفرة من قومهم ، والمعنى ان مؤمني الجن قالوا للكفار من قومهم : لكم في الانس امثال لا يؤمنون بالبعث والحساب .

وانا لمسنا السماء الآية ٨ - ١٧ :

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً هَارِبَةً هَارِبَةً وَأَنَّا كُنَّا
نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ سِهَابًا رَصَدًا *
وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمِّنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا *
وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ
لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْحَدَى
أَمَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ
وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ
فَكَانُوا لِحَبَّتِهِمْ هَارِبًا * وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً
غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا *

اللفظ :

الأصل في اللمس أن يكون باليد، ويستعمل كثيراً في الطلب، تقول: التمس لنا كذا أي اطلبه . والحرس لجماعة الحراس ، ويوصف بالفردي كما في الآية باعتبار

الجزء التاسع والعشرون

لفظه ، وبالجمع باعتبار معناه . والشهب جمع شهاب ، وهو الشعلة من النار ، ويطلق أيضاً على النور الممتد في السماء كشعلة من نار . ورصد أي راصداً ورقياً . ورشداً هداية وصلاًحاً . وطرائق جمع طريقة مؤنث طريق ، والمراد بالطريقة هنا شريعة الحق والعدل . وقدد جمع قِدة، وهي القطعة من الشيء، والمراد بطرائق قدداً هنا مذاهب شتى . والبخس النقص . والرهق الظلم . والمراد بالقاسطين هنا العادلون عن سبيل الحق . ونحروا قصدوا واتمسوا . وغدقاً أي كثيراً . وصعداً شافاً وشديداً .

الإعراب :

حرساً تمييز . ومقاعد اسم مكان مفعول فيه . أشر مبتدأ وجملة أريد خبر . ومنا متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف، ودون ذلك صفة للمبتدأ أي ومنا قوم كاثنون دون ذلك . وإن لن نعجز أي انه لن نعجز ومثله ان لو استقاموا . وهرباً مصدر في موضع الحال أي هاربين . ويسلكه عذاباً منصوب بترع الحافض أي في عذاب مثل « ماسلككم في سقر - ٤٢ المدثر » .

المعنى :

١ - (وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً) . عند تفسير الآية السابقة ، وهي « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن » عند تفسير هذه الآية قلنا : ان الكهان والمشعوذين كانوا يزعمون ان الجن يتقلون اليهم أخبار السماء .. والآية التي نفسرها ترد على هذا الزعم وتبطله بلسان الجن أنفسهم واعترافهم صراحة بأنهم لا يعلمون الغيب ، وأنهم لا يستطيعون الوصول الى السماء لاستراق السمع لأنها محصنة بالحفظة والشهب المحرقة .. وشواء أكان هذا حقيقة أم كناية عن جهل الجن بالغيب فإن الفرض الأول من ذلك هو التنبيه الى ان الكهان والمشعوذين يفترون الكذب على الله وعلى الجن لأن علم الغيب لله وحده : « وما كان الله ليطالعكم على الغيب - ١٧٩ آل عمران » : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو - ٥٩ الأنعام » . وتقدم مثله في الآية ١٨ من سورة

الحجر ج ٤ ص ٤٧٠ والآية ٧ من سورة الصافات ج ٦ ص ٣٣٠ والآية ٥ من سورة الملك .

٢ - (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) . تدل هذه الآية بظاهرها ان الجن صعدوا الى مكان ما في السماء قبل الرسول الأعظم (ص) وانهم كانوا يسمعون صوتاً أو كلاماً ، ثم منعوا من ذلك في عهد محمد (ص) . وليس معنى هذا ان الجن كانوا قبل محمد (ص) يطمعون على أخبار الغيب من السماء .. كلا ، وانما المراد انهم سمعوا شيئاً في السماء ، وليس من الضروري أن يكون هذا الشيء غيباً ، بل من المستحيل أن يكون من نوع الغيب لأن الغيب لله وحده بنص القرآن الذي لا يقبل التأويل .. وبكلام آخر: ان صعود الجن أو غيرهم الى السماء لا يستدعي علمهم بالغيب ، فالسما هي موطن الملائكة المقربين ، ومع هذا « قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » ٣٢ البقرة . وهل في الأرض والسماء أعظم وأكرم على الله من محمد ، ومع هذا أعلن على الأجيال : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء » ١٨٨ الأعراف . واذا كان أشرف خلق الله لا يعلم الغيب حتى فيما يعود الى نفسه فكيف يعرف الجن ما يحدث في مستقبل الناس من خير أو شر ؟ .

٣ - (وأنا لا ندرى أسر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) . هذا من قول الجن ، ومعناه كيف يظن الحمقى ان عندنا علم الغيب وما يحدث لهم في المستقبل من خير أو شر ، واننا نوحى بذلك الى الكهان ، كيف يظن بنا هذا الظن ، ونحن لا نعلم ماذا قدر الله لأحد من أهل الأرض ولا لأنفسنا أيضاً .

٤ - (وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً) . يحكي الجن عن أنفسهم ان منهم الصالح والطالح ، وانهم متفرقون الى طوائف ومذاهب تماماً كالإنس .

٥ - (واننا ظننا ان لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً) . بعد ان سمع الجن القرآن آمنوا بالله وأيقنوا بأنه ، جلت عظمتة ، لا يعجزه من طلب ، ولا يفوته من هرب .

٦ - (وانا لما سمعنا الهدى آمنا به فن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً) . المراد بالهدى القرآن ، وبالبخس النقص ، وبالرهق الظلم ، والمعنى ان الجن سمعوا

القرآن قَامَنُوا به جملة وتفصيلاً ، وهم على يقين من عدل الله ، وإن من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً .

٧ - (وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ) . هذا تقسيم ثانٍ للجن بعد الاسلام ، أما التقسيم الأول في الآية ١١ الى صالحين ودون ذلك فهو بالنظر الى ما قبل الاسلام ، ولا فرق إلا في التسمية ، فقد أسماهم الطيبين قبل الاسلام بال صالحين ، وأسماهم بعد الاسلام بالمسلمين (فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً) . طلب الذين أسلموا الرشد فأصابوه ، واختاروا لأنفسهم الخير فعدوا به .

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) . قال الشيخ اسماعيل حقي في تفسيره روح البيان : « القاسط هو الجائر العادل عن الحق ، والمقسط هو العادل إلى الحق ، يقال : قسط إذا جار ، وأقسط إذا عدل ، وقد غلب اسم القاسط على فرقة معاوية ، ومنه الحديث خطاباً لعلي بن أبي طالب : « تقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين » فالناكثون أصحاب عائشة الذين نكثوا البيعة ، والقاسطون أصحاب معاوية لأنهم جاروا حين حاربوا الإمام الحق ، والمارقون الخوارج لأنهم خرجوا من دين الله ، واستحلوا قتال خليفة رسول الله (ص) » .

(وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا) . هذا كلام مستأنف منه تعالى ، والضمير في استقاموا يعود الى الخلائق من الجن والانس ، والمراد بالطريقة شريعة الحق والعدل ، وماء غدقاً كناية عن الرخاء والسعة في الرزق لأن المساء أصل الحياة ، والفتنة الاختبار ، والمعنى ان الناس لو آمنوا بالله حقاً ، وعملوا بشريعة العدل ، وابتعدوا عن الجور والعدوان - لعاشوا في سعة ورخاء وأمن وأمان (لفتنهم فيه) أي في الرخاء، واللام في لفتنهم للعاقبة مثل ليدوا للموت ، والمعنى ان الله سبحانه يقدق النعم عليهم ، ثم ينظر : فإن ازدادوا إيماناً به واخلصاً له كانوا من السعداء دنياً وآخرة ، وإن غيروا وبدلوا فهو لهم بالمرصاد (ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً) أي شديداً ، وكل من ذُكِرَ بالحق فأعرض عنه عذبه الله عذاباً أليماً .

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا * قُلْ إِنِّي لَا أُمِلِّكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا * حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أضعفُ ناصراً وأقلُّ عدداً * قُلْ إِن أُنذِرِي أَقْرَبُ مَا تُوَعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا *

اللفظ :

المراد بالمساجد جميع المعابد ، وبعد الله محمد (ص) . ولبد جمع لبد بكسر اللام ، وهي اسم لكل شعر أو صوف متلبد . وملتحدأ ملاذأ وملجأ .

الإعراب :

قال صاحب البحر المحيط : بلاغاً مستثنى منقطع لأن المعنى لكن ان بلغت رحمتي ربي ، وقال أيضاً : ورسالاته عطف على الله . ومن مبتدأ وأضعف

خبر ، وناصرأ تمييز ومثله عدداً . أقرب ما توعدون مبتدأ وخبر . ومن ارتضى مستثنى منقطع لأن المعنى لكن يظهر على الغيب من ارتضى . والمصدر من ليعلم متعلق بيسلك . وعدداً تمييز ويجوز أن يكون في موضع المفعول المطلق لأن أحصى بمعنى عد .

المعنى :

(وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) . اختلفوا : هل هذا من قول الله أم من قول الجزن ؟ وأياً كان القائل فإن المعنى واحد ، وهو ان جميع العابد هي لعبادة الله وطاعته فقط ، سواء أشادها وأقامها المسلمون أم غيرهم (وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) . المراد بعبد الله هنا محمد (ص) ، والهاء في يدعوه لله سبحانه ، وواو الجماعة في كادوا لأعداء الله ورسوله ، والمعنى ان رسول الله (ص) حين دعا دعوة الحق تظاهرت عليه أحزاب الضلال ، وكادوا من كثرتهم يكونون كالشعر أو الصوف الذي تلبد بعضه فوق بعض . وفي ذلك يقول الإمام علي (ع) :

« خاض رسول الله الى رضوان الله كل غمرة : وتجرع فيه كل غصة ، وقد تلون له الأدنون ، وتألّب عليه الأقصون ، وخلعت اليه العرب أعتتها ، وضربت لمحاربه بطون رواحلها ، حتى أنزلت بساحته عداوتها من أبعد الدار واسحق المزاره أي أقصاه .

والذي يدل على ان هذا المعنى هو المراد قوله تعالى بلا فاصل : (قل انما ادعو ربي ولا أشرك به أحداً) قل يا محمد للذين تحالفوا على حربك : ماذا جنيت ؟ هل طلبت منكم أجراً ، أو ابتغيتم جاهاً ؟ .. كلا ، وانما أعبد الله وأخلص له ، وهو الذي خلق الكون بأرضه وسماؤه ، فهل هذا ذنب لا يغتفر ؟ (قل اني لا أملك لكم ضرأ ولا رشداً) . أي نفعا . وأيضاً قل يا محمد للمشركين : أنا بشر مثلكم لا ادعي القدرة على التحكم في مصيركم وضرركم أو نفعكم ، فالأمر كله لله وحده .

(قل اني لن ينجيني من الله أحد ولا أجد من دونه ملتحداً إلا بسلأفاً من

الله ورسالاته) لا مفر ولا ملجأ لرسول الله من الله اذا قصر في تأدية الرسالة التي ائتمنه عليها .. وهذه آية من عشرات الآيات التي تدل بصراحة ووضوح على ان الاسلام يرفض فكرة الوساطة بين الله وعباده ، ويضع الانسان أمام خالقه مباشرة يخاطبه ويناجيه بما شاء ، ويتقرب اليه بفعل الخيرات من غير شفيع ووسيط . (ومن يعص الله ورسوله فان له ناز جهنم خالدين فيها أبداً) . هذا تهديد ووعد للعصاة الطغاة .. على ان الله سبحانه يحب أن يطاع حتى ولو لم يهدد ويتوعد ، فكيف اذا هدد وتوعد (حتى اذا رأوا ما يوعدون فيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً) . كان المشركون يستضعفون أنصار رسول الله (ص) ويستقلون عددهم ، ويقولون له : نحن أكثر منك مالاً وأعز نفراً !.. فأجابهم سبحانه : في غدي تعلمون من هو الأعز ومن هو الأذل ؟ وصدق الله العظيم ، فما مضت الأيام حتى أذهلهم الاسلام بعزته ، ورفع المسلمين بقدرته ، وللكافرين في الآخرة عذاب الحريق .

(قل ان أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً) . حين سمع المشركون قوله تعالى : « فيعلمون من هو أضعف ناصراً وأقل عدداً » سألوا النبي (ص) : متى يكون هذا ؟ فأمر الله نبيه الكريم أن يقول لهم : علمه عند ربي ، ولا أدري أقرب هو أم بعيد ، فقوله تعالى : « أم يجعل له ربي أمداً » يتلخص بكلمة « بعيد » كما في الآية ١٠٩ من سورة الأنبياء : « وان أدري أقرب أم بعيد ما توعدون » .

(عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) . الغيب لله ولمن ائتمنه سبحانه على وحيه ، واصطفاه من عباده لرسالته ، فإنه يعلم من الغيب ما علمه الله « سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا » . وقال جماعة من المفسرين ، منهم الرازي والمراغي : ان غير الرسول قد يعلم الغيب ويخبر به !.. ولا يتفق هذا مع ظاهر قوله : « فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » . أجل ان ذوي الافهام يتنبئون بالمستقبل ، ويصدقون في الكثير من ظنونهم وفراستهم . ولكنهم يستخرجونها من قرائن وامارات تظهر لهم وتخفى على من دونهم فهماً وعلماً ، وأين هذا من علم الغيب الذي لا يظهره الله إلا على الرسل والأنبياء ؟ . (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً) . الذي تبادر الى فهمنا من

هذه الآية هو ان الله سبحانه يصون الأنبياء ، وهم يبلغون عنه ويؤدون رسالاته ، يصونهم ويحفظهم من كل شيء يمنعهم عن تأدية الرسالة على وجهها ، سواء أكان هذا الشيء من الداخل كالذهول والنسيان أم من الخارج كتشويش الأعداء ، وما الى ذلك من محاولاتهم . وبكلمة ان هذه الآية تثبت المعصية للأنبياء في تأدية الوحي (ليعلم) أي لينكشف علم الله وبظهر على حقيقته (ان قد بلغوا) لينكشف علم الله لجميع الناس ان الأنبياء قد بلغوا (رسالات ربهم) على حقيقتها (وأحاط) الله علماً (بما لديهم) أي بكل ما قاله الأنبياء لا يفوته من أقوالهم حرف واحد ، وفوق ذلك فإن الله تعالى قد أحاط علماً بجميع الكائنات كبيرها وصغيرها (وأحصى كل شيء عدداً) فكيف لا يحصى على رسله أقوالهم وأنفاسهم ، وهم يبلغون رسالاته الى عباده ؟ . والغرض من هذا التأكيد هو التنبيه الى ان الأنبياء معصومون عن الخطأ في تبليغ الوحي ، فلا يزدون فيه ، ولا ينقصون منه حرفاً . ولا يبدلون حرفاً بحرف ، وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى .

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

٢٠ آية مكية ، وقيل بعضها مدني .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا أيها المزمل الآية ١ - ٩ :

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا *
أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا *
إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا
طَوِيلًا * وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا *

اللغة :

المزمل اسم فاعل وأصله المتزمل من تزمّل اذا اشتمل بشيابه . والترتيل التمهّل
في التلاوة وضده الاسراع . وفي البحر المحيط ان ناشئة الليل هي ساعاته ، وأشد
وطأ أكثر مشقة . وأقوم قيلًا أصوب وأثبت قراءة ، وسبحاً أي تصرفاً وتقلباً
في الأعمال كما يتقلب السابح في الماء . وتبتّل اليه انقطع وأخلص اليه .

الإعراب :

الليل منصوب على الظرفية . إلا قليلاً استثناء متصل من الليل . نصفه عطف بيان أو بدل كل من الليل لأنه جاء بعد الاستثناء ومعناه قم نصف الليل . وضيم منه وعليه يعودان الى النصف . وأو هنا للتخفيف . وطأً وقبلاً تمييزان . ورب بالرفع خبر مبتدأ مقدر أي هو رب ، وبالجزم بدل من ربك .

المعنى :

(يا أيها المزمّل) . هذه الآية وما بعدها من أوائل الآيات التي نزلت على الرسول الأعظم (ص) أما أول آية أو أول سورة نزلت عليه فسيأتي الحديث عنها عند تفسير « اقرأ باسم ربك الذي خلق » .. وخاطب سبحانه هنا نبيه الكريم بالمزمّل لأنه كان آنذاك مشتملاً بكسائه لسبب من الأسباب ، فخطبه النبي الأعلى بالصفة التي كان عليها ملاطفة له ، ومن هذا الباب قوله النبي (ص) لعلي : قم يا أبا تراب ، وكان نائماً على التراب ، وقوله لحذيفة اليماني : قم يا نومان وكان نائماً .

(قم الليل الا قليلاً) . دع التلفف يا محمد ، وأحيي الليل في الصلاة والعبادة ما عدا جزءاً قليلاً منه تأوي فيه الى فراشك للنوم والراحة . وبكلام آخر اجعل الليل شطرين : شطراً لربك وآخر لنفسك .. وقال قائل : أراد الله بهذا ان يهيئ نبيه الكريم للجهاد الطويل ، والصبر على متاعب الدعوة ، وما يلاقيه من أذى المشركين بسببها !.. وهذا مجرد خيال لأن الله سبحانه قد هيا محمداً لأمانته الكبرى بفطرته ومنذ اليوم الأول لولادته .

(نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه) قليلاً أيضاً . هذا بيان وتفسير لقوله تعالى : « قم الليل إلا قليلاً » لأن معناه لك يا محمد أن تقوم لله تمام النصف من الليل ، أو أقل من النصف بقليل أو أكثر منه أيضاً بقليل ، ويتني هذا التفسير على ان «نصفه» بدل من الليل لا من قليل ، ويجوز أن يكون بدلاً من قليل لا من الليل ، وعليه يكون المعنى لك أن تأوي الى فراشك وتستريح تمام

سورة المزمل

النصف من الليل أو أقل منه أو أكثر بقليل .. ولا فرق من حيث المعنى بين الإعرابين لأن البدل هو بدل كل من كل سواء أكان من المستثنى أم من المستثنى منه . واستنتج كثير من المفسرين من كلمة « قليل » في الآية ، استنتجوا ان لا يتجاوز النقص حد الثلث ، والزيادة حد الثلثين ، وعليه يكون التخيير بين النصف والثلث والثلثين ، والآية ٢٠ من هذه السورة نصت على هذه الأوقات الثلاثة .

(ورتل القرآن ترتيلاً) . الخطاب للرسول (ص) والمقصود العموم ، والمعنى تمهل ولا تسرع في التلاوة ، فإن الغرض من قراءة القرآن ان يتدبر القارىء معانيه ومراميها ، ويتنفع بأحكامه وعظائمه وبوعده ووعيدته ، فيشعر بالخوف من العذاب الأليم على المعصية ، وبالأمل في الثواب الجزيل على الطاعة ، وإلا فإن مجرد حركة اللسان وإخراج الحروف مخارجها - غير مقصود بالذات .

شخصية الرسول الأعظم :

(إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً) . القرآن ثقیل بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، هو ثقیل في إعجازه وخلوده ، وفي عقيدته وشريعته ، وفي حربه ونفصاله ضد الأقوياء المفسدين والطغاة المترفين ، وقال كثير من المفسرين : « القرآن ثقیل لأن تكاليفه شاقة مثل المحافظة على الصلوات الخمس ، والقيام آخر الليل لصلاة الفجر ، والوضوء بالماء البارد مراراً ، والاعتسال به أحياناً ، وكالصوم في أيام الحر ، والقيام للسحور من آخر الليل ، وكالحج ومشتقاته من الاحرام والسعي والطواف » .

وليس من شك ان هذه كبيرة إلا على الخاشعين ، ولكن أكبر منها وأثقل التكليف بالجهاد ، وهو على أنواع ، وأثقل أنواعه الجهاد لتغيير القلوب والمشاعر ، والقضاء على العقائد الفاسدة والتقاليد الموروثة ، واستئصال الفساد من جذوره ، وهذا ما كُلف به أبو القاسم محمد بن عبد الله : فلقد بعثه الله سبحانه ليتم مكارم الأخلاق للبشرية كلها ، ويخرج الناس من الظلمات الى النور ، وأي تكليف أثقل وأشق من هذا التكليف ؟ ومن الذي يستطيع أن يغير من أخلاق زوجته وولده بخاصة في عصر الجاهلية أفسد العصور وأكثرها فساداً وطفاناً ؟ ولكن

محمداً تغلب على جميع الصعاب ، وقام بالأمر على أكمل وجه . أما السر في ذلك فيمكن في شخصية محمد وقوتها وعظمتها ، وفي صبره العجيب على تحمل الأذى في سبيل دعوته ، فكان يزداد صبراً وحلماً كلما ازداد الطغاة في أذاه ، ولا يزيد على قوله : « اللهم اغفر لقومي أنهم لا يعلمون .. ان لم يكن بك غضب علي فلا أبالي » .

وهذا نجد التفسير الصحيح لقوله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته ١٢٤ الانعام » . أجل ، الله يعلم ان شخصية محمد أقوى من العقائد وانتقالبات ومن الناس مجتمعين ، ولولا علمه بذلك لما بعث محمداً ليتمم للبشرية مكارم الأخلاق : « لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها - ٧ الطلاق » . وقد أدرك الأديب العالمي الشهير « برنارد شو » هذه الحقيقة حيث قال : لو كان محمد بن عبدالله في القرن العشرين لقضى على ما فيه من فساد وضلال .

(ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قبلاً) كان سائلاً يسأل : لماذا أمر الله نبيه الكريم أن يتعب في شطر من الليل ؟ فأجاب سبحانه : لأن قيام الانسان من مضجعه بعد هدأة من الليل يشق كثيراً على النفس ، وأفضل الأعمال أشقها ، ولأن قلب الانسان في الليل أصفى وأهدأ ، فتكون تلاوته للقرآن أصوب وأثبت ، وأيضاً يكون أكثر نجاحاً مع ما يتلوه من الآيات . وقيل : المراد بالوطأ هنا المواطأة والموافقة بين القلب واللسان (ان لك في النهار سبجاً طويلاً) . الليل للعبادة والتهجد ، والنهار للعمل والسعي في طلب العيش ، وهو طويل يتسع لكل ما يحتاجه الانسان من أعمال .

وقال الشيخ عبد القادر المغربي عند تفسير هذه الآية : « قد يعترض معترض بأن قيام الليل يضعف الجسم عن المقاومة والمكافحة . وقد أجاب سيدنا علي (ص) عن ذلك بقوله : « وكأني بقائلكم يقول : اذا كان هذا حال علي بن أبي طالب - أي التحش والتهدج - فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان ألا وان الشجرة البرية أصلب عوداً والروائح الخضره أرق جلوداً ، والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خوداً ، وأنا ورسول الله كالصنو من الصنو ، والذراع من العضد . أي انه هو سيدنا رسول الله (ص) من أصل واحد في العمل والطريقة

سورة الزمل

وأسلوب المعيشة ، فيكون في حالته كما كان سيدنا الرسول شديد البأس قوي العزيمة ، وان كان خشن المعيشة .

(واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلاً) . المراد بذكر الله هنا الدعوة اليه تعالى ، والتبتل مأخوذ من التبتل ، وهو القطع مثل البت ، ويستعمل التبتل في الانصراف عن الدنيا ، ومنه التبتل لقب السيدة مريم ، والمعنى بعد أن تحيي يا محمد شطراً من الليل في العبادة ، وتستريح في شطر منه - ادعُ دعوة الحق وجهاد في سبيلها لوجه الله وحده .. وكأن الله سبحانه يعلم نبيه الكريم ان يجعل وقته ثلاثة أقسام : الأول للعبادة ، والثاني للجهاد ، والثالث للراحة كي يستمر في عبادته وجهاده (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً) . الملك في المشرق والمغرب وفي السموات والأرض لله وحده لا شريك له ، واذا كان الخلق كله لله وجب على العبد أن يعتمد على الله ، ولا يلجأ الى أحد سواه ، وفيه إيماء الى ان الخلق يدل على وجود الخالق ، وان خضوع المخلوقات بكاملها لنواميس طبيعية ثابتة يدل دلالة واضحة على ان الخالق واحد في ذاته وصفاته .

واهجرهم هجراً جميلاً الآية ١٠ - ١٩ :

وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ
أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ
وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا
مَّهِيلًا * إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا * فَكَيْفَ
تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُمْطِرُ بِه كَان
وَعْدُهُ مَفْعُولًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا *

اللغة :

الهجر الجميل ان لا تتعرض لحصمك بشيء ، وان تعرض لك تجاهلت . وأنكالا جمع نكل وهو القيد الثقيل . ذا غصة يأخذ بالحلوقم فلا يدخل ولا يخرج . والكثيب الرمل المتجمع ، والمهيل هو الذي لا ثبات له فإذا تحرك أسفله سال أعلاه . والوبيل الثقيل . ومنفطر منصدع ، وفي كتب اللغة ان العرب يذكرون السماء في بعض أقوالهم لأنها في معنى السقف .

الإعراب :

والمكذبين عطف على الياء في ذرني أو مفعول معه . وأولي النعمة صفة للمكذبين . وقليلاً أي زمناً قليلاً . ويوماً مفعول به لتتقون على حذف مضاف أي عذاب يوم . والسماء مبتدأ ومنفطر خبر على ان يراد من السماء السقف ، وضمير به يعود الى يوم ، والباء هنا بمعنى في .

المعنى :

(واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً) . نقول أعداء الله على رسوله محمد (ص) الأقاويل . فأمره الله بالصبر وعدم التعرض لهم بشيء .. وكان ذلك في أول البعثة حيث كان المسلمون قلة ، والكفار كثرة ، حتى اذا كانت الهجرة ، وأصبح للمسلمين قوة رادعة - أذن الله لهم بالقتال لحماية المظلومين من الظالمين . وتقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ١٩٩ من سورة الأعراف (وذرني والمكذبين اولي النعمة ومهلهم قليلاً) . بعد أن قال سبحانه لنبيه الكريم : دع الذين كذبوك ووصفوك بالساحر والمجنون والشاعر ، بعد هذا قال له : دعني وهؤلاء الذين أطغاهم المال وأعماهم عن كل شيء إلا عن ترفهم وملذاتهم ، دعني واباهم ، ولا تهتم بهم فيما قريب يحق بهم العذاب والهلاك . (ان لدينا أنكالا وججياً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً) . هذا ما أعده الله لهم : قيود وأغلال ، ونار وقودها الناس والحجارة ، وطعام كالشوك لا يخرج

سورة المزمل

من الخلق ولا ينزل الى الجوف ، وألوان أخرى من العذاب كسرايل من قطران ومقامع من حديد (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً) . هذا وصف ليوم القيامة وأهواله ، منها اهتزاز الأرض بأهلها ، وتحويل الجبال الى تلال من رمل تنهار وتزول لأضعف الأسباب .

(انا أرسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم) . الخطاب في اليكم للمكذبن أولي النعمة ، والمراد بالرسول والشاهد محمد (ص) كما في الآية ٤١ من سورة النساء : « وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » أي ان محمداً (ص) يشهد عليهم انه قد أبلغهم رسالات ربهم فكذبوا وأعرضوا (كما أرسلنا الى فرعون رسولا فعضى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً ويلاً) . ضرب سبحانه فرعون مثلاً لأولي النعمة الذين كذبوا محمداً (ص) وبين لهم ان حالهم مع رسول الله تماماً كحال قوم فرعون مع موسى ، وحذرهم ، جلت عظمتهم ، اذا هم أصروا على الضلال أن يصيبهم ما أصاب فرعون وقومه من الهلاك والعذاب الأليم دنياً وآخرة .

(فكيف تنقون ان كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به كان وعده مفعولاً) . ان كفرتم أي ان بقيتم على الكفر ، وضمير به يعود الى اليوم ، وضمير وعده الى الله تعالى المفهوم من سياق الكلام ، والمعنى بأية وسيلة أيها الطغاة تنجون من العذاب الأكبر في يوم تنفطر فيه السماء ، وتشيب الأطفال من أهواله ، وهذا اليوم آت لا ريب فيه لأن الله لا يخلف الميعاد . وتجدر الإشارة الى ان شيب الأطفال كناية عما يصيب المجرمين من الذعر والرعب لأن الأطفال لا يحاسبون ولا يؤاخذون .

(ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً) . « هذه » اشارة الى ما سبق من آيات الانذار والوعيد ، والتذكرة العبرة والعظة ، والمعنى ان الله سبحانه يبين طريق الشر والخير ، وأمر بهذا ووعده عليه بالثواب ، ونهى عن ذلك وتوعد عليه بالعقاب ، وكل امرئ وما اختار لنفسه من النعيم والجحيم .

فأقرأوا ما نيسر من القرآن الآية ٢٠ :

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ

مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى
وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ
هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

اللغة :

الأدنى معناه الأقرب والمراد به هنا الأقل لأن الأقرب أقل مساحة من الأبعد.
ويقدّر الليل والنهار أي يجعل لكل منها قدراً معيناً وحداً محدوداً . والمراد بالتوبة
هنا الترخيص وعدم الاتم .

الإعراب :

أدنى صفة لموصوف مقدر أي زماناً أدنى . ونصفه وثله بالنصب عطفاً على
أدنى . وطائفة بالرفع عطفاً على ضمير تقوم . والليل مفعول به . وان لن «ان»
مخففة واسمها ضمير الشأن محذوف ، ومثلها ان سيكون . وآخرون عطف على
مرضى . وخيراً مفعول ثانٍ لتجدوه . و «هو» فصل . وأجراً تمييز .

المعنى :

(ان ربك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثله وطائفة من الذين
مَعَكَ) . في أول هذه السورة أمر سبحانه نبيه الكريم ومن معه أن يتعبّدوا لثلاثي

الليل أو نصفه أو ثلثه على سبيل التخيير ، فسمعوا وأطاعوا، وكان بعض الصحابة يتعذر أو يتعسر عليهم تحديد هذه الأوقات وضبطها ، فيقومون الليل كله أو جلّه حتى نُقل ان بعضهم تورمت أقدامهم من القيام الطويل احتياطاً لدينهم وحرصاً على مرضاة ربهم .. وفي الآية التي نحن بصددّها أخبر سبحانه النبي بأنّه ومن معه من المؤمنين قد أطاعوا الله وبلغوا الغاية من عبادته ، وأنه تعالى مجازيهم أفضل الجزاء وأكملّه .

(والله يقدر الليل والنهار علم ان لن نحصوه فتاب عليكم فاقروا ما تيسر من القرآن) . لن نحصوه أي تعجزون عن ضبط الوقت ، وهو ثلثا الليل ونصفه وثلثه ، والمراد بتاب عليكم رفع التكليف عنكم ، والمعنى ان الله سبحانه جعل لكل من الليل والنهار قدراً معيناً وحداً معلوماً ، ولكن الصحابة لا يعرفون الأوقات محددها وانما يعتمدون على الظن والاجتهاد حيث لا ساعات آنذاك تشير عقاربها الى الدقائق والثواني ، لذلك ودفعاً للحرج والمشقة أعفاهم سبحانه من القيام ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه ، على ان يقرأوا ما تيسر وأمكن من القرآن الكريم . ونقل صاحب مجمع البيان عن أكثر المفسرين : ان المراد بما تيسر من القرآن هنا صلاة الليل ، وسواء أكان المراد التلاوة أم صلاة الليل فإن الأمر هنا للتدبّل لا للوجوب ، وتجدر الإشارة الى ان صلاة الليل إحدى عشرة ركعة ، ووقتها بعد نصف الليل . (علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله) . هذه حكمة ثانية للتخفيف ورفع التكليف بالقيام ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه ، وهي ان من العباد مرضى يتعذر عليهم ان يقضوا ساعات من الليل في الصلاة والتهجد ، ومنهم أيضاً المسافرين لطلب العيش وغيره من الأمور الضرورية ، والسفر يستدعي النوم والراحة في الليل وإلا تعذر العمل في النهار على المسافر ، ومنهم أيضاً الغازون في سبيل الله ، فإذا أحيوا الليل أو شطراً منه في العبادة ضعفوا عن القتال في النهار ، فخفف سبحانه عن الكل لأجل هؤلاء الأصناف الثلاثة . وتومئ الآية الى أمرين هامين : الأول ان الحكمة من نفي التكليف عن العموم لا يفترض فيها عجز جميع الأفراد عن الطاعة والامتنال ، بل يكفي عجز البعض ، وان قدر البعض الآخر . الأمر الثاني ان العمل من أجل الرزق الحلال جهاد في سبيل الله تماماً كالجهد في قتال أعدائه وأعداء الانسانية .

(فافقرأوا ما تيسر منه) . ككرر سبحانه هذا الأمر لتكرار سببه فقد كان السبب الأول عدم ضبط الوقت وإحصائه ، أما السبب الثاني فهو المرض والسفر والغزو (وأقيموا الصلاة) أي الصلوات الخمس ، وهي لا تسقط بحال ، لا في سفر ولا حضر ، ولا في جهاد أو مرض ، ويؤديها كل حسب طاقته (وآتوا الزكاة) المفروضة في أموالكم (وأقرضوا الله قرضاً حسناً) . وأيضاً أنفقوا تطوعاً في وجوه البر والاحسان ، فإن هذا الاتفاق يعود عليكم أضعافاً مضاعفة. وقد تكرر هذا الأمر للمرة السابعة حتى الآن ، وجاءت المرة الأولى في الآية ٢٤٥ من سورة البقرة (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً) . ان الخير لا يختص ببذل المال ؛ فكل ما فيه صلاح للناس ولعامل الخير فهو خير سواء أكان قولاً أم فعلاً .. ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها (واستغفروا الله ان الله غفور رحيم) . من قصر وفرط في جنب الله فقد فتح له باب التوبة ، ومستحيل ان يخلق دونه باب المظفرة .

سُورَةُ الْمَدَّثَرِ

٥٦ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يا ايها المدثر الآية ١ - ١٠ :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ
فَأَهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ * فَإِذَا يُنْفَرُ فِي النَّاقُورِ *
فَذَلِكِ يَوْمِئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ *

اللفظ :

المدثر مثل المزمّل وهو الذي اشتمل بثيابه . وكل محرّم فهو رجز وقيل :
المراد به هنا الأصنام . والمن ذكر النعمة بما يكدرها . ومعنى تستكثّر تطلب الكثير
والمراد هنا لا تستكثّر ما أعطيت وبذلت . والناقور اسم الآلة التي ينقر بها أو عليها .

الإعراب :

ربك مفعول مقدم لكبّر ، ومثله ثيابك والرجز ، ودخلت الفاء على الفعل
لأن الكلام يتضمن معنى الشرط فكأنه قال : مهما يكن فكبّر الخ . وجملة تستكثّر

حال أي لا تمنن مستكثراً . فذلك مبتدأ، ويومئذ بدل منه ، ويوم عسير خبر، وعلى الكافرين متعلق بعسير ، وغير يسير خبر ثانٍ مؤكد للخبر الأول .

المعنى :

في هذه الآيات اشارة الى وظيفة محمد (ص) كرسول من الحق الى الخلق ، وفيها أيضاً اشارة الى ان جميع الناس سواء أمام الله تعالى ، وإليك التوضيح :

(يا أيها المدثر) هو الرسول الأعظم (ص) وقد خاطبه الجليل بهذا الوصف لأنه كان آنذاك مشتملاً بشيابه لسبب من الأسباب كما قلنا عند قوله تعالى : « يا أيها المزمل » . (قم فأنذر) . قد يكون للكلمة الواحدة معنى لغوي واحد ، ولكن هذا المعنى الواحد كثيراً ما يختلف باختلاف المتكلم والمخاطب - مثلاً - كلمة « أنذر » معناها في قواميس اللغة حذر وخوف ، فإذا قال قائل : رأيت شخصاً يضع لهماً في الطريق ، وقلت له : « أنذر » فان معنى قولك هذا: أعلن وخوف المارة من اللغم ، وإذا قلت : أنذر لفتية في قرية فاللغة علم أهلها أحكام الدين وخوفهم من مخالفتها ، أما قول علي الأعلى لنبيه الكريم : « قم فأنذر » فان معناه : نحدد الطغاة وتلق منهم الضربات .. معناه جابه بكلمة الحق الأقوياء وأهل الكبر والخيلاء ، وقل لهم : أنتم الضالون المفسدون ، وستعلمون ما يحل بكم من الخزي والهوان إذا لم تؤوبوا الى رشدكم ، وترجعوا عن غيكم ، قل لهم هذا وأكثر، واصبر على ما يصيبك منهم وسبح بحمد ربك واشكره أيضاً .

وإذا علمنا ان محمداً (ص) تحدى قريشاً ، وهم في أعلى ذروة من القوة ونفوذ الكلمة ، وهو أعزل من كل شيء إلا من الإيمان والاخلاص ، اذا علمنا ذلك تبين لنا ما أصابه منهم .. لقد وصفوه بالساحر والكاذب والشاعر بسل والمجنون أيضاً .. وأغروا به الأطفال يسخرون منه ويرشقونه بالحجارة ، وأغروا به النساء يضعن الشوك في طريقه، والسفهاء يلقون عليه القذارات والنجاسات حتى ان أحدهم نزع عمامة الرسول عن رأسه ، وشدها في عنقه . وفوق ذلك كله قررت قريش نبذ محمد وذويه وسجنهم في الشعب وحرمانهم من كل علاقة مع المجتمع ، ولما

أصر النبي (ص) على دعوته بالرغم مما لاقاه وقاساه حزبت قريش ضده الأحزاب ، وجيشت الجيوش لحربه .. فتحمل وثبت وصبر واحتسب تلبية لقوله تعالى : « يا أيها المدثر قم فأنذر » .

وبهذا يتضح ان وظيفة الرسول هي الانذار مع الصبر على متاعبه وأهواله ، هذا هو الأمر الأول ، أما الثاني أعني المساواة بين الناس أجمعين فيدل عليها قوله تعالى : (وربك فكبر) . اذا قلت لانسان عادي : كبر الله ، فهنا من قولك هذا انك ترغب اليه أن يقول : «الله أكبر» تماماً كما لو قلت له : صل على محمد ، أما قوله تعالى لنبيه الكريم : « وربك فكبر » بعد قوله : «قم فأنذر» فإن له معنى آخر أكبر وأضخم ، وهو اصرخ يا محمد في وجوه الجبابرة المتكبرين المتعاليين ، اصرخ بهم : ان العزة لله جميعاً ، وانه وحده الكبير المتعالي ، وان القوة والعظمة والسلطان للواحد الأحد لا شريك له من أحتكم ولا منك ولا من غيركم ، وان الناس كلهم متساوون في العبودية لله ، لا فرق بين اسود وابيض ، ولا بين غني وفقير .. واستجاب محمد لدعوة ربه ، وقال للطغاة فيها قال : «انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون - ٩٨ الأنبياء » .

(وثيابك فطهر) . وهذا أيضاً من متعلقات الدعوة والانذار .. وليس من شك ان نظافة البدن والثياب من الإيمان ، ولكن المعنى المراد هنا أعم وأشمل ، وهو ان يدعو الرسول الأعظم (ص) الى طهارة الظاهر من الأقدار ، والباطن من القبايح والردائل كالغدر والخيانة ، والرياء والنفاق ، والجهل والغرور ، وما الى ذلك من الذنوب والآثام .. وانما عبّر سبحانه عن ذلك بتطهير الثياب جرياً على عادة العرب ، فيقولون : فلان طاهر الذيل والاردان ، وهم يريدون طهارة القلب والذات .

(والرجز فاهجر) . قيل : المراد بالرجز كل قبيح ، وعليه يكون تفسيراً وتوضيحاً لقوله : « وثيابك فطهر » على ما ذكرناه من التفسير . وقيل : المراد به الشرك وعبادة الأوثان (ولا تمنن تستكثر) لك يا محمد حسنات كثيرة ، وفضل كبير على الناس ، ولكن لا تمنن بذلك على أحد ، فتقدر في نفسك انك أعطيت كثيراً ، ونقول : أنا فعلت وتفضلت ، فإن كل ما تبذله وتضحى به

هو فضل عليك من الله ، وكرامة خصك بها ، وأي فضل وكرامة أعظم من التوفيق الى عمل الخير ؟ . وسبق أكثر من مرة ان النهي يصح حتى ولو لم يكن المخاطب به عازماً على فعل النهي عنه ، بالاضافة الى ان أوامر الله ونواهيه نعم جميع عبادته حتى المتقين .. وفي نهج البلاغة : لا يستقيم قضاء الحوائج إلا بثلاث : باستصغارها لتعظم ، وباستكثامها لتظهر ، وبتمجيلها لتنهض .

(ولربك فاصبر) . وما أمر الله نبيه الكريم بشيء من تكاليف الدعوة والنبوة إلا وقرن ذلك بالأمر بالصبر - على ما قيل - لعلمه تعالى بأنه سيلاقى الأذى المرير من المتمردين والمعاندين (فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير) فإذا نقر في الناقور مثل : « فإذا نفخ في الصور - ١٠١ المؤمنون » ج ٥ ص ٣٩٠ ، وذلك اشارة الى يوم القيامة المفهوم من سياق الكلام .. بعد أن أمر سبحانه نبيه الكريم بالصبر على أذى المكذبين هددهم بيوم القيامة، وهو عليهم شديد وعسير لا يسر معه ولا بعده . وسبق الكلام في عشرات الآيات عما أعد الله في هذا اليوم للمجرمين من طعام وشراب ، وأليم العذاب .

ذرني ومن خلقت وحيداً الآية ١١ - ٣١ :

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً* وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً* وَبَيَّنَّ شُهوداً*
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً* ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ* كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً*
سَأْرِهْقُهُ صَعُوداً* إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ* فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ* ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ
قَدَّرَ* ثُمَّ نَظَرَ* ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ* فَقَالَ إِنْ
هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ* إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ* سَأُصْلِيهِ سَقَرَ* وَمَا
أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ* لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ* لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ* عَلَيْهَا تِسْعَةٌ

عَشَرَ* وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا
فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَنفِيزَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَيَرْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا
إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا
ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ*

اللغة :

مالا" ممدوداً أي كثيراً . وبين شهوداً حضوراً معه غير غائبين عنه . ومهدت
له بسطت له في الجاه والمال . وسأرقه صعوداً كناية عن شدة العذاب . وقدر
هياً ما يريد . وقتل لمن . وبسر ظهرت الكراهية على وجهه . ويؤثر يروى
ويُنقل . سألبيه سقر أدخله في جهنم . وعدتهم عددهم . والفتنة الاختبار والامتحان .
والذين في قلوبهم مرض المنافقون .

الإعراب :

وحيداً حال من مفعول ذرني . والمصدر من ان أزيد مجرور بفي مقدرة أي
يطمع في الزيادة . وصعوداً مفعول ثانٍ لأسرهقه . وكيف في موضع المفعول
المطلق لأن المعنى أي تقدير قدر . وأن هذا « ان » نافية . وما أدراك مبتدأ
وخبر . ومثله ما سقر . وعليها خبر مقدم وتسعة عشر مبتدأ مؤخر وبُني على
الفتح لمكان التركيب ، والتمييز محذوف أي تسعة عشر ملكاً أو صنفاً من الملائكة .

ملخص القصة :

كان الوليد بن المغيرة المخزومي من عتاة قريش وصناديدهم، وأكثرهم أموالاً وأولاداً ، وفي ذات يوم سمع رسول الله يقرأ آياً من القرآن الكريم ، فقال : ما هذا من كلام الانس ولا من كلام الجن ، والله ان له للحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه يعلم ولا يعلم عليه، فخافت قريش ان ينتشر قول الوليد فيؤمن الناس بمحمد (ص) فآلخوا على الوليد ان ينال من مقام الرسول ، فأجابهم : وماذا أقول عنه ؟ هل أقول : مجنون ؟ ومن يصدق ؟ أم أقول : كاهن وما تكهن قط ، أم أقول : شاعر ، وما نطق بالشعر ، أم كاذب وما جرب عليه أحد شيئاً من الكذب .. ثم فكر ملياً فلاح له أن يصف الرسول بالساحر ، وانه أخذ القرآن عن الكهنة والسحرة .

المعنى :

(ذرني ومن خلقت وحيداً) الخطاب لرسول الله (ص) والمراد به تهديد الوليد بن المغيرة بإجاعة المفسرين ، والمعنى دعني وإياه يا محمد ولا تهتم بشأنه ، ولا بما يفترى به عليك فأنا وحدي أتولى حربه والانتقام منه بأنواع العذاب والتنكيل .. لقد غضب سبحانه على الوليد ، وبلغ هذا الغضب أشده لأنه طغى وبغى ، وكفر بنعمة الله ، وأعرض عن الحق واستعلى عليه وعلى أهله .. وكل من عاند الحق فهو مقصود بهذا الغضب والتهديد تماماً كالوليد بن المغيرة لأن الوصف يُشعر بالعلية كما يقول أهل الأصول ، ولأن سبب النزول لا يخص عموم الآية ولا يتصرف في دلالتها كما أشرنا أكثر من مرة .

ويومئذ قوله تعالى : (وجعلت له مالاً ممدوداً) الى ان السبب الموجب والدافع على البغي والعدوان هو الثراء وكثرة المال ، والى هذه الحقيقة يشير العديد من الآيات ، منها قوله تعالى : « وذرني والمكذبين اولي النعمة - ١١ الزمل » وقوله حكاية عن طاغ يفخر على أحد الصالحين : « أنا أكثر منك مالا » - ٣٤ الكهف » وكفى شاهداً على ذلك قوله ، عز من قائل : « ان الانسان ليطغى

ان رآه استغنى - ٦ العلق .. واستناداً الى هذه الآيات وما اليها يمكن أن يقال - ولو من وجهة صناعية - : ان الأصل في كل غني أن يكون طاعياً حتى يثبت العكس ، وفي نهج البلاغة : ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله ، وأحسن منه تبه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله . وفي الحديث : طوبى لمن أسلم وكان عيشه كفافاً.. اللهم ارزق محمداً وآل محمد ومن أحب محمداً وآل محمد العفاف والكفاف .

(وبنين شهوداً) حاضرين معه يتسابقون الى خدمته (ومهدت له تمهيداً) . يسرت له سبيل الجاه والمال ، يتقلب في النعم كيف يشاء . وبهذه المناسبة نشير الى ان نعم الدنيا لا تدل على مرضاة الله ، قال سبحانه : « اما الحياة الدنيا لمو ولعب » . والى ما جاء في الحديث « لو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى فيها الكافر شربة ماء » . وقد عرضت على رسول الله خير خلق الله فابى أن يقبلها . أما الوليد بن المغيرة شر خلق الله فقد كثر ماله وامتد (ثم بطمع أن أزيد) أي الله في ماله ليزداد بغياً وعدواناً .. ومستحيل أن يجتمع الصلاح والطمع في قلب واحد، قال رسول الله (ص) : الطمع مفتاح كل معصية، ورأس كل خطيئة ، وسبب لاحباط كل حسنة .

(كلا انه كان لآياتنا عنيداً) . إخصاً أيها الجحود الخوون .. أنطمع في الله وأنت تعاند الحق ، وتصد عنه ، وتعلن الحرب على أهله !.. قال الرواة : ما نزلت هذه الآية حتى تبدل عز الوليد الى ذل : وغناه الى فقر ، ومات على أسوأ حال .. وصدق من قال : ما قال الناس لشيء طوبى له إلا وقد خبا له الدهر يوم سوء .. هذا في الدنيا ، أما جزاؤه في الآخرة فترسمه هذه الآية (سأرهقه صعوداً) . ويأتي الصعود بمعنى الشدة والمشقة ، وأيضاً يأتي بمعنى الارتقاء والزيادة ، وسياق الكلام يدل على المعنيين معاً ، وان العذاب يزداد كما وكيفاً آنأ بعد آن .

(انه فكر وقدر) . فكر في أمر القرآن ، وأجال فيه رأيه ، وهياً له قول الزور والافتراء ، وهو ان القرآن سحر يؤثر كما يأتي (فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر) . لئن ثم لعن في تفكيره وتقديره وأقواله وأفعاله وجميع مقاصده..

ولا شيء أبْلغ من تكرار اللعن على أهل البغي والعدوان (ثم نظر) بعد ان فكر
وقدر رفع بصره الى عتاة قريش (ثم عبس) قطب حاجبيه (وبسر) كَلَح
وجهه وتغير لونه (ثم أدبر واستكبر) . أيقن وهو يفكر أن القرآن حق لا ريب
فيه ، ومع هذا أعرض عن الحق واستعلى عليه (فقال إن هذا الا سحر يؤثر
ان هذا إلا قول البشر) أخذه محمد عن السحرة والكهنة .. وتدلنا هذه الصورة
التي رسمها القرآن للوليد ، وهي تفكيره وتقديره وعبوسه وبسوره ، تدلنا انه كان
نائهاً حائراً فيما يدبر من الكذب والباطل لما يعتقده حقاً وصدقاً .

(سأصليه سقر) ضمير أصليه يعود الى الوليد ، وسقر من أسماء جهنم (وما
أدراك ما سقر) . فانها بلغت من الهول حداً يفوق التصور ، من ذلك انها
(لا تُبقي) على أحد من المجرمين (ولا تذر) لوناً من ألوان العذاب إلا أنزلته
بهم (لواءة للبشر) . البشر هنا جمع بشرة ، وهي ظاهر جلد الانسان ، ومعنى
لواءة في الأصل مغيرة ، والمراد بها هنا النضوج لقوله تعالى : « كلما نضجت
جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » ٥٦ النساء .

(عليها تسعة عشر) . ضمير عليها يعود الى سقر ، والتسعة عشر خزنة
جهنم ، وهل المراد تسعة عشر فرداً أو نوعاً أو قائداً ؟ . الله أعلم . ويُروى ان
أبا جهل قال لقريش : ثكلتكم امهاتكم ، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد
من هؤلاء التسعة عشر ؟ فقال رجل يدعى أبو المشد : أنا أكفيكم سبعة عشر ،
فاكفوني اثنين فقط . قال هذا ساخراً كما سخر أبو جهل .

(وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) . ليس الخزنة من نوع البشر .. انهم
ملائكة شداد غلاظ ، لا يقوى عليهم إلا الواحد القهار الذي خلق كل شيء .
وكان سائلاً يسأل : ما هو القصد من ذكر العدد مع انه يفتح باب التضييل
والسخرية للجاحدين ؟ فأجاب سبحانه بأن لذكره فوائد ثلاثاً :

١ - (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) . أجل ، ان الله يعلم ان
المشركين متى سمعوا العدد ضحكوا واستهزأوا ومع هذا ذكره لإظهاراً للحق لأن
الحق يجب أن يعلن ويقال حتى ولو كان من نتائجه سخرية الساعين .. وبكلام
آخر ان الله سبحانه يختبر عباده ، وهو أعلم بهم من أنفسهم ، يختبرهم بالسراء

والضراء ، وأيضاً بقول الحق لنظهر أفعالهم التي يستحقون بها الثواب والعقاب ، وقد أظهر ذكر العدد المشركين على حقيقتهم من الاستخفاف بالغيب فاستحقوا غضب الله وعذابه كما أظهر المؤمنون حقيقتهم كذلك فاستحقوا مرضاة الله وثوابه، وتأتي الإشارة إليهم .. هذا ، الى ان اعلان الرسول لكلمة الحق غير مكثرت بما يلاقيه ويقاسيه من أجلها - دليل قاطع على انه لا يبتغي من ورائها إلا لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

٢ - (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) . لقد شهد علماء اليهود والنصارى آنذاك شهادة إيمان وإيقان ان عدة الخزنة تسعة عشر لأنه موافق لما قرأوه في التوراة والانجيل .

٣ - (ويزداد الذين آمنوا إيماناً) . الوحي بالغيب يزيد الكافر جحوداً وتمرداً ، والمؤمنين إيماناً وتسليماً . وقيل : ان المؤمنين يزدادون يقيناً اذا أخبرهم أهل الكتاب بأن العدد موجود في كتبهم .. والصواب ان كل آية من آياته تعالى تزيد المؤمنين يقيناً بالله ورسوله سواء اعترف أهل الكتاب أم جحدوا .. أجل ، ان اعترافهم حجة على الجاحدين .

(ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) . هذا توضيح وتأکید لما قبله لأن عدم الارتياب هو الاستيقان وزيادة الإيمان (وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً) . وأيضاً هذا توضيح وتأکید لقوله تعالى : « وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » مع التصريح بذكر صنف من الكافرين وهم المنافقون الذين في قلوبهم مرض . وتقدم مثله في الآية ٢٦ من سورة البقرة . (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) . من سلك طريق الضلال أضله الله : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم - ٥ الصف » . « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً - ١٠ البقرة » ومن سلك طريق الهدى هداه الله : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم - ١٧ محمد » . وتقدم مثله في العبدید من الآيات منها الآية ٨ من سورة فاطر (وما يعلم جنود ربك الا هو) جنود الله لا تنحصر بالتسعة عشر من الخزنة ولا بغيرهم ، فجميع الخلائق طوع ارادته حتى الوحوش والحشرات والطيور والرياح والزلازل والظوفان وما الى ذلك مما

لا يحيط به علماً إلا مبدئ الخلق ومعينه (وما هي إلا ذكرى للبشر) . ضمير هي يعود إلى سقر، وقد خلقها سبحانه وخوف منها لتقي معاصي الله في السر والعلانية .

وكنّا نخوض مع الخالطين الآية ٣٢ - ٥٦ :

كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحدى
الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ
نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ *
عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ *
وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نَكْذِبُ
يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ
عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ * كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * قَوَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ *
بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً * كَلَّا بَلْ لَا
يَخَافُونَ الْآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكِّرْهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ *

اللغة :

أُسفر أضاء وأشرق . والكُبر بضم الكاف جمع الكبرى والمراد بها هنا العقوبة
العظمى . والنخوض في الشيء الدخول فيه ، والمراد هنا الاكثار من كلام لاخير
فيه . والمراد باليقين هنا الموت . وحر بضمين جمع حار والمراد به هنا حار

سورة المدثر

الوحش . ومستنفرة نافرة . والقسورة الأسد : وقيل : المراد هنا الصيادون .
وأهل التقوى أي أهل لأن نتيجه ونخافه .

الإعراب :

كلا حرف ردع . والقمر الواو للقسم . والليل والصبح عطف على القمر
وجملة أنها لاحدى الكبر مجواب القسم . ونذيراً قال الفيضاني : هو تمييز أي
لاحدى الكبر انذاراً ، أو حال مما دلت عليه الجملة أي كبرت منذرة . ولمن
شاء بدل من للبشر بإعادة حرف الجر . والمصدر من ان يتقدم مفعول شاء أي
شاء التقدم أو التأخر . إلا أصحاب اليمين استثناء منقطع . ومعرضين حال من
الضمير في لهم . والمصدر من أن يؤتى مفعول يريد ، وصحفاً مفعول ثانٍ ليؤتى .
والضمير في أنه للقرآن المفهوم من سياق الكلام .

المعنى :

(كلا) . كفوا أيها المشركون عن اللعب بالنار والاستهزاء بها وتخزنتها (والقمر
والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر - أي أضاء - أنها لاحدى الكبر) . بعد ان
زجر سبحانه الجاحدين أقسم بالقمر والليل والنهار ان النار حق لا ريب فيه ،
وأنها العذاب الذي لا عذاب فوقه ولا مثله .. وفي القسم بهذه الكائنات إيماء الى
ان ذوي البصائر يستدلون بما فيها من بديع الصنع على وجود الصانع ، وان من
أوجدتها من لا شيء قادر على ان يحجب العظام وهي رميم (نذيراً للبشر لمن شاء
منكم أن يتقدم أو يتأخر) . حذر سبحانه العباد من النار ودلهم على طريقها ،
وقال لهم : اختاروا لأنفسكم الإقدام عليها أو البعد عنها ، وقد أعذر من أنذر .
(كل نفس بما كسبت رهينة) . هذا تعليل لقوله تعالى : ومن شاء منكم
أن يتقدم أو يتأخر ، والمعنى اختاروا لأنفسكم ، فأنتم مرتبون بما أسلفتم ، ومدينون
بما قدمتم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وتقدم مثله في الآية ٤٤ من سورة
الروم (إلا أصحاب اليمين) . يعتبر القرآن عن المتقين بأصحاب اليمين والممنة ،

وعن المجرمين بأصحاب الشمال والمثأمة . أنظر الآية ٩ و ٣٨ و ٤١ من سورة الواقعة . والمعنى ما من انسان إلا ونفسه أسيرة عمله إلا أهل التقوى والصلاح ، فلهم قد وفوا ديونهم وفكّوا نفوسهم من الأسر بصلاح الأعمال ، فجزاهم ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار .

(في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر) . بعد أن تطمئن الدار بأهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً : أين المجرمون الذين كنا نلاقي منهم الأمرين ؟ . فيطلعهم سبحانه على مكانهم في جهنم ليزدادوا سروراً كما في بعض الروايات ، فيسألونهم توبيخاً وتقريعاً : ما الذي أدى بكم الى هذا المثوى (قالوا) بلسان المقال أو الحال : (لم نك من المصلين) أي لم ننته في الدنيا عن الفحشاء والمنكر ، وقد أخذنا هذا التفسير من الآية ٤٥ من سورة العنكبوت : ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (ولم نك نطعم المسكين) . كانوا يكثرزون المال ولا ينفقونه في سبيل الله (وكنا نخوض مع الخافضين) . نستهن بكل شيء إلا باللهو واللعب ، وندخل كل مدخل إلا مداخل الحق والخير (وكنا نكذب بيوم الدين حتى اتانا اليقين) أي الموت .

قال الشيخ عبد القادر المغربي : « سمي يوم القيامة يوم الدين لأن فيه يقع الجزاء والحساب والقضاء والقهر ، كل هذا من معاني كلمة الدين ، ويسمى أيضاً يوم الدينونة أي الحشر والقضاء بين الناس ، والديان القهّار والمجازي والقاضي ، قالوا : « كان على بن أبي طالب ديان هذه الأمة بعد نبينا أي تفرد بمزية القضاء والخلق في فصل الخصومات بعد النبي (ص) » .

(فما تنفعهم شفاعة الشافعين) . لا شفيح يشفع ، ولا معذرة تنفع ، لا شيء إلا التوبة وصلاح الأعمال (فالهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) . ضمير لهم يعود الى المشركين ، والتذكرة القرآن ، والحمر هنا الحمر الوحشية ، والقسورة الأسد أو الرماة ، والمعنى ما شأن هؤلاء العتاة يفرون من الهدى والحق فرارهم من الموت ؟ .

(بل يريد كل امرئ منهم ان يؤتى صحفاً منشرة) . أي منشورة غير مطوية ، وجاء في بعض الروايات ان المشركين قالوا لرسول الله : « لن نؤمن لك حتى

سورة المدثر

ينزل على كل واحد منا كتاب يقول : الى فلان بن فلان: اتبع محمداً . وسواء أصبحت هذه الرواية أم لم تصح فإنها تفسر الآية بما دل عليه ظاهرها ، ويؤيد ذلك الآية ٩٣ من سورة الإسراء : « ولن تؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه » مع العلم بأنهم لا يؤمنون ولو استجاب الله الى طلبهم كما صرحت الآية ٧ من سورة الانعام : « ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » . والسر هو حرصهم على مصالحهم وامتيازاتهم ، وليس الحسد كما قال بعض المفسرين ، والدليل على ما قلناه قوله تعالى بلا فاصل : (كلا بل لا يخافون الآخرة) . لأنهم لا يعملون إلا للحياة الدنيا ، ولا يركنون إلا لترفها ولذاتها ، اما الانسانية ، اما الحق والخير فكلهم فارغ .

(كلا انه تذكرة) مرة ثانية يزجر سبحانه المكذبين . ثم يبين لهم ولغيرهم ان هذا القرآن هو موعظة من الله لعباده ، وما هو بقول ساحر ولا شاعر (فمن شاء ذكره) ، أي انتفع بأحكامه ومواعظه (وما يذكرون إلا ان يشاء الله) . وتسال : ان قوله تعالى أولاً : « فمن شاء ذكره » معناه ان الانسان مخير له حريته وارادته ، وقوله ثانياً : « وما يذكرون الا ان يشاء الله » معناه ان الانسان مسير لا حرية له ولا إرادة .. وهذا تناقض بحسب الظاهر، فبأي شيء تدفعه ؟.

الجواب : المراد بالمشيئة الأولى ان الله سبحانه بترك الانسان وما يختار لنفسه من الايمان والكفر ، والمراد بالمشيئة الثانية ارادة الله تعالى ارغام الانسان على الايمان وإلجأؤه اليه قهراً عنه ، وعليه يكون معنى الآيتين مجموعهما ان الله قد ترك الخيار للانسان في ان يؤمن أو يكفر ، كما في الآية ٢٩ من سورة الكهف : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ولكن الجحود العنود لا يؤمن بحال إلا اذا أجبره الله على الايمان ، وألجأه اليه رغماً عنه ، ولا يكون هذا أبداً لأنه مخالف لعقل الله وحكمته ، فإن عدله تعالى وسنته في خلقه أن يبين لهم طريق الخير ويرغبهم فيه ، وطريق الشر ويحذرهم منه ، ولكل أن يختار مصيره بنفسه وإلا بطل الثواب والعقاب ، ويؤيد هذا قوله تعالى بلا فاصل : (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) أي ان الله ، جلت عظمتة، هو أهل لأن يطاع في أوامره

الجزء التاسع والعشرون

ونواهي ، وان يُخشى من غضبه وعذابه، وأيضاً هو أهل لأن يرحم العباد ويغفر لمن تاب وأناب .

وبلفظ أقل وأوضح ان الله سبحانه خلق الانسان مختاراً ذاعقل وإرادة، وميَّزه بذلك عن الحيوان ، ولذا كلفه بالطاعة والاستقامة من دونه ، ولو شاء سبحانه لسلب الانسان ارادة العاقل ، وجعله كالحيوان أو أحمط منه .

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

٤٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نسوي بنائه الآية ١ - ١٩ :

لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ * وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ * أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ
أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ
الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ *
وَحُشِفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَإِنِّ
الْمَفْرُ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبِّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ
بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ *
لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ
فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ *

اللغة :

المراد بالنفس اللوامة وخز الضمير والوجدان ، وبأني البيان . والبنان الأصابع

أو أطرافها . يفجر أمامه أي يمضي قدماً في الفجور والمعاصي ولا يتوب الى الله . والمراد بـ برق البصر ما يصيبه من الزيف والكلال عند رؤية البرق اللامع . وخسف القمر ذهب نوره . لا وزر لا ملجأ . وبصيرة أي بصير وإهاء للمبالغة . ومعاذير اسم جمع معذرة وأعذار جمع عذر .

الإعراب :

لا أقسم ولا ، زائدة أو نافية للقسم حيث لا داعي له . انظر تفسير الآية ٧٥ من سورة الواقعة والآية ٣٨ من سورة الحاقة والآية ٤٠ من سورة المعارج . أحسب الهمة للانكار . وأن أي انه والمصدر المنسبك ساد مسد المفعولين ليحسب . وبلى ايجاب بعد النفي . وقادرين حال من فاعل نجح أي نجمها قادرين . ليفجر منصوب بأن مضمره والمصدر مفعول من أجله ليريد ، والمفعول به محذوف أي يريد الانسان الحياة من أجل الفجور . وأمامه نصب على الظرفية ليفجر . وأيان ظرف زمان بمعنى متى ، وهي خبر مقدم ويوم مبتدأ مؤخر . وأين ظرف مكان خبراً للمفر . وكلا حرف ردع . ووزر اسم لا والخبر محذوف أي لا وزر في الوجود . والانسان مبتدأ وبصيرة خبر وعلى نفسه متعلق ببصيرة .

المعنى :

(لا أقسم بيوم القيامة) أي أقسم به.. هذا اذا كانت اللام زائدة كما يرى أكثر المفسرين ، أو ان الأمر لا يحتاج الى قسم لأنه في غاية الوضوح .. اذا كانت اللام نافية لا زائدة كما يرى البعض . وفي الكلام حذف - على التقديرين - أي إنكم لمبعوثون خلقاً جديداً (ولا أقسم بالنفس اللوامة) . للمفسرين أقوال في معنى النفس اللوامة ، والذي نراه ان الانسان كثيراً ما يلوم ويؤنب نفسه بنفسه على ما فعل أو ترك بعد ان يتبين له ان الفعل أو الترك يضر به صحياً كأكلة منعه من أكالات ، أو صفقة بيع أو شراء جرت عليه خسارة لا يطيقها أو لا يريدتها ، وما الى ذلك من الأضرار التي لا تمت الى دينه وخلقه بسبب ، وهذا

المعنى غير مراد هنا من النفس اللوامة .. وقد يشعر الانسان بالندم والحسرة على ما فرط في جنب الحق ، وتهاون في عمل الخير ، سواء أفرط وتهاون عن عمد وعلم بأنه أثر العاجلة على الآجلة ، أم كان ذلك عن جهل وغير قصد ، ثم تبين له الحقائق كما هي حال الكافر في يوم القيامة ، وهذا المعنى بالذات هو المراد هنا من النفس اللوامة .

(أحسب الانسان ان لن نجعل عظامه بلى قادرين على ان نسوي بنانه) . قال منكرو البعث : مستحيل ان نحيا العظام وهي رميم .. قالوها بأساليب شتى ، وأجابهم سبحانه بثنى الأساليب ، من ذلك الآية التي نفسرها ، ومعناها ان الله هو الذي يجمعها ويحييها ، ولا غرابة فإن قدرته تعالى لا يعجزها شيء ، وفوق ذلك هو يعيد العظام تماماً كما كانت حتى أدقها وأصغرها حجماً كمعظم أصابع اليد ، فلنأثر ترجع لسابق عهدها ببشرتها ولونها وما عليها من شعرات ، بل وما فيها من خطوط وبصمات .. وذلك على الله سهل يسير لأن الذي أنفنها أول مرة ، وجعل بصماتها تختلف في كل فرد عن الآخر منذ أول انسان الى الانسان الأخير - يهون عليه أن يعيد الانسان الى سيرته الأولى بجميع صفاته وخصائصه ، لأن اختلاف خطوط الأصابع وبصماتها على هذا النحو أكثر وأقوى دلالة على قدرته تعالى من اعادة العظام والأموات .

(بل يريد الانسان ليفجر أمامه) . الفجور الذنوب والآثام ، وفي أمامه معنى الماضي والاستمرار ، وعليه يكون المراد بالانسان هنا المجرم الآثم ، ومجمل المعنى ان هذا الآثم يريد التبادي والماضي في فجوره وآثامه الى يومه الأخير ، ومن أجل هذا (يسأل) ساخراً في عتو وعناد : (ايان يوم القيامة) ؟ متى اوانه ؟ أقرب أم بعيد ؟

(فإذا برق البصر وخسف القمر وجمُع الشمس والقمر) . سأل المعاند : متى يوم القيامة ؟ فذكره سبحانه بأوصافه ، وهي أن يزيع البصر ، وينهب نور القمر ، ويصطدم بالشمس لخراب الكون وانقطاع نظامه (يقول الانسان يومئذ أين القمر) من هذه الكارثة ؟ هل من مغيث ؟ (كلا لا وزر) لا ملجأ ولا مفر (الى ربك يومئذ المستقر) فهو وحده مرجع العباد في ذاك اليوم ، والى

حكمه وأمره تخضع الخلائق (ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر) . المراد بما قدم ما فعل من خير وشر ، وبما أخر ما ترك من الواجبات المفروضة عليه ، والمعنى اذا وقف الانسان بين يدي خالقه لنقاش الحساب تكشف له جميع أعماله خيرا وشرها أولا وآخراها ، وأيضاً يتكشف له ما ترك من الواجبات المسؤول عنها (بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) على ان الانسان يعلم ما فعل وما ترك ، ولا يحتاج الى من يخبره بذلك ، يعلم حتى لو حاول أن يتنصل ويعتذر .

(لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه) الكلام مستأنف، على طريقة القرآن الكريم ينتقل من موضوع الى موضوع ، سواء أوجدت المناسبة أم لم توجد ، قال الامام الصادق (ع) : ان الآية الواحدة يكون أولها في شيء ، وآخرها في شيء آخر .. والخطاب في لا تحرك للرسول الأعظم (ص) . وضمير به وما بعده للقرآن ، وعلينا جمعه أي نجتمع القرآن في قلبك ، وقرآنه أي قراءته ، فإذا قرأناه أي فإذا انتهينا من قراءة القرآن فاشرع أنت بالتلاوة ، ومجمل المعنى اذا تلا عليك جبريل القرآن فلا تتابعه أنت في القراءة يا محمد مخافة أن يفوتك شيء منه ، فنحن نجعله بكامله في قلبك ، فإذا انتهى جبريل من القراءة باشر أنت بالتلاوة ، وعلينا ان نعصمك من النسيان والخطأ في تلاوته وبيان أحكامه والعمل به أيضاً . ونقدم مثله في الآية ١١٤ من سورة طه ج ٥ ص ٢٤٦ .

بل تحبون العاجلة الآية ٢٠ - ٤٠ :

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ *
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ *
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَتِ
السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلَا صَدْقَ وَلَا صَلَىٰ * وَلَكِنَّ

كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى * أُولَى لَكَ فَأُولَى * ثُمَّ أُولَى
لَكَ فَأُولَى * أَخْبَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ
مَنْيِّ امْرِئَةٍ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى *

اللفظ :

ناضرة بالضاد من النضرة وهي الحسن والجمال . وناظرة بالطاء من النظر وهو
الرؤية بالبصر أو البصيرة . وباسرة عابسة كالحة . وفاقرة داهية تكسر عظام
الظهر . والتراتق جمع ترقوة وهي عظم في أعلى الصدر . والراقي من يصنع الرقية .
التفت الساق بالساق كناية عن اشتداد الأمر ، ومنه قامت الحرب على ساق .
والمساق من يسوق أي حث بحث على السر . يتمطى يتبختر في مشيته تكسبراً
وخيلاء . أولى أحن وأجدر . وسدى مهملات . ويمنى يراق .

الإعراب :

وجوه مبتداً وناضرة خبر أول وناظرة خبر ثانٍ وإلى ربه متعلق به ، وجاز
الابتداء هنا بالنكرة لوجود الفائدة . ومن راق مبتداً وخبر . وأولى مبتداً ولك
خبر . وسدى حال من الضمير في يُترك . والذكر والأنثى بدل مفصل من مجمل ،
والمبدل منه الزوجان .

المعنى :

(كلا بل تحيون العاجلة وتذرون الآخرة) . الخطاب في تحيون لمن باع دينه
بدنياء ، وآثر الغانية على الباقية مسلماً كان أم غير مسلم ، والآية صريحة بذلك ولا تقبل التأويل .

(وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) . قال الإمامية والمعتزلة : ان الله سبحانه لا تجوز عليه الرؤية البصرية في الدنيا ولا في الآخرة ، وقالوا أيضاً : ان ناظرة هنا من رؤية البصيرة لا البصر ، أو من الانتظار بمعنى ان النفس تنتظر وترقب نعمة الله وكرامته ، وأجاز الأشاعرة الرؤية البصرية عليه تعالى ، وسبق لنا الكلام عن ذلك مفصلاً في ج ١ ص ١٠٧ بعنوان « رؤية الله » .. على ان البحث في هذا الموضوع وما اليه لا جدوى منه عامة ولا خاصة ، وربما أدى الى توسيع الشقة بين المسلمين ، والله سبحانه لم يكلف به أحداً ، ومهما يكن فإن المتقين يحشرون غداً في طاعة بهية مشرقة مستبشرين بما آتاهم الله من فضله (وجوه يومئذ باسرة تظن ان يفعل بها فاقرة) . أما المجرمون فعلى العكس تماماً من المتقين ، يحشرون في وجوه عابسة كالحية ، وقلوب تهتز رعباً وهلعاً من غضب الله وعذابه . وتقدم مثله في الآية ١٠٦ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٢٨ . (كلا اذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن انه الفراق) . هذه الآيات تصف حال المحتضر ، ونزول الموت به الذي لا ينجو منه نبي ولا شقي ولا صغير أو كبير . وابتدأ سبحانه بكلمة « كلا » حيث تقدم قوله : « بل نجون العاجلة وتذرون الآخرة » فتاسب الردع والزجر عن ذلك ، وفي بلغت ضمير يعود الى الروح التي دل عليها سياق الكلام ، والمعنى كُفَّ أيها المجرم عن الجرائم والآثام واثار الفانية على الباقية ، واذكر الموت هادم اللذات وقاطع الأمنيات ، اذكر نفسك الأخير حين تبلغ الروح الخلقوم ، وتشرف على الخروج من جسدك ، ويقول أهلك بعد العجز عن علاجك : هل من راق يرقيه . أو طبيب يداويه ؟ وأنت على يقين من أمرك وانه الموت الذي لا يغني منه علاج ولا دواء . (والتفت الساق بالساق) . تلتوي إحدى ساقى المحتضر على الأخرى من شدة الهول . وقيل : هذا كناية عن الأمر الشديد جرياً على طريقة العرب ، فإنهم يقولون عمن دهمته شدة : شمر لها عن ساق (الى ربك يومئذ المساق) . من مات فإلى الله متقلبه ، ولا طريق له إلا اليه .

ومن كلام الإمام علي (ع) بصف حال المحتضر : « فبينما هو يضحك الى الدنيا ، وتضحك اليه في ظل عيش غفول إذ وطئ الدهر به حنكه ، ونقضت الأيام قواه ، ونظرت اليه الحتوف عن كتب .. وفتر معله ، وذهل مرضه ،

سورة القيامة

وتعابا أهله بصفة دائه ، وخرسوا عن جواب السائلين عنه .. وان للموت لغمرات هي أظلم من ان تُستغرق بصفة أو تعتدل على قلوب أهل الدنيا . معنى تعتدل تستقيم بالادراك .

(فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب الى أهله يتمطى) . قال كثير من المفسرين : هذه الآية نزلت في أبي جهل ، وهي صورة طبق الأصل لصفاته ، لأنه ما صدق الرسول الكريم (ص) ولا صلى لله ولو بطريقة عين ، بل كذب الحق وشاغب عليه ، وأعرض عنه واستهزأ به ، وكان يذهب الى مجلس النبي (ص) ويستمع الى القرآن ، ثم يعود الى أهله متكبراً متبخراً في مشيته .. وأياً كان سبب النزول فإن ظاهر الآيات على عمومها يشمل كل من عاند الحق وتعالى عليه لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى) . الغرض من هذا التكرار الزيادة في التهديد والوعيد ، والمعنى الويل والعذاب أحق بك وأجدر بها الأليم .. وفي كثير من التفسير : ان رسول الله (ص) أخذ بيد أبي جهل وقال له : « أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى » . فقال اللعين : أتهددني يا محمد ؟ والله ما نستطيع أنت ولا ربك شيئاً ، والله لأننا أعز أهل هذا الوادي .. وكان النبي (ص) يقول : لكل أمة فرعون ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل .. وقد قتل يوم بدر شر قتلة . (أحسب الانسان أن يترك سدى) . لا نعرف أحداً يحسب ويظن انه غير مسؤول عن شيء بالغاً ما بلغ من الجهل والضلال .. ومن ظن هذا فقد ازرى بنفسه ، وأنزله منزلة الحشرات والحيوانات .. ولو ترك سبحانه الانسان سدى لكان عابثاً في خلقه لاعباً في أفعاله .. تعالى علواً كبيراً : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين - ١٦ الأنبياء » .

(ألم يك نطفة من مني يمى) ألم يكن منكر البعث ماء يصب في الرحم (ثم كان علقة فخلق فسوى) . تطورت النطفة خلقاً بعد خلق داخل ظلمات ثلاث ، ثم خرج منها إنساناً في أحسن تقويم بعد أن كان في أسفل سافلين (فجعل منه الزوجين الذكر والانثى) . ضمير منه يعود الى الانسان ، والمعنى ان الله سبحانه بعد ان جعل النطفة انساناً كاملاً أخرج منه أولاداً ذكوراً وإناثاً (ليس

الجزء التاسع والعشرون

ذلك) الإله الذي جعل من الماء المهين انساناً عجبياً في صورته وعقله ومواهبه ، وأخرج منه الذكور والاناث (بقادر على ان يحيي الموتى) بلى انه على كل شيء قدير .. وما من شيء في الوجود إلا وهو ينطق بقدرته ويسبح بحمده ، وليس خلق الانسان بشيء اذا قيس بخلق الكون : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٥٧ غافر » . تقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٥ من سورة الحج ج ٥ ص ٣١٠ .

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

٣١ آية مكية ، وقيل غير ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هل اتى على الانسان الآية ١ - ٦ :

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً *
إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً *
إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً *
إِنَّا أَعَدَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً *
إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً *
عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً *

اللغة :

أَمْشَاجٍ جمع مشيج وهو الخليط . نَبْتَلِيهِ نَحْنَبِرُهُ . هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ بَيَّنَّا لَهُ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ . وَأَعَدَدْنَا أَعَدَدْنَا .

الإعراب :

هل هنا بمعنى قد عند المفسرين . والسبيل مفعول ثانٍ لهديناه لأن المعنى عرفناه

أو أريناه . إما أداة تفصيل . وشاكراً وكفوراً حالان من هاء هديناه . وعيناً مفعول لفعل محذوف أي اعني عيناً . وقال صاحب مجمع البيان : الباء في « بهاء زائدة . وقال صاحب معني اللبيب : الظاهر أنها للالتصاق . ومعنى هذا ان شرب تتعدى بنفسها تارة مثل شربت الماء ، وبالباء أخرى مثل شربت بالماء .

المعنى :

(هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) . هذه الآية في صورة الاستفهام ومعناها التأكيد والتحقيق ، والغرض منها أن يفكر الانسان ويرجع الى عقله ويسأله عن القدرة التي أتت به من العدم، ومن أي شيء أوجدته؟ وكيف انتقلت به من طور الى طور ؟ وإلى أين المصير ؟ وفي هذا يقول الإمام علي (ع) : رحم الله امرأ عرف من أين ، وفي أين ، وإلى أين ، هذا هو الغرض الذي تهدف اليه الآية ، وفيما يلي نعرض بإيجاز الى ما أشارت اليه هذه الآية وما بعدها من مراحل التطور لوجود الانسان ، أما في أين وإلى أين فقد سبق الكلام عنها عند تفسير آيات الدنيا والآخرة :

١ - (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) . مضى دهر طويل لم يكن للانسان فيه عين ولا أثر ، ومثله : « أولاً يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً - ٦٧ مريم : ج ٥ ص ١٩٢ . وقال اهل الاختصاص : ان الانسان وجد على هذه الكرة الأرضية منذ ٥ آلاف مليون سنة.. » وربك اعلم بمن في السموات والأرض - ٥٥ الاسراء .

٢ - ثم خلق سبحانه آدم أباً البشر من تراب « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب - ٥٩ آل عمران . » وبهذا انتقل الانسان من مرحلة بائدة الى وجود ترابي جامد لا حياة فيه ولا نمو .

٣ - (انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه) . هذه اشارة الى انتقال الانسان من الوجود الترابي الى الوجود المسائي ، وهو نطفة تتكون من عناصر شتى أشار اليها الإمام (ع) بقوله : « معجوناً - أي الانسان - بطينة الألوان

سورة الانسان

المختلفة ، والأشياء المختلفة ، والأضداد المتعادية ، والاخلاط المتباينة . ومن آثار طينة الألوان المختلفة ما نراه في الانسان من سواد العينين وبياض الوجه، ومن آثار الأشياء المختلفة عظام الساعدين والساقين ، ومن آثار الأضداد المتعادية الحب والبغض ، والطمع والقناعة ، والتواضع والتكبر ، وصراع العقل والشهوة ، وما الى ذلك ، وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : « نبتله » حيث يلاقى الانسان العناء المرير من الصراع بين ضميره ونزواته .

٤ - (فجعلناه سمياً بصيراً) . هذه اشارة الى انتقال الانسان من النطفة التي دبت فيها الحياة بمرور الأيام وهو في بطن أمه ، انتقاله من ظلمة البطن حيث لا سمع ولا بصر الى القضاء مع السمع والبصر ، ولكن بلا عقل وإدراك تماماً كالحیوان .

٥ - (انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً) . يشير سبحانه الى انتقال الانسان من الحياة الحيوانية الى الحياة الانسانية أي بعد أن تم تكوينه الجسدي وحواسه الظاهرة منحه الله سبحانه العقل والادراك ليميز بين الحق والباطل، والهدى والضلال ، وأيضاً منحه الحرية ليكون بعقله وحرية أهلاً لتحمل المسؤولية ، واستحقاق الثواب والعقاب - طبعاً - بعد البيان وإلقاء الحجة، وعبر سبحانه عن الهدى بالشكر لأنه طاعة لله ، وعن الضلال بالكفر لأنه معصية له .

ورغبة في زيادة التوضيح نشير الى المقارنة بين الانسان وغيره من الكائنات الأرضية بوجه عام .. تنقسم هذه الكائنات الى جامدة لا حياة فيها ولا نمو كالتراب والصخور والمعادن ، والى كائنات حية ، والحياة فيها على ثلاثة أقسام : حياة نباتية ، ومن خصائصها الحركة والنمو بلا احساس وإدراك ، فالنبات يتحرك وينمو ، ولكنه لا يحس ويشعر ، ولا يسمع ويبصر . القسم الثاني الحياة الحيوانية، ومن صفات الحيوان الحركة والنمو والاحساس والشعور والسمع والبصر من غير تعقل وإدراك - في الغالب - أو ادراك الجزئيات دون الكلّيات . القسم الثالث: الحياة الانسانية ، ومن صفات الانسان أن يتحرك وينمو ويسمع ويبصر وفوق ذلك يدرك الجزئيات والكلّيات ، ويعرف الكثير عما كان ويتنبأ بالكثير عما يكون ، وبهذا الادراك ، وهذه المعرفة امتاز عن سائر الكائنات الأرضية .

— اذن — يلتقي الانسان مع الجهاد لأنه كان تراباً ، واليه يؤول ، وأيضاً كل منها جسمٌ مُحسٌ ويُلَمَس ، وأيضاً يلتقي مع النبات لأنه كان في بطن أمه كالنبات ينمو ويتحرك ، ولكنه لا يسمع ولا يبصر ، يلتقي الانسان مع الحيوان لأنه كان في طفولته مُحسٌ ويشعر ويسمع ويبصر ولكنه لا يعقل تماماً كالحيوان ، ثم اُفترق عنه بالعقل والادراك ، ومن هنا كان أهلاً لتحمّل المسؤولية ، واستحقاق الثواب والعقاب من دون الحيوان .

وهنا يأتي التساؤل : من الذي نقل الانسان من المرحلة البائدة الى الوجود الترابي الجاهل ، ومنه الى النباتي النامي المتحرك ، ثم الى الحيواني السميع البصير ، ثم جعله انساناً سوياً بحسبه وعقله يخبر عن الماضي ويتنبأ بالمستقبل ، ويخلق الحضارات ، ويتحكم بكثير من الكائنات ، حتى بالحيوان السميع البصير ، ويسأل عما يفعل ، ولا يسأل غيره عن شيء ؟ وهل من تفسير لهذا وغيره مما لا يبلغه الاحصاء إلا التفسير بوجود خالق قادر أعجز الأوهام أن تدركه ، والألسنة أن تصفه ؟.

وبعد أن أشار سبحانه الى مسؤولية الانسان بقوله : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » بعد هذا ذكر ما أعد للكافرين : (إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً) . السلاسل للأرجل ، والأغلال للأيدي ، والحريق للأجسام (ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً) . تطلق الكأس على زجاجة الشراب ، وعلى الشراب نفسه ، وهذا المعنى هو المراد هنا . وقال كثير من المفسرين : ان لشراب أهل الجنة رائحة طيبة كرائحة الكافور ، ونقول نحن : ان المزج بالكافور حقيقة كما دل ظاهر الآية ، وإذا كان طعم الكافور في الدنيا كريهاً فليس من الضروري أن يكون في الجنة كذلك ، فخمرة الدنيا توجب الصداع والأوجاع ، وخمرة الجنة لا فيها غول ولا هم عنها يتزفون — ٤٧ الصافات — . قال ابن عباس : كل ما ذكره الله في القرآن مما في الجنة فليس منه في الدنيا إلا الاسم .

(عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً) أي تجري حيث يشاءون بدون آلة ، بل بمجرد المشيئة .. وتقدم العديد من الآيات التي وصفت ما أعده الله

لعباده المتقين ، وانهم ينتعمون فيما لم تره عين ، ولم تسمعه اذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، وان المجرمين يتعذبون فيما يفوق الوصف والتصور .

ويطعمون الطعام على حبه الآية ٧ - ٢٢ :

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ
عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ
جَزَاءً وَلَا شُكْرًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبَّوسًا قَمْطَرِيرًا *
فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا
صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَكَبِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا
شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَيْدِيهِمْ تَحِيَّةً *
وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَاتِهِ مِنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا * قَوَارِيرَ
مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا *
عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ
حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْشُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا *
عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَّاهُمْ
رُبَّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ
مَشْكُورًا *

اللغة :

مستطيراً فاشياً منتشرأ . عبوساً أي تعبس فيه الوجوه . قطريراً شديداً مظلماً .
نضرة حسنة . وأرائك جمع أريكة وهي السرير . وزمهريراً برداً شديداً . ودانية
ناعمة . وأكواب جمع كوب وهو قدح لا عروة له ولا خرطوم . وقوارير جمع
قارورة وعاء من الزجاج . وقال الشيخ المغربي في تفسير جزء تبارك : الزنجبيل
عروق نبات يشبه القصب . والسلسيل سهل المساغ والانحدار في الحلق . والسندس
ضرب من الحرير الرقيق . والاستبرق الغليظ منه .

الإعراب :

يوماً مفعول به على حذف مضاف أي عذاب يوم . وعلى حبه متعلق بمحذوف حالاً
من فاعل يطعمون أي كائنين على حبه . ونضرة مفعول ثانٍ للفتاهم لأن المعنى
أعطاهم . ومتكئين حال من مفعول جزاهم . ودانية عطف على متكئين . وظلالها
فاعل دانية . قواريرأ الأولى بالتونين مع أنها لا تنصرف لأنها رأس آية لتناسب
مع « تذليلأ » و « تقديراً » . وقوارير الثانية بدل من الأولى . وعيناً بدل من
زنجبيل . ثم ظرف بمعنى هناك . وفي تفسير البيضاوي وغيره ان عليهم حال
من الضمير في « عليهم » وثياب فاعل عليهم لأن المعنى تعلوهم ثياب
سندس .

المعنى :

بعد ان أشار سبحانه الى بعض ما أعدّه غداً للأبرار - قال : استحقوا ذلك
لصفات ثلاث :

١ - (يوفون بالنذر) . والنذر في اللغة الوعد ، وفي الشرع ان يلزم
البالغ العاقل نفسه بفعل شيء أو تركه لوجه الله ، على أن يكون الفعل أو الترك
له فيه رضى .. والا يكون الكلام هذراً لا نذراً عند أهل النظر والتحقيق ،

وصيغة النذر أن يقول الناذر : علي الله ، أو نذرت لله كسدا . ولا يقع النذر مجرداً عن ذكر الله أو أحد أسمائه الحسنی كالرحمن والخالق والمحيي والمميت، فلو قال : نذرت لأفعلن كذا كان لغواً ، والعهد في اصطلاح كثير من الفقهاء أن يقول المعاهد : أعاهد الله أو علي عهد الله كذا ، واليمين هو الحلف بالله . وتقدم الكلام عن اليمين عند تفسير الآية ٨٩ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٢٠ والله سبحانه يحب ويثيب كل من صدق وأحسن في فعل أو قول سواء أكان القول وعداً أم عهداً أم نذراً أم يميناً أم شهادة أم خبراً من الأخبار .

٢ - (ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) . يطيعون الله في كل شيء خوفاً من يوم يعم شره العظيم كل من عصى الله وخالفه في حكم من أحكامه .

٣ - (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً) . يذلون كل عزيز وهم في أشد الحاجة اليه ، ومثله : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - ٩ المحشر » . والمسكين البائس العاجز ، واليتيم من لا كفيل له ، أما الأسير فقيل : ان المراد به هنا من أسره المسلمون بالحرب مع أعداء الله والاسلام ، وروي ان الصحابة كانوا اذا أتوا رسول الله (ص) بأسير من أعداء الله وأعدائه دفعه الى بعض المسلمين وقال له : أحسن اليه ، فيأخذنه الى بيته ، ويؤثره على نفسه وأهله .

(انما نطمعكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قطريراً) . لا نريد مكافأة منكم ولا من غيركم ، وانما نطمع ونبلل بدافع التقرب الى الله ، والخوف من يوم تفحص فيه الأعمال ، وتكثر فيه الأحوال .. قالوها بلسان الحال لا بلسان المقال أو قالها الله عنهم علماً منه تعالى بما في قلوبهم من الايمان والاخلاص (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً) . خافوا يوم المحشر ، فاتقوا شره بطاعة الله والاخلاص له، فبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، فأشرقت وجوههم بنور البشر والفرحة (وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً) . صبروا على الجوع وجهده ليشبع غيرهم فكان ثوابهم عند الله جنة فيها ما تشتهي الأنفس وتلد الأعين .

وفي كثير من التفسير ان هذه الآيات نزلت في حق الإمام علي بن أبي طالب، ونسبت منها عبارة الرازي بنصها :

« ذكر الواحد من أصحابنا - أي السنة - وصاحب الكشاف من المعتزلة : ان الحسن والحسين (ع) مرضا فعادهما الرسول (ص) في أناس معه ، فقالوا : يا أبا الحسن لو نزلت على ولدك ، فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما ان شفاهما الله تعالى أن يصوما ثلاثة أيام فشفا ، فاستقرض علي ثلاثة اصوع من شعير ، فطحنت فاطمة صاعاً ، واختبرت خمسة أقراص على عدهم، ووضعوا بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال : السلام عليكم يا أهل بيت محمد ، مسكين أطعموني ، أطعمكم الله من الجنة ، فآثروه ولم يلقوا إلا الماء، وأصبحوا صائمين ، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف يتيم فآثروه ، وجاءهم أسير في الليلة الثالثة ، ففعلوا مثل ذلك ، فلما أصبحوا أبصرهم رسول الله يرتعشون كالنصارخ فقال : ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم ، فنزل جبريل وقال : خذها يا محمد هنالك الله في أهل بيتك ، فاقرأ هذه السورة » .

(متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) . ضمير «فيها» للجنة ، والأرائك السرر ، والشمس كناية عن الحر ، والزمهرير البرد ، والمعنى واضح . وتقدم مثله في الآية ٣١ من سورة الكهف (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً) . جاء في كتب اللغة ان دانية تكون بمعنى قريبة ، وبمعنى ناعمة ، وهذا المعنى يناسب الظل وهو القبيء ، وأيضاً يناسب كلمة « عليهم » ولو كان المعنى قريبة لقال تعالى « اليهم » . وتذليل العناقيد معناه انها في متناول الأيدي لا يحول دونها حائل . وتقدم مثله في الآية ٢٣ من سورة الحاقة .

(ويطاف عليهم بأنيسة من فضة وأكواب كانت قواريراً قوارير من فضة قدروها تقديرأ) . واو الجماعة في قدروها تعود الى متكئين ، وهم أهل الجنة تماماً مثل وار « لا يرون فيها » وعليه يكون المعنى ان صفة الأكواب لوناً وحجاً هي كما يشاء أهل الجنة ، وكما قدروها في نفوسهم وتصوروها في أذهانهم .

وذكر المفسرون سؤالاً حول هذه الآية ، وهو ان قوارير جمع قارورة ، وهي وعاء الزجاج فكيف يتفق هذا مع قوله : « من فضة » ؟ وهل يستقيم قول

سورة الانسان

القاتل : الزجاج من فضة والماء من التراب ؟.

وأجابوا بأن معدن الأكواب من فضة ، ولكنها رقيقة شفافة كالزجاج ينفذ فيها البصر كما ينفذ فيه .

(ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً) . وهو عرق لبعض النباتات ، قال المفسرون : كان العرب يحبون جعل الزنجبيل في المشروب ، ولذا وصف سبحانه به شراب أهل الجنة (عيناً فيها تسمى سلسيلاً) ماؤها عذب فرات سالف للشاربين (ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً) . هم في جالهم ونضارتهم كاللؤلؤ المنثور ، وفيه إيماء الى كثرة الخدم ووجودهم هنا وهناك (وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً) . اذا دخلت الجنة رأيت مالا اذن سمعت ولا عين رأيت ولا خطر على قلب بشر (عليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) يلبسون الحرير الرقيق والغليظ ، أيضاً يصفون في أيديهم أساور فضة ، ويشربون طيباً طاهراً . وتقدم مثله في الآية ٣١ من سورة الكهف (ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً) . بعد تلك الكرامة يقال لهم : هذه مكافأة على أعمالكم التي شكرها الله لكم بالثواب وحسن المسأب . وتقدم مثله في الآية ١٩ من سورة الاسراء .

ان هؤلاء يحبون العاجلة الآية ٢٣ - ٣١ :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كَفُورًا * وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا قَلِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا

أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا *
وَمَا تَفْسَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ
يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *

اللغة :

بكرة وأصيلًا صباحاً ومساءً . فاسجد له صلّ له . وسبحه تهجد لله .
يلتزمون وراءهم أي بطرحونه خلف أظهرهم ولا يكثرنون به . والمراد بأسر ، هنا
الخلق .

الإعراب :

آثَمًا أو كفوراً دأوه للتبوية أي لا تطع أحدهما . ويوماً مفعول به يلتزمون ،
والظالمين مفعول لفعل محذوف أي ويعذب الظالمين .

المعنى :

(إنا نحن نزلنا عليك - يا محمد - القرآن تنزيلاً) . وهو حق لا ريب
فيه ، وقد وعدناك بالنصر ، شريطة أن تصبر على أذى المعاندين وصددهم عن
سبيل الله (فاصبر لحكم ربك) . وحكمه تعالى أن تجري الأمور على سنتها
الطبيعية ، وإن توجد في أوقاتها المعينة ، فالطريق إلى الهدى لمن رغب فيه هو
النصح والارشاد ، وطريق النصر الصبر في الكفاح والجهاد (ولا تطع منهم آثَمًا
أو كفوراً) فيما يحاولونه منك ، ويساومونك عليه ، وقد كان المشركون يعرضون
على الرسول الأعظم (ص) المال والنساء والرياسة على أن يترك الدعوة إلى الله ،
يفرض ويأبى ، وفي النهي عن طاعة الآثَم والكفور إيماء إلى ذلك ، والمراد

بالآثم كل من اكتسب لاثماً ، وبالكفور كل جاحداً ، وقال جماعة من أهل التفسير : ان المراد بالآثم هنا عتبة بن ربيعة لأنه كان منغمساً في الشهوات ، وبالكفور أبو جهل أو الوليد بن المغيرة .. وأياً كان سبب النزول فإنه لا يخصص عموم اللفظ .

(واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً) . كن مع الله في جميع أمورك وأوقاتك ، ولا تأخذك فيه لومة لائم . وتقدم مثله في الآية ٤٢ من سورة الأحزاب (ومن الليل فاسجد له) . صل لله في جزء من الليل (وسبحه ليلاً طويلاً) . تهجد لله في الليل أمداً غير قصير ، والأمر هنا للاستحباب لقوله تعالى : « ومن الليل فتعبد به نافلة لك » - ٧٩ الإسراء « (ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً) . هؤلاء إشارة الى المشركين والى كل من أحب الدنيا وتولاها ، وأبغض الآخرة وعادها ، ووصف سبحانه يوم القيامة بالثقل لأنه يوم عسير على الكافرين غير يسير .

(نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) . الله سبحانه هو الذي أوجدهم من العدم ، وصورهم فأحسن صورهم ، فكيف أنكروه وعصوا أمره ونهيه ؟ (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً) . هذا تهديد ووعيد للمكذبين بأن الله قادر على أن يهلكهم ويستخلف مكانهم قوماً آخرين أفضل وأكمل . وتقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة محمد (ان هذه تذكرة) . هذه اشارة الى السورة التي نحن بصددھا ، وهي بما فيها من ترغيب وترهيب عظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (فن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً) وما تشاءون إلا أن يشاء الله) . بين سبحانه للانسان طريق الخير والشر ونهاه عن هذا وأمره بذلك وتركه وما يختار لنفسه .. ولكن المعاند لا يفعل الخير إلا إذا أجبره الله عليه ، وألجأه اليه ، وهذا لن يكون لأنه مخالف لعده تعالى وحكمته وسنته في خلقه . انظر تفسير الآية ٥٦ من سورة المدثر فانه أوسع وأوضح .

(ان الله كان عليماً حكيماً) . عليم بأحوال عباده ، حكيم لأنه لا يأمرهم إلا بما فيه الخير والصلاح ، ولا ينهاهم إلا عما فيه الشر والفساد (يدخل من يشاء في رحمته) . المراد بالرحمة هنا الجنة ، وقد اقتضت حكمته تعالى ومشيئته

الجزء التاسع والعشرون

أن لا يدخل الجنة أحداً إلا بالجد والعمل ، والآيات كثيرة وواضحة الدلالة على ذلك ، منها قوله تعالى : ه أم حسبم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين - ١٤٢ آل عمران .. وكيف يشاء سبحانه أن يدخل الجنة من ليس لها بأهل ، وقد أخرج منها آدم لما عصى ربه فغوى ؟ (والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً) . للمتقين رحمة الله وجزائه : وللمجرمين غضبه وعذابه .

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

٥٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والمرسلات عرفاً الآية ١ - ٢٨ :

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ
فَرَقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعُ *
فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا
الرُّسُلُ أُقْتَتَتْ * لَأَيُّ يَوْمٍ أَجَلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمُ
الْفَصْلِ * وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نُحْمِلْكَ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُنْفِخُهُمْ
الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ تَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ
نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ *
فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ
كَفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَاخِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ
مَاءً فُرَاتًا * وَيَلُ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ *

المعنى :

تعرض هذه السورة جانباً من مشاهد اليوم الآخر ، وتحذر المجرمين والمكذابين من عذابه وأهواله ... وتقدم ذلك في عشرات الآيات ، ومن أجل هذا تقتصر على التفسير اللغوي ، ونعرب بعض ما يحتاج الى الاعراب من الكلمات جامعين بين اللغة والإعراب في فقرة واحدة على خلاف عادتنا في سائر السور .

(والمرسلات عرفاً) . قيل ، هي الملائكة . وان المراد بالعرف المعروف وانه مفعول من أجله للمرسلات ، والمعنى ان الله يرسل ملائكته من أجل تبليغ الوحي للأنبياء وغير ذلك من الخيرات . وقيل المراد بالمرسلات الرياح ، وبالعرف التابع . وقد نصب على الحال ، والمعنى يرسل الله الرياح متتابعة (فالعاصفات عصفاً) . السريعات في السير ، يقال : عصفت الناقة براكبها اذا أسرع به ، وعصفاً مفعول مطلق للعاصفات (والناشرات نشرأ) . تنشر الرياح السحب في الفضاء ، أو تنشر الملائكة رحمة الله في خلقه (فالفارقات فرقاً) . تنزل الملائكة بآيات الله التي تفرق بين الحق والباطل ، أو ان الرياح تفرق الأمطار في أنحاء الأرض (فالملقيات ذكراً أو نكراً) . ذكراً مفعول به للملقيات ، وعكراً أو نكراً مفعول من أجله ، وقيل : يدل من الذكر، والأول أقرب الى الصواب ، لأن المعنى ان الله سبحانه يرسل ملائكته بالوحي لينذر به العباد ، ولا يكون لهم عليه الحجة . وقيل : ان المراد بالملقيات الرياح ، وبالذكر المطر لأنه يذكر بالله ورحمته ، فالؤمن يشكر الله حين يتزل المطر ويعتذر عما سبق منه من التقصير ، والكافر يزداد طغياناً لأن المطر يزيد من ثرائه ، وبالتالي يكون المطر أو الرياح نذيراً له بعذاب أليم .

هذا ملخص ما قاله المفسرون حول هذه الكلمات أو الآيات الخمس ، ولكل وجه ، لأن الله يرسل الرياح كما جاء في الآية ٥٧ من سورة الأعراف : « وهو الذي يرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته » أيضاً يرسل الملائكة كما جاء في الآية ٧٥ من سورة الحج : « الله يصطفني من الملائكة رسلاً » . ومما يكن فما نحن بمسؤولين عن هذا البحث امام الله ، ولا تمت معرفته الى حياتنا بسبب ، فالأولى أن تترك ذلك لعلمه تعالى مؤمنين بأنه هو وحده مسبب الأسباب .

سورة المرسلات

(انما توعدون لواقع) . الموعود به هو يوم القيامة ، و « انما » كلمتان « ان » و « ما » الموصولة وهي اسم ان وتوعدون صلة وواقع خبر « ان » ، والجملة جواب القسم ، والمعنى ان الساعة آتية لا ريب فيها (فإذا النجوم طمست) . ذهب ضوءها (واذا السماء فرجت) انفتحت كواكبها (واذا الجبال نسفت) . صارت هباء وذهبت مع الريح (واذا الرسل أقتت) من التوقيت ، والرسل الملائكة ، وقد جعل الله لها وقتاً معلوماً تحضر فيه لتشهد على العباد ، ثم تسوق المتقين زمراً الى الجنة ، والمجرمين زمراً الى جهنم (لأي يوم أجلت) تلك الرسل ؟ (ليوم الفصل) بدل من لأي يوم بإعادة حرف الجر ، والاستفهام لتفخيم اليوم وشدة أهواله ، وسمي بيوم الفصل حيث يفصل فيه بين الناس بالحق بلا إجحاف ومحابة (وما أدراك ما يوم الفصل) . ما الذي تعرفه عن هذا اليوم الذي لا يقاس بهوله هول ؟ (ويل يومئذ للمكذبين) . هذا تهديد ووعيد لمن كذب بيوم الدين ، وأيضاً لمن آمن به ولم يعمل له .

(ألم نهلك الأولين) كفوم نوح لأنهم كذبوا رسولهم (ثم ننجيهم الآخرين) كفوم لوط (كذلك فعل بالمجرمين) الذين كذبوا محمداً (ص) لأن السبب واحد ، وهو الإعراض عن الحق (ويل يومئذ للمكذبين) تكررت هذه الآية عشر مرات تبعاً لاختلاف معنى الآية التي قبلها (ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين الى قدر معلوم فقدرناه فنعم القادرون) . أنتكرون البعث وتقولون : من يحيي العظام وهي رميم ؟ وأنتم تعلمون ان الله أنشأكم من ماء حقير ، وأودعكم في ظلمات ثلاث أمداء معيماً يتقلبكم فيه من خلق الى خلق ، وحدد هذا الأمد في منتهى الدقة والحكمة .. أبعد هذا كله تكفرون بأنهم الله ، وتكذبون بقدرته على البعث والحساب والجزاء ؟ .

(ألم نجعل الأرض كفافاً أحياء وأمواتاً) ؟ . كفات جمع كفت ، وهو الوعاء ، وقد شبه سبحانه الأرض بالأوعية ، والخلق بما تضمه الأوعية ونجمه ، والمعنى ان الأرض تضم الخلائق أحياء على ظهرها ، وأمواتاً في بطنها .. والأرض مفعول أول لنجعل ، وكفافاً مفعول ثانٍ ، وأحياء وأمواتاً حال من مفعول فعل مقدر أي تكفنتهم الأرض أحياء وأمواتاً ، وقيل : مفعول (وجعلنا فيها رواسي شامحات)

جبالاً ثابتات عاليات كيلا تميد بكم (وأسقيناكم ماء فراتاً) عذباً ، وهو حياة لكم وللأرض ، ففضيض عليكم بالخيرات والبركات .

الى ظل ذي ثلاث شعب الآية ٢٩ - ٥٠ :

انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب *
لا ظليل ولا يغني من اللهب * انها ترمي بشرير كالقصر * كأنه
جمالة صفر * ويل يومئذ للمكذبين * هذا يوم لا ينطقون * ولا
يؤذن لهم فيعتذرون * ويل يومئذ للمكذبين * هذا يوم الفصل
جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيّدون * ويل يومئذ
للمكذبين * إن المتقين في ظلال وعيون * وفواكة مما يشتهون *
كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * إنا كذلك نجزي المحسنين *
ويل يومئذ للمكذبين * كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون * ويل
يومئذ للمكذبين * وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون * ويل يومئذ
للمكذبين * فبأي حديث بعده يؤمنون *

المعنى :

(انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون) . كذبوا بعذاب الله ، بل سخروا منه
ومن توعدهم به .. وغداً نقول لهم زبانية جهنم في سخرية وتهكم تماماً كما تهكموا
من قبل برسلهم ، نقول لهم : اذهبوا الآن الى ما كنتم تهزؤون (انطلقوا الى

سورة المرسلات

ظل ذي ثلاث شُعب) من دخان جهنم : شعبة تظللهم من فوق رؤوسهم، وثانية عن يمينهم ، وثالثة عن شمالهم (لا ظليل ولا يغني من اللهب) . هو ظل ، ولكنه لا يقي المستظّلين به من عذاب الحريق ، بل يزيدهم عذاباً على عذاب ، ومثله « وظل من يحوم لا بارد ولا كريم - ٤٤ الواقعة » . (انها ترمي بشر كالقصر كأنه جالة صفر) . ضمير انها يعود الى جهنم ، وجمالة جمع جمل ، والمعنى ان شر جهنم يتطاير ويعلأ الفضاء ، وكل شرارة كالقصر حجماً، والجمل الأصفر لوناً .

(هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون) . الضمير للمجرمين.. وللعباد يوم القيامة مواقف يؤذن لهم بالكلام في بعضها دون بعض . انظر تفسير الآية ٦٥ من سورة يس ج ٦ ص ٤٢١ . وقيل في معنى الآية : ان المجرمين لا ينطقون بما ينفعهم ، ولا عذر لهم عند الله (هذا يوم الفصل) يفصل فيه بالحق بين الخلاق (جمعناكم والأولين) من المجرمين أمثالكم وحشرناكم جميعاً في موقف واحد لنقاش يوم الحساب . ثم تساقون الى مقر واحد هو جهنم وبئس القرار (فان كان لكم كيد فكيدون) . هذه هي نهايتكم ، فان كان لديكم حيلة أو وسيلة تمتنعون بها من العذاب فأتوا بها ... وفيه تقرير وتوبيخ على مكروهم وخداعهم في الحياة الدنيا .

(ان المتقين في ظلال وعيون وفواكه ما يشتهون) . هذا على عادة القرآن الكريم ، يقرن عذاب المجرمين بثواب المتقين لفرض الترهيب والترهيب .. فللمجرمين ظلال من دخان جهنم ، وللمتقين ظلال من نعيم الجنة ، وعيون جارية وفواكه متنوعة مع الكرامة والمهابة من العلي الأعلى ، من ذلك قول الملائكة لهم : (كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون) . تقدم مثله بالحرف الواحد في الآية ١٩ من سورة الطور (كذلك نجزي المحسنين) . هذه هي سنتنا في الخلق ، انا لا نضيع أجر من أحسن عملاً - ٣٠ الكهف .

(كلوا وتمتعوا قليلاً) . الخطاب للمجرمين ، والمراد به التهديد والوعيد، ومعناه تمتعوا في حطام الدنيا كما تشاءون ، فما هي إلا ايام قلائل ، ثم تزول المتعة كما يزول السراب (انكم مجرمون) وسنة الله في المجرمين ان يعذبهم قليلاً ثم يذيبهم

عذاب السعير (واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون) . اذا أمرهم الرسول بالخشوع والتواضع لله أصرّوا على الزهو والكبرياء . قال الشيخ عبد القادر المغربي عند تفسير هذه الآية : « روي ان النبي (ص) سأل هند زوجة أبي سفيان بعد أن أسلمت يوم الفتح : كيف رأيت الاسلام ؟ قالت : حسن لولا ثلاث . قال : وما هن ؟ قالت : التجبيه - أي الركوع والسجود في الصلاة - والخمار ، ورفي هذا العبد الأسود على الكعبة - تريد بلالاً وأذانه من على الكعبة - فأجابها الرسول (ص) بقوله : أما التجبيه فلا صلاة من دونه ، وأما الخمار فهو أحسن ستر ، وأما الأسود فنعم العبد هو » .

(فبأي حديث بعده يؤمنون) . ان عظمة الله سبحانه تتجلى في القرآن تماماً كما تتجلى في الكون ، فمن لم يقتنع ويتنفع بالقرآن فلا يقنعه شيء . وتقدم بالحرف الواحد في الآية ١٨٥ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤٢٩ .

الجزء الثلاثون

سُورَةُ النَّبَاِ

٤٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عم يتساءلون الآية ١ - ١٦ :

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ * الَّذِي فُهِمَ فِيهِ الْمُخْتَلِفُونَ * كَلَّا سَيَعْلَمُونَ *
ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ
أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ
مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا
مِنْ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَبَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا *

الطه :

النبا هو الخبر الذي يهتم له . والمهاد الفراش . وأزواجاً ذكراً وأنثى . والنبات
بضم السين الموت ، والنوم إحدى المبتتين . والمراد بالمعاش وقت طلب العيش .
والمعصرات السحاب . والثجاج المنصب بكثرة . وألفافاً ملتصقة الشجر لتقارب
الأغصان .

الإعراب :

عمّ كلمتان : عن وما ، وادغمت الميم بالنون . وحذفت الألف للفرق بين الاستفهام والخبر، ومثلها مم ومم ولمّ وإلى م وعلى م وحتى م، وعم متعلق بيتساءلون. وعن النبا متعلق بمقدر كأن سائلاً يسأل: عن أي شيء يتساءلون فأجابه سبحانه وعن النبا العظيم ، أي يتساءلون عن النبا العظيم . الذي صفة للنبا . وكلا حرف ردع وزجر . وأزواجاً حال .

المعنى :

(عم يتساءلون عن النبا العظيم الذي هم فيه مختلفون) . أصول الاسلام ثلاثة : الإيمان بوحداية الله ، ونبوة محمد ، وباليوم الآخر ، وقوم رسول الله (ص) كانوا أبعد الناس عن هذه المبادئ ، ولذا تساءلوا وقالوا مستغربين : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب - ص » وأيضاً استكثروا على محمد (ص) ان يكون نبياً لا لشيء إلا لأنه فقير من المال، وقالوا فيها قالوا : « لولا انزل عليه كثر - ١٢ هود » .. وقالوا عن البعث : « إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون - ٥٣ الصافات » .. هذه المبادئ أو الأصول الثلاثة هي النبأ العظيم الذي كان المشركون يسأل بعضهم بعضاً عنه .. وقوله سبحانه : « هم فيه مختلفون » يشير الى انهم كانوا بين مصدق في الباطن دون الظاهر وبين مكذب ظاهراً وباطناً أو متردد .

(كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون) . هذا رد لانكارهم، وتهديد على عنادهم، وأكد سبحانه التهديد بالتكرار ، ثم بين الدلائل على قدرته ، وآيات حكمته ، عسى أن يؤوب الجاحدون الى رشدهم، ويخافوا يوم الحساب والجزاء الذي أنذرههم به الرسول ، فقال عز من قائل : (ألم نجعل الأرض مهاداً) ؟ ألا ترون كيف ذلل الله الأرض تنتفعون بها ، وتفترشونها تماماً كالمهد للصبي ؟ (والجبال أوتناداً) الجبال بالنسبة الى الأرض كالأوتاد بالنسبة الى الخيمة ، ولولا الجبال لاضطربت الأرض ومادت بسكانها .

(وخلقناكم أزواجاً) أصنافاً ذكوراً وإناثاً لحفظ النسل وبناء المجتمع (وجعلنا نومكم سباتاً) أي موتاً لأن النوم ضرب من الموت ، قال تعالى : « هو الذي يتوفاكم بالليل - ٦٠ الانعام » .. والنوم ضرورة للروح والجسم ، ولا تستقيم الحياة بدونه ، ولكن الاكثار منه مذموم ، قال الرسول الأعظم : « اياكم وكثرة النوم فان صاحبه فقير يوم القيامة » لأنه كان في الدنيا من البطالين . قال الإمام الصادق (ع) : ان كثرة النوم مذهب للدين والدنيا (وجعلنا الليل لباساً) شبهه سبحانه الليل باللباس لأنه يستر من الانسان ما لا يحب أن يطلع عليه غريب .

(وجعلنا النهار معاشاً) وقتاً للحركة والعمل من أجل الحياة ، وفي آية ثانية « وجعل النهار نشوراً » فالنوم كالموت ، والعمل في النهار كالبعث (وبنيانا فوقكم سبْعاً شداداً) . المراد بالسبع هنا الكواكب السيارة المعروفة عند الناس ، وإلا فإن وراءها من الكواكب ما لا يبلغه الاحصاء ، ووصفها سبحانه بالشداد لأنها محكمة الصنع . وتكلمنا مفصلاً عن هذا الموضوع عند تفسير الآية ١٢ من سورة الطلاق بعنوان « سبع سموات ومن الأرض مثلهن » . (وجعلنا سراجاً وهاجاً) . المراد بالسراج هنا الشمس ، وفي ضوئها تعمل الخلائق من أجل الحياة (وأنزلنا من المصبرات ماء ثجاجاً) وهي السحاب تعصرها الرياح ، فتعطل بالماء الغزير . (لنخرج به حياً ونباتاً) بالماء تحيا الأرض بعد موتها، ونخرج أقوات الانسان والحيوان وغيرهما ، ومثله : « وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا واراعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهي - ٥٤ طه » ج ٥ ص ٢٢٣ (وجنات ألفافاً) . أشجار ملتفة الأغصان يدخل بعضها في بعض .. وليس من شك ان من قدر على هذه العجائب فهو على إحياء الموتى أقوى وأقدر .. وتكرر هذا المعنى في عشرات الآيات ، منها : « حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون - ٥٧ الأعراف » .

يوم الفصل الآية ١٧ - ٣٠ :

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا *

وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا * إِنَّ
 جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَأْبَأًا * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا * لَا يَذُوقُونَ
 فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَاءً وَفَاقًا * إِنْهُمْ كَانُوا
 لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ
 كِتَابًا * فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا *

اللغة :

يوم الفصل هو يوم القيامة . وميقاتاً وقتاً للحساب والجزاء . والمرصاد مكان
 الارتقاب والانتظار . والمآب المرجع . وأحقاب جمع حقب وهو أمد غير معلوم ،
 وقيل : انه ثمانون سنة . والحميم الماء الحار . والغساق القيح والصديد . وفاقاً
 من وافق .

الإعراب :

أفواجاً حال من فاعل تأتون . للطاغين متعلق بمرصاد . وقيل : مأبأ بدل من
 مرصاد ، والظاهر انه خبر ثانٍ لكانت . ولابثين حال من الطاغين . وأحقاباً
 ظرف والعامل فيه «لابثين» . وجزاء نصب على المصدرية أي جزئناهم جزاء .
 ووفقاً صفة لجزاء . وكتاباً مفعول مطلق لأحصيناه لأن الكتاب بمعنى الكتابة ،
 وأحصينا يتضمن معنى كتبنا .

المعنى :

(إن يوم الفصل كان ميقاتاً) . يوم الفصل هو يوم القيامة ، وفيه يفصل بين

الحق والباطل، وله وقت معين ولكن لا يعلمه إلا الله، وفي هذا الوقت يقضى العالم ، وتنقل الخلائق الأحياء منهم والأموات الى عالم آخر لا يشبه دنيانا في شيء ، عالم لا باطل فيه ولا فناء ، ولا عمل وادعاء .. لا شيء إلا النعيم لمن أحسن ، والجحيم لمن أساء ، ومن دلائله ما أشار اليه سبحانه بقوله : (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا) . والصور بوق يكبر الصوت ، ولا ندري : هل أراد سبحانه هذا المعنى أو هو كناية عن بعث ما في القبور ؟ ومهما يكن فإن الله سبحانه لم يكلفنا طلب هذا العلم ، ولا يتصل بحياتنا من قريب أو بعيد (وفتحت السماء فكانت أبواباً) . هذا كناية عن خراب العالم العلوي بما فيه حيث يضطرب نظام الكواكب ، ويذهب ما بينها من تماسك ، وقال الشيخ محمد عبده : « قد تكون السماء بالنسبة إلينا أبواباً في ذلك اليوم ندخل من أيها شئنا بإذن الله » . (وسيرت الجبال فكانت سراباً) أي شيئاً كلاً شيء كما قال سبحانه : « وبست الجبال بساً فكانت هباءً منثباً » ٦ الواقعة « أي فُتت حتى صارت كالسويق الملتوت أو الغبار المنتشر .

(ان جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً) . بعد ان ذكر سبحانه الدلائل على قدرته - هدد المكذبين بنبوة محمد (ص) وبالبعث ، هددهم بأن جهنم لهم في الانتظار ، وهي مرجعهم الوحيد ومقرهم الأخير (لابتين فيها أحقاباً) مقيمين في جهنم مدداً طويلاً لا حداً لها ولا نهاية إلا ان يشاء الله (لا يفوقون فيها برداً ولا شراباً) . وهل يجتمع البرد والماء مع النار ؟ (الا حميماً وغساقاً) . هذا استثناء متصل لأن الحميم هو الماء المغلي على النار ، والغساق القيقح والصيد اللذان يسيلان من الجسم المحروق بالنار (جزاءً وفاقاً) عذاباً يوافق أعمالهم وسيئاتهم في الحياة الدنيا « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

(انهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً) . لقد أعمت الدنيا وترفها قلوبهم وعقولهم فكيف يرجون لقاء الله، ويرون آياته وبيناته (وكل شيء أحصيناه كتاباً) . لا يخفى على الله من عباده ما اقترفوه في ليل أو نهار حتى ما يخرج في نفوسهم . ويمر بضائرهم (فلو قوا فلن نزيدكم الا عذاباً) . ليس لكم عند الله إلا العذاب ، ولا تأملوا الا بمضاعفته وشدته .

إِنَّ لِلْمُتَفِينِ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً * وَكَأَسَاءَ
 دِهَاقاً * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَاباً * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً
 حِسَاباً * رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ
 خِطَاباً * يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
 الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً * ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ قَسَنَ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاباً *
 إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً * يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ
 الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً *

اللفظة :

مفازاً أي موضع الفوز وهو الجنة . وكواعب جمع كاعب وهي الجارية التي
 استدار ثديها وبرز . وأتراباً على سن واحدة . ودهاقاً مترعة طافحة . واللغو ما
 لا فائدة فيه ولا يعتد به . وحساباً أي كافياً وافياً .

الإعراب :

حدائق وأعناناً يدل بعض من مفاز . وجزاء نصب على المصدرية أي نجاحهم
 جزاء ، ومثله عطاء ، وحساباً صفة لعطاء لأنه بمعنى كاف . ورب السموات
 يدل من ربك . والرحمن صفة للرب . ويوم يقوم .. نصب بلا مملكون . وصفاً في
 مقام الحال أي مصطفين . وذلك مبتدأ واليوم خبر والحق صفة له . ويوم ينظر
 متعلق بمحذوف صفة لعذاب . ويا ليتني « يا » للتنبيه .

المعنى :

(إن للمتقين مفازاً) بثواب الله ومرضاته، ومنجاة من عذابه وغضبه (حدائق وأعنائاً) . خص سبحانه الأعناب بالذكر لأهميتها عند المخاطبين (وكواعب أتراباً) حوراً في سن واحدة ولم تتدل أندادهن (وكأساً دهاقاً) طافحة بما لذ وطاب (لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً) . لا يقولون ولا يسمعون كلاماً لا يعتد به ولا أساس له من الحق والواقع ، وفيه إيماء الى ان أهل الجنة وإن كانوا بلا عمل فإنهم لا يخوضون بما يخوض فيه أهل البطالة في الحياة الدنيا (جزاء من ربك عطاء حساباً) . كلمة جزاء تشير الى ان الثواب على العمل الصالح حق لا بد منه ، وكلمة عطاء تومئ الى ان الله يزيدهم من فضله زيادة كافية وافية بما يحبون ويشتهون . وتقدم مثله في عشرات الآيات، منها الآية ٦ وما بعدها من سورة مريم .) رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً) . ضمير لا يملكون يعود الى الخلائق الذين يومئ اليهم ذكر السموات والأرض لأن الله ربهما ورب من فيهما، والمعنى ان تلك الحدائق وغيرها مما أنعم الله بها على المتقين . هي من الرحمن الرحيم ومالك الملك الذي لا أحد يملك ان يخاطبه يوم القيامة في شأن الثواب والعقاب ، فهو وحده يتصرف (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) . قيل : المراد بالروح هنا جبريل لأن الله سبحانه أسماه بالروح الأمين في الآية ١٩٣ من سورة الشعراء : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » . وقال الشيخ عبده : « الروح من مخلوقات الله المعنوية عسا التي لم تكلف بالبحث عن حقائقها » . والمعنى ان الملائكة بصطفون في يوم القيامة ، ويملاؤن الجو هيبة ورهبة . وهم على طاعتهم وقربهم من الله لا يتحركون بأية حركة ، ولا ينطقون بأية كلمة إلا بإذن منه تعالى، وهو لا يأذن بالكلام لهم ولغيرهم إلا من كانت حياته كلها صواباً وصدقاً . وعدلاً وحقاً ، وأيضاً لا يقول المأذون له إلا ما شاء الله وأراد .

(ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مآباً) . يوم القيامة حسن لا ريب فيه ، والناس يومذاك فريقان : فريق الى النار والبعد عن الله ورحمته . وفريق الى القرب من الله وجنته . والطريق اليها واضح وممهّد . وهو العمل الصالح مع

سورة النبأ

صدق السريرة ، وما على الانسان إلا أن يشاء ، ويعمل مخلصاً بموجب مشيئته ورغبته في دخول الجنة (إنا أنزلناكم عذاباً قريباً) وهو عذاب القيامة لأن كل آت قريب ، ولأن من مات فقد قامت قيامته ، وهل من شيء أقرب الى الانسان من الموت ؟ (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) في الحياة الدنيا خيراً كان أو شراً ، ومثله : « يوم تجرد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء - ٣٠ آل عمران » ج ٢ ص ٤٤ (ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) . في يوم الحق يتمنى المجرم أن يكون تراباً تلوسه الأقدام لشدة ما هو فيه ويأسه من الخلاص .. وهكذا كل مضيق تذهب نفسه مع الحسرات والعبات .

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

٤٦ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والنازعات غرقاً الآية ١ - ١٤ :

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ
سَبْقًا * فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ *
قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَنَا لَمَّرْدُودُونَ فِي
الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا تَمَخَّرَ * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا
هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ *

اللغة :

النازعات قيل : هي الكواكب . والناشطات تنقلب من برج إلى برج .
والساححات تتحرك في الهواء . والسابقات تتم دورتها . والمدبرات كناية عن آثارها
كالضياء وما إليه . والراجلة الأرض . والرافقة السماء . واجفة خافضة . خاشعة
ذليلة . والحافرة الحالة الأولى . والساخرة وجه الأرض أو الأرض البيضاء .

الإعراب :

غرقاً مفعول مطلق للنازعات لأن الفرق هنا نوع من التزع . وأمرأ مفعول به للمدبرات . ويوم متعلق بجواب القسم المقدر وهو لتبعثن .

المعنى :

(والنازعات غرقاً) . لقد تعددت أقوال المفسرين في النازعات وما بعدها ، ولنلخص منها قول الشيخ محمد عبده بشيء من التصرف الذي يتفق مع غرضه .. من تتبع آي الذكر الحكيم يجد ان الله تعالى أقسم بالأزمنة والأمكنة وأشياء أخر .. ومن تأمل في جميع ما أقسم به وجهه شيئاً قد أنكر الناس وجوده، أو احتقروه، أو لم ينتبهوا الى ما فيه من الدلائل على قدرة الله وعظمته، فيقسم تعالى بما أنكروا لتقرير وجوده ، أو بما احتقروا لتعظيم شأنه ، أو تنبيهاً الى ما فيه من الدلائل على قدرته ، جلت عظمته ، وأقسم هنا ببعض مخلوقاته لإظهاراً لانتقان صنعها وغزارة فوائدها ليعلم المكذبون بالبعث ان من قدر على ذلك فهو على إحياء الموتى أقوى وأقدر .

والمراد بالنازعات الكواكب لأنها ترمي بالشهب ، يقال : نزع عن القوس أي رمى عنها ، وأيضاً يقال : اغرق في الرمي إذا بالغ فيه (والناشطات نشطاً) . تقول العرب : نشط فلان نشطاً من المكان إذا خرج من بلد الى بلد ، وعليه يكون المعنى ان الكواكب تنقلب من برج الى برج (والسباحات سبحاً) أي ان الكواكب تتحرك في الفضاء (فالسباقات سباقاً) . تتم دورتها بسرعة حول ما تدور عليه، ومعلوم ان سرعة كل شيء بحسبه من حيث الضخامة وعدمها (فالمدبرات أمرأ) أي ان الكواكب يظهر أثرها الى الخارج بما ينفع الناس كمعرفة الأوقات والأقطار ، واختلاف الفصول ، وما الى ذلك من أسباب الحياة .

هذا تلخيص لحوالى ثلاث صفحات من جزء عمّ للشيخ محمد عبده ، سطرها في معنى هذه الكلمات ، ونحن لا نجزم بقوله ولا بقول من قال : ان النازعات هي الملائكة أو غيرها وغير الكواكب ، لا نجزم بشيء من هذه الأقوال لأنها لا

الجزء الثلاثون

تستند الى دليل ، والراسخون في العلم يعترفون بالجهل والعجز عن معرفة الغيب ، ولا يقولون ما لا يعلمون .

(يوم ترجف الراجفة) أي الأرض لقوله تعالى : « يسوم ترجف الأرض والجبال - ١٤ المزل » والمعنى ان الأرض تضطرب يوم القيامة بمن فيها ، ويعتربها الخراب والدمار (تتبعها الرادفة) وهي السماء وما فيها تردف الأرض أي تتبعها خراباً ودماراً ، قال تعالى : « اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت - ٢ الانفطار » . (قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة) . المراد بالقلوب هنا قلوب المجرمين حيث تدرك يوم القيامة ما يحل بها وبأصحابها من ألم العذاب ، فتنتزع خوفاً ورعباً ، ويظهر أثر ذلك واضحاً في عيون المجرمين أرباب القلوب الخافقة في ذلك اليوم وقد كانت من قبل كقلوب الانعام السائمة في غباوتها والصخور في قساوتها .

(يقولون أننا لمردودون في الخافرة) . الخافرة في اللغة الرجوع الى الحالة الأولى بعد الخروج منها ، والمعنى كيف نعود الى الحياة بعد أن نتنقل منها الى الموت ؟ عجباً (أنذا كنا عظاماً نخرة) بالية لمبعوثون خلقاً جديداً ! (قالوا تلك اذا كرة خاسرة) أنكروا البعث ، فهددهم سبحانه بعذاب الجحيم ، فقالوا ساخرين : اذن ، نحن أخسر الناس صفقة في يوم القيامة ! . ثم ماذا ؟ وأية غرابة في ذلك ؟ ألسم أنصار الباطل والضلال ؟ « ويوم تقوم الساعة يومئذ ينجر المبطلون - ٢٧ الجاثية » . (فلنما هي زجرة واحدة) . هذا من كلامه سبحانه يرد به على المكذبين الساخرين ، ومعناه ان إحياء الموتى على الله سهل يسير « إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون - ٥٣ يس » . (فإذا هم بالساهرة) فما ان تنطلق الصيحة حتى يحشر الله الخلق على أرض بيضاء . قال الشيخ محمد عبده : سميت بذلك لأن السراب يجري فيها ، من قولهم : عين ساهرة أي جارية الماء لا ينقطع جريانه منها .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى* إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى*
 إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى* وَأَهْدِيكَ
 إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى* فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى* فَكَذَّبَ وَعَصَى* ثُمَّ أَذْبَرَ
 يَسْعَى* فحَشَرَ فَنَادَى* فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى* فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ
 الْآخِرَةِ وَالْأُولَى* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى* أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خُلْفًا
 أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا* رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا* وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ
 ضُحَاهَا* وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا*
 وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا* مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ*

اللغة :

الوادي سفح الجبل ومجرى الماء . وطوى اسم لذلك الوادي . تزكى تنظير
 من الشرك . فحشر فجمع . والنكال العذاب . والمراد بسمكها هنا كواكبها .
 فسواها وضع كل كوكب في مكانه الطبيعي . وأغطش أظلم . ودحاها مهدها .
 وأرساها أثبتها .

الإعراب :

طوى بدل من الوادي على القول : انه اسم له . ولك متعلق بمحذوف خبراً
 لمبتدأ محذوف ، والمصدر من أن تزكى متعلق بالمبتدأ المحذوف أي هل لك حاجة

إلى التزكية ، وأصل تزكى تزكى . ونكال مفعول مطلق لأخذه لأن الأخذ هنا يتضمن معنى العذاب فكأنه قال : عذبه الله عذاب الآخرة والأولى . وخلقاً تميز . والأرض مفعول لفعل محذوف يفسره دحاها وكذلك الجبال أرساها . ومتاء مفعول من أجله لأخرج .

المعنى :

(هل أتاك حديث موسى) . هذه تسلية من الله سبحانه لنبيه الكريم محمداً (ص) وإن الله سينصره على أعدائه كما نصر موسى الكليم . وتقدم بالحرف في الآية ٩ من سورة طه (إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى) هو وادي في أسفل جبل طور سيناء ، وطوى اسم للوادي . وتقدم مثله في الآية ١٢ من سورة طه (اذهب إلى فرعون انه طغى) وتمادى في طغيانه حتى ادعى الربوبية . وأيضاً تقدم بالحرف في الآية ٢٥ من سورة طه (فقل هل لك إلى أن تزكى) هل ترغب في التطهير من الشرك والردائل ؟ (واهدك إلى ربك فتنحى) ومن خشي الله لا يطفى ويعتو في الأرض فساداً .

سخر فرعون من موسى وقال : « أهذا المهين » بهدي « رب العالمين » ! . (فأراه - موسى - الآية الكبرى) وهي انقلاب العصا حية (فكذب وعصى) أنكر المعجزة وقال : هي سحر (ثم ادبر يسمي) في تدبير الكيد لموسى (فحشر فنادى) جمع السحرة وأعوانه (فقال أنا ربكم الأعلى) ما علمت لكم من إله غيري .. هذا بيان وتفسير لندائه في سحرته وأعوانه ، وأكثر الناس اليوم وقبله وبعده يدعون الربوبية لو وجدوا من يصدقهم (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) . عذبه بالفرق في الدنيا ، وبالحرير في الآخرة (ان في ذلك لعبرة لمن يخشى) العواقب ، فيحتاط لها ، وينجو منها ، أما من يذهل عنها فتأخذه من مآمنه .

(أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) . الخطاب في « انتم » للذين كذبوا بالبعث ، والمعنى أيها اعظم : إعادة الانسان كما بدأه أول مرة أم انشاء هذه السماء واتقانها ونظامها ؟ ومثله : « فاستغثهم أهم اشد خلقاً أم من

سورة النازعات

خلقنا - ١١ الصفات ، ج ٦ ص ٣٣٢ قال الشيخ محمد عبده : البناء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض حتى يتكون بناء واحد ، وهكذا صنع الله الكواكب ، وضع كل كوكب في مكان على نسبة من الكوكب الآخر يتجاذبان ويتناسكان فكان المجموع بناء واحداً يسمى سماء ، وهذا هو معنى قوله تعالى : « رفع سمكها فسواها » أي رفع أجرامها فوق رؤوسنا فعلها بوضع كل جرم في موضعه .

(واغطش ليلها واخرج ضحاها) . اغطش أظلم ، وأخرج أضاء ، والضمير في ليلها وضحاها يعودان إلى السماء لأن منها الظلام بغروب الشمس ، ومنها الضياء بشروق الشمس . (والأرض بعد ذلك دحاها) أي بسطها ومهدها بحيث تصبح صالحة للسكن والسير ، وفي كتاب محاولة لفهم عصري للقرآن ما نصه : « دحاها أي جعلها كاللدحية « البيضة » وهو ما يوافق أحدث الآراء الفلكية عن شكل الأرض .. ولفظة دحا تعني أيضاً البسط ، وهي اللفظة العربية الوحيدة التي تشتمل على البسط والتكوير في ذات الوقت ، فتكون أولى الألفاظ على الأرض المبسوطة في الظاهر المذكورة في الحقيقة .. وهذا منتهى الإحكام والخفاء في اختيار اللفظ الدقيق المبين » .

(اخرج منها ماءها ومرعاها) . كل ما في الأرض من الماء هو من السماء ، قال تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض - ١٨ المؤمنون » . ثم يفجر سبحانه هذا الماء بنابيع وعيوناً وأنهاراً ، فيخرج النبات يأكله الناس والدواب (والجبال أرساها) . أثبتنا كيلاً تميد وتضطرب بمن فيها : « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم - ١٥ النحل » (متاعاً لكم ولأنعامكم) . خلق سبحانه الأرض ومهدا وثبتها وفجر فيها المياه وأخرج النبات ، كل ذلك وغير ذلك لحير الإنسان والانعام التي ينتفع بها الإنسان ، فهل جاء هذا كله صدفة وجزافاً ، أم ان الذي أوجده وأنشأه أول مرة يعجز عن اعادته وانشائه ثانية ؟ : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه - ٢٧ الروم » .

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ * وَبُرُزَتِ
الْجَحِيمُ * لِمَن بَرَىٰ * فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ
هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ *
فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ
أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا *
كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا *

اللغة :

الطامة الكبرى القيامة لأنها تطم على كل داهية . والمأوى المستقر . ومقام الله
الجلال والعظمة . والعشية آخر النهار ، والضحى أوله .

الإعراب :

يوم يتذكر «يوم» مفعول لفعل محذوف أي اعني يوم يتذكر . فأما من طغى
جواب إذا جاءت . وإيان خبر مقدم ومعناها متى ، ومرساها مبتدأ مؤخر . فيم
خبر وأنت مبتدأ ومن ذكرها متعلق بما تعلق به الخبر . وإلى ربك منتهاها مبتدأ
وخبر على حذف مضاف أي انتهى علمها . وعشية على حذف مضاف ايضاً أي
عشية يوم ، وضيم ضحاها يعود إلى عشية لأن كلاً من العشية والضحى جزء
من يوم واحد .

المعنى :

(فإذا جاءت الطامة الكبرى) . إذا قامت القيامة دمرت الكون بأرضه وسماؤه ، ولم يبق من شيء إلا خالق كل شيء .. وهذه هي الطامة الكبرى ، وأي شيء أكبر منها وأعظم ، ومن هنا قيل : ما من طامة إلا وفوقها طامة ، والقيامة فوق كل طامة (يوم يتذكر الانسان ما سعى) . إذا انتقل من الثانية إلى الباقية يرى صحيفة أعماله مع الجزاء ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وعندئذ يتذكر سعيه في الحياة الدنيا وما كسبت يده (وبرزت الجحيم لمن يرى) لا يحجبه عن رؤيتها حاجب ، ولا يحرسها منه حارس ، وفوق ذلك : « وان منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً » - ٧١ مريم .

(فأما من طغى وأثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) . من انقاد إلى أهوائه أوردته المهالك ، ومن تغلب عليها أبصر الطريق ، وبلغ من الخير غايته .. والهوى حلة العلل ، وصدق من قال : من أطاع هواه أعطى عدوه منه . وقال آخر : إن حقيقة الانسان هي نفسه ، فإذا تغلب عليها الهوى أصبح مخلوقاً آخر لا يشبه الانسان في قلبه ولا عقله . ومما قاله الإمام علي (ع) في وصف من قاس الحق بأهوائه : « لا يعرف باب الهدى فيتبعه ، ولا باب العمى فيجتنبه ، فذلك ميت الأحياء » . وتجدر الإشارة إلى ان المراد بالهوى ما خالف الحق والعدل، وإلا فإن النفس تشتهي الحلال كما تشتهي الحرام .

(يسألونك عمن الساعة ايان مرساها) متى تقوم القيامة ؟ (فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها انما أنت منذر من يخشاها) . يطلبون منك يا محمد أن تحدد لهم اليوم الذي تقوم فيه القيامة ، ولا بدخل هذا في اختصاصك ، ولا في شيء من وظائفك ، والمطلوب منك ان تخوف الناس من القيامة وأهوالها ، أما متى تكون فلم ذلك عند الله ، وقد شئت حكمته أن يخفيها عن عباده حتى الأنبياء والمقرئين . وأن لا تأنيبهم إلا بغته . وتقدم مثله في الآية ١٨٧ من سورة الأعراف : « يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها

لوقتها الا هو ثقلت في السموات والارض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك خفي عنها قل إنما علمها عند الله ، ج ٣ ص ٤٣١ .

(كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) . أنكروا القيامة حتى اذا رأوها أيقنوا انها الحق الذي لا ريب فيه ، وانها دار القرار ، وان الدنيا طريق البها وممر ، فإذا طوت أهلها بالموت أدركوا ان أعمارهم فيها كانت أشبه بطيف او بساعة من نهار .. ومثله الآية ٤٥ من سورة يونس : « ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار » ج ٤ ص ١٦٤ .

سُورَةُ عَبَسَ

٤٢ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عبس ونولى الآية ١ - ١٦ :

عَبَسَ وَنَوَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْثَى * أَوْ
يَذْكُرُ فَتَنَفَعَهُ الذُّكْرَى * أَمَا مِنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا
عَلَيْكَ إِلَّا يَزْكَى * وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ
تَلْهَى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ *
مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ *

اللغة :

صحف كتب . ومكرمة من التكريم والتعظيم . ومرفوعة من رفعة القدر وعلو
الشان . ومطهرة منزهة عن العبث والضلال . وسفرة وسفراء جمع سفير وسافر
والمراد بهم هنا الملائكة والأنبياء . والبررة جمع بار .

الإعراب :

المصدر من ان جاءه مفعول من أجله لعبس . وما يدريك مبتدأ وخبر . ومن

استغنى مبتداً وأنت مبتداً ثان وجملة تصدى خبر الثاني والجملة منه ومن خبره خبر الأول وأصل تصدى تصدى . وما عليك «ما» نافية تعمل عمل ليس واسمها محذوف . وعليك متعلق بمحذوف خبراً لما النافية، والمصدر من ان لا تركى مجرور بنفي المقدرة والمجرور متعلق باسم «ما» أي ما بأس كائن عليك في عدم تركيته . وضمير انها لآيات القرآن . وضمير ذكره لله أو للقرآن . وفي صحف صفة لتذكرة أي مثبتة في صحف مكرمة ، ويجوز ان تكون في صحف خبراً لمبتداً محذوف أي هي في صحف .

من هو العابس ؟

اتفق المفسرون على ان الأعمى هو ابن ام مكتوم صاحب رسول الله (ص) وابن خال خديجة زوجة الرسول ، واختلفوا في العابس . فقيل : انه مجهول ، ولهذا القول وجه ، لأن الله سبحانه ذكره بضمير الغائب، ولم يبين لنا من هو ؟ . ومثله كثير في القرآن، ومنه : « ثم ذهب الى أهله يتمطى القيامة - ٣٣ » . وقيل : هو رجل من بني أمية كان عند رسول الله (ص) فلما رأى الأعمى تغدر منه ، وأعرض عنه . والمشهور بين المفسرين وغيرهم ان الذي عبس وتولى هو رسول الله (ص) ، وان السبب لذلك ان ابن مكتوم اتاه وهو في مكة ، وكان عنده عتاة الشرك من ذوي الجاه والمال : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابو جهل والوليد بن المغيرة وغيرهم ، وكان مقبلاً عليهم ، ومشغولاً بهم دون الجالسين ، يذكّرهم بالله ، ويحذرهم عاقبة الشرك والبغي ، ويعدّهم خير الدنيا والآخرة ان أسلموا ، وهو يرجو بذلك هدايتهم ، وان يكونوا قوة للإسلام ، وان يكفوا شرهم - على الأقل - وكان الاسلام ضعيفاً آنذاك وفي محنة وشدة من كيدهم وعدائهم .

فقطع الفقير الأعمى كلام الرسول مع القوم ، وقال : علمني يا رسول الله شيئاً أنفع به مما علمك الله .. فضى الرسول في كلامه مع القوم ، ولما أعاد الأعمى وكرر كره الرسول منه ذلك ، وظهرت كراهيته في وجهه ، فعاتب سبحانه نبيه الكريم بضمير الغائب « عبس وتولى » ثم بضمير المخاطب « واما من استغنى فأنت له تصدى » .

هذا ما ذهب اليه أكثر المفسرين ، وله وجه أرجح وأقوى من الوجه الأول
لمكان ضمير المخاطب « أنت » فان المراد به الرسول - بحسب الظاهر - وعليه
يكون بياناً وتفسيراً للضمير الغائب في عبس والنفاثاً من الغائب الى الحاضر.. ولكن
قول المفسرين : ان الله عاتب النبي على ذلك لا وجه له على الاطلاق حيث لا
موجب للعتاب في فعل الرسول (ص) لأنه أراد أن يغتنم الفرصة قبل فواتها مع
أولئك العتاة ، أن يغتنمها ويستغلها لمصلحة الاسلام والمسلمين لا لمصلحته ومصلحة
أهله وذويه ، أما تعليم المسلم الأحكام والفروع فليس له وقت محدود بل هو
ممکن في كل وقت ، وبتعبير الفقهاء ان اسلام الكافر مضيق يفوت بفوات وقته ،
أما تعليم المسلم أحكام الدين فوسع يمكن القيام به في أي حين ، والمضيق أهم ،
والموسع مهم والأهم مقدم بحكم العقل .. اذن ، عمل الرسول آنذاك كان خيراً
وحكمة .

وتسأل : على هذا ينبغي أن يوجه اللوم والعتاب على الأعمى دون غيره مع
ان الله سبحانه قد آثى عليه ، ودافع عنه ؟

الجواب : لا لوم ولا عتاب على النبي ولا على الأعمى في هذه الآيات ، وانما
هي في واقعها تحقير وتوبيخ للمشركين الذين أقبل عليهم النبي بقصد أن يستميلهم
وبرغبتهم في الاسلام لأن الله يقول لنبيه في هذه الآيات : لماذا تتعجل النصر لدين
الله ، وتسلك اليه كل سبيل حتى بلغ الأمر ان ترجو الخير وتأمل هداية أشقى
الخلق وأكثرهم فساداً وضلالاً .. دعهم في طغيانهم ، وأغلظ لهم ، فانهم أحقر
من أن ينتصر الله بهم لدينه . وأضعف من أن يقفوا في طريق الاسلام وتقدمه ،
فإن الله سيذل أعداءه مها بلغوا من الجاه والمال ، ويظهر دينه على الدين كله
ولو كره المشركون .. فهذه الآيات قريبة في معناها من قوله تعالى : « فلا تذهب
نفسك عليهم حشرات - ٨ فاطر » . ثم انتقل سبحانه الى تقرير الحقيقة المطلقة ،
وهي « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » قررها بأسلوب آخر ، وهو ان الذي يخشى
ويزكى وتنفعه الذكرى هو الذي يستحق التكريم والتعظيم ، أما من يعرض عن
الحق ولا ينتفع بمواعظ الله فيجب نبذه واحتقاره ، وان كان أغنى الأغنياء وسيد
الوجهاء .

المعنى :

(عيسى وتولى ان جاءه الأعمى) وهو ابن ام مكتوم ، قصد الرسول الأعظم (ص) لیسأله عن أحكام دينه ، فأعرض عنه لاشتغاله بما هو أهم كما ذكرنا .. وكان هذا الأعمى من المهاجرين الأولين ، والمؤذن الثاني لرسول الله (ص) واستخلفه على المدينة يصلي في الناس أكثر من مرة . وقيل : انه ولد أعمى وان اسمه عبدالله ، ووصفه سبحانه بالأعمى للإشارة الى عثره في الالحاح بالمسألة (وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى) . أي شيء جعلك دارياً وعارفاً بحقيقة هذا الأعمى ؟ ولو استجبت لرغبته وألقيت بعض أحكام الدين لانقطع وعمل بما تلقى عليه .

(أما من استغنى فأنت له تصدى) . أعرضت عن يشعر بالحاجة انى ما عندك من علم الله ، وأقبلت على من يرى نفسه في غنى عن الله وعنك بما يملك من جاه ومال ، ترجو هدايته ورجوعه عن الضلال . وهل ترجى الهداية ممن أعماه الحمى والجهل : « فأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون - ٤٣ يونس » . (وما عليك أن لا يزكى) . لا شيء عليك ولا على الاسلام من كفر الكافر وضلاله ، ومثله : « وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً - ٤٢ المائدة » . (واما من جاءك يسعى وهو يحشى فأنت عنه تلهى) . تشاغل بالمشركين طمعاً بإسلامهم وهدايتهم ، وتعافلت عن المؤمن الذي قصدك للاستفادة من عملك اتكالاً على إيمانه ، وان في وقت التعليم سعة وفسحة .. فدع الطغاة لله وحده فهو لهم بالمرصاد ، وأقبل على من تفتح قلبه للهدى والخير .

(كلا) ان الله لا ينصر دينه بمن يرى نفسه في غنى عن الله وعنك بما عنده من جاه ومال ، وانما ينصر الحق بالطيبين أمثال هذا الأعمى ، وان كانوا من الفقراء والمساكين (انها تذكرة فمن شاء ذكره) . صمير انها يعود إلى آيات القرآن أو إلى الهداية التي فيه ، وصمير ذكره يعود إلى الله أو إلى القرآن ، والمعنى ان هذا القرآن كاف واف في الهداية لمن طلبها ، وما عليك يا محمد إلا البلاغ والتذكير ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ثم وصف سبحانه هداية القرآن وتعاليمه وأحكامه بقوله : (في صحف مكرمة) لها شأنها وكرامتها عند الله

(مرفوعة) عالية بتعاليمها النافعة ، وحكمها البالغة (مطهرة) من العبث والضلال (بأيدي سفرة كرام بررة) . ان تلك الصحف الإلهية في حصن حصين ينقلها الملائكة المقربون عن العلي الأعلى الى أنبيائه المعصومين ، وهم يبلغونها بدورهم الى الناس بدقة وأمانة .

قتل الانسان ما اكفره الآية ١٧ - ٤٢ :

قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْقَةٍ خَلَقَهُ
فَقَدَرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ *
كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ
صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبَأَ وَفَضًّا *
وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ *
فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ *
وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ
مُسْفِرَةٌ * صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْنَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا
قَرَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ *

اللغة :

المراد بقتل هنا الدعاء بالعذاب والمهلك . والمراد بالانسان المجرم . فقتله اي
أنشأه خلقاً بعد خلقه وطوراً بعد طور . وأنشأه أحياء بعد الموت . والقضب ما

يؤكل رطباً طرياً من الخضار والبقول ويقطع مرة بعد مرة . وغلباً ضخمة وعظيمة . والأب مرعى الدواب . والمراد بالصاخة القيامة مثل القارعة ، وفي تفسير الرازي : معنى الصاخة الصاكة للأذان بشدة صوتها . وترهقها تغشاها . وقفرة سواد .

الإعراب :

ما أكفره ، ما ، نكرة بمعنى شيء عظيم وعملها الرفع بالابتداء . وأكفره فعل ماضٍ لا يتصرف ، وفيه ضمير مستتر يعود على «ما» والماء مفعول به لأن المعنى شيء عظيم جعله كافراً. السبيل مفعول لفعل مقدر أي يسر السبيل يسره للانسان. ولما يقض أي لم يقض . وما اسم موصول مفعولاً ليقض والعائد محذوف أي ما أمره به . والمصدر من أنا بدل اشتغال من طعامه . وغلباً صفة لخدائق وهي جمع غلباء . ومتاعاً مفعول من أجله لأنبتنا . وجواب إذا جاءت محذوف أي فما أعظم ندم المجرمين .

المعنى :

(قُتِلَ الانسان ما أكفره) . جاء في تفسير الرازي نقلاً عن جماعة من المفسرين : « ان المراد بالانسان هنا كل غني ترفع على فقير بسبب الغنى والفقر » . ونحن مع هذا القول أولاً ، لأن الواقع يؤيده ويشهد به ، فلولا الطمع والتكالب على الحطام وكثر المال لعاش الناس في رفاة وأمان . قال الشيخ محمد عبده : « ان هذا الدعاء على الانسان بأبشع الدعوات هو كناية عن انه قد بلغ من القبح مبلغاً لا يستحق معه الحياة ، ومنشأ الشناعة نسيانه لما يتقلب فيه من النعم ، وذهوله عن مسببها حتى اذا ذُكِرَ بالحق أعرض عن الذكرى » .. ولا شك في نعمة الوجود والادراك والسمع والبصر ، بل هي من أعظم النعم ، ولكن نعمة الوجود وما اليه لا تبعث على التعالي والطفيان ما دامت عامة شاملة ، وانما السذي يخرج الانسان المجرم عن حده ويبعثه على البغي والعدوان هو احساسه بثروته وامتيازه عن غيره .

(من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره) . من أنت أيها الانسان الضعيف حتى تستنكف عن طاعة الله ، وتتطاول على عبادته ؟ فكّر في أصلك ، وفي انتقالك من خلق الى خلق ، وفي مصيرك ومآلك .. فمن الذي أوجدك ولم تك شيئاً ، وأنشأك في بطن أمك حالاً بعد حال ، ثم أخرجك في أحسن تقويم .. هل الصدقة فعلت هذا كله ؟ (ثم السبيل يستره) . مهد للانسان الطريق الى الخير بشيئين : الأول الارشاد اليه والترغيب فيه . الثاني العقل والقدرة على العمل . وأيضاً مهد له الطريق الى الحياة بشيئين : الأول ما أودعه تعالى في الطبيعة من الخيرات الكافية لمجاботه . الثاني ما أودعه في الانسان من الطاقة والاستعداد لاستغلال الطبيعة وتكييفها كما يشاء . وتقدم مثله في العديد من الآيات . انظر تفسير الآية الأولى وما بعدها من سورة الانسان .

(ثم أمانه) بعد انقضاء أجله (فأقبره) أمر سبحانه بدفن الانسان بعد موته ، ونهى عن تركه مطروحاً للوحوش والطيور اشارة الى كرامته عند الله حتى بعد خروج الروح منه فكيف اذا كان حياً ؟ (ثم اذا شاء نشره) . خلقه ثم أمانه فأقبره ، ثم يبعثه كما كان للحساب والجزاء .. ولولا هذا البعث لكان وجود الانسان عبثاً في عبث . انظر تفسير الآية ٤ من سورة يونس فقرة : الحساب والجزاء حتم . أما قوله تعالى : « اذا شاء » فيشير الى انه هو وحده يعلم متى يكون الحشر والنشر (كلا لما يقض ما أمره) . الضمير في يقضي يعود الى الانسان المجرم المهمل ، والمعنى لقد زدنا الانسان بجميع الطاقات والمعدات لفعل الخير وصالح الأعمال ، وما تركنا له من عذر يتعلل به ، ومع ذلك أهمل وقصر أكثر الناس ، بل ان الكثير منهم طفوا وبغوا واتخذوا من نعم الله عليهم وسيلة للفساد والاعتداء على العباد .

(فلينظر الانسان الى طعامه) وهو بين يديه ، وفيه قوام حياته ووجوده ، فلينظر اليه ، ويسأل عقله : من الذي يسر له هذا الطعام ؟ الطبيعة ؟ ومن الذي أوجد الطبيعة ؟ الصدقة ؟ وهل للصدقة عقل يقدر ويدبر ؟ فأوجدت الطبيعة بما فيها من أسباب الطعام والشراب وما الى ذلك من الدقة واحكام الصنع (انّا صببنا الماء صباً) . كلا .. الله وحده هو الذي أوجد الماء وأنزله من السماء ، وسبق أكثر من مرة ان الظواهر الكونية تسند اليه تعالى لأنه مصدر الوجود وسبب الأسباب

(ثم شققنا الأرض شقاً فأثبتنا فيها حباً وعنباً وقصباً) أي ان النبات يشق تربة الأرض ليخرج منها تماماً كما يشق القرخ قشرة البيض التي هو فيها (وزيتوناً ونخلًا وحدائق غلباً) جمع غلباء وهي الضخمة العظيمة من الشجر وغيرها : والمعنى ان تلك الحدائق عظيمة بأشجارها ونماها ، وظلالها وجبالها .

(وفاكهة وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم) . والاب المرعى ، والمتاع ما يتمتع به الانسان والحيوان . قال الشيخ محمد عبده : « روي ان أبا بكر الصديق سئل عن الأب فقال : أي سماء تظلني وأي أرض تقلي اذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به ؟ وعن عمر بن الخطاب انه قرأ هذه الآية فقال : كل هذا عرفناه فما الأب ؟ . ثم رفض عصاً كانت بيده أي كسرهما وقال : هذا لعمر الله التكلف ، وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدري ما الاب ٢ .. ولا تظن ان سيدنا عمر ينهى عن تتبع معاني القرآن ، وانما يريد أن يعلمك ان الذي عليك من حيث انت مؤمن ان تفهم جملة المعنى » .

(فإذا جاءت الصاخة) القيامة ، وهي تصك الآذان بصوتها حتى تكاد تصمها (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) . لا أحباب ولا أنساب يوم القيامة لأن كل انسان مشغول بنفسه منصرف لما هو فيه عن غيره .. هذا ، إلى انه أعزل من كل شيء . وفيه إيماء الى ان الذين يحرص الانسان عليهم في الحياة الدنيا ، ويعصي الله من أجلهم - لا يغنون عنه شيئاً في الآخرة ، ولا هو عنهم بمغنى شيئاً . وفي بعض التفاسير : ان ذكر الأرحام في الآية جاء على الترتيب الطبيعي حيث قدمت الأخ ثم الأبوين ثم الزوجة والولد لأن عاطفة الانسان نحو أبويه أقوى منها نحو أخيه ، وعاطفته نحو زوجته وولده أقوى منها نحو أبويه . فكانه قال تعالى : يفر المرء من أخيه بل من امه وأبيه بل من صاحبه وبنيه .

(وجوه يومئذ مسفرة) اي مضيفة ، من أسفر الصبح (ضاحكة مستبشرة) فرحاً وسروراً بما أعد الله لها من المقام الكريم والأجر العظيم (وجوه يومئذ عليها غرة) الدل والموان (نهقها قرة) يعلوها سواد الحزن والكآبة (اولئك هم الكفرة الفجرة) . ووصف الكفرة بالفجور يرمي الى ان الفاجر المتهتك هو والكافر بمنزلة سواء عند الله حتى ولو حافظ على الصلوات الخمس في أوقاتها .

وللشيخ محمد عبده كلام طويل حول هذه الآية نلخصه بالآتي : « من طلب الحق لوجه الحق وعمل به ، او ادركه الموت وهو لا يزال في طلبه - من كان هذا شأنه في الحياة الدنيا فهو الذي يضحك ويستبشر يوم القيامة بفضل الله ، ومن احتقر عقله وشغل نفسه بتبرير الأهواء والتماس الحيل لتقرير الباطل كما كان يفعل أعداء الأنبياء فهو الذي يعلو وجهه سواد الحزن ، وغبرة الذل يوم القيامة لأنه من الكفرة الفجرة ، ذلك ان الدين ينهى عن الفواحش ، وهو يقترفها ، الدين يأمر بصيانة المصالح العامة ، وهو يفتك بها ، الدين يطالب أهله ببذل المال في سبيل الخير ، وهو يسلب المال لينفقه في سبيل الشر ، الدين يأمر بالعدل ، وهو أظلم الظالمين ، الدين يأمر بالصدق ، وهو يكذب ويحب الكاذبين .. ومن كان هذا شأنه فإذا يكون حاله يوم يتجلى الجبار ، ويرتفع الستار ؟ ».

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

٢٩ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إذا الشمس كورت الآية ١ - ١٤ :

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ *
وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ *
وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا
الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا
الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ *

الإعراب :

إذا ظرف زمان بمعنى وقت ، وتتضمن معنى الشرط ، ومحلها النصب بجوابها وهو « علمت نفس ما أخضرت » . وارتفعت الشمس بفعل محذوف يفسره الموجود أي إذا كُوِّرَتْ الشمس كورت . ومثلها إذا النجوم انكدرت وما بعدها .

المعنى :

أشار سبحانه في هذه الآيات الى بعض ما يحدث يوم القيامة الى ساعة الحساب ، وتلك الحوادث هي :

سورة التكوير

١ - (اذا الشمس كورت) . معنى التكوير اللف ، ومنه تكوير الهامة ، والمراد من تكوير الشمس طيها وخفاؤها بعد ان كانت ظاهرة للعيان ، بل ومضرب المثل في الوضوح والظهور ، وسبب طيها ما يعتبرها من الخراب .

٢ - (واذا النجوم انكدرت) . وانكدار الشيء انقلابه حتى يصير أسفله أعلاه ، والمراد من انكدار النجوم تساقطها وانتشارها . وفي الآية ٢ من سورة الانفطار : « واذا الكواكب انتثرت » .

٣ - (واذا الجبال سبرت) . اقتلعت من أماكنها ، وسارت في الهواء .

٤ - (واذا العشار عطلت) . العشار النوق الحوامل ، وهي أنفس وأثمن مال عند العرب ، وعطلت تركت واهملت . وهذا كناية عن شدة الهول وذ هول الانسان عن كل شيء في ذلك اليوم .

٥ - (واذا الوحوش حشرت) . تنفر مذعورة عند خراب الكون ، وتموت خوفاً . وقال الرازي وصاحب مجمع البيان : « ان الله يجمع الوحوش حتى يفتنص لبعضها من بعض » . ويلاحظ بأن الله لا يحاسب حتى يكلف ، ولا يكلف حتى يهب العقل .. به بثيب ، وبه يعاقب ولو كان للوحوش عقل لامتعت عن الانسان ، وكانت معه بمنزلة سواء .

٦ - (واذا البحار سجرت) . في كتب اللغة سَجَرَ البحر فاض ماؤه ، وعليه يكون المعنى ان مياه البحار تنطلق هنا وهناك ، لا بمسكها شيء نتيجة لخراب الكون ، ومثله « واذا البحار فجرت » - الانفطار . وقال الشيخ محمد عبده : قد يكون تسجيرها ضرامها ناراً ، فإن ما في بطن الأرض من النار يظهر إذ ذاك بتشققها ، وعندئذ يذهب الماء بخاراً ، ولا يبقى في البحار إلا النار ، وقد ورد في بعض الأخبار ان البحر غطاء جهنم ، والبحث العلمي أثبت ذلك ، ويشهد عليه غليان البراكين والزلازل .

٧ - (واذا النفوس زوجت) . أي عادت كل نفس آدمية الى الجسم الأول الذي فارقت عند الموت .

٨ - (واذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت) . وهي البنت الصغيرة تُدفن

- حية ، فإنها تبعث وتسال على مسمع من وائدها : لماذا وأدك الوائدون ؟ ليكون أشد وقعاً على الوائد . أنظر تفسير الآية ٥٨ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٢٣ .
- ٩ - (واذا الصحف نشرت) . يعطى لكل انسان غداً كتاب اعماله خيرها وشرها . وقد يكون هذا كناية عن ان أعمال العباد يوم القيامة تظهر لهم بكاملها كما هي ، ومهما يكن فإعلينا ان نبحت عن حقيقة تلك الصحف والكتب .
- ١٠ - (واذا السماء كشطت) . اي كشفت وأزيل منها الكواكب التي كانت تحجب ما وراءها كما يزال الجلد عن الذبيحة ، ويظهر ما تحته من اللحم .
- ١١ - (واذا الجحيم سعرت) . أوقدت واضرمت .
- ١٢ - (واذا الجنة ازلقت) . قُربت من أهلها ، وقربوا منها لأنها أعدت لهم ، وأعدوا لها . ومثله ، وأزلقت الجنة للمتقين غير بعيد - ٣١ ق ١ .
- (علمت نفس ما أحضرت) . هذا جواب الشروط الاثني عشر المتقدمة ، والمعنى اذا حدث ما سبق ذكره أقدم كل انسان على ربه . وهو يعلم ماذا يحمل معه من الأعمال ، وما تزود به من خير أو شر . وفي نهج البلاغة : « وان قادماً يقدم - على ربه - بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة ، فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تجزون به أنفسكم » .

الجنس والكنس الآية ١٥ - ٢٩ :

فَلَا أُقِيمُ بِالْخَنَسِ * الْجَوَارِ الْكُنَسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ * وَالصُّبْحِ
إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ
مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ
الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ *
فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ *
وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *

الخنس جمع خانس وخناسة من خنس الشيء اذا رجع والجواري جمع جارية من الجري . والكنس جمع كانس وكناسة من كنس الظبي اذا استر في المكان الذي يأوي اليه، والمراد بالخنس والكنس هنا النجوم . وعسس الليل من الاضداد يستعمل بمعنى أقبل وأدبر ، والمراد هنا الإدبار لقوله تعالى : « والليل اذا أدبر والصبح اذا أسفر - ٣٣ المدثر » . وتنفس الصبح أسفر وامتد نوره . والمراد بالرسول هنا جبريل . وذو العرش الله . ومكين صاحب مكانة . والأفق المبين هو الأفق الأعلى الذي ذكره سبحانه في الآية ٧ من سورة النجم ، وضنين بجيل .

الاعراب :

الجواري صفة للخنس . وضيمر انه يعود الى القرآن الذي دل عليه السياق ، والجملة جواب القسم . وكريم وما بعده صفة لرسول . وما صاحبكم عطف على انه لقول الخ وكذلك وما هو . أين تذهبون ؟ أين ؟ ظرف مكان منصوب بملاّ بتزع الخافض أي الى أين، وفي مجمع البيان : تقول العرب : ذهبت الشام وخرجت الشام أي منها وإليها . ولمن شاء بدل بعض من العالمين بإعادة حرف الجر .

المعنى

(فلا أقسم) . أسلفنا ان « لا » هذه عند أكثر المفسرين زائدة ، وعند البعض منهم نافية على أساس ان الأمر واضح لا يحتاج الى قسم .. ونتيجة القولين واحدة ، قال الشيخ محمد عبده : يؤتى بهذه العبارة اذا أريد تعظيم المقسم به ، وانه لا يعظم بالقسم لأنه عظيم بنفسه (بالخنس الجواري الكنس) المراد بالخنس الكنس جميع النجوم ، وقيل : بل النجوم الخمس فقط : عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل ، وهي جوارٍ لأنها تدور في أفلاكها ، « اختلفوا لماذا وصفت بالخنس الكنس ؟ » قال الشيخ محمد عبده ما معناه : ان الله سبحانه وصفها بالكنس

لأنها تختفي عن الرائي في ضوء الشمس كما تختفي الظبية في كناسها ، ووصفها سبحانه بالخنس لأنها ترجع الى الظهور للعيان بعد غياب الشمس ، ويتفق هذا في نتيجته مع تفسير الطبرسي في مجمع البيان حيث قال ما نصه بالحرف : « هي النجوم تخنس بالنهار ، وتبدو بالليل » . والفرق بين التفسيرين ان الخنس هنا عند صاحب المجمع هو الاختفاء ، والكنس الظهور ، والعكس عند الشيخ محمد عبده .. وعلى أية حال فإن الله سبحانه أقسم بالنجوم للتنبيه الى ما في صنعها من الدلائل على قدرة المبدع وحكمته .

(والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس) . هذا قسم ثان منه تعالى بإدبار الليل وإقبال النهار لأنه عطف على القسم . وفي كتاب محاولة لفهم عصري للقرآن : « تقرأ في القرآن ألفاظاً فترك في السمع رنيناً وأصداءً وصوراً حيناً يقسم الله بالليل والنهار فيقول : « والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس » .. « عسعس » .. هذه الحروف الأربعة هي الليل مصوراً بكل ما فيه .. « والصبح إذا تنفس » ان ضوء الفجر هنا مرثي ومسموع .. انك تكاد تسمع سقسقة العصفور وصيحة الديك » .

(انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين) . هذا جواب القسم ، وضمير انه للقرآن المفهوم من السياق ، والمراد بالرسول جبريل، وأضاف سبحانه القرآن الى جبريل لأنه حامله وناقله عن الله الى رسول الله (ص)، ولجبريل كرامة ومكانة عند الله ، وهو أمين على التنزيل ، وقوي على أدائه وعلى غيره من الأعمال الموكلة اليه . وتقدم مثله في الآية ٦ من سورة النجم (مطاع ثم أمين) ثم بمعنى هناك ، وهي اشارة الى المكان الذي يطاع فيه جبريل ، وهو من عالم الغيب الذي لا يعرف حقيقته إلا الله .

(وما صاحبكم بمجنون) . الخطاب لعناة قريش ، وصاحبهم محمد (ص) ، وقد رماه بعضهم بالمجنون كما جاء في الآية ٦ من سورة الحجر « وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون » ج ٤ ص ٤٦٨ . فبرأه الله مما يفترون . وتقدم مثله في الآية ٢ من سورة القلم (ولقد رآه بالأفق المبين) . أنقولون : محمد مجنون حين يخبركم عن الجنة والنار ٩ . كلا ، ان القرآن وحي من الله ، أوحاه

سورة التكويد

الى رسوله بلسان جبريل الذي رآه محمد في الأفق الواضح على صورته وحقيقته رؤية صادقة لا شك فيها . وتقدم مثله في الآية ١٢ من سورة النجم .

(وما هو على الغيب بضنين) . ضمير هو لرسول الله (ص) والغيب القرآن، والمعنى ما كان محمد ليكنم القرآن ، ويسكت عن إعلان الحق مخافة ان تقولوا ايها المشركون : هو مجنون ، بل يعلنه على الاشهاد ولا تأخذه في الحق لومة لائم (وما هو يقول شيطان رجيم) . هذا رد لزعمهم بأن ما يتكلم به الرسول قد نفثه الشيطان على لسانه .. وهل توحى الشياطين بالهدى والخير ، والحق والعدل ؟ (فأين تذهبون) في أحكامكم وضلالكم ؟ (إن هو إلا ذكر للعالمين) . ان القرآن أمر بالخير ، زاجر عن الشر ، وفوق هذا كله فيه نبيان كل شيء فكيف يكون قول شيطان رجيم ؟ .

(لمن شاء منكم أن يستقيم) . القرآن هدى وصلاح لمن يرغب في الهداية والاستقامة ، أما من يصر على الضلال فلا ينتفع بذكر ، ولا تؤثر فيه عظة (ولا تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) . قال الرازي : هذه الآية تدل على ان الانسان مسير غير مختير .. ويرده ان معنى الآية هو ان الله سبحانه طلب من العبد أن يستقيم على جادة الحق والعدل ، ولكن المعاند يأبى إلا الانحراف ، ولا يستقيم إلا إذا أجبره الله على ذلك .. وهذا يتنافى مع عدل الله وحكمته ، ويتعبر ثانياً ان الله سبحانه خلق الانسان مختاراً ذا عقل واردة ، وميّزه بذلك عن الحيوان ، ومن ثم كلفه بالطاعة من دونه ، ولو شاء سبحانه لسلب الانسان ارادة العقل ، وجعله كالحيوان أو أحمط منه .

سُورَةُ الْأَنْقَظَارِ

١٩ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ *
وإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمْتَ نَفْسُ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ
مَا غُرِكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ
صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ * كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ
لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ *
وإنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ *
وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ * يَوْمَ لَا
تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ *

الإعراب :

السمااء فاعل لفعل مقدر يفسره الفعل الموجود ، وكذلك الكواكب والبحار
والقبور . علمت نفس جواب اذا . وما غرك « ما » استفهام مبتدأ وجملة غرك

سورة الانفطار

خبر . والذي خلقك صفة ثانية لربك . وفي أي صورة متعلق بربك وما زائدة إعراباً وجملة شاء صفة لصورة، ولم يقرن ركبك بالفاء لأنها بيان لعدلك . وكراماً صفة لحافظين وكذلك كاتبين . وما أدراك « ما » مبتداً وجملة أدراك خبر . وما يوم الدين « ما » خبر مقدم ويوم مبتداً مؤخر . ويوم لا تملك « يوم » مفعول لفعل مقدر أي اذكر يوم لا تملك .

المعنى :

هذه السورة تماماً كالسورة السابقة ، تعرض صوراً لبعض ما يحدث عند قيام الساعة ، وما بعدها من الحساب والجزاء .

(اذا السماء انفطرت) انشقت وتساقطت كواكبها ، ومثله « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان - ٣٧ الرحمن » . (واذا الكواكب انتثرت) هوت وبادت (واذا البحار فجرت) ارتفعت أمواجها وانطلقت مشرقة ومغربة ... أو تبخر ماؤها ، واندلعت النيران مسن باطنها . انظر تفسير « واذا البحار سجرت » في السورة السابقة . (واذا القبور بعثت) البعثة والبعثرة في اللغة اثاره الشيء بقلب باطنه الى ظاهره ، وبالعكس ، والمراد هنا من البعثة ان الساعة آتية لا ريب فيها « وان الله يبعث من في القبور - ٧ الحج » . (علمت نفس ما قدمت وأخرت) . بعد البعث يعلم كل انسان ما قدمت يده من خير أو شر ، وما ترك منها .

(يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك) . فسواك أي أودع فيك من القوى الظاهرة والباطنة ما جعلك انساناً كاملاً ، وعدلك أي جعل أعضائك متوازية ، فلم يجعل احدى يديك أطول من الأخرى ، ولا احدى العينين أصغر ، ولا بعض الأعضاء اسود والبعض الآخر ابيض الخ .

واختلفوا : ما هو المراد من الكريم في قوله تعالى : « ما غرك بربك الكريم » ؟ فقال البعض : وصف سبحانه نفسه هنا بالكريم ليلهم عبده المذنب الجواب ، ويعلمه ان يقول غداً اذا سئل عن ذنبه : غرني حفوك وكرمك .. وقال الشيخ

محمد عبده : هذا تلاعب بالتأويل ، وتضليل للناس في كتاب الله .. واللائق ان يفسر الكريم هنا بالعظيم في جميع صفاته تعالى : وان من كان كذلك فلا يترك عبيده سدى بلا سؤال ولا جزاء ، بل يحاسبهم ويثيب الاختيار منهم ، ويعاقب الأشرار ، وعليه فلا ينبغي للانسان أن يفتّر بالدنيا وزخرفها .

وللإمام علي (ع) كلام طويل حول هذه الآية ، أدرج مع خطب نهج البلاغة ، ويتلخص في جملة بالآتي : ما الذي جراك أيها الانسان على معصية ربك ، وأنت تقيم في كنفه ، وتقلب في نعمه ؟ هل غرك منه إقباله عليك بالنعم ، وأنت متول عنه الى غيره ؟ أما تعلم ان هذا الإقبال تفضل منه عليك ، وإمهال لك كسي ثوب الى رشذك وترجع عن غيك ؟ .

وعلى هذا يكون المراد بكرمه تعالى في الآية هو إمهاله لعبده المذنب وعدم أخذه بالعقوبة العاجلة ، وان عليه أن يبادر الى التوبة والإنابة ، ولا يفتّر بالإمهال والإمداد .

(في أي صورة ما شاء ربك) قال بعض المفسرين : أي لم يجعلك خنزيراً أو حميراً . وقال آخر : صورتك كما أراد طولاً أو قصراً ، سواداً أو بياضاً .. والذي تفهمه من هذه الآية هو فكر أيها الانسان في إحكام خلقك ، واتقان تركيبك لتدرك عظمة الله في خلقه ، وان الذي أنشأك في أحسن تقويم قادر على ان يعيدك الى الحياة ثانية (كلا بل تكذبون بالدين) . ارتدعوا عن ضلالكم الذي لا مصدر له إلا التكذيب بالبعث .. فإنكم محاسبون ومسؤولون لا محالة عما كنتم تعملون (وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون) من خير أو شر ، ولا يستركم منهم شيء ، ومعنى كرام انهم أقوياء أمناء يؤدون مهمتهم على أتم الوجوه وأكملها . وتقدم مثله في الآية ٨٠ من سورة الزخرف . وتجدر الإشارة الى ان الذي يجب علينا اعتقاده ان أعمال العباد تُحفظ ونحصى ، أما كيف ؟ وبأي شيء ؟ فنحن غير مسؤولين عن ذلك .

(ان الأبرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم يصلونها يوم الدين) . الأبرار هم أهل الصدق وصالح الأعمال ، وجزاؤهم عند ربهم مغفرة وأجر كريم ، والفجار هم الذين يعيشون في الأرض فساداً ، وجزاؤهم نزل من جحيم وتصلية جحيم (وما هم عنها بغائبين) مطرف عين .. أبداً شقاء لازم ، وعذاب دائم (وما أدراك

سورة الانقطار

ما يوم الدين) . انك تجهل حقيقة اليوم الآخر .. انه فوق التصور بشدائده وأحواله
(ثم ما أدراك ما يوم الدين) . هذا تأكيد وتضخيم لنكاله وأثقاله (يوم لا تملك
نفس لنفس شيئاً) . لا أحد يملك نفعاً ولا ضرراً في ذلك اليوم لنفسه ولا لغيره
(والأمر يومئذ لله) فهو المتفرد بالأمر والنهي ، فلا مشير ولا نصير ، بل ولا
شفيع إلا لمن اذن له الرحمن وقال صواباً .

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

٣٦ آية مكية ، وقبل مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ويل للمطففين الآية ١ - ١٧ :

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا
كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ
عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي
سِجِّينٍ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ *
الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكْذَبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ *
إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ *

الإعراب :

ويل مبتدأ، وللمطففين خبر . الذين صفة للمطففين . والمصدر من أنهم مبعوثون

سورة المطففين

ساد مسد المفعولين لفظن . ويوم يقوم « يوم » منصوب بمفعولين . وما أدراك مبتدأ وخبر ، ومثله ما سجين . وكتاب خبر مبتدأ مقدر أي هو كتاب مرقوم . والذين يكذبون صفة للمكذبين . وأثم صفة لمعتد . وأساطير خبر مبتدأ مقدر أي هي أساطير .

المعنى :

(ويل للمطففين) . الويل للحلاك والعذاب ، والمطففون فئة من الأقوياء يتاجرون بقوتهم ونفوذهم .. انهم يبيعون ويشتررون ، ولكنهم يشترون بأبخس الأثمان ، ويبيعون بأغلاها ، وفي الحالين يحققون أقصى حد من الأرباح ، ويرغون الناس بطريق الاحتكار أو بغيره على الاستسلام لجورهم ، ويبررونه باسم العمل الحر والتجارة الحرة .. وتطورت أساليب الاستغلال مع الزمن وتقدم العلم واكتشاف الأسواق ، وظهور البترول وغيره من المعادن .. وأخيراً وجد مطففو هذا العصر في صناعة الحرب وسياسة الركض وراء التسلح - أفضل الوسائل لترسيم الثروات ، وحفظ الأرباح في أعلى المستويات .

ويتنبدى تاريخ التطفيف بما أشار اليه سبحانه بقوله : (الذين اذا اكثالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) . أي كالوا لهم أو وزنوا لهم .. انهم يستعملون الكيل والميزان ، ولكن عندهم مكيالان وميزانان ، فيأخذون بالأعلى ويعطون بالأدنى .. ويدل هذا على ان المطففين كان لهم من القوة ما يكرهون به الناس على ما يريدون ، وقد تكون هذه قوة مالا أو جاهاً أو احتكاراً أو غير ذلك فالهم عندهم هو الربح أبياً كان سببه !.. ومهما كان معنى التطفيف والمطففين فإن المراد هنا كل من أخذ من الناس بالباطل أو منعهم الحق ظلماً وعدواناً .

(ألا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) . لنفترض ان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل لا يعتقدون بقاء الله وناره وجنته .. ولكن ألا يظنون ذلك أو يحمّلونه - على الأقل - ومجرد الاحتمال بأن الانسان سيقوم بين يدي رب العالمين لنقاش الحساب كافٍ في الردع والإحجام .. وكيف

الجزء الثلاثون

يحجم الانسان عما يظن بل يتوهم انه يعود عليه بالضرر اليسير في الحياة الدنيا ، ولا يحجم اذا ظن انه ملاق ربه الذي لا يفسد صغرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعاقب عليها ؟ .. اللهم إلا اذا جحد من غير شك وتردد .

(كلا) . لا يظن الذين يأكلون أموال الناس بالباطل انهم غير مبعوثين ليوم عظيم يقف فيه الناس بين يدي الله للحساب والجزاء .. قال الشيخ محمد عبده : لا فرق بين من أنكر اليوم الآخر وبين من تأوّل فيما يدفع عنه العقاب وينجيه من الحساب ، فإن التأويل لا يبتعد به عن منزلة المنكر ، بل هو معه في النار وبئس القرار (ان كتاب الفجار لفي سجين) . كتاب هنا مصدر بمعنى الكتابة . واختلفوا في معنى سجين ، وأقرب الأقوال الى الافهام انه اسم للسجل الذي أثبت فيه أسماء الفجار وأعمالهم ، واني هذا ذهب صاحب مجمع البيان لأنه قال : « هو ظاهر التلاوة » ووافقه الشيخ محمد عبده وقيل : هو من السجن بمعنى الحبس (وما أدراك ما سجين) . من الذي جعلك به دارياً ؟ فان علمه عند الله وحده (كتاب مرقوم) فيه علامات تدل على أعمال المسيئين .

(ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين) . هذا تهديد ووعيد لمن يكذب باليوم الآخر . وتقدم في العديد من الآيات . انظر سورة المرسلات (وما يكذب به إلا كل معتد أثيم اذا تلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) . ضمير به يعود الى يوم الدين ، والمراد بآياتنا القرآن .. واليوم الآخر عذاب وجحيم على الطغاة المعتدين فكيف يؤمنون به ؟ قال الشيخ محمد عبده : من كان ميلاً الى العدل في أخلاقه وأفعاله فأيسر شيء عليه التصديق باليوم الآخر ، ومن اعتدى على حقوق الناس يكاد يمتنع عليه الاذعان بأخبار الآخرة لأن في ذلك قضاء على نفسه بالسفه ، وحكماً عليها بالظلم (كلا) ليس القرآن واليوم الآخر بأساطير وخرافات كما يزعم الجاحدون (بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) . تراكت الذنوب على قلوب المجرمين حتى أعمتها عن رؤية الحق .

(كلا) . ارتدعوا عن الذنوب التي تعميكم عن الحق (انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) . لقد حجبتهم المعاصي عن الله ، وحالت بينهم وبين رحمته (ثم انهم لصالو الجحيم) . بعد أن يطردوا من رحمة الله يُقذف بهم في سواء الجحيم

سورة المطففين

(ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون) . يقول لهم ملائكة العذاب هذا القول زيادة في الابلام والتكليل . وتسلم مثله مراراً ، من ذلك الآية ٢٠ من سورة السجدة .

خاتمه ملك الآية ١٨ - ٣٦ :

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ * وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنَ التَّسْنِيمِ * غَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ تُؤْبَى الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ *

الإعراب :

ما أدراك وما ، مبتدأ وأدراك فعل ماضٍ والجملة خبر . ما عليون مبتدأ وخبر . كتاب خبر مبتدأ محذوف أي هو كتاب . غيناً مفعول لفعل مقدر أي أعني غيناً . فكهين حال ، ومثله حافظين .

المعنى :

(كلا) . ارتدعوا عن التكذيب باليوم الآخر (ان كتاب الأبرار لفي عليين) هو سجل أثبت فيه أسماء الأبرار وأعمالهم ، وقد أودع في مكان عال يتفق مع مقام الأبرار وعليه يكون معنى كتاب الكتابة (وما أدراك ما عليون) لا يدرك بوجه ، ولا يقدر بفهم (كتاب مرقوم) . فيه علامات تدل على كريم الأفعال ، وجيل الصفات (يشهده المقربون) . هذا الكتاب لا ريب فيه ، وهو محسوس يراه كل من يقترب منه . وقيل: المراد بالمقربين الملائكة (ان الأبرار لفي نعيم) . هذا بيان لثواب أهل البر والاحسان (على الأرائك ينظرون) . الأرائك الأسيرة وينظرون أي تتمتع أبصارهم بأهلى المناظر وأجملها (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) . تدل ملاحظتهم أنهم من أهل الجنة . وتقدم مثله في الآية ٣٨ من سورة عبس . (يسقون من رحيق مختم ختامه مسك) . الرحيق الخمر الصافية . وقد ختمت أوانيتها بالمسك بدل الطين (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) . نعيم الجنة هو الذي يستحق السباق والتنافس لأنه باقٍ ببقاء الله ، أما حطام الدنيا فإلى زوال ، وكل حي فيها الى فناء (ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون) . ضمير مزاجه يعود الى الرحيق ، وهذا الرحيق ممزوج بماء من عين اسمها تسنيم ، وإنما سميت بذلك لأن ماءها يأتي من العلو ، فطابق الاسم المسمى كما قال الشيخ محمد عبده . والمقربون هم الأبرار الذين أعد الله لهم ما ذكره من النعيم ، والغرض من هذه الآيات الحث والترغيب في الإيمان وصالح الأعمال .

(ان الذين أجروا كانوا من الذين آمنوا بضحكون) . بعد أن ذكر سبحانه المتقين ذكر المجرمين ، وأنهم كانوا في الدنيا يخالون ويتعالون على المؤمنين ، ويتخذون منهم مادة للضحك والسخرية .. لا شيء إلا لعجزهم عن رد الأذى (واذا مروا بهم يتغامزون) عليهم سائحين بهم كما هو دأب الاراذل والانذال (واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهن) . مثلنذير بالغبية وذكر السوء (واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون) . وهكذا الخونة يزرون بالملخصين ، والفجرة بالمتقين .. وفي تفسير الرازي : مرَّ الإمام علي (ع) ونفر من المسلمين بجماعة من المنافقين ، فضحكوا وتغامزوا ، ثم رجعوا الى أصحابهم وقالوا رأينا اليوم الأصلح ، فضحكوا

سورة المطففين

منه . فترلت هذه الآية قبل ان يصل علي الى رسول الله (ص) .
(وما أرسلوا عليهم حافظين) . ضمير أرسلوا للكفار، وضمير عليهم للمؤمنين،
والمعنى ان الله سبحانه ما أرسل الكفار رقباء على المؤمنين حتى يحفظوا أعمالهم ،
ويعصوا حركاتهم . وقال الشيخ محمد عبده : ضمير أرسلوا للمؤمنين ، وضمير
عليهم للكافرين، والمعنى قال الكافرون : ما أرسل الله المؤمنين ليرشدونا ويعظونا .
وهذا القول خلاف الظاهر وبعيد عن الافهام .

(فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون) . وضحك المؤمنين من المجرمين
في اليوم الآخر - خبر وفضيلة لأنه استخفاف بأعداء الله ، أما ضحك المجرمين
من المؤمنين في الدنيا فهو جريمة كبرى لأنه استخفاف بأولياء الله (على الأرائك
ينظرون) الى صنع الله بأعدائه وأعدائهم ، وتكيله بمن كان يهزأ بهم ويضحك
منهم (هل تُؤب الكفار ما كانوا يفعلون) . تُؤب أي جوزي . ضحك الكفار
من المؤمنين في الدنيا ، فأضحك الله المؤمنين من الكفار في الآخرة، واحدة بواحدة،
ولكن شتان ما بين الاثنين .

سُورَةُ الْأَنْشِقَاقِ

٢٥ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إذا السماء انشقت الآية ١ - ١٥ :

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ *
وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ
كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَّاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَمِينِهِ * فَسَوْفَ
يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَنَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ
كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو بُرُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ
فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا *

الإعراب :

العامل بإذا محذوف أي أذكر إذا السماء الخ وأيضاً جواب إذا محذوف أي لقي
الانسان خالقه . فلاقه خير ليندأ محذوف أي أنت ملاقيه . ومسروراً حال .
وان لن و ان و مخففة من الثقيلة أي انه . بلى إيجاب بعد النفي .

المعنى :

هذه السورة كسورتي التكوير والانفطار ، تبين أهوال القيامة ، وانقسام الناس في يوم الدين الى فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير (اذا السماء انشقت). تنشق وتنفطر حين يريد الله خراب العالم الذي نحن فيه (وأذنت لربها) . ومعنى أذن في اللغة استمع ، يقال : حدثته فأذن لي أي استمع لي ، وعليه يكون المعنى ان السماء استجابت وأذعنت لأمر الله ، وبكلمة ان الله على كل شيء قدير (وحقت) أي وحق لها ان تمثل وتنقاد لأمره تعالى لأنها مخلوقة له وفي قبضته (واذا الأرض مدت) . اذا قامت القيامة فقدت الأرض تماسكها وزال ما فيها من جبال وغيرها ، وعندئذ تصبح الأرض ملساء (وألقت ما فيها) أي ما في جوفها من الأموات وغيرهم (وتنحلت) . أصبح باطنها خالياً مما كان فيه (وأذنت لربها وحقت) تماماً كالسواء .. انه تعالى ينصرف في الكون بأرضه وسماؤه خلقاً وبقاء وفناء .

(يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فلاقه) . المراد بالكدح هنا عمل الانسان لنفسه من خير وشر ، والمعنى ان الانسان غير محلد في الحياة الدنيا ، وهو مجدّد في السير الى ربه ، وملاقه بأعماله لا محالة ، وليس بينه وبين لقاء الله إلا الموت ، وما دام العمر في إديار ، والموت في إقبال فما أسرع الملتقى .. فلينظر ناظر ماذا أعد للقاء الله وحسابه ؟ (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب الى أهله مسروراً) . كل من آمن وعمل صالحاً يؤتى غداً كتابه بيمينه ، والمراد بأهله هنا المؤمنون الصالحون من أمثاله حيث يجتمعون في الجنة على سرر متقابلين ، أما الحساب اليسير فهو الخفيف الهين الذي لا حرج فيه ولا مشقة ، وفي الحديث : من حاسب نفسه في الدنيا هان الحساب عليه في الآخرة .

(واما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثوراً ويصلي سعيراً) . المراد بمن أوتي كتابه وراء ظهره المجرم الآثم، والثور الهلاك ، والسعيير النار . وتقدم مثله في الآية ١٤ من سورة الفرقان .

وتسأل : قال تعالى هنا : ان المجرم يُعطى كتابه من وراء ظهره ، وقال في الآية ٢٥ من سورة الحاقة : « واما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابه » فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟.

وأجاب كثير من المفسرين بأن يمين المجرم تُغل الى عنقه يوم القيامة ، أما شماله فتُجعل وراء ظهره ، فيأخذ بها كتابه . وقال الشيخ محمد عبده : إتيان الكتاب باليمين أو اليسار أو وراء الظهر هو تمثيل وتصوير لحال المطلع على أعماله في ذلك اليوم .. فن الناس من اذا كُشف له عمله ابتهج واستبشر ، وهو التناول باليمين ، ومنهم من اذا تكشفت له سوابق أعماله عبس وبسر ، وتمنى لو لم تكشف له ، وهذا هو التناول باليسار ، أو وراء الظهر ، اذن لا داعي الى الجمع بين الآيتين باختراع معنى لا يليق بكتاب الله كما جرى عليه كثير من المفسرين .

(انه كان في أهله مسروراً) . كان في الدنيا ، وهو بين أهله ، يلهو ويلعب ، ولا يفكر في حساب وجزاء (انه ظن ان لن يحور) أي لن يرجع بعد الموت الى ربه ، ولا أحد يسأله عن ذنبه (بلى) . هو راجع ومسؤول ما في ذلك ريب (ان ربه كان به بصيراً) لا يخفى عليه شيء من أقواله وأفعاله ، فيحاسبه عليها ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .

فلا اقسـم بالشفق الآية ١٦ - ٢٥ :

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ
طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ * فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا
يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ *
فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ
غَيْرُ مَمْنُونٍ *

المعنى :

(فلا أقسم بالشفق) . سبق الكلام عن « لا أقسم » أكثر من مرة . انظر تفسير الآية ٧٥ من سورة الواقعة والآية ١٥ من سورة التكوين .. والشفق الحمرة الباقية في الأفق من آثار غروب الشمس ، وقد يكون الغرض من القسم هو التنبيه الى هذا الوقت لأنه مرحلة الانتقال من النهار وأتاعبه الى الليل وراحته .

(والليل اذا وسق) أي ضم وجمع ما تفرق وانتشر في النهار ، فأفراد الاسرة يجمعهم الليل بعدد ان فرقههم عمل النهار ، وكذا الجيران والأصحاب يجتمعون في الليل للسمر ، قال الشيخ محمد عبده : لا يخفى عليك ان ما انتشر بالنهار يجتمع بالليل حتى ان جناحيك اللذين تمدهما الى العمل في النهار تضمهما الى جنبك في الليل .. والليل يضم الامهات الى أفراسها ، ويرد السائحات الى منازحها (والقمر اذا اتسق) . تم وتكامل نوره ليلة ١٣ و ١٤ و ١٥ ، وتسمى هذه الليالي بالليالي البيض .

(لتركن طبقاً عن طبق) . هذا جواب القسم ، وقرىء بفتح الباء خطاباً للانسان ، وبضمها خطاباً للناس ، والمعنى لا بد أن يمر الانسان بالعديد من الأطوار ، فمن النطفة الى الجنين ، ومنه الى الطفولة ، الى الشباب ، ثم الكهولة ، الى الهرم وارذل العمر .. وأيضاً يلاقي في حياته ألواناً من الصحة والمرض ، والغنى والفقر ، والحزن والفرح .. وكذلك الجماعات تتقدم وتتأخر .. وهكذا تنصرف الدنيا بأهلها حالاً بعد حال حتى يقفوا جميعاً بين يدي الله للحساب والجزاء .

(فإلهم لا يؤمنون) مع ان الأسباب الموجبة للإيمان لا يبلغها الاحصاء في الآفاق وفي أنفسهم (واذا قرىء القرآن لا يسجدون) لا يعترفون به ولا يسلمون ، وقال الشيخ محمد عبده : لا نظن ان قرع القرآن لم يكسر أخلاق قلوبهم ، ولم يبلغ صوته أعماق ضمائرهم .. بل قد بلغ واقع فيما بلغ ، ولكن العناد هو الذي يمنعه عن الإيمان ، فليس منشأ التكذيب قصور الدليل ، وإنما هو تقصير المستدل وإعراضه عن الهدى (بل الذين كفروا يكذبون) بالحق

الجزء الثلاثون

مكابرة منهم وعناداً (والله أعلم بما يوعون) أي بما يضمرون في صدورهم من الأهداف والأغراض ، وما هي إلا الحرص على مناصبهم ومكاسبهم (فبشرهم بعذاب أليم) جزاء بما كانوا يعملون (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) . الاستثناء هنا منقطع أي ولكن الذين آمنوا الخ ، وغير ممنون أي غير مقطوع ولا منقوص ولا يمن به عليهم . وتقدم بالحرف في الآية ٨ من سورة فصلت ج ٦ ص ٤٧٦ .

سُورَةُ الْبُرُوجِ

٢٢ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُلْ
 أَصْحَابُ الْأَنْخَدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ
 عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا
 يَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ * وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا
 فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ * ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ *
 إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِيهِ وَيُعِيدُهُ * وَهُوَ الْغَفُورُ
 الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
 الْجُنُودِ * فِرْعَوْنُ وَنَمُودٌ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ
 وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * بَلِ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ *

الإعراب :

والسماء الواو للقسم . وذات البروج صفة للسماء . واليوم وما بعده عطف على السماء . وقُتِل جواب القسم ، وقيل الجواب محذوف . دل عليه قوله تعالى : « قتل أصحاب الأخدود » والتقدير : لقد ابتلي المؤمنون من قبلكم بأكثر مما ابتليهم . والنار بدل اشتمال من الأخدود . وذات الوقود صفة للنار . اذ هم واذه في محل نصب بقتل . والمصدر من أن يؤمنوا مفعول لتقموا .. وفرعون وثمود بدل من الجنود على حذف مضاف أي جنود فرعون وثمود .

المعنى :

(والسماء ذات البروج) . كل ما علاك فهو سماء ، أما البروج فقيل : هي الكواكب العظيمة ، لأن كل كوكب منها يبدو للعيان كالبرج العظيم ، وقيل : هي المنازل الاثنا عشر التي تعرفها العرب ، وتقطعها الشمس في سنة بظاهر الرؤية وهي برج الحمل والثور والجوزاء ، والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والسدلو والحوت .. وسواء أريد المعنى الأول أم الثاني أم هما معاً فإن الغرض هو التنبيه الى ما في الكواكب من دقة الصنع وبالف الحكمة نستدل بذلك على وجود الخالق وعظمته (واليوم الموعود) هو يوم القيامة .

(وشاهد ومشهود) . تعددت الأقوال وتضاربت في معنى الشاهد والمشهود هنا ، وقد أنهى بعض المفسرين الأقوال الى ٤٨ قولاً ، منها ١٦ في معنى الشاهد ، و ٣٢ في معنى المشهود .. وقال الشيخ محمد عبده : المراد بالشاهد هنا كل ما له حس يشاهد به ، والمراد بالمشهود الشيء المحسوس الذي وقعت عليه المشاهدة ، واستدل على صحة هذا التفسير بأمرين : الأول انه الحقيقة الظاهرة من دلالة اللفظ . الثاني ان الله سبحانه أقيم أول ما أقسم بكواكب السماء ، وفي هذه الكواكب غيب وشهادة ، أما الشهادة فلأن نورها وحركاتها وطلوعها ومغيبها كل ذلك يرى بالحس والمشاهدة ، وأما الغيب فلأن حقيقتها وما فيها من قوى لا يدرك بالمشاهدة والحواس .. ثم أقسم سبحانه باليوم الآخر ، وهو غيب صرف

لا يتصل بالمشاهدة من قريب أو بعيد ، ثم أقسم بالشاهد والمشهد أي بما هو شهادة صرف ، وعلى هذا يكون سبحانه قد أقسم بجميع العوالم ، سواء منها ما كان من عالم الغيب فقط ، أم من عالم الشهادة فقط : أم منها معاً ، والغرض من ذلك هو ان يلفت الناظرين الى الكائنات بشئ أنواعها ، ويعتبروا بما ظهر منها من الإحكام والنظام ، ويبدلوا الجهد لمعرفة ما غاب واستتر .

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ) . الْأُخْدُودُ شَقٌّ فِي الْأَرْضِ يَحْفَرُ مُسْتَطِيلًا ، وَأَصْحَابُهُ قَوْمٌ كَافِرُونَ لَهُمْ بَأْسٌ وَسُلْطَانٌ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِمْ ذُو نَوَاسٍ وَقَوْمُهُ ، وَهُوَ أَحَدُ مَلُوكِ الْيَمَنِ . وَأَيًّا كَانَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ تَشِيرُ إِلَى أَنَاثِ طِفَاةٍ قَدْ حَفَرُوا خَنْدَقًا وَأَضْرَمُوهُ نَارًا تَسْطَعُ بِاللَّهَبِ ، ثُمَّ جَاءُوا بِالْمُؤْمِنِينَ الْمَخْلُوعِينَ وَعَرَضُوهُمْ عَلَى النَّارِ ، فَمَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَوَاقَفَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْبَغْيِ تَرَكَوهُ ، وَمَنْ أَصْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ أَحْرَقُوهُ ، وَهُمْ قَاعِدُونَ عَلَى جَوَانِبِ الْخَنْدَقِ حَوْلَ النَّارِ يَتَلَذَّذُونَ وَيَتَمَتَّعُونَ بِمُشَاهَدَةِ الْأَجْسَامِ تَحْتَرِقُ حَيَّةً طَرِيَّةً (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) . هَذَا هُوَ ذَنْبُهُمُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ هُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ مَالِكُ الْمَلِكِ الْقَادِرِ الْقَاهِرِ الْعَالَمِ بِكُلِّ شَيْءٍ وَالْمُسْتَحَقُّ وَحْدَهُ لِلْحَمْدِ . وَوَصَفَ سُبْحَانَهُ نَفْسَهُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ لِلإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ لَا مَفْرَاطَ لِلطَّغَاةِ مِنْ سُلْطَانِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ . وَمِثْلُهُ « أَنْتَقِلُونَ رِجَالًا » أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ - ٢٨ غَافِرٌ .

(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) . بَعْدَ أَنْ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إِلَى أَهْلِ الْأُخْدُودِ الْجَبَّارَةِ عَرَضَ بَعَاثَةَ قَرِيشَ الَّذِينَ آذَوْا الْمُؤْمِنِينَ لِيَفْتَنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَيُرْدُوهُمْ كُفْرًا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ ، وَقَدْ هَدَّوْهُمْ سُبْحَانَهُ إِذَا لَمْ يَرْتَدَّعُوا ، هَدَّوْهُمْ وَنَوَّعَهُمْ بِأَلِيمِ الْعَذَابِ .. وَعَطَفَ عَذَابَ الْحَرِيقِ عَلَى عَذَابِ جَهَنَّمَ مِنْ بَابِ عَطَفَ التَّفْسِيرِ وَالتَّوَضُّيعِ ، وَالْغُرْضُ مِنْهُ تَأْكِيدُ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ ، وَزِيَادَةُ التَّخْوِيفِ وَالتَّهْوِيلِ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) . تَقْدِمُ مِثْلُهُ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْآيَاتِ ، وَجَاءَ ذِكْرُهُ هُنَا عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَيْثُ يَقْرُنُ هَلَاكُ الْمَجْرِمِينَ بِفَوْزِ الْمُتَّقِينَ ، وَنَعِيمِ هَؤُلَاءِ بِجَحِيمِ أَوْلَئِكَ (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) . الْبَطْشُ

الأخذ بعنف ، فكيف إذا كان شديداً، ومن جبار السموات والأرض ؟. والخطاب هنا لرسول الله (ص) والغرض منه تهديد الذين يؤذون الرسول ومن آمن معه (انه هو يبدىء ويعدى) . ومن كان قادراً على بدء الخلق واعادته فهو على البطش بالطغاة أقدر (وهو الغفور الودود). لما ذكر سبحانه شدة العذاب قرنها بمغفرته ولطفه ليرجع اليه العاصون بالتوبة ولا يأسوا من رحمته ، فإن غضبه تعالى على المذنبين لا يمنعه من الرحمة بهم (ذو العرش المجيد) صاحب الملك والسيطرة .

(فعال لما يريد) . ومراده تعالى يتحقق بمجرد ارادته من غير حاجة لشيء آخر ، قال الإمام علي (ع) : « فاعل لا باضطراب آلة مقدر لا بجولة فكر .. يريد ولا يضمر .. يقول لمن أراد كونه : كن فيكون لا بصوت يقرع ، ولا بنداء يسمع ، وانما كلامه سبحانه فعل منه » . وقد أراد ، جلّت حكمته، هلاك الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم فكان ما اراد (هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود) . وهم من الذين اهلكهم الله بتكذيب رسلهم ، وهل هنا بمعنى قد مثل « هل اتى على الانسان » . والمعنى قد سمعت يا محمد وسمع قومك ما حل بتمود قوم صالح وبفرعون وملته ، وكيف انتقم الله منهم لما كذبوا الرسل ، فكذلك ينتقم سبحانه من الذين كذبوك متى أراد .

(بل الذين كفروا في تكذيب) . ان فئة من الذين كفروا ، ومنهم عتاة قريش يجحدون الحق لالشيء إلا لأنهم مولعون بتكذيبه ومعاندته ايئاً كان ويكون، وإلا فأى عذر لهم في انكاره وقد قامت عليه الدلائل والبيّنات، وظهرت كوضوح النهار ؟. (والله من ورائهم محيط) . انهم في قبضة الله بقلوبهم كيف يشاء ، ويهلكهم متى أراد .. وفيه ايماء الى انهم لا يرتدعون عن التكذيب بالحق حتى يروا العذاب (بل هو قرآن مجيد) عظيم الشأن ، لأن كل ما فيه حق وعدل مع قيام الحجة ووضوح البرهان ، وما كذب به إلا المجرمون (في لوح محفوظ) من التحريف مصون من التغيير والتبديل .. وللمفسرين كلام طويل وعريض حول اللوح المحفوظ ، ونحن غير مسؤولين عن تحديده ومعرفة حقيقته .. والراسخون في العلم يؤمنون بالغيب المحجوب ، ويحجمون عن الشروح والتفاصيل .

سُورَةُ الطَّارِقِ

١٧ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ * وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ * لَئِنْهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَآكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمِلُهُمْ رُوَيْدًا *

الإعراب :

والسمااء الواو للقسام . والطارق عطف على السماء . وما أدراك ما ، اللفظ استفهام والمعنى التعجب ، وعملها الرفع بالابتداء ، وأدراك فعل ماضٍ ، والكاف مفعول ، والفاعل مستتر ، والجملة خبر . وما الطارق مبتدأ وخبر . والنجم بدل من الطارق . والثاقب صفة النجم . وإن نافية ، وكل نفس مبتدأ : ولما بمعنى إلا ، وحافظ خبر ، والجملة جواب القسم . فلينظر مجزوم بلام الأمر . ودافق صفة لماء ، وهو اسم مفعول بصيغة اسم الفاعل أي مدفوق مثل عيشة راضية أي مرضية . ويوم تبلى « يوم » متعلق برجعه . وذات الرجع صفة للسماء . وذات

الصدع صفة للأرض . انه نقول فصل جواب القسم . ورويداً صفة لمفعول مطلق محذوف أي امهالاً رويداً والمعنى امهالاً قليلاً .

المعنى :

(والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب) . كل ما علاك فهو سماء ، وكل ما أُنْكَ ليلاً فهو طارق ، ولا يكون الطروق إلا في الليل ، والمراد بالطارق هنا النجم الثاقب لأن النجم لا يظهر إلا ليلاً . والثاقب هو المضيء ، تقول العرب : أثقب نارك أي أضئها ، وقد وُصف به النجم لأن ضوؤه يثقب الظلام ، كأن الظلام جلد أسود ، والنجم يثقبه بضوئه . وصيغة وما أدراك تشعر بتفخيم الشيء وتعظيم شأنه .. اقسم سبحانه بالنجم المضيء لينبه الى ما فيه من عظيم النفع ، وعجيب الصنع ، اما المقسم عليه فقد أشار اليه سبحانه بقوله (ان كل نفس لما عليها حافظ) يحفظ أقوالها وأعمالها ، ويحصي حركاتها وأسرارها حتى ينتهي اجلها ، وتلقى ربها ، فتجد عنده ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ، وبتعبير ثانٍ : وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً - ١٧ الإسراء ج ٥ ص ٣٢ .

(فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) . الماء الدافق هو النطفة ، والصلب كل عظم من يظهر فيه فقار ، والترائب موضع القلادة من الصدر ، والمراد بالصلب صلب الرجل ، وبالترائب ترائب المرأة ، وهما مصدر النطفة التي يتولد منها الانسان ، ومنذ أمد غير بعيد اهتدى العلم الحديث الى هذه الحقيقة التي جاءت على لسان الأنبياء العربيين ، ومعنى الآية اذا عرفت أيها الانسان ان الله سبحانه يعلم شرك وجهرك فعليك أن تنظر الى نفسك ، وتفكر في وجودك ، فلقد بُدئت من نطفة خرجت من ظهر أهلك وترائب أمك ، ثم وضعت في قرار مكين ان أجل معلوم .. الى ان صرت في أحسن تقويم مملوءاً بالحياة والعاطفة والادراك ، فكر وتدبر ذلك لتعلم ان الذي أنشأك وهذاك قادر على ان يعيدك ثانية الى الحياة ، وهذا معنى قوله تعالى : (انه على رجعه لقادر) . فالنشأة الأولى تشهد بالنشأة الثانية (يوم تبلى السرائر) فله من قوة ولا ناصر .

سورة الطارق

السرائر جمع سريرة، وتُجلى أي تُختبر بكشفها وإظهارها ، والمعنى ان الله سبحانه يبعث الانسان في يوم لا ستر فيه ولا خفاء ، ولا جدال ولا حجاج ، ولا حول ولا قوة لأحدٍ من نفسه أو من غيره إلا قوة الإيمان وصالح الأعمال .

(والسماء ذات الرجوع والأرض ذات الصدع) . الرجوع الماء ، والصدع النبات . اقسم سبحانه بالسماء التي تفيض بماء الحياة، وبالأرض التي تجود بالخيرات والأقوات (انه لقول فصل وما هو بالهزل) . ضمير انه للقرآن ، وهو جسد لا عبث فيه ، وحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وهذا رد على من قال: انه سحر وأساطير (انهم يكيّدون كيّداً وأكيّد كيّداً فهل الكافرين امهلهم رويداً) . ضمير انهم يعود الى الذين كذبوا الرسول الأعظم (ص) ، ويكيّدون أي يدبرون الدسائس والمؤامرات ضد الرسول والمؤمنين ، وأكيّد أبطل كيدهم ، وانقض مؤامراتهم ، ورويداً قليلاً ، والمعنى اني بالمرصاد - يا محمد - لمن يحاول ابطال أمرك بالدسائس والمكايد .: انتظر قليلاً ، وترى ما يحل بهم من الخزي والنكال . وتقدم مثله مع التفسير في الآية ٥٤ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٦٨ فقرة ١ الله خير الماكرين .

سُورَةُ الْأَعْلَى

١٩ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى *
وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى * سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى *
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى * فَذَكَرْ *
إِنْ نَفَعْتَ الذَّكَرَى * سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي
يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْشَى * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى *
وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ
وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى *

الإعراب :

اسم ربك مفعول به لسبح ، وهذا الفعل يتعدى بنفسه كهذه الآية وبالباء
كقوله تعالى : « فسبح بحمد ربك - ٣ النصر » . والأعلى صفة لربك ، ومثله
الذي خلق . فلا تنسى « لا » نافية أي فلا تنسى . وما شاء « ما » بمعنى الذي
ومحلها النصب على الاستثناء أي لا تنسى شيئاً من القرآن إلا الذي أراد الله أن
تنساه منه . والذي يصلّى النار نعت للأشقى .

المعنى :

(سُبْحَ اسم ربك الأعلى) . الخطاب خاص بالرسول (ص) والتكليف بعم
الجميع ، والمعنى نزه الله عن الشريك والصاحبة والولد ، وكل ما لا يليق بعظمته
وجلاله ، ولا شيء أدل على تنزيه الخالق من كلمة « لا إله إلا الله » ، وانما أمر
سبحانه بتسبيح الاسم دون الذات لأن مبلغ جهد الانسان ان يعرف الله بأسمائه
الحسنى وصفاته العظمى ، أما الذات فلا تقع عليها العقول والافهام (الذي خلق
فسوى) . خلق ما خلق فأقام حله ، وصوّر ما صوّر فأحسن صورته (والذي
قدّر فهدى) . جعل لكل شيء غاية ويسره إليها ، وخير تفسير لهذه الآية قول
الإمام علي (ع) : قدر ما خلق فأحكم تقديره ، ودبره فألطف تدبيره ، ووجهه
لوجهته فلم يتعد حدود منزلته ، ويقصر دون الانتهاء لغايته (والذي أخرج المرعى)
متاعاً للأنعام، ورزقاً للأنعام (فجعله غناء أحوى) . الغناء الجاف اليابس، والأحوى
يميل لونه الى السواد، وبديه ان النبات يُنتفع به غصناً طرياً، وأيضاً ينتفع به هشيماً
بالأ حيث يكون علفاً للحيوانات .. وفيه إيماء الى ان كل حي الى زوال .

(سنفركك فلا تنسى) . هذه بشرى من الله لنبية الكريم بأن القرآن سيبزل
على قلبه ويرسخ فيه ، ولا يفوته منه حرف واحد . وتقدم مثله في الآية ١٧ من
سورة القيامة (الا ما شاء الله) . قال بعض المفسرين : معناه ان الله لا يُنسي
نبية شيئاً من القرآن إلا الآية التي ينسخها . ونحن مع الذين قالوا : ان الغرض
من الاستثناء هو التنبيه على ان الحفظ وعدم النسيان هو تفضل وتكرم من الله على
نبية ، وليس بالأمر بالآمر والواجب ، ولو أراد سبحانه أن يُنسي النبي لفعل ،
ولم يعجزه شيء ، ومثله « خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء
ربك ان ربك فعال لما يريد - ١٠٧ هود » أي ان الخلود هو بمشيئة الله وارادته
ولو أراد اخراجهم من جهنم لا يمنعه من ذلك مانع .

(انه يعلم الجهر وما يخفى) . ليس من شك ان الله بكل شيء عليم، وأشار
سبحانه هنا الى ذلك بعد ذكر النسيان ليُقول لنبية الكريم : نحن نعلم ما في نفسك
وانك كنت تخاف أن يفوتك شيء من القرآن .. كلا ، لن يفوتك شيء . كن
في أمان واطمئنان (ونيسرك للنيسرى) . المراد باليسرى الشريعة السهلة السمحة ،

والمعنى ان الله سبحانه يسهل لك يا محمد سبيل الوحي بآياته وأحكامه حتى تحفظها وتبلغها وتعمل بها كما أراد الله .

(فذكر ان نفعت الذكرى) . ليس من شك ان التذكير واجب حتى مع العلم بأنه لا يجدي نفعاً لالتقاء الحجة وقطع المعثرة والا امتنع الحساب والعقاب ، قال تعالى : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ١٦٥ النساء . وعليه تكون « ان » هنا بعيدة كل البعد عن معنى الشرط والعقيد ، وان المراد بها بيان الواقع أي ان الذكرى ينتفع بها من يتنهي الهداية ، أما من يصير على الضلال فلا ينتفع بشيء ، ويدل على ارادة هذا المعنى قوله تعالى بلا فاصل : (سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى) . فالذكرى تنفع لا محالة من يوقظه الخوف من الله ، ولا يعرض عنها إلا شقي أعمت الشهوات بصيرته ، وغلبت عليه شقوته (الذي يصلي النار الكبرى) بشدائدها وأهوالها (ثم لا يموت فيها ولا يحيا) . ونفسه بقوله تعالى : « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها » ٣٦ فاطر ، ج ٦ ص ٢٩٣ .

وقال الشيخ محمد عبده وهو يفسر « فذكر ان نفعت الذكرى » : اياك ان تخدع بما يقوله اولئك الذين يلبسون لباس العلماء ، ويزعمون مزاعم السفهاء من انه لا يجب عليهم التذكير لأنه لا ينفع ، ويحتجون بقوله تعالى : « فذكر ان نفعت الذكرى » فإن ذلك منهم ضلال وتضليل ، ولو صدق قولهم لما وجب التذكير في وقت من الأوقات لأنه لا يخلو زمان من معاندين ، ولا يسلم قاتل من جاحدين ، وقد يعرف بعضهم انه ينطق عن الهوى ولكنه يدافع عن جبنه . ويحتاج لكسله ، ويجب ان يزين نفسه في عين الناس ، وان أوقعها في سخط الله .

(قد أفلح من تزكى) . المراد بالفلاح هنا النجاة من غضب الله وعذابه ، وبالتزكية التطهير من الذنوب والآثام (وذكر اسم ربه فصلى) . المراد بالذكر هنا ما يقرب من الخير ، ويبعد عن الشر ، أما حركة اللسان من حيث هي فليست غاية في نفسها .. ولا شيء من أمر الله ونبيه إلا وهو وسيلة لفعل الخير والبعد عن الشر ، وكفى دليلاً على هذه الحقيقة قول الرسول الأعظم (ص) : انما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق ، وقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ١٠٧ الأنبياء ، أما الصلاة فالمراد بها الصلوات الخمس لأنها عمود الدين .

سورة الأعلى

(بل تؤثرن الحياة الدنيا) . هنا يكمن السر الأول والأخير لإعراض من أعرض عن الحق عامداً متممداً .. ملكته الدنيا ملك السيد لعبده ، وأقبل عليها إقبال الطفل على ثدي أمه ، فذهبت به عن الله والحق والانسانية (والآخرة خير وأبقى) بل لا خير في الدنيا إطلاقاً إلا ما كان وسيلة لخير الآخرة ، لأن عمار الدنيا الى خراب ، وسلطانها الى زوال ، ومالها الى فساد . وفي نهج البلاغة : كل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه ، وكل شيء في الآخرة عيانه أعظم من سماعه . واعلموا ان ما نقص من الدنيا وزاد في الآخرة خير مما نقص من الآخرة وزاد في الدنيا .

(ان هذا لفي الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى) . هذا اشارة الى قوله تعالى : « قد أفلح من تزكى » والمعنى ان دعوة الرسل من ناحية العقيدة واحدة لأن الذي أرسلهم واحد ، وقوله واحد لا تهافت فيه ولا تناقض ، واذا كان هناك اختلاف فهو في بعض الفروع التي يستدعيها تطور الزمن وتغير المجتمع ، وما دام الأمر كذلك فعلى من يؤمن بابراهيم كالعرب وبموسى كاليهود أن يؤمنوا أيضاً بمحمد (ص) وإلا كانوا من الذين يؤمنون بالمبدأ الواحد ويكفرون به في آن واحد .

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

٢٦ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وَجُوهُ يُومِئِدُ خَاشِعَةً * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ *
تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آيِسَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ
ضَرِيرٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ * وَجُوهُ يُومِئِدُ نَاعِمَةً *
لِسَعْيِهَا رَاضِيَةً * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَافِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ
جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوعَةٌ *
وَزَرَّائِبُ مَبْنُوعَةٌ * أَفْلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ
كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ *
فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ *
فَعَذَابُ اللَّهِ أَلْعَذَابِ الْأَكْبَرِ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا
حِسَابَهُمْ *

الإعراب :

قال ابن خالويه في كتاب إعراب ثلاثين سورة : هل لفظه استخهام ، ومعناه « قد » وكل ما في القرآن من « هل أنك » فهو بمعنى قد أنك . وجوه مبتدأ وخاشعة خبر ويومئذ متعلق به ، وعاملة خبر ثانٍ وناصة خبر ثالث . وراضية بدل من ناعمة ولسعيها متعلق براضية . وفيها خبر مقدم ، وسرر مبتدأ مؤخر ، ومرفوعة نعت لسرر . كيف مفعول مطلق بمعنى أي خلق خلقت أو حال أي على أي حال خلقت . الا من تولى استثناء منقطع أي لكن من تولى .

المعنى :

(هل أنك حديث الغاشية) . الخطاب للرسول (ص) ولكن السبب الموجب بعم الجميع ، والغاشية القيامة ، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بشدائدها وأهوالها ، والمعنى هل تعرف شيئاً عن يوم القيامة ؟ .. ان الناس فيه فريقان : الفريق الأول (وجوه يومئذ خاشعة) يظهر عليها أثر الذل والخزي والهوان (عاملة ناصبة) من النصب وهو التعب ، والمعنى ان أصحاب هذه الوجوه عملوا في الدنيا كثيراً ، وتعبوا كثيراً ، ولكن لغير الله .. فما أصابوا من عملهم إلا التعب والكد في الدنيا ، والحسرة والعذاب في الآخرة ، فكان المهناً لغيرهم ، والعبء على ظهرهم . وفي نهج البلاغة : ان أخسر الناس صفقة ، وأخيبهم سعيًا رجل أخلق بدنه في طلب ماله ولم تساعده المقادير على إرادته ، فخرج من الدنيا بحسرتة ، وقدم على الآخرة بتيبته (تصلى ناراً حامية) تُكوى بنار مستعرة (تُسقى من عين آنية) وهي الشديدة الحرارة ، من أنى الماء يأتي اذا سخن ، وبلغ من الحرارة غايتهما ، ومثله « يطوفون بينها وبين حميم آن - ٤٤ الرحمن » (ليس لهم طعام إلا من ضريع) قال صاحب القاموس المحيط : الضريع نبت لا تقر به دابة لحبته . ومهما يكن فإنه رديء وبيل ، ويكنى أن يكون طعام أهل النار (لا يسمن ولا يغبني من جوع) لا يدفع ضرراً ، ولا يجلب نفعاً .

وهذا هو الفريق الثاني : (وجوه يومئذ ناعمة) ذات بهجة وحسن (لسيها راضية) رضيت أجزها في الآخرة على عملها في الدنيا (في جنة عالية) رفيعة وعظيمة في جميع صفاتها ومزاياها ، ومثله : فهو في عيشة راضية في جنة عالية - ٢١ الحاقة . (لا نسمع فيها لائحة) كلاماً لا جدوى منه ، ومثله : لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً - ٢٥ الواقعة . (فيها عين جارية) جنات تجري من تحتها الأنهار (فيها سرر مرفوعة) عن الأرض (وأكواب موضوعة) على جانب العين ، فإذا أرادوا الشراب تناولوا بها الماء (ونمارق مصفوفة) النارق جمع نمرقة ، وهي الوسادة - المسند أو المخدة - (وزرابي مبثوثة) الزرابي البسط ، ومبثوثة متفرقة هنا وهناك ، وكل ما جاء هنا في وصف الجنة هو بعض ما تقدم في عشرات الآيات ، وكل ما قيل أو يقال في وصفها فهو تفسير وبيان لقوله تعالى : « وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين » - ٧١ الزخرف .

(أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت) . وتساءل : لماذا خص سبحانه الإبل بالذكر دون الحيوانات ؟ .

وأجاب الشيخ محمد عبده بأنها أفضل دواب العرب وأعمها نفعاً ، ولأنها خلق عجيب ، فإنها على شدتها تنقاد للضعيف ، ثم في تركيبها ما أعد لحمل الأثقال ، وهي تبرك لتحمل ، ثم تنهض بما تحمل مع الصبر على السير والعطش والجوع ، وفيها غير ذلك ما لا يماثلها حيوان آخر .

(والى السماء كيف رفعت) فوق الأرض بكواكبها اللامعة النافعة (والى الجبال كيف نصبت) أوتاداً للأرض : فسكنت على حركتها ، ولولا الجبال لمادت بأهلها ، وزالت عن مواضعها (والى الأرض كيف سطحت) فجعلها الله خلقة مهاداً يقيمون عليها ويمشون في مناكبها. وتجدر الإشارة الى ان المراد بالتسطيح هنا تسطيط الأرض في رؤية العين لا في الواقع ، وقد أشار سبحانه الى كروية الأرض في الآية ٥ من سورة الزمر . أنظر ج ٦ ص ٣٩٥ . وقال الشيخ محمد عبده : انما حسن ذكر الجبال مع السماء والجبال والأرض لأن هذه المخلوقات هي ما تقع تحت نظر العرب في أوديتهم وبواديهم .

(فذكر انما أنت مذكر) . هذا أبلغ وأوضح تحديد لمهمة الرسول : التذكير ،

سورة الفاشية

ومثله « وما على الرسول إلا البلاغ المبين - ٥٤ النور » . (لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر ان اليينا اياهم ثم إن علينا حسابهم) .
لست - يا محمد - مسلطاً عليهم حتى تُكرههم على الايمان ، ولكن ليس معنى هذا ان الذين كذبوك يتركوك سدى .. كلا ، انهم اليينا راجعون ، وبأعمالهم ومقاصدهم مرتنون ، ولا جزاء لهم إلا عذاب الخزي والهنون .

سُورَةُ الْفَجْرِ

٣٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والفجر ولبال عشر الآية ١ - ١٦ :

وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَبْرِ * أَلَمْ نَرِ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ ظَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ * فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ *

الإعراب :

والفجر الواو للقسام . ولبال عطف . وعشر صفة للبال . والأصل يسري بالياء ، وحذفت لتوافق رؤوس الآيات والكسرة دليل عليها . وإرم لا تنصرف

للتعريف والتأنيث وهي اسم قبيلة ، وإعرابها بدل أو عطف ببيان لعاد . وذات العباد صفة لإرم . والتي لم يخلق صفة ثانية . ونمود عطف على عاد ، وهو اسم لا ينصرف للتعريف والتأنيث لأنه اسم قبيلة والذين جابوا نعت له . الانسان مبتدأ . واذا ما ، ما ، زائدة . وجملة يقول خبر لمبتدأ محذوف أي هو يقول والجملة منه ومن خبره خبر الانسان . والأصل أكرمني وأهانني وحلفت الياء للوقف وتدل عليها الكسرة على نون الوقاية .

المعنى :

(والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل اذا يسر) . المراد بالفجر كل فجر أخذاً بظاهر اللفظ ، أما ليال عشر فلا ظهور لها في عشر معينة ، ولا قرينة تعينها ، ولا هي معهودة لنا ، ومن أجل هذا نسكت عما سكنت الله عنه ، أما القول بأنها أوائل ذي الحجة أو المحرم أو الأواخر من رمضان - فيحتاج الى دليل .. وحاول الشيخ محمد عبده ان يعينها بالأوائل من كل شهر، وانفذ وسمعه ، ولكنه لم يأت بحجة مقنعة .. والغريب ان تلميذه المراغي قلّده في كل ما قال ، ونقل عبارته - على طولها - دون أن يشير الى مصدرها كما هي عادته .. وفي تفسير الشفع والوتر أقوال ، أقربها الى ظاهر اللفظ أنها اشارة الى الحساب وضبط المقادير ، وأقسم سبحانه بالحساب للتنبيه الى فوائده . والمراد بيسر الليل مضيه وذهابه ، وبهذا جمع سبحانه في قسمه بين اقبال النهار وادبار الليل، كما في الآية ٣٣ من سورة المدثر : « والليل اذا أدبر والصبح اذا أسفر » .

(هل في ذلك قسم لذي حجر) . هذا الاستفهام لتقرير السواقع ، والمراد بالقسم هنا الحجة والدليل لأن فيه تأكيداً لثبوت الحق ، والحجبر - بكسر الحاء وسكون الجيم - له معان منها ديار نمود ، وحجر الكعبة : والمراد هنا العقل لأنه يحجر صاحبه ويمنعه عن كثير من التصرفات ، والمعنى ان في الأشياء التي أقسم بها سبحانه حجة كافية على وجود الله وقدرته وحكمته لأن ما فيها من التدبير والحكمة يدل على ذلك بوضوح تماماً كما يدل الزرع على وجود الزارع .

(ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات الجوارح التي لم يخلق مثلها في البلاد) .
 عاد قوم هود ، وارم اسم قبيلة عاد نسبة الى أحد أجدادها المسمى بإرم . وقال
 الشيخ محمد عبده : المراد بالعماد هنا أعمدة خيامهم ، أو هو كناية عما كان لهم
 من القوة والمنعة .. والأقرب الى الصواب ان المراد بالعماد هنا المباني والمصانع لأن
 نبهم قال لهم مفرعاً : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم
 تخلدون - ١٢٨ الشعراء » . أجل ، نحن مع الشيخ محمد عبده في قوله : « روى
 المفسرون هنا حكايات في تصوير إرم ذات الجوارح ، كان يجب أن ينزه عنها
 كتاب الله ، فإذا وقع اليك شيء من كتبهم ، فتخط بصرك ما تجده في وصف
 إرم وإياك ان تنظر فيه » . وتقدم الكلام عن عاد ونبهم هود في ج ٣ ص ٣٤٧
 وج ٤ ص ٢٣٩ وج ٥ ص ٥٠٨ وغير ذلك .

(وثمود الذين جابوا الصخر بالواد) . ثمود قوم صالح . وجابوا الصخر
 إشارة الى ما جاء في الآية ١٤٩ من سورة الشعراء : « وتحتون من الجبال بيوتاً
 فارحين » . وتقدم الكلام عن ثمود ونبهم صالح في ج ٣ ص ٣٥٠ وج ٤ ص ٢٤٤
 وج ٥ ص ٥١١ وج ٦ ص ٢٦ وغير ذلك (وفرعون ذي الأوتاد) أي المباني
 العظيمة الثابتة كالأهرام (الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم
 ربك سوط عذاب) . الذين وما بعده صفة لعاد وثمود وفرعون ، وخص سبحانه
 السوط لأنه يومئذ الى تكرار العذاب ، وقد أخذ سبحانه عاداً بالريح ، وثمود
 بالصيحة ، وفرعون وقومه بالفرق (ان ربك لبالمرصاد) . هذا جواب القسم
 في أول السورة ، وقيل الجواب محذوف والتقدير ليعذب المجرمين ، والنتيجة واحد
 على التفسيرين ، والمعنى واضح ، وهو انه تعالى يعلم مقاصد العباد وأفعا لهم ،
 ويجازيهم بحسبها .

(فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن وأما اذا
 ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن) . الانسان هنا اسم جنس ، وأكرمه
 ونعمه وسع عليه في الرزق : وقدر عليه ضيق عليه ، والايلاء الاختيار ، ومعنى
 اختباره سبحانه لعبده ان يوجد له شيئاً يختار به . وقدر عليه ضيق الفقر : فان
 شكر مع الغنى وصبر مع الفقر استحق الثواب . وقد كفر مع السع الفقر وطغى مع

الغنى استحق العذاب ، وبكلام آخر ان الاختبار منه تعالى هو ان يُوجد المحك الذي يُظهر أفعال الطيب والخبيث تمهيداً لجزاء من أحسن بالحسنى ، ومن أساء بما كسبت يده مع قيام الحجّة عليه بما ظهر من اساءته .. هذا شأن الله مع عبده الانسان ، أما شأن الانسان الضال فهو ان يقيس كرامته عند الله بما يمن عليه من نعمه ، فان وسع الرزق عليه ظن انه أقرب المقربين الى الله ، وأنه لا يسأله عن شيء ولا يعاقبه على شيء مما قال وفعل ، وينطبق هذا تماماً على عتاة المشركين ، فقد كانوا يستدلون على اكرام الله لهم بكثرة الأموال ، وعلى اهانتهم تعالى للمؤمنين بالفقر والعوز .. واذا ضيق تعالى على الضال في الرزق عسى أن يتوب ويرتدع ظن ان الله قد أذله وأهانته ، وكفى بالعبد لوماً وتمرداً على خالقه ان يظن به ظن السوء . وعن الإمام علي (ع) : اذا ضاق المسلم فلا يشكون من ربه ، ولېشك الى ربه الذي بيده مقاليد الأمور . وتقدم مثله في الآية ٣٥ من سورة الأنبياء ج ٥ ص ٢٧٥ .

وتحبون المال حباً جماً الآية ١٧ - ٣٠ :

كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ *
وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ آلَاءَ حُبًّا جَمًّا *
كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ * يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * إِنَّجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً *
فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي *

الإعراب :

كلا حرف ردع وزجر . وتحاضون الأصل تتحاضون لأن المعنى لا يحض بعضهم بعضاً . ولما صفة لأكل . وجملاً صفة لحب . ودكاً حال أي مكرراً . وصفاً مصدر في موضع الحال أي مصطفين . والذكرى مبتدأ مؤخر وانتي خبر مقدم . وراضية حال وكذلك مرضية .

المعنى :

- (كلا) . ليست الكرامة عند الله بالمال ، بل بالتقوى، ولا الاهانة بالفقر ، بل بسوء المقاصد والأعمال (بل) أنتم أشر خلق الله للأسباب التالية :
- ١ - (لا تكرمون اليتيم) . لا تحسنون الى المشردين الذين لا حامي لهم ولا كفيل من الدولة ولا من ذويهم ، ولا تهتمون بشأنهم ورعايتهم .
- ٢ - (ولا تحاضون على طعام السكين) . لا يحث بعضهم بعضاً على البذل والانفاق من أجل البائسين وإصلاح شأنهم .
- ٣ - (وتأكلون التراث أكلاً لما) . التراث هو المال الذي ينتقل من الميت الى ورثته، والم شديد، وأكثر الثروات الموروثة فيها حق معلوم للسائل والمحروم ، ولكن الورثة يحرمون صاحب الحق من حقه .
- ٤ - (ونحبون المال حباً جماً) ميراثاً كان أم غير ميراث ، حلالاً كان أم حراماً ، والجلم معناه الكثير .
- (كلا) . لا ينبغي للإنسان أن يشح بالمال في سبيل الخير فانه مسؤول عن ذلك (اذا دُكت الأرض دكاً دكاً) . الدك الدق والضرب ، وتكرار كلمة الدك تشير الى النتائج أي دكاً بعد دك ، والمعنى تزول الجاذبية والتماسك بين أجزاء الأرض يوم القيامة ، ويهلك بعضها بعضاً ، ويتوالى الدك والضرب حتى ينهار كل ما على وجه الأرض من جبال وعمار.وتقدم مثله في الآية ١٤ من سورة الحاقة (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) . جاء ربك أي أمره وقضاؤه وهيبته وجلاله وحكمه وسلطانه ، وصفاً صفاً أي صفوفاً متعددة (وجيء يومئذ بجهنم) .

يكشف عنها يوم القيامة لكل ناظر . وتصيح في عالم الشهادة بعد ان كانت في عالم الغيب .

(يومئذ يتذكر الانسان وانى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي) . قال الناصحون والمنذرون للمجرم المتمرد : اعمل لحياتك في الدنيا والآخرة . فقال : وأية آخرة ؟ .. انها وهم وخيال .. ولما جاء يوم الفصل ، ورأى مكانه في جهنم قال : هنا حياتي الباقية ومقري الدائم ، أما الحياة الدنيا فقد كانت ممراً ومجازاً .. يا ليتني أخذت من الفائدة الى الباقية .. نسي الآخرة وهو في الدنيا حيث تنفسه التوبة والذكرى ، وتذكر وهو في الآخرة .. وانى له الذكرى ؟ (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) . قرىء لا يعذب ولا يوثق بالبناء للفاعل ، وأيضاً قرىء بالبناء لمفعول لم يسم فاعله ، والمعنى على القراءتين ان أسوأ عذاب من عذاب الدنيا هو عافية اذا قيس بأدنى عذاب من عذاب الآخرة .

(يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) . بعد ان ذكر سبحانه النفس الامارة التي لا تطمئن إلا لمصالحها وأهوائها - ذكر النفس المطمئنة ، وهي التي آمنت بالله وصفت الى ذكره ، وعملت بأمره ونهيه ، وقد بين سبحانه أصحاب هذه النفس بقوله : الذين آمنوا ونطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب - ٢٩ الرعد . ومعنى راضية مرضية انها تحمد أجراها ومقامها عند الله لأن الله حمد سعيها وأعمالها . وقال الشيخ محمد عبده في معنى الرجوع اليه تعالى والدخول في عباده : « الرجوع الى الله تمثيل للكرامة عنده وإلا فإن الله معنا حيث كنا ، والدخول في عباده ان تكون منهم ، والعباد الذين يستحقون نسبة الاختصاص به هم العباد المتقون المكرمون ، والجنة معروفة » .

سُورَةُ الْبَلَدِ

٢٠ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ * أُنْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ
أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبَدَا * أُنْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ *
وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ
مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ رَقَبَةً * أَوْ إِنْطَعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ *
أَوْ مِنْكِنَا ذَا مَقْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ
وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا
بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ *

الإعراب :

لَا أُقْسِمُ « لا » زائدة . وقيل : نافية . وتقدم الكلام عنها عند تفسير
الآية ٧٥ من سورة الواقعة و ١٥ من سورة التکویر . والبلد عطف بيان من هذا .
لقد خلقنا جواب القسم . وفي كبد متعلق بمحذوف حالاً من الانسان أي مكابداً .

أن لن يقدر أي انه لن . والتجدين مفعول ثانٍ لهديناه لأن المعنى عرفناه التجدين .
وما أدراك وما مبتدأ وجملة أدراك خبر . وما العقبة مبتدأ وخبر . وفك خبر
لمبتدأ محذوف أي هي فك . وبتيماً مفعول إطعام . وأصل تواصلوا تواصلوا ،
وحذفت الياء لالتقاء الساكنين .

المعنى :

(لا أقسم بهذا البلد) . المراد بالبلد مكة المكرمة بأشرف بيت وضع للناس
مباركاً ، وبأعظم نبي ولد فيها ، وأرسل رحمة للعالمين (وأنت حل بهذا البلد) .
الخطاب لمحمد (ص) وحل أي حال ومقيم ، والواو للحال ، وعليه يكون القسم
بمكة مقيداً بإقامة الرسول فيها إشعاراً بأن مكة زادت رفعة بمولده وإقامته . واختار
الشيخ محمد عبده قول من قال : ان حلاً هنا بمعنى الحلال لا بمعنى الحلول أي
ان أهل مكة استحلوا ابذاء الرسول في البلد الأمين حتى اضطروه الى الهجرة منه .
وهذا المعنى صحيح في نفسه ، ولكنه بعيد عن مدلول اللفظ ، فإن المتبادر الى
الافهام من « أنت حل بهذا البلد » هو أنت مقيم فيه . لا أنت حلال فيه .
(ووالد ما ولد) . هذا داخل في المقسم به ، وقال جماعة من المفسرين :
المراد بالوالد هنا آدم ، وبالولد ذريته ، وانما قال تعالى : وما ولد ولم يقل :
ومن ولد - ما زال الكلام للجماعة - ليشير سبحانه الى ان المولود عظيم الشأن
كما في قوله : « والله أعلم بما وضعت - ٣٦ آل عمران » . وقال آخرون :
منهم ابن عباس والطبري والشيخ محمد عبده : ان المراد كل والد ومولود انساناً
كان أم حيواناً أم نباتاً .. وهذا القول أقرب الى ظاهر اللفظ من غيره ، أما
الفرض من القسم بالوالد والمولود فهو التنبيه الى انشاء الكائنات الحية وتطورها
من خلق الى خلق ، من النطفة الى الانسان أو الحيوان ، ومن الحبة الى الشجرة
وغيرها من النبات .

(لقد خلقنا الانسان في كبد) . هذا جواب القسم . وكبد التعب والمشقة ،
والمعنى ان الله سبحانه خلق الانسان مجداً كادحاً يتصارع مع ميوله ورغباته ، ومع
أتعاب الحياة وشدائدها ، ثم بعد هذا يقاسي سكرات الموت ، وظلمة القبر ووحشته ،

ثم أهوال القيامة والعرض على الله لتفأش الحساب عما قال وفعل (أحسب ان لن يقدر عليه أحد) . في يحسب ضمير يعود الى الانسان باعتبار بعض أفراده ، والمعنى ان بعض الناس يظن انه قد بلغ من القوة والمنعة الى حيث لا يقدر عليه أحد كائناً من كان ، وينسى انه خلق ضعيفاً ، يقاسي الأهوال والشدائد ، وانه مكتوم الأجل ، مكنون العلل ، محفوظ العمل ، تؤله البقعة ، وتقتله الشرقة ، وتنتنه العرقه كما قال الإمام على (ع) .

(يقول أهلكت مالاً لبدأ) أي كثيراً ، وبدل السياق ان في يقول ضميراً يعود الى الغني الذي ينفق أمواله للشهرة وحسن الاحدثة ، ويمسك عن الانفاق في سبيل الله والخير ، والمعنى اذا قيل لهذا المبذر : لماذا لا تنفق في سبيل الله ؟ قال : انا افق الكثير حتى أوشك مالي على التفاد والهلاك ، ولكني لا انفقه في السبيل التي تدعوني اليها (أحسب ان لم يره أحد) . أياظن هذا المفتون بالشهرة والظهور ان الله غافل عنه وعن أعماله وأهدافه . وفي الحديث : يسأل المرء غداً عن جسمه فيم أبلاه ؟ وعن عمره فيم أفناه ؟ وعن ماله مم اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟

(ألم نجعل له عينين ولساناً وشفقتن وهديناه النجدين) . جاء في تفسير الرازي : ان الذي قال : « أهلكت مالاً لبدأ » قال أيضاً بلسان المقال أو الحال : من الذي يحاسبني على مالي أمسكته أو أنفقته ؟ . فأجابه سبحانه : يحاسبك الذي جعل لك هذه الأعضاء .. وهذا قريب جداً الى واقع الحال ، ومهما يكن فإن العينين اشارة الى نعمة الرؤية والبصر ، واللسان الى نعمة الكلام والبيان، والهداية الى نعمة العقل والادراك ، والمراد بالنجدين طريقا الخير والشر ، وبالعقل يحذر الانسان من هذا ، ويسلك ذاك ، وفي نهج البلاغة : « كفأك من عقلك انه أوضع لك سبيل غيك من رشدك » . ويتفرع على هذا الايضاح ان الانسان مسؤول عن أقواله وأفعاله ، وان لله الحجة عليه اذا أساء حيث وهب القدرة والادراك وأمره ونهاه . ومثله « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » - ٣ الانسان .

(فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة) . صيغة ما أدراك تستعمل للتفخيم والتعظيم ، واقتحم الشيء دخل فيه بشدة ، والعقبة في اللغة الطريق الصعب في الجبل ، والمراد بها هنا الأعمال الصالحة لأنها تحتاج الى جهد وجهاد ، وصبر على

المشاق ، والى كبح الميول والرغبات بخاصة بذل المال في سبيل الخير ، ومن الأعمال الصالحة أو من أهمها ما أشار اليه سبحانه بقوله : (فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مغربة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحة) . فك الرقبة عتقها حيث كان في المجتمع آنذاك عبيد واماء ، والمسغبة المجاعة ، والمقربة القرابة في النسب ، والمتربة الفقر الشديد بحيث بلغ بصاحبه ان يفرش التراب ، والتواصي بالصبر ان يوصي المؤمنون بعضهم بعضاً بالصبر على الجهاد لإحقاق الحق ، ورفض الاستسلام للباطل ، وأيضاً ان يتواصوا بالرحمة ، وهي المواساة وحب الانسان لأخيه ما يحبه لنفسه ، ومجمل المعنى ان الذي انفق أمواله حباً بالشهرة والظهور لم يتجاوز العقبة التي بينه وبين النجاة من العذاب والمهلك ، بل هو أخسر الناس صفقة ومن أكثرهم عذاباً ، ولو انه انفق في سبيل الله وكان من الذين تواصوا بالصبر والرحمة - لتجاوز تلك العقبة ، وكان في أمن وأمان من غضب الله وعذابه .

(اولئك اصحاب الميمنة) . اولئك اشارة الى الذين آمنوا وأنفقوا وتواصوا بالصبر والرحمة ، وأصحاب الميمنة هم اليمين الأختيار الذين يُعطون غداً كتب الأمان والسعادة بإيمانهم (والذين كفروا بآياتنا هم اصحاب المشأمة عليهم نار موصدة) . أصحاب المشأمة هم المشؤومون الأشرار الذين يُعطون كتب الخزي والشقاء بشئانهم ومن وراء ظهورهم ، ويساقون الى جهنم زمراً حتى اذا حادوها فتحت لهم ابوابها ، فإذا دخلوها أطبقت عليهم الى ما لا نهاية .

سُورَةُ الشَّمْسِ

مكية وآياتها ١٥ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاها * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّيِّءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَذَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا *

الإعراب :

والشمس النور والشمس وما بعدها عطفت . وما في وما بنائها وما طحها وما سواها مصدرية . والمصدر المنسبك معطوف على ما قبله أي وبنائها وطحها وتسويتها . فقد أفلح جواب القسم مع حذف اللام الواقعة في الجواب أي لقد أفلح . ناقة الله مفعول لفعل محذوف أي احنروا ناقة الله .

المعنى :

أقسم سبحانه في هذه السورة بالفضياء وبالظلمة ، وبكواكب السماء وإحكامها ،

سورة الشمس

والأرض وتمهيدا ، والنفس واستعدادها ، أقسم بذلك كله ان التقى هو الرابع الناجح ، والمجرم هو الخائب الخاسر ، والتفصيل فيما يلي :

(والشمس وضحاها) . أقسم سبحانه بالشمس من حيث هي ظهرت أم احتجبت لأنها خلق عظيم ، وأيضاً أقسم بضيائها لأن المراد بالضحو هنا الظهور والوضوح، فإذا أضيف الى الشمس كان معنى ضحاها ضياءها (والقمر اذا تلاها) . ضمير تلاها يعود الى الشمس ، والمعنى ان الله سبحانه أقسم بالقمر حين يتصل ضوءه بضوء الشمس بحيث لا تفصل الظلمة بينها ، وذلك في الليالي البيض : الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة (والنهار اذا جلاها) . أيضاً الهاء في جلاها تعود الى الشمس ، والمعنى انه تعالى أقسم بالنهار الذي أظهر الشمس وأبرزها للعيان جلية واضحة، والغرض من القسم بالضياء التنبيه الى فوائده العظمى لنشكر الله ونحمده .

(والليل اذا يغشاها) . أيضاً الهاء تعود الى الشمس ، وأقسم، جلّت حكمته، بالليل حين يغطي ضوء الشمس ، ولا يبقى لها من أثر، لا مباشرة كما هي الحال في النهار ، ولا بواسطة ضوء القمر المستفاد من الشمس ، وذلك في الليلة الأولى والأخيرة من الشهر الهلالي حيث لا يظهر الهلال للعيان أو يظهر ضعيفاً .. والليل منافع كما للنهار ، ومن منافع الليل السكينة والراحة .

(والسماء وما بناها) أي وبنائها لأن « ما » هنا مصدرية ، والمراد بناء ما فيها من الكواكب السابحة في أفلاكها ، وشد بعضها بعضاً برباط الجاذبية . وتقدم مثله في الآية ٤٧ من سورة الذاريات و ٦ من سورة ق و ١٢ من سورة النبأ (والأرض وما طحاها) أي وطحوها ، وفي الآية ٣١ من سورة النازعات : « والأرض بعد ذلك دحاها » والدحو والطحو بمعنى واحد، وهو البسط والتمهيد . وتقدم مثله في العديد من الآيات منها الآية ٢٢ من سورة البقرة .

النفس وتسويتها :

(ونفس وما سواها) أي وتسويتها ، والنفس شيء يكون به الانسان انساناً، والحيوان حيواناً ، ولا نعرف هذا الشيء بحقيقته بل بأثاره كالنمو والحركة والسمع

والبصر والشعور بالألم في الانسان والحيوان ، وكلم الانسان بالكليات . والمراد بالنفس هنا نفس الانسان فقط لقوله تعالى : (فألهما فجورها وتقواها) فإن الفجور والتقوى من صفات الانسان لا الحيوان، وعليه يكون معنى تسوية نفس الانسان ان الله سبحانه خلق فيها الاستعداد التام لعمل الخير والشر معاً بحيث تكبر قدرته على أحدهما مساوية لقدرته على الآخر ، ثم نهاه عن الشر ، وأمره بالخير ، والذي يدلنا على ارادة هذا المعنى قوله تعالى : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » - ٣ الانسان . وانما خلق سبحانه في نفس الانسان الاستعداد للفجور والتقوى معاً لأن الانسان انما يكون انساناً بحريته وارادته ، وبقدرته على الحسن والقيح ، ولو قدر على أحدهما دون الآخر لكان كريشة في مهب الريح لا يستحق مدحاً ولا ذماً ، ولا ثواباً ولا عقاباً على ما يفعل ويترك .

(قد أطلع من زكاهما وقد خاب من دساها) . هذا جواب القسم ، والصلاح الفوز ، والزكاة الطهارة ، والخيبة الخسران ، والتدسية التقص .. بعد أن أقسم سبحانه بالضياء والظلمة والكواكب وبنائها، والأرض وتمهيدها ، والنفس واستعدادها بعد هذا قال : من اختار الخير على الشر وطهر نفسه من دنس الآثام فهو الفائز الرابع ، ومن اختار الشر على الخير ولوث نفسه بالذنوب والقبائح فهو الخائب الخامس .

(كذبت ثمود بطغواها) . مفعول كذبت محذوف أي كذبت ثمود نبيها صالحاً ، وثمود اسم قبيلة ، ولا ينصرف للتأنيث والتعريف ، وطفوى مصدر بمعنى الطفيان (اذ انبعث أشقاها) . انبعث أي أسرع الى عقر الناقة ، وهذا الأشقى يضرب المثل بشقاؤه منذ آلاف السنين (فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) . رسول الله هو صالح ، وناقة الله ناقته التي جعلت معجزة له ، وسقياها إشارة الى ما جاء في الآية ١٥٥ وما بعدها من سورة الشعراء : « قال - صالح لقومه - هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فمقروها فأصبحوا نادمين فآخذهم العذاب » ج ٥ ص ٥١١ .

(فكذبوه فمقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) . قال سبحانه عقروها مع ان العافر واحد لأنهم رضوا عن فعله ، بل حرصوه عليه كما في الآية ٢٩ من سورة القمر « فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر » . ودمدم عليهم أي أطبق عليهم

العذاب . فساها أي دمر مساكنها على أهلها أجمعين ولم يفلت منهم كبير ولا صغير . واتفقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة - ٢٥ الأنفال . وتقدم الكلام عن ثمود ونيهم صالح مرات ، آخرها في الآية ٩ من سورة الفجر . (ولا يخاف عقابها) . قال أكثر المفسرين : الضمير المستتر في يخاف يعود إليه تعالى أي ان الله سبحانه أهلك ثمود ولا يخاف عاقبة أهلاكهم ، وقال البعض : يعود الضمير الى أشقاها ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : اذ انبعث أشقاها ولا يخاف عقابها فقال لهم رسول الله الخ . ويجوز أن يعود الضمير اليه تعالى على معنى ان الله سبحانه لا معارض له ولا منازع في أمره . قل ان الأمر كله لله - ١٥٤ آل عمران .

سورة الشمس

٢١ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى * فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى *

الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى *
وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى *
وَلَسَوْفَ يَرْضَى *

الإعراب :

والليل الواو للقسَم . وما خلق الذكر « ما » مصدرية أي وخلق الذكر . ان
 سعيكم جواب القسم فأما للتفصيل . وبالحسنى صفة لمخدوم أي بالحسنة الحسنى ،
 ومثله ليسرى . تعلقى الأتقى تعلقاً . بالحسنى . والذي يؤتي صفة
 للأتقى . ومن رائدة عراباً والعمدة مبتدأ . وجملة جزى جملة للعمة . وابتغاء مفعول
 من أجله لتجزى .

المعنى :

(والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلّى) . يغشى بـُغِطِي الأسماء ، وتَجَلَّى ظهر ، وهذا القسم منه تعالى مثله في السورة السابقة ، والنهار اذا جلاها ، والليل اذا يغشاها . . وبيننا هناك ان الغرض من انقسام بنسبنا والظلام هو التنبيه الى ما لها من منافع (وما خلق الذكر والانثى) . « ما » هنا مصدرية أي وخلق الذكر والانثى ، ويطرد هذا الخلق في كل حي انساناً كان أم حيواناً أم نباتاً ، وبه يتم التناسل وتمتد الحياة ، وهنا أسئلة تطرح نفسها ، وهي : من الذي أوجد الحياة في هذا الكائن دون ذاك ؟ ومن الذي أعد الحي وأهله لوظيفة التناسل ؟ ولماذا يأتي المولود تارة ذكراً وأنثى أخرى مع ان مصدرهما واحد ، فهل قطعت المادة العمياء كل هذا الفعل الدقيق المحكم ، أو هو من باب الصدفة ؟ وهل اكتشف العلم ان المادة الواحدة تكون علة لأحوال شتى دون أن يتدخل عنصر آخر في شأنها ؟ . أما الصدفة فهي جهد العاجز . فلم يبق من الفروض والتفاسير إلا المدبر العليم الذي يرسم ويخطط وفقاً للحكمة البالغة ، والنظام الكامل الشامل .

(ان سعيكم لشتى) . هذا جواب القسم ، والمعنى ان أعمال الانسان منها الخيرات ومنها المفوات ..

وتسأل : ان هذه قضية بدئية لا تحتاج الى يمين ، فلماذا أكدها سبحانه بالقسم ؟
الجواب : أجل ، « ان سعيكم لشتى » قضية بدئية من حيث هي وبصرف النظر عن عواقبها ونتائجها ، أما مع النظر الى ما يترتب عليها كتيسير المحسن لليسرى والمسيء للعسرى وما الى ذلك - فلأنها تحتاج الى التأكيد أو لا مانع من تأكيدها - على الأقل - والمقسم عليه هنا هو مجموع قوله تعالى : « ان سعيكم لشتى » وما بعده ، وهو :

(فأما من أعطى) بذل في سبيل الخير لوجه الخير (واتقى) ابتعد عن الحرام والآثام (وصدق بالحسنى) . آمن بالجنة والنار والحلال والحرام ، وعمل بموجب إيمانه وإلا فإيمانه سراب لأن الإيمان وسيلة الى العمل وليس غاية في نفسه (فسنيسره لليسرى) . اختلف المفسرون في معنى اليسرى ، فمن قال : انها الجنة ، وقال : هي الخير ، وقال الشيخ محمد عبده : « هي خطة تكميل النفس وانماها بالكمال » . أما نحن فنفسر اليسرى هنا بقوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً - : « الطلاق » أي يشمل الله بعنايته ، وبوفقه الى ما فيه خيره وصلاحه .

(وأما من بخل) بالبذل في سبيل الله (واستغنى) بماله عن الاعانة بالله ، وعن آخرته بدينه (وكذب بالحسنى) فقال : لا جنة ولا نار ولا حلال ولا حرام (فسنيسره للعسرى) . المراد بالعسرى هنا السقوط في هوة السيئات والانحرافات ، والدليل على ارادة هذا المعنى قوله تعالى : « اذا تردى » والمراد بتيسره ندعه وأهواءه ، ولا نردعه بالقوة عما يختاره لنفسه من التردى والهلاك (وما يغني عنه ماله إذا تردى) . « ما » استفهام بمعنى الانكار ، ويجوز أن تكون نفياً محضاً ، والمراد بالتردى السقوط في حضيض الرذائل والقبايح .

ويتلخص معنى هذه الآيات من قوله تعالى : فأما من أعطى الى قوله تردى ، يتلخص بأن سنة الله في خلقه أن يبين لهم طريقى الصلاح والفساد ، ويمنحهم القدرة على فعلها وتركها ، ثم يعامل كلاهما بما يختاره لنفسه ، فان أثر الخير والصلاح شمله بتوفيقه وعنايته ، وان اختار الشر والفساد تحلى عنه ، وأوكله الى نفسه وأهواءه نقوده الى الشدائد والمهلكات .

(ان علينا للهدى) . هذا جواب عن سؤال مقدر ، وهو : كيف نحصل سبحانه عن المسيء . ووكله الى نفسه وأهوائه ؟ ألا يتنافى هذا مع لطفه ورحمته ؟ . فأجاب سبحانه بأن عليه أن يزود العبد بالقدرة على العمل ، وبالعقل الذي يميز بين الخير والشر ، ثم يبين له ويرشده ويبيّنه وينذره ، وقد تحقق ذلك كله على أكمل وجه ، وهو منتهى اللطف والرحمة ، أما العمل والاهتداء فعلى العبد وحده ، ولا يلجئه الله اليه لأن الإلجاء يسلب الانسان حريته واراادته ، بل وانسانيته لأن الانسان بحريته واراادته . وتجدر الإشارة الى ان كلمة «على» هنا تدل على الوجوب خلافاً للشيخ محمد عبده وغيره من الأشاعرة لأن الوجوب اذا نسب الى العبد فعناه ان الغفر أوجب عليه ، ولو ترك لكان مسؤولاً ، واذا نسب اليه تعالى فعناه هو الذي أوجب على نفسه ما أوجب أي انه وعد وليس لوعده مترك . قال تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة - ٥٤ الانعام » .

(وان لنا للآخرة والاولى) . الله وحده مالك الملك في الدنيا والآخرة ، ولا تنفعه طاعة من أطاع ، ولا معصية من عصى ، ولا يجحد العاصون مفراً من حكمه وسلطانه (فأنذرتكم ناراً تلتظى) . أمر سبحانه ونهى وحذر من عصي ناراً تطلب وتتسع لعله يتوب من ذنبه ويرجع الى ربه (لا يصلها إلا الأشقى الذي كذب وتولى) . يصلها أي يدخل النار ويعذب فيها ، وقيل : المراد بالأشقى هنا الكافر وقال الشيخ محمد عبده : « الأشقى من هو أشد شقاء من غيره » . والصحيح ان التفضيل هنا غير مقصود من جهة دخول النار ، لأنه ما من شقي إلا هو ذاتها : « فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق - ١٠٦ هود » . والتفاوت بين الشقي والأشقى انما هو في أليم العذاب وشدته لا في أصل العذاب ، وعليه يكون المراد بالأشقى هنا من عصى الله وأعرض عن أمره سواء أعرض عنه لأنه لا يؤمن بالله وشريعته ، أم آمن به وبشريعته ولكنه قصر وتهاون ، لا فرق بين الاثنين لأن الإيمان وسيلة للعمل ، وليس غاية في نفسه ، فقد ثبت بنص القرآن ان من آمن ولم يعمل فهو والكافر بمنزلة سواء ، قال تعالى : « لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً - ١٥٩ الانعام » أي لم تؤمن اطلاقاً أو آمنت ولم تعمل .

(وسيجنبها الأنقى) . الهاء في سيجنبها تعود الى النار ، ومعنى يجنبها يتبعد

سورة الليل

عن الأسباب المؤدية إليها ، وهي محله الله ، وعليه يكون المراد بالأنقى التقى
(الذي يؤتى ماله يتزكى) . يؤتى من . يعطى . والمعنى يعطى
ماله وينفقه في سبيل حبه لنفسه . لا ينفقه . ولا ينفقه
لشهوة والاستعلاء . ولا لتجارة والرياء .

(وما لأحد عنده من نعمة تجزى) . قد يكون الاتفاق بدافع الشهوة والظهور ،
أو من باب هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، كما لو أهديت من أسدى إليك
بدأ لترد إليه إحسانه . وقد يكون الاتفاق لغرض الربح والتجارة ، فتتفق بيد
لتأخذ باليد الأخرى كما بين .
الانتخابات لاكتساب الأصوات
ابتغاء وجه ربه الأعلى (طالباً ثوابه)
نريد منكم جزاء ولا شكوراً
(وسوف يرضى) . يعطي الله من أنفق لوجهه
يرجو وبأمل . وقيل : الضمير في يرضى يعود الى الله لا الى الأنقى ، والمعنى
واحد على التقديرين لأن الله اذا رضي على عبده إرضاه لا محالة .

وقال الشيخ محمد عبده : روى المفسرون هنا أسباباً للتزول ، وان الآيات
نزلت في أبي بكر ، ومتى وجد شيء من ذلك في الصحيح لم يمنعنا من التصديق
به مانع ، ولكن معنى الآيات لا يزال عاماً .

سُورَةُ الضُّحَى

١١ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ * وَمَا قَلَى * وَالْآخِرَةُ
خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدَكَ
يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى * فَأَمَّا
الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ *

الإعراب :

والضحى الواو للقسم ، والليل عطف على الضحى ، و وماه نافية ، والجملة
جواب القسم . وما قل المفعول محذوف أي وما فلاك . وللآخرة اللام للتأكيد
ومثلها لسوف وجملة سوف يعطيك ربك خبر مبتدأ محذوف أي ولأنت سوف
يعطيك ربك لأن لام الابتداء المؤكدة لا تدخل إلا على الأسماء . ويتيماً مفعول
ثان ليوجدك . ومفعول آوى محذوف أي فأواك ، فهدي فهداك ، فأغنى فأغناك .
فأما اليتيم هاء هنا تتضمن معنى الشرط أي مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم ،
فاليتيم مفعول مقدم لتقهر ولا ناهية ، ومثله وأما السائل فلا تنهر .

المعنى :

(والضحى والليل إذا سجي) . المراد بالضحى هنا النهار كله بدليل مقابته

بالليل ، وإنما عبّر سبحانه عن النهار بالضحى لأن الضحى صدر النهار على حد تعبير الرازي ، أو شباب النهار على تعبير الشيخ محمد عبده ، ومعنى السجوالسكون ، يقال : ليل ساج إذا سكنت ربحه واشتدت ظلمته ، وبحر ساج إذا سكن ، والمراد بسجوالليل سكون أهله وانقطاعهم عن الحركة ، مثل ليل نائم ونهار صائم أي فيه ، وأقسم سبحانه بهاتين الآيتين لأنهما من آياته الكبرى .. وتجدر الإشارة الى ان كثيراً من الفقهاء قالوا : إن النبي (ص) صلى صلاة الضحى يوم فتح مكة ، وهي ركعتان عند البعض ، وأكثر عند آخرين ، وندب عند الجميع . وقال الشيعة الإمامية : لا حصر للصلاة المندوبة ، فهي قربان كل نقي فمن شاء استقل ومن شاء استكثر ، ولكل انسان أن يصلي ركعتين ابتداء في كل زمان ومكان بنية القرية المطلقة اليه تعالى .

(ما ودّعك ربك وما قلى) . هذا جواب القسم ، ومعناه ما تركك وما أبغضك ، واتفق الرواة والمفسرون على ان الوحي قد احتبس عن رسول الله (ص) أياماً ، فقال المشركون : ان إله محمد قد قلاه ، وان الناموس قد أبغضه ، فأنزل الله تعالى : « ما ودّعك ربك وما قلى » . وقال الشيخ محمد عبده ، ونعم ما قال : ليس في نسق السورة ما يشير الى ذلك ، ومن أين للمشركين أن يعلموا فترة الوحي ؟ . ولكن النبي كان قد اشتاق الى الوحي بعد ان ذاق حلاوته ، وكل ذوق يصحبه قلق ، وكل قلق يشوبه خوف وقد جاء في الصحيح ان النبي (ص) حزن لفترة الوحي حزناً كبيراً .

وبهذه المناسبة أشير الى اني قرأت كل ما نشر للشيخ محمد عبده ، فاكتشفت ان عظمة هذا الرجل وشهرته لا تكمن في علمه فقط ، ولا في سعة اطلاعه ، فان بعض تلاميذه - على ما رأيت - أوسع منه اطلاعاً على الحواشي والشروح ، ومعرفةً بأقوال السلف والخلف ، وانما السر الوحيد لعظمة هذا الشيخ يكمن في ثقته بالحق واخلاصه له وجراته على اعلانه ولو خالف الأولين والآخرين .. ومن أجل هذا كفرته عمائم سوء .. ولكن التاريخ قد أنصفه منها ، فوضعه في مكان الصدارة ، وألقى بها في سلة المهملات .

(وللآخرة خير لك من الأولى وسوف يعطيك ربك فترضى) . الخطاب للرسول الأعظم (ص) والمراد بالآخرة هنا الحياة الآخرة ، والحياة الدنيا ابتداء من

نزول الوحي عليه الى يوم القيامة لأنه ما من يوم يمر إلا ويولد فيه المئات من المسلمين ، بالإضافة الى من يدخل في دين الله من الأمم والطوائف ، وكل ذلك كسب لمحمد (ص) ورسالة محمد ، ومعنى الآية ان الله سبحانه سيزيدك يا محمد من فضله يوماً بعد يوم حتى قيام الساعة ، وفوق ذلك أنت في الآخرة أجل وأعظم ، فهل يرضيك هذا ؟ وهل لك وراءه من مطلب ؟ ثم ذكر سبحانه نبيه الكريم بجانب من نعمه عليه قبل البعثة ، وكأنه يقول له : لقد أنعمت عليك منذ يومك الأول الى ما لا نهاية . وهذه بعض النعم السابقة على البعثة :

١ - (ألم يجدك يتيماً فأوى) . هذا الاستفهام لتقرير الواقع أي لقد كنت كذلك . قال الشيخ محمد عبده : « كان النبي (ص) يتيماً لأن والده توفي بالمدينة ، وهو في بطن أمه ، فكفله جده عبد المطلب خيراً كفالة ، ثم مات جده وهو في الثامنة من عمره ، فكفله عمه أبو طالب بوصية من أبيه عبد المطلب ، وكان شديد العناية به في صغره ، عظيم المحبة له في كبره ، وما زال يحميه وينصره بعد ان أكرمه الله بالنبوة حتى قبض ، فتجرات عليه قريش بعد موت عمه حتى اضطرتة الى الهجرة ، فذاك إيواء الله لنبيه وهو يتيم » .

٢ - (ووجدك ضالاً فهدى) . اختلف المفسرون ما هو المراد بالضلال هنا ؟ وقد أنهى الرازي أقوالهم الى عشرين قولاً ! .. أقربها الى الصواب والواقع ان النبي (ص) كان حائراً في أمر قومه ، وضالهم في عقائدهم وتقاليدهم ، وفساد أعمالهم وجهلهم وتفرق كلمتهم .. ولا يدري ما هو السبيل الى هدايتهم حتى نزل عليه الوحي فيه تبيان كل شيء ، وهدى ورحمة للعالمين ، فضلال النبي (ص) : حيرته كيف يهدي الكافرين ، وهداه نزول القرآن عليه .

٣ - (ووجدك عاتلاً فأغنى) . العاتل هو الفقير سواء أكان عنده عيال أم لم يكن ، وقال الرواة : ان الرسول (ص) لم يرث من أبيه إلا ناقة وجارية ، ولكن الله قد أغناه برعاية عمه أبي طالب ، ومال خديجة بنت خويلد، وبالعتائم . (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر) . ومن كان يتيماً وفقيراً فما أجدره برعاية الفقراء والأيتام والاهتمام بشأنهم .. وليس من شك ان هذا تعريض وتأديب لكل من حاول أو يحاول أن يقهر يتيماً أو ينهر فقيراً والا فسلان رسول

سورة الضحى

الرحمة على خلق عظيم وبالضعفاء رؤوف رحيم (واما بنعمة ربك فحدث) شكراً لله وحداً . وفي الحديث الشريف ان التحدث بنعم الله شكر له . وقال الإمام الصادق (ع) في معنى هذه الآية : فحدث بما أعطاك الله وفضلك ورزقك وأحسن اليك ومهداك . وقال الشيخ محمد عبده : « فحدث أي أوسع في البذل على الفقراء » . وتبعه في هذا التفسير تلميذه المراغي ، وهو بعيد عن ظاهر اللفظ ومدلوله ، فان المتبادر الى الافهام من كلمة « فحدث » هو التحدث بنعم الله شكراً له وحداً . وما أكثر ما يستدل الشيخ محمد عبده بالتبادر .

سُورَةُ الْاِنْشِرَاحِ

٨ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ *
الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ *
وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا *
إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ *
وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ *

الإعراب :

الذي أنقض نعت لوزرك . ويسراً اسم ان ومع العسر خبرها .

المعنى :

قال الرازي : « يروى عن طاووس وعمر بن عبد العزيز ان هذه السورة وسورة الضحى واحدة ، وكانا يقرأنها في ركعة واحدة ولا يفصلان بينها بيسم الله الرحمن الرحيم ، والذي دعاهما الى ذلك هو ان قوله تعالى : « ألم نشرح لك »

كالعطف على قوله : « ألم يجدك يتيماً » . وقال صاحب مجمع البيان : روى أصحابنا - أي الشيعة الإمامية - أنها سورة واحدة لتعلق إحداهما بالأخرى ، وجمعوا بينها في الركعة الواحدة في الفريضة ، وكذلك في سورة ألم تر كيف . ولإيلاف قريش . وقال الشيخ المراغي : « نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى ، وهي شديدة الاتصال بما قبلها » . وقال صاحب الظلال : « نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى ، وكأنها تكملة لها » .

(ألم نشرح لك صدرك) . ضاق النبي (ص) ذرعاً بفساد المجتمع الذي كان يعيش فيه ، وحار في أمره وهو يلتمس الطريق لاصلاح قومه وهدايتهم حتى نزل عليه القرآن ، وأثار له السبيل الى ما ينتفيه من صلاح وإصلاح ، فاطمأن قلبه وانشرح صدره (ووضعتنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك) . الوزر الحمل الثقيل ، والمراد به هنا همّ النبي وغمه لما كان عليه قومه من الشرك والضلال ، فأراح الله نبيه بالقرآن الكريم من الهمّ والغمّ ، وعليه يكون المراد من وضعنا عنك الخ هو عين المراد من ألم نشرح لك صدرك . ولا فرق إلا في الأسلوب والتعبير ، والغرض زيادة الايضاح والتأكيد (ورفعنا لك ذكرك) . وأي شيء أعلى وأرفع من اقتران اسم محمد باسم الله ، وطاعته بطاعته « من يطع الرسول فقد أطاع الله - ٨٠ النساء . » ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً - ٣٦ الأحزاب . » . ومعنى هذا ان قول محمد (ص) هو قول الله بالذات .

(فإن مع العسر يسراً ان مع العسر يسراً) . المعنى واضح ، وهو ان الشدة يعقبها الفرج عاجلاً أو آجلاً لأن المراد بمع هنا تأكيد الأمل في وقوع اليسر وان طال الزمن ، وليس المراد بها المصاحبة والمقارنة . وتساءل : ما هو القصد من هذا التكرار : فإن مع العسر يسراً ان مع العسر يسراً ؟

الجواب : لا نرى له وجهاً إلا تأكيد هذه القضية في النفوس وتمكينها من القلوب لأنها موضع الشك والريب عند أكثر الناس أو الكثير منهم ، أما الرواية القائلة : « لن يغلب عسر يسرين » فقد تأملناها ملياً ، وفهمنا اليسر الأول وانه كشف العسر ، ولكن لم نفهم اليسر الثاني . وقيل : هو ثواب الآخرة . وهذا أبعد من بعيد عن ظاهر اللفظ وسباق الآية لأنها تتكلم عن عسر الدنيا ويسرها ،

سورة الانشراح

وليس عن الآخرة وثوابها .. وأيضاً قيل : ان العسر الثاني هو عين العسر الأول لأن كلاهما مقرون بالألف واللام للجنس ، أما اليسر فقد أعيد على التنكير ، وإذا أُعيدت النكرة كان المراد من الثاني غير المراد من الأول .. ولا يستند هذا القول الى حجة ، وما هو إلا لعب بالألفاظ ، لأنك اذا قلت لحصمك : لي عليك درهمان . فقال : ان لك درهماً ان لك درهماً لا يكون هذا اقراراً منه بالدرهمين .

وحاول الشيخ محمد عبده ان يخالف بين العسرين ، لا بين اليسرين ، فقال : المراد بالعسر الأول العسر المعهود عند المخاطبين ، أما العسر الثاني فأعم ، وقد أطلال الشرح والبيان لتأييد رأيه ، ولكنه لم يأت بشيء تركن اليه النفس ، فإن المتبادر من العسر الأول هو عين المتبادر من الثاني ، ولا فرق بينهما في المبنى ولا في المعنى .

سؤال ثان : لقد رأينا كثيراً من الناس يلزمهم العسر حتى المات ، ولا يتفق هذا مع ظاهر الآية ، فما هو الجواب ؟ .

الجواب : ان الحكم في الآية مبني على الأعم الأغلب ، لا على العموم والشمول .. هذا ، الى أنها تبث الأمل في النفوس ، وتدفعها على العمل للخلاص مما تعانیه مع الاعتصام بالله والتوكل عليه .

(فإذا فرغت فانصب) المراد بالنصب هنا التعب، والمعنى اذا فرغت يا محمد . من العمل لأجل الحياة فاتعب واجتهد للحياة من أجل الآخرة . وتجدر الإشارة الى ان بعض المأجورين للفتنة وبث النعرات بين أهل المذاهب الاسلامية قد نسب الى الشيعة الإمامية انهم يفسرون كلمة فانصب في الآية الكريمة بأنصب علياً للخلافة .. ويكني في الرد على هذا الافتراء ما قاله صاحب مجمع البيان ، وهو من شيوخ المفسرين عند الشيعة الإمامية ، قال عند تفسير هذه الآية ما نصه بالحرف : « ومعنى انصب من النصب ، وهو التعب أي لا تشتغل بالراحة » . (واني ربك فارغب) . لا تتجه بقلبك لغير الله ، ولا تستعن بأحد سواه . قال الرسول الأعظم (ص) : اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم انه لو اجتمعت الانس والجن على ان يضرعوك بشيء لم يضرعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على ان يضرعوك لم يضرعوك إلا بشيء كتبه الله عليك .

سُورَةُ التِّينِ

٨ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ
بِالَّذِينَ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ *

الإعراب :

والتين الواو للقسم . وأسفل صفة لموصوف محذوف أي الى مكان أسفل السافلين .
وبعد ظرف مبني على الضم . وبأحكم الحاكمين خبر ليس والباء زائدة .

المعنى :

(والتين والزيتون) . اختلفوا ما هو المراد بالتين والزيتون ، على أقوال ،
أبعدها عن ظاهر اللفظ ومدلوله ما ذهب اليه الشيخ محمد عبده حيث قال : التين
إشارة الى آدم وسجواء ، وهما في الجنة ، وعندما بدت لهما سواتهما طفقاً بخصفان
عليهما من ورق التين والزيتون إشارة الى عهد نوح وذريته . ولا نرى مبرراً
لهذا التأويل لأن المتبادر الى الافهام من كلمة التين هذا التين الذي يؤكل ، ومن
كلمة الزيتون هذا الزيتون الذي يعصر ، ولا مانع في حكم العقل أن يقسم الله
سبحانه بما شاء من خلقه باعتراف الشيخ محمد عبده ، وما أكثر ما يستند الشيخ

سورة التين

محمد عبده الى التبادر في تفسيره لآي الذكر الحكيم .. أما الحكمة من القسم فقد تكون للتنبيه الى ما لها من فوائد ، وقد تكون غير ذلك ، وما أكثر ما نجعل . (وطور سينين) الطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى . وسينين سيناء .

(وهذا البلد الأمين) . وهو مكة التي شرفها الله بميلاد محمد (ص) وكرمها بيته الحرام ، ومثله : لا أقسم بهذا البلد . (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) . هذا جواب القسم ، وهو القصد من السورة كلها ، والتقويم التصديل والتنظيم .. أقسم سبحانه انه شغل الانسان بلطفه وعنايته حين أوجده وأنشأه ، فخلق جسمه في أبدع الصور والأشكال ، وأودع في روحه من القوى والفرائض ما تسمو به على جميع المخلوقات ان شاء وأراد ، أو تهوي به الى الخسيف ان انحرف مع أهوائه ونزواته ، واذا كان الله سبحانه قد اعتنى بالانسان هذه العناية وأهله الى الرفعة والكمال فجدير بالانسان أن يعتني بنفسه ، ولا ينحرف بها عما خلقت له وعليه من الجمال والكمال . ومثله : وصوركم فأحسن صوركم - ٦٤ غافر .

(ثم رددناه أسفل سافلين) . الهاء في رددناه تعود الى الانسان باعتبار بعض أفرادها ، والمراد بأ أسفل سافلين هنا جهنم ، ولولا السياق لقلنا : المراد به أرذل العمر من الهرم والكبر ، ولكن قوله تعالى : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قرينة واضحة على ارادة جهنم من أسفل سافلين .. والمعنى لقد خلقنا الانسان في أحسن خلقه جسماً وروحاً ، ولكن بعض أفرادها أو أكبرهم عصوا الله وكفروا بأنعمه ، فردهم الى الدرك الأسفل من النار (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) . لكن الذين آمنوا وعملوا صالحين بموجب ايمانهم يتنعمون في الجنان خالدين فيها أبداً .. إن الله عنده أجر عظيم . وتقدم بالحرف في الآية ٨ من سورة فصلت .

(فما يكذبك بعد بالدين) . « ما » لفظها استفهام ومعناها إنكار ، ويكذبك أي ما يحملك على التكذيب بدين الله بعد ان قامت عليه الأدلة والبراهين ، ومنها خلق الانسان في أحسن تقويم (أليس الله بأحكم الحاكمين) ؟ بلى انه أحكمهم صنفاً وتدبيراً ، وأعد لهم قولاً وفعلاً ، وهو يقضي بالحق على من كذب به استكباراً وعناداً .

سُورَةُ الْعَلَقِ

١٩ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إِقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ
لَيَطْفَى * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى
عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ *
أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ
لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ *
كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ *

الإعراب :

الذي خلق نعت لربك . وخلق الانسان بدل بعض من خلق الاولى لانه تخصيص
بعد تعميم . وربك مبتدأ والاكرم نعت والذي علم بالقلم خبر . وعلم الانسان بدل
اشمال من علم بالقلم . كلا ردع . والمصدر من ان رآه مفعول من أجله ليطفى .
ولنسفعاً الاصل لنسفعن بنون التوكيد الخفيفة وكتبت ألفاً لانها كالتنوين . وناصية
كاذبة بدل من الناصية . وناديه على حذف مضاف أي أهل ناديه .

المعنى :

قيل : أول ما نزل على رسول الله (ص) فاتحة الكتاب ، وهذا القول يتناسب
مع الاسم ، ولكنه قول نادر . وقيل : أول ما نزل يا أيها المدثر ، والقائلون

بهذا قليل . وذهب أكثر المفسرين والرواة والعلماء الى ان أول ما نزل سورتنا هذه او أوائلها . قال الشيخ محمد عبده : « صَحَّ في الاخبار ان النبي (ص) أول ما تمثَّل له الملك الذي تلقى عنه الوحي قال له : اقرأ باسم ربك الذي خلق حتى بلغ ما لم يعلم ، ومهما يكن فان على المسلم أن يؤمن إيماناً لا ريب فيه ان كل ما في القرآن هو من عند الله ، ولا يُطلب منه البحث عن زمن الآيات وتاريخ نزولها .

والذي لا شك فيه ان الوحي نزل على الرسول الاعظم (ص) وهو في الاربعين من عمره الشريف ، وانه كان من قبل يؤمن بإله واحد ولا يشرك به شيئاً ، وكانت ثقته به لا تتزعزع أبداً ، أما مصدر هذا الإيمان فأمران : الأول ذاتي وهو عقله وفطرته . والثاني موروث عن جده ابراهيم الخليل (ع) .. ومن تتبع حياة النبي (ص) وسيرته يجد الكثير من الشواهد على إيمانه بإله واحد ، من ذلك انه ما سجد لصنم قط في صغره وكبره . ونقل الرواة ان أحد المشركين قال له قبل أن يبلغ سن الرجال : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى ألا أخبرني عن كذا . فقال له محمد (ص) : لا تسألني باللات والعزى فوالله ما بغضت شيئاً بغضها . وكان بينه وبين مشرك خلاف في شيء قبل البعثة ، فقال له المشرك : احلف باللات والعزى . فقال : ما حلفت بهما قط ، ولاني أعرض عنها .

وأيضاً من ذلك قول زوجته السيدة خديجة حين شكَا إليها ما أصابه عند نزول الوحي : « والله ما يخزيك الله أبداً ، انك تصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعلوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » . وفي هذه العبارة التاريخية — أي والله ما يخزيك الله — تظهر لنا بطريقة لا تحتل الجدول فكرة الإله الواحد تشيع في الوسط العائلي المحمدي حتى قبيل دعوته — كتاب الظاهرة القرآنية لملك بن نبي » .

وفي كل عصر من العصور حتى في عصر الجاهلية الجهلاء وُجد أفراد آمنوا بالإله الواحد بدافع من عقولهم وصفاء فطرتهم ، ومنهم ورقة بن نوفل ، وزيد ابن عمرو ، وعثمان بن الحويرث وغيرهم . أنظر ج ٥ من هذا التفسير ص ٩٦ فقرة « الخفاء » ، فهل يكثر على سيد الكونين وأشرف الخلق من الأولين والآخرين أن يهتدي بعقله الى الله الواحد القهار ؟ .

الجزء الثلاثون

(اقرأ باسم ربك الذي خلق) . هذا أول ما نزل من القرآن كما أشرنا ، وبؤيده الأمر بالابتداء باسمه تعالى . وقال سبحانه : الذي خلق مع حذف المفعول نعيماً له وأنه خالق لجميع الكائنات ، قال علماء العربية : ان حذف المعلق يدل على العموم .

وتسأل : كان النبي (ص) أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، والله سبحانه يعلم ذلك من نبيه ، فكيف يوجه له الأمر بالقراءة ؟ أليس هذا تكليفاً بما لا يطاق ؟

وأجاب الشيخ محمد عبده بأن الأمر في قوله تعالى : اقرأ باسم ربك هو أمر تكويني يقول للشيء : كن فيكون ، وليس أمراً تكليفاً مثل أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . أنظر ج ١ ص ٧٢ فقرة « التكوين والتشريع » . وعليه يكون المعنى كن الآن قارئاً ، وإن لم تكن كذلك من قبل ، فإن الرب الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يجعلك يا محمد قارئاً من غير أن تتعلم القراءة .

(خلق الانسان من علق) . بعد أن ذكر سبحانه انه خالق كل شيء خص الانسان تكريماً له « ولقد كرمنا بني آدم - ٧٠ الإسراء » وتنبأها على عظيم قدرته تعالى التي جعلت من العلق - وهي دم جامد - هذا الانسان العظيم العجيب بتركيبه وغرائزه كي يستدل بذلك على وجود الخالق القادر « أولاً يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً - ٦٧ مريم » .

(اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم) . اقرأ هذا الأمر تأكيد للأمر الأول بالقراءة . وربك الأكرم الذي علم بالقلم جملة مستأنسة ، ومعناها ان الله كريم ولا حد لكرمه تماماً كقدرته وعلمه ، ولا شيء أدل على جوده وفضله من انه ، جلت عظيمته ، ارتقى بالانسان من أدنى المراتب وهي العلق الى أعلاها وهي الكتابة بالقلم ، ولها من الفوائد ما لا يبلغه الاحصاء ، من ذلك انها تربط الماضي بالمستقبل ، وشرق الأرض بغربها ، بخاصة بعد اكتشاف الطباعة التي جعلت العلم مشاعاً للجميع حتى العميان يقرأون الكتابة بالحروف البارزة ، وإذا كان اللسان يفصح عما في الجنان فإن كلامه يذهب مع الريح ، ومن هنا قيل : القلم ينوب عن اللسان ، واللسان لا ينوب عن القلم .

(علم الانسان ما لم يعلم) . الله سبحانه لا يقذف العلم بقلب الانسان ، وإنما

يمنحه العقل الذي هو مصدر العلوم ، وليس للعقل حد ينتهي اليه لا الصمود إلى القمر ولا إلى المريخ ، وكذلك علوم الانسان ، فإنها تزداد يوماً بعد يوم إلى ما لا نهاية .. واتفق أكثر المفسرين على ان هذه الآيات من أول السورة إلى هنا نزلت دفعة واحدة ، أما بقية السورة فتأخرة زماناً .

المال والطغيان :

(كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى) . كلا للردع، والطغيان تجاوز الحد، والحكم على الانسان باعتبار الأغلب من أفرادهِ .. وأكثر الناس - وكنت منهم - يستشهدون بهذه الآية على ان الانسان يستعلي ويظلم حين يملك من المال والثروة أكثر من غيره .. وعلى هذا جمهور المفسرين . قال الرازي : « أول السورة يدل على مدح العلم ، وآخرها على مذمة المال » . وقال صاحب مجمع البيان : « أي إن رأى نفسه مستغنى عن ربه بعشيرته وأمواله وقوته » . وقال الشيخ محمد عبده : « أي متى أحس من نفسه وبقطع النظر عما قبلها ، وهو قوله تعالى : « علم الانسان ما لم يعلم » . أما إذا نظرنا إلى مجموع الآيتين ، وانهما وردتا في كلام واحد بلا فاصل بينهما ، ولا بد من هذا النظر ، إذا فعلنا ذلك كان المعنى ان الانسان يتجاوز الحدود المشروعة حين يرى نفسه غنياً بالعلم وأدواته كالمخبرات والمصانع ، ويظلم من هو دونه بقسوة وضراوة ، ويؤيد هذا التفسير بالاضافة إلى ظاهر السياق - انه الواقع الذي تعيش فيه الانسانية الآن ، فإن الذين يملكون العلم يحاولون أن يخضعوا العالم كله لسيطرتهم واستغلالهم ، بعد أن اتجهوا بالعلم إلى الانتاج الحربي والصناعة العسكرية ، وأصبح لديهم من الأسلحة ما يقضون به على الكرة الأرضية بما فيها في بضعة ساعات .. هذا هو التفسير الصحيح لقوله تعالى : « ان رآه استغنى » نقول هذا ، ونحن من المؤمنين بالحقيقة الشائعة « الانسان ان استغنى بطر وقتن ، وان افتقر قط ووهن » ولكن الحقيقة في ذاتها شيء ، ودلالة اللفظ والسياق شيء آخر .

(إن إلى ربك الرجعى) لا تغتر بالدنيا وزينتها أبها الطاغية، ولا بالعلم وقنابله والمال وخداعه فإن قوة الحق أمضى من القنابل النووية .. فهذه ثورة الانسان ضد

الاستغلال والاستعباد في الهند الصينية وغيرها قد لقنت أرباب المعامل والصناعة العسكرية في امريكا أبلغ الدروس، ثم يردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئهم بما كانوا يعملون .

(أرأيت الذي ينهى عبداً اذا صلى) . هذا انكار على كل من ينهى عن المعروف بطريق أو بآخر (أرأيت ان كان على الهدى أو أمر بالتقوى) . أخبرني عن هذا الضال الذي ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر - هل هو على حق في نهيه وأمره (أرأيت ان كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى) . لقد كذب هذا الضال بالحق وأعرض عنه ، أفلا يخشى عذاب الله الذي يعلم سره وعلايته ؟ . (كلا لمن لم ينته لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة) . الناصية شعر الجبهة، والسفع الجذب بشدة ، وكانت العرب تأنف من الجر بالناصية ، ونعده غاية الاذلال والتحقير ، لانه للحيوان لا للانسان ، وكاذبة خاطئة أي صاحبها كاذب خاطيء ، والمعنى ليرتدع هذا الضال عن ضلاله وإلا قدمناه بناصيته الى عذاب الحريق (فليدع ناديه) النادي المجلس ، وفي الكلام حذف مضاف أي ليدع هذا الضال أهل مجلسه بمنعوا عنه العذاب ، والمراد بأهل مجلسه أعوانه وعشيرته ، ومثله « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً » - ٥٦ الإسراء .

(سندع الزبانية) . وهم ملائكة العذاب ، والزبانية من الزين بفتح الزاي ، وهو الدفع أي ان الملائكة يدفعون بالطاغية الى نار جهنم ، وأصل « سندع » بالواو في آخر الكلمة ولكنها حذفت في كتابة المصاحف (كلا) زجر عن متابعة الطاغية والاصغاء لدعاياته المضللة (لا تطعه واسجد) لله وحده ، ولا تخش من مخلوق كائناً من كان (واقرب) أي وتقرب إلى الله بأعمال الخير ، وأفضلها جهاد الطغاة .

وقسم الفقهاء السجود إلى سجدة الصلاة المعهودة ، وسجدة السهو ومكانها بعد الصلاة بلا فاصل وموجبها الخلل في الصلاة زيادة أو نقصاناً ، والتفصيل في كتب الفقه ، وسجدة الشكر عند تجدد نعمة أو دفع نقمة ، وسجدة التلاوة ، وقد أوجبها الإمامية عند تلاوة آية السجدة من سورة ألم تنزيل ، وسورة حم فصلت ، وسورة النجم ، وسورة العلق ، وما عدا ذلك فهو ندب لا فرض .

سُورَةُ الْقَدْرِ

• آيات مكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ
خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنْزِيلُ الْمَلَكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ
كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ *

الإعراب :

ما أدراك : ما ، مبتدأ وجملة أدراك خبر . ما ليلة القدر مبتدأ وخبر . وليلة
القدر مبتدأ وخبر خبر . تنزل أي تنزل . وسلام خبر مقدم وهو مصدر بمعنى
اسم الفاعل أي سلامة ، وهي مبتدأ مؤخر . وحتى حرف جر بمعنى إلى ومطلع
مجرور بها متعلقاً بسلام وقيل بتنزل .

المعنى :

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) . الضمير في أنزلناه للقرآن لحضوره في الأذهان ،
وليلة القدر هي إحدى ليالي شهر رمضان المبارك للأحداث المتصافرة ، ولقوله
تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن - ١٨٥ البقرة » فإذا عطفنا هذه
الآية على قوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » كانت النتيجة ان ليلة القدر

هي احدى ليالي شهر رمضان . وتعددت الأقوال في تعيين هذه الليلة من الشهر المذكور تبعاً لتعدد الأحاديث ، وسكت كتاب الله عن ذلك للحث على إحياء جميع ليالي شهر رمضان بالعبادة كما قيل .

وفي رواية عن الإمام جعفر الصادق (ع) : ان سائلاً سأله عنها فقال له : اطلبها في تسع عشرة واحدى وعشرين وثلاث وعشرين ، وجرت العادة عند أهل السنة أن يقيموا شعائرها في ليلة ٢٧ .

وأطرف ما قرأته حول تعيين هذه الليلة ما جاء في كتاب أحكام القرآن لأبي بكر المعروف بابن العربي المعافري الأندلسي المالكي ، قال صاحب الكتاب ما نصه بالحرف : « أنها في ليلة ٢٧ لأن العلماء عدوا حروف السورة فلما بلغوا الى كلمة « هي » وجدوها سبعة وعشرين حرفاً ، فحكموا عليها بها - أي حكموا على ليلة القدر بالحروف المعدودة - وهو أمرٌ بيّن وعلى النظر بعد التفتن لسه هين ، ولا يهتدي له إلا من كان صادق الفكر شديد العبارة . وليست هذه « العبقريّة » في الاستنتاج ، وهذا « الورع » في تفسير كلام الله - بالشيء الغريب عن الذي قال معلقاً على فتوى للإمام الشافعي : « هذا كلام من لم يذق طعم الفقه » . وأيضاً قال تطبيقاً على فتوى للإمام أبي حنيفة : « هذا فقه ضعيف » . أنظر كتاب « أحكام القرآن » ج ٢ ص ٢٣٩ طبعة ١٣٣١ هـ .

وقال الشيخ محمد عبده : ليلة القدر هي ليلة عبادة وخشوع وتذكر لنعمة الحق والدين .. ولكن المسلمين في هذه الايام يتحدثون فيها بما لا ينظر الله اليهم ، ويسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه ، بل إن أصغوا فإنما يصغون لنغمة تالي القرآن .. ولهم خيالات في ليلة القدر لا تليق بقول الأطفال فضلاً عن الراشدين من الرجال .

واختلفوا : هل نزل القرآن جملة واحدة أو نجوماً ؟ والحق انه نزل نجوماً ، وان معنى أنزلناه في ليلة القدر ان ابتداء النزول كان في هذه الليلة . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٠٦ من سورة الإسراء ج ٥ ص ٩٥ فقرة « هل نزل القرآن نجوماً » ٤ . وأيضاً اختلفوا : لماذا سميت هذه الليلة بليلة القدر ؟ فن قائل : لأن الله سبحانه يقدّر ويقسم الأرزاق والآجال في هذه الليلة بين عباده ،

سورة القدر

وقائل : ان المراد بالقدر هنا الشرف والعظمة . وهذا القول أقرب الى كلمة القدر لأنه يقال : فلان له قدر أي شرف وعظمة ، ويؤيده ان الله سبحانه وصف هذه الليلة بالمباركة في الآية ٣ من سورة الدخان « انا أنزلناه في ليلة مباركة » والبركة السعادة والنمو ، وليس من شك ان الانسانية تنمو وتسعد لو سارت على نهج القرآن الذي نزل في ليلة القدر .

(وما أدراك ما ليلة القدر) . هذا تعظيم لشأنها وعلو قدرها وانه فوق النصور (ليلة القدر خير من ألف شهر) لا قدر فيه وإلا لزم تفضيل الشيء على نفسه ، والمعنى ان من أحيا ليلة القدر بالعبادة وعمل الخير فكأنما عبد الله ألف شهر . قال الرازي : « هذه الآية فيها بشارة عظيمة : وفيها تهديد عظيم ، أما البشارة فهي انه تعالى ذكر ان هذه الليلة خير ولم يبين قدر الخيرىة ، وهذا كقول النبي (ص) لعلي (ع) كبايزة علي مع عمر بن ود أفضل من عمل امي الى يوم القيامة ، فلم يقل مثل عمله بل قال أفضل ، كأنه يقول : حسبك هذا من الوزن والباقي جزاف .

(تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) . كثرت في هذه الآية التفسير والأقوال ، ونذكر أولاً معاني مفرداتها ثم نجعل المعنى . وتنزل لا يحتاج الى تفسير ، ولكن الله سبحانه لم يذكر الى أين تنزل ملائكته ليلة القدر ؟ هل تنزل الى أرضنا أو الى غيرها من الأفلاك أو الى كل مكان كما يقتضيه حذف المتعلق ؟ . والروح هو جبريل ، وضمير فيها يعود الى ليلة القدر ، وإذن ربهم أي بأمره ، ومن كل أمر « من » سببية أي لأجل ، وكل أمر يعم كل شيء في السموات والأرض . ويجعل المعنى ان الله سبحانه يأمر في ليلة القدر الملائكة بالنزول الى كل مكان من أجل كل شيء .. واذا سئلنا : ما هو المراد من أجل كل شيء ؟ هل هو تدبير الأشياء وتقرير مصيرها أو معاينتها واحصاؤها أو غير ذلك ، اذا سئلنا عن ذلك قلنا : الله أعلم . وقال الشيخ محمد عبده : المراد ان أول عهد النبي (ص) بشهود الملائكة كان في ليلة القدر .. وهذا بعيد عن ظاهر اللفظ .

(سلام هي حتى مطلع الفجر) . ضمير هي يعود الى ليلة القدر ، ولكن

هل المراد ان السلام الى مطلع الفجر يكون في جميع ليالي القدر وانه لا يقع شيء من الشرور والآفات في أبة ليلة من ليالي القدر ، أو ان السلام الى مطلع الفجر كان في خصوص الليلة التي نزل فيها القرآن على قلب رسول الله ؟ . الظاهر من عبارة المفسرين العموم ، ومن عبارة الشيخ محمد عبده الخصوص ، قال : « انها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذى .. فرج الله فيها عن نبيه وفتح له فيها سبيل الهداية ، فأناله بذلك ما كان يتطلع اليه » .

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

٨ آيات . قبل مدينة وقيل مكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ *

الإعراب :

منفكّين خبر لم يكن . ورسول بدل من البينة . ومن الله متعلق بمحذوف صفة
لرسول . وفيها خبر مقدم وكتب مبتدأ مؤخر والجملة صفة لصحف . ومخلصين
حال من فاعل ليعبدوا . والدين مفعول مخلصين . وحففاء حال ثانية . في نار
جهنم خبر ان الذين كفروا . وأولئك مبتدأ أول وهم مبتدأ ثانٍ وشر خبر الثاني
والجملة خبر الأول . وأبدأ ظرف زمان متعلق بالخلود ومؤكد له .

المعنى :

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البينة).
المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، وبالمشركين عبدة الأوثان من العرب ،
ومنفكّين أي مفارقين .. وكان أهل الكتاب قد قرأوا في كتبهم ان الله سيبعث
نبياً يهدي الى الحق ، وأيضاً سمع المشركون بهذا النبي ، فكان بين الفريقين شبه
اجماع على بعثة النبي الموعود، وكثيراً ما كان يقع الخصام والعناد بين أهل الكتاب
والمشركين ، ويدعي كل فريق انه الحق والآخر هو الباطل ، ثم يتفقون على
ان يرجئوا حكم الفصل بينهم الى مجيء النبي الموعود ، وانهم متى جاء آمنوا به
وأذعنوا لحكمه ، وهو المقصود بالبينة التي بينها سبحانه بقوله : (رسول من الله
يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة) . المراد برسول الله هنا محمد (ص) وبالصحف
القرآن ، والجمع باعتبار تعدد سورته أو أوراقه لأن كل ورقة مكتوبة يقال لها
صحيفة ، ومطهرة أي منزّهة عن الباطل والتحريف ، وضمير فيها يعود الى
الصحف، والمراد بالكتب ان القرآن فيه تبيان الكثير مما أنزله الله في الكتب السماوية
السابقة كصحف ابراهيم والتوراة والانجيل والزيور بل فيه تبيان ما نزل على جميع

الجزء الثلاثون

الأنبياء من الهدى وأصول الدين ، والمراد بالقيمة المستقيمة على نهج الحق، والمعنى ان محمداً (ص) لما جاء بالقرآن الذي فيه نبيان كل شيء أعرض عنه المشركون وأهل الكتاب ، ونكثوا العهد الذي كانوا قد أبرموه على أن يتحاكموا لدى النبي الموعود .

(وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) . هذه البينة جاءت أهل الكتاب على السنة أنبيائهم ، فالمراد بها غير المراد بالبينة في الآية السابقة ، والمعنى ان أهل الكتاب تمادوا في النفي والضلال بإعراضهم عن دعوة محمد (ص) الذي جاءهم بالبينات تماماً كما تمادوا في السفاهة والضلالة بعد أنبيائهم الذين جاءوهم بالأدلة والحجج ، وذلك ان اليهود انقسموا الى فرق بعد موسى ، وكذلك النصارى تفرقوا شعباً بعد عيسى ، وما كان هذا الاختلاف والانقسام عن جهل بالدين ، وإنما فرقتهم الأهواء والمنافع . وتقدم مثله في الآية ١٠٥ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٢٧ والآية ١٧ من سورة الجاثية .

(وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) . حنفاء جمع حنيف ، وهو من استقام على الحق مائلاً عن كل باطل ، والمعنى ان أهل الكتاب تفرقوا في دينهم مع ان دين الله واحد وواضح ، وهو الاخلاص لله وحده ، والاستقامة على الحق والهدى، واقامة الصلاة ، وابتاء الزكاة ، وهذا دين الكتب السماوية المستقيمة على الصراط القويم ، فن أين جاء تعدد الأديان والطوائف والمذاهب ؟ قال الشيخ محمد عبده : « هذا ما نعه الله من حال أهل الكتاب، فما نقول نحن في حالنا ؟ ألا ينمى كتابنا الشاهد علينا بسوء أعمالنا في افتراقنا في الدين بعد أن صرنا فيه شيعاً ، وملأناه بدعاً ومحدثات » . أنظر ج ١ ص ١٨٠ فقرة « أيضاً المسلمون يكفر بعضهم بعضاً » .

(إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية) . المراد بالكافرين هنا كل من جحد الحق الذي قام عليه الدليل ، سواء أجمده عناداً وبعد ان علم به ، أم لأنه يأبى البحث عن الحق والنظر اليه . والى دليله ، وقد اتفق علماء المسلمين على ان حكم الجاهل المقصر في البحث عن الحق تماماً كحكم العالم به التارك له عن قصد وعمد، وليس من شك ان من أعرض

سورة البينة

عن الحق بلا مبرر هو شر أهل الأرض تماماً كمن جعل لله شريكاً ، ولا جزاء لهذا وذاك إلا العزري والعذاب .

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . آمنوا بالحق وعملوا بموجب إيمانهم (اولئك هم خير البرية) . كل من بحث عن الحق وعمل به لوجه الحق ولا تأخذه فيه لومة لائم - فلا أحد أفضل منه إلا من اختاره الله لرسالته ، واصطفاه أميناً على وحيه (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه) . رضي عنهم لأنهم عملوا بمرضاته فأثابهم بملك دائم ، ونعيم قائم ، ورضوا عنه بما أفاضه عليهم من فضله ونعمه . ونقدم مثله في الآية ١١٩ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٥٣ والآية ١٠٠ من سورة التوبة ج ٤ ص ٩٥ والآية ٢٢ من سورة المجادلة .

(ذلك لمن خشي ربه) . لقد أعد سبحانه الجزاء الحسن لمن خشي الرحمن بالغيب وقال صواباً . قال الشيخ محمد عبده : « أراد سبحانه بهذه الكلمة الرفيعة ان يدفع سوء الفهم الذي وقع فيه العامة والخاصة وهو ان مجرد الاعتقاد الموروث من الأبوين ومعرفة ظواهر بعض الأحكام وأداء بعض العبادات ، مجرد هذا يكفي في نيل ما أعدده الله للمؤمنين ، وان امتلأت قلوبهم بالحقد والحسد والكبرياء والرياء ، وأفواههم بالكذب والنميمة والافتراء ، وسرائرهم بالرق والعبودية للأمراء بل لمن دون الأمراء .. كلا ، لا ينالون حسن الجزاء لأن خشية الله لم تحل قلوبهم ، ولم تهذب شيئاً من نفوسهم ، ولا يكون ذلك إلا لمن خشي ربه ، وأشعر خوفه قلبه » .

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

٨ آيات مكية وقيل مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ
يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَسَنُيَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ *
وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ *

الإعراب :

زلزالها مفعول مطلق . وماها ؟ مبتدأ وخبر . ويومئذٍ تخدث : « يومئذٍ بدل
من « إذا » لأنها بمعنى حين . والمصدر من ان ربك أوحى متعلق بتحدث .
ويومئذٍ منصوب بيصدر . وأشأتاناً حال . والمصدر من لبروا متعلق بيصدر . وخيراً
تمييز مبين لمثقال ذرة لأن المعنى ذرة من خير ، ومثله شراً .

المعنى :

(إذا زلزلت الأرض زلزالها) . هذا تخويف من أهوال يوم القيامة الذي
تضطرب فيه الأرض وتهتز اهتزازاً شديداً ، ومثله « يا أيها الناس اتقوا ربكم ان

سورة الزلزلة

زلزلة الساعة شيء عظيم - ١ الحج ، ج ٥ ص ٣٠٨ (وأخرجت الأرض أنفقالها) .
أخرجت كل ما طوته في جوفها من أموات وكنوز ومدن وحضارات (وقال
الانسان مالها) ؟ ما لهذه الأرض تموج على غير عادتها ؟ ما الذي جرى لها ؟
(يومئذ تحدث أخبارها) . حديث الانسان أن يظهر ما يكنه في نفسه ، وحديث
الأرض يوم القيامة أن تبرز للعيان ما ابتلعه من عجائب وغرائب مسدى الدهور
والعصور .. ولست أدري : هل يشاهد يومئذ علماء الآثار هذا المعرض المذهل
المدهش ؟ .

(بأن ربك أوحى لها) . كل ما يحدث للأرض يوم القيامة هو بأمر الله
تعالى . وقال الشيخ محمد عبده : « ولا مانع من أن يكون خراب الأرض في
آخر عمرها بسبب من الأسباب التي تهدم بناءها وتجعلها هباءً منثوراً » . وكأنه
يشير بقوله هذا الى التفجيرات النووية على سطح الأرض وجوفها مع العلم بأنها لم
تكن في أيامه .. وقوله قريب جداً لأن عمر الأرض لا ينتهي بمرور الزمن كما
هو شأن الكائنات الحية ، بل تخلل يعرض لها أو لجزء من أجزائها الرئيسية .
(يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليرَوّا أعمالهم) . يوم القيامة يُبدل الله الكون
غير الكون ، ويُلحق آخر الخلق بأوله ، ويذهبون بقضّهم وقضيضهم الى حيث
يرى كل واحد منهم جزاء عمله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل
مثقال ذرة شراً يره) . في تفسير الرازي وغيره : ان الذرة أصغر النمل . وفي
كتاب « القرآن والعلم الحديث » لنوفل « الذرة هي أقل جزء يمكن أن يصل
اليه تقسيم المادة ، ولا يزيد حجمها على جزء من عشرة بلايين من المليمتر » .
ويقال أيضاً : ان الذرة لا تُرى أبداً حتى بأعظم المجاهر ، وانما تُعرف بآثارها ،
والمعنى واضح ، وهو ان الانسان يجد غداً عند الله جزاء عمله إن خيراً فخير ،
وإن شراً فشرّ بالغة ما بلغ العمل من الصغر .. وبديهة ان جزاء كل شيء بحسبه
كما وكيفاً .

وتسأل : هل المؤمن والكافر في ذلك سواء ، أم ان من كفر بالله لا يقبل
منه عمل الخير ولا يثاب عليه حتى ولو أتى به لوجه الخير والانسانية ؟
الجواب : كل شيء بحسابه ، فإذا فعل الكافر خيراً يُعذب عذاب الكفر ،
ويُجزى على عمل الخير بما تستدعيه الحكمة الإلهية من ثواب الدنيا أو التخفيف من

عذاب الآخرة . وتكلمنا عن هذا الموضوع مفصلاً في ج ٢ ص ٢١١ بعنوان : الكافر وعمل الخير .

سؤال ثان : لقد دل كثير من الآيات ان الكفر يحبط الأعمال ، وإن كانت كلها حسنات ؟ .

وقد أجاب عن هذا بعض العلماء بأن معنى الاحباط ان حسنات الكافر لا تنجيه من عذاب الكفر ، وليس معناه ان الله سبحانه لا يشبه عليها إطلاقاً حتى في الدنيا .

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

١١ آية مكية وقبل مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَّاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ
نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ
لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ *
وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ *

الإعراب :

ضبحاً مصدر في موضع الحال أي ضابحة . وقَدْحاً مفعول مطلق للموريات لأن الموري فيه معنى القدح ، فهو مثل قمت وقوفاً . وصبحاً منصوب على الظرفية . فَأَثَرْنَ التّون علامة التّأنيث . ونقعا مفعول به ، ومثله جمعاً ، وقال أبو البقاء : جمعاً حال . إن الانسان الخ جواب القسم . لربه متعلق بكنود . على ذلك متعلق بشهيد . لحب الخير متعلق بشديد . يومئذ متعلق بخبير .

المعنى :

جاء في مجمع البيان وغيره ان رسول الله (ص) أرسل سرية الى حي من بني كنانة ، فأبطأت عليه ، فقال المنافقون : ان رجالها قتلوا ، فترلت هذه السورة تخبر النبي (ص) بسلامتهم وتكذب المرجفين .

(والعاديات ضبجاً) . العاديات جمع العادية من العدو، وهو الجري بسرعة ، والمراد بالعاديات هنا الخيل ، وقيل الإبل ، والضبج صوت أنفاسها عند العدو (فالموريات قدحاً) . الموريات من قولهم : أورى النار اذا أوقدها ، والقدح الضرب لاجراج النار ، والمعنى ان الخيل عند عدوها تضرب الحجارة بحوافرها فيتطاير منها الشرر ، (فالغيرات صبحاً) أغارت الخيل على العدو وقت الصبح لتأخذ على غفلة منه (فآثرن به نقعاً) . آثرن حركن ، والضمير في به يعود الى وقت الصبح ، والباء ظرفية أي فيه ، والنقع الغبار (فوسطن به جمعاً) . ووسطن نوسطن ، وأيضاً ضمير به يعود الى وقت الصبح، والمراد بالجمع هنا جمع العدو ، والمعنى هاجمت الخيل العدو وقت الصباح .

أقسم سبحانه بخيل المعركة، وبالأحرى أقسم بالقوة وإعداد العدة ليحث المؤمنين على الجهاد في سبيل الله ، والتسلح بالقوة لردع أعداء الله والانسانية .. ومن تتبع آي الذكر الحكيم يجد ان الله سبحانه قد حث المؤمنين في العديد من آياته وبشئ الأساليب أن يكون لديهم أمضى سلاح يرهبون به الطغاة المعتدين الذين لا يفهمون إلا بلغة القوة .. من ذلك قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم - ٦٠ الأنفال » . وقوله : « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم - ١٠٢ النساء » وقوله « ولا تكونوا كآتي نفقت غزها من بعد قوة - ٩٢ النحل » . الى غير ذلك من الآيات التي تأمر بكل ما من شأنه أن يجعل كلمة الحق هي العليا ، وكلمة الباطل هي السفلى. وبهذا يتبين معنا ان ذكر الخيل وضبحها ، وقدها ونقعها انما هو كناية عن إعداد العدة لصيانة الحق والدفاع عن أهله ، وكفى سبحانه بالخيل عن القوة لأنها كانت آنذاك من أبرز مظاهرها .

وقال الشيخ محمد عبده ، وهو يفسر هذه الآيات : أليس غريباً ان اناساً

يزعمون ان القرآن كتابهم ، وهم أبعد الناس عن الرجولة وصفاتها ، لقد كلمت أستاذاً منهم يشار اليه بالبنان في منافع بعض العلوم كي تُدرس في الأزهر فقال : « اذن يجب أن نعلم الطلبة ركوب الخيل أيضاً » . قال هذا ليفحمي ، فهل يتفق قوله مع الايمان بكتاب الله ؟ أنصف ثم احكم .

(ان الانسان لربه لكنود) . هذا جواب القسم ، والكنود جاحد النعمة ، والحكم في الآبة على الانسان باعتبار الأغلب من أفرادهِ ، والمعنى ان أكثر الناس ينسون الله عند النعم ، ويشكرونه عليها بالبدل منها في سبيله ، قال الرسول الأعظم (ص) : الكنود هو الذي يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفقده (وانه على ذلك لشهيد) أي ان أفعال الكنود تشهد عليه بلسان الحال انه كافر بأنعم الله .. وأشد أنواع الكفر بالله ونعمه ان يستظهر بها الانسان على عباد الله وعياله .

(وانه لحب الخير لشديد) . قال المفسرون : المراد بالخير هنا المال .. وليس من شك ان من اشتد حبه للمال فقد تجرد عن انسانيته وكفر بكسل القيم إلا اذا كانت وسيلة لجمع المال .. ولو بحثنا عن الأسباب الموجبة لمآسي الانسانية ووبلائها لوجدناها تكمن في التنافس على الثروات وجمع المال . قال هربرت ماركيز الذي عمل استاذاً للفلسفة في جامعات كولومبيا، وهارفارد ، وبرانديز في الولايات المتحدة قال في كتابه الانسان ذو البعد الواحد : « من أين يأتي الخير في عصر لا يخلق إلا الشر حيث سيطرت المادة بشكل جعل الانسان هو العبد ، وهي السيد القوي المتحكم » .

(أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحُصِّل ما في الصدور ان ربهم بهم يومئذ لخبير) . الضمير المستتر في يعلم يعود الى الانسان أو الى الكنود، ومفعول يعلم محذوف أي أفلا يعلم الانسان مآله ومصيره ؟ وبعثر ما في القبور خرج منها المولى للحساب والجزاء ، وحُصِّل ما في الصدور ظهر ما فيها من النيات والمخبات ، وضمير بهم يعود الى المبعوثين من القبور ، وخير اشارة الى انه تعالى محيط بمقاصدهم وأعمالهم ومجازيهم عليها بما يستحقون . والآية تهديد ووعد لكل من كفر بأنعم الله وتناول بها على عباده . ونقدم مثله في العديد من الآيات ، منها الآية ٢٣٥ من سورة البقرة .

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

١١ آية مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ
ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ *
فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَةٌ * نَارُ حَامِيَةٍ *

الإعراب :

القارعة مبتدأ ، ما القارعة « ما » مبتدأ ثان والقارعة خبر والجملة خبر المبتدأ الأول . وما أدراك « ما » مبتدأ وجملة أدراك خبر . ما القارعة مبتدأ وخبر . يوم منصوب بفعل محذوف أي تحدث القارعة يوم يكون الخ . ماهية « ما » خبر مقدم وهي مبتدأ مؤخر والهاء للسكت . نار خبر لمبتدأ محذوف أي هي نار حامية .

المعنى :

(القارعة) من أسماء القيامة لأنها تفرع القلوب بأهوالها ، ومثلها الحاقة والصاخة والطامة وما إليها (ما القارعة) استفهام أريد به تعظيم شأنها (وما أدراك ما القارعة) ما الذي جعلك بها دارياً ؟ . أنها فوق التصور (يوم يكون الناس كالفرش المبعوث) . هذا بيان لبعض ما يحدث فيها لا لبيان حقيقتها ، والفرش معلوم وهو الطير الصغير الذي يرمى ليلاً على السراج ، والمبعوث المتفرق المنتشر ..

شبه سبحانه حال الخلق يوم القيامة بحال الفراش في الجهل والحيرة وتساقط أكثرها في النار (وتكون الجبال كالمهن المنفوش) . المهن الصوف ، ونفسه ان تفرق شعراته بعضها عن بعض .

(فأما من ثقلت موازينه) . والمراد به من طابت سريرته وصلح عمله (فهو في عيشة راضية) أي يرضاها ويهنأ بها (وأما من خفت موازينه) . والمراد به من خبثت سريرته وساء عمله . وتكلمنا مفصلاً عن حقيقة الميزان يوم القيامة في ج ٥ ص ٢٨٠ فقرة ١ الميزان يوم القيامة وصاحب الأسفار (فأمه هاوية) المراد بأمه هنا ما بأوبه ويحضنه، وبهاوية جهنم لأن المجرم يهوي بها ، وقد بينها سبحانه بقوله : (وما أدراك ما هي نار حامية) هذا كل ما يمكن أن تعرفه عن جهنم ، أما إدراك حقيقتها فتعجز عنه الأفهام لأن قعرها بعيد ، وعذابها جديد .

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

٨ آيات مكية وقيل مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَآكُمْ التَّكْوِيْنُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيْمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِيْنِ * ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيْمِ *

الإعراب :

كلا حرف ردع وزجر والثانية والثالثة تأكيد . لو تعلمون الجواب محذوف أي لما ألهاكم التكوّن . أو لارتدعتم عما أنتم فيه . وعلم اليقين مفعول مطلق وهو

سورة التكاثر

من باب إضافة الشيء الى نفسه مثل مسجد الجامع. لترون اللام في جواب القسم .
ترونها تأكيد لترون . لتسألن اللام في جواب القسم . ويومئذ منصوب بتسألن .

المعنى :

(الهالك التكاثر) . الهالك شغلكم وصرفكم عن الحق وصالح الأعمال، والتكاثر التفاخر بكثرة الأموال وما إليها من قول المباهي : أنا أكثر منك مالاً أو جاهاً (حتى زرع المقابر) . مضيم في الغفلة والضلال حتى أدرككم الموت . وللإمام علي (ع) كلام طويل قاله بعد تلاوة هذه الآية الكريمة ، وقد أدرج في نهج البلاغة ، ومنه : بمصارع آبائهم يفخرون ؟ أم بعديد الهلكى يتكاثرون ؟ ولأن يكونوا عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً .

(كلا) ارتدعوا عن التكاثر والتفاخر فإنه لا يجديكم نفعاً (سوف تعلمون) ما يحل بكم من العذاب (ثم كلا سوف تعلمون) . هذا تأكيد للتهديد (كلا لو تعلمون علم اليقين) أي لو كنتم تعلمون علماً قاطعاً مآل المتكاثرين لارتدعتم عن التكاثر والتفاخر ، وفيه إيماء الى ان العلم بلا عمل هو والجهل سواء : وفي ذلك يقول الإمام (ع) : « العلم يهتف بالعمل : فان أجابه وإلا ارتحل عنه » . (لترون الجحيم) . هذا تهديد لمن كذب بها أو آمن ولم يعمل بموجب إيمانه ، وقد كنتم سبحانه برؤية الجحيم عن الدخول فيها (ثم لترونها عين اليقين) . هذا تأكيد للعلم بها ، وانه علم العيان والمشاهدة ، وتجدر الإشارة الى ان أية نظرية لا تستند الى العيان والمشاهدة مباشرة أو بالواسطة فإهي من العلم في شيء ، فالعلم الحق هو ان ترى الشيء نفسه ، أو ترى آثاره التي تدل عليه : ويسمى الأول علم العيان ، والثاني علم البرهان .

(ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) . المراد بالنعيم هنا الأموال التي يتكاثر ويتفاخر بها أربابها بلسان المقال أو الحال . وهم مسؤولون عنها أمام الله : من أين اكتسبوها؟ وفي أي شيء أنفقوها ؟ هل اكتسبوها من كد اليمين وعرق الجبين : أو من السلب والنهب ؟ . وهل أنفقوها في حلال أو حرام ؟ أما ما تدعو اليه الحاجة من المأكل والملبس والسكن فليس من النعيم المقصود في هذه الآية .

سُورَةُ الْعَصْرِ

٣ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *
إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ *

المعنى :

(والعصر) . اختلفوا : ما هو المراد بالعصر ، وفي ذلك أقوال : الأول ان الله سبحانه أقسم بصلاة العصر لا بالعصر نفسه ، فهو من باب حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه ، أما الغرض من القسم بصلاة العصر فهو التنبيه على فضلها كما في الآية ٢٣٨ من سورة البقرة « حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى » . وهذا بعيد عن الفهم العام .. القول الثاني ان المراد بالعصر عهد الرسول (ص) .. وهذا أبعد من الأول .. القول الثالث ان المراد به الطرف الأخير من النهار، وأنه تعالى أقسم بآخر النهار في هذه الآية كما أقسم بأوله في الآية ١ من سورة الشمس « والشمس وضحاها » . وهذا القول غير بعيد عن دلالة اللفظ ، وأقرب منه القول الرابع وهو ان المراد بالعصر الدهر أي الزمن الذي تقع فيه الحوادث والأفعال، والسياق يوميء الى ذلك فإن قوله تعالى بلا فصل : « ان الانسان لفي خسر » يشعر بأن الخاسر هو الانسان وليس الزمان لأنه لا يعد شيئاً في نفسه يخسر أو يربح، ويذم أو يمدح ! قال الشيخ محمد عبده : كان من عادة العرب ان يجتمعوا وقت العصر ويتذاكروا في شؤونهم ، وقد يؤدي حديثهم الى ما يكرهون، فيتوهم

الناس ان هذا الوقت مذموم ، فأقسم الله به لينبه على ان الزمان لا يئتم ، وانما هو ظرف للحسنات والسيئات ولتشؤون الله الجليلة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال ، وانما يئتم ما فيه من الأفعال الممقوتة .

(ان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . هذا جواب القسم ، والمراد بالانسان من كان موضوعاً للتكليف ومسؤولاً عن أقواله وأفعاله ، وهذا الانسان خائب خاسر بحكم القرآن وإن كان ثرياً يملك الملايين ، وعالمًا يكشف أسرار الطبيعة ويسخرها لمصلحته ، وقويًا يُخضع الناس لسيطرته ، وبليغاً يحسن صناعة الكلام والوعظ .. انه خائب خاسر إلا اذا آمن بالله وحلاله وحرامه وناره وجنته ، وانعكس هذا الايمان على أقواله وأفعاله ، وإلا فإن الايمان بلا عمل مجرد فكرة ونظرية .. ولقد قرأت فيما قرأت ان الطيارين الأمريكيين الثلاثة الذين ألقوا القنبلة الذرية على هيروشيما في اليابان ، ومات وتشوه بسببها مئات الألوف ، كان كل واحد منهم يحمل معه نسخة من «الكتاب المقدس» الى جانب قنبلة الفناء والدمار !! وتساءل : أليس قوله تعالى : « ان الانسان لفي خسر » يسدل بظاهره ان الانسان خاسر بطبعه ، وان جميع أفرادهِ في الخسر سواء ، واذا كان الأمر كذلك فلا يصح تقسيم الانسان الى صالح وطالح وخاسر ورابح لأن ما بالذات لا يتغير؟ وبالتالي فما هو المبرر لقوله تعالى : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ؟ .

الجواب ان الله سبحانه لم يحكم على طبيعة الانسان بالخسر من حيث هو وباعتبار جميع أفرادهِ .. كلا ، وانما حكم عليه باعتبار الأعم الأغلب من أفرادهِ ، ومثله كثير في القرآن كقوله تعالى : « ان الانسان لظلوم كفار » وقوله : « وكان الانسان قتوراً » . فالانسان بطبعه لا يعد خاسراً ولا رابحاً لأنه من ههنا الحيثية يملك الأهلية والاستعداد لها معاً ، فالحكم عليه بأحدهما ترجيح بلا مرجع ، وانما يحكم عليه بأحد الوصفين بالنظر الى عقيدته وأعماله ، لا بالنظر الى ذاته وطبعه ، فقد أشرنا فيما سبق أكثر من مرة ان الله سبحانه وهب الانسان العقل والقدرة على الشر والخير وأمره بهذا ونهاه عن ذلك، وخلق بينه وبين ما يخلق ولم يفرض الدين والعمل عليه فرضاً ويخلقها فيه كما يخلق الكائنات ، ولو فعل لسلخ الإنسانية عن الانسان اذ لا انسانية بلا حرية وإرادة ، وعليه فلا يكون الانسان خاسراً ولا رابحاً إلا باعتبار عقيدته وأعماله ، فقوله تعالى : « ان الانسان لفي خسر الا الذين

آمنوا وعملوا الصالحات ، معناه ان الذين لم يؤمنوا أو آمنوا ولم يعملوا هم الخائبون الخاسرون ، أما الذين آمنوا وعملوا فهم الفائزون الراجحون .
 (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) . هذا عطف على آمنوا وعملوا ، والمعنى ان الفائزين غداً هم الذين آمنوا بالله وشريعته ، وعملوا بما عليه هذا الايمان ، وأوصى بعضهم بعضاً بالحق والصبر ، وعرف الشيخ محمد عبده الحق بقوله : « ما ارشد اليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة » . وهذا تعريف للحقيقة لا للحق ، والفرق بينهما ان الحقيقة بنت البرهان ، أما الحق فهو قائم بنفسه سواء أدلت عليه البيانات أم لم تدل ، فإن كثيراً من الناس يعجزون عن اثبات حقهم بالدليل القاطع والعيان .. وعلى أية حال فإن كل عمل فيه لله رضى وللناس صلاح فهو حق وخير وعدل ، أما الصبر فالمراد به ان نثبت على الحق ، ونقول للمبطل : لا ، مهما كانت النتائج .
 والخلاصة ان أعظم ما في الانسان ، وأهم ما أنعم الله به على الانسان هو انه تعالى أعطاه القدرة الكافية الوافية على أن يكون ملاكاً أو شيطاناً ، راجحاً أو خاسراً ، وانه ، جلت حكمته ، جعل الحرية له وحده في أن يختار لنفسه ما يشاء من للشقاء والخسران ، والربح والسعادة ، وان الله يعامله بما يختاره لنفسه ربحاً أو خسراناً بعد أن هداه التجلدين .. وأي فضل أعظم من هذا الفضل ، وعدل أعظم من هذا العدل ؟ .

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

٩ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يُحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَهْلِكُ عَلَى الْأَفْتِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ * فِي عَمْدٍ مُّتَدَدَةٍ *

الإعراب :

ويل مبتدأ ، وصح الابتداء بالنكرة لأنها مفيدة ومعناها الدعاء ، ولكل همزة

سورة الحمزة

خبر ، ولززة بدل من همزة ، والتاء المضمومة فيها للمبالغة . والذي جمع مالا^١ بدل من همزة لزمة . وعدده فعل ماضٍ من العدد . كلا حرف ردع وزجر . ولينبذن اللام في جواب القسم والنون للتوكيد ، والضميم المستتر في الفعل يعود الى كل همزة لزمة جمع مالا^٢ وعدده . وما أدراك ما ، مبتدأ وجملة أدراك خبر . ما الحطمة مبتدأ وخبر . ونار خير لمبتدأ محذوف أي هي نار . والتي صفة لنار . وموصلة خبر أنها . وعليهم متعلق به . وفي عمد متعلق بمحذوف صفة لموصلة . وممددة صفة لعمد .

المعنى :

(ويل لكل همزة لزمة) . الويل الخزي والهوان . ويقال : رجل همزة لزمة أي عيَّاب مقتاب ، وقيل : الهمز يكون بالعين والشدق واليد ، واللمز باللسان . وسواء أكان الوصفان بمعنى أم بمعنيين فإن القاسم المشترك بينهما إيذاء الناس والظن في أعراضهم بالقول أو بالفعل .. وهذا دأب الوضع اللئيم الذي يحقد على كل نبيل لا شيء إلا لشهوره النقص من نفسه ، فيحاول تغطيته بالنبل من كرامة الآخرين . قال الإمام علي : أسوأ الناس من لم يثق بأحد لسوء ظنه ، ولا يثق به أحد لسوء فعله . (الذي جمع مالا^٣ وعدده) . يجمع المال من حل وحرام ، وبحسبه ويعده أنا بعد أن شغفاً به ، وهو الذي حمله ودفعه الى غمر الناس ولزهم ذاهلاً^٤ انه عما قليل يفارقه وتبقى عليه تبعته وحسابه .

(أحسب ان ماله أخلده) . أيظن ان هذا المال الذي جمعه وعدده يدفع عنه الموت اذا نزل بساحته ، أو ينجيه من حساب الله وعذابه (كلا) ان المال لا يدفع حتفه ، ولا يشفع به عند الله (لينبذن في الحطمة) . وهي جهنم تحطم وتدمر الطغاة المتفطرسين ، والنبد يشعر بالازدراء والاحتقار (وما أدراك ما الحطمة) أنها فوق التصور (نار الله الموقدة) هي نار الله لا نار الناس ، ونار الغضب لا نار الحطب (التي تطلع على الأفئدة) . المراد بتطلع هنا العلو والطلع ، يقال : طلع الجبل وأطلع عليه إذا علاه . وقيل : المراد العلم والمعرفة .. وهذا بعيد عن الفهم العام ، والأفئدة كناية عن ان النار تعلق وتخرق كل عضو من أعضاء المجرمين ، وخص سبحانه الأفئدة بالذكر لأنها موطن الكفر واللؤم (أنها عليهم موصلة) مطبقة لا مفر لهم منها إلا اليها (في عمد ممددة) هذا كناية عن شدة الاطباق والأحكام . وتقدم مثله في الآية ٢٠ من سورة البلد .

سُورَةُ الْفِيلِ

• آيات مكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدُهُمْ فِي تَضْلِيلٍ *
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ
كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ *

الإعراب :

كيف مفعول مطلق لفعل لأن المعنى أي فعل فعل ربك . وتَرَ هنا معلقة
عن العمل لوجود كيف التي لا يعمل ما قبلها فيها بعدها . وأبَابِيل صفة للطير
ومعناه جماعات . وكعصف الكاف بمعنى مثل وهي مفعول ثانٍ لجعل .

ملخص القصة :

هذه القصة حدثت في عام مولد الرسول الأعظم (ص) واختصارها ان الأحباش
بعد أن تغلبوا على اليمن قصدوا مكة مزعمين أن يهدموا الكعبة ، فساروا يتقدمهم
فيل أو أكثر حتى وصلوا الى مكان بالقرب من مكة يقال له « المغمس » فترلوا
فيه ، وأرسل رئيسهم أبرهة - كما تسميه الرواة - الى قريش من يخبرهم بأنه
لم يأت لحربهم ، وانما أتى لهم البيت ، فلان لم يعرضوا له بحرب فلا حاجة له

سورة الفيل

بدمانهم .. وما ان هم أبرهة بهدم البيت حتى أرسل الله عليه وعلى جيشه أسراباً من الطير ترميهم بحصى صغيرة لا تصيب أحداً منهم إلا أصيب بمرض الجذري يتناثر منه اللحم ويتساقط ، فذعر الجيش وصاحبه ، ورحلوا هاربين ، وقد أصيب أبرهة بهذا الداء ، ومات في صنعاء .

وقال الدكتور طه حسين في كتاب « مرآة الاسلام » : « وفي هذه الموقعة أظهر عبد المطلب من الصبر والجلد ، ومن الشجاعة والثقة ما لم يظهره غيره من أشراف قريش ، ذلك انه قد أشار على قريش ان تخلي مكة ، فسمع له قومه ، وأقام هو بمكة لم يعتزلها ، وانما أقام عند الكعبة يدعو الله ويستصره . ويقول الرواة : ان الجيش أغار على لابل قريش فاحتازها ، وجاء عبد المطلب الى أبرهة ، ولما دخل عليه لم يكلمه إلا في لابل له ، فصفر في نفس ابرهة ، وقال له : كنت أظن انك تكلمني في شأن مكة وشأن هذا البيت الذي تعظمونه . قال عبد المطلب : إنني اكلمك في مالي الذي أملكه ، أما البيت فإن له رباً يحميه إن شاء . فأرسل الله على ابرهة وجيشه من تلك الطير التي رمتهم بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول ، وعادت قريش الى مكة ، فازداد لإكبارهم لعبد المطلب وشجاعته وثقته وثباته » .

المعنى :

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) ؟ . الخطاب لرسول الله (ص) والاستفهام لتقرير الواقع أي انك تعلم يا محمد ما صنع الله بأصحاب الفيل ، وهم الأحباش الذين أشرنا الى قصتهم ، والقصد من هذا الخطاب هو تسلية الرسول بأن الذي أهلك أصحاب الفيل قادر على اهلاك المكذبين برسالة محمد (ص) . (ألم يجعل كيدهم في تضليل) . الكيد والمكر بمعنى واحد ، وهو تدبير السوء في الخفاء ، والمراد بالتضليل هنا التضييع ، يقال : ضلل كيده اذا جعله ضائعاً ، والمعنى ان الأحباش دبروا السوء لبيت الله الحرام ، ولكن الله سبحانه ضيع كيدهم وخيب سعيهم (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) أي جماعات ، قال المفسرون والرواة : جاءت طيور صغيرة من جهة البحر فوجاً بعد فوج (ترميهم بحجارة من سجيل)

وهو الطين المتحجر (فجعلهم كعصف مأكول) . العصف ورق الشجر سمي بذلك لأن الريح تعصف به اذا قطع ، ومأكول أي كالذي تأكله الدواب .

وقال الشيخ محمد عبده : « فيجوز لك أن تعتقد ان هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وان تكون هذه الحجارة من الطين المسموم الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه ، فأثار تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه » .

ويلاحظ بأن قوله : « يجوز لك أن تعتقد ان هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب .. وان هذه الحجارة من الطين المسموم » ان هذا القول يفتقر الى الحجة لأن القطع لا يكون علماً وحقاً إلا اذا استند الى دليل قاطع أو عيان ومشاهدة على حد تعبير الشيخ محمد عبده ، ولو قال : يجوز لك أن تتحمل لكان أقرب الى الصواب .. أما نحن فنأخذ بظاهر النص كما فعل المسلمون الأولون ما دام العقل لا يأباه .

سُورَةُ قُرَيْشٍ

٤ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قُرَيْشٍ * إِيَّاهُ يَرْجُونَ رَحْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا
الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ *

الإعراب :

من جعل هذه السورة وسورة الفيل واحدة قال : لإيلاف قريش يتعلق بقوله تعالى : « فجعلهم ، في آخر السورة السابقة أي ان الله أهلك اصحاب الفيل لتطمئن قريش في بلدها ، ومن جعلها سورة مستقلة قال : لإيلاف قريش يتعلق بـ « فليعبدوا ، او يحذوف أي اعجبوا لإيلاف قريش . وإيلافهم بدل من إيلاف قريش . ورحلة مفعول إيلافهم . فليعبدوا مجزوم بلام الأمر . والذي أطعمهم صفة لرب هذا البيت .

المعنى :

اختلفوا : هل هذه السورة مستقلة عن سورة الفيل ، او هما سورة واحدة ؟ قال الحفاظ محمد بن احمد الكلبي في تفسير التسهيل : « ويؤيد القول بأنهما سورة واحدة انهما في مصحف أبي بن كعب كذلك لا فصل بينهما ، وقد قرأهما عمر في ركعة واحدة من المغرب » . ويتفق هذا مع قول الشيعة الإمامية ، وقال صاحب الظلال : « هذه السورة تبدو امتداداً لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوهرها » .

(لإيلاف قريش) . الإيلاف هو الأيناس ضد الإبحاش ، وقريش اسم لقبائل عربية من ولد النضر بن كنانة ، وفي بعض التفاسير : إن قريشاً تصغير قرش ، وهي التجارة ، سموا بذلك لأنهم كانوا يتجرون ، ويومئذ إلى ذلك قوله تعالى : (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) . كان سكان مكة في القرن السادس للمسيح ثلاث فئات : الأولى قريش ، ولها كل الحقوق . الثانية حلفاء قريش وهم أناس من العرب . الثالثة العبيد الذين لا يملكون شيئاً حتى أنفسهم ، وكان لقريش رحلتان للتجارة : إحداهما إلى اليمن في الشتاء ، والثانية إلى الشام في الصيف ، وكانوا يذهبون في تجارتهم آمنين ، ويعودون سالمين لا معهم أحد بأذى لأنهم سكان مكة وجيران بيت الله الحرام كما قال المفسرون ، أو كما نظن نحن من أن

العرب لا غنى لهم عن الحج إلى مكة ، فإذا تعرضوا لقوافل قريش اقتصوا منهم حين يحجون إلى بلدهم .

ويقول الرواة : ان محمداً (ص) ذهب ذات عام مع عمه أبي طالب في تجارة إلى الشام . وكان في الثانية عشرة من عمره الشريف ، وان عمه لم يكد يبلغ مشارف الشام حتى عاد به مسرعاً إلى مكة ، لأن راهباً من رهبان النصارى أوصاه بأن يحرقه في مكة من مكر اليهود والنصارى .. وأيضاً قال الرواة: ان محمداً (ص) خرج مع عمه الزبير إلى اليمن في رحلة الشتاء ، وكان قد جاوز العشرين بقليل.. كان هذا قبل أن يخرج إلى الشام بمال خديجة .

(فليعبدوا رب هذا البيت) الضمير يعود إلى قريش ، بأمرهم الله سبحانه بترك الأصنام وعبادة الواحد الأحد (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) . يذكر سبحانه بهذه الآية طغاة قريش الذين عبدوا الأصنام من دون الله، وكذبوا نبيه الكريم محمداً ، يذكرهم بحادث القيل كيف أنجاهم من ابرهة وجيشه ولولا فضله تعالى لكانوا هم العصف المأكول دون أصحاب القيل . وأيضاً يذكرهم تعالى بما أنعم عليهم من الرزق بسبب الرحلتين ولولا هما لهلكوا جوعاً لأنهم بوادٍ غير ذي زرع ، وفوق ذلك كله جعلهم آمنين مطمئنين على أموالهم وأرواحهم في حلهم وترحالهم ، ولولا فضله عز وجل لتمخطفهم الناس من كل مكان .. أبعد هذا كله يعبدون الأصنام ويكفرون بأنعم الله ويتوسلون بسواه ، وبكذبون رسوله العظيم ؟ حقاً ان الانسان لظلوم كفار .

سُورَةُ الْمَاعُونِ

٧ آيات مكية . وقبل غير ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُرُ
عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ *
الَّذِينَ هُمْ رَأَوْنَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ *

الإعراب :

فذلك مبتدأ ، والذي يدع خبر . فويل مبتدأ وللمصلين خبر . الذين هم عن
صلاتهم صفة للمصلين . والذين هم يراهم يدل من الذين الأولى .

المعنى :

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ) . أَرَأَيْتَ أَي هَلْ عَلِمْتَ؟ والصيغة للاستفهام.
ومعناها استنكار ما حدث والخطاب عام للجميع، لأن هذه السورة مجموعها تدل
بوضوح على التآخي بين الدين والعمل وتعتبره جزءاً منه أو لازماً لا ينفك عنه ،
ومن ثم نفت الدين عن الذي يتصف بالردائل التالية :
(فذلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ) . والمراد يبدعه يدفعه عن حقه بعنف أو غير
عنف ، أو يهينه ويؤذيه ، أو يتسلط عليه بنحو من الأنحاء ظلماً وعدواناً، والمراد
باليتم كل ضعيف لا يستطيع الذب عن نفسه، صغيراً كان أم كبيراً . وخص سبحانه
اليتم بالذكر لأنه أضعف من كل ضعيف . والمعنى كل ظالم هو كافر مكذب بدين

الله ، وإن صَلَّيْ وصام لأن دين الله لا تغني فيه المظاهر والشعائر إلا مع التقوى والكف عن المحارم .. أجل ، من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله يعامل في الدنيا معاملة المسلم ، ولكن حكمه في الآخرة حكم الكافر . أنظر تفسير الآية ٥٥ من سورة الفرقان ج ٥ ص ٤٧٨ .

(ولا يحض على طعام المسكين) . المراد بالحض هنا التعاون مع الآخرين على الاهتمام بشأن المعوزين والعاطلين عن العمل، والمراد بالمسكين من لا يملك سبيلاً للرزق وسد الحاجة . وتقدم مثله مع التفسير في الآية ٣٤ من سورة الحاقة والآية ١٨ من سورة الفجر .

(فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) . السهو هنا النسيان ، وهذا غير مراد هنا لأن الناسي غير مسؤول عقلاً وشرعاً ، قال الرسول الأعظم (ص) : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان » . اذن ، لا بد من حمل السهو هنا على معنى آخر غير النسيان ، وقد يترس سبحانه هذا المعنى الآخر بقوله : (الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون) أي لا يعبرون الماعون تقريباً الى الله بل يعبرونه رياء الناس ، ومجمل المعنى ان الساهين عن صلاتهم يصلّون ، ولكن نفاقاً وخرفاً من الناس لا من الله .. انهم يريدون حسن الظاهر ، ويخفون القبائح والردائل .. هذا هو شأنهم في جميع أعمالهم ، يتقربون بها الى عباد الله ، ويتباعدون عنه تعالى وعن مرضاته حتى الماعون لا يعبرونه إلا رياءً ونفاقاً .. وبهذا يتضح ان الله سبحانه ذكر الماعون للتمثيل على ريائهم في كل شيء لا في الصلاة فقط بل بأنفه الأشياء أيضاً كإعارة الماعون .

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

٣ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلْ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ *

الإعراب :

الكوثر مفعول ثانٍ لأَعْطَيْنَاكَ . ومفعول انْحَرْ محذوف أي انْحَرْ أَصْحَابَكَ .
و هـ هو ، ضمير فصل .

المعنى :

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) . الكوثر مبالغة في الكثرة ، واختلفوا : ما هو المراد بهذه الكثرة البالغة ، وأقرب الأقوال الى الافهام ما نقله المفسرون عن ابن عباس وسعيد بن جبير من ان المراد بالكوثر هنا جميع نعم الله على رسوله الأعظم لأن لفظ الكوثر يتناول الكثرة الكثيرة التي لا حد ولا حصر لها ، وقيل لسعيد : ان أناساً يقولون : ان الكوثر نهر في الجنة . فقال : هـ إن هذا النهر من الخير الكثير الذي أعطاه الله لمحمد (ص) هـ .. ولكن الطغاة المترفين يستخفون بهذا الكوثر ولا يرونه شيئاً ، ويقولون عن الرسول الأعظم : «لولا أنزل عليه كثر» ١٢-هوده .
(فصلٌ لربك وانحر) . بعد أن ذكر سبحانه نبيه الكريم بما أعطاه من النعم أمره بالشكر ، وأن تكون صلاته ونسكه لله وحده . وفي رواية ان المراد بالانحر هنا رفع اليدين حذاء الوجه عند استقبال القبلة للصلاة (ان شانئكَ هو الأبتَر) .

هذه جملة مستأنفة ، والشأن المفضل من الشأن بمعنى العداوة، واختلفوا في المراد من الأبر ، وأقرب الأقوال ان عدو محمد (ص) هباء لا أثر له ولا ذكر ، أما ذكره (ص) وأثره فباق ببقاء الله، وأكثر المفسرين على ان أحد المشركين قال : محمد أبر لا ولد له ، فأخبر سبحانه ان هذا القائل هو الأبر ، وان كان له أولاد .. ولا مانع من الجمع بين المعنيين .

قال الشيخ محمد عبده : « ان شأن الرسول (ص) لم يكن يشنؤه لشخصه لأن شخصه كان محبباً الى النفوس ، وانما كان الشانوش يشنون ويمقتون ما جاء به من الهدى .. ومن يشأ ما جاء به الرسول ، ويدخل فيما يضمه معنى الأبر اولئك الذين يتركون كتاب الله ، ويمسكون بالظنون وأقوال غير المعصومين .. ويلصقون البدع بالدين ، فإذا ذُكروا بالقرآن لووا رؤوسهم .. فلا عجب ان ترى الغضب الإلهي يتبعهم في كل مكان ، ويقذف بهم من ذلة الى ذلة وهم لا يشعرون بل وبضحكون » .

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

٦ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا
أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ
دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *

المعنى :

قيل ان قوماً من كفار قريش ذهبوا الى النبي (ص) وقالوا له : أنت سيد نبي هاشم وابن ساداتهم ، ولا ينبغي أن تسفه أحلام قومك ، ولكن نعبد نحن إلهك سنة ، وتعبد أنت آلهتنا سنة ، فترلت هذه السورة .

وتسأل : ما هو القصد من هذا التكرار ؟ فإن قوله « لا أعبد ما تعبدون » هو عين قوله : « ولا أنا عابد ما عبدتم » ولا فرق إلا ان هذه جملة اسمية ، وتلك جملة فعلية ، أما قوله : « ولا أنتم عابدون ما أعبد » فقد أعاده بالحرف الواحد ؟ .

وأجابوا عن ذلك بأجوبة ، منها ما ذهب اليه صاحب مجمع البيان ، وهو أن المراد بقوله أولاً : « لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد » أي الآن وفي هذه الحال ، وقوله ثانياً : « ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد » أي في المستقبل ، فالفرق انما هو في الزمان حالاً واستقبالاً ! ويلاحظ بأن كلاً منها يصلح للحال والاستقبال ، والتعليل يحتاج الى دليل .

ومن الأجوبة ما قاله أبو مسلم واختاره الشيخ محمد عبده ، وهو ان « ما » الأولى اسم موصول بمعنى الذي والمراد به نفس المعبود، و « ما » الثانية مصدرية، والمراد بها نفس العبادة ، وعليه يكون المعنى معبودي غير معبودكم ، وعبادتي غير عبادتكم ، وأنا لا أعبد معبودكم ولا عبادتكم ، وأنتم كذلك . ويلاحظ بأنه لا عبادة من غير معبود ، وان ذكر أحدهما يغني عن ذكر الآخر .

ومنها ان هذا تكرار يفيد التأكيد ، وكلما كانت الحاجة الى التأكيد أشد كان التكرار أحسن ، ولا شيء أحوج الى التأكيد من نفي الشرك بالله ، ومن ثم حسن التأكيد . ونحن على هذا الرأي .

(لكم دينكم ولي دين) على حذف باء المتكلم أي ديني ، والمعنى لكم الكفر والشرك ، ولي الاخلاص والتوحيد ، ولا علاقة لي بكم ولا بما تعبدون ، وأنتم كذلك .. وهذا تهديد ووعيد . ومثله « أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون » ٤١ يونس ، ج ٢ ص ١٦٢ .

سُورَةُ النَّصْرِ

٣ آيات مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أُفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً *

الإعراب :

جملة يدخلون حال من الناس أي داخلين ورأيت بصرية تعمل في مفعول واحد ، وهو هنا الناس . وأفواجا حال ثانية .

المعنى :

(إذا جاء نصر الله والفتح) . قال جمهور المفسرين : ان هذه بشارة من الله سبحانه لنبيه الكريم بفتح مكة والنصر على أعداء الله وأعدائه (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) . المراد بدين الله الاسلام ، وأفواجا أي جماعة بعد جماعة ، وزمرة بعد زمرة ، وكان الكثير من أحياء العرب ينتظرون بإسلامهم فتح مكة ، فلما فتحها الله على نبيه عظم أمر الاسلام وانتشر في الجزيرة العربية كلها في أمد قصير ، وخلق الاسلام العرب خلقاً جديداً ، فوحدتهم بعد تفرقهم وأعزهم بعد مذلتهم ، وجعلهم في طليعة الأمم وقادتها الى الخير والصلاح .
(فسبح بحمد ربك واستغفره) . أمر سبحانه نبيه الأكرم بالحمد والتسبيح

سورة النصر

بعد رؤية الفتح والنصر شكراً على أنعمه تعالى ، وتنزيهاً للنفس عن الزهو بالنصر ، والفرحة بالظفر ، وليس من شك ان الغرض من ذلك أن نتخلق بأخلاق القرآن ، ونعظ بأدابه . قال الإمام علي (ع) : اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدره عليه (إنه كان تواباً) . توبة الله على المعصوم معناها الرحمة له والرضوان عنه ، وتوبته على غيره قبولها منه . وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١١٧ من سورة التوبة ج ٤ ص ١١٣ .

وروي ان النبي قال عند نزول هذه السورة : نعت إلى نفسي ، وان ابنته فاطمة عندما سمعت ذلك منه بكت . فقال لها : لا تبكي ، فإنك أول أهلي لحوقاً بي فضحك . وكان الرسول (ص) قد أدرك من هذه السورة دنو أجله ، وانتهاء مهمته بعد حصول النصر والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجا .

سُورَةُ النَّصْرِ

٥ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا
ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ *

الإعراب :

تبت فعل ماضٍ ، ويدا فاعل ، وتب أيضاً فعل ماضٍ . وما أغنى وماه نافية

ومثلها ما كسب . وذات لب صفة نار . وامرأته مبتدأ وحالة خبر . وفي جيلها خبر مقدم ، وجبل مبتدأ مؤخر ، ومن مسد متعلق بمحذوف صفة لجبل .

المعنى :

(تبت يدا أبي لب وتب) . التبتُّ الهلاك، وتبت الأولى دعاء عليه بالهلاك والحسران ، وتبت الثانية إخبار بأنه هالك خاسر لا محالة ، وبدا أبي لب كناية عن شخصه ، مثل « على اليد ما أخذت حتى تؤدي » لأن اليد مظهر القوة وأداة العمل ، وأبو لب هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هشام، فهو عم النبي (ص) ولكنه من أشد الناس عداوة له .. قال المفسرون والرواة : ان النبي (ص) صعد في ذات يوم على الصفا ، ونادى بطون قريش فاجتمعوا ومن جملتهم أبو لب . فقال : أرايتم لو أخبرتكم ان خيلاً بالوادي تريد الغارة عليكم أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقاً . فقال : انا نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لب : ألهذا جمعتنا . نياً لك . فزلت هذه السورة .

(ما أغنى عنه ماله وما كسب) . لا يغني عنه مال ولا جاه ولا أولاد غداة الحساب والجزاء ، فكل ذلك حجة عليه ، وحمرة له (سيصلى ناراً ذات لب) . هذا هو جزاؤه ، وماله جهنم وساءت مصيراً .

(وامرأته حمالة الحطب) . امرأة أبي لب هي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان وعمه معاوية ، والحطب كناية عن الشر والإنم الذي يقودها الى النار، فلقد كانت في غاية العداوة لرسول الله (ص) تمشي بالنميمة عليه بين الناس لاطفاء دعوته ، والمناسبة بين النار والحطب واضحة .. هذا، الى ان العرب يلقيون المقسد التهام محامل الحطب لأنه يوقد نار الفتنة . وقيل : انها كانت تجمع الشوك وتنتره في طريق الرسول الأعظم (ص) (في جيلها جبل من مسد) . الجيد العنق ، والسد الليف .. بعد أن وصفها سبحانه بحمالة الحطب أعطاها هذه الصورة العجيبة : تشد الحطب على رأسها بطرف من الحبل ، وطرفه الآخر في عنقها، فكأن الحطب تاج ، والحبل قلادة .

وتسأل : لقد حارب دعوة الرسول وآذاه كثير من طغاة الشرك كعقبة بن أبي معيط وأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وغيرهم، ومع ذلك لم يصرح القرآن بأسمائهم، فلماذا خص أبا لهب بالذكر وأنزل الله فيه هذه السورة دون غيره؟. وأجاب الشيخ محمد عبده : بأن أبا لهب كان أشهر المعاندين لدعوة الرسول (ص) والممثل الأكبر لهم، وقد تأثر النبي من حركاته، ومن ثم خصه الله بالذكر من دونهم. وختم الشيخ محمد عبده تفسير هذه السورة بقوله : من قال لك : لا يجوز أن تستند في حكم من الأحكام الى كتاب الله وسنة نبيه بالغا ما بلغت من العلم ، بل يجب عليك ان ترجع الى قول فلان ورأي فلان ، من قال لك هذا فهو أبو لهب ، وكل امرأة نمشي بالنسيمة والفساد بين الناس فهي حالة الحطاب في جديها جبل من مسد .

سُورَةُ الْاٰخِلَاصِ

٤ آيات مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ *

الاعراب :

ضمير هو يعود الى خالق الكون ، كأن سائلاً يسأل : من هو الخالق ؟ فأجيب هو الله أحد ، فهو مبتدأ أول ، والله مبتدأ ثانٍ وأحد خبره والجملة خبر الأول . الله الصمد مبتدأ وخبر . وهنا سؤال يطلب الجواب ، وهو لماذا

قال : يلد بلا واو ، ويولد بالواو مع ان كلاهما مضارع مجزوم ؟ وأجاب ابن خالويه - ت ٣٧٠ هـ في كتاب إعراب ثلاثين سورة بأن لم يلد الأصل فيه يولد بكسر اللام، فلما حلت الواو بين ياء وكسرة حذفت لأن الياء تشبه الكسرة ، فإن حلت الواو بين ياء وفتحة أو ياء وضمة لم تحذف مثل يوطئ ويوجل . والواو في يولد حالة بين ياء وفتحة لا بين ياء وكسرة ، ولذا لم تحذف . وأحد اسم يكن ، وكهؤلاً خبرها ، وله متعلق بكهؤ .

المعنى

أصول الاسلام ثلاثة : التوحيد ، والنبوة ، والبعث ، وينفرد عن الأول صفاته تعالى ، وعن الثاني القرآن والشرعة ، وعن الثالث الحساب والجزاء . وهذه السورة الشريفة تقرر الأصل الأول .

(قل هو الله أحد) في ذاته وصفاته وأفعاله ، لا شريك له في شيء ، ولا فعل شيئاً لجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه . وتكلمنا مفصلاً عن التوحيد ونفي الشريك عند تفسير الآية ٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٤ بعنوان « دليل التوحيد والأقانيم الثلاثة » .

(الله الصمد) . ومعناه في اللغة السيد الذي يلجأ اليه في الحاجات والمهمات ، والمراد به هنا الغني عن كل شيء ، ويفتقر اليه كل شيء لأنه خالق الأشياء ومصدرها .

(لم يلد) . هذا رد على من زعم ان لله ابناً أو بنات . قال علماء الكلام : لو كان لله ولد لكان مركباً ، ولكل مركب نهاية بالتحلل أجزائه ، وأصح من هذا وأوضح أن يقال : لو كان لله ولد لكان له شبيه ووارث لأن الولد يشبه والده ويرثه ، ولا شبيه لله ولا وارث . قال الإمام علي (ع) « لم يولد سبحانه فيكون في العز مشاركاً ، ولم يلد فيكون موروثاً وهالكاً » .

(ولم يولد) . هذا رد على من زعم ان في الوجود آلهة مولودين . ولو كان الإلهة مولوداً لكان حادثاً يتبدى وجوده بتاريخ ولادته . قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : « لم يلد فيكون مولوداً ، ولم يولد فيصير محدوداً » أي تكون بداية وجوده من يوم ولادته .

(ولم يكن له كفواً أحد) لا في وجوده وذاته ، ولا في صفاته وأفعاله..
وقد راجعت عشرات المصادر ، وأنا أفسر هذه السورة ، من كتاب الأسفار
للملا صدرا والمواقف للإيجي الى أبسط التفسير كاليفضاوي ، ودققت فيها طويلاً
لاختار أفضلها ، فما وجدت أخصر وأصدق وأوضح من قول الإمام الحسين (ع)
فقد سأله أهل البصرة عن معنى الصمد ؟ فقال : ان الله سبحانه قد فسر الصمد
بقوله : « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » . وعلى هذا التفسير المختصر
المفيد يسوغ لنا أن نقول : معنى الله أحد : انه الصمد ، ومعنى الصمد انه لم
يلد ولم يولد ، ومعنى لم يلد ولم يولد : انه لم يكن له كفواً أحد .

سُورَةُ الْفَلَقِ

ه آيات مكية وقيل غير ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ *
وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ *

المعنى :

(قل أعوذ برب الفلق) . فلق الشيء أي شقه ، ويطلق الفلق على الخلق
كله ، لأن الله سبحانه نقله من العدم الى الوجود ، فكأنه كان مستوراً فكشف
عنه ، وأيضاً يطلق الفلق على الصبح لأنه يزيل الظلام ويحل مكانه ، وهو المراد

هنا عند أكثر المفسرين ، ويؤيده ما جاء في الآية ٩٦ من سورة الأنعام : قالق
الأصباح وجعل الليل سكناً ، ومهما يكن فإن الله سبحانه هو رب الصبح والخلق
كله .. وقد أمر نبيه الكريم ان يعصم به (من شر ما خلق) أي من شر كل
ذي شر انساناً كان أم غير انسان .. وما من مخلوق إلا وفيه الأهلية التامة للخير
والشر ، قوة موجبة وأخرى سالبة ، ولا شيء في الوجود خير محض بذاته إلا
خالق الوجود . أنظر ج ٢ ص ٣٨٤ فقرة : ليس بالامكان أبدع مما كان . ..
وبعد أن أمر سبحانه نبيه الأكرم أن يتعوذ من شر كل ذي شر خص بالذكر ما
أشار اليه فيما يلي :

(ومن شر غاسق اذا وقب) . الغاسق هو الليل المظلم، والوقب هنا الدخول،
والمراد بشرّ الليل ما يحدث فيه من مكروه كتنفيذ الدسائس والمؤامرات ، والسرقة
والاغتياالات ، والفسق والفجور ، وما الى ذلك من شرّ يُدبر بليل .

(ومن شر النفاثات في العقد) . ليس المراد بالنفاثات هنا الساحرات أو
جهاغات السحرة ذكوراً واناثاً كما قال كثير من المفسرين .. كلا، وانما المراد كل
مشعوذ محتال يتاجر بالشعارات والمبادئ سواء أنفث في العقد مدعيّاً تسخير الجن
كذباً ونفاقاً ، أم لم ينث .. وخص سبحانه النفاثات بالذكر لأنها مظهر المشعوذة
وعنوان النفاق .

وروى الرواة عن عائشة ان يهودياً اسمه لييد بن الأعصم سحر النبي (ص)
وأثر فيه سحره حتى كان يخيل له ان يفعل الشيء وهو لا يفعله ، وان هذه
السورة والتي بعدها نزلت في ذلك . وهذه الرواية يجب طرحها شرعاً وعقلاً ،
أما عقلاً فلأن النبي معصوم لا ينطق إلا بالوحي ، فيستحيل ان يخيل له انه يوحى
اليه ولا يوحى اليه ، وأما شرعاً فلأن الله سبحانه قد كذب السحر وأهله حيث
قال عز من قائل ، : يخيل اليه من سحرهم انها تسمى - الى قوله - ولا يفلح
الساحر حيث أتى - ٦٦ طه . وأيضاً كذب المشركين الذين وصفوا النبي بالمسحور:
« إذ يقول الظالمون ان تتبعون إلا رجلاً مسحوراً » - ٤٧ الإسراء . أنظر ما
كتبناه عن السحر وحكمه في ج ١ ص ١٦٤ وفي ج ٣ ص ٣٧٩ بعنوان « حول السحر » .
ومن الطريف ما نقله الشيخ محمد عبده عن كثير من المقلدين على حد تعبيره ،
حيث قالوا : لقد صح الخبر بتأثير السحر في نفس رسول الله (ص) ومن أنكر

ذلك فقد أبدع في الدين لأن القرآن قد جاء بصحة السحر ، وعلق الشيخ محمد عبده على ذلك بقوله : فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح الى بدعة عند المقلدين ، ويحتجون بالقرآن الذي نفى السحر على ثبوت السحر وتأثيره في رسول الله تماماً كما قال المشركون عنه : انه رجل مسحور .

(ومن شر حاسد إذا حسد) . الحاسد هو الذي يتمنى زوال النعمة عن أهلها ، وان تكون له من دونهم . وفي الحديث المنافق يحسد ، والمؤمن يغبط أي يتمنى أن يكون له من النعمة مثل ما لأخيه ، ولا يتمنى زوالها عنه . والحسد من أهيات الكثير من الرذائل كالحقد واللؤم والكذب والغيبة والنميمة والمكر والخداع والسعي بكل سبيل لازالة النعمة عن المحسود ، ومن هنا أمر الله سبحانه نبيه الكريم ان يتعوذ من شر الحاسد ، وبهذا يتضح ان المراد من شره سوء مقاصده وأفعاله وأقواله ، لا نظرات عينيه وإضرارها بالمحسود كما قال أكثر المفسرين . ومن الطريف ما ذكره بعضهم في تفسيره ان رجلاً كان مشهوراً بإصابة العين ، حتى كان الناس يستأجرونه لهذه الغاية ، وفي ذات يوم استأجرته امرأة ليحسد عدواً لها ويقتله بعينه ، وصحبته الى الرجل ، وقالت له : هذا هو فاحسده . فقال لها الحاسد : ما أجمل عينيك ! فما أتم كلامه حتى عمت .

سُورَةُ النَّاسِ

٦ آيات مدنية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ *

الإعراب :

ملك الناس عطف بيان لرب الناس، ومثله إله الناس . والخناس صفة للوسواس، ومثله الذي يوسوس .

المعنى :

(قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس) . الخطاب للنبي (ص) ، والمراد به الناس لأن النبي لا يلجأ ولن يلجأ إلا إلى الله وحده . وكلمة الرب تطلق على المالك والسيد والمنعم ، وكلمة الملك على المهيمن والمتصرف والقادر ويطلق الإله على الخالق والمبدع والمصور والقابض والباسط . والله سبحانه خالق الناس والمنعم عليهم والمتصرف بهم والمدير لشؤونهم ، فجدير بهم أن يعبدوه ويعتصموا به وحده .

وتسأل : أليس الله خالق كل شيء ، ومالك كل شيء . فلماذا خص الناس بالذكر ؟

الجواب : لأن الناس هم الذين ارتابوا بخالقهم ، وكفروا بأنعمه واستعانوا بغيره ، أو كانوا أكثر طغياناً من سائر المخلوقات على وجه العموم ، فخصهم سبحانه بالذكر لعلمهم بهتدون .

(من شر الوسواس) . الوسواس بفتح الواو اسم مصدر بمعنى الوسوسة ، وهو الصوت الخفي الذي لا يحس ، وبكسر الواو مصدر ، والفرق بين المصدر واسم المصدر أن الأول يُنظر إليه نسبة الفعل إلى فاعل ، واسم المصدر لا ينظر إلى الفاعل بل إلى الفعل فقط وبصرف النظر عن الفاعل ، وعلى أية حال فإن المراد بالوسوسة هنا ما يُحكك في النفس من الأفكار السوداء التي تصد عن الحق وسبيله .. وما من أحد ينجو من حديث النفس ووسوستها إلا من عصم الله ، وهو سبحانه لا يؤاخذ العباد على الوسوسة إلا إذا انعكست على قول أو فعل ، قال الرسول الأعظم (ص) : « لكل قلب وسواس ، فإذا فتق الوسواس حجاب القلب ، ونطق به اللسان أخذ به العبد ، وإذا لم يفتق الحجاب ولم ينطق به

سورة الناس

اللسان فلا حرج . (الخناس) من خنس اذا تأخر وتنحى ، والمراد بهذا الوصف هنا ان الانسان اذا تنبه للوسوسة الشيطانية ، وتعوذ بالله منها مخلصاً ذهب عنه واختفت .

(الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس) . ظاهر الآية يدل بوضوح ان الموسوس اليه نوع واحد ، وهم الناس فقط ، أما الذي يوحى بالوسوسة فنوعان : أحدهما من الجن والآخر من الانس ، ووسوسة انسي "لإنسي" مثله أن يزين له الجريمة ويغريه بها ، وهذا واضح وكثير ، أما كيف يوسوس جني "لإنسي" فاقه أعلم .. وقد يكون المراد بوسوسة الجن للانس حديث النفس الذي ينبع من داخلها لا من أقوال الآخرين .. وأياً كان مصدر الوسوسة فإن على العبد أن يلجأ الى ربه ويعتصم به وحده من كل شر سواء أكان من نفسه أم من غيره .

وكان الفراغ من هذا التفسير مساء ١٥ جادى الآخرة من سنة ١٣٩٠ هـ الموافق ١٨ آب سنة ١٩٧٠ م ، وقد استغرق حوالي أربع سنوات من العمل المتواصل ليل نهار .

والحمد لله الذي أعانني على تفسير قرآنه ، وسهّل عليّ توضيح بيانه ، وهو سبحانه وحده المسؤول أن يجعلني من المعتصمين بحبله ، ويجعله لي ذخيرة ليوم تذخر له الذخائر ، وتبلى فيه السرائر ، وان يزيدني من فضله وإحسانه .. انه منّان كريم . والصلاة على محمد وآله الطيبين .

الفهرست

سورة الدخان

٥	إنا أنزلناه في ليلة مباركة الآية ١ - ٩
٧	يوم تأتي السماء بدخان مبين الآية ١٠ - ٢١
٩	هؤلاء قوم مجرمون الآية ٢٢ - ٣٣
١٢	أهم خسر أم قوم تبع الآية ٣٤ - ٤٢
١٤	طعام الأثيم وطعام المتقين الآية ٤٣ - ٥٩

سورة الجاثية

١٧	إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين الآية ١ - ٦
١٩	ويل لكل أفاك أثيم الآية ٧ - ١٥
٢٢	أيضاً بنو اسرائيل الآية ١٦ - ٢٠
٢٤	ضربت الذلة على اسرائيل بحكم التوراة
٢٦	اتخذ إلهه هواه الآية ٢١ - ٢٦
٣٠	كل أمة تدعى الى كتابها الآية ٢٧ - ٣١
٣٢	اليوم ننساكم الآية ٣٢ - ٣٧

سورة الأحقاف

٣٧	أين الدليل إن كنتم صادقين الآية ١ - ٦
٣٩	الوثنية في عصر الفضاء

٤٠	أم يقولون أفترأه الآية ٧ - ١٢
٤٣	وحله وفصاله ثلاثون شهراً الآية ١٣ - ١٦
٤٧	قال لوالديه أف لكما الآية ١٧ - ٢٠
٥٠	هود الآية ٢١ - ٢٨
٥٣	الجن يستمعون القرآن الآية ٢٩ - ٣٢
٥٦	أليس هذا بالحق الآية ٣٣ - ٣٥

سورة محمد

٥٩	وآمنوا بما نزل على محمد الآية ١ - ٦
٦٢	ان تنصروا الله ينصركم الآية ٧ - ١٤
٦٤	الدولة الإسلامية
٦٧	صفة الجنة الآية ١٥ - ١٩
٧١	طاعة وقول معروف الآية ٢٠ - ٢٣
٧٣	أفلا يتدبرون القرآن الآية ٢٤ - ٣١
٧٦	ولا تبطلوا أعمالكم الآية ٣٢ - ٣٨
٧٨	القرآن وسياسة الحرب

سورة الفتح

٨٢	إنا فتحنا لك الآية ١ - ٥
٨٥	وبعذب المنافقين الآية ٦ - ٩
٨٦	بيعة الرضوان تحت الشجرة الآية ١٠ - ١٤
٨٧	خلاصة القصة
٨٩	المخلفون من الاعراب
٩١	ذرونا نتبعكم الآية ١٥ - ١٧
٩٣	اذ يبايعونك تحت الشجرة الآية ١٨ - ٢٤
٩٧	وصلوكم عن المسجد الحرام الآية ٢٥ - ٢٦
٩٩	رؤيا الرسول الآية ٢٧ - ٢٩
١٠٢	الصحابة والقرآن
١٠٤	هل الاثنا عشرية باطنيون ؟

سورة الحجرات

١٠٦	لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي الآية ١ - ٥
١٠٨	ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا الآية ٦
١١٠	الله حبيب اليكم الايمان الآية ٧ - ٨
١١٢	وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا الآية ٩ - ١٠
١١٤	الاخوة الدينية والاخوة الانسانية
١١٥	لا يسخر قوم من قوم الآية ١١
١١٦	كيف تكسب الأصدقاء ؟
١١٨	الظن والتجسس والغيبة الآية ١٢
١١٨	الظن
١٢٠	التجسس
١٢١	الغيبة
١٢٢	أكرمكم عند الله أتقاكم الآية ١٣ - ١٨

سورة قى

١٢٧	والقرآن المجيد الآية ١ - ١١
١٢٩	شبهة الآكل والمأكول
١٣١	أفعمينا بالخلق الأول الآية ١٢ - ٢٢
١٣٣	مناع للخير الآية ٢٣ - ٣٥
١٣٧	يوم ينادي المنادي الآية ٣٦ - ٤٥

سورة الذاريات

١٤١	والذاريات ذروا الآية ١ - ١٤
١٤٣	حق السائل والمحروم الآية ١٥ - ٣٠
١٤٦	الله والمعرفة الحسية
١٥٣	فما خطبكم أيها المرسلون الآية ٣١ - ٤٦
١٥٥	ومن كل شيء خلقنا زوجين الآية ٤٧ - ٦٠

سورة الطور

١٦٠	والطور الآية ١ - ١٦
١٦٢	أهل الجنة الآية ١٧ - ٢٨
١٦٥	لا عذر لمن أنكر نبوة محمد الآية ٢٩ - ٤٤
١٦٩	فذرهم حتى يلاقوا يومهم الآية ٤٥ - ٤٩
	سورة النجم
١٧٢	رآه .. عند سكرة المنتهى الآية ١ - ١٨
١٧٣	فكان قاب قوسين
١٧٦	اللات والعزى ومناة الآية ١٩ - ٢٦
١٧٨	الظن لا يغني عن الحق الآية ٢٧ - ٣٢
١٨١	ليس للإنسان إلا ما سعى الآية ٣٣ - ٤١
١٨٣	انى ربك المنتهى الآية ٤٢ - ٦٢
١٨٥	المادة والحياة

سورة القمر

١٨٨	وانشق القمر الآية ١ - ٨
١٩١	نوح الآية ٩ - ١٧
١٩٣	هود وصالح الآية ١٨ - ٣٢
١٩٦	لوط الآية ٣٣ - ٤٤
١٩٩	كل شيء خلقناه بقدر الآية ٤٥ - ٥٥
٢٠١	كل شيء بمقدار

سورة الرحمن

٢٠٣	خلق الانسان علمه البيان الآية ١ - ١٣
٢٠٦	كل يوم هو في شأن الآية ١٤ - ٣٠
٢٠٩	الله والانسان وابن عربي
٢١٠	لا تنفون إلا بسلطان الآية ٣١ - ٤٥
٢١٣	هل جزاء الاحسان إلا الاحسان الآية ٤٦ - ٧٨
٢١٥	الأجر حق والزيادة تفضل

سورة الواقعة

٢١٨	إذا وقعت الواقعة الآية ١ - ٢٧
٢٢١	أصحاب اليمين الآية ٢٨ - ٤١
٢٢٣	أصحاب الشمال الآية ٤٢ - ٥٧
٢٢٥	أفرايم ما نحرثون الآية ٥٨ - ٧٥
٢٢٩	لا يمسه إلا المطهرون الآية ٧٦ - ٩٦
٢٣٢	الاسلام وقادة الفكر الأوروبي

سورة الحديد

٢٣٧	هو الأول والآخر الآية ١ - ٦
٢٤٠	وانفقوا مما جعلكم خلفاء فيه الآية ٧ - ١١
٢٤٣	باطنه الرحمة وظاهره العذاب الآية ١٢ - ١٥
٢٤٧	ألم يأن للذين آمنوا الآية ١٦ - ١٩
٢٥٠	الحياة الدنيا لعب ولهو الآية ٢٠ - ٢٤
٢٥٢	المصائب وصاحب الظلال
٢٥٤	الحديد فيه بأس شديد الآية ٢٥ - ٢٩

سورة المجادلة

٢٦٣	الظهار الآية ١ - ٤
٢٦٤	ماخص القصة
٢٦٦	النجوى الآية ٥ - ١٠
٢٧٠	فافسحوا ففسح الله لكم الآية ١١ - ١٣
٢٧٢	صدر المجلس
٢٧٤	اتخذوا إيمانهم جنة الآية ١٤ - ١٩
٢٧٦	لاغلبن أنا ورسلي الآية ٢٠ - ٢٢

سورة الحشر

٢٨٠	سبح لله الآية ١ - ٥
٢٨١	ملخص قصة بني النضير
٢٨٣	الدعايات المفضلة والوقت المناسب

- ٢٨٤ كيلا يكون دولة بين الأغنياء الآية ٦ - ٨
 ٢٨٨ ويؤثرون على أنفسهم الآية ٩ - ١٥
 ٢٩٢ فلما كفر قال اني بريء منك الآية ١٦ - ٢٠
 ٢٩٤ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل الآية ٢١ - ٢٤

سورة الممتحنة

- ٢٩٧ لا تتخذوا عديي وعدوكم أولياء الآية ١ - ٣
 ٢٩٨ ملخص القصة
 ٢٩٩ أسوة حسنة في ابراهيم الآية ٤ - ٧
 ٣٠٢ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم الآية ٨ - ٩
 ٣٠٣ الدول الصديقة والمعادية
 ٣٠٥ اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات الآية ١٠ - ١١
 ٣٠٨ اذا جاءكم المؤمنات ببائعتك الآية ١٢ - ١٣

سورة الصف

- ٣١١ كأنهم بنيان مرصوص الآية ١ - ٦
 ٣١٤ تحريف التوراة والانجيل
 ٣١٦ والله مَنَّ نوره الآية ٧ - ١٤

سورة الجمعة

- ٣٢١ بعث في الأميين رسولا الآية ١ - ٤
 ٣٢٣ كمثل الحمار يحمل أسفارا الآية ٥ - ٨
 ٣٢٦ صلاة الجمعة الآية ٩ - ١١

سورة المنافقين

- ٣٢٩ هم العدو فاحذرهم الآية ١ - ٦
 ٣٣٢ ليخرجن الأعز منها الأذل الآية ٧ - ١١

سورة التغابن

- ٣٣٦ فنكم كافر ومنكم مؤمن الآية ١ - ٦

- ٣٣٨ ذلك يوم التغابن الآية ٧ - ١٣
 ٣٤٢ عداوة الأزواج والأولاد الآية ١٤ - ١٨
 سورة الطلاق
 ٣٤٦ فطلقوهن لعلهن الآية ١ - ٥
 ٣٥٣ لينفق ذو سعة الآية ٦ - ٧
 ٣٥٦ وكأين من قرية الآية ٨ - ١٢
 ٣٥٨ سبع سموات ومن الأرض مثلهن
 سورة التحريم
 ٣٦٠ لم تحرم ما أحل الله لك الآية ١ - ٥
 ٣٦١ ما يخص القصة
 ٣٦٤ وقودها الناس والحجارة الآية ٦ - ٩
 ٣٦٧ امرأة نوح وامرأة لوط الآية ١٠ - ١٢
 سورة الملك
 ٣٧٣ تبارك الذي بيده الملك الآية ١ - ١١
 ٣٧٧ فامشوا في مناكبها الآية ١٢ - ١٩
 ٣٨٠ يمشي مكباً على وجهه الآية ٢٠ - ٣٠
 سورة القلم
 ٣٨٥ ما أنت بمجنون الآية ١ - ١٦
 ٣٨٩ فأصبحت كالصريم الآية ١٧ - ٣٣
 ٣٩٣ أفنجعل المسلمين كالمجرمين الآية ٣٤ - ٤٣
 ٣٩٦ فذرني ومن يكذب الآية ٤٤ - ٥٢
 سورة الحاقة
 ٤٠٠ الحاقة ما الحاقة الآية ١ - ١٨
 ٤٠٤ حملة العرش
 ٤٠٥ يا ليتها كانت الفاضية الآية ١٩ - ٣٧
 ٤٠٨ ما تبصرون وما لا تبصرون الآية ٣٨ - ٥٢

سورة المعارج

- ٤١٢ مقدارہ ٥٠ ألف سنة الآية ١ - ١٨
٤١٤ الشيطان والبحث عن الغيب
٤١٦ من هم المصلون الآية ١٩ - ٣٥
٤١٩ فخرهم بخوضوا ويلعبوا الآية ٣٦ - ٤٤

سورة نوح

- ٤٢٣ دعوت قومي لبلاّ ونهاراً الآية ١ - ١٢
٤٢٦ الامان والرخاء
٤٢٨ خلقكم اطواراً الآية ١٣ - ٢٠
٤٢٩ ولا نفرن وداً ولا سواهاً الآية ٢١ - ٢٨

سورة الجن

- ٤٣٣ استمع نفر من الجن الآية ١ - ٧
٤٣٦ وإنا لمسناء السماء الآية ٨ - ١٧
٤٤٠ إن المساجد لله الآية ١٨ - ٢٨

سورة المزمل

- ٤٤٤ يا أيها المزمل الآية ١ - ٩
٤٤٦ شخصية الرسول الأعظم
٤٤٨ واهجرهم هجرأً جميلاً الآية ١٠ - ١٩
٤٥٠ فاقراءوا ما تيسر من القرآن الآية ٢٠

سورة المدثر

- ٤٥٤ يا أيها المدثر الآية ١ - ١٠
٤٥٧ ذرني ومن خلقت وحيداً الآية ١١ - ٣١
٤٥٩ ملخص القصة
٤٦٣ وكنا نخوض مع الخائضين الآية ٣٢ - ٥٦

سورة القيامة

- ٤٦٨ نسوي بنانه الآية ١ - ١٩
٤٧١ بل تحبون العاجلة الآية ٢٠ - ٤٠

سورة الانسان

- ٤٧٦ هل أنى على الانسان الآية ١ - ٦
٤٨٠ ويطعمون الطعام على حبه الآية ٧ - ٢٢
٤٨٤ إن هؤلاء يحبون العاجلة الآية ٢٣ - ٣١

سورة المرسلات

- ٤٨٨ والمرسلات عرفاً الآية ١ - ٢٨
٤٩١ إلى ظل ذي ثلاث شعب الآية ٢٩ - ٥٠

سورة النبا

- ٤٩٧ عجم يتساءلون الآية ١ - ١٦
٤٩٩ يوم الفصل الآية ١٧ - ٣٠
٥٠٢ إن للمتقين مفازاً الآية ٣١ - ٤٠

سورة النازعات

- ٥٠٥ والنازعات عرفاً الآية ١ - ١٤
٥٠٨ هل أنك حديث موسى الآية ١٥ - ٣٣
٥١١ الطامة الطبرى الآية ٣٤ - ٤٦

سورة عبس

- ٥١٤ عبس وتولى الآية ١ - ١٦
٥١٥ من هو العابس ؟
٥١٨ قتل الانسان ما أكفره الآية ١٧ - ٤٢

سورة التكوين

- ٥٢٣ إذا الشمس كورت الآية ١ - ١٤
٥٢٥ الخنس والكنس الآية ١٥ - ٢٩

سورة الانفطار

سورة المطففين

- ٥٣٣ ويل للمطففين الآية ١ - ١٧
٥٣٦ ختامه مسك الآية ١٨ - ٣٦

سورة الانشقاق

- ٥٣٩ إذا السماء انشقت الآية ١ - ١٥
٥٤١ فلا اقسم بالشفق الآية ١٦ - ٢٥

سورة البروج

- ٥٤٨ سورة الطارق

- ٥٥١ سورة الأعلى

- ٥٥٥ سورة الغاشية

- ٥٥٩ سورة الفجر

- ٥٥٩ والفجر وليل عشر الآية ١ - ١٦

- ٥٦٢ ونحبون المال حباً جماً الآية ١٧ - ٣٠

سورة البلد

- ٥٦٩ سورة الشمس

- ٥٧٠ النفس وتسويتها

- ٥٧٣ سورة الليل

- ٥٧٧ سورة الضحى

- ٥٨٠ سورة الانشراح

- ٥٨٣ سورة التين

- ٥٨٥ سورة العلق

- ٥٨٨ المال والطغيان

- ٥٩٠ سورة القدر

٥٩٣	سورة البينة
٥٩٧	سورة الزلزلة
٥٩٩	سورة العاديات
٦٠٢	سورة القارعة
٦٠٣	سورة التكاثر
٦٠٥	سورة العصر
٦٠٧	سورة الهمزة
٦٠٩	سورة الفيل

ملخص القصة

٦١١	سورة قريش
٦١٤	سورة الماعون
٦١٦	سورة الكوثر
٦١٧	سورة الكافرون
٦١٩	سورة النصر
٦٢١	سورة تبت
٦٢٣	سورة الاخلاص
٦٢٤	سورة الفلق
٦٢٦	سورة الناس

الفهرس